

مساقات

فني اللغة والأدب والنقد والدراسات البيئية

مجلة علمية دولية محكمة

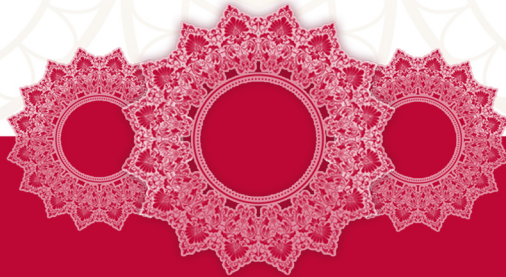
تصدر كل ستة أشهر عن جامعة يحيى فارس بالمدينة - الجزائر

عدد خاص بأعمال المؤتمر الدولي المتخصص
الممارسة النصية في المدونات التراثية العربية
بين التأصيل والإنجاز

المنعقد بتاريخ 27-28 فبراير 2019

المجلد الثاني - العدد الثاني - فبراير 2020

الجزء الثاني



مساقات

فـن اللغة والأدب والنقد والدراسات البيئية



مجلة علمية دولية محكمة

تصدر كل ستة أشهر عن جامعة المدية بالجزائر



عدد خاص بأعمال المؤتمر الدولي المتخصص

الممارسة النصية في المدونات التراثية العربية بين التأصيل والإنجاز

رقم الإيداع القانوني ISSN: 2676-1882

المجلد الثاني - العدد الثاني: جمادى الآخرة 1441هـ الموافق لـ فبراير 2020 م

منشورات جامعة يحي فارس بالمدية
مطبعة الجودة - المدية - الجزائر



مسابقات

فني اللغة والأدب والنقد والدراسات البيئية



الهيئة الاستشارية

أ.د. عبد المالك مرتاض

رئيس المجلس الأعلى للغة العربية سابقا خبير ومحكم دولي في عديد الهيئات والمجلات العلمية.

أ.د. جمعي لخضر

أستاذ تحليل الخطاب-جامعة أبوالقاسم سعد الله-الجزائر.

أ.د. هادي حسن حمودي

مستشار الدراسات العليا - جامعة بورتسموث لندن بريطانيا.

أ.د. حبيب مونسي

جامعة سيدي بلعباس - الجزائر.

أ.د. ماهر مهدي هلال

الكلية الجامعية للأم والعلوم الأسرية عجمان الإمارات العربية المتحدة.

أ.د. عيد بلبع

أستاذ البلاغة والنقد وعميد كلية الآداب سابقا - جامعة المنوفية مصر.

أ.د. محمد السعيد عبدلي

جامعة البليدة 2 الجزائر.

أ.د. عبد الحميد علاوي

عميد كلية الآداب والدراسات الشرقية-جامعة أبوالقاسم سعد الله-الجزائر.

أ.د. فليح مضحي السامرائي

عميد كلية اللغات جامعة المدينة العالمية كوالمبور ماليزيا

أ.د. الطيب لعروسي

معهد العالم العربي باريس.

هيئة تحرير المجلة

الرئيس الشرفي

أ.د. يوسف حميدي رئيس الجامعة

مدير النشر رئيس التحرير

أ.د. مكّي محمد

نائب رئيس التحرير التنفيذي

أ.د. سالم صغير

نائب رئيس التحرير الإداري

أ. ولد العزازي خيرة

أمانة التحرير

أ.د. حنطابلي زوليخة **أ.د. عماد سهام**

الإخراج الفني والتصميم

أ. فؤاد حلوان

أعضاء هيئة التحرير

أ.د. دوالي بلخير **أ.د. مدان حورية**

أ.د. رحمانى أم هاني **أ.د. بشير حورية**

أ.د. دويفي سهام **أ. برادي علي**

مساقات

فـنّ اللغة والأدب والنقد والدراسات البيئية



أعضاء اللجنة العلمية المحكمة

لجنة القراءة والتحكيم دورية ويتم إضافة أسماء أخرى في كل تحيين لأعداد المجلة

- أ.د. نسبية العرفي - جامعة أبو القاسم سعد الله - الجزائر.
أ.د. تومي السعيد - جامعة البليدة 2 - الجزائر.
أ.د. بن عطية كمال - جامعة الجلفة - الجزائر.
أ.د. مريم الترك - كاتبة وإعلامية - لبنان.
أ.د. عبد القادر شارف - جامعة الشلف - الجزائر.
أ.د. عواطف القاسمي الحسني - جامعة المدية - الجزائر.
أ.د. الشادلي سعدودي - جامعة المدية - الجزائر.
أ.د. طيبي أحمد فايزة - جامعة الشلف - الجزائر.
أ.د. عائشة جمعي - جامعة المدية - الجزائر.
أ.د. فايزة حريزي - المركز الجامعي تيبازة - الجزائر.
أ.د. العرابي مراد - جامعة البليدة 2 - الجزائر.
أ.د. خليفة بن عياد - جامعة بومرداس - الجزائر.
أ.د. بوراس سليمان - جامعة المسيلة - الجزائر.
أ.د. العربي ركي - جامعة المدية - الجزائر.
أ.د. محمد خربيش - جامعة المدية - الجزائر.
أ.د. رضا رافع - جامعة محمد بوقرة بومرداس - الجزائر.
- أ.د. جمعي لخضر - جامعة أبو القاسم سعد الله - الجزائر.
أ.د. عيد بلبع - أستاذ البلاغة والنقد وعميد كلية الآداب جامعة المنوفية مصر.
أ.د. أحمد طوران أرسلان - جامعة محمد الفاتح اسطنبول تركيا.
أ.د. محمد زوقاي - جامعة المدية - الجزائر.
أ.د. شنوف ناجي - جامعة المدية - الجزائر.
أ.د. خليفاتي محمد - جامعة المدية - الجزائر.
أ.د. أسامة سليم - جامعة قناة السويس - مصر.
أ.د. عماد أحمد الزين - جامعة الإمارات العربية المتحدة.
أ.د. مريم جبر فريجات - جامعة البلقاء إربد - الأردن.
أ.د. محمد زيدان : ناقد أدبي وكيل وزارة الثقافة سابقا - مصر.
أ.د. نصيرة الغماري - المدرسة العليا للأساتذة - الجزائر.
أ.د. أمينة أدرودور - جامعة الناظور - المغرب.
أ.د. ثناء عياش - الجامعة الهاشمية الأردن.
أ.د. مسعود ناهلية - جامعة المدية - الجزائر.
أ.د. كمال بخوش - جامعة المدية - الجزائر.

مساقات

فـن اللغة والأدب والنقد والدراسات البيئية



هوية مساقات

هي مجلة علمية أكاديمية دولية محكمة، تصدر كل ستة أشهر عن جامعة يحي فارس بالمدينة بدولة الجزائر تعنى باللغة وأدائها وعلومها، وبأنساق المرتبطة بالدراسات اللغوية والبيئية وتلتزم في هذا السياق بنشر الإنتاج المعرفي المتمسم بالجودة والإتقان وتمكين الباحثين والأكاديميين والكتاب من مختلف الدول في العالم من التعبير عن منجزاتهم العلمية، وكذا التواصل المعرفي مع القراء والدارسين، وتطمح المجلة في مسارها الملتزم بالجودة والأداء المتميز أن تحقق اعترافا دوليا يؤهلها إلى مرتبة متقدمة طبقا لمواصفات ومؤشرات التصنيف الدولي وتضع في هذا السياق استراتيجية منهجية مدروسة ومحددة.

اللغات المعتمدة في المجلة

تقبل المجلة المقالات باللغات : العربية، الإنجليزية والفرنسية مع التأكيد على أولوية المساحة المخصصة للدراسات باللغة العربية.

خط المجلة ووجهتها المعرفية

تهتم المجلة بالحقول المعرفية المتاحة في الأنساق اللغوية والأدبية والنقدية والآداب العالمية وتعتمد المرجعيات التراثية وتنتفع على ابتكارات المنجز الحداثي وما بعد الحداث. وتؤمن المجلة بمبدأ الحوار بكل محدداته ومستوياته وكذا التعدد الثقافي، و التسامح الفكري والتواصل مع الآخر في تشاركية تفضي إلى تنوع المخرجات التي تسهم في بناء المعرفة وترقية القيم الحضارية والإنسانية.

مسؤولية المجلة

1/ الأفكار والآراء الواردة بالمجلة تعبر عن رأي الكاتب صاحب المقال ولا تعبر عن رأي إدارة المجلة .
2/ تلتزم المجلة بحظر نشر أي مادة تحرض على العنصرية وتدعو إلى ثقافة الكراهية وتعرض للأديان وتروج للفكر الطائفي ، وتمس بحقوق الإنسان وتجرح في الأشخاص والهيئات ، ولا تتعامل المجلة مع كل مؤلف توجي منشوراته بهذه المواصفات.

مساقات

فـنّ اللغة والأدب والنقد والدراسات البيئية



أهداف المجلة

- نشر الدراسات العلمية الجيدة والمتقنة في الحقول المحددة وتوفير منصة علمية جادة للباحثين والأكاديميين من مختلف الدول.
- استثمار الكفاءات العلمية وتوجيهها في السياق الذي يمكن من الاستفادة الجماعية من المعارف المتاحة.
- إعادة قراءة المنجزات التراثية العربية واستقراء المدونات القديمة وتعميق مقولاتها وتثمين موادها
- مواكبة المنجزات اللغوية والأدبية والنقدية الراهنة وتمثلها ، وتشخيص الفرضيات والنظريات المعرفية ووضعها موضع النقاش المنهجي الهادف.
- التطلع المدروس لتحقيق موقع في التصنيفات العالمية التي تعتمد مؤشرات الجودة والتميز.

إجراءات التحكيم في المجلة

- 1/ يرصد لتحكيم المواد العلمية المقدمة للمجلة كفاءات علمية متخصصة من مختلف الدول.
- 2/ تكون لجنة القراءة والتحكيم دورية وقد يتم إضافة أسماء أخرى في كل تحيين لأعداد المجلة.
- 3/ تلتزم المجلة بسرية صاحب المقال بعدم الكشف عنه للمحكّمين.
- 4/ يتولى تحكيم المادة العلمية محكمان اثنان من ذوي الاختصاص و قد تلجأ المجلة للفصل إلى محكم ثالث.
- 5/ يطلب من المحكم إرسال تقرير الخبرة في أجل لا يتجاوز العشرين (20) يوما.
- 6/ يتم الرد على صاحب المقال فور تلقي المادة على أن يتم الرد بالقبول أو التعديل أو الرفض في مدة لا تتجاوز الشهرين.
- 7/ في حال عدم قبول نشر المادة المرسلة يتم توضيح الأسباب والمبررات لصاحب المقال.
- 8/ يتم التواصل في كل المراحل السابقة مع رئيس التحرير فحسب.
- 9/ لأسباب ما تقدرها هيئة المجلة قد يؤجل نشر مقال ما لأعداد قادمة على أن يُعلم صاحب المقال بذلك.
- 10/ يتم الإعلان في كل عدد عن أسماء المحكّمين لهذا العدد.

مساقات

فـنّ اللغة والأدب والنقد والدراسات البيئية



شروط وقواعد النشر في المجلة

1. للتواصل والاستفسار عبر البريد الإلكتروني massakette@gmail.com أو هاتف: +213 541764326
2. ترسل المقالات بنسختين word و pdf إلى هذا البريد massakette@gmail.com
3. ولاحقا يتم إرسال المقالات عبر المنصة الجزائرية للمجلات العلمية www.asjp.cerist.dz/en وسيتم الإعلان عن ذلك في الأعداد القادمة
4. تمتنع المجلة نشر المادة العلمية التي سبق نشرها في مجلات أو دوريات أخرى. ويلتزم المؤلف بهذا الشرط ويعد الإخلال به إذا تبين مانعا لنشر مقالات هذا المؤلف مستقبلا.
5. يلتزم المؤلف بالأمانة العلمية وفي حال تبين بعد نشر المقال الإخلال بهذا الشرط فلا تتحمل المجلة التبعات التي ترتب عن هذه المخالفة وتمتنع المجلة مستقبلا نشر أي عمل لهذا المؤلف
6. يرفق المقال بسيرة ذاتية موجزة تبدأ بهذه المحددات (الاسم واللقب، الوظيفة، الرتبة العلمية، المؤسسة الجامعية، البلد، البريد الإلكتروني، رقم الهاتف.
7. لا يتجاوز عدد صفحات المقال (25) خمس وعشرين صفحة بما في ذلك الملاحق، ولا يقل عن عشر 10 صفحات ويلتزم الكتاب والمؤلفون بالشروط التقنية التالية:
8. يُكتب عنوان المقال وتحتة مباشرة اسم المؤلف بخط (16) (Sakkal Majalla)
9. يُكتب الملخص باللغة العربية ولا يتجاوز عشرة أسطر وتحتة مباشرة الكلمات المفتاحية يلي ذلك الملخص باللغة الانجليزية مع الكلمات المفتاحية باللغة الانجليزية بخط (11) (Times New Roman).
10. يُكتب متن البحث كله بخط (14) (Sakkal Majalla) بقياس 2.00 سم في الجهات الأربع .
11. في حال الكتابة باللغة الأجنبية داخل المتن يستعمل خط (11) (Times New Roman).
12. مع نمط التباعد بين الأسطر قياس 1.15
13. بالنسبة للأشكال والصور يجب استخدام تقنية التجميع (grouper) حتى تحفظ على شكلها الأصلي.
- يُكتب الهامش تحت كل صفحة في متن المقال بخط (Majalla Sakkal) مقاس (10) ويتحرى فيه المؤلف شروط المنهجية المعمول بها والمشار إلى كفياتها في ضبط قائمة المصادر والمراجع.
14. ضبط قائمة المصادر والمراجع:
يلتزم المؤلف بهذه الشروط في ضبط المراجع والمصادر وكذا في الهامش
• الكتب والمؤلفات: المؤلف، عنوان الكتاب، الناشر، رقم الطبعة، بلد النشر: سنة النشر، الصفحة.
• المجلات والدوريات: المؤلف، عنوان المقال، اسم المجلة، المجلد، العدد، السنة، الصفحة.
• الأوراق البحثية في المؤتمرات والملتقيات والندوات العلمية: المؤلف، عنوان البحث، عنوان المؤتمر أو الملتقى أو الندوة، تاريخ تنظيم الفعالية، الهيئة المنظمة: جامعة، مركز بحث، مختبر، البلد.
• منشورات المواقع الإلكترونية والفضاءات التفاعلية: اسم المؤلف، عنوان المادة المنشورة في الموقع، اسم الموقع ورابطه.
15. الملاحق: تكتب الملاحق بالنمط نفسه في كتابة متن المقال وتكون في آخر المقال قبل قائمة المصادر والمراجع.



محتويات الجزء الثاني

9	د. محمد مكي جامعة المدينة، الجزائر.	كلمة التحرير
12	د. حبيب مونسي جامعة سيدي بلعباس، الجزائر.	بلاغة الكتابة عند بشر بن المعتمر نحو التأصيل لنظرية الكتابة الإبداعية في التراث العربي
19	د. ثريا السوسية النيفر جامعة تونس.	في تأصيل المنهج التراثي فعل الشرح نموذجاً
45	د. مراد العرابي جامعة البليدة 2، الجزائر.	من تجليات الاشتغال النصي في مدونات علماء التفسير سورة المائدة أمودجاً
61	د. ببيبة علية جامعة تبسة، الجزائر.	النص اللغوي عند علماء الأصول
69	د. ثليثة بليردوح جامعة أم البواقي، الجزائر.	قضايا النصية في الفكر البلاغي التراثي-عبد القاهر الجرجاني وحازم القرطاجني- انمودجاً
79	د. بشير دردار جامعة تيسمسيلت، الجزائر.	الوعي بالظواهر النصية في المدونة النقدية العربية القديمة "عيار الشعر" لابن طباطبا نمودجاً
100	د. محمد خليفاتي جامعة المدينة، الجزائر.	دور السياق من خلال آيتي الدين والرهان
110	نواف بن أحمد بن عثمان حكيم جامعة نجران، المملكة العربية السعودية.	ترجيحات الإمام السهيلي النحوي في كتابه (نتائج الفكر) في ضوء النظرية اللسانية
126	د. جميلة قوجيل جامعة البليدة 2، الجزائر.	التناسب في القراءة السياقية في توجيه المتشابه اللفظي ملاك التأويل لابن الزبير الغرناطي
146	د. بوعرعارة محمد جامعة تيسمسيلت، الجزائر	المقاصد الشرعية للمكلفين في ضوء المقاربة النصية موارد الحكم الفقهي من خلال مدونة الموافقات للإمام الشاطبي.
166	د. حكيم بوغازي جامعة مستغانم، الجزائر.	معايير الدرس اللساني النصي في البلاغة المغاربية كتاب ابن البناء العددي نمودجاً
179	د. حورية مدان جامعة المدينة، الجزائر.	تحديات الترجمة في الممارسة النصية، المعاني القرآنية لسورة لقمان نمودجاً.
191	د. عمر حاتم- جامعة البليدة 2، الجزائر. د. عائشة العشمي- جامعة المدينة.	البلاغة العربية: من التعليمية إلى التداولية إلى التأويلية البلاغة والسياق
205	د. زوليخة ياحي جامعة المدينة، الجزائر	جذور التناس في المدونة النقدية العربية التراثية وصلته بالسرققات الأدبية - قراءة في مؤلف العمدة لابن رشيق القيرواني-
211	د. عبد العالي موساوي المدرسة العليا بوزريعة، الجزائر.	آليات الترابط (التماسك) النحوي النصي عند النحويين (مؤلفات ابن هشام نمودجاً)
220	د. غنية لوصيف جامعة البويرة، الجزائر.	الانسجام النصي بين التراث العربي والدرس الغربي الحديث
237	د. فتوح محمود جامعة الشلف، الجزائر.	أثر التكرار في التماسك النصي عند علماء الإعجاز القرآني الباقلاني نمودجاً
251	د. كلثوم رحموني جامعة المدينة، الجزائر.	"التماسك النصي" في المدونات العربية التراثية -الرهان في علوم القرآن للزركشي نمودجاً-
262	د. هامل شيخ جامعة عين تيموشنت، الجزائر.	أثر المرجعية اللسانية في التأسيس للمقاربات النصية دراسة في التأصيل والبدائيات
275	د. سعاد رواج جامعة باتنة، الجزائر.	الدلالة القرآنية وثنائية اللفظ والمعنى في مدونات علوم القرآن والتفسير.
286		برنامج المؤتمر

مساقات

فـن اللغة والأدب والنقد والدراسات البيئية



د. مكي محمد مدير المجلة رئيس التحرير

كلمة التحرير



ها نحن الآن نفي بما قطعناه من التزام مع أنفسنا ومع أخواننا المشاركين في المؤتمر الدولي المتخصص في الممارسة النصية في المدونات التراثية العربية بين التأصيل والإنجاز الذي عقد بجامعة المدية 27/28 فبراير 2019 لنجعل من المواد المعرفية التي تم تدارسها وإدارة النقاش حولها في يومين متتاليين حافلين بفعالية الإلقاء والتلقي بين نخبة من الباحثين المتميزين من البلاد العربية _ لنجعل من هذه المواد _ موضع التدوين في سجل ضخيم يمتد عبر أزيد من ألف (1000) صفحة في أجزاء ثلاثة ليكتمل فعل الإفادة بتمكين المشاركين في المؤتمر _ بوصفهم أصحاب هذه المنجزات المتخصصة في قضايا الممارسة النصية في التراث العربي أولا ثم تمكين الباحثين في قضايا التراث العربي القديم في العالم كله ثانيا والذين يشتغلون على مقولات النص والنصية والتناسخ والتعالقات النصية والإشكالات التي ترتبط بهذه المقولات من ذلك : التفكير التداولي وقضايا الحجاج ومباحث التأويل _ تمكين أولئك وهؤلاء _ من الانتفاع بهذه البحوث الأكاديمية التي عكف عليها متخصصون في سياق معرفي متميز جدا هو فعاليات المؤتمر الدولي المتخصص حول الممارسة النصية في المدونات التراثية العربية بين التأصيل والإنجاز جامعة المدية الجزائر..

هاهي مجلة مساقات الدولية المحكمة البارة بقراءها تضع ما طال ترقبه عملا منجزا وما كان ليكون هذا الإنجاز لولا مشيئة الله تعالى التي هيأت الأسباب والإمكانات ثم جهود المخلصين في هذه المجلة الذي أثروا أن يكون صدور هذا العدد الخاص بفعاليات المؤتمر في صورة تحاكي نجاح المؤتمر وتعكس قيمة المشاركين فيه مثلما تكرر ما دأبت عليه مساقات وألزمت نفسها به من الجودة والأداء المتميز .

إذن تعيد مساقات توجيه تلك الحوارات العلمية الماتعة والنافعة التي دارت بين مساحات جامعة المدية وأروقتها ذات فبراير 2019 إلى مساحات نصية تمتد عبر أزيد من ألف 1000 صفحة وتعيد معها تدارس إمكانات التراث العربي القديم _ بمرجعياته المتنوعة _ وتعانين مواده التي اشتغلت على قضايا النص بكل مفرداته ومقولاته ومدى قدرتها على تأسيس منظومة منهجية إجرائية بكل الملامح والقسمات وتنقل لنا المجلة تلك النقاشات العلمية التي انبنت على الموضوعية والنزاهة والمقاربة الجادة والتي تنأى عن المناقبية وتلميع الذات مجيبة عن سؤال محوري ومحدد فيما تكمن قيمة المنجز التراثي في سياق الدرس اللساني النصي وقضايا النصية والتناسخ والتداولية والحجاج ؟ وأين يمكن أن نرصد المظان التي تمدنا

مساقات

فن اللغة والأدب والنقد والدراسات البيئية



بهذه المادة المؤهلة لإنجاز منظومة نظرية بكل المحددات وما هي مجالاتها التطبيقية

في في الدرس نفسه _ أي الدرس النصي التراثي _ ؟

و ما الذي يمنع الدارس العربي الحديث من الوصول إلى هذه الينابيع العذبة التي

نهبنا إليه الكثير من الدارسين الغربيين المنصفين ؟

إنها بعض من الأسئلة التي تحفز البحث في تراثنا الفذ الذي استثمره غيرنا

للأسف الشديد وبني عليه منجزات معرفية أعاد تسويقها لنا بلبوسه الواهم ولسنا نقول ذلك بمحض التجني على الآخر بل أنه هو نفسه أي الآخر من شهد ذلك وليس السياق هاهنا سياق الحديث عن هذا الموضوع

إن مشروع المؤتمر _ بهذا الوصف _ محاولة جديدة لبعث سؤال قديم . هل استنفذ التراث العربي بمرجعياته ومفرداته ومكوناته وإمكاناته وظيفته أم أنه مازال قادرا على الإجابة عن أهم إشكالات الدرس النصي الحديث ؟

وفي مستوى ثان ، تنزع محاور المؤتمر إلى استثمار مقولات القدامى ، في تأسيس بعض إجراءات البحث والدراسة ، وقد يوفق الباحثون في موضع، ويجانبهم الصواب في موضع آخر ، على أن المقصد الأساس هو تعميق طروحات التراث، ما أمكننا السبيل الى ذلك، وهو منزع لا يعني إطلاقا انهيارا بالتراث، كلا ولا إجحافا للحديث، ولكنها المساءلة والمصارحة والمصالحة مع الذات العربية التي أعياها الاحتكام الى المناهج الغربية الحديثة ، هذا الاحتكام الذي يعبر بصدق عن خلخلتها إزاء ما ينتجه الفكر الغربي بسرعة الضوء ، نتاج متلاحق بعضه وراء بعض ، لم يترك لهذه الذات مجالاً للإبداع، فركنت إلى الاتباع، وفوتت على نفسها فرصة الارتداد إلى التراث قصد قراءته قراءة جديدة قد تعينها في اختزال المسافات، وإن كانت لا تعفيها ضرورة الأخذ عن الغير، الأخذ الواعي المتماسك، الهادئ والهادف،

وإن هذا الوعي بالتراث العربي الذي يقف على مقربة من الحاضر دون خصام وصدام هو الذي يحدد قيمة موروثنا ، مثلما يحدد موقفنا من الغير

و من المهم أن يتضح في هذا السياق أن الإشكالات التي يقاربها المؤتمر إذ تنأى عن تنظير المنجز الغربي فليس لموقف فكري أو ثقافي رافض ، بل لأن هذا المؤتمر أراد لنفسه أن يتنزل في حقل المنجز التراثي العربي ، وهو لأجل ذلك يطمح _ والطموح مشروع _ أن يستثمر ما يتيح هذا التراث الغني من مقولات _بصرف النظر عن مرجعياته، حجمها وقدرتها_ لتؤسس للممارسة النصية سواء تلك التي انطلقت من المدونات الشعرية والنثرية أو التي انطلقت من المدونة القرآنية مع الوعي بذلك الاختلاف البين بين المقاربتين بخلفياتهما المعرفية وبأدواتهما الناجزة ..



مساقات

في اللغة والأدب والنقد والدراسات البيئية



والفضاء أرحب من أن يضيق بمن تصغر في عيونهم قيمة المنجز التراثي فيصادرون مشروعا من حقه أن يعبر عن نفسه ، وإن خالف بعضا من المترددين أو المشككين أو من لم يُقدّر لهم إلماما كافيا بتفاصيل تلك المواد المعرفية المتنوعة التي أُودعت آلاف المدونات والمصنفات التراثية .



إذن تبدو الصورة واضحة المعالم ، بينة القسّمات بأن هذا المحفل المعرفي الذي سنسميه بكل تجرد محاولات تستقرئ تراثنا _ الذي لا نملك سوى أن نجله ونقدره وننتصر له _ وتبدو _ مع وضوح الصورة بهذا الشكل _ ثقتنا كباحثين ومشتغلين من كل أنحاء العالم العربي تبدو ثقتنا الواعية بأن هذا التراث قادرٌ على الاستجابة ، حمالٌ لنفائس نادرة ، دل على ذلك الاستقراء في أكثر من سياق .

إننا مثلا ونحن نعاين ظاهرة الاتساق في المدونات التراثية ونبحث في آلياتها وتفاصيلها لسنا ملزمين بأي حال من الأحوال ، تحت أي مسوغ منهجي ، معرفي ، أو فكري أن يكون المفهوم مطابقا بالضرورة كل التطابق لمفهوم (مايكل هاليداي) (وحسن رقية) مثلما أننا حين نحاول رصد مظاهر التماسك النصي كما يفهمه العقل العربي التراثي في تعامله مع النص لسنا مطالبين على وجه الإلزام أن تكون بالمعيار نفسه الذي يقرره به (فان ديك) ، وبالكيفية ذاتها حين نبحث في المعايير النصية في تراثنا فلن يكون محك المصادقية هو مدى مطابقتها لمعايير (دي بونجراند) مثلا وليس التناص هو نسخة واحدة تفرضها منجزات (جوليا كريستيفا) أو (جيرار جينات) أو (رولان بارث) بل إن من التعالقات النصية بكل أشكالها في تراثنا ما قد يتجاوز محددات الدرس الغربي ..

على أنه يجب أن يُفهم بفكر موضوعي منصف أن هذه الاختيارات والتوجه نحو التراث لا تعني مطلقا قدحا في المنجز الغربي أو تقليل من قيمته ، لسببين وجهين أولهما أننا نؤمن بقيمة هذا الانجاز الغربي وحدوده المعرفية وجدواه وثانيهما أننا نؤمن بمبدأ التراكم المعرفي وهو الإيمان نفسه الذي يحفزنا بالتأكيد لكي نخوض تجربة القراءة والاستقراء في المدونات التراثية العربية القديمة كي نستجلي منها أفقا رحبا ينبض بالمسارات الجادة ونستلهم من منابعها بعضا من العلامات الدالة .

د. محمد مكي

مدير المجلة، رئيس التحرير

بلاغة الكتابة عند بشر بن المعتمر نحو التأصيل لنظرية الكتابة الإبداعية في التراث العربي

د. حبيب موني

جامعة سدي بلعباس، الجزائر.

تقديم:

من المسلم به عند أهل الفكر، أن الاعتزال قد صبغ مرحلة خطيرة من مراحل الحضارة الإسلامية بصبغته، فجاءت المقولات في شتى العلوم من مشكاته، تحمل لونا خاصا لا يخطئه النظر المحقق. مادامت التععيد تستمد المادة والقوة من أصول رسمها هذا الاتجاه، وجعلها حيثيته، يؤول إليها في كل ما يأخذ وما يدع. وكان الاعتزال حينئذ: «يعني في أساسه، الاحتكام إلى العقل، والعقل يهدئ من جموح العاطفة والعصبية. ولهذا فالعقل هو المرجع الأخير في التدوق.» (1) وإعلاء العقل، وإعطاؤه سلطة الذائفة يخول له أن يجعل للفن مقاييس دقيقة، تنجح إلى الثبات. لأن العقل ينزع أبدا إلى مثل هذا السلوك. مادام مادة تعيق كل انطلاق وانفلات. فهو عقال يخضع إلى جملة من الشروط، يبحث عنها في الأثر الأدبي، فإن اهتدى إليها وتحقق، قضى بجودته، وإن انعدمت استبعد الأثر من جملة الأعمال الأدبية. بل إن النظر في البلاغة العربية وتفريعاتها ينبئ عن ذلك الأثر السيئ الذي حول المدركات الحدسية إلى مدركات عقلية، وأضحت مهمة كل كاتب هي: الإفهام والتفهم، والبيان والتبيين، لأن العقل يقتضي الوضوح ابتداء. ومنه أقصى الغموض الفني وأبعد عن دائرة الإبداع. وعلى هذا الادعاء قامت "الموازنة" بين "أبي تمام" و"البحثري" إذ يمثل الثاني مذهب الوضوح والطبع، بينما يمثل الأول مذهب الغموض والصنعة.

غير أن المعتزلة لم يتوانوا عن تدعيم مواقفهم الفكرية، فجردوا أنفسهم لإقامة منظومات معرفية، وجاسوا خلال النحو، والصرف، والبلاغة، وعلم الأصول، والتفسير، أملوا مصنفات الإنشاء وخطط الكتابة. فكان الاعتزال أثرا غزيرا في كل فن، يحمل - دائما - في طياته خضوعه للعقل وسلطانه.

غير أننا لا نلتفت إلى أثر الاعتزال في صحيفة "بشر بن المعتمر" (ت 210هـ) مادام الاعتزال قد أملاها، ولكننا سنصرف همنا إلى استخراج ما فيها من "ملاحظات" تتصل بفن الكتابة وشروطه، محاولين ربط كل ذلك بفهمنا لجملة ميكانيزمات الكتابة الإبداعية المتاحة لنا، معترفين أن الصحيفة في حد ذاتها تحفة جلييلة في هذا الفن..

1- سيكولوجية النشاط الإبداعي:

يفتح "بشر" صحيفته، بلفتة ذكية للشرط السيكولوجي المواتي للإبداع، وهي معرفة لابد أن تكون قد ترتبت عن طول الممارسة والدربة. حتى ارتقت إلى اليقين العقلي العلمي. وأضحت آية ضرورية لكل إبداع يراد له أن يكون في ذروة الاختراع والافتراع. إذ هو يقول: «خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك، وإجابتها إياك، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهر، وأشرق حسبا، وأحسن في الأسماع، وأحلى في الصدور، وأسلم من فاحش الخطأ، وأجلب لكل غرة من لفظ شريف ومعنى بليغ.» (2) ولا ريب أن "بشرا" يتوجه بصحيفته إلى كاتب كسب الأداة، فهو يسعى إلى إجرائها، فيلتفت به إلى تحديد

زمن الإبداع، وهو زمن نفسي، أكثر منه زمناً كرونولوجياً، إذ يرتبط بالاستعداد الذي يتهيأ للنفس عند رغبة الإنشاء. فإذا حضر النشاط، وجب إجراء الإبداع. وبذلك لا يحدد زمنه من ليل أو نهار. بل يرتبط بوجود الحالة الدالة عليه في أغوار الذات. وتكون المبادرة فور الإحساس بحضورها. غير أن هذه الحالة ترتبط بوضع قد تكون له امتدادات اجتماعية وشخصية. ذلك هو فراغ البال. وهي حالة من التجرد تزيل الواقع وضجيجها إلى ما وراء الانتباه، وتحاول عزله، حتى يخلو الجو لموضوع النشاط. وحالة التجرد هذه، أصل في كل سعي إلى الاستقطاب الموضوع والإحاطة به. فإذا تعذرت سبلها، تسرب إليها الضجيج وعكّر صفوها، وشوش صفاءها، وجعلها عرضة للسطحية والابتذال. ولا يكفي أن تكون النفس نشطة متأهبة، وهي تترك ثغراتها تغزوها عوارض شتى من أصداء الواقع والمحيط، أو تنافسها اهتمامات أخرى.

وإذا كان "بشر بن المعتمر" قد ترك الزمان دون قيد، مقرونا بتوفر الاستعداد فإنه عطف خلو البال كشرط لاكتمال التجرد للمهمة المرومة، وحضور الانتباه في أسبابها وأساليها، وإن كنا نجد بعض الأوائل يسعون إلى تحديد الزن وتقبيده كـ "ابن قتيبة" حين يزعم أن للشعر: «أوقات يسرع فيها أتبه، ويسمح فيها أبيته، منها: أول الليل قبل تغشي الكرى، ومنها صدر النهار قبل الغداء، ومنها يوم شرب الدواء، ومنها الخلوة في الحبس والمسير. ولهذه العلة تختلف أشعار الشاعر ورسائل المترسل.» (3) فإذا كان في هذه الأوقات تعليل لاختلاف الإبداع فإن "ابن قتيبة" يضيف شرط "المكان" الذي غاب في نص "بشر بن المعتمر" وكأن للمكان جاذبية أخرى، ووهي يعطي للأثر سمة تمييزية تزيده حسنا. وإنما لندرك خطورة هذه الإضافة مادام للمكان روح يسري في الواقف عليه. وقد قال "الأصمعي": «ما استدعي شاردة بمثل الماء الجاري، والشرف العالي، والمكان الخالي.» (4) بل إن في قول الأصمعي شيء آخر يرتبط مفعوله ببيكولوجية الإبداع، ما دام الماء الجاري في رمزته يخلق الاسترسال، والتواصل، والحركة، في جمال وهدهد، وكأنه سلّ لسخيمة الصدر. فحركته تنعكس في مرآة الذات، وتستدعيها إلى مجاراتها، والاسترسال، والانسحاب معها. وكما شَبَّه انثيال الكلام بالماء الجاري! أو المطر المنهمر! ولم يصدر هذا التشبيه عن محض المصادفة، بل هناك ارتباطات سرية تسمو على التفسير، تجعل الكلام في انسيابه، واسترساله، وعدوبته، وجودته، شبيهاً بالماء الجاري.

وإذا كان الماء يسلك المنبسط من الأرض، فإن استشراق المكان العالي يتيح للعين أن تلامس تلاع الأرض من جميع أقطارها، ويفتح أمامها فضاء تسري فيه نسمات الذكرى، والرحلة، والتحول. ثم إن خلو المكان يتلاقى مع خلو "البال" عند "بشر بن المعتمر" مادام التجرد الذي كان يوصي به لا يتأتى بصورة أصفى وأنقى إلا في هذا المكان الذي تنقطع فيه الحركة، ويعمه السكون. وكأنه معزل يتلاشى فيه الواقع، ويندثر، فلا يعود له أثر. كما يمكن أن يرتبط المكان بإيحاءات ذات أبعاد وجودية، أو فلسفية تأملية، أو تاريخية. فتضفي على النفس فيضاً آخر من العطاء الذي لا يمكن أن ننكر فضله في كل فن مهما كان وسيطه: صوتاً، لونا، مادة.. ومن المسلم به اليوم أن للمكان كما للزمان جماليات تتميز باللفظ والخطورة في آن، في كل ذائقة. وقد روى "ابن رشيق" في "عمدته": «أن الفرزدق كان إذا صعبت عليه صياغة الشعر، ركب ناقته، وطاف خالياً منفرداً وحده في شعاب الجبال، وبطون الأودية، والأماكن الخالية. فيعطيه الكلام قياده.» (5)

وليس وصف طبوغرافية المكان من قبيل الاسترسال عند "ابن رشيق" لأننا لن نعدم أن نجد في كل وصف لونا من الإيحاء يتميز به لون من ألوان التضاريس. ولو أنعمنا النظر في كل واحد منها لصادفنا أن لهذه الطبيعة "المتكسرة" أسراراً تتملأها العين، تجد في الشعاب معنى الستر، والاختفاء، والغموض، والغدر. وكثيراً من هذه المعاني التي تجعل الضعيف يلجأ إليها أمام رهبة الشامخ المتعالي. فالجبال بمطاولتها السماء قد تكون معنى للكبرياء والشموخ، كما تكون معنى للتصدي

والعناد، كما كانت عند "ابن خفاجة الأندلسي" وكذا الأمر بالنسبة للأماكن الخربة، إذ تقف آية على التحول والفاء. وليس عجيبا أن تكون الأطلال باعثة للشعر العربي القديم. ومن الوقوف بها تنثال أحاديث أخرى كالغزل واللهو، وعادة من قبيل التذكري والالتفات إلى الماضي.

يضيف "ابن رشيق" اعترافا آخر لشاعر في علاقته بالمكان، إذ يروي أن شاعر شوهد على رأس برج أطل على فجاج واسعة تحته، ولما سئل عن ذلك قال بأنه يريد أن يلحق خاطره، ويجلو ناظره. (6) وكأن ذلك الموقف يؤثر في النفس من جهتين، جهة باطنية، وما يملي عليها من عظمتها واتساعه وثباته وقدرة خالقة. وجهة خارجية، وما يمليه على النظر من تجانس في الأشكال والألوان، واسترسال في الأطوال، وتوال للمناظر والمشاهد تباعا على المنبسط من الأرض. وفي ذلك - لعمري - تربية فنية راقية للحواس الداخلية، والحواس الظاهرية. فيكون في النفس ما يشبه الاتزان والاعتدال، ولا بد أن يكون الصنيع الفني شيئا من هذا الجنس، وذلك القبيل. وقد ذكر "ابن رشيق" أن الناس لما استنشده إثر ذلك أنشدتهم شعرا يدخل مسام القلوب رقة. (7)

وإذا كان "بشر" قد قصر حديثه على أوقات الاستعداد، ولم يجعل لها تحديدا بل أرسلها ليكون كل وقت مناسب لذلك، فإن التابعين عقدوا للمكان اهتماما أعطى للشعراء عاملا آخر لاستثارة الملكة الفنية فيهم... ثم يكشف "بشر بن المعتز" عن سر تركيزه على الاستعداد لأن ذلك العامل أثارا رجعية على الإبداع وقيمته الفنية. وهاهو ذا يقول: «واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاوله والمجاهدة، بالتكلف والمعاودة. ومهما أخطأك لم يخطئك أن تكون مقبولا قصدا وخفيفا على اللسان سهلا. وكما خرج من ينوعه ونجم عن معدنه.» (8) وارتباط هذا التقرير السيكولوجي بالعامل النفسي والاستعداد والتهيؤ، لأن الإصرار على العمل المستمر - على الرغم من الشعور بالكلال والملال - لن يفضي إلا إلى قبيح ساقط. ذلك أن مرآة النفس إن تكدرت، واعتراها النفور، لن تقو على أن تخرج النفيس المرغوب فيه، بل يكون لها من ذلك الإصرار نكد في القول، ومرذول من فن.

وقد نجد عند "أبي هلال العسكري" عين التقرير في ألفظ أكثر إعلانا عن الرداءة الناجمة عن الإصرار، فهو يقول: «واعمله مادامت في شباب نشاطك، فإذا غشيك الفتور، وتخونك الملال فامسك، فإن الكثير مع الملال قليل، والنفيس مع الضجر خسيس، والخواطر كالينابيع يسقى منها شيء بعد شيء، فتجد حاجتك من الري، وتنال إريك من المنفعة. فإذا أكثرت عليها نضب ماؤها، وقلّ عنك غناؤها.» (9)

وربما كان حديث "أبي هلال" واضحا إلى درجة لا تحتاج إلى زيادة، ولكن الصورة الأخيرة التي قدمها للتمثيل على تقريره، تبرز حقيقة لم تعد قائمة بيننا اليوم نظرا لقيمة الماء عند العرب، وارتباط الشرب فيه بشرف القبيلة واقتدارها. فإن السقاة المتأخرين لا يشربون إلا كدرا وطينا-كما قال شاعرهم- وهذه الصورة تكشف من طرف آخر مبدأ الترفق على النفس في مراودتها للعطاء، وإمداد الكلام. أما إذا كان الإقبال عليها معاركة، ومغافصة، تكدرت عينها وغاض ماؤها.. فالترفق وقت النشاط، والاسترسال وقت الضجر، يؤمنان للشعر السلامة والاستقامة والجودة. وذلك مبدأ تقرر سلامته كل تجربة، مهما كان عصر قائلها بعيدا أم قريبا. وربما يمكننا أن نجعلها أصلا أولا في عملية الكتابة، ومبدأ أساسا لكل إبداع. إذ يمكن بفضل القضاة على أدب "المناسبة" ما دامت المناسبة تفرض الاستجابة بعيدا عن كل انفعال حقيقي.

لقد حفلت كتب النقد العربي القديم بمثل هذه الإشارات، وجعلت للآتي سلطانا على البدع، يتأتى له وقت ليفرغ بين يديه جعبة سحرية، حافلة بكل نفيس وغال. غير أن هذا الفهم يجعل الفنان نفسا حساسة لمثل ديبب هذا الأتي،

تتحسس مجيئه، وتهتبل فرصته، فتتال منه لبانتها قبل إدباره. وهي حالة دائمة التوتر، قليلة السكون، ربما فسرها ما وجدناه عند بعض الشعراء من أن خلع الضرس أهون عليه من قول بيت من الشعر. وآخر يتمرغ أرضاً في شكل هستيري وكأنه يعارك قوة مجهولة ليفتك منها شيئاً يرومه من زمان. وأحوال الشعراء وشهاداتهم – في هذا الباب – غزيرة ذات طرافة وعجب.

2- بلاغة الوضوح:

إذا كنا قد أشرنا إلى مقتضيات النظر العقلي، وقلنا إن مطلب البيان فيها يمثل قوام كل تواصل ذي غاية. فإن "بشراً" يجعله ركناً ثانياً بعد الاستعداد، إذ يقول: «إياك و التوعر، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد يستهلك معانيك، ويشين ألفاظك.» (10). وإذا كنا قد ألفنا العودة إلى الأصول التي تستمد منها المعاني، وجدنا في التوعر إشارتين متصلتين بالبيئة في نفسية العربي. فالتوعر هو ركوب الوعر من الأرض والجبال. والوعر من الأرض ما كان مجهولاً غير مستأنس. فهو مثار للمخاوف، تدور حوله الأساطير والخرافات. وقد وجد العربي نفسه في مثل هذه الأماكن، وكأنه في غير هذه الأرض يصول جانا، وعفاريت، وأغوالا، ووحشا. فلا يخرج منها إلا وقد أصيب في عقله، وفقد رشده، وجاء كلامه عند أهله ضرباً من الهذيان يصعب فهمه، وتصديقه. وكذا الشأن في ركوب الوعر من الجبال، وما يصاحب ذلك من عنق، ومشقة، وإرهاق. وما يخامر النفس من خوف، وفزع، ومجاورة للموت. وصورة التوعر هذه كامنة وراء تحذير "بشر" تكشف عن المهلك القابع وراء كل محاولة تركيب هذا النهج، وتسلك هذه السبيل. مادامت تتراتب فيها نتائج متعاقبة السوء. فتكون مرحلته الأولى تعقيداً. لأن التوعر يقتضي استعمال الغريب، والشاذ، والمهجور من الكلام، الذي تلاشت دلالاته من أذهان الناس لبعده عنهم. وكل كلام كان ذلك تركيبه، وتلك مادته، كان أدخل في التعقيد، وأوغل في الغموض، وأبعد عن الإبلابية.

ومادامت مهمة الكاتب إبلاغاً، فإنه لا بد أن يتعذر البيان في ذلك المنهج، وتضمحل المعاني في محاولتها رفع الحجاب الصفيق الذي يغلفها، وأضحت كل محاولة للتفهم عقيمة الأثر، عديمة الجدوى. لأنها تجبر القارئ على بعث موات هجرته الألسنة من أمد بعيد. وكم جنت ألفاظ حوشية على معنى بكر، وحالت دون انطلاقه إلى أفهام الناس! وكم نعاني اليوم من مثل هذه الألفاظ في قراءتنا لشعرنا القديم!

وربما رأينا في شرط "الوضوح" تقييداً للمؤلف، ولكنه تقييد يفرضه من جهة قواعد اللغة، وأعرافها التركيبية باعتبارها أساساً ثابتة لا يمكن الخروج عنها. ومن جهة أخرى مسؤولية الفن جملة، حتى لا يغدو عبثاً لا طائل وراءه. وإذا طبقنا هذا التصور على "المقامات" مثلاً، أمكن وسمها بالعبث، واللهو، وعدم الشعور بالمسؤولية، إذ هي توعر في التركيب، وإسفاف في المعنى. وذلك ما ترفضه العقلية الاعتزالية الجادة.

3- منازل التأليف:

تتطلب النظرة العقلية – أبداً – مبدأ التصنيف والتبويب، فإذا تملت الأشياء وجدت فيها سيمات مشتركة وأخرى تمييزية، راحت تفرد لتلك السمات أبواباً، ولتلك الميزات فروعاً حتى تنتظم الموضوع الملاحظ، ثم تُحكَم إغلاقه، وقد تم كل شيء وانتهى. ويضع "بشر" أول تصنيف للمؤلفين قائلاً: «فكن في ثلاث منازل..» (11) وواضح أن البدء بالمنزلة الأولى معناه – عنده – سموها وشرفها، إذ هو يقول: «فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقة عذبا، فخما، سهلا، ويكون معناه ظاهراً، مكشوفاً، وقريباً معروفاً، إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت. والمعنى ليس

يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتّضع بأن يكون من معاني العامة. وإنما مدار الشرف على الصواب، وإحراز المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من مقال.»(12)

الكتابة	سهل	فخم	عذب	رشيق
التلقي	معروف	قريب	مكتشف	ظاهر
	وضوح	جمالي	معنوي	حسي

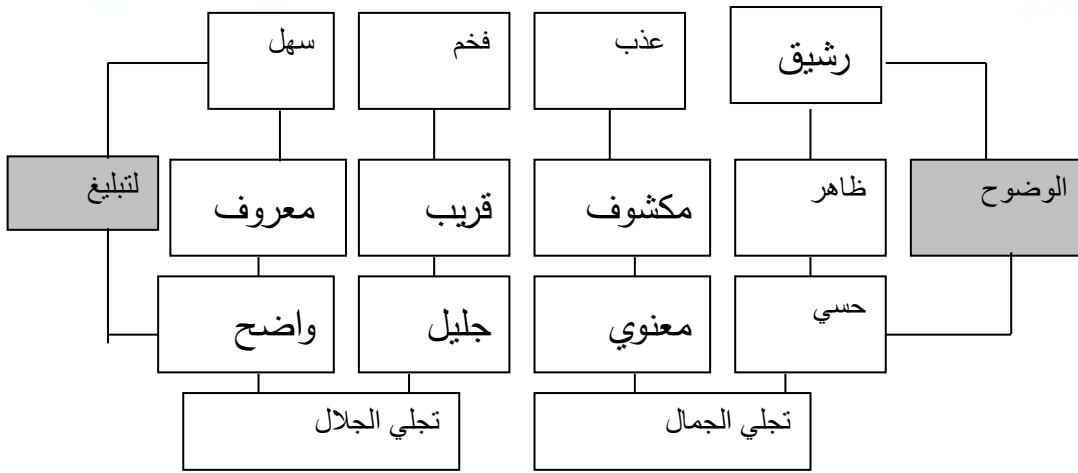
وإذا أردنا الحديث عن المتلقي (الجمهور) وجدنا تقابلا تقابلا عجيبياً عند هذا المعتزلي، وهو يرسل ألفاظه وكأنه يريد أن يحمل كل لفظ أكثر مما تبوح به العبارة في بنيتها السطحية. بل يترك للتشاكل أن يفعل فعله في متأمل الصحيفة: وإذا اعتبرنا الرشاقة مظهراً مادياً، تلتفت إلى الحركة وسهولتها، وخفتها، وترابط تدرجاتها في تناغم تام، فإن مظهرها المادي يوحي لنا بالعناصر الصوتية في اللفظ وسهولة مخارجها، وترتيبها من أقصى الحلق إلى الشفة، أو من الشفة إلى أقصى الحلق. وقد زعم بعضهم أن الكلمات التي يتوافر فيها مثل هذا الترتيب هي العربية الفحة، أما الدخيلة والمولدة، فهي التي يتذبذب ترتيبها، ويختلف النطق فيها ويتعثر عبر سائر المخارج. وكل لفظ ترأبت مخارجه وتباعدت، كان نطقه رشيقاً، سهلاً، بيّناً.

وتتلاقى هذه الصفة بما يترتب عنها من العذوبة، إذ كل لفظ أحرز الرشاقة كان حقيقياً به أن يكون عذبا. غير أن هذه السمة ترتبط بالكشف كما ارتبطت الرشاقة بالظهور، والظهور إبانة ووضوح. أما الكشف فأمر باطني يفجر معنى خفياً يتلاقى والعذوبة، التي هي حصيلة ذائقة داخلية عكس الرشاقة التي هي حصيلة ذائقة خارجية. وهكذا ينقلب الظاهر إلى الكشف، كما ينقلب الرشيق إلى عذب. وربما كانت هنا لإشارة إلى مبدأ التأويل، إذ يكون الظاهر مرتبطاً بباطن يوسع دلالاته، ويفتح حقله إلى إشارات معنوية بعيدة يعالجها التأويل ليقارب بينها.

وإذا أخذنا مصطلح الفخم والقرب ثم السهل والمعروف تبين لنا شكل آخر في مقولة "بشر". فالفخم لا بد له أن يكون كبيراً مادياً ومعنوياً، وربما هو ذلك الذي يعبر عنه بالشريف. والقرب شرط لإدراك الفخامة والامتلاء بسحرها، فإذا وقفنا تحت أعمدة قصر أو في سفح جبل، أو أمام سد أدركنا سر الفخامة فيه.

وعلى ضوء ما تقدم يمكن أن نقسم مقولة "بشر" إلى فرعين يستقطبان علم الجمال كله، تكشفه الخطاطة

التالية:



تكشف الرسمة إن علم الجمال – أو بالأحرى النظرة الجمالية الاعتزالية – يقوم على أساسين: الوضوح والتبليغ. وبذلك جاءت الوثيقة، وتضافرت الإشارات فيها لتأكيد هذا المطلب، إذ يتوقف الشرط الأول: "الوضوح" على حق داخلي تترتب عنه مسؤولية المؤلف من الناحية الجمالية الصرفة. أما الشرط الثاني: "التبليغ" فيقوم على حق آخر خارجي تترتب عليه مسؤولية أخرى، هي حق التلقي وما ينتظره من فعل القراءة والسماع.

هوامش:

- 1-إحسان عباس. تاريخ النقد عند العرب.ص:16.
- 2-أنظر صحيفة بشر بن المعتمر.في. شوقي ضيف. البلاغة تطور وتاريخ. ص:41. وكل الإحالات تكون على كتاب شوقي ضيف المذكور فيما يخص الصحيفة.
- 3-ابن رشيقي. العمدة.ج.1.ص:208.
- 4-م.س.ص:206/1.
- 5-م.س.ص:207/1.
- 6-انظر.م.س.ص:207/1.
- 7-م.س.ص:207/1.
- 8-شوقي ضيف. (الصحيفة) ص:41.
- 9-أبو هلال العسكري. الصناعتين.ص:139.
- 10-شوقي ضيف. (الصحيفة) ص:42.
- 11-م.س.ص:43.42.
- 12-م.س.ص:43.42.

في تأصيل المنهج التراثي: فعل الشرح نموذجاً

د. نريا السوسية النيفر

تونس

ملخص:

لقد انصرفت جهود العلماء العرب - في فترة من تاريخهم - إلى الحفاظ على تراثهم العلمي والمعرفي بوضع متون في شتى الاختصاصات. وقد صيغت هذه المتون على نحو مختصر ومختزل، مما جعل الحاجة إلى شرحها وتوضيحها أمراً ضرورياً ومنهجياً. فانطلقنا من فرضية مفادها أنّ العمليات المشابهة لفعل الشرح كالتلخيص والتحقق والتحشية والتذييل والتقرير لا تمثل ترفاً معرفياً هامشياً بقدر ما تعدّ ضرباً من ضروب التفاعل المعرفي الضروري لتوسّع العلم، وربما كان سمة دفاعية لبقائه، وهي إذ تُنجزُ على المتن فإنّها تمثله حيناً، وتستثمر معارفه وتعيد صياغتها وإنتاجها في أحيان كثيرة.

فلم تكن صناعة الشرح على وجه الخصوص سوى عملية ضرورية لانتظام العلم عند متعلميه. فتطلب من مؤلفها سعة اطلاع، وتشرط على واضعها شكلاً في الكتابة. ولأنّ كلّ محاولة لممارسة فعل الشرح هي ضرب من ضروب التلقي التي يحظى بها المتن، باعتباره نصّاً علمياً، فإنّه صار وجهاً من وجوه الاستقبال المعقد والمركّب، للعلوم العقلية، القائمة في جوهرها على الاستدلال، فتحوّلت نصوص الشرح إلى هندسة على غاية من الانتظام.

ولأجل ذلك كلّه اتخذنا مدونة الشروح البلاغية المتراكمة على متن "التلخيص للخطيب القزويني" (739هـ)، عيّنة

للبرهنة على أنّ فعل الشرح فعل معرفي تأصيلي بامتياز وليس ممارسة نصية عقيمة يحكمها منطق التكرار والسلب.

الكلمات المفتاحية: متون - شروح بلاغية - التلقي - نص علمي - تلخيص - هامش - فعل معرفي - تراث علمي

Abstract :

The efforts of the Arab scientists - in a period of their history - to preserve their scientific heritage and knowledge of the status of "corpus" (متون) in various disciplines. It has been drafted in a concise and concise manner, making the need to explain and clarify it necessary and systematic. We supposed that processes similar to annotation such as summarizing, investigating, annotating, appending, and reporting do not represent a marginal cognitive luxury, but rather a kind of cognitive interaction necessary for the expansion of science, and perhaps a defensive feature of its survival. Often produced.

In particular, the industry of explanations was only a necessary process for the regularity of science among its learners. It requires its authors to have knowledge, and requires its authors to form in writing. Because every attempt to practice the act of explanation is a form of reception that the text receives as a scientific text, it has become one of the complex and complex faces of the science of mind, which is essentially based on inference, turning the texts of explanation into a very regular geometry.

For all of this we have taken the rhetorical commentary accumulated on the "talkhis" for the elocutionist "al khatibalqazwini" (739 e), a sample to demonstrate that the act of explanation is an epistemological act of excellence rather than a sterile textual practice governed by the logic of repetition and looting.

Key words; act to explanation - the rhetorical commentary- reception – scientific text –margin-footnote-epistemological act- scientific heritage

مدخل:

نروم بالبحث في مفهوم الشرح منهجا أن نتجاوز فكرة اعتباره تمرينا مدرسيًا، يكتفى فيه بحكاية المتن حرصا على التقيّد التامّ به وفهمه كما هو، دون زيادة أو نقصان. لهذا كانت الفرضيّة التي اعتمدنا تستند على مفهوم للشرح يتماهى مع سؤال "القراءة، وأنّ وراء فكرة تعدّد الشروح تعدّدا في مستوى قراءة المتن الواحد في الجيل الواحد من الشراخ أو على مدى أجيال متباعدة في الزمن. وهو أمر يطرح إشكاليّة هامة وهي:

هل أنّ تعدّد القراءات للنصّ علامة من علامات ثراه وقوّته أم أنّ " فعل القراءة/الشرح" فرديّ يتغيّر بتغيّر أسبابه وأصحابه؟

يبدو أنّ مفهوم "الشرح" في الخطاب البلاغيّ والنقديّ القديم مفهوم محوريّ تحرّكه غايات البحث ومقاصده من جهة، ومشاريع البلاغيين والنقاد وانسجامهم مع هذا التصوّر من جهة أخرى. وربّما كانت أهميّة هذا المفهوم مرتبطة أشدّ ما يكون الارتباط بمستويات توظيفه لأغراض التّأليف وحاجاته.

1- فكرة المتن: اختصار العلم واختزاله:

أفردت الموسوعة الإسلاميّة³ مدخلا لهذا اللفظ-corpora، واكتفت في الدلالة على مادّة "matn"، بالإشارة إلى سبب التسميّة قديما، فالمتن يطلق على النصّ لتمييزه عن نوعين من النصوص: النصوص الشّفويّة والنصوص الهامشيّة أو الحواشي. فتسمية نصّ من النصوص بالمتن وتصنيفه على ذلك التحو، كان يحفظه من التقدّم من قبل الفقهاء ومن العلماء، فاكتسى أهميّة وسلطة.(ومنها متون الأحاديث الصّحيحة).

وقد عرفت المتون طبيعة لا تفارقها وهي الاختصار، لأنّها تضبط أصول العلم بإحكام. وتضع كلّ مسائله على نحو يخلو من الاستطراد أو التّبسط. فسمّتها التّنظيريّة التّصوريّة، تجعلها نصوصا دقيقة في مصطلحاتها⁴، ومميّزة في نمط كتابتها. لكن ما نحفظ به في هذا المستوى، أنّ العوامل التي أفرزت هذا الصنّف من الكتابة العلميّة يعود إلى "نظام تاليفي" كامل، تطوّرت أسبابه وبواعثه، وساهمت غايات أصحابه في التّبسيط والتّسهيل على المتعلّمين للقواعد العلميّة من جهة، وحفظ أصول

¹ - يفسّر الباحث محمد صالح بن عمر" في مقولة النصّ الجمع" مفهوم تعدد القراءات في اطار مفهوم تدوروف للنصّ الأدبيّ، حيث يشتمل هذا الأخير على "مجموعة من النويات الدلاليّة البارزة أو البؤر تكون طاغية على بقية جوانبه... وأنّ تحديد تلك البؤر يختلف من قارئ إلى آخر فينتجه كلّ قارئ الوجهة التي يحددها اختياره" (ص252، الحوليات 45دد، 2001) وعليه بنى بقية المفاهيم المتعلقة بتقبل النصّ (الأدبي) من قبيل مفهوم "الذاتية" و"المتعة" و"جمالية النصّ"
² - قال ابن خلدون في مقدمته: " ذهب كثير من المتأخرين إلى اختصار الطرق والأجزاء في العلوم، يولعون بها، ويدونون منها برنامجاً مختصراً في كلّ علم، يشتمل على حصر مسائله وأدلتها، باختصار في الألفاظ، وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن. وصار ذلك مغللاً بالبلاغة، وعسراً على الفهم، وربما عمدوا إلى الكتب الأمهات المطولة في الفنون بالتفسير والبيان، فاختصروها تقريباً للحفظ، كما فعله ابن الحاجب في الفقه وأصول الفقه، وابن مالك في العربية، والخونسي في المنطق، وأمثالهم، وهو فساد في التعليم، وفيه إخلال بالحصيل، وذلك لأن فيه تخليطاً على المبتدئ بإلقاء الغايات من العلم عليه، وهو لم يستعد لقبولها بعد، وهو من سوء التعليم... ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم، بتتبع ألفاظ الاختصار العويصة الفهم بتزاحم المعاني عليها وصعوبة استخراج المسائل من بينها، لأن ألفاظ المختصرات تجدها لأجل ذلك صعبة عويصة، فينقطع في فهمها حظّ صالح من الوقت..." (المقدمة، الباب6، فصل36، ص551).

³ -انظر الموسوعة الإسلاميّة، مادّة "matn"، ط1990، المجلّد السّادس، ص834-833

⁴ - عدّد ابن خلدون سمات المتون ووظائفها، ولعلّ أبرزها: * عمق علميّ يتجلّى في كثرة المعلومات، وتنوعها، وترتيبها ترتيباً ما، فهي تحوي فوائد العلم والإضافات التي لا توجد في المطولات./ * تقدّم صورة مختصرة للفنّ الذي ألف فيه، يستطيع المتعلّم الإحاطة بها في زمن قليل، لأنّ من سماتها الاختزال والتّجريد الذهنيّ./ *أسلوبها في التصنيف يربّي فضيلة البحث والتّمحيص وينبّي حلية الصبر، ويعوّد على الدقة والمنهج. فالبيدانية في التعلّم، تكون بالمختصرات (المتون)، ثم يطّلع على شرحها من عالم محقّق. (المقدمة، الباب 6، الفصل2، انظر، ص413 وما بعدها).

العلوم بدقّة، وإنّ في صور مختلفة، من جهة أخرى. ممّا ساهم في ظهور ترانبيّة: بين متون تحفظ من العلم جوهره ولبّه، وبين شروح موضوعة لسدّ الفراغ العليّ، ممّا يتناسب مع التطوّر الطبيعيّ لعصور التّوسّع والتّخصّص والإفاضة وتقريب العلم للمتعلّمين.

وأحدث وجود المتون وجود الشروح. بل نشأ ترابط طبيعيّ بين هذين النوعين من الممارسات النّصيّة في التّأليف قديماً. فالنّوازي في وجود النّصّ المختصر والنّصّ المتبسّط له، خلق بدوره نوعاً من "الاتصاليّ القرآنيّ" (نهبان، 2015، ص303) بين النّصوص والأجيال والقراء والعصور.

2- ظهور الحاجة إلى الشرح¹:

حين يؤكّد العلماء الأوائل على أنّ الحاجة للشرح ليست إلّا حاجة ابستيميّة معرفيّة من درجة أولى، فإننا نعلّل الأمر باعتباره ظاهرة تهيأت لها الأسباب لتكون. ويلخّص ابن حسن القنّوجي في موسوعته (ط2001، 1) أهمّ هذه الأسباب التي تجمع في رأينا منهج القدامى في استقصاء المعارف والعلوم تصنيفاً دقيقاً درءاً للفوضى في التّأليف ووضع الكتب، يقول:

" اعلم أنّ كلّ من وضع كتاباً إنّما وضعه ليُفهم بذاته من غير شرح، وإنّما احتيج إلى الشرح لأمر ثلاثة:

- الأمر الأوّل: كمال مهارة المصنّف، فإنّه لجودة ذهنه وحسن عبارته يتكلّم على معان دقيقة بكلام وجيز وكاف للدلالة على المطلوب، وغيره ليس في مرتبته، فرّبما عسر عليه فهم بعضها...ومن هنا شرح بعض العلماء تصنيفه.
 - الأمر الثاني: حذف بعض مقدّمات الأقيسة اعتماداً على وضوحها، أو لأنّها من علم آخر أو أهمل ترتيب بعض الأقيسة، فأغفل علل بعض القضايا فيحتاج الشارح إلى أن يذكر المقدّمات المهملة ويبين ما يمكن بيانه في ذلك العلم...ويرتبّ القياسات ويعطي علل ما لم يُعط المصنّف.."
 - الأمر الثالث: احتمال اللفظ لمعان تأويليّة أو لطافة المعنى عن أن يعبر عنه بلفظ يوضحه، أو للألفاظ المجازية واستعمال الدلالة الإلزامية، فيحتاج الشارح إلى بيان غرض المصنّف وترجيحه" (م السابق، ص 141)
- ورغم أنّ هذه الأسباب الثلاثة تبدو للوهلة الأولى مختلفة الأبعاد إلّا أنّها تشترك في الغاية الأساسيّة (أشرنا إليها بسطر تحتها) وهي "الإفهام والإبلاغ" وربّما كرسّت هذه الغاية المنحى التّعليمي الذي طال نصوص الشروح طيلة تاريخها واختزلتها في هذا الركن الضيق. فالحاجة إلى الشرح في اعتقادنا تتجاوز مجرد التّعليم والإبلاغ والتّوضيح، "لأنّ النّصوص في نشأتها أبنية معرفيّة تتصل اتصالاً وثيقاً بالعالم الخارجي...وتعامل النّصّ مع مستويات متعدّدة من القراء حتّى في عصر واحد أو استمراره عبر عصور، كلّ ذلك يبرّر الحاجة إلى النّظر في النّصّ من خلال "قراءات" متكرّرة ومتجدّدة، طالما بقيت للنّصّ الأصليّ مبررات البقاء في ظروف تختلف عن "لحظة الوضوح" التي يفترض أنّها كانت موجودة عند النشأة الأولى" (نهبان، 2015، ص301).

وبما أنّ قضيّة شرح النّصّ تتعلّق بالأساس بالدلالة¹، فإنّ ذخيرة المعاني المحتملة لا تنضب وربّما " كان الحوار معها في ظروف مغايرة مكسبا يتفق مع الحقبة الراهنة جماليّاً أو عمليّاً" (م ن، ص304).

¹ - تلقى العرب أدبهم بالرواية في أوّل وعيهم بالقول البليغ وأصنافه، يتفهمون مراميه وظلاله دون حاجة إلى معان مصطنعة تفسّر غربياً أو توضّح غامضاً أو تشرح ملتبساً. فكانت الشّروح الأدبيّة بداية من منتصف القرن الهجريّ الثّاني، لا تتعدّى تفسير كلمة غريبة أو عبارة مجازيّة أو إبراز المناسبة التاريخيّة للشّعر، بل ازدهرت حركة الشّروح مع الزّمن ليصبح للشّراح طبقات. كان همهم في البداية جمع الشّعر العربيّ وحفظه من الضياع. فالتعليقات والشّروح كانتا عنصراً ثانويّاً عارضاً على رواية الشّعر وتدوينه.

فالشرح جسر ينتقل عليه النصّ من لحظة تاريخية معينة (عصر، بيئة، ثقافة، مجتمع...) إلى لحظات تاريخية أخرى... "حاملا الكثير من مغزى النصّ الأصليّ أو القليل منه في مسار زمنيّ- معرفيّ يصبح النصّ من خلاله قابلا نسبيا للمرور من خلال الخبرات الفردية المختلفة للقراء" (م ن، ص302) الذين يقومون أثناء تلقّيهم بدورهم في إعادة القراءة بالشرح.

3- فعل الشرح: to explain-comment on:

نودّ في البداية الإشارة الى أنّ مفهوم الشرح قد تُدوّل في دراسات سابقة لبحثنا هذا، و قد تناولت المفهوم بالدّرس والبحث² من زوايا مختلفة على نحو جزئيّ، وأغلبها منهجية بالأساس. فلا نكاد نظفر بكتاب أُفرد للمفهوم وأفاض فيه صاحبه إفاضة لا تلجى الباحث لغيره ونرجع الأمر الى زهد الباحثين في هذا المبحث والكتب المصنّفة في بابه على خلفيّة القدم والتكرار. أمّ عن الدلالة اللغوية للشرح فإنّها تحيل في المعاجم على عدّة معان. وحاولنا استقصاء الدلالات الواصلة بينها وربطها بعملية الشرح الاصطلاحية، فوجدنا المعاني التالية:

- معنى الظهور والبيان والوضوح
- معنى القطع أو التجزئة³
- معنى الكشف⁴
- معنى الفتح والتبيين والفهم
- معنى التوسّع والامتداد والتّصنيف
- معنى التفسير والتّعريف¹ والمعرفة

¹ يرى الباحث كمال عرفات نهان أنّ أسبابا تقف وراء ضرورة أن نشرح نصّ المتن او النص الاصليّ. وقد أُفرد لها فصلا على أهميته المعرفية رأينا أنّه يحتاج الى تجريد وضبط. فقد أوجد ثمانية ضرورات تجعل للشرح مشروعية نذكر منها (تقريب اللغة الفوقية الصعبة للنصّ الاصلي من القراء.. وبذرية النص ودلالاته المتجددة..وقوة الارتباط بين ثقافة معينة وبين نص ونص معين وغيرها) ورغم المجهود الواضح في الاستقصاء لصاحبها والمعرفة الموسعة بالكتب والمؤلفات، فإنّه كان يمكن منهجيا ارجاع الاسباب الى ثلاثة رئيسية، لأنّ الباقي منها متفرّع عنها، كما تجدر الإشارة الى ما وجدناه من مماهة بين فعل الشرح وفعل التفسير. فقد راينا برادف بينها في أكثر من موضع. وقد عمدنا الى تسمية التفسير بفعل التفسير لأننا نراه أيضا فعلا معرفيا يحتاج نظرا وبحثا، ولا يلتقي مع دلالة الشرح الآ في بعض معانيه. (انظر ص301 الى 304 وما بعدها)

² وهي أربعة أعمال، نوردها حسب الأسبقية الزمنية:

- كتاب « البلاغة والسلطة في المغرب: أحمد بن محمد بن يعقوب الولايلي»، للباحث المغربي عبد الجليل ناظم، دار طوبقال للنشر، ط2002، ص1.
- كتاب « شرح الشعر عند العرب: من الأصول إلى ق14هـ، دراسة سيكرونية»، للباحث التونسي أحمد الوديني، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط2009، ص1.
- مقال « نحو بناء مدخل منهجي لمقاربة شروح تلخيص المفتاح للزويني» للباحث المغربي عبد الله الرشدني، ضمن مجلّة اللسانيات واللغة العربية، جامعة باجي مختار، عتابة الجزائر، ع8د، 2012، ص16.
- أطروحة « تلقي المتن البلاغي بين الشرح والتأويل: شروح التلخيص نموذجا»، وهي أطروحة دكتوراه مرقونة ناقشناها سنة2017، في كلية الآداب والإنسانيات بمنوبة. بتونس

³ شرح شرح الله تعالى صدره للإسلام وانشرح صدره. وشرح اللّحم.. ومن المجاز: شرح أمره: أظهره وشرح المسألة بين جوابها، ومالي أراك تشرح إلى كلّ دنية وهو إظهار الرغبة إليها. (أساس البلاغة للزمخشري، ج2، ص13)

⁴ وجاء في اللسان: الشرح والتّشريح: قَطُّ اللحم عن العضو قطعاً. وقد شَرَّخْتُهُ وشَرَّخْتُهُ: والنَّصْفُ نَحْوُ من التّشريح، وهو تَرْقِيبُ البَضْعَةِ من اللحم حتى يَشْفَى من رَقَبَتِهِ ثم يُلْقَى على الجَمْر. والشرح: الكَشْفُ؛ يقال: شَرَّخَ فلان أمره أي أوضحه، وشَرَّحَ مسألة مشكلة: بيَّنها، وشرح الشيء وشَرَّخَهُ: فتحه وتبَّنه وكشَّفه. وكلّ ما فُتِحَ من الجواهر، فقد شُرِّحَ أيضاً. تقول: شَرَّخْتُ الغامضَ إذا قَسَّيْتَهُ؛ وشَرَّحَ اللهُ صدره لقبول الخير فأنشَرَحَ: وَسَّعَهُ لقبول الحقِّ فأبْسَع. عن ثعلب؛ قال أبو عمرو: الشَّارِحُ الحافظ. قال ابن الأعرابي: الشَّرح الحفظ، والشَّرح الفتح، والشَّرح البيان، والشَّرح الفهم، والشَّارِحُ في كلام أهل اليمن: الذي يحفظ الزرع من الطيور وغيرها. (مجلد7، ص50)

- معنى الحفظ

يتوزع هذه المعاني المختلفة أربع دلالات جامعة:

- دلالة عامة تستغرق معنى القطع والتجزئة وما يحيل عليه هذا الفعل من معنى كَيّ يفيد تكثير الشيء وتوسيعه (الامتداد) ولكن على نحو منظم ومرتب (التصنيف).
 - دلالة مادية تحيل على معنى الحفظ وهو معنى دقيق. فشرح الشيء يؤدي إلى حفظه من التلف والضياع والفساد.
 - دلالتان مجردتان: تفيد الأولى معنى الكشف والبيان والإيضاح للغامض والمشكل من الأمور لغاية معرفية. والثانية تحيل على معنى التهيؤ للشيء والاستعداد له. وتدلّ عليه ألفاظ الفتح والتوسع.
- ويبقى مفهوم الشرح بمعنى البيان والتوضيح عبر آلية التجزئة هو المقصود والمراد من هذه الدلالات. ولعل في ذكر العمليات التي تستدعي الشرح مزيدا من التعمق في اصطلاح هذا اللفظ.

4- العمليات المشابهة لفعل الشرح:

إنّ كلّ شرح يمتلك رؤية خاصة به، تشي بطابع خاصّ يحيلنا على فترات زمنية تطوّر فيها العلم. وهي أيضا تحيل على رؤية متجانسة ومنسجمة مع ابستمية العلوم العربية في العصور التي امتدّت إلى فترات تاريخية متأخرة.

وقد مثل الشرح اللغويّ المكوّن الأكثر حضورا وتداخلا في عملية الشرح، والجامع لنسق الكتابة الشارحة في خطاب الشرح عامة. فيستدعي مكوّنات أخرى بانية لنسيج هذه الكتابة، من أقوال وأمثال وحكم وأشعار وآيات، وكلّ ذلك مندرج في إطار الرؤية الشمولية لكلّ شارح، والتي تبحث بدورها عن خصوصية نسق في الكتابة، وكأنّ الشرح هنا وجه معادل لمفهوم الموسوعية التي تنطوي هي نفسها على مختلف أشكال الاستقصاء والتفسير والبيان.

على أنّ اجتماع الدالّتين اللغويّة والاصطلاحية لمفهوم الشرح، يفترض التساؤل عن سمات خطاب الشرح عامة والوظيفة التي يرقى إليها. فهل يكون خطاب الشرح خطابا مزدوجا: مزدوج الوظيفة؟ ألا ينبغي أن يكون تلقّي المتن وفق رؤية مغايرة، في كلّ مرّة يُشرح فيها، رؤية لا تصف وتعلّق فحسب، بل تُعيد تأويل سمات المتن ومصطلحاته، باستلهام ما تمنحه العلوم والتصوّرات العلميّة السائدة في العصر؟

ولأنّ فعل الشرح فعل شديد الأهمية والخصوصية في مجال التأليف النصيّ لم يكتف العلماء بشكل واحد من أشكال الشرح بل اتخذوا اشكالا أخرى مشابهة له، كالحاشية والهامش والتعليق والتقرير والاستدراك وغيرها. وسنفرد للبعض منها بسطة في القول تخبر عن هذا الارتباط.

¹ ونجد في دائرة المعارف القرن العشرين (مجلّد 5، ص372-376) في مادة (شرح) أنّها لم تُبق من دلالات الشرح القديمة إلاّ دلالة التعريف الماهويّ للشيء: "القول الشارح في الاصطلاح المنطقيّ هو ما يدلّ على معنى الاسم في اللّغة أو ذات المسعى في الحقيقة"، وأثبت معها دلالة معرفة الكلّ بمعرفة الأجزاء، ومنه أتى علم التّشريح: "هو علم به تعرف جميع أجزاء جسم الإنسان وارتباطها بعضها ببعض والمواد المتكوّنة منها". طبعة دار المعرفة للطباعة والنّشر، بيروت- لبنان، 1971، ط3. يقول الدّسوقي في مقدّمته: "الشرح في الأصل الفتح، والمراد به هنا التّهيئة" (حاشية الدّسوقي، ج1، ص8).

1-4- الحاشية footnote:

لعلّ أكثر المفاهيم قرباً وحضوراً من مفهوم الشرح هو مفهوم الحاشية. فهي إيضاحات مطوّلة تالية للمتون والشروح. وهي مقصودة لحلّ ما يستغلّق من الشرح وتستدرك ما يفوته والتنبية على الخطأ فيه أو زيادة إيضاحه بالأمثلة والشواهد. لكنّ المعاجم¹ تجعل للمادّة اللّغويّة المستقاة منها دلالات أخرى:

-معنى الامتلاء

-معنى فضائيّ يحيل على الجوف والوسط أو الأطراف

-معنى الفضلة والفساد

-معنى الجمع والضمّ

-معنى الظلّ والاكتناف

في حين تقدّم لنا الموسوعة الإسلاميّة، ثلاث معانٍ متقاربة. أحال الأول على المعنى الفضائيّ، فالحاشية هي النصوص المكتوبة أسفل المتن أو على جنباته. ودلّ المعنى الثاني على أنّ الحاشية هي الملاحظة الهامشيّة في حدّ ذاتها note marginalee - même، أو الملاحظة عامّة. أمّا المعنى الثالث، وهو المعنى الذي يحدّدها باعتبارها تعليقات متفاوتة الطول، موضوعة في فضاء المتن، وهذا القرب هو الذي يسمح ببقائها ومشروعيتها، حتّى صارت بفعل تطوّر حركة التدوين، تقليداً علمياً une coutume scientifique، عند العرب المسلمين. ويدقّق صاحب المقال في وظائف الحاشية، والأسباب التي تكون وراء وضعها، ومنها (م السابق، ص 277):

- لوضع استدراقات مصحّحة لما جاء في المتن des corrections du texte
- لعرض القراءات المختلفة des variantes lectures
- لتقديم إيضاحات معجميّة/لغويّة des explications lexicographiques
- لعرض زيادات أو مراجع إضافية supplémentaires des références
- اعتراضات وانتقادات حول آراء صاحب المتن des critiques sur les opinions de l'auteur

¹ (ح ش و) حشوت الوسادة وغيرها . . وأخرج القصاب حشوة الشاة وهي ما في بطنها. ... وأنا في حشا فلان أي في كنفه وذراه ومن المجاز: عيش رقيق الحواشي وكلام رقيق الحواشي. . (الزمخشري، أساس البلاغة، ج 1، ص 354-356). وفي اللسان ، (مجلّد 3، ص 133-136) دلالات أخرى "الاحتشاء : الامتلاء... والحشو من الكلام: الفضل الذي لا يعتمد عليه.. وحاشية كل شيء :جانبه وطرفه... والحشّي من النبات: ما فسد أصله وعفن.. وهؤلاء حاشيته : أي في ناحيته وظله... الحوش :جمع الشيء وضيمته.."

- مقال "hāshiya" ، ج 3، ص 276-277، صاحب المقال : ف. روستال ،

- يقول صاحب المقال في هذا الباب، ما نعتبره إشارة هامة ومميّزة لهذا النوع من الكتابات :

Étant donné qu'à l'ère du manuscrit, seul ce qui était solidement ancré dans le texte, pouvait survivre lors d'une copie postérieure, l'unique moyen de rendre permanente une annotation, était de la placer à l'intérieur du texte lui-même." p277

ويشير صاحب المقال أيضا إلى أنّ نصّ الحاشية قد يتجاوز مجرد وضع الملاحظات المقتضبة إلى حدّ احتوائها على مواضيع، على غير ذات صلة بموضوع المتن، وأنّ فضاء الحاشية برمتها يتحوّل إلى فضاء عرض مسهب لملاحظات طويلة *étendues des remarques*، ونقول وتعليقات كاملة أو مصنّفات بأسرها *des ouvrages complètes* في بعض الأحيان. ولعلّه يلمح إلى مرحلة متقدّمة من تاريخ وضع الحواشي على المتون، حدّدها بالقرن السابع الهجري/13م).

2-4- الهامش: *margin* :

تشير الهوامش إلى دلالة مخصوصة فضائية تقترن بكلّ ما يحيل على الثانويّ والمذيل ذي الشحنة السالبة. وهي تتعالق مع المتن باعتبارها مكّملة له معرفيًا وفضائيًا. وقد أكّدت المعاجم¹ هذه الدلالة:

-معنى الحركة والسرعة (حركة فوضوية في اتجاهين متعاكسين)

-معنى الكثرة في غير فائدة

-معنى المعالجة والتداخل

-معنى حاشية الكتاب

نستنتج من هذا التعريف أنّ الهامش فضاء مخصوص، متحرّك وغير ثابت، قابل للتوسّع حسب إرادة صاحبه، يحكمه التداخل كناية عن كثرة المباحث والفنون التي يُطعم بها نصّ المتن، فتتخذ لغايات بيانية وتعليمية بالأساس. وأنّه لا وجود له دون المتن في مرحلة أساسية أولى، فهو لاحق في الوجود، ولا تتسع الفضاء كمّا، نجده يحيط بنصّ المتن أو نصّ الشرح، فيعالج صاحب الهامش مهمّ ألفاظه، ويكثر من البيان والاستطراد حتّى تتداخل المجالات المعرفية داخله في كلّ الاتجاهات. ولعلّ أكثر المرادفات التي تتساوى معه في الاستعمال هو مفهوم الحاشية.

3-4- التعلّيق: *comment-gloss*

من معاني التعلّيق عند الشّريف الجرجاني (ص390) "هو أن يعلّق معنى بمعنى، فيعلّق المدح بالمدح ونحوه". ونجد في المعاجم² دلالات أخرى من قبيل:

- معنى اللزوم والثبات

- معنى التركب والالتواء

_ معنى الخصام والاستدراك

_ معنى البلاغة والجدل

¹ - *الهمش*: الكلام والحركة، همش والقوم فهم يهْمشون ويهْمشون ويهْمشون وأمرأة همشي الحديث، بالتحريك: تُكثّر الكلام وتُجَلِّب. والهمش: السريع العمل بأصابعه. وهمش الجراد: تحرك لينور. والهمش: العض، وقيل: هو سُرعة الأكل. ويقال للناس إذا كثروا بمكان فأقبلوا وأذبروا واختلطوا: رأيتهم يهْمشون ولهم همشة، ابن الأعرابي: الهمش والهمش كثرة الكلام والخطل فيغير صواب: (اللسان، مجلد 15، ص92) و"الهمش: الجمع، وهمش، أكثّر الكلام.. واليامش: حاشية الكتاب، مؤلّد. واهتمشوا: اختلطوا، وأقبلوا، وأذبروا، ولهم همشة.. والمهامة: المعالجة وتهامة: دخل بعضهم في بعض، وتخرّجوا (الفيروزبادي، القاموس المحيط، ج 1، ص611 وما بعدها)

² - وعلق الشيء علقاً وعلق به: لزمه... ويقال للأمر إذا وقع وثبت... وتعلّق الباب أيضاً: نصبه وتزكّيته، والعلقي: نبات معروف يتعلّق بالشجر وتلوي عليه. والعلاقة: بالفتح: علاقة، الخصومة. وعلق به علقاً: خصمه... خصيم شديد الخصومة يتعلّق بالخصم ويستدركها؛ ولهذا قيل في الخصيم الجدل: لا يُرسل الساق إلا مُمسكاً ساقاً أي لا يدع حجة إلا وقد أعدّ أخرى يتعلّق بها. والمغلاق: اللسان البليغ؛ ومغلاق الرجل: لسانه إذا كان جدلاً.. (اللسان، مجلد 9، ص253-255).

وهي دلالات كما نرى تُجمع على معنى التَّشَابِك والتَّدَاخُل والترَكُّب. وقد نحفظ بأهمّ سمة فيها وهي هذا التَّفَاعُل والتَّنَازُع حول الشَّيْء الواحد، وهو مناط عمل الشَّرَاح حين يعلِّقون على الظَّواهر بنوع من الاستدراك لغاية التَّعمُّق أو أبعد من ذلك كالمجادلة والمخالفة ..

4-4- الاستدراك: correcting-averting

عبر محاوره نصّ لنصّ كان الاستدراك نوعاً من التَّأليف الذي لقي رواجاً كبيراً في "بداية وضع علوم الحديث¹ ثم انتقل المصطلح إلى التَّأليف في مجال اللُّغة استدراكاً على المصادر الأُمّهات وكتب الأوائل في اللُّغة" (نهبان، ط1، 2015، ص348).

وتؤكّد المعاجم² على أنّ للاستدراك دلالة إيجابيّة في عموم استعمالها. فمن المعاني التي تأتيها من صميم الجذر (د.ر.ك) نجد:

- معنى المتابعة

- معنى اللّحاق

- معنى إدراك النقص وإتمامه

إنّ عمليّة الاستدراك على نصّاً لمن كان أو على أي نوع آخر من التَّأليف، عمليّة لا تمس بناء النصّ المستدرك عليه أو تتدخّل في أقسامه أو بنائه، لأنّها بالأساس ترتبط به كي تتابعه وتلاحقه وتدرك ما ينقصه ليكتمل بحسب تقدير مستدركه. ويتداخل "الاستدراك في التَّأليف العربيّ القديم أحياناً مع التَّدييل في بعض أبعاده ووظائفه... واستخدم كلّ منهما للدلالة على بعدين في التَّعامل مع النصّ، إمّا بالاستدراك على أخطاء فيه أو بالإضافة إليه" (المصدر السابق، ص349). ويتحدّد مجاله في دورانه على النصّ ذاته بالمتابعة والملاحقة والنَّقد والتَّصويب واستكمال المسائل التي ما طرحت في النصّ الأصليّ. ومن هنا تتأتّى أهميّة الجهد العمليّ في الاستدراك، فبه يتحقّق الضبط والإتقان للنصوص والإضافة لها من داخل نطاقها. وهذه هي نقطة الاختلاف بينه وبين التَّدييل، الذي يكون إضافة ومتابعة للنصوص من الخارج أي بعد النقطة التي تتوقّف عندها النصوص.

ولأجل ذلك أيضاً تلقى تبة الاستدراك على كلّ من يجمع ويدوّن ويوثق بعض هذه النصوص ويقوم بتخريجها، هدفه في ذلك التَّدقيق والتَّمحيص والدراسة المتأنية لكلّ جزئيات النصّ "بالتنبه على ما فات وما أغفل من صيبغ أو استعمالات أو مفاهيم من جهة... أو بالتنبه على الخطأ والوهم" (م ن، ص354).

4-6- التَّدييل: addition-supplementation

إنّ المعاجم اللُّغويّة لا تسعفنا كثيراً لنعرف دلالة التَّدييل. ففي اللِّسان نجد أنّ مادة (ذ.ي.ل) تتمخّص لمعنيين رئيسيين: يتَّجه الأوّل إلى معنى الإطالة، والمعنى الثاني إلى آخر كلّ شيء¹.

¹ - يلاحظ الباحث نهبان ان مجالي الحديث واللغة هما اخصب المجالات التي شهدت تأليف المستدركات اكثر من غيرها (التفسير والأدب مثلاً)...وعلى ذلك بان النصوص في هذين المجالين "اكثر خضوعاً لمعايير الخطأ والصواب واشد حاجة لتعقب النقصان والزيادة. فالجزئيات الدقيقة فيما لها أهميتها وخطرها" (نهبان، ط1، 2015، ص350)

² - " الدرّك: اللّحاق... الدرّك: اللّحاق والوصول إلى الشيء... الدرّك: التّبعه... واستدرك الشيء بالشيء: جاول إدراكه به... وادرك الشيء: بلغ وقته وانتهى. وادرك أيضاً فني... وادركت الثمار اذا بلغت إناها وانتهى نضجها... وادرك: أسفل كل شيء ذي عمق... (اللسان، مجلد 5، ص248-249)

ونجد أنّ التّديلات نفسها لها كلمات تتّصل بها وتذكر بديلاً عنها في عناوين الكتب، فهناك "الذيل، والصلة، والتّمتة، والتكملة، والاكمال، والزيادة، والتّذنيب.." (نهبان، 2015، ص355). وليست التّديلات نصوصاً تابعة للنّص الأصلي، فهي في الغالب مستقلة "تالية" في ارتباط بالأصول. وتكمن وظيفتها بالأساس في الاستدراك على نواقص النّص الأوّل، بل هناك نوع من التّديلات التي بعد ان تستدرك تتابع التغطية بعد نقطة الاغلاق التي توقفت عندها النص الاصيلي وهو التّذييل المتداخل.²

وتتعلق أغلب هذه المفاهيم مع مفاهيم أخرى وتتداخل في الاستعمال على سبيل التّرادف حيناً، أو على سبيل المقارنة أو الاستدعاء، من قبيل مفهوم التّقرير³ ومفهوم التّحقيق⁴ ومفهوم التّصحيح⁵ ومفهوم التّفسير. ولها من الدلالات ما تتفق فيه مع المفهوم الرئيسي في بحثنا وما تختلف فيه. وقد وقفنا على دلالاتها اللغوية دون الاصطلاحية في هوامش المقال.

5- فعل الشرح: فعملتق:

إنّ المنجز النظريّ الذي حقّقه نظريّة التلقّي كان حليف النّص الأدبيّ، وشكّل كلّ من التلقّي والتّأويل عمادها، ولم تتضح ملامح توظيفها على نصوص علمية تصوّرية، وهو أمر علينا الوعي بنتائجه والحذر من استتبعاته.

وقد اعتبرنا بالاستناد على المنجز النظريّ لهذه النظرية أنّ فعل القراءة فعل توليد مستمرّ، لأنّ النّص الذي يمارس عليه فعل القراءة ليس نصّاً ثابتاً، وما يستخرج منه من تأويلات، إنّما هو راجع إلى تفاعل القراء معه، ولعلّ ما يفسّر اختلاف القراء في قراءة النّص الواحد ليس إلاّ «تغيّراً في أفق التلقّي».

إنّالبحثعنكيفية التّقبّلواعتبارالتلقّيعمليةبناءجديدة، تجعلعمليةمقارنةالنصوص (المتن- الشّروح) وإقامة المناسب تبيينها وردّها إلى مضانها «عملاً فيلولوجياً» (صمّود، 1999، 480)، قد يكشف لنا عن منطق الخطاب، وعن الكيفية التي بها يتوجّه التّقد إلى الآليات المنتجة له « وليس فقط إلى نتائجها التي لا تمثّل منه إلاّ السطح، ولأنّها أيضاً تسعى إلى ممارسة نقد علميّ وليس نقداً جداليّاً» (من، 275).

¹ - " الذيل: آخر كلّ شيء، وذيل الثوب والإزار: ما جرّ منه اذا أسبيل... والذائل والذيل الطويل الذيل... وذيل المرأة ما وقع على الأرض من ثوبها من نواحيها كلّها... وحلقة ذاتة ومذالة: رقيقة لطيفة مع طول... وذيل الرّيح: ما انسحب منها على الأرض. وذيل الرّيح: ما تركه في الرمال على هيئة الرّيس ونحوه كأنّ ذلك إنما هو أثر ذيل جرّته " (اللسان، ج6، ص54-55)... وعند الزمخشري " أذاله: أهانه. وجاءنا أذبال من الناس وذبول أي أواخر منهم . وذيل كلامه تذيلاً وتسرح: تيسط فيه غير محتشم. وفلان طويل الذيل: غنيّ. وذالت حاله وتذالبت: تواضعت. وأذالت المرأة قناعها: أرسلته... (أساس البلاغة ج 1، ص649-648).

² - أفرد الباحث كمال عرفات نهبان فصلاً دقيقاً عن أنواع التّديلات وأسباب وجودها ووظائفها، لم نجد فيما قرأنا أكثر دقة واستقصاء منه. لذلك نحيل على منجزه في هذا الباب. (انظر من ص355 الى 382)

³ - هو بمثابة هوامش كان يسجلها العلماء والمصنّفون على أطراف نسخهم ممّا يعنّ لهم من خواطر وأفكار على نقطة معينة في النّصّ المتن، أثناء قيامهم بالتّدرّس من الشّروح والحواشي.

⁴ - معنيّ التّحقيق: "وَحَقَّقَ الْأَمْرُ يُجَقُّ: صار حَقّاً وَنَبَتَ: قال الأزهرى: معناه وَجِبَ يَجِبُ وَجُوباً، .. أثبتته وصار عنده حَقّاً لا يشكُّ فيه. وَحَقَّقَهُ وَحَقَّقَهُ: صَدَّقَهُ: وقال ابن دريد: صَدَّقَ قائله.. ويقال: أَحَقَّقْتُ الْأَمْرَ إِحْقَاقاً إِذَا أَحْكَمْتَهُ وَصَحَّحْتَهُ؛ وَحَقَّقَ الْأَمْرَ يَحْقُقُهُ.. كان منه على يقين؛ وَحَقَّقَ.. وكلامٌ مُحَقَّقٌ أي رَصين؛ ويقال: أَصَبْتُ حَاقَ عَيْنِهِ وسقط فلان على حاقٍ رأسه أي وَسَطَرُ أَسْهُ، (اللسان، مجلد 4، ص176)

⁵ - معنيّ التّصحيح: "وَصَحَّحَهُ اللهُ، فهو صَحِيحٌ.. أي غير مقطوع، وهو أيضاً البراءة من كلّ عيب وريب: . وصحّح الطريق: ما اشتدّ منه ولم يسهّل ولم يوطأ: . ووصحّحت الكتاب والحساب تصحيحاً إذا كان سقيماً فأصلحت خطأه. والصحيح من الشّعر: ما سلّم من النقص (اللسان، مجلد 8، ص201)

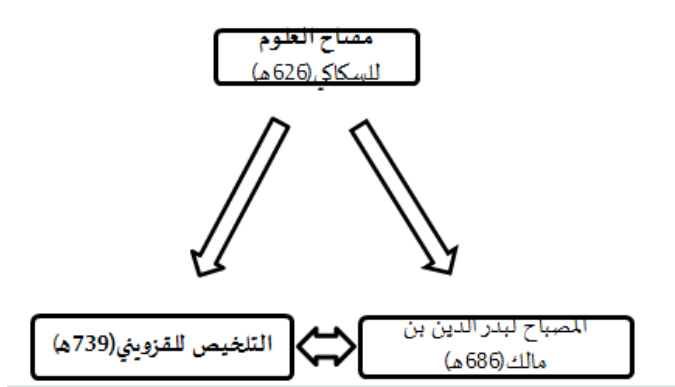
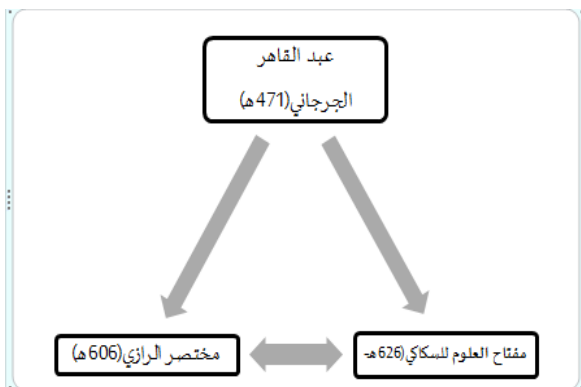
6- في هندسة وانتظام نصوص الشرح:

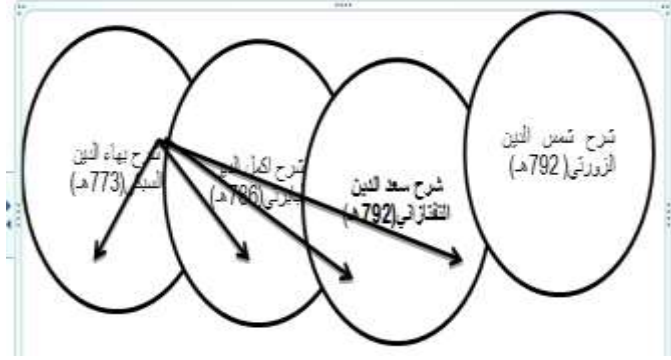
يأتي النصّ الشّارح مصاحباً لنصّ المتن. وهذا في رأينا يصنع انتظاماً أولياً. فلا يكون شرح مطلقاً دون نصّ أصليّ سابق في الوجود يفتح كينونته. وربّما كان النصّ الشّارح حاضراً فيه بالقوّة منذ البداية ، وإنّما احتيج إلى تفعيل هذه القوّة وإنجازها بالفعل عند تلقّيه باعتبار ما هو طارئ من أسباب تجعل النصّ الشّارح " مسوقاً على حسب إدراك أهل الزّمان وبمقتضى ما تدعو إليه الحاجة" (ابنحسن القنوجي، أبجدالعلوم، ص139).

إنّ قارئ نصّ الشرح يكون مراعيًا في قراءته لهندسة داخلية تربط بين شبكة من النصوص (ثلاثة أو أكثر) يترتّب وفقها نصّ أصليّ أو متنثمّ نصّ ملخّص، ويليّه نصّ شارح، وربّما وُضع على الشّرح حاشية، وزيد على الحاشية هامش أو تذييل. وهكذا دون أن نتوقّع انغلاق الدوائر على النصّ الأوّل، ينشأ نوع من المصاحبة والتّوالد والتراكم الذي لا نراه بجانب الفوضى، بل هو انتظام لأجناس من التّأليف العربيّ عامّة، ولما عرفه درس البيان "منحياة نموذجية في سياق ابتداء مع عبد القاهر الجرجاني وانتهى إلى الشّرح" (ناظم، 2002، ص54).

فبعد مرور نحو القرنين من ظهور كتابي الجرجاني " أسرار البلاغة" ودلائل الإعجاز"، " بحران تشعّبُ منهما العيون" (ابن حسن القنوجي، أبجد العلوم، ص440)- ظهرت آثارهما جليّة على التّصانيف اللاحقة لهما، بل إنّ رائحة الجرجاني ما انفكت تتسرّب عبر القرون. ففتظنّ السكاكي(626هـ) إلى ما احتوت عليه هذه الكتب من أصول منهجية. ولعلّ أبرزها المقولة الكبرى المحرّكة للتأليف آنذاك، وهي مقولة الإعجاز وأسراره، "وإنّما ثمرة هذا الفنّ (البيان) إنّما هي في فهم الإعجاز من القرآن، لأنّ إعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة وهي أعلى مراتب الكلام مع الكمال فيما يختصّ بالألفاظ في انتقائها" (القنوجي، ص444). ولم يبتعد معاصره فخر الدين الرّازي(606هـ) كثيراً عن استحضار فكر الجرجاني في مختصره "نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز".

وللمتأمل في هذا الانتظام (من خلال الرسم البيانيّ أسفله) بين هؤلاء البيانيين يلاحظ تعاقداً خفيّاً على نحو غير مباشر بينهم، لكنّ الذي يربط الصلات بين نصوصهم، سيرى بوضوح أنّ ما أقرّه الجرجاني من مفاهيم في قراءته الذاتية لعلم البلاغة قد ظلّ قائماً عند القراء الشّراح من بعده بأبعاده منوال مؤسّس، ولكن فهمهم لمكوّنات هذا المنوال هو مناط الاختلاف في قراءة كلّ شارح.



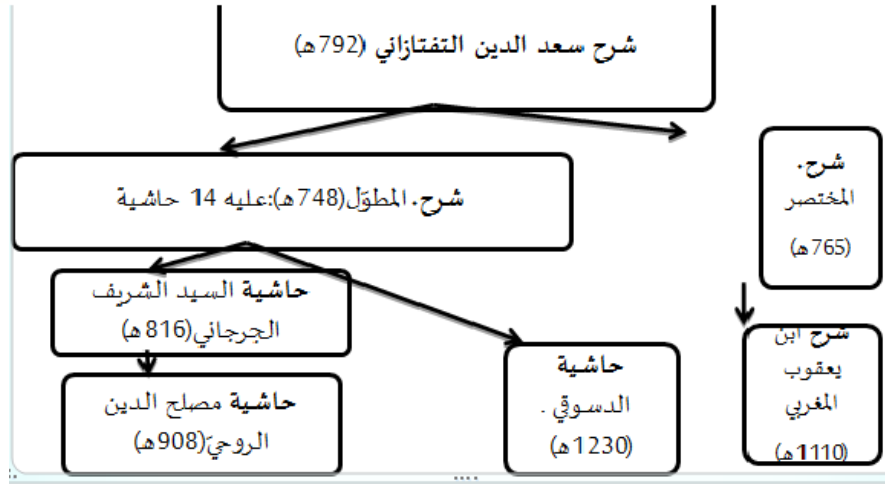


قد يكون تمكُّن أغلب الشُّرَّاح من موضوعات العلم ومضامينه ورصد المعلومات التي يحتويها المتن، موجِّهاً نحو العناية بتوظيف هذا الشُّكل في الكتابة، لغاية الردِّ على القضايا الخلافية من جهة، وتمرير الأفكار والمفاهيم الخاصة بهم من جهة أخرى. لذلك يغلب عليها "المنهج الوصفي" عامةً. باعتبار أنَّ الشُّرَّاح، على اختلاف أجيالهم، يتَّخذون المتن مادَّةً أوليةً للنقد والبحث والتعليل. ولكنهم في مقابل ذلك لم يضعوا فنَّ الشُّرح في إطار التَّقدِّم التَّطبيقيِّ بصفة عامة. بل كأنَّ الشُّرح كان شكلاً لكتابة نظريَّة مؤطرة. ويشترط لفهم آليات دراستها تنزيلها في السياق المعرفي الذي ترد فيه ووفق الخلفية المعرفية للشُّرَّاح نفسه. وهذا التَّصوُّر قائم على افتراض: أنَّ نصَّ الشُّرح يحوِّل مادَّة المتن جزئيًّا أو كليًّا ويوظفها على نحو يكون مستجيباً فيه إلى أسئلة القراءة عند صاحبها.

لاسيما وأنَّ هذا النصَّ الناتج عن فعل الشُّرح يظلُّ حاملاً في طبيعته "جينات" المتن. فيرث سماته ويحقق صفاته ويثبت ما فيه ويؤكِّده بتكراره. فيتشرب تفاصيله ويتبع تضاريسه بحكم طبيعة الوراثة التي تتصل بالفضاء الحاضن الأولي لها وهو النصَّ المؤسِّس اتصالاً لازماً. لكن ثمة جدل أو توتر قائم بين النصِّين، وهما في حركة داخلية. فنرى هيمنة هذه الجينات على الأخرى في لحظات داخل المصنَّف وخفوتها في لحظات أخرى حسب سياق: يحدِّده الشُّرَّاح حيناً، وتحدِّده القضايا الخلافية المعرفية أحياناً أخرى. وما تفيض به الشُّروح من استطرادات وإسهاب وإطناب، ليست في وجه من وجوها سوى تشكُّل لإحدى أهمِّ المقاصد التي يقوم عليها الخطاب الشُّرحي وتبوَّخها ليحقق غايته التواصلية: توجيه الفهم والإفهام.

فيعمدون إلى عقد مقارنات نصية، ليثبتوا هذا البعد الحجاجي والجدلي القائم بين النصِّين. ومهما يعلن الشُّرَّاح عن رغبتهم في تلمس منهج في الشُّرح والتلخيص والتوضيح إلا أنَّ القراءة قادتهم إلى تفحص الوظائف التي ينجلي عنها:

- ✓ جدل المتن خارجياً مع سابقه من النصوص في موضوع علم البلاغة
- ✓ جدل المتن داخلياً مع الشُّروح والحواشي التي من جنسه
- ✓ موسوعية خطابهم وشموليته.



إن الإقرار بوجود البعد الزمني في علاقات التأليف النصي وخاصة بين النص الأصلي وبين مختلف الأنواع التي تفرّعت منه أو استدعت عبر القرون ليقوم دليلاً على مدى استمرار النصّ الأول في الوجود عبر حراك معرفي يربطه بمؤلفات تابعة له أو تابعة لتابعه¹، ويكون الحراك بتشغيل النصّ حيناً (تهذيبه وإعادة ترتيبه..) أو بمصاحبته (الحواشي والهوامش والتذييلات...) أو بمحاورته. فمن خطّ السكاكي ومفتاحه، تفرّعت النصوص بأجناسها المختلفة عبر القرون، وصنعت دوائر من القراءات التي ظلّت تتسع كلّما ابتعدنا عن المتن الأول، ولا نراها تنحسر إلى اليوم. وما العيّنات التي اخترنا الآشاهدا على المدى واتساعه. ولئن أخذ كتاب "التلخيص" بعده الأهميّة، فإنّ "جيناته" ظلّت في فلك كتاب القزويني وسرّت في الشروح التي لحقت. وربّما بيّنت هذه الرسوم التعلّاق والتواصل والامتداد، بل هي "عروة وثقى لا انفصام لها" بين دوائر القراءة الشارحة حيناً، ودوائر القراءة الملخّصة حيناً آخر، ودوائر القراءة المذيلة في الهوامش والحواشي أحياناً كثيرة.

7- في آليات الشرح:

أنتج تلقّي الشرح لمن التلخيص واستقبالهم لأسئلته المعرفيّة، رؤية تقوم على استثمار آليات متعدّدة بغاية التّعميد. وهي آليات حتمت الكتابة بالشرح وتوظيفها والاشتغال على إمكاناتها في قراءة النصّ الأول، وتوجيه هذه القراءة، وطبعها برؤى أصحابها. وهي أيضاً وسائل منهجيّة بالأساس، ولها أن تكون وسائل واصفة، لخطاب المتن ومبيّنة لنظام الكتابة فيه. وما اعتماد الشرح عليها إلّا لضبط مباحث العلم تقعيّاً وتقنيّاً.

نجد هذه الآليات في نصوصهم متفاوتة الحضور، على ثباتها فيها. ونشير إلى أنّها لم ترد منفصلة، بقدر ما وردت متداخلة في نسيج تعليلهم واستدلّالهم. وهي: التّعريف، والتّقسيم، والتّحقيق، والتّعليل، والاستشهاد والتّمثيل.

¹ - انظر الباب الذي خصّصه الباحث كمال عرفات نيهان للحديث عن "علاقات التأليف النصي: أنواعها وخصائصها التأليفية"، حيث بيّن في هذا الباب عن وجود مخطّط زمني لعلاقات التأليف بين النصوص واطلق عليه عبارة "البيلو-كرونو جرام"، وهو عبارة عن استقصاء زمني لما يلحق النص الأصلي من متعلقات منذ ان يخرج للقراء (تشمل هذه المتعلقات كل ما يرتبط بالنصوص مثل الشروح والحواشي والاستدراكات...)، وأشار الباحث إلى الدور المعرفي الكبير الذي يلعبه "البيلو-كرونو جرام" في الحفاظ على ثوابت العلوم... (عبقريّة التأليف العربي... ط1، 2015، ص132 وما بعدها)

1-7 - آلية التعريف:

هو أداة منهجية أثيرة وقديمة. ولم تكن أداة معتمدة في علم البلاغة فقط بل في العلوم عامة. وما إسهامات المناطقة والفلسفة في التأسيس النظري لها إلا دليل على أهميتها مدخلا منهجيا في التّقييد العلمي، « فهو إجراء ضروري وممارسة يحتمها العلم شأنه شأن الترتيب والتقسيم والملاحظة والاستنتاج وغير ذلك من العمليات العقلية التي يفرضها العمل العلمي واشتغال الظاهرة العلمية في حدّ ذاتها إنتاجا وتقبلا» (الناجح عزّ الدين، 2009، ص152)¹

لقد كان السكاكي على وعي تام بأهمية « التّحديد » المنطقي. فنظر إلى هذه الأداة باعتبارها جزءا متمما لعلم الاستدلال وهذا الأخير يعتبر بدوره جزءا متمما لعلم المعاني (مفتاح العلوم، ص6). وهذا يعني أنّه استوعب أيضا ما قاله المناطقة عن الحدّ لكنّه لم يلتزم به حرفيا في بحثه في المفاهيم والمصطلحات البلاغية وإنّما أظهر ليونة في تطبيق قواعدهم «إنّ السكاكي لم يتبع المناطقة في تعريفهم للحدّ، وفي تقسيمهم لأقسامه المتعدّدة والمتشعبة وإنّه استنفاد منهم في بعض قضايا التّعريف، وهو ما يتأكد في المفتاح على المستوى التّطبيقي (الرشدي، مقال 2012). وتسامح الخطيب القزويني في اعتماد التّعريف، قوبلت صيانتها لكثير من التّعريف البلاغية بمناقشات مستفيضة من لدن الشّراح. مثال ذلك مباحثه في « فصاحة المفرد/ فصاحة المتكلم/ علم المعاني/ علم البيان/ الحقيقة / المجاز).

ونجد أنّ ما حدّ به الشريف الجرجاني هذه الآلية هو عين ما يحضر في الشّروح، حيث « المراد منه تعيين ما يوضع للفظ من بين سائر المعاني»²، أيّ تحديد معنى اللفظ تحديدا لا يحتمل أدنى التباس مع معان أخرى، وهو ما يقصد به المناطقة في مقولتي الجمع والمنع. فالتّعريف هو «القول الشّارح». ومعناه توضيح مفهوم اللفظ أو توضيح معنى شيء حتّى يصبح واضحا. وقد استثمرها الشّراح كغيرهم من البلاغيين في الدّرس البلاغيّ، وهم على وعي بالأسس المنطقية لهذه الأداة.

ولا يجب أن نغفل في هذا المستوى عن معطى هامّ، وهو أنّ الفضاء الذي وطّن الشّراح فيه استعمال هذه الآلية هو فضاء، الخروج من غموض العبارة العلمية التي تؤدي إلى تشويه الفكرة الحاملة للمراد منها، أو تبعث على اللبس وسوء الفهم، إلى فضاء التّبيان والإفهام. ممّا يجعل فعل الشّرح، موجها وسائرا نحو غايته: الموسوعية والدّقة، لجلاء المفاهيم البلاغية من الخفاء إلى الوضوح. فإذا بالحدّ الواحد ذاته، تتشعب بداخله حدود وتقسيمات فرعية.

ولنا من الأمثلة ما لا نقدر على حصره، ونضرب لذلك مثلا، حديث السبكي في « باب الأمر». فهو لا يقدّم دلالة الأمر في معناه الأصليّ فحسب، بل نقع على قائمة من التّعريفات لخمس وعشرين معنى يخرج إليها هذا النوع من الإنشاءات. وهو

¹ - يميّز هذا الباحث في فصل كامل عقده لهذا المفهوم في مقاربة حجاجية (ص152-187) بين نوعين من التعريفات: التعريف المنطقي والتعريف غير المنطقي. والمقصود بالتعريف المنطقي التعريف الجامع المانع، ولعلّ شراحنا قد أكثروا من الاشتغال به، بنوعيه (التعريف بالرّسم (الوصفي)، والتعريف بالحدّ (التحليلي)). أمّا النوع الثاني ففيه أنواع أيضا، (التعريف بالمجاز أو بالترادف أو بالإشارة أو بالمثال ...) وقد عدّها الباحث في خطاطة تفصيلية. انظر: عزّ الدين الناجح، « الحجاج في الخطاب القانوني»، أطروحة دكتوراه مرقونة، بإشراف خالد ميلاد، كلية الآداب والإنسانيات بمؤونة، السنة الجامعية 2009-2010

² - يقول الشريف الجرجاني (ط1990، ص64) : التّعريف « عبارة عن ذكر الشيء يستلزم معرفته معرفة شيء آخر » ويميّز بين تعريف حقيقيّ وتعريف لفظيّ. فالأول « هو أنّ يكون حقيقة ما وضع اللفظ بإزائه من حيث هي فيعرف بغيرها ». أمّا الثاني، التّعريف اللفظي، « فهو أن يكون اللفظ واضح الدلالة على معنى، فيفسّر بلفظ أوضح، دلالة على ذلك المعنى، كقولك الغضنفر الأسد، وليس هذا تعريفا حقيقيا يُراد به إفادة تصوّر غير حاصل إنّما المراد تعيين ما وُضع له لفظ الغضنفر من بين سائر المعاني».

لا يغيّر بقيّة الشّرح فقط، بل يضيف على ما أثبتوه ما يزيد عن الخمسة عشر معنى، يعتمد في كلّ واحد منها، إلى ذكر دلّالته والتّمثيل (بالآيات القرآنيّة).

إنّ لآليّة التعريف في النّصّ البلاغيّ وظيفة رئيسيّة، وهي الوظيفة البيانيّة. تقوم على المفهمة من جهة، وعلى تحديد مجالات التّداول التي تكون للمفهوم والتّمثيل لها في استعمالها المختلفة (في الشّعر، أو في القرآن، أو الخطاب اليوميّ ..) من جهة أخرى. لكن تجدر الإشارة إلى أنّ الجهاز المفاهيميّ في الشّروح، لم يوجد إلّا عبر جهاز مفاهيميّ سابق، وهو الجهاز الذي صنّف السكاكي في المفتاح، مكوّناته الأولى. ولأنّه يستوعب الأوجه البلاغيّة، فإنّ القزوينيّ قد أبقى عليه من بعده، مع تصرّف في بعض مكوّناته، فلم يتقيّد به كليّة. وربّما غلب على الذين أتوا بعدهما دور المنخرط في مناقشة التّصنيف بالزيادة والنّقصان.

إنّ ثقافة الشّرح المنطقيّة كان لها أثرها في مناقشة كثير من التعاريف و الحدود البلاغيّة وتدخّل هذه المناقشات ضمن جهود التّقييد للدرس البلاغيّ. وربّما كانت البلاغة العربيّة بعد اكتمال نضجها مع الجرجاني والزمخشريّ والسكاكي، في حاجة إلى مثل هذا التّحديد « ينبغي أن لا ننسى أنّ البلاغة كانت بحاجة إلى من يحدّد لها مصطلحاتها تحديدا تامّا ومن يفصل بعضها عن بعض وتلك حسنة لا ينبغي أن تغفل» (حسن عبّاس، 1999، ص145).

2-7-آليّة التّقسيم:

هي من الآليّات التي يعتمد عليها المناطقة في بناء الحدود وفي ضبط أقسام العلوم الكبرى والفرعيّة. وحضورها لازم في الخطاب العلميّ. يعرفها الشّريف الجرجاني في تعريفاته قائلا: « التّقسيم ضمّ قيود متخالفة بحيث يحصل عن كل واحد منهم قسم» (التّعريفات، ص66). وقد تكون القيود المشار إليها متقابلة أو غير متقابلة. وفي ذلك إشارة إلى ما يقتضيه فعل التّقسيم من دقّة منهجيّة ومعرفيّة، ممّا يعني أنّه فعل غير ثابت وقابل للتّجدّد والتطوّر في حدود معيّنة. وهو الحاصل من قراءة الشّرح، بل يكاد يكون أمرا طبيعيا، أن نجد اختلافا في التّقسيم لبعض الأبواب أو الفصول.

ولعلّ من أبرز ما نخبره في هذه الآليّة، اشتراط وجود « قيد»¹ أو أكثر لسلامة ونجاعة التّقسيم، وهي بذلك أداة منهجيّة لا يعتمد عليها الشّرح كثيرا، لارتباطها في الأغلب الأعمّ بتصوّر للظاهرة البلاغيّة الواردة في المتن. فبالرجوع إلى متن السكاكي، مثلا، نجد هذا الأخير قد اعتبر «الاستعارة التّمثيليّة» من أقسام المجاز المفرد. واستدرك الخطيب عليه في هذا التّقسيم قائلا: « وفيه نظر، لأنّ التّمثيل على سبيل الاستعارة لا يكون إلّا مركّبا، فكيف يكون قسماً من المجاز المفرد لو لم يقيد الاستعارة بالأفراد وعرفها بالمجاز الذي أريد به ما شبّه بمعناه الأصليّ مبالغة في التّشبيه، دخل كلّ من التّحقيقيّة

¹ - ونعثر في نصّ السبكي دلالة لمعنى التّقسيم، حين يبيّن الفرق بينه وبين معنى التّفاوت في حديث السكاكي عن الكناية، يقول موضّحا: « لأنّ أقسام الشيء إلى أقسام، بعضها أعمّ من المقسم لا يمتنع، بتقدير أنّ يكون المراد بتقسيم ذلك الشيء بقيد، كونه أخصّ من حقيقته إلى أخصّ من تلك الأقسام، كما تقسم الحيوان إلى أبيض وأسود(..) بقيد الحيوانيّة..» (عروس الأفرح، ج3، ص322).

والتَّمثيل في تعريف الاستعارة» (الإيضاح، ص 383). ونجد في شرح السَّعد تبريرا لهذا التَّقسيم وانتصارا ضمنا لتقسيم السَّكَّي، وذلك أنَّه عدَّه من الاستعارة مطلقا، ولم يحدِّد الاستعارة التَّحقيقية بعينها، لأنَّه لم يقسِّم الاستعارة كما قسَّمها السَّكَّي.

لقد ظلَّت آليَّة التَّقسيم كغيرها من الأدوات المنهجية المعتمدة في البحث والتَّقصيد البلاغيين. وقد استعان الشَّراح بمصادرهم وثقافتهم المنطقية لمناقشة تقسيمات أصحاب المتون، واستدراك أقسام جديدة عليهم. ولعلَّ السَّبكي أكثر الشَّراح اعتمادا على التَّقسيم. وقد انصرفت عنده هذه الأداة عن غايتها، وصارت ضربا من البرهان على القدرة على الإتيان من الأجزاء بما لا حصر له. يقول شوقي ضيف: «وحاول جاهدا أن يستكثر من التَّقسيمات العقلية (...) وهكذا يصبح الدَّرس البلاغي شيئا عسيرا» (ضيف، "البلاغة تطوُّر وتاريخ"، ص 354). ويبدو أثر هذه الآلية واضحا في تناول الشَّراح لبعض المباحث البلاغية ومنها خصوصا «الفصل والوصل» الذي أوصل السَّبكي أقسامه إلى نحو ستمائة وستة عشر ألفا وتسعمائة وستين قسما (616960) (عروس الأفراح، ج 3، ص 6) ومنها أيضا مباحث «وجه الشَّبه، والمجاز المرسل، والاستعارة..»

كان حضور هذه الآلية متميِّزا في نصوص الشَّراح، إلى درجة اعتمادها وسيلة نقاش لآراء المتقدِّمين، ممَّا جاء في المتنين على حدِّ سواء، بل ربَّما أدَّى بهم الأمر إلى استدراك أقسام جديدة عليهما لم ترد من قبل، ولنا في ما وضعه السَّبكي في باب «الفصل والوصل» خير دليل، ونحن نورد على طوله:

«أعلم أتى نظرت في كلام المصنّف وغيره في هذا الباب، فوجدت أقساما متداخلة بين كثير منها وكثير عموم وخصوص من وجه، وبعضها يدفع دفعا، ووجدتهم قرّروا فيه قواعد لا تخلو عن إشكال، وذكروا أمورا على غير الصَّواب: من جعل ما ليس له محلٌّ من الإعراب ذا محلٍّ وعكسه، إلى غير ذلك ممَّا ستراه إن شاء الله، فاقتضى لي ذلك، أتى اخترعت لهذا الباب قاعدة وتقسيمًا يسهل به تعاطيه (...) على أنّ غالب ما أذكره من هذه القواعد ليس فيه مخالفة لكلام صاحب المفتاح إذا تأمله حقَّ التأمل، وإنَّما وقع الخلل في كلام من بعده، لأنَّهم لم يتأملوا كلامه..» (عروس الأفراح، ج 3، ص 6).

ويتضح لنا ممَّا عرضه السَّبكي أنّ ما استدركه على المتنين البلاغيين، لم يكن إلاَّ لعلَّة، أتى على بيانها، اتِّقاء «للمخالفة»، وسطوة «كلام صاحب المفتاح» على وجه الخصوص، وليست من باب تشقيق الكلام أو التَّجاوز، وأكَّد لنا هذا البعد الاحترازي في إيراد «الجديد»، أو إضافة زيادات، ما نلمسه في عبارة «اخترعت». ولكنَّه اختراع محدود ومقيّد أو هو «قراءة» تجانب «الصَّواب» حين نقارنها بـ "كلام" جاء بعد «كلام صاحب المفتاح»، والمقصود بها القراءات الشَّارحة التي تعاقبت على المتن الأول والثاني. وهذا الرَّدّ الضمني يدلُّ على استيعاب الشَّراح لنصوص بعضهم البعض، على نحو «نقدي» يصل بهم إلى حدِّ الغرابة والاستصفاء. ولنا أن نتبين من كلامه نفسه: بأيّ مقياس كان ذلك الاستيعاب وتلك الغرابة حين نتوقّف على عبارات، نراها تمثّل تصنيفا للقراءات الشَّارحة التي تلقّت مثله نصّ المفتاح، وتلخيصه (وإن لم يذكره صراحة في هذا الموضوع)، وهي على التَّوالي كما وردت في كلامه السابق:

✓ القراءة ذات الأقسام المتداخلة: من خلال عبارات « فوجدت أقساما متداخلة» و « بعضها يدفع دفعا»، واتّصاف الخطاب بالتداخل في مستوى التّقسيم ينسف تماسكه وانتظامه.

✓ القراءة ذات القواعد المشكّلة: وهو مدلول كلامه « قرّروا فيه قواعد لا تخلو عن إشكال»، وهي كما يوضّح قاعدة أساسيّة في هذا الباب: إعراب الجمل ومحلّاتها عند وصلها وفصلها، ويعني هذا أنّه إذا كانت القاعدة التي تقوم مقام الأصل المهجّي في الباب ليس فيها اتفاق ، فإنّ تطبيقاتها باطلة، زد على ذلك ما تخلّل كلامه من استعمال لصيغ الجموع (قواعد، أمورا غير صائبة)، ممّا يدلّ على أنّ للسّبكي دلائل أخرى على وهن التّعديد والتّقسيم في هذه القراءة.

✓ قراءة فيها خلل يعود لنقص في التأمّل: وهو صنف من القراءات لم يصرّح الشّارح فيم "خللها"، وإيرادها نكرة يُفهم على أكثر من وجه، ربّما كان أهمّها ما قصده هو، بدلالة "التأمّل". فالخلل يتأتّى في أبسط الأحوال من القراءة العجلى التي لا تتفاعل مع كلام صاحب المتن التفاعل المطلوب.

لقد راجع الشّراح الكثير من الأبواب، بإعادة تقسيمها حيناً أو بإعادة تصنيفها، أحيانا كثيرة. فمن مراجعة لأسس تصنيف «المجاز العقلي»، وصولاً إلى مباحث بلاغيّة كانت تتغيّر مواقعها باستمرار من موقع إلى آخر، من علم المعاني في اتجاه علم البيان، ومن علم المعاني في اتجاه علم البديع، ونذكر من بينها: المشاكلة والتّورية والمذهب الكلامي واللف والنشر...¹

ونحن لا نفسر حضور هذه الآليّة عند شراحنا، ونردّها إلى « مجرد اختلاف في التّصنيف أو اختلاف في تحديد المفهوم المتّصل بهذا الوجه أو ذلك، إنّما هو أمر أعمق فيما نقدّر» (المبخوت، 2006، ص 127).

7-3 - آليّة التعليل:

من دلالات مفهوم التعليل ما استوقفنا، حيث نجد هذه التعريفات:

- « التعليل لا يغير من التفسير شيئا أو يضلّ عنه، بل يعتمد إلى الحكم لا إلى اللفظ، ويبين السبب الموجب له، أو العلة التي من أجلها شرّع الحكم» (ج1، ص 471)²
- « التعليل لا علاقة له بالألفاظ، وإنّما هو بحث عن علة الحكم المنصوص عليه، والسبب الموجب له شرعا أو قانونا، على أنّ للتعليل أثرا على مدى تطبيق حكم النصّ توسّعا، وذلك أمر لا يتعلّق بالتفسير أو التّأويل بالمعنى الأصولي» (م ن)

تحضر هذه الآليّة متلبّسة بالمنطق. فالقارئ للشّروح يلاحظ بيسر طغيان المصطلحات والمفاهيم المنطقيّة الكثيرة، من مثل (الإمكان، الضروريّ، الواجب، السّالب الموجب، الاستلزام، الدّليل).³ وقد مثّلت لديهم أدوات تعليل منطقيّة لا

¹ - وضع الأستاذ شكري المبخوت تديلا في كتابه الاستدلال البلاغي، تحت عنوان « علم البديع والمنوال الاستدلالي»، بين فيه الاختلافات السّائدة في إنماء بعض المباحث إلى علم البديع أو إلى علم المعاني. ابتداء من السّكّاني وصولاً إلى الشّراح. انظر 126 وما بعدها من الكتاب.

² « موسوعة مصطلحات أصول الفقه عند المسلمين»، د رفيق العجم، ط1، 1998، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان

³ انظر مثلا، مبحث القصر، وطرقه، (المغربي، مواهب الفتاح، ج1، ص 414-415)

وانظر باب الإنشاء، مبحث أدوات الاستفهام (السّبكي، عروس الأفراح، ج1، ص 535-534)

تنفصل عن اللّغة: فكان التصرف في المصطلحات لإخراج الأحكام والقوانين. لكنّ الذي كان يربط بين الجميع هو هاجس استنطاق النصّ وفهمه، وما احتاجوا في ذلك إلّا إلى اللّغة.

فمفردات نصّ المتن حين تعبر عن معانٍ معجميّة ضيقّة أو تحيل على معانٍ متعدّدة للمفردة الواحدة، لا يكون أمام الشّارح سوى التّحديد والتّقييد والتّخصيص، فينتقل من الشّرح اللّغويّ على وجه الإفراد، إلى الشّرح السيّاقيّ داخل جمل شعريّة أو آيات قرآنيّة تقرّب المعنى المقصود. وهي آليّة تسمح لنا بالوقوف، على مساحة التوسّع التي سمح بها خطاب المتن، أو بعبارة أهل التّنظير، ما يترك من « فجوات»، يبدأ دور المتلقي (الشّراح) بعدها في ملء، ما يظهر لهم أنّهم بحاجة إليه.

فلا نعثر على الشّرح التّحويّ والاشتقائيّ في هذه التّصوص فحسب، بل نجد سعياً حثيثاً من طرف الشّراح، إلى محاولة البتّ في المباحث وتسييج الخلاف، بالنظر «العلمي» الاستدلاليّ الموجب للدّقة. وهذا يذكّرنا بما فعله الأصوليون في مباحث الفقه الخلافية، بتحديد القضايا الأصول التي لا يجب الاختلاف حولها، وقصر الاجتهاد على التّحقيق في فروعها وعللها، ضمن دوائر دلاليّة يثبتونها في متونهم درءاً للجدال.¹

4-7 آليّة الاستشهاد² والتّمثيل:

تمثّل الشّواهد مادّة ومكوّنات أساسيّة من مكوّنات الشّروح. وهي مادّة، إلى جانب حضورها الطّاعي والضروريّ، فإنّها كانت على درجة من التّنوع: فالشّاهد قد يكون آية أو حديثاً نبويّاً أو بيت شعر أو من الجمل التّمطية التي استقرّت في متون النّحو والبلاغة. فقد حضرت المادّة الشّعريّة، على سبيل المثال، بأطوارها المختلفة: الطور الجاهلي والمخضرمين فيه، وطور الصّدور الثاني وعهد بني أميّة، وطور أواخر العهد الأمويّ وعهد بني العباس³. في نسيج الشّروح البلاغيّة حضوراً متفاوتاً من حيث الكمّ والتواتر.⁴

ولعلّ وجود الشّواهد بأنواعها (القرآنيّ/الحديثيّ/الأمثلة الصناعيّة)، لا يكون وظيفيّاً إلّا إذا احتلّ موضعاً جديداً في سياق النصّ أو إذا أثار، باستحضاره وجهاً من وجوه الظاهرة المدروسة وكشف عن زاوية أخرى في التّناول.

ونحن نتساءل عن التّجارب الشّعريّة المعتمدة في الشّروح من جهة، وعن الأسباب التي تجعل من بعض التّجارب الشّعريّة تحضر دون غيرها وتكثر عند شارح بعينه؟ (الرشدي، 2014، ص76)

¹ - لنا في كتاب "بداية المجهّد ونهاية المقتصد" لأبي الوليد محمد بن رشد الحفيد (595هـ) دليل على هاجس التّأصيل والتّثبيت، والبحث عن حقيقة الأشياء، وهو كتاب اشتمل على بيان أسباب الاختلاف بين العلماء في كلّ مسائل الفقه، يقول ابن رشد في مقدّمة الكتاب: " فإنّ غرضي في هذا الكتاب أن أثبت فيه لنفسي..من مسائل الأحكام المتفق عليها والمختلف فيها بأدلتها، والتّنبه على نكت الخلاف فيه ما يجري مجرى الأصول والقواعد " (مج1، ص5، طبعة منقحة من طرف خالد العطار، مكتبة البحوث والدراسات، دار الفكر، 1998

² - في الفرق بين الشّواهد والأمثلة يسوق التّفازاتي تفصيلاً يوضّح ذلك، يقول " (والأمثلة) هي الجزئيات المذكورة لإيضاح القواعد (والشّواهد) الجزئيات المذكورة لإثبات القواعد، فهي أخصّ من الأمثلة " (مختصر السعد، طبعة عيسى الحلبي، ج1، ص58)

³ - قام الباحث عبد الله الرشدي (2014)، بوضع ثبوت للشّواهد لهذه الأطوار الثلاثة، من تلخيص القزويني، ومن شرحين من مدوّنتنا (عروس الأفرح ومواهب الفتح). انظر:

من ص107 إلى ص135

⁴ - انظر القراءة التحليلية التي وضعها الرشدي (2014، ص70 وما بعدها) لدلالة الكمّ والتواتر

وهل أحدث الشرح باختياراتهم قطيعة مع اختيارات صاحب المتن خاصّة واختيارات البلاغيين عامّة ؟

إن الاستقراء الذي قام به الدارسون¹ لحضور الشواهد في عمليّة الشرح، يؤكّد أنّ الشرح اعتمدوا المولّد والمحدث بشكل خاصّ في معالجة موضوعات البيان [التشبيه، المجاز، الاستعارة، الكناية..].

وقد كان السبكي في «عروس الأفراح»، أكثر الشرح انشغالا بالشواهد، وخاصّة بقضيّة توثيقها. مع أنه أشار في مقدّمته إلى الذين ينصرفون إلى البحث في الجزئيات البسيطة، فينشغلون بها عن المسائل الجوهرية في البلاغة. «قصارى أحدهم أن يعزو أبياتاً من الشواهد لقائلها ويوسّع الدائرة ممّا له وزن، من تكميل ناقصها» (عروس الأفراح، ج1، ص150).

أمّا الشاهد القرآنيّ فهو أحد أبرز الشواهد البلاغية وأكثرها حضوراً في الشروح بعد المادة الشعرية. ولم يكتف البلاغيون بالشاهد القرآني الذي عدوه في أعلى مستويات البلاغة، وإنما اختاروا منها ما يكون منسجماً مع نظريّاتهم ومسائلهم البلاغية المتعلقة بالألفاظ والمعاني، والنظم والتراكيب.

وقد لوحظ أنّ مثل هذه الشواهد التي نجدها في مصنّفات عبد القاهر ومن سبقه من البلاغيين والنقاد، قد قلّت وانحصرت في بلاغة المتأخّرين بعد السكاكي. وسبب ذلك غلبة المادة النظرية على المادة الأدبية. ومع ذلك كلّه، فقد نبّه بعض البلاغيين على أهميّة العناية بالشواهد والنصوص الأدبية في عملية تقبّل الدرس البلاغيّ وتعليمه. فكان السعي إلى الإكثار منها وتحليلها، وتنويعها وتجديدها.

وأشار أحمد مطلوب إلى أنّ البلاغيين المتأخّرين أدخلوا نصوصاً جديدة في كتبهم، ولذلك فقد كان نمو البلاغة العربية في القديم ملمحاً من ملامح حيويّتها وقدرتها على استيعاب الجديد، فضلاً على أنّها لم تتوقّف عند عصر الاستشهاد في الأمثلة التي ذكرتها، وإنّما تجاوزته وواكبت الأدب.²

7-5- آليّة التّحقيق:

نقصد بها الآليّة التي تقوم على تحقيق المسائل البلاغية بإثبات دليها،³ تقوم بتأصيل المسائل. وربّما دعت الحاجة في خطاب الشروح على نحو مخصوص إلى استدعاء هذه الآليّة والتّعويل عليها كثيراً للحسم في كثير من قضايا البحث البلاغيّ. فكان اعتماد الشرح التّحقيق، لرغبتهم في حلّ بعض الإشكالات التي تستعصي على الحلّ، أو طال فيها كلام أهل الصناعة. فالسبكي مثلاً يعرض لاجتماع «العموم مع جمع القلّة»، فيقدّم في الموضوع تحقيقاً مقنعاً، ختمه بقوله: «..وإذا حققت هذا، انحلّ كلّ ما أشكل عن من لا أحصيه عدداً من الأئمة المتقدّمين والمتأخّرين» (عروس الأفراح، ج1، ص336).

¹ - من بين الذين بحثوا في قيمة الشاهد وحضوره ووظائفه، نذكر مثلاً لا حصراً:

مراد بن عياد، «مدوّنة الشواهد في التراث البلاغيّ العربي»، و«الشاهد الشعري..» لعبد الله الرشدي.

² - وفي البديع نصوصٌ لم تذكرها كتب البلاغة الأولى، وهي نصوص تمثّل العصر الذي أُلّف فيه، وقد استخرج البديعيون منها فنوناً جديدة وهي على الرغم مما قيل فيها صورة لأدب تلك العهود.

³ - يقول الجرجانيّ في التعريفات عن معنى التّحقيق: «هو إثبات المسألة بدليلها» (التعريفات، ص55)

ويحضر أيضا هاجس التبسيط العلمي للمتعلّمين، الذين يشكل عليهم استيعاب بعض قضايا البلاغة وقواعدها. قد يكون من اليسير أن يقود اعتماد التّحقيق حتما إلى الإطناب والإسهاب. فإذا سمعت الشّارح يقول: سأذكر لك هذه المسألة على التّحقيق، أو سأقرّر لك هذا المبحث، أو هذا المفهوم، فانتظر منه الإطالة، والذهاب بك في دروب لا تنتهي، حتى إنك تنسى كلام الملخّص (القزويني)، وأين انتهى بك منه الشّارح، فلا تعود إليه، إلّا وقد أنك قواك. فهي مقامات تسمح للشّارح باستعراض ثقافتهم الغزيرة.

فقد عمد الشّارح من بعد القزويني¹ إلى سلوك هذا السّبيل، «فتعقّبوا جزئيات القواعد يقرّرونها ويتتبعون ما تطرحه من إشكالات، وأسعفتهم ذخيرتهم» (الرشدي، 2014، ص 143) التي تتقاطع فيها معرفة البيان بغيرها من المعارف (نحو، أصول، الكلام، الفلسفة، المنطق...) وهذا ينسجم مع سؤال التّقعيد الذي وجّه قراءاتهم.

فنحن نجد اعتراضا من السّعد التفتازاني على الخطيب القزويني في استدراكه على السّكاكي في «باب المجاز العقلي» مثلا، وحاول الانتصار بقوة لصاحب المفتاح. ولكنّ معظم علماء العربية تصدّوا لرأي السّكاكي وأبطلوه ومنهم الدّسوقي. ثم إنّ السّعد نفسه تراجع عن تأييده هذا للسّكاكي.² على أنّ أحمد مطلوب لا يرى وجهاً لإخراج المجاز العقلي من مباحث البيان وأنّ رأي السّكاكي في جعله استعارة بالكناية خير من بحثه في الإسناد.³

ويمكن أيضا أن نسوق مثلا آخر في هذا الباب، عن منهج التّحقيق في المفاهيم التي يقلّ البحث فيها أو يترك صاحب التّليخيص الخوض فيها لاعتبارات كثيرة⁴. فقد وجدنا لابن يعقوب المغربي في عرضه «للمشكلة» من باب المحسنات البديعية، حديثا عن نسبتها للحقيقة أم للمجاز (مواهب الفتح، ج 2، ص 505). وهو إذ يتبع منهجا في تحليل المسائل وإرجاعها إلى مضامها، يتدرّج بالقارئ عبر مرحليّة تكررت في كثير من المواطن.

فكان يبيّن الرّأي الأساسيّ الذي بنى عليه الفكرة، ثمّ يأتي برأيٍ آخريّ عبّر عنه بصيغة المجهول (قيل)، للإشارة إلى أنّ هناك في المسألة رأيا، أو يأتي بعد عرضه للأراء برأيه معبّرا عنه بعد أن يذكر الآراء ولا يعقّب عليها، ويحسم الأمر بقوله (والتّحقيق أنّ...)، فيفهم موقفه بوضوح. يقول: «والتّحقيق أنّ المشكلة من حيث إنّها مشكلة ليست حقيقة ولا مجازا، لأنّها مجرد ذكر المصاحب بلفظ غيره لاصطحابهما... بل المصاحبة أن يعدل عن لفظ المعنى إلى لفظ غيره في أماكن يستظرف فيها...» وبعد عرض وتحليل للأمثلة، يستدرك قائلا «وقد أطنبت شيئا ما في هذا الموطن، لقلّة الكلام في المشكلة على مثل هذه المباحث فيها» (مواهب الفتح، ج 2، ص 507).

¹ أشار السّكاكي في القسم الثالث من المفتاح، إلى تردّد في تحقيق أبحاثه، في معرض حديثه عن الإيجاز والإطناب "أما الإيجاز والإطناب فكونهما نسبيين، لا يتيسر الكلام فيهما إلّا بترك التّحقيق والبناء على أمر عرفي" (المفتاح ص 276). ممّا يعني أنّ السّكاكي كان يقصد إلى التّحقيق قصدا واعيا في القضايا البلاغية، وهو عين الأمر الذي أفصح عنه القزويني في مقدّمته "ولم آل جهدا في تحقيقه ومهديه" (ص 5).

² انظر: استدراكات السّعد على الخطيب، د. أحمد هندواي هلال، ص 83.

³ ينظر كتاب أحمد مطلوب البلاغة عند السّكاكي ص 327.

⁴ وقد رأينا أنّ آليّة التّحقيق هذه، كثيرا ما تؤدي إلى التوسّع في مباحث دون أخرى، حيث تنتهي بالقارئ إلى نسيان متن القزويني ["...وقد أن لنا أن نرجع إلى كلام المصنّف.. " (السبي، ج 3، ص 15)]، لتكون مناسبة لعرض أوجه الظاهرة من خلال معارف الشّارح الغزيرة (عروس الأفراح، ج 1، ص 239-240، ج 2، ص 204، 271، 239). و مواهب الفتح ج 2، ص 268..

إننا لو شئنا تبرير الخلاف بين الشراح من جهة، وبين نصّ المتن من جهة أخرى، لوجدنا أنّ أغلبها منشؤه غلبة المباحث الفلسفيّة المنطقيّة على التحليل البلاغيّ. فحين يعارض أحدهم القاعدة مثلا، فلائمها تخالف ما عليه علم الكلام والمنطق. فيريد أن يقيم قواعد المنطق على حساب البلاغة، فيحيلها إلى علوم نظريّة، بل إنّ كثيراً من الخلافات وخاصّة في القرن الثامن وما بعده، إنّما هي مستمدة من قواعد المنطق الصّارمة بعد عمليّة استقرارها لأمثلتها ووضع الدلائل المبطلّة لها¹. وربّما كان للأمر علاقة بممارسة الشراح أنفسهم لعمليّة الشرح المنظور للتّعديد، باستحضار متن المصنّف استحضار قارئ مختبر. يقول السبكي في باب الفصل والوصل بعد أن أعاد التّقسيم للباب كلّه:

« اعلم أنّي ذاكرتقسيمًا لهذا الباب وبعض أمثله، ينشرح لها الصدر، لبعض ما سبق..» ويشير في الصفحة الموالية « إن أردت أمثلة، فهذا أنا أذكر شيئًا ممّا يدلّ على ما فيه، غير مراعاة للتّقسيم السّابق (يقصد تقسيم المصنّف)، بل بتقسيم أقرب لاصطلاحهم مع المحافظة على ما قرّره من القواعد» (عروس الأفرح، ج3، ص7-8). ولم نزل نتابع هندسة تقسيمه وتفريعاته حتّى يقول: «غير أنّي اقتصر على ما صرّح المصنّف بذكره أو كان يترتب على ذكره اختلاف معنويّ وتفاوت في موارده، وإنّما أمثّل الطرف الأبعد والطرف الأقرب» (م ن، ص9)

8- فعل الشرح وانتظام مع الفلسفة:

لم تختفي الممارسة الفلسفيّة (المنطقيّة) تاريخيًّا، من المصنّفات العلميّة عند العرب، بل نراها تشكّلت في أنواع خطابيّة أخرى أو أدمجت ضمنها، موظّفة آلياتها (محمّد مفتاح، 2001، ص19 وما بعدها)، حيث نجدها في التّصوّف، وفي البلاغة المنطقيّة، وأيضًا في مباحث أصول الفقه.

وما نريد الإشارة إليه هو تداخل هذه الأنساق المعرفيّة مع التّحوّل والنّقد الشّعريّ في الشّروح البلاغيّة التي ننظر فيها. وما يميّز شرحا عن آخر هو غلبة نسق من هذه الأنساق على البقيّة. «ومنهم من رفع سهام الجدل، ومنهم من شغل نفسه بقضايا السّلب والعموم والنفي والإثبات، ولم يكن ذلك مقصورًا على علم المعاني بل على البيان والبديع» (رجاء عيد، 1979، ص14). وباعتماد أدوات للوصف والتّفسير مختلفة، فإنّ الخلاف متوقّع بين الشراح. فبين النّسق النّحويّ والنّسق النّقدّي والنّسق الأصوليّ في الشّرح وبين النّسق المنطقيّ مسافة.

لقد وصل السّكاكي بين علم البلاغة وعلم الاستدلال. وهذه الصّلة تجلّت في طريقة صياغته للمفتاح عامّة وفي توجيهه لمحتويات العلوم الثلاثة ومقاربة مصطلحاتها. وصياغة القزوينيّ للتّليخيص دليل من الأدلّة على أنّ المفتاح رغم حسن ترتيب موادّه وكثرة الأصول المجتمعة فيه، ظلّ على حدّ تعبير الخطيب «مفتقرًا للإيضاح والتّجريد». فمن «الثّابت أنّ البلاغة منذ السّكاكي أصبحت في أهمّ نصوصها وأكثرها قوّة تنظير وتحليل، سائرة في النّهج الذي اختطّه» (المبخوت، 2006، ص92). وقد يكون دليل ذلك ما اقامه هذا الباحث من تسوية بين عمل البلاغيّ وعمل صاحب الاستدلال، حتّى أمكن الحديث عن ترابط

¹ - انظر "مواهب الفتح" للمغربي، ج1، (ص322-323-324-325)، في حديث مطوّل عن قصر القلب وقصر الأفراد وقصر التعيين. والسبكي في عروسه، ج1، ص498-499.

متين بين علم المعاني وعلم الاستدلال¹. لقد كانت العناية في كتاب السكاكي، ومن بعده الشّروح «بالتّحديد المنطقيّ» نظرة علميّة تستقصي الحدود والتّعريف الجامعة والممانعة «والتّعليل المنطقيّ» للظواهر في المتن والشّروح أو ما أشار إليه أحمد مطلوب «بإدخال بعض المصطلحات من علم المنطق والفلسفة من قبيل «التّصديق والتّصوّر، ومقولات الصّدق والكذب والعلة والغاية إلى التّحليل البلاغيّ والبيانيّ»

وقد يكون لهذا الرّأي ما يبرّره، حيث يفسّر المبخوت مسألة التّأثر بالمنطق والتّداخل الحاصل بين العلمين بكونها «مسألة ايتمولوجيّة محضّة، لا تدرك إلاّ إذا استحضرنّا السّبب الذي جعل القدماء يعتبرون المنطق «خادم العلوم» (م ن).

فالبلاغة تحتمّ عليها تاريخياً أن تتعامل مع بقية العلوم، بمنوال المنظومة المعرفيّة القديمة، رغم أنّنا «نجد من لا يرضون أن يفلسفوا البلاغة فلسفة تبتعد عن جوهرها وغايتها بل كانوا يصرّحون بأنهم سيبتعدون بها عن المناهج الكلاميّة (...). وكانوا علماء فقهاء متكلمين» (فضل عباس، 1999، ص300). فأخذت مثلاً المنهج وطرق الاستدلال على المسائل. وهو تفاعل تاريخيّ حتميّ بين البلاغة وبقية العلوم نجد صداه في مصنّفات السكاكي ومن تبعه، بل نراه قد اشتدّ في معجم الشّراح بلا استثناء. فنلاحظ كيف انتفع البلاغيّون بالفكر الفلسفيّ والمنهج المنطقيّ من غير تمثّل مجرد، بل وفق منهج بناء النتائج على الأسباب والمقدّمات، وعلى هذه الصورة «استفاد مثلاً بهاء الدّين السبكي من منهج الفلاسفة وتوجهات المناطقة في رسم صورة البلاغة في ردوده ومناقشاته» (ص15)

ومن الروافد في صورة البلاغة قضية الاعتزال، إذ نرى السبكي يردّ على المعتزلة أقوالهم في صفات الله وخلق أفعال العباد، متمثلاً ذلك في ردّه على الزمخشري (538هـ) وإن كان السبكي في توجيهه وترجيحه يعتمد الدليل العقليّ وعلى الذوق الأدبيّ، فقد استفاد السبكي من عقلانيّة المعتزلة من غير أن يأخذ بمبادئها وقوانينها، أو يبدي هذا في قوّة حجته وحرصه عبارته.

9-فعل الشّرح وانتظام مع المعجم الاصوليّ:

لقد انتهينا إلى هذا التّداخل العميق والمتواصل بين مباحث علم الأصول ومصطلحاته، مع نسيج المباحث البلاغيّة في نصوص الشّراح، وأنّ هذا التّداخل يعود إلى تفاعل تاريخيّ تُنبهنا إليه عديد الدّراسات² من جهة، والى ما ارتسم في المنظومة المعرفيّة من تكامل، عرفته الثّقافة العربيّة القديمة من جهة أخرى. ويمكن أن نشهد تناوباً بين دوريّ البلاغيّ والأصوليّ. ومهمّة هذا الأخير، هو النّظر في كيفيّة استنباط الحكم الشرعيّ، من الألفاظ، بقواعد وأصول علميّة محكمة³.

¹ - فهو في علم النّحو مثلاً، يجعل الاستعارة والكناية وغيرهما من ضروب القياس المنطقيّ ومن الأساليب المعتمدة في إقناع المخاطبين.

² - الجندي (عبد الحميد سند)، 1971، «نشأة البحث البلاغيّ وصلته برجال الفلسفة والكلام»، مجلّة كلية الآداب بالجامعة الأردنيّة. ودراسة عبد الغفار (أحمد السيد)، 1981، «التّصور اللغوي عند الأصوليّين»، جده شركة مكتبات عكاظ للنّشر والتّوزيع. ودراسة حمودة (طاهر سليمان)، «دراسة المعنى عند الأصوليّين»، الدار الجامعيّة للطباعة والنّشر والتّوزيع، الإسكندرية، دت

³ - انظر أيضاً، مقال: «أثر أصول الفقه في تقدّم البلاغة وتطويرها»، لعبد الرحمان الخطاب، ضمن ندوة الدراسات البلاغيّة: الواقع والمأمول، 2011، ص ص 1233-1296.

ويظهر هذا التداخل أكثر ما يظهر، في نظام العبارة التي يتخذها الشراح على الجملة في طيات الشرح، على أننا نميز حضوراً للمعجم الأصولي في مستويين: في نظام التعريف والحد، وفي تحليل الظواهر البلاغية. فقد تواتر حضور هذا المعجم¹ في مواطن وضع حدود المفاهيم والظواهر البلاغية، التي احتاج الشراح إلى توظيفها، لتقريب المتصور من المبتدئ، حتى غدت قراءة المتن قراءة ممزوجة: بلاغية وأصولية.

يقول التفتازاني في تفسير حد «القاعدة»، هي «حكم كلي ينطبق على جميع جزئياته، ليتعرف أحكامها منه، كقولنا: كل حكم منكر يجب توكيده» (التفتازاني، ج1، ص57). فنجد في شروح التلخيص، أمثلة كثيرة، فيها توسل الشراح بجهاز اصطلاحي أصولي من علم الفقه. نذكر من ذلك، نقاشهم حول الآيات: «وَلَا تُكْرَهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ، إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا»²، حاشية الدسوقي، ج2، ص62-64)، أو نقاشهم المطول، حول أداة الشرط «لو» (الحاشية، ج2، ص72-76)، ودلالاتها، أو ما يعرضه الدسوقي في قاعدة مستوحاة من تحاليل الأصوليين، (من، ج2، ص159) «ولا تأكيد بين أخص وأعم» (...الفصل بين المؤكد والتأكيد بمعمول التأكيد، سلمنا أن (...الأخص يؤكد الأعم»

ومن المفاهيم التي يعتمد عليها هؤلاء البيانين، مبدأ «التناسب»، ومفاده «إذا وقع في الكلام شيء مستغنى عنه بحسب الظاهر، فإنّ الدّهن يطلب له فائدة، فإذا وجد ما يناسبه حمل عليه، لأنّ كلام البليغ يحمل على المناسب» (م ن، ج2، ص188)، ومقولة التناسب أو «المناسبة»، من المفاهيم التي أكثر الشراح استعمالها، وهو ذو مرجعية فقهية أصولية. وقد لاحظنا وروده في سياقات بمعنى الارتباط، والتلازم بنوعيه: اللفظي والمعنوي.³

وقد يعمد الشراح في بعض مواضع الشرح، إلى دراسة الظاهرة ومعالجتها بمفهوم «المخالفة»⁴ مقابل مفهوم «الموافقة». وهي ثنائية تقابلية تنبني بالأساس على مبدأ الخلاف في «الاعتقاد». فنرى تأثير التصور الأصولي في البلاغي وهو يحلل الأقوال، مثال ذلك ما نجده عند السبكي من ربط بين الشرح اللغوي لدلالة الشرط، وبين المرجعية الأصولية الفقهية بجهازها المفاهيمي في هذه الآية:

{ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ }⁵، حيث يردّ على رأي سيبويه، «وأجيب عنه بأنّ مفهوم الشرط مفهوم مخالفة، ومفهوم المخالفة إذا عارضه مفهوم الموافقة، قدّم مفهوم الموافقة، وهنا مفهوم الموافقة يقتضي عدم التفاد، لأنّ كلمات الله إذا لم تنفذ مع سبعة أبحر، فأولى أن لا تنفذ مع عدمها» (عروس الأفراح، ج2، ص74). فمعنى المخالفة المقصود هو أن يخص المتكلم، بالذکروصفا من الأوصاف أو حالا من

¹ من المصطلحات التي لازم حضورها معجم الشراح نذكر مثلاً: العموم والخصوص، المجلد والمبين، النسخ والإجماع، التعديل، القياس الفقهي، القطعي والظني...

² - سورة النور ، آية 33

³ - هناك علم قائم بذاته يسمى علم المناسبة وموضوعه النظر في الارتباط المعنوي بين أي القرآن الكريم.

⁴ - نجد في « موسوعة مصطلحات علم المنطق عند العرب »، 1996، ص866، «المماثلة والمشابهة والمخالفة والمباينة أوصاف عرضية» ومفهوم المخالفة له أقسام عديدة عند الأصوليين ، قال القرافي في " الفروق" (2/ 36-37) « فهو ينقسم إلى عشرة أقسام، من بينها ، مفهوم العلة ، مفهوم الصفة ، مفهوم الشرط، مفهوم الزمان والمكان ، مفهوم الحصر والاستثناء ، مفهوم الغاية ..» أما في كتاب التعريفات للجراني ، فالمخالفة تحمل دلالة الخروج عن قوانين لغة العرب: «أن تكون الكلمة على خلاف القانون المستنبت من تتبع لغة العرب، كوجوب الإعلال في نحو (قام)، والإدغام في نحو (مدّ)» (ص219)

⁵ - سورة لقمان ، آية 27

أحواله، فيستدلّ به على انتفاء الحكم عمّا سواه، أو ما يبني بالضدّ والنقيض، لأنّ الأصوليين يميّزون بين صريح الكلام ودلالته، وبين ما يفيد ذلك بالمخالفة.

لقد انتظم مع النّسق البلاغيّ، بالإضافة إلى هذين النّسقين، حضور الخطاب الحكيميّ القياسيّ والعقليّ، وسيلة من وسائل القطع بحجّية التّحليل والشّرح. ونضرب لذلك، أمثلة ساقها الدّسوقي في مواضع مختلفة من الحاشية، مواضع تكاد تكون ملازمة لنظام العبارة عنده. يقول:

• «زيادة البناء تدلّ على زيادة المعنى غالباً» (الحاشية، ج1، ص9)

• «لأنّ مؤيّد المؤيّد لشيء، مؤيّد لذلك الشيء» (م ن، ص11)

• «الفكر هو حركة النّفس في المعقولات» (م ن، ص14)

• «لأنّ التّعريف تصوير للماهية، ماهية الوجود، لا بيان لعمومه» (م ن، ص35)

• «إنّما قدّم شرح الصّدور على تنويرها، لأنّه وسيلة له، والوسيلة مقدّمة على المقصد» (م ن، ص9)

وإن كان من دليل، على تركّب الخطاب الشّرح، فهي هذه الصعوبة في النّفاد إلى «قارّة الفهم» بلغة قدامير، الخاصّة بهذا الخطاب وقد افترض أصحابه أنّهم سيشرحون ويوضّحون، فإنّ المتلقي الذي أنتج لأجله هذا الخطاب، ليس ثابتاً، بحكم الزمن والمسافة، الذين يفصلان بين القارئ والمقروء.

خاتمة:

لقد شاب قضية الشّرح ملابسات مرتبطة بمسائل قراءة متن التّليخيص. فتعاقب فعل الشّرح عليه، ممّا أنتج منوال قراءة قائم على آليات، تواتر توظيفها من قبل الشّراح، حتّى صارت سمتاً منهجيّاً، أوصلنا إلى المعطيات التّاليّة:

1/ أنّ حضور الآليات، يدلّ دلالة صريحة، على أنّ ممارسة الشّرح لم تكن عمليّة مجانيّة، لاستعراض المعارف والعلوم، بل ضرباً من التّفكير في المقروء، وتصوراً لانتظامه.

2/ بعض الآليات كالّتعريف والتّقسيم والتّعليل، كان مجالها الأصليّ، علوم الميزان، ممّا يتطابق ضمناً، مع مبدأ الاحتراز عن الوقوع في الخطأ والزّلل، الملازم لتصور بناء الأقوال عامّة، والمستجيب لقانون البيان على وجه الخصوص.

3/ أنّ اشتغال الشّراح على المتن، لم يكن منفرداً ومعزولاً، عن حركة التلقّي العامّة للعلوم العقليّة، واشتداد سلطانها في هذه المرحلة.

4/ أنّ كلاً، من علم أصول الفقه وعلم المنطق، شكّلا خطّين موازيين، مع علم البلاغة. فصنع الأوّل، نسيج معجمه، باعتبار تشبّع أصحابه به تكويناً وتدرّيساً. وصنع الثّاني، قوام هذا العلم، باعتبار ما خلص إليه مشروع المبخوت في «استدلاله البلاغيّ»، من انتظام له داخل المنوال البلاغيّ العربيّ.

5/ أن سير القراءة الشارحة للظواهر البلاغية، لم يكن سيرا بسيطا، باعتبار هذا التركيب في مستوى عبارته من جهة، والتضخم في مستويات الدلالة من جهة أخرى، حتى أنه يجوز لنا أن نتحدث عن «قراءة أصولية» و«قراءة منطقيّة». وقد تمتاز القراءتان على نحو عجيب مع القراءة اللغوية، المتبعية لأصول النحو والصرف، وقواعدهما.

ويصير فعل الشرح، حينئذ وجها من وجوه الاستقبال المعقد والمركب، للعلوم العقلية، القائمة في جوهرها على التعلّق والتداخل المحكم، فتتحوّل نصوص الشرح إلى هندسة منتظمة، لا تعيه القراءة السطحية لمكوناتها. وما عناية «السكّائي في مفتاحه بوضع الحدود وبحثه عن معايير لتصنيف العلوم الفرعية، وتقسيم المسائل وسعيه إلى التعليل واستعماله لبعض المصطلحات الفنية المنطقية» (مبخوت، 2006، ص97) إلاّ دليلا على وجود صلات عميقة بينها وبين علوم أخرى « تُعنى بدراسة القول والخطاب متينة، يتفاعل فيها المنطق بدراسته للدلالة، مع علم الكلام بمعالجته لمسائل كالاتقاد والمجاز وإعجاز القرآن، مع أصول الفقه في بحثها عن وجوه دلالة النص على الأحكام، مع النحو باعتباره دراسة لعلاقة اللفظ بالمعنى، ولولا هذا التفاعل لما عدت البلاغة علما» (ن م، ص98).¹

ولعل ما خلاص إليه شكري المبخوت حول مشروع السكّائي يؤكد هذا التعلّق بين العلوم واستفادة البلاغة من المنطق، رغم أنّ ما يربط بين العلمين «علاقة أساسها انتماء الجزء (المنطق) إلى الكلّ (البلاغة) ، على نحو يجعل منها علما شاملا للخطابات جميعا (ن م ، ص118).

إنّ ممارسة فعل الشرح عموما، وعلى متن علمي تصوّري على وجه الخصوص، يدفعنا للتساؤل عن خصائص الكتابة العلمية العربية التراثية، وهل أنّ هذه الخصائص ناشئة من طبيعة العلم ذاتها أو من خارجه، أو من داخل لغة العلم ذاتها من حدود الجمع بين نوع العلم ومضمونه ومنهجه ولغته؟

مما يجعل الأمر يتحوّل في النهاية إلى البحث في إشكالية تلازم العلاقة بين فنّ التفكير في العلم وفنّ كتابة العلم (الدرسي، بلاغة الخطاب...، ص7)، خاصة إذا تعلق الأمر بما هو أعمق أيّ، بوجود دوافع إنسانية معرفية كامنة وراء هذا "الشوق إلى الفهم والشوق نحو الصعود إلى المعنى" (نهبان، 2015، ص306) أو هو فعل القراءة متحوّلا إلى معراج لا يتوقّف عن الترقّي.

قائمة المصادر والمراجع:

1-المصادر العربية:

- شروح التلخيص كما وردت مع بعضها حسب ترتيبها في النسخة الحليّة، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه مصر(د.ت) وتتلوها طبعات أخرى مفردة لكل شرح :
- "الإيضاح في شرح التلخيص" الخطيب القزويني (ت 739هـ)
 - "المختصر" لسعد الدين التفتازاني (ت 791هـ)
 - التفتازاني (سعد الدين بن مسعود بن عمر)، "المطول" [الشرح المطول على التلخيص]، طبعة بتحقيق عبد الحميد الهنداوي، نشر دار الكتب العلمية، ط1، 2001

¹ - ينقد المبخوت أحمد مطلوب في وصفه للعلاقة بين علم المنطق وعلم البلاغة عند السكّائي ، حين جعل من هذا الأخير مجرد امتداد لمدرسة الجرجاني وان انحرفت عنها في تحكيم المنطق ، وان منوال السكّائي محتاج إلى مزيد مساهلة من حيث تماسكه مفاهيم وطرق برهنة. انظر فصله الذي عقده "الملازمات بين المعاني" ص 87 إلى 133.

- "عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح" لبهاء الدّين السبكيّ (ت 773هـ)
_ السبكيّ (بهاء الدين)، «عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح»، تحقيق خليل إبراهيم خليل، دار الكتب العلميّة، بيروت، مجلّدان، 4 أجزاء، 2001
- "مواهب الفتح في شرح تلخيص المفتاح" لابن يعقوب المغربيّ (ت 1110هـ)
_ المغربيّ (أبو العباس ابن يعقوب)، «مواهب الفتح في شرح تلخيص المفتاح»، تحقيق خليل إبراهيم خليل، نشر دار الكتب العلميّة، بيروت، في جزأين، 2003
- "الحاشية على شرح السّعد" محمّد بن محمّد عرفة الدّسوقيّ (ت 1230هـ)
_ القزوينيّ (الخطيب)، " التلخيص في علوم البلاغة"، قدّمه وشرحه عبد الرّحمان البرقوقي، دار الفكر العربيّ، ط 1، 1904
- _ السكّاكيّ (أبو يعقوب)، «مفتاح العلوم»، شرح وتحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلميّة بيروت، لبنان ط 1987، 2.

2-المراجع العربيّة:

•الكتب و المعاجم والموسوعات :

- ابن خلدون (عبد الرّحمان أبو زيد وليّ الدّين): «المقدّمة»، دار الفكر للطباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت لبنان، 2002.
- ابن عبد الله (مصطفى الشّهير بحاجي خليفة)، «كشف الظّنون عن أسامي الكتب والفنون»، دار إحياء التّراث العربيّ، مجلّدان، بيروت، لبنان، د ت
- ابن منظور (أبو الفضل جمال الدّين)، «لسان العرب»، دار صادر بيروت، ط 3، 2004،
- التّهانويّ (محمّد علي بن علي): «موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون»، تحقيق علي دحروج، تقديم ومراجعة رفيق العجم، مكتبة لبنان ناشرون ، ط 1، بيروت، 1996، جزآن
- الجرجانيّ (السّيد الشريف): «التّعريفات»، الدّار التّونسيّة للنّشر، 1971
- الرّشدي (عبد الله): «الشّاهد الشعريّ وأسئلة البلاغة والتلقّي في تلخيص المفتاح وشروحه: دراسة وصفيّة تحليليّة»، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة ، المطبعة والوراقة الوطنيّة ، ط 1 ، مراكش ، 2014
- الرّمخشريّ (أبو القاسم جارالله)، «أساس البلاغة»، تحقيق محمّد باسل عيون السّود، منشورات دار الكتب العلميّة، بيروت لبنان، جزآن، ط 1، 1997
- الدريسيّ (فرحات): «بلاغة الخطاب العلميّ العربيّ: فنّا التّفكير والكتابة في علم الطبيعة: الفيزياء (نظرية الإبصار نموذجاً)»، أديكوب للنشر، دت
- عبّاس (فضل حسن) ، «البلاغة المفترى عليها بين الأصالة والتبعيّة»، نشر دار الفرقان، ط 1999، 2.
- العجم (رفيق) ، «موسوعة مصطلحات أصول الفقه عند المسلمين»، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان، ط 1998، 1.
- العمري (محمد)، «البلاغة العربيّة: أصولها وامتداداتها»، إفريقيا الشّرق، ط 1 ، بيروت الدّار البيضاء، 1999
- عيد (رجاء) ، «فلسفة البلاغة»، منشأة المعارف بالإسكندريّة ، ط 1979
- صمّود (حمادي)، « من تجلّيات الخطاب البلاغيّ»، دار قرطاج للنّشر والتّوزيع، سلسلة تحديث، ط 1999، 1.

- ضيف (شوقي)، «البلاغة تطوّر وتاريخ»، دار المعارف مصر، ط9، 1996،
- الفيروزآبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب)، «القاموس المحيط»، إشراف: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط8، ج 1، 2005.
- القنّوجي (محمد صديق بن حسن)، « موسوعة مصطلحات أبجد العلوم»، تقديم ومراجعة د. رفيق العجم، وتحقيق ونقل النص الفارسي الشيخ عبدالله الخالدي، مكتبة لبنان ناشرون، ط2001.
- المبخوت (شكري)، «الاستدلال البلاغي»، نشر مشترك مع دار المعرفة وكلية الآداب والفنون والإنسانيات بجامعة متّوبة، ط2006.
- مطلوب (أحمد)، «البلاغة عند السكاكي»، بغداد، ط1986.
- مفتاح (محمد)، «التلقي والتأويل: مقارنة نسقيّة»، المركز الثقافي العربي، ط2، 2001.
- الناجح (عزّ الدين)، «الحجاج في الخطاب القانوني»، أطروحة دكتوراه مرقونة، بإشراف خالد ميلاد، كلية الآداب والإنسانيات بمتّوبة، السنة الجامعيّة 2009-2010.
- نيهان (كمال عرفات)، «عبريّة التّأليف العربيّ: علاقات النصوص والاتصال العلميّ»، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالاشتراك مع معهد المخطوطات العربيّة، دولة الكويت، ط2015.

• المجلات والدوريات :

- بن عمر (محمد صالح): « في مقولة النص الجمع»، حوليات الجامعة التونسية، عدد45، 2001، ص252.
- الحباشة (صابر) « مدخل إلى الأبعاد التّداولية في قراءة الشّروح البلاغيّة القديمة»، المجلة العربيّة للعلوم الإنسانيّة، عدد 25/100، 2007، ص ص 139-181
- الرّشدي (عبد الله)، «،» نحو بناء مدخل منهجيّ لمقاربة شروح تلخيص المفتاح للقزويني»، مقال في مجلة اللّسانيات واللّغة العربيّة، جامعة باجي مختار، عنابة الجزائر، 2012، عدد8، 16 صفحة

3- المراجع باللّسان الأجنبيّ :

- Encyclopédie de l'islam, 1975, « Article " hāshiya"», tome3 & , tome 6, nouvelle édition , by E.J.Brill, Leiden, Netherlands, Paris ,G.-P.Maisonneuve&Larose S. A.

من تجليات الاشتغال النصي في مدونات علماء التفسير سورة المائدة أنموذجاً

Textual representations In the writings of scholars of qur'anic exegesis Al-Maida as a model

د. مراد العرابي

جامعة البليدة (2)، لونيبي علي، الجزائر.

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى إظهار جانب من وعي المفسرين في مدوناتهم بوحدة النص القرآني، وأن أجزاءه المتعلقة ببعضها ببعض هي في منظورهم كالسورة الواحدة، وكالآية الواحدة. وهو ينطلق في ذلك من المعطيات التي يوفرها اشتغالهم على واحدة من مطولات القرآن الكريم وهي سورة المائدة. كما يجتهد في بيان القدر العجيب من الدقة في توظيف الألفاظ بما يتناسب مع سياق الآية والسورة، داخلياً وخارجياً، ويتساوق مع النظرة الكلية للنص، وذلك من خلال بعض النماذج.

الكلمات المفتاحية:

علم التفسير، علم المناسبة، الاشتغال النصي، سورة المائدة.

Abstract:

This research aims to show a part of the awareness of the scholars of qur'anic exegesis in their writings in the unity of the Qur'anic text, and that its parts are linked to each other and are in their perception as the single surat and as one verse. This study is based on the data provided by their work on one of the longest surat in the Holy Quran, Surah Al-Maida. It also aims to demonstrate the accuracy of the use of the Quranic words to fit the context of the verse and the Surat, both internal and external, and in accordance with the overall view of the text, through some models.

key words:

Exegesis of the Quraan, Proportion, Textuality, Surat Al-Maida.

مقدمة:

مما لا ريب أن المشتغل في مدونات أئمة علم التفسير بشكلٍ عامٍ والمتخصّصين منهم في توجيه دلالة متشابه اللفظ في كتاب الله تعالى يدرك يقيناً أن المقولات التأسيسية التي تقوم عليها لسانيات النصّ من الانسجام والاتساق وما يتفرع عن ذلك من المفاهيم كانت على امتداد قرون من الزمن منطلقاتٍ أساسية قامت عليها دعائم علم المناسبة وأوليات علم التفسير. وهو الأمر الظاهر في مؤلفات كثيرٍ من أئمة هذا العلم كما في تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، والتفسير الكبير لأبي بكر الرازي، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي، وأسرار ترتيب القرآن لجلال الدين السيوطي، وغير ذلك كثير.

ومما لا شك فيه أيضاً أن العاقل لا يدعي لهؤلاء شيئاً من السبق إلاّ بالقدر الذي تقوم عليه الحجّة والبرهان في آثارهم، وذلك من أوليات المنهج العلمي الذي نلتزم به في استنطاق النصوص والبحث عن تجليات النظرة الكلية للنص ضمن عددٍ من أمهات كتب التفسير اعتماداً على منهج يقوم على التوليف بين الوصف والتحليل. وإنه من الضروري أن نشير في بداية هذا العمل إلى أن مجال البحث لا يتسع زماناً ولا مكاناً لتتبع مظاهر الاشتغال النصّي في تفسير كتاب الله تعالى كله، ولذلك سنقتصر على بعض المواضع المخصوصة الظاهرة الجلّية في سورة المائدة، ولعلنا في بداية هذه الدراسة في حاجة إلى بيان شيءٍ من خصوصية هذه السورة الكريمة.

- بين يديّ سورة المائدة:

هي خامس السور الكريمة في ترتيب المصحف الشريف، وواحدة من السبع المثاني أو الطّوال¹، وقد سُمّيت بهذا الاسم لتفردها بذكر قصّة المائدة التي طلبها الحواريون من نبيّ الله عيسى U في آخر السورة في قوله تعالى: [إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ] (المائدة، 112). والواقع أن علماء التفسير² قد أوردوا لهذه السورة الكريمة أسماء أخرى أقلّ شهرة، فهي سورة العقود [أوفوا بالعقود]، وهي المبعثرة، وهي ملكوت السموات المنقذة، وفي أخبار الصحابة رضوان الله عليهم سورة الأخيار، وفيها قال جرير:

لا يقرآن بسورة الأخيار

إن البعيت وعبد آل متاعس

وهي مدنيّة باتفاق، نهائية، نزلت على رسول الله P خلال السنوات الأربع الأخيرة من عمره الشريف، إذ ابتداء نزولها في السنة السابعة للهجرة بعد سورة الفتح، في الفترة الممتدة بين صلح الحديبية وغزوة تبوك، فقد روي عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قولها: "إن المائدة من آخر ما أنزل الله، فما وجدتم فيها من حلال فأحلّوه، وما وجدتم فيها من حرام فحرّموه"³. وفيها قوله تعالى: [الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا] (المائدة، 3)، وقد تواترت الروايات على نزول هذه الآية في حجّة الوداع في العام العاشر من الهجرة قبل وفاة النبي (ص) بثمانين يوماً¹.

¹ - تعرف أيضاً بالسبع الطّول وهي: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، أما السابعة فقد اختلف فيها فذهب ابن جبير إلى أنها سورة يونس، وذهب غيره إلى أنها سورة براءة، وذهب غير هؤلاء إلى أنها الأنفال وبراءة لأيهما في حكم السورة الواحدة ولم يُفصل بينهما بالتسمية كما في سائر السور القرآنية. للاستزادة ينظر:

- أبو حيان الأندلسي: البحر المحيط في التفسير: تج: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، 1420هـ، ج6، ص493.

² - محمّد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984هـ، ج6، ص69. ينظر أيضاً:

- أبو حيان الأندلسي: البحر المحيط في التفسير، ج4، ص156.

³ - جعفر شرف الدين: الموسوعة القرآنية، تج: عبد العزيز بن عثمان التويجزي، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، ط1، بيروت، 1420هـ، ج2، ص205. ينظر أيضاً:

- محتوى السورة وتجليات القراءة السياقية في مدونات علم التفسير:

اختلف العلماء في تعيين آخر ما نزل من القرآن الكريم، ويظهر هذا الاختلاف واضحاً في تباین الآثار المروية في هذا الشأن والتي لا يرتقي أيُّ منها في حجّته إلى منزلة الحديث المرفوع، فقد أورد الباقلاني في الانتصار عدداً من الآراء المتباينة المنقولة عن بعض الصحابة والتابعين، ثم اعقها بقوله: "وليس في شيء من الروايات ما رُفِع إلى النبي U، وإتّما هو خَبَر وبظاهر الحال، وليس العلمُ بذلك أيضاً من فرائض الدّين، ولا هو ممّا نصَّ الرّسولُ P على أمرٍ فيه بيّنته وأشاعه وأذاعه وقصد إلى إيجابه وإقامة الحجّة به"².

غير أن هذا الاختلاف لا يُغيّر من واقع هذه السورة الكريمة باعتبارها آخر سورة نزلت من القرآن الكريم، أو على الأقل من أواخر ما نزل، بدليل الخبر المنقول عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها والذي سبق في موضع سابق، وهذا يجعلها ذات مكانة خاصة، بالنظر إلى سياقها التاريخي. أمّا إذا عدنا إلى خصوصيّة المحتوى، فإن السورة مُفتتحة بما تجري عليه العادة في أسلوب النّداء في القرآن المدني [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا] وهي تدعو في الآية الأولى إلى الوفاء بالعقود بصيغة الأمر القياسي، وهي العهد الموثقة كعقد الحبل ونحوه³، وهو ما يجعلها سورة العقود، يقول الحطّيب:

قَوْمٌ إِذَا عَقَدُوا عَقْداً لِحُرْمَتِهِمْ شَدُّوا الْعِنَاجَ، وَشَدُّوا فَوْقَهُ الْكُرْبَا

وقد ذهب الرّمخشري إلى أنها عقود الله تعالى على عبادة وألزمها إياهم من مواجب التكليف من تحليل الحلال وتحريم الحرام بدليل التفصيل الوارد بعد الأمر في مطلع السورة الكريمة. كما أجاز أن يكون المراد بها ما يعقدون بينهم من عقود الأمانات ويتحالفون عليه ويتماسحون من المبايعات ونحوها⁴. وقد أشار البغوي في تفسيره إلى أن الله تعالى قد أنزل في هذه السورة الكريمة ثمانية عشر حكماً لم ينزلها في غيرها، وزاد عليه القرطبي فريضة النّداء للصلاة والتي لم ترد بهذا المعنى في موضع آخر من القرآن⁵، وهي أحكام ضرورية لاستكمال شرائع الإسلام أوجزها صاحب التحرير والتنوير في نصٍّ مركّز جامع نفيس لا يجوز فيه شيء من الحذف أو الاختصار أو التعديل، يقول: "... وقد احتوت على تمييز الحلال من الحرام في المأكولات، وعلى حفظ شعائر الله في الحج والشهر الحرام، والنهي عن بعض المحرمات من عوائد الجاهلية مثل الأزلام، وفيها شرائع الوضوء، والغسل، والتّيّم، والأمر بالعدل في الحكم، والأمر بالصدق في الشّهادة، وأحكام القصاص في الأنفس والأعضاء، وأحكام الحرابة، وتسليّة الرّسول P عن نفاق المنافقين، وتحريم الخمر والميسر، والأيمان وكفارتها، والحكم بين أهل الكتاب، وأصول المعاملة بين المسلمين، وبين أهل الكتاب، وبين المشركين والمنافقين، والخشية من ولايتهم أن تُفضي إلى

- أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد بن حنبل، تج: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، 2001م، ص353، مسند النساء، الحديث رقم: 25547.

¹ - للاستزادة ينظر:

- جعفر شرف الدين: الموسوعة القرآنية، ج2، ص205.

² - أبو بكر محمّد بن الطّيب الباقلاني: الانتصار للقرآن، تج: محمد عصام القضاة، دار الفتح، عَمّان، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 2001 م، ج1، ص246.

³ - ينظر: جار الله الرّمخشري: تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، ط3، بيروت، 1407هـ، ج1، ص600-601.

⁴ - ينظر: نفسه، ص600-601.

⁵ - وهي الحكم التاسع عشر، إذ ليس للأذان ذكر في القرآن إلا في هذه السورة، أما قوله تعالى: [إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ] (الجمعة، 10)، فهو مخصوص ببناء الجمعة. للاستزادة ينظر:

- أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي: تفسير البغوي، تج: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، ط1، بيروت، 1420هـ، ج2، ص5.

- أبو عبد الله محمد شمس الدين القرطبي: تفسير القرطبي، تج: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، ط2، القاهرة، 1384هـ، ج6، ص30.

ارتداد المسلم عن دينه، وإبطال العقائد الضالّة لأهل الكتابين، وذكر مساوئ من أعمال اليهود، وإنصاف النصارى فيما لهم من حسن الأدب وأتهم أرحى للإسلام وذكر قضية التيه، وأحوال المنافقين، والأمر بتخلّق المسلمين بما يناقض أخلاق الضالين في تحريم ما أحلّ لهم، والتنويه بالكعبة وفضائلها وبركاتها على الناس، وما تخلّل ذلك أو تقدّمه من العبر، والتذكير للمسلمين بنعم الله تعالى، والتعريض بما وقع فيه أهل الكتاب من نبد ما أمروا به، والتّهاون فيه. واستدعاؤهم للإيمان بالرسول الموعود به. وختمت بالتذكير بيوم القيامة، وشهادة الرّسل على أممهم، وشهادة عيسى على النصارى، وتمجيد الله تعالى¹.

وبالعودة إلى السّيّاق التاريخي الخارجي لهذه السّورة الكريمة باعتبارها آخر السّور نزولاً، فإنّ هذه الخصوصية تفترض وضعاً خاصاً يستثني سورة المائدة من مسألة النّسخ عند بعض المفسّرين، وهو ما يعكس وعياً عميقاً بقيمة العناصر الخارجية غير اللغوية المتعلقة بظروف التّزيل في قراءة النّص القرآني، وفهمه، والاستنباط منه، وقيم الدليل على أنّ قراءة النّص في مدوّنات علم التّفسير لم تكن لترتقي إلى هذا المستوى من النّضج لولا التّوليف الحاصل بين النّصوص وحواليها، داخلياً وخارجياً، وهو الحكم الذي يمكن استنتاجه من رأي عمرو بن شحيب والحسن رضي الله تعالى عنهما من القول بعدم حُصُول النّسخ في سورة المائدة باعتبارها آخر سورة نزلت، كما أخرج ذلك عنهما أبو داود. وأخرج عن الشعبي أنه لم يُنسخ منها إلا قوله تعالى: [يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُجْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ] (المائدة، 2)، وزاد عليه ابن عباس قوله Y: [فَإِنْ جَاؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ] (المائدة، 42)². وفي ذلك يقول أبو جعفر النّحاس في النّاسخ والمنسوخ في تعليقه حول خصوصيّة سورة المائدة: "اختلف العلماء في هذه السّورة فمنهم من قال لم يُنسخ منها شيء، ومنهم من احتجّ بأنها آخر سورة نزلت فلا يجوز أن يكون فيها منسوخ"³.

كما اعتنى علماء التّفسير عناية خاصّة بالمناسبة الحاصلة داخلياً بين الآيات والسّور القرآنية الكريمة، إثباتاً لوحدة القرآن الكريم كلّ، وأنه كالسّورة الواحدة وكالآية الواحدة⁴. ومن أدلّة ذلك ما نجده من نفائس الملاحظات في تفسير البحر الحيط لأبي حيّان الأندلسي الذي يرى اعتلاقاً منطقياً قوياً بين أجزاء النّص في كتاب الله تعالى. وإذا تتبّعنا هذا الأمر تحديداً في سورة المائدة باعتبارها نموذج هذا البحث، فإننا نجد ملاحظات قيّمة بخصوص الارتباط الحاصل بينها وبين ما قبلها من الاستفتاء في الكلاله في آخر سورة النّساء، فكأنها جاءت تفصيلاً لما أجمل، يقول: "ومناسبة افتتاحها لما قبلها هو أنه تعالى لما ذكر استفتاءهم في الكلاله وأفتاهم فيها، ذكر أنه بيّن لهم كراهة الضلال، فبيّن في هذه السّورة أحكاماً كثيرة هي تفصيل لذلك المجمل"⁵، وقد أورد أبو حيّان قصّة الكندي الفيلسوف مع سورة المائدة، وهي تمثّل -بصرف النّظر عن صحة الخبر- توظيفاً رائعاً للسرد في بسط المسائل العقلية المجرّدة وعرضها بغرض استغلال طاقته في الإقناع، والبرهنة على حقيقة أن النّص القرآني كالسّورة الواحدة وكالآية الواحدة، لا يعتوره في ذلك خلل ولا ارتباك في موضع من المواضع، وهو ما لا يقدر عليه بشر، يقول: "ذكروا أن الكندي الفيلسوف قال له أصحابه: أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا القرآن، فقال: نعم، أعمل مثل بعضه، فاحتجب أياماً كثيرة، ثم خرج فقال: والله ما أقدر، ولا يطيق هذا أحد، إني فتحت المصحف فخرجت سورة

¹ - محمّد الطاهر بن عاشور: تفسير التّحرير والتنوير، ج 6، ص 73.

² - ينظر: شهاب الدين الألوسي: روح المعاني، تج: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، 1415هـ، ج 3، ص 221.

³ - أبو جعفر النّحاس: النّاسخ والمنسوخ، تج: محمد عبد السلام محمد، مكتبة الفلاح، الكويت، ط 1، 1408هـ، ص 357.

⁴ - فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 3، 1420هـ، ج 32، ص 295.

⁵ - أبو حيّان الأندلسي: البحر المحيط في التّفسير، ج 4، ص 156-157.

المائدة، فنظرت فإذا هو قد نطق بالوفاء، ونهى عن النكث، وحلّل تحليلًا عامًا، ثم استثنى استثناءً، ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين، ولا يقدر أحدٌ أن يأتي بهذا إلا في أجلاذ¹.

ولا يقتصر الأمر على المناسبة بين أجزاء السورة، أو بما قبلها من سورة النساء، بل يمتد الأمر في تفسيره إلى ما يلها من سورة الأنعام، وهو يؤسس فكرة المناسبة على التشابه الظاهر الوارد بين آخر المائدة وأول الأنعام من تقرير ملك السموات والأرض لله تعالى وحده، يقول تعالى في آخر المائدة: [لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ] (المائدة، 120)، ويقول في أول الأنعام: [الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ] (الأنعام، 1)، وتعقيباً على هذه المناسبة البيّنة الظاهرة يقول أبو حيان الأندلسي: "... أنه تعالى لما ذكر ما قالته النَّصَارَى في عيسى وأمه من كونهما إلهين من دون الله، وجرت تلك المحاورة، وذكر ثواب ما للصّادقين، وأعقب ذلك بأن له ملك السموات والأرض وما فيهن وأنه قادر على كلّ شيء، ذكر بأن الحمد له المستغرق لجميع المحامد فلا يمكن أن يثبت معه شريك في الإلهية فيُحمد، ثم نبّه على العلة المقتضية لجميع المحامد والمقتضية كون ملك السموات والأرض وما فيهن له بوصف خلق السموات والأرض، لأن الموجد للشيء المنفرد باختراعه له الاستيلاء والسلطنة عليه. ولما تقدم قولهم في عيسى وكفرهم بذلك وذكر الصّادقين وجزاءهم أعقب خلق السموات والأرض جعل الظلمات والنور فكان ذلك مناسباً للكافر والصادق"².

كما ظهرت هذه العناية واضحةً في بعض المؤلفات التي اختصت في بيان مسائل المناسبة بين أجزاء القرآن، سورته وآياته، كما في نظم الدرر للإمام البقاعي الذي يرى في تعقيب سورة النساء بسورة المائدة أتم المناسبة، يقول: "وفي الأمر بالوفاء بالعقود بعد الإخبار بأنه بكلّ شيء عليم غاية التحذير من تعمد الإخلال بشيءٍ منذ لك و إندق، وفي افتتاح هذه المسماة بالمائدة بذكر الأظعمة عَقِب سورة النساء التيمن أعظم مقاصدها النكاح والإرث المتضمن للموت، المشروع فيهما اللوائم والمآتم أتم مناسبة"³.

ولعلّ من نفائس الكتب وأجلّها في هذا الاتجاه أيضاً كتاب "أسرار ترتيب القرآن" لجلال الدين السيوطي، وقد تجلّت فيه عناية المؤلف، وعلمه، وذكأؤه، وقدرته على الرّبط بين أجزاء النصّ ربطاً عقلياً مقنعاً بعيداً عن التّكلف في عرض مظاهر المناسبة والاختلاق في إقامة العلائق بين أجزاء النصّ، وهو في ذلك يجمع بين بلاغة الإيجاز في مواضع الإيجاز، والبسط في مواضع البسط. وهو في سورة المائدة ينظر إليها في موضعها من المصحف الشريف، ويكشف عن اعتناقها العجيب بما قبلها من السور بدءاً من فاتحة الكتاب مروراً بالبقرة ثمّ النساء.

أمّا وجه مناسبتها للأولى، فإن في سورة المائدة بيان ما أُجمل في الفاتحة من أمر المغضوب عليهم والضّالين⁴، وقد جاء تفصيل هذا الأمر في موضعين اثنين: الأول قوله تعالى: [قُلْ هَلْ أَنْبَيْتُمْ بِشَرِّ مَن لَّكَ مَثُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهَا لِلَّهِ وَعَظِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ] (المائدة، 60).

¹ - نفسه، ص157.

² - أبو حيان الأندلسي: البحر المحيط في التفسير، ج4، ص428.

³ - إبراهيم بن عمر بن أبي بكر البقاعي: نظم الدرر، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، دت، ج6، ص4-5.

⁴ - جلال الدين السيوطي: أسرار ترتيب القرآن، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، دت، ص70.

وَالثَّانِي قَوْلُهُ: [قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ] (المائدة، 77).

ولا يقتصر الأمر على ما أُوجِز في فاتحة الكتاب، بل فيها بيانٌ وبسطٌ لما أُجِمل في سورة البقرة أيضاً، وبينهما من الاعتلاق ما لا يخفى على الناظر المتأمل، من ذلك بسط مسألة الأطمعة والذَّبائح، وما حرّمه الكفار تبعاً لأبائهم ممّا أوجزته البقرة، ثم جاء مبسوطاً كلّ البسط في قوله تعالى: [مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا وِصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ! وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ] (المائدة، 103-104).

ومن ذلك أيضاً مسألة القصاص [وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ] (البقرة، 179)، وتعيين أول من سنّ القتل، وعلته، وتفصيل الجريمة كاملةً، بشخصها وحوارها، وذلك من أول قوله تعالى: [وَأَتَتْهُمُ نَبَأُ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ] إلى قوله: [ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ] (المائدة، 27-32).

وفيهما أيضاً تفصيل مسألة الخمر والميسر، وذمّهما، وتحريمهما بالكلية في قوله تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِمَّنْ عَمِلَ الشَّيْطَانُ فَأَجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ! إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمَا لِعَدَاوَةً وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ] (المائدة: 91-92).

وقد اقتصر الأمر في البقرة على ترجيح في جهة الدّم: [يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا] (البقرة، 219).

أما بالنظر إلى ما بين هذه السّورة الكريمة وسورة النّساء من الاعتلاق والمناسبة فإنّه ظاهرٌ من أوجه عديدة¹:

- أولها: تعقيب سورة المائدة المفتتحة بالأمر بالوفاء بالعقود على سورة النّساء المشتملة على عقود كثيرة صريحاً وضمناً، كعقود الأنكحة وعقد الصداق وعقد الحلف وعقد المعاهدة والأمان وعقد الوصية والوديعة والوكالة والعارية والإجارة، وغير ذلك، وذلك في غاية المناسبة، كأنه قيل: يا أيها الناس أوفوا بالعقود التي فُرع من ذكرها في السّورة التي تمّت.

الثاني: تقديم النّساء على المائدة، لأن الخطاب في الأولى -وهي السّورة المدنية- أشبه بتنزيل المكي، فهي المفتتحة بقوله تعالى: [يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم] (النساء: 1).

وفيهما أيضاً: [يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ] (النساء: 170)، وقوله: [يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ] (النساء: 174) وهو على هذا النحو أشبه بتنزيل المكي. أما سورة المائدة فإن الخطاب فيها أشبه بتنزيل المدني، وأول آية فيها قوله تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا] (المائدة، 1)، وممّا لا شكّ فيه أن تقديم العامّ وشبه المكي من خطاب الناس كافة أولى وأنسب من خطاب الخاصّة من المؤمنين.

الثالث: التلازم القائم بين السّورتين والاتّحاد بينهما، من جهة المضمون المشترك في تقرير الفروع الحكمية، وهو نظير ما بين البقرة وآل عمران من التلازم والاتّحاد في تقرير الأصول من الوحدانية والنّبوة ونحوهما. ومن جهة أخرى يشير السيوطي

¹ - ينظر: جلال الدين السيوطي: أسرار ترتيب القرآن، ص 76-78.

إلى المناسبة العجيبة بين أول سورة النساء المُفتتحة ببدء الخلق وآخر سورة المائدة المختتمة بالمنتهى والبعث والجزاء، فكأنهما سورة واحدة من المبتدأ إلى المنتهى.

والواقع أن السيوطي بهذه العين البصيرة وهذه النظرة التأمّلية الثّاقبة قد أبدع في هذه المسألة، وله في أشباه هذا الموضوع في كتاب الله تعالى رأيٌ عجيبٌ يحتاج إلى إمعان النظر لولا حدود الزّمان والمكان في دراسة كهذه، ويبدو أنّها عادة القرآن التي تطرد في كلّ السور حسب رأيه، يقول: "وأمرٌ آخر استقرّأته، وهو: أنه إذا وردت سورتان بينهما تلازمٌ واتّحادٌ، فإن السورة الثّانية تكون خاتمتها مناسبةً لفاتحة الأولى للدلالة على الاتّحاد. وفي السورة المستقلة عمّا بعدها يكون آخر السورة نفسها مناسباً لأولها"¹.

إضافة إلى هذه المظاهر كلّها ينبّه السيوطي على ما بين المائدة والنساء من العلاقة من جهة أن في الثّانية بسطاً لأمرٍ أُجملت في الأولى، كتفصيل أحكام الخائنين والسراق في قوله تعالى: [وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ] (المائدة، 38)، وقد وردت بصيغة العموم في سورة النساء في قوله تعالى: [إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا] (النساء، 105). ولم يقتصر تفصيل هذه الآية على هذا الموضوع من سورة المائدة فقط، بل جاء في مواضع ثلاثة مكرّرة من سورة المائدة على نحو بديع لا يخلو من حكمة في اختيار الألفاظ بمنتهى العناية بما يتناسب مع السياق الداخلي والخارجي للآيات الكريمة، فقال في الموضوع الأول: [وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ] (المائدة، 44)، وقال في الثّاني: [وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ] (المائدة، 45)، وقال في الثّالث: [وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ] (المائدة، 47)، وهو ضرب عجيب من المناسبة الحاصلة بين فرائد القرآن وسياقاتها لا يستقيم البحث إلا باستحضاره، ووصفه، وتحليله، والنظر في أحواله، والكشف عن صلته الوثيقة بمسألة الاشتغال النصّي في مؤلّفات علماء التفسير من المتخصّصين في توجيه دلالة متشابه اللفظ في كتاب الله تعالى. وهو موضوع المبحث التّالي.

- دقة المفردة القرآنية مظهرًا للاشتغال النصّي في توجيه دلالة متشابه اللفظ:

يحرص الأسلوب القرآني على تحري الدقة في اختيار ألفاظه ووضعها في مكانها الصحيح من الآية الكريمة، ولعلّ في توظيف هذه الدقة المتناهية ما يُثبت وجهاً بديعاً من وجوه إعجازه، "وذلك في الألفاظ التي تمرّ بها على القرون والأجيال منذ نزل القرآن إلى اليوم، فإذا بعض الأجيال يفهم منها ما يناسب تفكيره، ويلائم ذوقه، ويوائم معارفه، وإذا أجيال أخرى تفهم من هذه الألفاظ عينها غير ما فهمته تلك الأجيال، ولو استبدلت هذه الألفاظ بغيرها لم يصلح القرآن لخطاب الناس كافّة، وكان ذلك قدحاً في أنه كتاب الدين العام الخالد ودستور البشرية في كل عصر ومصر"².

ورغم عظمة هذا الباب إلا أن ما نريده في هذا المقام من دقة الألفاظ في كتاب الله تعالى هو إحكام دلالتها غاية الإحكام، ومناسبتها لسياق الآية والسورة الكريمة غاية المناسبة حتى كأن الكلمة لم تُخلق إلا لهذا الموضوع البديع من الآية والسورة، وصارت بهذا التوظيف الإلهي المعجز بمنزلة الفريدة من حبّ العقد لا يقع مثلها لمخلوق، ولو أنها سقطت لعزّ على الفصحاء سقوطها، ولو أن البليغ رفعها وأدار لسان العرب كلّه على أن يأتي بأخرى تسدُّ مسدّها لأعجزه ذلك. كما حرص الأسلوب

¹ - نفسه، ص 69.

² - محمد عبد العظيم الزّرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط3، دت، ج2، ص308.

القرآني أيضاً على الأمر بتحري الدقة في توظيف الألفاظ في كلام الناس عامة حتى لا تضل المعاني بين الاحتمالات وتتوه الأغراض والمقاصد في ضلال الشك والتّمويه¹، فقال Y: (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَمَا يَدْخُلُ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) (الحجرات، 14)، كما دعا إلى ذلك أيضاً حين نهى المؤمنين عن استعمال لفظ " راعينا " فقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعَيْنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (البقرة، 104)، وهي كلمة مشتقة من الرعونة في رأي بعض المفسرين²، أو هي كلمة سريانية أو عبرانية كان اليهود يرددونها في سب رسول الله P لئلا يأتوا بالسنهم وطعنوا في الدين، وقد كان المسلمون يقولون للنبّي إذا ألقى عليهم شيئاً من العلم: " راعينا يا رسول الله"، أي راقبنا وانتظرنا، وتأن بنا حتى نفهمه ونحفظه، ثم سمع اليهود ذلك فافتصوه وخاطبوا به الرسول P وهم يعنون به تلك المسببة العبرانية، فنهى المؤمنون عنها، وأمروا بما هو في معناها، وهو انظرنا من نظره إذا انتظره³.

ولعل المتأمل في دقة الألفاظ القرآنية يدرك يقيناً أنه لا ترادف في القرآن، وأن كل كلمة فيه تحمل في موضعها من الآية والسورة معنى مختلفاً عن المعنى الذي يؤديه غيرها، وقد نبّه إلى ذلك الجاحظ، فقال: " ألا ترى أنّ الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب، أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر. والناس لا يذكرون السّعب، ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة. وكذلك ذكر المطر، لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام، والعامّة وأكثر الخاصّة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث"⁴. كما نبّه أيضاً إلى أن أسلوب القرآن يختار كلماته وفق أوضاع مخصوصة لا مجال للصدفة فيها، فقال: "ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع، وإذا ذكر سبع سموات لم يقل الأرضين. ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين، ولا السّمع أسماعاً، والجاري على أفواه العامّة غير ذلك، لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال"⁵. وهكذا فإن الكلمة في القرآن قد ترد في مواضع كثيرة كلفظ "الأرض" - كما أشار إلى ذلك الجاحظ-، وهي لا ترد في كل ذلك إلا مفردة، رغم الحاجة إلى جمعها في بعض المواضع كهذا الموضع من سورة الطلاق، يقول Y: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) (الطلاق، 12). وفي مقابل ذلك فإن كلمات أخرى لا ترد في كتاب الله تعالى إلا مجموعة كأكواب وألباب، وكل ذلك لغايات عظيمة وأسرار مكنونة يقتضها الإحكام من وجوه كثيرة، فإذا اختار اللفظ معرفة كان ذلك لسبب، وإذا انتقاه نكرة كان ذلك لغرض، وكذلك إذا كان اللفظ مفرداً كان ذلك لمقتضى يطلبه، وإذا كان مجموعاً كان لحال يناسبه، وقد يختار الكلمة ويهمل مرادفها الذي يشترك معها في الدلالة، وقد يفضّل كلمة على أخرى والكلمتان بمعنى واحد، وربما يتخطى في التعبير المحسن اللفظي والجمال البديعي -على قدره وحسنه- لغرض أسمى وهو المحسن المعنوي، وكل ذلك لغرض يرمي إليه، وهكذا دائماً: لكلّ مقام مقال في التعبير القرآني⁶.

وإذا كان هذا القدر من الدقة العجيبة ظاهراً في كل موضع من القرآن فإنه أظهر في فواصل الآيات الكريمة، "ومن يتبع ما قيل فيه بالترادف في بعض فواصل القرآن الكريم فإنه إذا دقق النظر، وأجال الفكر مستهدياً بما أرساه أئمة اللّغة وكبار

¹ - ينظر: عبد الفتاح لاشين: من أسرار التعبير القرآني صفاء الكلمة، دار المريخ للنشر، الرياض، 1983م، ص 8.

² - للاستزادة ينظر: جار الله الزمخشري: تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ج 1، ص 174.

³ - للاستزادة ينظر: جار الله الزمخشري: تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ص 174.

⁴ - أبو عثمان الجاحظ: البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1423هـ، ج 1، ص 41.

⁵ - نفسه، ص 41.

⁶ - عبد الفتاح لاشين: من أسرار التعبير القرآني صفاء الكلمة، ص 15، 16.

المفسرين فلن يعدم فروقاً دقيقةً بين هذه المترادفات، كالفرق في الفواصل بين أولي الألباب وأولي النهى، أو الفرق في التعبير عن جهنم بألفاظٍ متعددة في الفاصلة، مثل: لظى، الحطمة، سقر، هاوية، أو عن يوم القيامة بيوم الخروج... وما إلى ذلك¹. وقد عني بعض العلماء بدقة الألفاظ القرآنية، ومناسبتها لحوايتها، واجتهدوا في الكشف عن أسرارها في سياق حديثهم عن إحكام النصّ القرآني بشكلٍ عام، وقد كان ذلك نتاج بعض الرّدود على شبهاتٍ ومطاعنٍ أثارها بعض أهل الفتنة والإلحاد حول التكرار في كتاب الله العزيز، ثم تمخّض عنها علم خاصّ عرف بعلم المتشابه اللفظي في القرآن الكريم². ولعلّ من أجلّ هذه الأعمال ما قدّمه الخطيب الإسكافي في "درة التنزيل وقرّة التأويل"، وبرهان الدّين الكرمانلي في "أسرار التكرار في القرآن"، وابن الزبير الغرناطي في "ملاك التأويل". كما اهتم بعض العلماء بهذا الباب أيضاً في سياق العناية بدقة الفاصلة وتمكينها واثلافها مع ما يدلّ عليه الكلام، كما فعل الزركشي في برهانه³ والسيوطي في الإتقان⁴.

ومما لا شكّ في أن الناظر في الكلمة القرآنية وفي سياقها يلحظ دقّتها وإحكامها في جميع أحوالها، من حيث الجمع والإفراد، والإظهار والإضمار، والتعريف والتنكير، والتقديم والتأخير. كما يلحظ في الوقت ذاته مظهراً آخر من تجليات دقّتها وانسجامها، ومناسبتها لسياقها الذي ترد فيه بعيداً عن مسائل البلاغة والنحو، حيث تكون الكلمة في دلالتها المعجمية التي تواضع عليها أهل العربية فريدةً في موضعها من الآية والسورة. فلا يجد القارئ المتأمل فيما تواضع عليه العرب من الكلم ما هو أحق بموضعها منها، جمالاً ومناسبةً والتناماً مع محيطها النصّي، وذلك أكثر من أن يُحصى في كتاب الله تعالى. وهو الأمر الذي نسعى في هذا الموضوع من البحث لبياناه وتفصيله من خلال عددٍ من الآيات الكريمة من سورة المائدة، ولعلّها تُغني عن غيرها في هذا المقام، حيث سنجد في عرض شيء من تلك الجهود التي بذلها أئمة علم متشابه اللفظ للكشف عن مدى دقة المفردة وملاءمتها لسياقها في الآية والسورة بحثاً عن معالم النصّية في منجز هؤلاء الاعلام، وسنكتفي بمثالين اثنين:

- الأوّل: في ثلاثية (الكافرون/ الظالمون/ الفاسقون): وهو موضع عجيبٌ في سورة المائدة استعمل فيه الأسلوب القرآني عدداً من الألفاظ المتقاربة دلاليّاً في ثلاث آيات متوالية، وهو استعمال لا يمكن الاكتفاء في تفسيره بمجرد التنوع اللفظي، بل تكون فيه الألفاظ المختلفة محكمةً في مواضعها غاية الإحكام، دقيقةً في معناها، مناسبةً لسياقها الذي ترد فيه. وذلك في قوله تعالى:

(إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَخْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوُا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) (المائدة، 44).

¹ - عبد الجواد محمد طبع: دراسة بلاغية في السجع والفاصلة القرآنية، دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1413هـ، ص243.

² - هو علم تتعرّف به على أسلوب القرآن الكريم في تكرير بعض الآيات بالكلمات المتفقة أو المختلفة، وحروفها المتشابهة، بأن تذكر الآية الواحدة ذات الموضوع الواحد في أكثر من موقع، مع اختلاف في جوانب التناول بين موقع وآخر، تقديماً وتأخيراً، أو تعريفاً وتنكيراً، أو جمعاً وإفراداً، أو إبدال كلمة بأخرى، أو حرف بأخر، إلى غير ذلك من أنواع التشابه، للاستزادة ينظر:

- الخطيب الإسكافي أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصمباني: درة التنزيل وقرّة التأويل، تج: محمد مصطفى آيدين، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط1، 2001م، مقدمة المحقق، ص11.

³ - للاستزادة ينظر: أبو عبد الله بدر الدين الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تج: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1957، ج1، ص78 وما بعدها.

⁴ - للاستزادة ينظر: جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، تج: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، جمهورية مصر العربية، 1974م، ج3، ص345 وما بعدها.

(وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (المائدة، 45).

(وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعَيْسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ! وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (المائدة، 46-47).

ولعل هذا الموضوع في سورة المائدة من أشهر المواضع وأظهرها في كتاب الله تعالى، ذلك أنه جمع بين ثلاث تعقيبات يميّزها التوالي والتشابه والاختلاف في آن واحد، وهو ما يُشعر القارئ أن التوظيف القرآني لهذه الألفاظ بهذه الكيفية يرمي إلى دلالة مقصودة وأنه يسعى من خلال هذا التنوع إلى تفعيل التدبير الذي جاء الأمر به في كثير من الآيات. ولعل أهم سؤال يُطرح في هذا السياق هو ما يتعلق بالحكمة في اختصاص الموضوع الأول بالكفر، والثاني بالظلم، والثالث بالفسق، وهل يجوز استعمال إحدى هذه الفواصل لموضع الثانية دون أن يُصيب المعنى اختلال أو فساد؟

وقبل الإجابة عن هذا السؤال المهم ينبغي الوقوف على الفروق الدقيقة بين دلالات هذه الكلمات في العرف اللغوي. يقول ابن فارس في معنى الكفر: "الكاف والفاء والراء أصل يدل على معنى واحد، وهو السّتر والتغطية، ولذلك يقال لمن غطّى درعه بثوب: قد كفر درعه"¹. أما الظلم فالمراد به وضع الشيء في غير موضعه، ومنه قولهم: "من أشبه أباه فما ظلم"². وأما المراد بالفسق فهو الخروج عن الطاعة، وقد يُراد به مطلق الخروج، ولذلك يقال: "فسقت الرُّطبة عن قشرها": إذا خرجت³. ويبدو واضحاً أن محاولة الجمع بين هذه الدلالات المتباعدة في موضع واحد أمر في غاية الصّعوبة، ذلك أن ما توقّره الدلالات اللغوية من إشارات في هذا الموضوع العجيب لا يوفّر معالم كافية لحلّ مسألة كهذه، وهو ما يحمل عدداً غير قليل من أهل التفسير على اجتناب الخوض في تأويل هذا الضرب من متشابه الكتاب فراراً مما قد يستصعبه من التكلّف، وإحساساً منهم بوعورة هذا المرتقى الصّعب. ولذلك يذهب أكثر هؤلاء إلى أن المراد بالكفر والظلم والفسق في هذا الموضوع شيء واحد، وهو الكفر، وهو ما يؤكّده قوله P: "في الكافرين كلّها"⁴، وقد يكون المراد بذلك أهل الكتاب كما ذهب إلى ذلك خير الأمة وترجمانها ابن عبّاس⁵، وقد اختار الأسلوب القرآني التعبير عن الشيء الواحد في هذا الموضوع بألفاظ مختلفة لزيادة الفائدة، واجتناب صورة التكرار⁶.

غير أن هذه الآراء التي توحد دلالة الفواصل السابقة على هذا النحو وتجعل هذا التنوع اللفظي في موضع مهمّ كموضوع التعقيب ضرباً من فضول الكلام لا تبدو مقنعة بالنظر إلى طريقة القرآن في الحرص على الدقة في توظيف ألفاظه بما يناسب السياق، وهو ما دفع بعض المفسرين إلى مزيد من البحث والتدبر في دقائق الفروق بين الدلالات، فذهب الشّعبي إلى أن الأولى نزلت في حكام المسلمين، والثانية في اليهود، والثالثة في النصارى⁷. كما نقل بعض المفسرين عن ابن عبّاس تمييزه

¹ - ينظر: أحمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة، تج: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1979م، ج 5، ص 191.

² - ينظر: نفسه، ج 3، ص 468.

³ - نفسه، ج 5، ص 402.

⁴ - أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن المعروف بتفسير الطبري، تج: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط 1، 2000، ج 10، ص 346.

⁵ - جار الله الزمخشري: تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ج 1، ص 736.

⁶ - ينظر: برهان الدين الكرمانى: أسرار التكرار في القرآن المسى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان، تج: عبد القادر أحمد عطا، دار الفضيلة، دت، ص 103.

⁷ - ينظر: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، ج 10، ص 354.

بين الكفر والظلم والفسوق أيضاً، فقالوا إن المراد بالكفر جحوداً ما أنزل الله وإنكاره، وأما الظلم والفسوق فهو فيمن أقر به ولم يحكم¹. وذهب غيرهم إلى معانٍ قريبة من ذلك أيضاً، فقالوا: "ومن لم يحكم بما أنزل الله إنكاراً له فهو كافر، ومن لم يحكم بالحق مع اعتقاده حقاً وحكم بضده فهو ظالم، ومن لم يحكم بالحق جهلاً وحكم بضده فهو فاسق"². ولعل أكثر الأقوال إقناعاً وأقدها على الكشف عن بعض أسرار التوظيف القرآني لهذه الفواصل المتشابهة في هذا الموضوع الشريف ما ذهب إليه ابن الزبير الغرناطي في ملاك التأويل، إذ اجتهد في بيان مدى الإحكام والدقة في توظيف هذه الألفاظ بما يناسب السياق مناسبة تامة، وهو في ذلك ينطلق من مبدأين:

- أولهما: مبدأ الترتي من الأخف إلى الأثقل في آيات الوعيد، وهو الأمر المطرد في كتاب الله تعالى.

- الثاني: حقيقة أن الموصوفين بالكفر والظلم والفسوق هم اليهود، وهو ما ذهب إليه حبر الأمة ابن عباس.

ويبدو أن ابن الزبير قد استحسن إشارة الزمخشري إلى الحكمة في ترتيب التعقيبات السابقة وجعل منها مفتاحاً لتفسير هذا الموضوع، إذ إن الله تعالى أورد هذا الوصف لهم بالعُتُوِّ في كفرهم حين ظلموا آيات الله بالاستهانة، وتمردوا بأن حكموا بغيرها³. كما استحسن أيضاً ما ذهب إليه الخطيب الإسكافي من القول بالترقي من الكفر إلى الظلم، رغم أنه وقف عند ذلك ولم يصل به إلى الفسق، وجعل الآية الثالثة منقطة عن الآيتين السابقتين⁴، ولأجل ذلك أورد بعض كلامه في ملاك التأويل، التأويل، يقول: "وحاصل كلامه بالجملة أن ما تقدم من الوصف بالكفر والظلم خاصٌ بيهود لتقدم ذكرهم قبل هذه الآيات، وقوله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ...) إلى قوله نهياً لهم (فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَخَشَوْنَ اللَّهَ وَلَا تَشْرَوْا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا..) إلى قوله (وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)، ولم يتقدم ذكرهم بغير كفرهم وتحريفهم من غير التفات إلى ذكر ظلمهم وغيرهم، إنما مجرد كفرهم ظلم لأنفسهم فأعقب هذا بقوله (هم الكافرون). ثم لما اجتمع في الآية الثانية ظلمهم لأنفسهم ولغيرهم بما ذكر من مخالفتهم في القصص المشار إليه بقوله: (وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ) إلى آخره، أعقب هذا بقوله تعالى: (فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) لظلمهم أنفسهم بالكفر وزيادة ظلمهم غيرهم فكان أشد من وصف الكفر إذ هو كفر وزيادة"⁵.

وفي هذا السياق يؤكد ابن الزبير الغرناطي ما ذهب إليه الإسكافي من أن وصف اليهود بالظلم أعظم من وصفهم بالكفر⁶، ويستدل على ذلك بقول المفسرين في الآية الكريمة (وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ) (العنكبوت، 49): "إنهم المتوغلون في الظلم المكابرون" وذلك مما لا شك فيه كفر وزيادة⁷.

¹ - ينظر: نفسه، ص 357.

² - جار الله الزمخشري: تفسير الكشاف، ج 1، ص 637، 638.

³ - برهان الدين الكرمانى: أسرار التكرار في القرآن، ص 103.

⁴ - ينظر: جار الله الزمخشري: تفسير الكشاف، ج 1، ص 637.

⁵ - أبو جعفر أحمد بن الزبير الغرناطي: ملاك التأويل القاطع بنوي الإلحاد والتعطيل في توجيه التشابه اللفظ من أي التنزيل، عبد الغني محمد علي الفاسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ج 1، ص 131.

⁶ - نفسه، ص 131.

⁷ - ابن الزبير الغرناطي: ملاك التأويل، ص 135.

⁸ - نفسه، ص 135.

أما وصفهم بالفسق فهو أعظم من وصفهم بالظلم، ويدل على ذلك ما ذكره المفسرون نقلاً عن الحسن قوله: "إذا استعمل الفسق في نوع من المعاصي وقع على أعظم ذلك النوع من كفر وغيره" ¹، وهو ما يفسر ما ذهب إليه الزمخشري في تفسيره للفساقين بأنهم المتمردون من الكفرة ². وهو رأيٌ تُعزّزه آيات كثيرة في القرآن، منها ما جاء في تعقيب آيات من سورة البقرة يصف فيها القرآن أفعالاً شنيعة ارتكبتها بنو إسرائيل منها استكبارهم وتكذيبهم وقولهم قلوبنا غلف، ليختم ذلك كله بقوله تعالى: (وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ) (البقرة، 99). وفي ذلك يقول ابن الزبير: "فورد مفصلاً في أي البقرة ما ورد مجملاً في المائدة، وختمت آيات البقرة بقوله تعالى: (وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ) وآيات المائدة بقوله: (وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (فإلى مجموع ما في آيات البقرة أشارت آية المائدة، وختمت هذه من وصفهم بالفسق بما ختمت تلك، وحصل من وصفهم به أنه أعظم من وصفهم بالكفر والظلم، لأنه كفرٌ جامعٌ لكل شنيع من مرتكباتهم. ولذلك اختير التعبير به عن مرتكب إبليس في إبايته عن السجود واستكباره فقيل: (إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ) فلم تقع هنا عبارة بكفره ولا ظلمه لأن الفسق بما يعتضد به من القرائن أعظم من الكفر والظلم" ³. كما تُعزّز ذلك آيات أخرى كثيرة تواتر فيها الوصف بالفسق لأقوام بعد عتوّهم وتمردهم على أوامر الله تعالى كقوم فرعون: (إِنَّهُمْ كَانُوا فَاسِقِينَ) (النمل، 12)، وقوم نوح: (وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) (الذاريات، 46)، وقوم لوط: (بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) (العنكبوت: 34).

وهكذا يثبت ابن الزبير بالقرآن ما ذهب إليه الزمخشري في كشفه من أن الوصف بالفسق لا يقع في كتاب الله إلا على ذوى التمرد من شرار الكفرة ⁴. كما يثبت أن أوصاف الكفر والظلم والفسق وإن تكررت في تعقيبات متوالية فهي أكبر من أن تكون مجرد تنويع لفظي يُراد لذاته، وهي تتنزه عن أن تكون مجرد فضول كلام، بل هي معانٍ تترقى عبر كل آية في سياق الوعيد الإلهي لأهل الكتاب ومن نهجهم من إفساد في الأرض وحكم بغير ما أنزل الله. فالوصف بالفسق أعظم وأشدّ وعيداً من الوصف بالظلم كما أن الوصف بالظلم أعظم من الوصف بالكفر، ولا يمكن بحال من الأحوال إجراء شيء من الاستبدال بين هذه الألفاظ في سياق الوعيد، لأن كل كلمة في القرآن - كما سبق الذكر - في دقتها وملاءمتها للموضع الذي ترد فيه هي أشبه بالفريدة التي لم يُخلق غيرها لذلك الموضع.

-الثاني: في ثنائية (يعملون/يصنعون): وذلك في قوله تعالى:

(وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) (المائدة، 62).

(لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) (المائدة، 63).

وهو موضعٌ رهيبٌ قال فيه ابن عباس: "هي أشد آية في القرآن"، وقال الضحاك: "ما في القرآن آية أخوف عندي منها" ⁵. وذلك لما فيها من الوعيد للخاصة من أهل الدين أو العلم ممن لم ينفعهم دينهم ولا علمهم في الالتزام بمنهج الله في حياتهم، بل جعلوا ذلك صنعةً كسائر الصناعات يبتغون من خلالها متاعاً زائلاً من متاع الدنيا، وقد جاء في الحديث قوله

¹ - جار الله الزمخشري: تفسير الكشاف، ج1، ص171

² - نفسه، ص171

³ - ابن الزبير الغرناطي: ملك التأويل، ج1، ص132، 133

⁴ - ينظر: نفسه، ص135

⁵ - جار الله الزمخشري: تفسير الكشاف، ج1، ص654

p: "لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه ما فعل به، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيما أنفقه، وعن جسمه، فيما أبلاه"¹.

ومن المذهل أن كل ذلك الرّجْر والوعيد القرآني في هذه الآية لم ينتج إلا عن إشارة لطيفة ناتجة عن توظيف عجيب لكلمتين متشابهين في تعقيبين جاء فيهما التّمييز في الدّم بين عامّة الناس وخاصّتهم بما يناسب السّياق، فقال تعالى في العامّة (لِبَيْسٍ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)، وقال في الخاصّة (لِبَيْسٍ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) لأن الصّنع أخصّ من العمل، وذلك من عدّة أوجه: - الصّنع أخصّ من العلم لأنّه لا يكون إلا بقصد واختيار وفكرٍ وتحجّرٍ وإجادة، ولذلك كان ذمّ الخاصّة أبلغ وأشدّ فعبر عنه بقوله: (لِبَيْسٍ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)، أمّا ذمّ العامّة فقال فيه: (لِبَيْسٍ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ). وقد ذهب إلى ذلك الرّاعب الأصفهاني في تفسيره، يقول: "الصّنع أخصّ من العمل كما أن العمل أخصّ من الفعل، وذلك أن الفعل يُقال فيما كان من الحيوان، وغير الحيوان ويقصد، وعن غير قصد، والعمل لا يُقال إلا ما كان من الحيوان ويقصد، والصّنع لا يُقال إلا ما كان من الإنسان بقصدٍ واختيارٍ، وبعد فكرٍ وتحجّرٍ وإجادة، ولهذا يُقال: دخل رجل صنّاع أي حاذقٌ، وثوب صنيع أي مجاد"².

- أمّا الثّاني فإن الصّنع يتضمّن العلم وليس ذلك في العمل، ولذلك قال صاحب الفروق: "الصّنع ترتيب العمل وإحكامه على ما تقدّم علمٌ به، وبما يوصل إلى المراد منه، ولذلك قيل للتّاجر صانع، ولا يُقال للتّاجر صانع، لأن التّاجر قد سبق علمه بما يريد عمله من سريرٍ أو بابٍ وبالأَسباب التي تُوصل إلى المراد من ذلك، والتّاجر لا يعلم إذا اتّجر أنه يصل إلى ما يريد من الرّيح أو لا، فالعمل لا يقتضي العلم بما يعلم له. ألا ترى أن المستخرجين والضمّناء والعشّارين من أصحاب السّلطان يسمّون عمّالاً، ولا يسمّون صنّاعاً، إذ لا علم لهم بوجوه ما يعملون من منافع عملهم كعلم التّجار أو الصّانّع بوجوه ما يصنعه من الحليّ والآلات"³.

- أمّا الثّالث، فإن (تصنعون) أخصّ من (تعلمون) لأنّها تتضمّن الدّربة والمهارة، ولا يكون إلا بعد تروّ وتحجّر وإجادة⁴، وليس ذلك في العمل، لأن العمل لا يبلغ درجة الصّنع ولا يُستقى صاحبه صانعاً ما لم يتدرّب ويحصل فيه مهارة تامة⁵، وذلك في كلّ صناعة، وهو ممّا يدلّ على أن هذا الأمر قد أصبح في نفوس هؤلاء ملكةً يجيدونها وتلتدّ بها أنفسهم لما في ذلك من موافقةٍ لأهوائهم وتثبيت لمصالحهم، ولذلك استحقوا هذا الدّم الشديد، "وكأن المعنى في ذلك أن مواقع المعصية معه الشهوة التي تدعو إليها وتحمله على ارتكابها، وأمّا الذي ينهاه فلا شهوة معه في فعل غيره، فإذا فرّط في الإنكار كان أشدّ حالاً من المواقع"⁶.

- والرّابع: الصّنع أخصّ وأقوى منه لأنه راسخٌ مستقرٌّ متمكّن، وكان الله تعالى جعل جرم العاملين ذنباً غير راسخٍ فعبر عنه بالعمل، وأمّا ذنب التّاركين للّهيّ عن المنكر فهو ذنبٌ راسخٌ فعبر عنه بالصّنع، والأمر في الحقيقة كذلك لأن المعصية مرض الروح، وعلاجه العلم بالله وبصفاته وبأحكامه، كما سبق الذّكر، فإذا "حصل هذا العلم وما زالت المعصية كان مثل المرض

¹ - مسند الدارمي المعروف بسنن الدارمي: أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، تج: حسين سليم أسد الدارني، دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط1، 2000م، ج1، ص452.

² - أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني: تفسير الراغب الأصفهاني، تج: محمد عبد العزيز بسيوني، كلية الآداب، جامعة طنطا، ط1، 1999م، ج5، ص392.

³ - أبو هلال العسكري: الفروق اللغوية، تج: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، دت، ص136.

⁴ - أبو سعيد عبد الله بن عمر البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي، تج: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، ط1، بيروت، 1418هـ، ج2، ص134.

⁵ - أبو السعود العمادي محمد بن مصطفى: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج3، ص57.

⁶ - جار الله الزمخشري: تفسير الكشاف، ج1، ص654.

الذي شرب صاحبه الدواء فما زال، فكما أن هناك يحصل العلم بأن المرض صعبٌ شديدٌ لا يكاد يزول، فكذلك العالم إذا أقدم على المعصية دلَّ على أن مرض القلب في غاية القوّة والشدة¹.

ولأجل هذه الفروق كلّها أورد الأسلوب القرآني لفظ (يصنعون) في سياق الكلام عن الخاصّة من علماء أهل الكتاب، أما في سياق الحديث عن العامة فقال: (يعملون)، وليس فيها من التّغليظ والمبالغة في الدّم -كما رأينا- ما يجده المتأمل في الأولى كما فعل أهل السّبق منالمفسّرين. ولعل في استعراض هذه الجهود من خلال هذينالموضوعين من سورة المائدة ما يكفي للدّلالة على مدى الإحكام الذي يميّز التّوظيف القرآني لكلّ مفردة، ويثبت وعيالمختصّصين في علوم التّفسيروشكل عمّوالمختصّصين منهم في توجيه دلالة متشابه اللفظ بقيمة السّياق الداخلي والظّروف الخارجيّة للتّنزيل في فهم النّصّ وتأويل المعنى واستنباط الأحكام، وقناعتهم بأن دلالة المفردة لا تنشأ إلا ضمن حوايلها والآية والسّورة الكريمتين.

خاتمة:

في ختام هذا الصّحبة الماتعة في رحاب بعض المواضع المخصوصة في سورة المائدة وفي ثنايا عددٍ من عيون التّفاسير والتي استحضرنّا من خلالها شيئاً من جهود الرّاسخين في هذا العلممما يستقيم به الدّليل على وعيهم واشتغالهم على أي التّنزيل في كتاب الله تعالى كنصٍّ واحد متماسك مُستغلين عن مسائل الصّوت والمفردة والجملة في مقام التّفسير، وهو السّبق الذي لا يُنكره إلا جاحد. ولعلنا في هذا الموضوع من البحث أحوج إلى التّركيز على أهمّ النّتائج التي خلّص إليها هذا العمل، وذلك لأنّ مقام الختام هو أولى المقامات التي يتأكّد فيها التّدكير:

- وعي العلماء بقيمة السّياق الخارجيّ واستحضار المعطيات المتعلّقة بظروف التّنزيل في قراءة النّصّ، وفهمه واستنطاقه، والاستنباط منه.

- عقيدة علماء التّفسير في وحدة القرآن الكريم، وأنه كالسّورة الواحدة وكالآية الواحدة، وعنايتهم بدقائق المناسبة وتجلياتها في آيات هذه السّورة الكريمة، وما قبلها، وما يليها من السّور في كتاب الله تعالى.

- دقّة التّوظيف القرآني للمفردة في موضعها المناسب الذي يقتضيه السّياق، داخلياً وخارجياً، وهو الأمر الذي حرص علماء التّفسير والمختصّصون منهم في توجيهه متشابه اللفظ على بيانه وتأويله بما يوافق النّظرة الكلّية للنّصّ ويتساق مع الدّلالات العامّة للآية والسّورة.

مصادر ومراجع البحث:

- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.
- جعفر شرف الدّين: الموسوعة القرآنية، تح: عبد العزيز بن عثمان التّويجزي، دار التّقريب بين المذاهب الإسلاميّة، ط1، بيروت، 1420هـ.
- أبو حيان الأندلسي: البحر المحيط في التّفسير: تح: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، 1420هـ.
- محمّد الطّاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتّنوير، الدار التونسيّة للنشر، تونس، 1984هـ.
- أبو عبد الله أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد بن حنبل، تح: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسّسة الرّسالة، 2001م.

¹ - فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب أو التّفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، ط3، بيروت، 1420هـ، ج12، ص393.

- أبو بكر محمّد بن الطيّب الباقلائي: الانتصار للقرآن، تح: محمد عصام القضاة، دار الفتح/دار ابنحزم ط1، عمّان/بيروت، 2001م.
- جار الله الزمخشري: تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، ط3، بيروت، 1407هـ.
- أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي: تفسير البغوي، تح: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، ط1، بيروت، 1420هـ، ج2.
- أبو عبد الله محمد شمس الدين القرطبي: تفسير القرطبي، تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، ط2، القاهرة، 1384هـ، ج6.
- شهاب الدين الألوسي: روح المعاني، تح: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1415هـ، ج3.
- أبو جعفر النحاس: التّاسخ والمنسوخ، تح: محمد عبدالسلام محمد، مكتبة الفلاح، ط1، الكويت، 1408هـ.
- فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، ط3، بيروت، 1420هـ.
- إبراهيم بن عمر بن أبي بكر البقاعي: نظم الدرر، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، دت.
- جلال الدين السيوطي: أسرار ترتيب القرآن، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، دت.
- محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط3، دت، ج2.
- عبدالفتاح لاشين: من أسرار التعبير القرآني صفاء الكلمة، دار المريخ للنشر، الرياض، 1983م.
- أبو عثمان الجاحظ: البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1423هـ، ج1.
- عبد الجواد محمد طبق: دراسة بلاغية في السّجع والفاصلة القرآنية، دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1413هـ.
- درة التنزيل وغرة التأويل: أبو عبد الله محمد الخطيب الإسكافي، تح: محمد مصطفى أيدين، جامعة أم القرى، ط1، مكة المكرمة، 2001م.
- أبو عبد الله بدر الدين الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1957، ج1.
- جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، جمهورية مصر العربية، 1974م، ج3.
- أحمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1979م، ج5.
- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن المعروف بتفسير الطبري، تح: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 2000، ج10.
- برهان الدين الكرمانى: أسرار التكرار في القرآن المسعى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجّة والبيان، تح: عبد القادر أحمد عطا، دار الفضيلة، دت.
- أبو جعفر أحمد بن الزبير الغرناطي: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من أي التنزيل، عبد الغني محمد علي الفاسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ج1.
- أبو محمد عبد الله بن عبدالرحمن الدارمي: مسند الدارمي المعروف بسنن الدارمي، تح: حسين سليم أسد الداراني، دار المغني للنشر والتوزيع، ط1، المملكة العربية السعودية، 2000م، ج1.

- أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني: تفسير الراغب الأصفهاني، تح: محمد عبد العزيز بسيوني، كلية الآداب، جامعة طنطا، ط1، 1999م، ج5.
- أبو هلال العسكري: الفروق اللغوية، تح: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، دت.
- أبو سعيد عبد الله بن عمر البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي، تح: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، ط1، بيروت، 1418هـ، ج2.
- أبو السعود العمادي محمد بن مصطفى: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج3.
- فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، ط3، بيروت، 1420هـ، ج12.

النص اللغوي عند علماء الأصول

The linguistic lesson is more accurate in jurisprudence

د. عليّة بيبية

جامعة العربي التبسي، تبسة، الجزائر.

الملخص:

يحظى الدرس اللغوي بتعبير أدق بأهمية واسعة في علوم الفقه، لأنه يعتمد على فهم واستنباط الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة، ويقتضي ذلك الفهم الدقيق لهذه الأحكام والذي يجب أن يراعى فيه الضوابط اللغوية المستنبطة من تراكيب اللغة العربية وسياقها وأساليبها ومعانيها وألفاظها.

ونسعى في هذه المداخلة أن نسلط الضوء على مجموعة من النصوص اللغوية التي وردت في كتب الأصوليين كالزركشي والشاطبي والفخر الرازي لمعرفة استثمار علوم اللغة في معرفة الأحكام، مع العلم أن الهدف من هذه المداخلة هو تعليم الطالب الجامعي كيفية التعامل مع النصوص اللغوية والكشف عنها في كتب التراث وفي كافة المجالات المعرفية وتصنيف مستويات التحليل اللساني في ضوء هذه المجالات.

الكلمات المفتاحية: النص، اللغة، السياق، علم الأصول.

Abstract:

because it is based on understanding and devising the shar'i rulings of the Qur'aan and Sunnah. This requires careful understanding of these provisions, which must take into account linguistic controls derived from the structures of Arabic language, context, methods, meanings and words.

The aim of this intervention is to teach the university student how to deal with linguistic texts and uncover them in heritage books. In all areas of knowledge and classification of levels of linguistic analysis in light of these are.

key words:

LINGUISTIC-WORDS-ARABIC-LANGUAGE.

لقد حظي الدرس اللغوي بأهمية واسعة عند علماء الأصول، وقد كان منطلقهم النص الشرعي إيماناً منهم بأن الاستدلال على أي حكم شرعي مستمد من النص الشرعي وهو القرآن والسنة، ويقتضي الاستدلال بالكتاب والسنة معرفة أسرار العربية ومكوناتها، يقول ابن فارس: «إن العلم بلغة العرب واجب على كل متعلق من العلم بالقرآن والسنة»¹ والمقصود بالنص اللغوي في هذا السياق هي تلك النصوص الذي تتحدث عن اللغة باعتبارها مفتاحاً للولوج وفهم قواعد الأحكام الشرعية وكان ذلك من اختصاص علماء أصول الفقه الذين كانوا نحاة وبلاغيين واستثمروا المبادئ اللغوية في تفسير وتوجيه دلالة النص، هذه المبادئ اللغوية التي ركز عليها علماء الأصول باعتبارها منطلقات للفهم والاستنباط والاستدلال. سواء أكان البحث في الكلمة باعتبارها الوحدة الأساسية للكلام أم الجملة بوصفها الوحدة الأساسية للتركيب أم الدلالة التي محورها المعنى.

وقد كان ظهور علم جديد يسمى بعلم أصول الفقه انطلاقة جديدة لوضع القواعد العامة واستنباط الأحكام يقول ابن خلدون: «واعلم أن هذا الفن - أصول الفقه - من الفنون المستحدثة في الملة وكان السلف في غنى عنه، بما أن استعادة المعاني من الألفاظ لا يحتاج فيها إلى مزيد مما عندهم من الملكة اللسانية، وأما القوانين التي يحتاج إليها في استعادة الأحكام خصوصاً أخذ معظمها فلما انقرض السلف وذهب الصدر الأول وانقلبت العلوم كلها صناعة واحتاج الفقهاء والمجتهدون إلى تحصيل هذه القوانين والقواعد لاستفادة الأحكام من الأدلة فكتبوها فنا قائماً برأسه سموه أصول الفقه»²

فابن خلدون يبين الظروف التي نشأ فيها علم أصول الفقه الذي كان بسبب اختلاط أمم العرب بأمم دخيلة مختلفة لغاتها الأمر الذي جعل اللحن منتشرًا في أوساط العرب، وبالتالي فالهدف الأسنى وسط هذه الظروف هو المحافظة على كتاب الله وسنة نبيه وهما ركيزتا هذه اللغة.

مفهوم أصول الفقه:

هو مركب إضافي أصول وفقه .

فالأصل في المعنى اللغوي « جمع أصل وهو ما يبني عليه غيره ،ومن ذلك أصل الجدار وهو أساسه وأصل الشجرة التي تتفرع منها أغصانها ، قال تعالى " ألم تركيب ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء " إبراهيم 24»³

والأصل: أسفل كل شيء «⁴ وقال الراغب «أصل الشيء قاعدته التي لتوهمت مرتفعة لارتفاعه سائرته»⁵.
أما اصطلاحاً: فقد أطلقها الأصوليون على معان منها:

¹ ابن فارس: الصحاحي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، مكتبة المعارف، ط1، 1993، ص 50

² ابن خلدون: المقدمة، داريعرب دط دت، ج1 ص 50

³ محمد بن صالح: الأصول في علم الأصول، دارالإيمان للطبع الاسكندرية دط دت ص 50

⁴ ابن منظور: لسان العرب، دارصادر بيروت، م1، ص 16

⁵ الراغب: المفردات في غريب القرآن، مكتبة الأنجلو المصرية دط، دت، ص 15

1-الدليل الشرعي الذي استند إليه الحكم فيقولون مثلا الأصل في هذه المسألة الكتاب والسنة أو الإجماع ويقصدون الدليل عليها»¹.

2- القاعدة الكلية التي تطبق على الجزئيات والفروع فيقولون مثلا "الأصل أن النص مقدم على الظاهر أو الأصل أن عام الكتاب قطعي أي القاعدة الثابتة"².

أما الفقه لغة فهو الفهم والعلم والفتنة ومنه قوله تعالى "واحلل عقدة من لساني يفقهو قولي" طه 27- 28 وقوله تعالى "فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا" النساء آ 78³
أما اصطلاحا فهو «معرفة الأحكام الشرعية العملية بأدلتها التفصيلية»⁴
وهذا التعريف ينسب على أسس منها:

1-المعرفة: وهي العلم والظن لأن إدراك الأحكام الفقهية قد يكون يقينيا وقد يكون ظنيا.

2-الأحكام الشرعية: وهي الأحكام المتلقاة من الشرع كالوجوب والتحريم.

3- الأدلة العملية: وهو ما لا يتعلق بالاعتقاد كالصلاة والزكاة

4- الأدلة التفصيلية: هي أدلة الفقه المقرونة بمسائل الفقه التفصيلية⁵

فأصول الفقه إذن هي الأدلة أو القواعد التي ينسب عليها الفقه أو العلم بالقواعد التي يتوصل بها إلى استنباط الأحكام الشرعية الفرعية عن أدلتها التفصيلية⁶

البحث اللغوي عند علماء الأصول:

لقد سبق وأن أشرنا إلى أن الخطاب الشرعي جاء بلسان عربي مبين، الأمر الذي أدى إلى أن تكون مقدمات مصادر علماء الأصول معتمدة على مباحث لغوية اعتبرناها نصوصا لغوية اختيرت بغية الاستدلال بها على الأحكام وفي ذلك يقول الغزالي:«هي التي تجري منه مجرى الآلات كعلم اللغة والنحو، فإنهما آلة لعلم كتاب الله ونبيه صلى الله عليه وسلم وليست اللغة والنحو من العلوم الشرعية في أنفسهما، ولكن يلزم الخوض فيهما بسبب الشرع، إذ جاءت هذه الشريعة بلغة العرب، وكل شريعة لا تظهر إلا بلغة فتصير تعلم اللغة آلة»⁷.

ومن أهم المباحث اللغوية التي اشتغل عليها علماء الأصول:

1--دلالات الألفاظ:

وعلى أساسه تعرف الدلالة عند الأصوليين بتعريفات عدة فهذا الراغب الأصفهاني يعرفه بقوله:«ما يتوصل به إلى معرفة الشيء كدلالة الألفاظ على المعنى ودلالة الإشارات والرموز والكتابة والعقود في الحساب سواء كان ذلك لقصد ممن يجعله دلالة أو لم يكن بقصد كمن يرى حركة إنسان فيعلم أنه حي، قال تعالى: " ما دلهم على موته إلا دابة في

¹ مصطفى جمال الدين: البحث النحوي عند الأصوليين، دار الهجرة للنشر والتوزيع، ط1، 1980 ص 32

² المرجع نفسه ص 32

³ الأصول في علم الأصول ص 5

⁴ المرجع نفسه ص 5

⁵ ينظر المرجع نفسه ص 5.

⁶ ينظر المرجع نفسه ص 6.

⁷ الغزالي: إحياء علوم الدين، دار ابن حزم ج 1 ص 17 .

الأرض" سبأ آ1 أ¹، أما دلالة اللفظ فيعرفها بقوله: «اعلم أن دلالة اللفظ عبارة عن كونه بحيث إذا سمع أو تخيل لاحظت النفس معناه»²

ويعرف الزركشي الدلالة اللفظية بقوله: «هي كون اللفظ بحيث إذا أطلق فهم منه المعنى من كان عالماً بوصفه له»³. وقد حدد الأصوليون أركان الدلالة وتجسد ذلك في قول أبي حامد الغزالي (ت 505هـ) «فإن للشيء وجود في الأعيان ثم في الأذهان ثم في اللفظ ثم في الكتابة، فالكتابة دالة على اللفظ واللفظ دال على المعنى الذي في النفس والذي في النفس هو مثال الوجود في الأعيان»⁴

فالكتابة دال باعتبارها واسطة تمثيل للملفوظ فهي إشارة لإشارة اللفظ واللفظ دال باعتبار ومدلول باعتبار والمعنى الذي في النفس أي الصور الذهنية مدلول فقط وليس بدال⁵ وتقسم الدلالة باعتبار الدال والمدلول إلى الطبيعية والعقلية والوضعية وهذه الأخيرة تقسم إلى قسمين لفظية وغير لفظية، فالدلالة اللفظية موضوعها اللفظ، أما غير اللفظية فموضوعها الإشارات والرموز وغير ذلك. ومن القضايا المتعلقة بعلاقة اللفظ والمعنى عند الأصوليين أنهم حصروا أنواع الدلالات في أربعة أمور: عبارة النص وإشارة النص ودلالة النص واقتضاء النص.

فالثابت بالعبارة هو ما كان السياق لأجله ويعلم قبل التأمل أن ظاهر النص متناول له، أما الثابت بالإشارة هو ما لم يكن السياق لأجله لكنه يعلم بالتأمل في معنى اللفظ من غير زيادة فيه ولا نقصان، أما الثابت بدلالة النص فهو ما ثبت بمعنى النظم لغة لا استنباطاً بالرأي لأن للنظم صورة معلومة ومعنى هو المقصود به، أما الثابت بمقتضى النص وهو عبارة عن زيادة على المنصوص عليه بشرط تقديمه ليصير المحكوم مقيداً أو موجباً للحكم⁶. ومن بين القضايا التي تطرق إليها الأصوليون قضية التخاطب، وهذه العملية تتطلب أربعة عناصر أساسية هي:

1- الوضع: وهو نسبة الألفاظ إلى المعاني

2- الدلالة وهي نتيجة للوضع والسياق

3- الاستعمال وهو إطلاق الكلام وقصد معنى ما

4- الحمل وهو اعتقاد السامع مراد المتكلم.

2- قضية الاشتقاق:

لقد تناول الأصوليون قضية الاشتقاق التي كان الهدف منها هو الكشف عن مدلولات الألفاظ، وما يربطها ببعضها البعض، يقول الرازي في هذا الشأن «اعلم أن أكمل الطرق في تعريف دلالات الألفاظ هو طريقة الاشتقاق ثم أن الاشتقاق على نوعين الاشتقاق الصغير والاشتقاق الأكبر، أما الاشتقاق الأصغر فمثل اشتقاق صفة الماضي والمستقبل من المصدر

¹ الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص 246-247.

² المرجع نفسه ص 247-248.

³ الزركشي: البحر المحيط في أصول الفقه، تح عبد الله الفاسي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويت، ط 1992، ج 2، ص 36.

⁴ أبو حامد الغزالي: معيار العلم في المنطق، تح سليمان دينا، دار المعارف مصر، دط، 1969، ص 35-36.

⁵ ينظر: منقول عبد الجليل علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي، اتحاد الكتاب العربي دمشق، 2001، ص 34.

⁶ علي زوين: منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث، دار الشؤون الثقافية العامة بغداد، ط 1، 1986، ص 24.

محمد يونس علي: علم التخاطب الإسلامي، دار المدار بيروت، ط 1، 2006، ص 32.

ومثل الاشتقاق اسم الفاعل واسم المفعول وغيرهما فيه ،وأما الاشتقاق الأكبر فهو أن الكلمة إذا كانت مركبة من الحروف كانت قابلة للانقلابات لا محالة فتقول أول مراتب هذا التركيب أن تكون الكلمة مركبة من حرفين ومثل هذه الكلمة لات قبل إلا نوعين من التقلب كقولنا (من) وقلبه (نم) وبعد هذه المرتبة أن تكون هذه الكلمة مركبة من ثلاثة أحرف كقولنا (حمد) وهذه الكلمة تقبل ستة من التقلبات¹»

والملاحظ من خلال هذا النص أن الفخر الرازي يحذوا حذو الخليل بن أحمد الفراهيدي في نظام التقليب فكما زادت هذه التقليب كلما تنوعت دلالات الألفاظ .

وتحدث الفخر الرازي عن دلالات المعاني الصرفية فقال:«فانفعال في أكثر الأمر يدل على مكروه أو منكر، أما في المعاني فالسبب والزكام والدوار والصداع لأعراض في الناس والنبات، وأما في الأعيان فكالجذام والحطام والفتات»² ويمكن القول أن الطريقة الاشتقاقية عند الرازي هو « أن واضع اللغة الأول عندما كان يريد أن يضع الألفاظ المنتمية للأشياء فإنه يحاول أولاً أن يحاكي الصوت الصادر من هذا الشيء أو ذاك أو أن يحاكي صوت حركته وأفعاله ومن ثم يخلق بواسطة جهازه النطقي صوتاً يمثل هذا الشيء ،ومن هنا فإن أصول الألفاظ تعكس حقيقة المشابهة بين اللفظ ومدلوله الطبيعي³

3-الكلمة واللفظ:

لقد كان اهتمام الأصوليين باللفظ ووضعه في سياقه الخاص من أهم المباحث التي تم التركيز عليها حيث خصصوا لها أبحاثاً في سياقات متعددة سواء كانت في حالة الأفراد أم في حالة التركيب والاستعمال.

يقول الرازي في مفهوم الكلمة « اعلم أن تركيب الكاف واللام والميم بحسب تقاليبها الممكنة التي تفيد القوة والشدة فكلم تفيد الكلام لأنه يقرع السمع ويؤثر فيه وأيضا يؤثر في الذهن بواسطة إفادة المعنى ومنه الكلم للجرح وفيه شدة والكلام ما غلظ عن الأرض وذلك لشدته»⁴

وفي حديثه عن اللفظ يقول:« وظن أن إطلاق اللفظ على هذه الأصوات والحروف على سبيل المجاز وذلك لأنها إنما تحدث عند إخراج النفس من داخل الصدر إلى الخارج يحبسها في المحابس المعينة ثم يزيل ذلك الحبس فتتولد تلك الحروف في آخر الزمان حبس النفس وأول زمان إطلاقه والحاصل أن اللفظ هو الرمي وهذا المعنى حاصل في هذه الأصوات والحروف من وجهين الأول أن الإنسان يرمي ذلك النفس من داخل الصدر إلى خارجه ويلفظه وذلك هو الإخراج واللفظ سبب لحدوث هذه الكلمات ،والثاني أن تولد الحروف لما كان بسب لفظ الهواء من الداخل إلى الخارج والمشابهة إحدى أسباب المجاز»⁵

من خلال هذين النصين فإن الرازي يركز على القضايا الآتية :

-أن اللفظ في اللغة هو الرمي

¹ الفخر الرازي: التفسير الكبير، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، ص 22

² المرجع نفسه ج 22 ص 183

³ ينظر معي الدين حسيب: علم الدلالة عند العرب فخر الرازي أنموذجاً، دار الكتاب المتحدة بيروت، ط 1، 2008، ص 40

⁴ الفخر الرازي: التفسير الكبير ج 1، ص 22

⁵ المرجع نفسه ج 1، ص 24

-أن اللفظ هو الصوت الخارج من الفم في شكل مقاطع صوتية

-أن اللفظ هو المنطوق أو المفوظ

-كيفية صدور الصوت وإطلاقه ومصدر ذلك هو الهواء الذي يبعث الصوت لإخراجه ويتم ذلك عن طريق أعضاء غير مباشرة في عملية النطق هما الرئتين والقصبه الهوائية.

وفي هذا الشأن يفصل السيوطي فيقول: «ما خرج من الفم إن لم يشمل على حرف فصوت، وإن اشتمل على حرف ولم يقد معنى فقول، فإن كان مفردا فكلمة أو مركبا من اثنين، ولم يقد نسبة مقصودة لذاتها فجملة أو أفاد ذلك فكلام أو من ثلاثة فكلم»¹

كما يعتبر اللفظ أصغر وحدات المعجمية حسب تصور الأصوليين وهو الوحدة المركزية في أداء المعنى وإبلاغه وإيصاله إلى السامعين وفي ذلك يقول الشاطبي: «اللفظ إنما هو وسيلة لتحصيل المعنى المراد والمعنى هو المقصود»²

فاللفظ مفتاح المعنى ما دام هدفه فهم النص الشرعي وضبط معناه اللغوي والشرعي.

4-السياق:

اتجه علماء الأصول إلى العناية بالسياق، لأنه أساس المعنى وقوامه، فاللفظة لا يعتد بها وهي منفردة بل في وضعها ونظمها في سياق معين .

ويعتبر الشافعي (ت204هـ) أول من استخدم معنى السياق ويقصد به السياق اللغوي حيث عقد له بابا في الرسالة أسماء باب الصنف بين سياقه ومعناه ويمثل ذلك بقوله تعالى: "واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يستبئهم لا تأتهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون " الأعراف 163 ثم قال "وإذ يعدون في السبت " دل على أنه إنما أراد أهل القرية لأن القرية لا تكون عادية ولا قانعة بالعدوان في السبت ولا في غيره، وإنما أراد بالعدوان أهل القرية الذي بلاهم بما كانوا يفسقون"³

والمقصود بالدلالة في هذه الآية أنه يعني سياق النص أو ذلك الذي عبر عنه قبل ذلك بقوله: «تبتدئ العرب الشيء من كلامها بتبيين أول لفظها فيه عن آخره فتبتدئ الشيء يبين آخر لفظها منه عن أوله»⁴

وقد تحدث الشاطبي عن السياق واستعمل لفظ المساق ونعني به السياق بنوعيه سياق النص وسياق الموقف حيث يقول: «المساقات تختلف باختلاف الأحوال والأوقات والنوازل وهذا معلوم في علم المعاني والبيان والذي يكون على بال من المستمع والمستفهم الالتفات إلى أول الكلام وآخره بحسب القضية، وما اقتضاه الحال فيها لا ينظر في أولها دون آخرها، ولا في آخرها دون أولها ولا محيص للمتهم عن رد آخر الكلام على أوله وعلى آخره وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف»⁵

من خلال هذا النص نلاحظ أن الشاطبي ركز على عناصر سياق الموقف الذي يمثل الظروف المحيطة بعالم المتكلم والسامع وعملية الفهم تقتضي الإحاطة بسياق النص الداخلي والخارجي والسياق إذن يحمل مفاهيم منها:

¹السيوطي: الأنشاه والنظائر في النحو، تح عبد العال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1985، ج3، ص5

²الشاطبي: الموافقات ج2، ص87

³ينظر ردة الله بن ردة الطلحي: دلالة السياق، جامعة أم القرى، ط1، 1423، ص42-43

⁴الشافعي: الرسالة، تح احمد محمد شاكر، دار التراث القاهرة ط1399، ص2

⁵الشاطبي: الموافقات ج 3، ص413-414

-إن السياق هو الغرض أي مقصود المتكلم من إيراد الكلام
-إن السياق هو الظروف والمواقف والأحداث التي ورد فيها النص أو نزل أو قيل بشأنها ويقابل هذا المفهوم لفظا الحال والمقام في البلاغة العربية.

وتجدر الإشارة أيضا إلى اهتمام الأصوليين بعدد القضايا اللغوية كتتابع الأصوات ودلالاتها في التركيب، يقول الزركشي في معنى كلمة التوحيد « قول لا إله إلا الله فيه خاصيتان إحداهما أن جميع حروفها جوفية ليس فيها من الحروف الشفهية للإشارة إلى الإتيان بها من خالص جوفه وهو القلب لا من الشفتين والثانية أنه ليس فيها حرف مجم بل جميعها متجردة عن النقط إشارة إلى التجرد عن كل معبود سوى الله تعالى»¹

ويقول الإمام الزركشي أيضا بشأن السياق: «دلالة السياق ترشد إلى شيئين المجلد والقطع بعدم احتمال غير المراد وتخصيص العام وتقييد المطلق وتنوع الدلالة»²

ويقول الإمام الشاطبي: «إن الغفلة عن أسباب التنزيل تؤدي إلى الخروج عن المقصود بالآيات وهذا شأن النزول في التعريف بمعاني المنزل بحيث لو فقد ذكر السبب لم يعرف من المنزل معناه على الخصوص دون تطرق الاحتمالات وتوجه الإشكالات»³

فأسباب النزول من أهم القضايا التي تساعد فهم معاني الآيات القرآنية ويعتبر من سياق الموقف الذي يبرز الظروف المكانية والزمانية التي وقع فيها الحدث.

وإرشادات السياق عند الأصوليين تتمثل في:

1-رفع غموض النص

2-الترجيح بين الاحتمالات والوجوه

3-الوصول إلى المعنى القطعي للنص

4-منع تأويل النص تأويلا غير سائغ

5-تخصيص العام

6-تقييد المطلق

7-تنوع الدلالة

8-الترجيح بين الأدلة المعارضة⁴

النتائج المتوصل إليها:

من خلال هذه المداخلة نخلص إلى مجموعة من النتائج أهمها:

-اعتماد علماء الأصول على النص القرآني والحديث النبوي كان المنطلق الأساس في الدراسات اللغوية

¹ الزركشي: معنى لا إله إلا الله ص 82- 83

² الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تح محمد أبو الفضل إبراهيم المكتبة العصرية بيروت، ط1972، ج 2، ص 200-201

³ الشاطبي: الموافقات مج 2، ج 3 ص 313

⁴ نجم الدين قادر كريم: نظرية السياق دراسة أصولية، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 2006، ص 133

- المعنى هو الأساس في كشف دلالات النص انطلاقاً من سياق الكلمة في التركيب
- إن تأسيس ونشأة علم أصول الفقه قامت على أهداف دينية ولغوية أساسها الحفاظ على لغة القرآن من اللحن
- يقوم علم أصول الفقه على منهج الاستدلال باعتباره الأساس الذي تعلم به قواعد الأحكام الشرعية .
- إن الدلالة عند الأصوليين لم تقتصر على اللفظ فحسب بل جمعت بين اللفظ والإشارات والرموز باعتبارها مصاحبات
ومساعدات للألفاظ

- إن إطلاق اللفظ عند علماء الأصول مرتبط بالصورة الذهنية والمرجع المحال إليه.
- قامت الدلالات عند الأصوليين على مرتكزات أساسية هي عبارة النص وإشارة النص ودلالة النص واقتضاء النص وهذه
الدلالات تمثلت في السياق بنوعيه اللغوي المتعلق باللفظ وتركيبه والسياق غير اللغوي الذي يتمثل في الملابسات وظروف
إنتاج النص.

المصادر والمراجع:

- 1- ابن خلدون: المقدمة ، داريعرب دط دت
- 2- ابن فارس:الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، مكتبة المعارف ، ط1، 1993
- 3- ابن منظور:لسان العرب ، دار صادر بيروت
- 4- أبو حامد الغزالي:معيار العلم في المنطق ،تح سليمان دينا ، دار المعارف مصر، دط، 1969
- 5- الراغب: المفردات في غريب القرآن ، مكتبة الأنجلو المصرية دط، دت،
- 6- ردة الله بن ردة الطلحي: دلالة السياق، جامعة أم القرى، 1423، 1
- 7- الزركشي: البحر المحيط في أصول الفقه، تح عبد الله الفاسي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويت ، ط، 1992
- 8- الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تح محمد أبو الفضل ابراهيم المكتبة العصرية بيروت ، ط، 1972، 2
- 9- الزركشي: معنى لا إله إلا الله ، دار الاعتصام القاهرة، ط3، 1985
- 10- السيوطي:الأشباه والنظائر في النحو، تح عبد العال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ط، 1985، 1
- 11- الشافعي: الرسالة ، تح احمد محمد شاكر، دار التراث القاهرة ط، 1399، 2
- 12- علي زوين: منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث، دار الشؤون الثقافية العامة بغداد، ط1، 1986
- 13- الغزالي: إحياء علوم الدين ، دار ابن حزم دط دت
- 14- الفخر الرازي: التفسير الكبير، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دط، دت
- 15- محمد بن صالح: الأصول في علم الأصول ، دار الإيمان للطبع الاسكندرية دط دت
- 16- محمد يونس علي: علم التخاطب الإسلامي، دار المدار بيروت، ط1، 2006
- 17- معي الدين حسيب: علم الدلالة عند العرب فخر الرازي أنموذجا، دار الكتاب المتحدة بيروت ، ط 1، 2008
- 18- مصطفى جمال الدين: البحث النحوي عند الأصوليين، دار الهجرة للنشر والتوزيع، ط1، 1980
- 19- منقور عبد الجليل علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي، اتحاد الكتاب العربي دمشق، 2001
- 20- نجم الدين قادر كريم: نظرية السياق دراسة أصولية، دار الكتب العلمية بيروت ، ط1، 2006

قضايا النصية في الفكر البلاغي التراثي -عبد القاهر الجرجاني وحازم القرطاجني- انموذجا

د. ثليثة بليردوح

جامعة العربي بن مهيدي، أم البواقي، الجزائر.

ملخص:

يعد التراث اللغوي العربي معينا لا ينضب فهو منظومة واحدة تتكامل فيها المعارف وتتشابك عندها الاختصاصات، حيث قدم علماء العرب الأوائل مفاهيم ونظريات ومجهودات لا تقل أهمية عن ما أتى به علماء الغرب في وقتنا الحاضر. لذا فالعودة إلى التراث ضرورة ملحة للفت الانتباه إلى أهمية ما توصل له العرب الأوائل ومن باب الروح العلمية العادلة في تقصيها للمعرفة. فالمتعمن في دراسة النص وتحليله سيلحظ أن هناك علاقة وطيدة بين ما توصل له علماء اللغة العرب آنذاك وما يعرف اليوم بلسانيات النص، باعتبارها حقلا معرفيا جديدا، يجعل من النص محور الدراسة، خاصة فيما يتعلق بالاتساق والانسجام أو السبك والحبك، فهما من أهم ما عالجه علماء البلاغة. وهذا ما سنوضحه من خلال ورقتنا البحثية مسلطين الضوء على قطبي الدرس البلاغي القديم: عبد القاهر الجرجاني وحازم القرطاجني.

الكلمات المفتاحية: نص، لسانيات النص، الاتساق، الانسجام، البلاغة.

Abstract :

The Arab linguistic heritage is an inexhaustible one. It is a single system in which knowledge is integrated and disciplines are intertwined. The early Arab scientists presented concepts, theories and efforts no less important than what Western scientists have brought to the present day. Therefore, the return to heritage is an urgent need to draw attention to the importance of what the first Arabs reached and the spirit of scientific science in the exploration of knowledge. The study of the text and its analysis will note that there is a close relationship between the findings of the Arab linguists and what is known today in the linguistics of the text, as a new field of knowledge, makes the text the focus of the study, especially with regard to consistency and harmony or casting and Rhetoric.

This is what we will explain through our research paper highlighting the poles of the ancient rhetorical lesson: Abdul Qahir al-Jarjani and Hazem al-Qartajani

Keywords: text, textual linguistics, consistency, harmony, rhetoric

مقدمة:

درس البلاغيون الخطاب القرآني من جميع جوانبه وكشفوا عن التماسك والانسجام الذي يميز آياته ونصوصه، كما كانوا قبل هذا يؤكدون في النصوص الشعرية المتناثرة على حتمية ترابط أجزاء النص وتماسكها وتعلق بعضها ببعض والذي يسمى في الاصطلاح النقدي الحديث "الوحدة العضوية"، فلا يحس معها القارئ بطفرة أو تفكك بحيث تكون رقاب المعاني آخذة بعضها ببعض، وعليه فالمطلع على علم البلاغة العربية، وتوجهها العام في وصف النصوص وتحديد وظائفها يجد فيها نقاط تقاطع في كثير من المفاهيم التي جاءت في لسانيات النص الحديثة.

حيث تعنى البلاغة العربية بأطراف الاتصال الأساسية (نص، منتج، متلقي)، كما تولي أهمية بالغة بالسياق والمقام، حيث عرف عن العرب قديما قولهم لكل مقام مقال فضلا على اهتمامها بالمعنى والمبنى.

فضلا عن الاتساق والانسجام اللذين ارتبطا أشد الارتباط بمصطلحات من مثل: "الاتصال والامتزاج والالتزام والالتحام والاتساق والتلاحم والاتلاف والاقتران والارتباط والملاءمة والمناسبة والتناسب..."¹.

فقد أسهب العرب في الحديث عن خاصية التلاحم والترابط داخل النص وخصوصا من خلال البلاغة.

وهذا ما أكده فان ديك بقوله: "إن البلاغة هي السابقة التاريخية لعلم النص"².

وعليه فمأهلي أهم الممارسات النصية في المدونات التراثية البلاغية عند كل من عبد القاهر الجرجاني وحازم

القرطاجني؟ وكيف تتقاطع وتتلاقى نظرياتهم البلاغية مع اللسانيات النصية؟

1. عبد القاهر الجرجاني (نظرية النظم):

يعد عبد القاهر الجرجاني (471 هـ) أحد أعمدة البلاغة العربية وصاحب نظرية النظم التي تسعى من خلالها إلى برهنة على إعجاز القرآن الكريم، فقد تطرق إلى قضية اللفظ والمعنى وضرورة الفصل بينهما حيث "يربط المعاني بطرق الأداء ربطا لا يجوز الحديث بعده عن المعاني والألفاظ كل على انفراد ولا انفصل بينهما بفواصل ولن يبرز المعنى الواحد إلا في صورة واحدة، فإذا تغيرت الصورة الواحدة تغير المعنى بمقدارها أي تبدل بالألفاظ لا بد أن يقابله تبدل في المعنى"³.

وهو بذلك يربط بين جانبيين لا يمكن الفصل بينهما لفهم النص وهما النحو والدلالة، فأى تغير في المبنى يصاحبه تغيير في الدلالة، وهذا يجب الوصل بين المباني والمعاني فالمطابقة بينهما ضرورية، "فليس العرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق بل تناسقت دلالاتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل"⁴، وذلك من خلال ترتيب الألفاظ وتراكيبها على حسب ترتيب المعاني النفسية، وفق نسيج لغوي محكم البناء والصياغة يقول عبد القاهر الجرجاني: "لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني وترتيبها على حساب ترتيب المعاني في النفس، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو

¹ محمد العبد، حيك النص (منظورات من التراث العربي)، مجلة فصول، العدد 59، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دت، ص 59.

² صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، الشركة المصرية العالمية للنشر، لوجنمان، مصر، ط 1، 1996، ص 326.

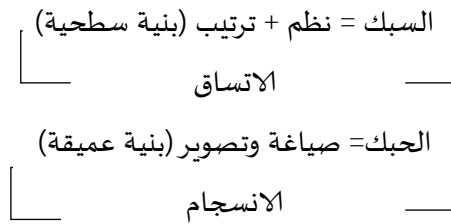
³ وليد محمد مراد، نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني، دار الفكر، ط 1، 1983، ص 08.

⁴ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، موفم للنشر، 1991، ص 54.

النظم الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيفما جاء واتفق، وكذلك كان عندهم نظيرا للنسج والتأليف، والصياغة والبناء والوشي والتحبير، وما أشبه ذلك، مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها ببعض...¹.

إن الملاحظ لقول عبد القاهر الجرجاني في هذا النص يجده يتقاطع مع ما جاء به العالم الهولندي "فاندايك" حول آليات الترابط النصي ففي تعريف عبد القاهر الجرجاني للنظم على أنه مراعاة حال المنظوم بعضه مع بعض، وعدم ضم الشيء إلى الشيء كيفما جاء واتفق، بل ضرورة ربط كل كلمة بالتي تليها والتي تسبقها بطريقة تراعي فيها المعاني وترتيبها، يتفق إلى حد بعيد بل هو نفسه الذي نجده في الاتساق (Cohérence).

كما أن تشبيهه للنظم بـ النسج والتأليف والصياغة والبناء والوشي والتحبير، هو ما نجده في الانسجام (Cohésion) ليكون بذلك:



وعليه فقد استخدم عبد القاهر الجرجاني مصطلح النظم ليؤكد على دراسة النص في جملته وذلك بضم الكلم في جمل متعلق بعضها ببعض والجمل في نصوص عبر علائق نحوية تراعي العلاقات الدلالية لتحقيق نسيج كلي محكم البناء وهو ما ذهب إليه فان دايك حينما عدّ الخطاب قائم على تأويل كل جملة مفردة متعلقة بتأويل جملة أخرى²، وما أشار إليه –أيضا- كل من رقية حسن وهاليداي مايكل اللذين أكدا على التماسك الدلالي والتماسك الشكلي، فالعلاقة بينهما متداخلة ومتواجشة في كثير من الأحيان مما قد يؤدي إلى عدم الفصل بينهما، وربما إلى الخلط بينهما عند بعض الدارسين³.

كما تنبه عبد القادر الجرجاني إلى عملية انتاج النص من خلال عنايته بجانب الصياغة والذي جعلها عبر أربع مراحل: النظم والبناء، والترتيب والتعلق وهي المساهم الأساسي في انتاج النص "واعلم أنك إذا تراجعت إلى نفسك علمت علما لا يعترضه الشك أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض، ويبني بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب تلك..."⁴

فالمتكلم أو المرسل يمتلك مجموعة من المعاني التي تترايط، وتكون أفكارا كاملة لديه، وهي الرسالة الموجودة في عقل المتكلم (المرسل) وهي التي تنقل إلى المستمع (المتلقي)، عبر وسيط مشترك من اللغة المتعارف عليها، ويستخرج منها معاني مرتبة ترتيبا خاصا عن طريق عملية تحليل ومقابلة للألفاظ بمعانها ليصل بعدها إلى أفكار تمثل الرسالة الأصلية عند المتكلم المرسل⁵.

¹ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص65.

² فان دايك، النص والسياق (استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي)، ترجمة: عبد القادر قنيني، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، بيروت، 2000، ص137.

³ ألبرت نيوبيرت وغريغوري شريف، الترجمة وعلوم النص تر، محي الدين حميدي، جامعة الملك سعود، الرياض، ط01، 2002، ص140.

⁴ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص410.

⁵ ينظر أحمد محمد عبد الراضي، نحو النص بين الأصالة والحداثة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2008، ص140.

ليكون لدينا بذلك ثلاثة أنواع من الرسائل¹

الرسالة الأصلية الأولية

الرسالة الشفوية المنظومة

الرسالة معادة التحليل والتركيب.

فالأولى ممتلكها المرسل في ذهنه، أما الثانية فهي الوسيط المنظوم على نسق تركيبى خاص، والثالثة هي ما توصل إليه المتلقي، بعد إعادة استقراره للنظم خلال محاولة الوصول إلى الأفكار التي تضمنتها رسالة المرسل². وهذا ما قرره بوجراند بالنسبة لعملية إنتاج النص وتلقيه حيث يقول: "وعلى منتج النص أن يضع خطة للمحتوى المفهومي والعلاقي للنص، ثم يضع هذا المحتوى في صورة سطحية، أما من يستقبل فعليه أن يخطط لإعادة السطح إلى المحتوى، وإعادة المحتوى إلى الخطة التي وضعها هو أي المنتج لهذا المحتوى"³.

وقد خصص عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز بابا للحديث عن الوصل والفصل: "اعلم أن العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض أو ترك العطف فيها والمجيء بها منثورة تستأنف واحدة منها حيث بعد أخرى من أسرار البلاغة"⁴.

اعتبر الوصل والفصل جوهر البلاغة، فالسرف فيها يعود إلى دقة العطف (أي ضم الجمل بعضها إلى بعض) أو فصلها: " فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل، ثم يعرف فيما حقه الوصل موضع الواو من موضع الفاء، وموضع الفاء من موضع ثم، وموضع أم من موضع أم، وموضع لكن من موضع بل ويتصرف في التعريف والتنكير والتقديم والتأخير في الكلام كله وفي الحذف والتكرار والإضمار والإظهار فيضع كلا من ذلك مكانه، ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له..."⁵.

ليكون بذلك عبد القاهر الجرجاني في حديثه عن الوصل والفصل وهو ما يعرف في الدراسات اللسانية النصية بـ (Conjonction et disjonction).

قد اهتم بأهم الوسائل الاتساقية التي تضمن تأليف الكلام بعضه إلى بعض، التي ترد في محور التراكيب موضحة ضرورة التفريق بينها في نظم الكلام، إذ أن كل حرف منها يفيد معنى، وإلى جانب الوصل والفصل نجده قد تناول مختلف العناصر المحققة للتماسك النصي كما بينهما الدرس اللساني النصي الحديث.

وفي معرض حديثه عن عطف الجمل وضمها دعوة صريحة إلى تجاوز الجملة إلى النص: "فأمر العطف إذا موضوع على أنك تعطف تارة جملة على جملة وتعتمد أخرى إلى جملتين أو جمل، فتعطف بعضها على بعض، ثم تعطف مجموع هذي على مجموع تلك"⁶.

¹ محمد سعد شحاته، العلاقات النحوية وتشكيل الصورة الشعرية عند محمد عفيفي مطر، ط1، 2003، ص94.

² محمد سعد شحاته، العلاقات النحوية وتشكيل الصورة الشعرية عند محمد عفيفي مطر، ط1، 2003، ص95.

³ دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، تر: تمام حسان، عالم الكتب، مصر، ط1، 1998، ص421.

⁴ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص215.

⁵ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص95.

⁶ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص234، 235.

ان تجاوز دراسة الجمل إلى دراسة النص يمثل أهم دافع قامت لأجله لسانيات النص الحديثة، يقول فان دايك: "لقد توقفت القواعد واللسانيات التقليدية غالباً عند حدود وصف الجمل ... وأما في علم النص، فإننا نقوم بخطوة إلى الأمام ونستعمل وصف الجمل باعتبارها أداة لوصف النصوص، وما دما نتتبع هنا المكونات المعتادة للقواعد ونستعمل النصوص المستخدمة بغية وصف الجمل، فإننا نستطيع أن نتكلم عن قواعد النص"¹.

الأمر نفسه الذي دعي إليه هارتمان في محاضراته "النصوص موضوع لغوي"، حيث عدّ النص وحدة لسانية قابلة للوصف، مؤكداً ضرورة الانطلاق من الوحدات الأصغر الأدنى من جهة التدرج إلى الوحدات الأكبر الأعلى.²

وعليه إن الوعي بدراسة النص ككل واحد وبالترابط النصي والتماسك والاتساق والانسجام ... ضارب بجذوره في عمق التراث اللغوي العربي، حيث بلغت الدراسات اللغوية عندهم مستوى من الكمال لا يسمح بزيادة لمستزيد.

2. حازم القرطاجني(تماسك الخطاب):

يعود فضل الريادة وقصب السبق في وصف كيفية تماسك الخطاب إلى الأندلسي التونسي حازم القرطاجني (684 هـ)، حيث بين في كتابه منهاج البلغاء وسراج الأدباء وبالتحديد في المنهج الثالث ما أسماه: الإبانة عما يجب في تقديم الفصول وترتيبها ووصل بعضها ببعض وتحسين هيئاتها، وما تعتبر به أحوال النظم في جميع ذلك من حيث يكون ملائماً للنفوس أو منافراً لها، وقدم أربعة قوانين وهي كالتالي:³

قانون1: في استجادة مواد الفصول وانتقاء جوهرها.

قانون2: في ترتيب الفصول والمولاة بين بعضها وبعض.

قانون3: في ترتيب ما يقع في الفصول.

قانون4: في ما يجب أن يقدم في الفصول وما يجب أن يؤخر فيها وتختتم به.

هذه هي القوانين كما وردت مرتبة في المنهاج، وقد جعلها على ما يبدو دستوراً لشاعر فحل أو كاتب قرر يوماً ما هندسة قصيدة مركبة من فصول مختلفة، إذ ركز في القانون الأول عن جوهر الفصول وكذلك بالجانب الشكلي فيها إذ يقول: "يجب أن تكون متناسبة المسموعات والمفاهيم حسنة الاطراد غير متخالفة النسيج غير متميز بعضها عن بعض، التميز الذي يجعل كل بيت كأنه منحاز بنفسه لا يشمله وغيره من الأبيات بنية لفظية أو معنوية يتنزل بها منه منزلة الصدر من العجز أو العجز من الصدر".⁴

يلفت حازم الانتباه في هذا القول إلى خاصية هامة وجب أن تحتويها الفصول، وهي أن تكون قوية النسيج غير متخالفة، ولا تتميز الأبيات عن بعضها البعض فتغدو منفصلة متنافرة، وبذلك فهو يدعو إلى "الاتلاف" لا "الاختلاف" كما يدعو إلى التعاضد الدلالي بين فصول القصيدة، غير منحازة عن بعضها البعض وغير مستقلة، إن حازم يدعو إلى ضرورة

¹ فان دايك، النص بنى ووظائف (مدخل أولي إلى علم النص)، تر: مندرعياشي، ضمن كتاب العلامة وعلم النفس، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 2004، ص147.

² ينظر: حسن البحيري، علم لغة النص (المفاهيم والاتجاهات)، ص57.

³ ينظر حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن خوجة، دار الكتب الشرقية، تونس، 1966، ص288.

⁴ حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص288.

الترابط بين البيت وما يليه وما يسبقه، كذلك بين جميع الأبيات وفي هذا الصدد يذكر يوسف بكار: "يهتم في وحدة الفصل باستواء نسجه وتلاحم أبياته حتى لا يستقل البيت الواحد بنفسه وحتى تنتظم الأبيات في الفصل الواحد في بنية لفظية او معنوية"¹.

يميز حازم القرطاجني (684 هـ) بين ثلاثة قوى في معرض حديثه عن مناسبة نمط نظم الفصل للغرض، إذ لا بد أن تعتمد فيه الجزالة في الفخر مثلاً والعذوبة في النسيب²، ويرى أن الشاعر لكي يتسنى له قول الشعر الجديد المختار يجب أن تتوفر فيه تلك القوى وهي مفصلة كالآتي:³

- القوة الحافظة: والتي تكون فيها الخيالات الفكرية منتظمة، ممتازة بعضها عن بعض، فإذا ابتغى الشاعر مثلاً قول غرض ما في نسيب أو مديح، أهبت له هذه القوة ذلك الخيال الذي من خلاله يتصور الأشياء، وكأنه اجتلى حقائقها.

- القوة المائزة: تتولى عملية التمييز بين الأشياء، بين الملائم والذي لا يلائم، الموضوع أو النظم والغرض.

- القوة الصانعة: هذه القوة تعمل - حسب حازم - على شم أجزاء الكلام وضم المعاني والتركيبات والتدرج فيها، أي كل ما تتناسب به الصناعة ككل، مما نبه إليه حازم القرطاجني هو ضرورة أن تكون كل تلك القوى من لدن الشاعر حتى تخول الصناعة الشعرية الجيدة، فاشترط تلك القوى وخاصة فيما تعلق بالملائمة سواء بالموضوع أي مراعاة المقام أو النظم أو الغرض، والمناسبة.

وينتقل إلى القانون الثاني: "ترتيب بعض الفصول ووضع بعضها إلى بعض (إلصاقها) كما يقول حازم، ومبدأ ترتيب بعض الفصول إلى بعض، فيجب أن يقدم في الفصول ما يكون للنفس به عناية بحسب الغرض المقصود بالكلام، ويكون مع ذلك متأتياً فيه حسن العبارة اللائقة بالمبدأ، ويتلوه الأهم فالأهم"⁴، وهي إشارة واضحة لمبدأ الأهم فالأهم، الذي يخضع له ترتيب الفصول بحسب ما يعتبره الصانع أولوية.

ويشتمل القانون الثالث والمتعلق بتأليف بيوت الفصل إلى بعض بوجوب "أن يبدأ منها بالمعنى المناسب لما قبله، وإن تأتى مع هذا أن يكون ذلك المعنى هو عمدة معاني الفصل والذي له نصاب الشرف كان أبهى لورود الفصل على النفس، على أن كثيراً من الشعراء يؤخرون المعنى الأشرف ليكون خاتمة الفصل..."⁵.

يتحدث حازم عن خاصية تأليف بيوت الفصل إلى بعض، إذ أوجب أن تبدأ الأبيات بالمعنى المناسب لما قبلها، وهي إشارة دالة على مراعاة شروط النظم والانسجام والذي يتطلب فيه الأخذ بما يسبق الكلام بحيث يرتبطان دلالياً ولا يخلوان

¹ يوسف حسين بكار، بناء القصيدة في النقد العربي القديم، دار الأندلس، بيروت، دط، 1982، ص308.

² حازم القرطاجني، المرجع السابق، ص42.

³ ينظر: حازم القرطاجني، المرجع نفسه، ص42-43.

⁴ حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص289.

⁵ المرجع نفسه، ص289.

من علاقة مهما كان نوعها، ويتحدث عن القانون الرابع: يقول حازم: "فأما القانون الرابع في وصل بعض الفصول ببعض، فالتأليف في ذلك على أربعة أضرب:¹

- الضرب الأول متصل العبارة والغرض.
- الضرب الثاني متصل العبارة دون الغرض.
- الضرب الثالث متصل الغرض دون العبارة.
- الضرب الرابع منفصل الغرض والعبارة.

إن حديث حازم القرطاجي عن هذه الأضرب، هو صلب الحديث عن التماسك والانسجام بين الفصول، بحث تشكل وحدة كلية متصلة، فالضرب الأول يتصل فيه الفصل باعتبار العبارة، بحيث يستدعي الربط أن تطلب الألفاظ بعضها بعضاً، كذلك ترتبط باعتبار الاستمرارية في الغرض، والضرب الثاني ما كانت الألفاظ فيه متأخذة دون أن تعبر عن غرض واحد، والضرب الثالث نقيضه إذ العلاقة من حيث المعنى موجودة دون العبارة، أما الضرب الرابع فهو: "الذي لا توصل في عبارة بعبارة ولا غرض بغرض مناسب له، بلا يهجم على الفصل هجوماً من غير إشعار به مما قبله ولا مناسبة بين أحدهما والآخر، فإن النظم الذي بهذه الصفة مشتمت من كل وجه"².

هذه القوانين الأربعة بحسب حازم القرطاجي - شروط متعلقة بالانسجام والالتزام المتعلق بالفصول، وتوزع هذه الشروط حسب محمد العبد إلى ما يمكن تسميته:

- شروط الحيك الكلي: ويقصد بها ما يحقق الارتباط المضموني بين فصول القصيدة وتقع هذه الشروط في القانون الأول والثاني.

- شروط الحيك الجزئي: ويقصد بها ما يحقق الارتباط المضموني بين أبيات الفصل الواحد، وتقع هذه الشروط في القانون الثالث.³

هذه النظرات إلى الفصول أراد بها حازم جودة النظم الذي لا يخلو من تشتت، ذلك دستور يحاول صياغته لكل من أراد أن يصنع من اللغة نصوصاً تتوافق وأغراضه هكذا حتى لا يكون الكلام متنافراً، ملقى على عواهنه، فهذه نظرة تحرص على أصول الصناعة التي هي فن أولئك، وقد حرصوا أيضاً على ما يعرف بشروط الابتداء والتخلص والانتهاء، وصاغوا أولاً شروط المبدأ المستحسن وضبطوها في ثلاثة شروط:⁴

- شرط الصياغة: يتعلق بحسن اختيار الألفاظ وصحة السبك وتجنب الحشو وتجنب المعاضلة.
- شرط معنوي: وضوح المعنى/ الارتباط المعنوي بين المبدأ وما بعده.
- شرط مقامي: رعاية حال المخاطب ورعاية الموقف الاجتماعي.

¹ المرجع نفسه، ص290.

² حازم القرطاجي: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص291.

³ محمد العبد: حيك النص (منظورات في التراث العربي)، مجلة فصول، العدد 59، العينة المصرية العامة للكتاب، دت.

⁴ ينظر المرجع نفسه، ص66.

هذه الشروط الثلاثة تتقاطع مع الدراسات اللسانية الحديثة خاصة ما تعلق منها بشروط السبك، ومراعاة المخاطب والموقف الاجتماعي وهما من صميم الاتجاه التداولي.

لنعد لحازم القرطاجني ونحاول أن نحصر نظرتة فيما يخص الابتداء والتخلص والانهاء.

1- الابتداء: يتحدث في معلم معنون باسم: "مذهب الإبداع في الاستهلال" عن ما يكون به الإبداع في المبادئ، وقد تحدث عن عدة نقاط نوجزها في:¹

أ. ما يقع في الألفاظ: ويشترط فيها حسن المادة واستواء النسيج وحسن الانتقال من غرض إلى غرض والايجاز في العبارة.

ب. ما يقع في المعاني: ما يحدث فيها من حسن محاكاة ونفاضة مفهوم.

ج. ما يقع في النظم: من إحكام المباني وإيداع الصيغ.

د. ما يقع في الأسلوب: من حسن المزج ولطف المذهب.

وقد أضاف إلى ذلك نقاط أخرى تعد بمثابة شروط أو مبادئ يحسن بها الاستهلال أو المفتتح، ويمكن أن نوجزها هي أيضا في مايلي:²

أ. مناسبة المفتتح لمقصد المتكلم: كأن يعتمد ما كان فيه رقة من الألفاظ إذا كان بصدد التسبب أو ما كان فيه بهاء وتفخيم إذا كان بصدد الفخر.

ب. تصدير الكلام بما ينبه ويوقظ السامع أو يؤثر فيه: كأن يعتمد التعجب أو التهويل أو التشويق أو غيره ...

هذا شأن المبادئ الحسنة عند حازم، لكنه لا يتوقف عند هذا الحد إذ يفرض شروطا أخرى لمبادئ أحسن، ونشير هنا إلى ما يطلق عليه حازم بفكرة "التناصر" إذ يتحدث في هذا الصدد عن ثلاث رتب³، فالتناصر في جوهره: "ليس إلا مظهر من مظاهر الارتباط المضموني والشكلي بين وحدات الفصل الواحد لا سيما في طبيعته ويمكن اختيار المناسبة وفكرة التناصر معا أن يمثلان منظورا لغويا إلى بنية النص بوصفه كلا دلاليا متفاعلا متبادل التأثير بالإيجاب والسلب"⁴.

لم يتوقف حازم في حديثه عن الابتداء فقط، بل تحدث أيضا عن فكرة التخلص، وهو الانتقال من غرض إلى غرض، وعطف أعنة الكلام من جهة إلى أخرى، ومن غرض إلى غرض يتحدث حازم عن الانعطاف في الكلام الذي اعتبره ناتج عن قصدية مسبقة من طرف المتكلم.

¹. ينظر حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص309.

². ينظر المرجع نفسه، ص310.

³. للاستراة ينظر المرجع نفسه، ص311.

⁴. محمد العيد، حبلك النص، ص74.

يقول حازم: "إن الانعطاف بالكلام من جهة إلى جهة أخرى أو غرض إلى آخر لا يخلو من أن يكون مقصودا أو لا، فيذكر الغرض الأول لأن يستدرج منه إلى الثاني، وتجعل مأخذ الكلام في الغرض الأول صالحة مهيأة لأن يقع بعدها الغرض الثاني موقعا لطيفا وينتقل من أحدهما إلى الآخر انتقالا مستطرفا...¹

الكثير من الأمور المتعلقة بحسن التخلص وجب أن تراعي أثناء عملية الانتقال من غرض إلى غرض. لا بد أن يكون من طبيعة ذلك الانتقال - بحسب حازم - مستطرفا إذ يهئ سياق الكلام ما سيحيء بعده، تفاديا للتقطع والاختلال، وهو ما وضعه حازم لاحقا حينما تحدث عن المبادئ الواجب اعتمادها في هذا المقام وهي على التوالي:²

- أ- التحرز من انقطاع الكلام.
- ب- التضمين والحشو والإخلال.
- ج- اضطراب الكلام.
- د- قلة تمكّن القافية والنقطة بغير تلطف.
- هـ- الاضطرار إلى الكناية عما يوجب التصريح به.
- و- تحسين البيت التالي ببيت التخلص.

يشير المبدأ الأول إلى خاصية هامة من الخصائص التي تمتاز بها النصوص المتماسكة وهو وصل الكلام بعضه إلى بعض وعدم قطعه حتى لا يضطرب الكلام ويختل، فهذا الانتقال أو التخلص تحكمه قواعد (النقطة بتلطف وعدم الحشو...)، وذلك إشارة واضحة منه لطبيعة النفوس والأسماع التي تحب أن يوطأ لها في الكلام، من انتقال إلى مدح أو نسيب أو إلى فخر، من غرض إلى غرض، دون احتيال وتلطف... سوف تجد تلك النفوس نفورا واستصعابا للكلام³، وبذلك فهو يشير إلى خاصية التدرج الحسن والنقطة اللطيفة تحسبا لتماسك الكلام وارتباط بعضه ببعض.

أشار حازم أيضا إلى الشروط الواجبة في الانتهاء، وألح على احترام أواخر القصائد أو المقاطع، وأن يتحرز انتهاء الكلام أو قطعه على ألفاظ كريهة أو معاني منفرة وحرص أن يقع في الخاتمة كأحسن ما وقع في المتن⁴، وبذلك يرتبط الكلام عند حازم ولا ينقطع فيكون الابتداء والمتن والانتهاء محطات من قطعة نصية واحدة مستمرة دلاليا، مؤتلفة المعاني ومتأخذة، ومتعلق بعضها ببعض.

خلاصة:

نخلص من كل ما تقدم أن لعلماء العربية القدامى ممارسات نصية، لم يسبقهم إليها أحد إذ كان له السبق الزمني في التعامل مع النصوص بوعي ودراية وتدبر فكل ما جاء به النقاد والبلاغيون وعلماء التفسير والأصول يدور في فلك الدراسات النصية المعاصرة.

¹ حازم القرطاجي، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص114.

² ينظر المرجع نفسه، ص120.

³ حازم القرطاجي، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص314.

⁴ حازم القرطاجي، المرجع نفسه، ص285.

وفي ذلك بقوله يوهان فك: "لقد تكفلت القواعد التي وضعها النحاة العرب في جهد لا يعرف الكلل ... بعرض اللغة الفصحى، وتصويرها في جميع مظاهرها من ناحية الأصوات والصيغ، وتركيب الجمل، ومعاني المفردات على صورة محيطية شاملة"¹.

لذا فإن "الإنهار بمنجزات العقل الغربي في حد ذاته ليس خطيئة لا تغتفر لكنه يصبح كذلك حينما يقرب بالتنكر للتراث الثقافي العربي، أو المناداة كما تفعل النخبة بضرورة حدوث قطيعة معرفية كاملة كشرط لتحقيق التحديث والحداثة"².

قائمة المصادر والمراجع:

1. أحمد محمد عبد الراضي، نحو النص بين الأصالة والحداثة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2008.
2. ألبرت نيوبرت وغريغوري شريف، الترجمة وعلوم النص تر، محيي الدين حميدي، جامعة الملك سعود، الرياض، ط1، 2002.
3. حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن خوجة، دار الكتب الشرقية، تونس، 1966.
4. حسن البحيري، علم لغة النص (المفاهيم والاتجاهات).
5. دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، تر: تمام حسان، عالم الكتب، مصر، ط1، 1998.
6. صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، الشركة المصرية العالمية للنشر، لوجنمان، مصر، ط1، 1996.
7. عبد العزيز محمود، المرايا المقعرة (نحو نظرية نقدية عربية)، عالم المعرفة، الكويت، 2001.
8. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، موفم للنشر، 1991.
9. فان دايك، النص بنى ووظائف (مدخل أولي إلى علم النص)، تر: منذر عياشي، ضمن كتاب العلامة وعلم النفس، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 2004.
10. فان دايك، النص والسياق (استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي)، ترجمة: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، بيروت، 2000.
11. محمد العبد: حبك النص (منظورات في التراث العربي)، مجلة فصول، العدد 59، العينة المصرية العامة للكتاب، دت.
12. محمد سعد شحاته، العلاقات النحوية وتشكيل الصورة الشعرية عند محمد عفيفي مطر، ط1، 2003.
13. وليد محمد مراد، نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني، دار الفكر، ط1، 1983.
14. يوسف حسين بكار، بناء القصيدة في النقد العربي القديم، دار الأندلس، بيروت، دط، 1982.
15. يوهان فك، العربية دراسات في اللغة واللهجات والأساليب، ترجمة، رمضان عبد التواب، مكتبة الخابجي، مصر، 1980.

¹ يوهان فك، العربية دراسات في اللغة واللهجات والأساليب، ترجمة، رمضان عبد التواب، مكتبة الخابجي، مصر، 1980، ص14.

² عبد العزيز محمود، المرايا المقعرة (نحو نظرية نقدية عربية)، عالم المعرفة، الكويت، 2001، ص31.

الوعي بالظواهر النصية في المدونة النقدية العربية القديمة "عيار الشعر" لابن طباطبا نموذجاً

د. بشير دردار

جامعة تيسمسيلت، الجزائر.

ملخص:

أتاحت لنا الدراسات المعاصرة المتخصصة الوقوف على استباقات العرب القدماء النظرية والتطبيقية في مجال علوم النص، من خلال استكشاف المنجز العربي في مظانّه المختلفة؛ كعلوم القرآن، وعلوم النحو، والبلاغة، ونقد الشعر. وقد تمّ ذلك بصورة أتاحت إضاءةً تكاد تكون كاملة لمشهد البحث التراثي في الموضوع. وإذا حصرنا اهتمامنا في حقل النقد، برزت أمامنا جهود كثيرة، من أهمها جهد ابن طباطبا في "عيار الشعر"، الكتاب الذي تضمن معالجة لظواهر نصية، من قبيل: "تأليف الشعر"، و"وصل الكلام"، و"لطف التخلص"، وغيرها.

تطرح هذه المداخلة، في ضوء ما تقدّم، إشكاليات عدة، منها: تحديد مستوى الوعي النظري عند ابن طباطبا، واستكشاف مرجعياته المعرفية، قياس ما يفترض وجوده من تفاوت بين الوعي النظري المتحقّق، والأداء التطبيقي المنبثق عنه، وأخيراً، مساءلته عمّا إذا كان قد راعى الفروق بين النثر والشعر، خاصة أنه قد عُرف بالتقريب بينهما تقريباً أخذه عليه المعاصرون كثيراً.

الكلمات المفتاحية: النصية، ابن طباطبا، النقد، البلاغة، الشعر، النثر

Abstract :

The contemporary studies of our heritage had offered an approach of both theoretical and practical anticipations of ancient Arabs in the field of textuality by means of the exploration of different disciplines: sciences of the Quran , grammar , rhetoric, criticism. By focusing on only the questioning of ancient criticism, Ibn-tabatiba's work "iyarechch-ir"(The gauge of poetry) is slightly different from the rest, for it offers an analysis based on : the combination of verses , the connection of speeches, the subtlety of passing from a topic to another .It is supposed here to treat the following : the level of theoretical perfection in the approach of Ibn tabatiba , its notional frame of reference, the appreciation of the gap between theory and application, and the eventual negligence of the opposition poetry/prose.

Keywords: textuality; ibn tabatiba; criticism; rhetoric; poetry; prose.

. توطئة:

اشتغلت طائفة من الباحثين العرب المعاصرين على رصد استباقات العرب القدماء في حقول اللغة والأدب والنقد، كما فعل نظراء لهم في حقول العلوم الإنسانية كافة، بل وفي تاريخ العلوم والمعارف بصورة أعم. وقد كان الباعث على هذا الاشتغال دواع ثقافية حضارية، حرّكت همم هؤلاء الباحثين لحفز حركة النهوض والتطور التي عاشها ولا يزال يعيشها العرب في العصور الحديثة. كما كان الداعي إليها أحيانا معرفيا منهجيا صرفا، لما اقتضته حركة تجديد العلوم والمعارف وإعادة تأسيسها وتبنيها، من تأصيل للمفاهيم تراثيا، كما جرت به العادة عندنا وعند غيرنا من الأمم.¹

أتى على فئة من الباحثين العرب المعاصرين حين من الدهر اشتكوا فيه قلة العناية التي يولها أقطاب الفكر اللساني الغربي للغة العربية وموروثها العلمي الخاص بالدراسات اللغوية، والتي سمّاها عبد السلام المسدي "الثغرة العربية في تاريخ اللسانيات".² فكان ذلك حافزا إضافيا على مضاعفة الجهد في هذا الباب. وقد أدى ذلك كله إلى إثراء المكتبة العربية بكم لا بأس به من الدراسات التي أسهم بها أصحابها في التفاعل مع البحوث اللغوية الرائدة في الغرب، من خلال عمليات التبئنة والاستلهام وتأصيل المفاهيم تراثيا بطبيعة الحال.

بيد أن الموضوعية في وصف مشهد التفاعل العربي الغربي في حقول اللغة والأدب والنقد، تفرض علينا أن نميّز في هذا المشهد جهودا غربية أحسنت الحوار مع التراث العربي، وأدّت ما وجب له من حق التعريف به وتثمينه، بل وإبداء التعاطف معه والافتتان به. والأمثلة هنا أكثر من أن يأتي عليها العدّ. يكفينا في هذا المقام أن نورد رأي أوزوالد ديكرو Oswald Ducrot رائد تيار اللسانيات التداولية المندمجة، في قيمة الدراسات اللغوية القديمة، والذي عبّر عنه بقوله: "وما يسترعي الانتباه أكثر من غيره في هذه البحوث [الدراسات اللغوية العربية القديمة] إنما هو الدور المركزي الذي توليه للنشاط التلقّطي (وقد يعود الاهتمام بهذا النشاط ربما إلى كون القرآن، وهو الموضوع المميّز للتفكير اللغوي العربي، نصا تستحيل قراءته بنسيان أو

¹ - تأصيل المفاهيم تراثيا ليس بدعة عند العرب المعاصرين، فالأعلام الغربيون الكبار-موضع القدوة عند الكثيرين منا- يأتون الصنيع نفسه، بل ويعدّونه ثابتا من ثوابت المنهج عندهم. يحضرنى مثلا ن بارزان: بارت وإيكو؛ فبارت - على سبيل المثال - يعيد كتابة تاريخ البلاغة، ساعيا إلى إعادة الاعتبار إليها. ومن جملة ما قاله في تبيين الموروث البلاغي الغربي: "هذا القدم لا يعني أنه توجد اليوم بلاغة جديدة؛ فالبلاغة القديمة تقابل بالأحرى هذا الجديد الذي لم ينجز بعد... إن العالم مليء، وبشكل عجيب، بالبلاغة القديمة". (رولان بارت: قراءة جديدة للبلاغة القديمة، ترجمة: عمر أوكان، إفريقيا الشرق، دط، الدار البيضاء، المغرب، 1994، ص10).

أما إيكو، فزيادة على الدلالة الواضحة لعنوان كتابه على الاهتمام بالموروث الإنساني ككل في مجال السيميائيات، يبرز لنا مترجمه بدقة زاوية هذا الاهتمام بقوله: "... إنه يبحث في التراث السلوكي والذهني الذي خلفه الإنسان عن الأسس الفلسفية التي تحدّد كنه العلامة باعتبارها اللبنة الأساس في سرورة السيميوز (السرورة المنتجة للدلالات وتداولها). ومن هذه الزاوية، يمكن اعتبار هذا الكتاب تأريخا لرحلة الإنسان مع الرموز وأشكالها المتعددة، أو هو نتيجة لهذه الرحلة". (إمبرتو إيكو، العلامة: تحليل المفهوم وتاريخه، ترجمة: سعيد بنكراد، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت - الدار البيضاء، 2007، ص8). وهذا يصدق على مجمل النظريات المعاصرة في حقول العلوم الإنسانية والاجتماعية.

² - عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، ط2، طرابلس - ليبيا، 1986، ص22

محو مقام التلطف: فالواجب أن يُفهم عند كل قراءة باعتباره كلام الله الذي يتوجه به إلى الناس). وحتى عندما يتعلق الأمر بنظام الجملة الداخلي فإن هذه لا توصف باعتبارها توليف عناصر تجتمع بحسب قواعد شكلية (وهذا المعنى يشتغل النحاة العرب بكيفية مقابلة للهنود والتوزيعيين المحدثين، ويّشرون على العكس بالوظيفية ونظرية أعمال اللغة".¹ إن في هذا الرأي من الموضوعية والنزاهة الفكرية والإنصاف، ما يحملنا على تلطيف الحكم في مسألة الاعتراف الغربي بمنجزات الثقافة العربية الإسلامية عامة، وتراثها اللغوي خاصة، حتى لا نضع جميع أعلام الفكر الغربي في سلة واحدة، فننوّت على أنفسنا وعلّهم ما يمكن أن نجنيه من ثمرات، حين ننخرط وإياهم في حوار علمي جاد نزيه، كما كان دأب أسلافنا العظام، الذين حاوروا أرسطو وأفلاطون، وغيرهما، ولم ينقص ذلك من قيمة ما خلفوه لنا من منجزات.

2. المنجز التراثي في حقل علوم النص:

في قول ديكرو السابق، وفيما جاء بعده مباشرة² ما ييسر لنا الولوج إلى تقديم إضاءة إجمالية لموضوعة "المنجز التراثي في حقل علوم النص". ففي القول تنويه واضح بالاستباق العربي التراثي لنظريات معاصرة في حقل الدراسات اللغوية؛ هما نظريتا اللسانيات الوظيفية، ونظرية أفعال الكلام، وكلتاهما قوية الصلة، عميقة التأثير في مجال الدراسات النصية بمختلف تياراتها ومدارسها، في نحو النص، واللسانيات النصية، واللسانيات التداولية (التداولية المندمجة خاصة)، والدراسات الحجاجية، ولسانيات الخطاب، وتحليل الخطاب، بمدرستيّه الفرنسية والأنجلوسكسونية. هذا دون أن نتحدث عن حقول الأسلوبيات اللغوية، ودراسات التلقي والتأويل، وغيرها.³

وإذا جئنا لتخصيص الحديث أكثر حول الممارسة النصية في تراثنا القديم، بعد هذه التوطئة التي استثمرنا فيها عامدين شهادة علم من أعلام الدرس اللغوي العربي المعاصر، كان علينا في البدء أن نثمن ما جاء في كلام هذا العلم من رصد دقيق لمطان الدرس النصي في التراث العربي من جهة، والتقييم العلمي لاجتهادات العلماء العرب القدماء التي ارتقت في نظره إلى مستوى النظريات المعاصرة الأكثر اهتماما بظواهر النص؛ اللسانيات الوظيفية، ونظرية أفعال الكلام.

¹ - ديكرو، أوزوالد - شافار، جان ماري، المعجم الموسوعي الجديد في علوم اللغة، ترجمة عبد القادر المهيري - حمادي صمود، المركز الوطني للترجمة، دار سيناترا للنشر، د ط، تونس، 2010، ص 97

² - خاصة قوله: "لا يرمي الكتاب إلى إظهار بنية وإنما مجموعة عمليات تسمح للمتكلم أن يبني ملفوظا مشاكلا لما يريد أن يقول، وهو اتجاه يفسر، من جهة أخرى، أن المناقشات في اللغة يجب البحث عنها لا فقط في كتب النحو، في المعنى الضيق للكلمة، لكن أيضا في مؤلفات التشريع (حيث يدور الأمر على سلطة فعل القول)، والبلاغة (التي يخصص قسم منها لبيان "الجهات التي تسمح للعبارة العربية أن تناسب شروط مقام التلطف" (المرجع نفسه، ص ن)

³ - للتوسع في موضوع تداخل اختصاصات علوم النص، ينظر: سعيد حسن بحيري، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، مكتبة لبنان ناشرون-الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، ط1، بيروت-القاهرة، 1997، ص 1-59

لذلك، فإنه من الأليق بنا -بعد هذا الاستفتاح- أن نعرض في لمحة عامة لما استكشف من إسهامات الأعلام القدماء في هذا المجال التخصصي الذي يعدّ في عرف أهل الاختصاص المعاصرين، حقلاً بحثياً جديداً متجدداً.¹

يسمح لنا الاستطلاع البيبليوغرافي العام برصد كمّ كبير من الجهود البحثية المتنوعة، التي تتوزعها أبحاث الأعلام الرواد المتخصّصين، والرسائل العلمية الأكاديمية، والأبحاث التطبيقية التي يعرض أصحابها لأحد الأعلام، أو الموضوعات، أو المفاهيم، تعريفاً، وتأصيلاً، ومقارنة. وهي في مجملها دراسات يخرج المطلّع عليها -وإن على سبيل المسح البيبليوغرافي العام - بانطباع أن الباحثين العرب وجدوا في مشغل علوم النص ضالّتهم، فالمادة المعرفية التراثية من الوفرة، والتنوع، وتعدد الإسهامات، بحيث تلبّي مطالب الباحثين، مهما كانت مجالات تخصصهم في الحقل العام لعلوم النص، وتستجيب لأهدافهم، مهما كانت المناظير المعاصرة التي يتبنّونها. فالمادة المعرفية تزدهم بها كتب النحو، وعلوم القرآن، والبلاغة، والنقد، وفي كل حقل من هذه الحقول تبرز جهود أعلام عديدين، متباينين المشارب الفكرية، ومختلفي المقاربات البحثية، من حيث منطلقاتها وإجراءاتها. والموضوعات في هذه الكتب متعددة، تكاد تطابق في عددها ما يطرح اليوم من قضايا النص وإشكالاته، ففيها ما يتصل بالربط النحوي(السبك)، والربط الدلالي(الحبك)، وفيها ما يتعلق بجانب التداول والتلقي، من قبول، وتناص، ومقصدية، وإخبارية.²

إن محتويات هذه الدراسات الكثيرة التي أنجزها العرب المعاصرون، بما كشفتته من مكونات المنجز العربي القديم في حقل الدراسات النصية، ترسم أمامنا مشهد التناول التراثي لظواهر النص، بغناه المعرفي المفاهيمي، ووضوح مباحثه وتمايزها، وشموله لمختلف الجوانب التي اشتغل عليها المعاصرون، الذين استدرکوا على نحو الجملة ولسانياتها قصور نظرتهم إلى موضوع اللغة وظواهرها المختلفة المتباينة، ما اتصل منها بالبنية السطحية، أو البنية العميقة، أو السياق الذي يقع فيه التفاعل التواصلي، بكل مكوناته. وإن كان كل هذا التثمين لا يعني البتة أن هذا المنجز التراثي فوق النقد، وأنه مبرراً من كل نقص أو قصور.³

¹ - علم النص علم جديد متداخل التخصصات، ضمن كتاب: تون أ. فان دايك، علم النص مدخل متداخل التخصصات، ترجمة وتعليق: سعيد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب، ط1، القاهرة، 2001، ص14-17

² - اختلف الباحثون العرب في ترجمة المصطلحات المعيّنة لمعايير النصية. فحسان تمام مثلاً يقترح الترجمات التالية: السبك / cohesion؛ الالتحام/coherence؛ القصد/intentionality؛ القبول/acceptability؛ رعاية الموقف/situationality؛ التناص /intertextuality؛ الإعلامية/informativity. (ينظر: روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة: تمام حسان، عالم الكتب، ط1، القاهرة، 1998، ص 103-105). وهي الترجمات التي يخالفه فيها آخرون، فهناك من يقترح "الاتساق" بدلاً من "السبك" و"الحبك" بدلاً من "الالتحام"، و"المقامية" بدلاً من رعاية الموقف، وهكذا.

³ - لا يفوت الباحثين الجادين الالتزام بذلك، والإعلان عنه. فهي هو محمد الشاوش في مقدمة بحثه القيم "أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية - تأسيس "نحو النص" يعطينا المثال عن ذلك، حين يقول: "ولئن جاء كلامنا مشوباً ببعض الإعجاب فإنه لم يكن من قبيل إعجاب الفتاة بأبيها: فنحن لم نألُ جهداً في الإشارة إلى ما لاحظناه من مواطن التردد أو مواطن الترجيح غير القائم على دليل كما أننا لم نتردد في إبراز وجوه من التفسير والتعليل بدا لنا فيها غير ما بدا لهم" (المرجع المذكور، ج1، سلسلة: اللسانيات، المجلد: 14، جامعة منوبة - كلية الآداب، المؤسسة العربية للتوزيع، ط1، تونس، 2011، ص 21-22)

3. الوعي بالظواهر النصية ومعالجتها في المدونة النقدية:

تعدّ المدونة النقدية أقل المدونات التراثية العربية تناولاً للظواهر النصية، خاصة في الجانب النظري.¹ فالمعروف عن النقد القديم عند العرب، أنه اختص بالشعردون النثر، وأن المعالجة في مجمل أطروحات النقاد القدماء نحت في التعامل مع المدونة الشعرية نحواً تجزئياً، قائماً على التحليل الشواهد الذي يكتفي فيه الناقد بالبيت الواحد، أو الأبيات القليلة، مركّزاً على فحص استخدام اللفظ المفرد، أو العبارة الواحدة، أو الأسلوب البلاغي الذي تستوعبه الجملة الواحدة، أو الجملتين، ونادراً ما التفت النقاد إلى تحليل نصوص كاملة.² وهم إن فعلوا ذلك، فالأجل الحديث عن موضوع القصيدة، أو عما حملته من مضامين، وليس من أجل بحث تلاحم أجزاءها، وترابط وحداتها، طالما أن بنية القصيدة العربية القائمة على وحدة البيت المستقل بمبناه ومعناه، لم تكن تتيح لهم أن يعطوا الأولوية في أبحاثهم لظواهر الانسجام النصي، رغم ما نجده في كثير من المؤلفات النقدية من كلام عام مرسل عن تلاحم الأجزاء، واقتران الأبيات، وحسن التخلص من غرض إلى غرض، والقصيدة المفرغة إفراناً واحداً.³

هذه هي الإشكالية التي نريد إثارتها ومعالجتها في مداخلتنا هذه. وإنما أبدينا هذه الملاحظة الأولية لنضع أول معلم في طريق ما نفترضه من معالجة لقضية وعي النقاد العرب القدماء بالظواهر النصية، فنحاول قياس درجته، وتقدير قيمته مقارنة بالمنجز في حقول مجاورة له، مثلت مرجعيته المعرفية، كعلم النحو، وعلم البلاغة.

يتبنى كثير من الباحثين العرب المعاصرين الذين تخصصوا في قراءة الموروث النقدي ومراجعته، أطروحة مفادها أن النقد العربي القديم، لم يحقق قدراً كافياً من الاستقلالية عن الحقول المعرفية المجاورة، التي سبقته في النشأة (النشأة المشروطة باكتمال المباحث، ونضج المقاربات)⁴. فكان أن انتقل من احتذاء النحو في مقولاته المؤسّسة، مثل تصنيف الشعراء، ونماذج إجراءاته التحليلية، كالمعالجة الشواهدية الموضوعية، مقابل إهمال التفريق بين لغة الشعر ولغة النثر؛ انتقل من هذا إلى وصاية البلاغة، فعندما اجتهد

¹ - يتبنّى هذا الرأي محمد خطابي في كتابه: لسانيات النص مدخل إلى تحليل الخطاب، حيث يصف جهود الجاحظ (يصنفه ضمن النقاد)، وابن طباطبا، والحاتمي، بأنها "أدبيات"، وليست "دراسة" (وصف) للوسائل التي تجعل النص منسجماً"، ولا يستثني من النقاد سوى حازم القرطاجي، الذي يعترف له بمساهمة من الصنف الثاني (المرجع المذكور، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء-بيروت، 1991، ص141 وما بعدها؛ وص149 وما بعدها)

² - محمد زكي العشموي، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، دار النهضة العربية، د ط، بيروت، 1979، ص212

³ - تتردد هذه العبارات في كتب النقد القديم كلها، ولكنها لا تعدو أن تكون أحكاماً ناتجة عن الملاحظة المباشرة، والمعرفة الحدسية التي يدرك بموجبها أن لكل أجزاء متناسقة. تأمل مثلاً دلالات العبارات: جودة الرصف، نسج مضطرب، سوء التأليف، حسن التأليف، سبك جيد، صحة التأليف، في باب تحت عنوان: فضل البحري، يخصه الأمدي لإبراز مزايا الشاعر، ورغم إهمامها للقارئ بالإحالة إلى انسجام النص الشعري، فإن الأمدي عند التطبيق يسقطها على الأبيات المفردة. أما نظرياً فلا يلتفت أبداً إلى التعريف بها، لا في هذا الموضوع، ولا في غيره (ينظر: الموازنة بين شعري تمام والبحري، ج1، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، ط4، القاهرة، 1992، ص423-430)

⁴ - جمال الدين بن الشيخ، الشعرية العربية، ترجمة مبارك حنون وأخ، دار توبقال للنشر، ط1، الدار البيضاء، 1996، ص8-7

النقاد في تأسيس حقلهم التخصصي، وجدوا أنفسهم يؤلفون كتباً هي أقرب للبلاغة منها إلى النقد،¹ بل إن التيه الذي عاشه النقاد قروناً مديدة لتتضح صورته في المآزق والإشكالات التي لم يستطيعوا تجاوزها، حتى جاء بلاغي فذ، فأرشدهم إلى كيفية حلها. إنه عبد القاهر الجرجاني، الذي وضع من المفاهيم البلاغية ما ساعد على حل مشكلات نقدية عديدة، كالسرقات، ومركزية التشبيه وهامشية الاستعارة، ووهم فصاحة المفردات، وذم الغرابة، وغيرها.²

مثل النقد النسق المعرفي المهمن عليه. وظلت أطروحات النقاد ومقولاتهم وتمشياتهم الإجرائية معتمدة على ما يستمدونه من الحقول المجاورة. لذلك عيبت كثير من أطروحاتهم بهشاشة التأسيس المعرفي للمفاهيم. يقول مصطفى ناصف: "...فقد استعمل (النقد العربي) كلمة اللفظ والألفاظ استعمالاً شائعاً، وكثرت فيه العبارات الغامضة. في النقد العربي لمحات شاردة، ولكنه خال من التحليل والتفصيل الذي يتضح في النحو العربي. هناك في النقد الأدبي معان مهمة على حين يتحدد المعنى المراد في النحو والفقهاء وتفسير النص القرآني. وينبغي أن تواجه مشكلة العبارات الغامضة في النقد العربي بصبر أكبر. ونحن -عموماً- نتخلص من هذه المشكلة حين نضفي عليها من ثقافتنا الحديثة. ولكن الطريق الأكثر أماناً هو أن يفهم النقد العربي القديم في ضوء دراسات تختلف عنه، ولكنها ربما تلقي عليه ضوءاً كبيراً مثل النحو والفقهاء وتفسير القرآن الكريم"³

كان لهذه التبعية وما انجر عنها من فقر مفاهيمي، وإجراءات اعتباطية، انعكاس سلبي واضح على مسائل من قبيل استحضار المفاهيم، والعناية بتهيئتها، وضبطها، وتكييفها مع موضوع البحث النقدي؛ فهي إما أن تستحضر في صورتها الأصلية (في كتب النقد التطبيقي خاصة) أو تعتبر مسلماً بها، فتذكر أسماءها أو مصطلحاتها فقط (اللفظ والمعنى مثلاً). وهذا ما ينطبق انطباقاً تاماً على مؤلف ابن طباطبا، الذي لا نجد فيه الإحالة إلى الأعلام والمفاهيم، ما عدا إحالات عامة (قال بعض الحكماء، قال بعض الفلاسفة... الخ)⁴. كما لا نجد فيه استخداماً واعياً للمصطلحات، فالألفاظ والعبارات التي يصف بواسطتها ظواهر النص، هي أقرب إلى الألفاظ والعبارات العامة، منها إلى المصطلحات مضبوطة الإحالة الدلالية. وهذا ما سنعكف على تفصيله فيما يأتي.

¹ ينظر مثلاً، رأي محمد مندور في كتاب "نقد الشعر" لقدماء بن جعفر، في: النقد المهجى عند العرب، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، د ط، القاهرة، 1996، ص 72
² هناك دراسات كثيرة تناولت تيريز عبد القاهر في معالجة هذه القضايا، نخصّ منها بالذكر دراسة جابر عصفور: "الصورة الفنية في الموروث البلاغي والنقدي": ودراسة أحمد مطلوب: "قضايا الحدائث عند عبد القاهر الجرجاني": ودراسة مصطفى ناصف: "النقد العربي نحو نظرية ثانية"
³ مصطفى ناصف، نظرية المعنى في النقد العربي، دار الأندلس، د ط، بيروت-لبنان، دت، ص 8
⁴ هي إحالات معدودة جداً (ابن طباطبا، عبار الشعر، شرح وتحقيق، عباس عبد الساتر، الدار العلمية للكتب، ط 1، بيروت-لبنان، 1982، ص 17، 22). أما الإحالة إلى الأعلام العرب القدماء، فتكاد تكون منعدمة. قارن مع مؤلفات النقد الأخرى، التي تغطّ متونها بمثل هذه الإحالات.

4. رصد الوعي بظواهر النص عند ابن طباطبا:

اخترنا مساهمة ابن طباطبا نموذجا ممثلاً للممارسة النصية في المدونة النقدية التراثية، لعدة اعتبارات، منها على وجه الخصوص: أنها مساهمة تمثل التحسس الأولي للظواهر النصية في النقد الأدبي القديم، إذا استثنينا الجاحظ لكونه بلاغياً أكثر منه ناقداً؛ وابن قتيبة لكون حديثه عن أقسام القصيدة محاولة أولى بعيدة عن ملامسة الظواهر النصية أي نوع من الملامسة.¹ وأنها-بعد ذلك- تمتاز بالتبأس يُوهم بارتفاع درجة الوعي النقدي بالممارسة النصية في الخطاب الشعري، بسبب إلحاح صاحب "العيار" على ظواهر معينة للترابط النصي بمفهومه العام، كحسن التأليف، والتجاور، والانتظام، ولطف الصلة، وما إلى ذلك. ويضاف إلى ذلك ما نجده في هذه المساهمة من تفاوت بين التمثل النظري للظاهرة النصية-على تدرّجته- والتطبيقات التحليلية التي تقترحها علينا. إضافة إلى اعتبارات أخرى لا يتسع المقام لذكرها كلها.

ابن طباطبا (ت 322 هـ) هو أحد علمين يُنسب إليهما ابتداء التأليف النقدي النظري في حقل النقد،² العلم الآخر هو قدامة بن جعفر (ت 260 أو 276 هـ). فمن سبقهما من النقاد أنجزوا أعمالاً أقرب إلى التاريخ الأدبي، أو الدراسة التطبيقية، منها إلى التنظير. وإن كان هناك رأي شائع عند كثير من المعاصرين، يقلل من قيمة ما تحقّق على يديهما من تنظيرات نقدية، بسبب ارتبانهما للحقول المعرفية المجاورة، وخاصة علم البلاغة، كما سبق بيانه في مبحث متقدم.

إن الارتبان لمفاهيم البلاغة النظرية واضح كل الوضوح في كتاب قدامة "نقد الشعر". وقد لاحظ ذلك محمد مندور وأبدى بشأنه رأياً فيه كثير من الصرامة والتشدد، نافياً أن يكون للكتاب أي أثر على تطور الحركة النقدية في زمنه، وبعد زمنه.³ أما كتاب ابن طباطبا، فهو من الكتب التي احتفى بها جابر عصفور في كتابه "مفهوم الشعر"، وعدّها ضمن ثلاثة نماذج رائدة في التنظير النقدي عند القدماء، لكونها-كما قال- اعتمدت في مقاربتها لقضايا نقد الشعر، على المرجعية الفلسفية، التي ارتقت بها إلى مستوى غير مسبوق في الفكر النقدي في زمنها وقبل زمنها.⁴ فالإي مدى استفاد ابن طباطبا من هذه المرجعية الفلسفية المستجدة، زيادة على المرجعية اللغوية الأصلية، في رصد الظواهر النصية والوعي بالقوانين التي تحكمها في النصوص الشعرية التي تجرّد نقدنا القديم لدراستها؟

1- لا يعتدّ كثيراً بجهد ابن قتيبة في موضوع بناء القصيدة. فيوسف حسين بكار، في كتابه: بناء القصيدة في النقد العربي القديم (في ضوء النقد الحديث)، لا يتعرض لرأيه في هذه المسألة، ويبدأ استعراض المساهمات القديمة، بابن طباطبا.(المرجع المذكور، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، بيروت، 1982، ص 292 وما بعدها. أما في حقل علوم القرآن، فهناك اهتمام واضح بمساهمته. ينظر تقييم جهده في بحث انسجام النص القرآني في: محمد العمري البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، د ط، 1999، ص145 وما بعدها)

2- إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الثقافة، ط4، بيروت، لبنان، 1983، ص 133، 214

3- تنظر إحالة سابقة إلى كتاب محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، ص72

4- جابر عصفور، مفهوم الشعر، الهيئة العامة للكتاب، ط5، القاهرة، 1995، ص 88-16

1.4- مستوى الوعي النظري بالظواهر النصية/ قراءة في المفاهيم المستحضرة في "العيار":

يولي ابن طباطبا اهتماما كبيرا لقضايا النص وظواهره في كتابه "عيار الشعر"، فإثارة هذه القضايا تتكرر في فصوله وأبوابه، بصورة تلفت الانتباه، وتستوقف القارئ. فمن بداية الكتاب إلى نهايته تلجّ على الكاتب قضايا من قبيل "تنسيق الأبيات"، و"حسن تجاورها"، و"لطف الصلة بينها"، و"حسن ترتيبها"، و"انتظامها"، و"صحة تأليفها"، وغير ذلك من الألفاظ والعبارات التي استخدمها للدلالة على ظواهر الترابط النصي المختلفة.¹ والملاحظة العامة التي نقدّمها كفرضية، قبل تحليل مقتطفات من كلام ابن طباطبا، هي أن تمثله الذهني للظواهر النصية يقوم على معرفة حدسية معضودة بمعارف فلسفية عامة، تُدرِك ولا تُعلّل، تتحسس استيفاء النصوص لشروط المقبولية، ولكنها لا تستطيع أن تحدّد لنا ما هي هذه الشروط.

يتحدث ابن طباطبا عن الظواهر النصية بالألفاظ والعبارات التي ذكرناها، ولكنه لا يحيلنا إلى أي معرفة لغوية، نحوية، أو بلاغية، أو أي معرفة أخرى مقرّرة. فهو لا يستشهد بعلم من أعلام النحو، أو البلاغة، أو علوم القرآن، كما دأب النقاد القدماء على فعله في استدلالاتهم وتحليلاتهم. وهو أيضا لا يستحضر تعريفا معتمدا مشهورا لظاهرة من ظواهر النص.

نقرأ له الآن المقتطف التالي من بداية الكتاب، ثم نعود إلى تحليله: " فإذا أراد الشاعر بناء قصيدة مخّض المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكره نثرا، وأعدّ له ما يلبسه إياه من الألفاظ التي تطابقه، والقوافي التي توافقه، والوزن الذي يسلس له القول عليه. فإذا اتفق له بيت يشاكل المعنى الذي يرومه أثبتته، وأعمل فكره في شغل القوافي بما تقتضيه من المعاني على غير تنسيق للشعر وترتيب لفنون القول فيه؛ بل يعلّق كل بيت يتفق له نظمه، على تفاوت ما بينه وبين ما قبله. فإذا كملت له المعاني، وكثرت الأبيات وفقّ بينها بأبيات تكون نظاما لها وسلكا جامعا لما تشنت منها. ثم يتأمل ما قد أدّاه إليه طبعه ونتجته فكرته، يستقصي انتقاده، ويرمّ ما وهى منه، ويبدل بكل لفظة مستكرهة لفظة سهلة نقية، وإن اتفقت له قافية قد شغلها في معنى من المعاني، واتفق له معنى آخر مضاد للمعنى الأول، وكانت تلك القافية أوقع في المعنى الثاني منها في المعنى الأول، نقلها إلى المعنى المختار الذي هو أحسن، وأبطل ذلك البيت أو نقض بعضه، وطلب لمعناه قافية تشاكله، ويكون كالنساج...وكانقاش...وكناظم الجواهر...²

¹ - تُجمع كتب تاريخ النقد ودراسات الموروث النقدي، على تميمين هذا الاهتمام، عندما تتناول قضية وحدة القصيدة في التراث النقدي. ينظر على سبيل المثال لا الحصر: محمد زغلول سلام: تاريخ النقد الأدبي والبلاغة حتى القرن الرابع الهجري، منشأة المعارف جلال حزي وشركاه، د ط، الإسكندرية، مصر، دت، ص 169-172؛ وإحسان عباس، م.س، ص 138؛ وجمال الدين بن الشيخ، م.س، ص 160-162؛ وأحمد مطلوب، اتجاهات النقد الأدبي في القرن الرابع الهجري، وكالة المطبوعات- الكويت، ط1، بيروت، 1973، ص 54-58؛ والأخضر جمعي، اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب- دراسة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، د ط، دمشق، 2002، ص 63-66

2- ابن طباطبا، عيار الشعر، م.س، ص 11

نقف في هذا المقتطف الذي دشّن به ابن طباطبا تناوله للظواهر النصية، على ما يؤكد ملاحظتنا الأولية السابقة، سواء ما تعلّق منها بارتهاج النقد للحقول المعرفية المجاورة، وهشاشة تأسيس النقاد لمعارفهم ومفاهيمهم النقدية، أو ما تعلّق بغياب الإحالة إلى المرجعية المعرفية المعتمدة في وصف ظواهر النص.

فإذا ابتدأنا بالمصطلحات وجدنا ألفاظا وعبارات تتبدّل، وتتغيّر، تحيل حقيقة إلى الظواهر النصية، ولكنّها لا تحصرها، ولا تميّز أنواعها وأصنافها، ولا تمثّل لها بآليات لغوية تعارف النحاة والبلاغيون على تعيينها بمصطلحاتها الدالة عليها. بمّ تعرّفك الألفاظ والعبارات التالية: (بناء قصيدة، تنسيق، ترتيب، وفقّ بينها بأبيات، نظاما، سلكا جامعا، يرمّ ما وهى)؟ إنها ألفاظ وعبارات لا تنفذ بك إلى معرفة مضافة جديدة، تكشف لك بنية الظواهر،¹ بقدر ما هي ألفاظ وعبارات عامة، تعكس التسليم الذي كانت تقابل به المفاهيم والمعارف في حقل النقد، بوصفها معارف توتّى اللغويون، نحاة، وبلاغيون صياغتها وتصنيفها.

إن كان هناك ما يلفت الانتباه في هذه القائمة من الوحدات اللغوية التي استعان بها ابن طباطبا لرصد الظواهر النصية، فهي عبارة: "وفقّ بينها بأبيات"، فهي كاشفة دالة في سياق تحليلنا واستدلالنا، من أكثر من وجه. فمن وجه أول، تدلنا على أن مفهوم الربط النصي عند ابن طباطبا لا يقوم على آليات لغوية؛ نحوية، وبلاغية محددة، كروابط الجمل، والإحالة الضميرية، أو التكرار الدلالي، أو الفصل والوصل، بقدر ما يقوم على وحدات لغوية أكبر يستوعبها بيت شعري، أو أكثر. وهو ما يعني أن ما يفكر به ابن طباطبا هو الترابط المنطقي للمضامين، بعيدا عن أي آليات نصية. ومن وجه ثان، تكشف لنا أن ابن طباطبا يسلم تسليمًا واضحًا بوحدة البيت واستقلاله معنى ومبنى، عندما يرشد الشاعر إلى الابتداء بإيجاد أبيات مفرّقة تمثّل أصل القصيدة. وفي ذلك دلالة واضحة على أن تنسيق الأبيات عملية لاحقة تلصق الأجزاء لصقا،² وليست عملية متولّدة عن المعايير المعروفة للترابط النصي. ومن وجه ثالث، تحيلنا متضمنات العبارة، إلى استحضار مبدأ مركزي في نظرية ابن طباطبا، هو مبدأ خضوع عملية الإبداع الشعري للوعي العقلي التام، بحيث تنتفي خصوصية اللغة الشعرية، في البناء والترابط النصي وتلحق بالنثر إلحاقًا. وهو ما يكشف ثغرة أخرى في تفكير ابن طباطبا النقدي الذي تحكّم فيه المنطق ومعارف فلسفية بسيطة، وما توهمه من تعميم تجربته الخاصة في نظم الشعر، على الشعر العربي كله.³

¹ - نبه إلى الطابع الإيهامي لمثل هذه الألفاظ والعبارات في كتب النقد القديم، يوسف حسين بكار في كتابه: بناء القصيدة في النقد العربي القديم (في ضوء النقد الحديث)، م.س، ص 292-293.

² - يرى خليل الموسى أن تصور ابن طباطبا لوحدة القصيدة يتميز بأربع سمات، من ضمنها: المنطقية، والإلصاقية. ينظر بحثه: وحدة القصيدة في "عبار الشعر"، مجلة التراث العربي، مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، العدد 18، كانون الثاني، دمشق، 1985، ص 142-145، و 148-149.

³ - يوسف حسين بكار، بناء القصيدة في النقد العربي القديم، م.س، ص 296.

وزيادة على ذلك، فإننا في حالة ابن طباطبا نصادف خلافاً آخر، فالرجل لا يحيل إلى أي مصدر من مصادر المعرفة، ولا يسمي نحويًا ولا بلاغيًا يُعتدُّ برأيه. رأينا عبد القاهر الجرجاني على عظيم منزلته، يحيل إلى أعلام اللغة والنحو والبلاغة والنقد قبله، بكثير من الإجلال والاحترام. حتى أنه عدّ نفسه مجرد شارح لسبويه.¹ إنه الوعي بظواهر النص في أدنى درجاته، فالقول بتماسك بناء القصيدة دون تحديد شروطه اللغوية الشكلية والمعنوية، لا يكفي لنزعم أن ابن طباطبا كان مستبقًا حقًا، وأن إسهامه في دراسة ظواهر النص تقدّم بالتراث النقدي خطوات هامة إلى الأمام في هذا المجال.

نلاحظ في المقتطف المعروض سابقًا مؤشّرًا دالًا كان يمكن أن يجعل بحث ظواهر النص أكثر عمقا عند ابن طباطبا. وهذا المؤشّر هو تسويته بين الشعر والنثر في عديد من الخصائص البنائية والتعبيرية، فهو ينفرد بالقول إن القصيدة تولد نثرًا، ثم تحوّل عبر عملية عقلية واعية إلى قالب شعري، وكأن عملية الإبداع الشعري ليست سوى تحويل النثر إلى شعر، بإضافة الوزن والقافية. نقول إن هذا التصور العزيز على ابن طباطبا كان كفيلاً بتعميق نظرتنا إلى مسائل الانسجام النصي في الشعر، لأن بنية النص النثري أكثر تجسيدا لقوانين الترابط النحوي والدلالي والمقامي. لكونها ظاهرة تلاحظ ببسر، وتقاس، وتصنف. ومن ثم يمكن الانطلاق منها لاستكشاف السمات الفارقة في ترابط النص الشعري. فخلافًا للنثر الذي هو معنى يبني بطريقة مباشرة وبسيطة، " فإن الشعر معنى يبني بطريقة معقدة، وهذا يعني أن العناصر اللغوية الدالة حين تندرج في كيان بنية واحدة متكاملة تغدو - أي تلك العناصر - مترابطة فيما بينها بنظام معقد من العلاقات والتقابلات، التي لا يمكن تحققها في البنية اللغوية العادية، ولعل هذا هو ما يمنح كل عنصر بمفرده، وما يمنح البنية الفنية في عمومها، ثقلًا دلاليًا خاصًا"² ولذلك لم يكن ينبغي لابن طباطبا أن يتوقف في تقريبه بين الشعر والنثر على الظواهر العامة التي يشتركان فيها اشتراكًا واضحًا، كما في قوله: " ويسلك منهاج أصحاب الرسائل في بلاغاتهم، وتصرفهم في مكاتبتهم، فإن للشعر فصولًا كفصول الرسائل، فيحتاج الشاعر إلى أن يصل كلامه على تصرفه في فنونه صلة لطيفة، فيتخلص من الغزل إلى المديح، ومن المديح إلى الشكوى... ومن الإباء والاعتياص إلى الإجابة والتسمّح، بألطف تخلص وأحسن حكاية، بلا انفصال للمعنى الثاني عما قبله، بل يكون متصلًا به وممتزجًا معه..."³

لسنا في حاجة إلى كبير عناء لنستدرك على ابن طباطبا هنا، فنقول إن الشعر القديم متعدد الأغراض والموضوعات يختلف اختلافًا بيّنًا عن الخطب والرسائل التي تتميز بوحدة الموضوع. وهذا الاختلاف الجوهرى

¹ - أشار إلى ذلك وعلّق عليه: محمد حماسة عبد اللطيف، في: النحو والدلالة/ مدخل لدراسة المعنى النحوي-الدلالي، دار الشروق، ط1، القاهرة، 2000، ص26-27

² - يوري لوتمان، تحليل النص الشعري "بنية القصيدة" ترجمة: محمد فتوح أحمد، دار المعارف، د ط، القاهرة، 1995، ص60

³ - ابن طباطبا، عيار الشعر، م.س، ص11

يستدعي بالضرورة أن تختلف آليات الربط والتنسيق في النوعين.¹ هذا دون أن نثير إشكالية معروفة في الشعر القديم، وهي تلك المتعلقة بوحدة البيت، وقابلية القصائد للتقديم والتأخير في أبياتها، مما يعطي الأولوية فيها لآليات الربط غير اللفظية، الدلالية والمقامية خاصة. وهذا للأسف ما يهمله ابن طباطبا إهمالا واضحا. وقد كان للباحثين المعاصرين وقفات نقدية، شددت النكير على هذه الاختلالات الكبيرة في تنظيره النقدي.²

لا تختلف الوقفات النظرية الأخرى في الكتاب، عن النموذجين اللذين عرضناهما في هذا الموضوع، فغياب المصطلحات النحوية والبلاغية المعتمدة، باستثناء التخلص الذي لا يغمض علينا ما أحاط باستعماله، وإهمال الإحالة إلى المصادر والأعلام هو هو، مما يحملنا على القول إن تحسس ظواهر النص عند ابن طباطبا، ووعيه النظري بها كان في أدنى مستوى، وأنه ربما لم يعكس حتى أصداء المعرفة المتاحة في عصره حول الموضوع.

نجد ذلك واضحا عندما يخص بالعرض والتحليل آلية بلاغية معروفة من آليات الربط اللغوي، هي المحسن البديعي المعروف بـ"التخلص" أو "حسن التخلص". فنراه يمرّ إلى الاستشهاد بأبيات من الشعر، دون أن يضيف إلى تعريفه الساذج البسيط شيئا، يبرز به الآليات اللغوية التي تساعد على تحقيقه في النص الشعري. يقول: تحت عنوان التخلص: "ومن الأبيات التي تخلص بها قائلوها إلى المعاني التي أرادوها من مديح أو هجاء أو افتخار أو غير ذلك، ولطفوا في صلة ما بعدها فصارت غير منقطعة عنها، ما أبدعه المحدثون من الشعراء دون من تقدمهم، لأن مذهب الأوائل في ذلك واحد، وهو قولهم عند وصف الفيافي وقطعها بسير النوق، وحكاية ما عانوا في أسفارهم: إنا تجشمنا ذلك إلى فلان يعنون الممدوح، كقول الأعشى:....

أنضيتها بعدما طال الهباب بها نؤمّ هودّة لا نكسا ولا ورعا
يا هودُ إنك من قوم أولي حسب لا يفشلون إذا ما أنسوا فزعا"³

لا نريد أن نحاكم ابن طباطبا إلى معارفنا المعاصرة، ولكننا مع ذلك نلاحظ خلوكلامه عن التخلص من أي إحالة مرجعية نحوية أو بلاغية، تتيح له وصف ما تنبني عليه هذه الآلية من جمع بين الربط اللفظي والدلالي، على الأقل. أما إشارته إلى طريقة القدماء في التخلص من وصف الرحلة إلى المدح، فهو من قبيل الكلام العام المعروف الذي لا يرقى إلى مستوى الوصف العلمي المتاح في عصره.

1- جابر عصفور، مفهوم الشعر، م.س، ص 78

2- لا تتأبى القصيدة العربية القديمة بنائها المعروف على التحليل النصي، ولا تحدّ من إنتاجيته، لأن ظواهر الانسجام النصي في الشعر لها خصوصياتها البنائية والدلالية والتداولية. لمعرفة ما فات ابن طباطبا وهو معذور في ذلك بطبيعة الحال- ينظر التحليل النصي التالي، للتمثل والاستدلال: سعد مصلوح، نحو أجرومية للنص الشعري:

دراسة في قصيدة جاهلية، مجلة فصول، المجلد 10، العدد 1 و 2، يوليو - أغسطس، مصر، 1991، ص 151-166

3- ابن طباطبا، عيار الشعر، م.س، ص 115

إن تقديم آلية التخلص بهذا المستوى من الوصف والتأطير المعرفي هو الذي حملنا على التشكيك سابقا في استعمال ابن طباطبا للفظلة "تخلص" بوصفها مصطلحا بلاغيا يتحقق عبره ربط نصي قائم على آليات لغوية معينة.¹ وهو الذي يحملنا أيضا على أن نسائل أستاذنا الكبير جابر عصفور بشيء من التجرؤ، على وجهة أطروحته القائلة باستفادة ابن طباطبا من المعرفة الفلسفية في بناء نظريته النقدية حول الشعر العربي القديم، قائلين: إذا كان ابن طباطبا لا يستحضر المعرفة اللغوية النحوية والبلاغية على ضرورتها، ويوظفها في تنظيراته وتحليلاته. فأنى له أن يصنع مثل ذلك مع المعرفة الفلسفية، اللهم إلا إذا قصد بهذه المعرفة العفو من المفاهيم والاصطلاحات الشائعة عند عموم الناس؟²

يمكننا أن نعزّز الاعتراض المضمّر في هذا السؤال ، بمقارنة نجرها بين تصور ابن طباطبا الديدسويّ فيه بين الشعر والنثر، وتصور جمهور الفلاسفة المسلمين القدماء، الذي يفرق بينهما. فلا يسوغ لنا، إن نحن سلّمنا مع جابر عصفور وآخرين بتأثير الفكر الفلسفي في تصور ابن طباطبا لوحدة بناء القصيدة وترتيب أقسامها، أن نقتنع بوجود مثل ذلك التأثير في تسويته التامة بين النثر خطبا ورسائل، وبين الشعر، إذ لم يقل الفلاسفة المسلمون بذلك؛ لا متقدموهم، ولا متأخروهم. فالفارابي (260 - 336 هـ)، وهو معاصر لابن طباطبا يرى أن هناك فرقا كميا ونوعيا بين الخطابة والشعر في استعمال اللغة، وإن وجدنا في الشعر قدرا قليلا من الأقاويل الخطبية، وفي الخطب قدرا قليلا مماثلا من الأقاويل الشعرية.³

2.4- المنجز التطبيقي في "العيار" محكّا لتقييم التمثل النظري:

نريد تحت هذا العنوان أن نعمّق تحليلنا لأطروحة ابن طباطبا التي ابتدأناها في المبحث السابق المخصّص لرصد الوعي النظري بالظواهر النصّية عنده، والذي خرجنا منه بجملة استنتاجات، منها: أنه لم يبلغ في تحسّسه لهذه الظواهر ووعيه بكيفيات اشتغالها في النص الشعري القديم المستوى المتوقع منه، أي المستوى الذي كان يؤهله لبلوغه الأفق المعرفي للعصر. وقد تركّزت ملاحظتنا على مسألتين مهمّتين، هما غياب المصطلحات الراجعة إلى العلوم اللغوية، النحو والبلاغة خاصة، وإهمال الإحالة إلى مصادر المعرفة المستعان بها في التحليل، وعدم ذكر أعلامها.

¹ - ممن سبقه إلى تعريفه ثعلب (ت 191 هـ) الذي سماه "حسن الخروج"، وتلميذه ابن المعتز (ت 299 هـ) الذي قال عنه وهو يعرض لمحاسن الكلام: "ومنها حسن الخروج من معنى إلى معنى" (أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، ج1، مطبعة المجمع العلمي العراقي، د ط، بغداد، 1983، ص396)

² - لعل هذا ما عناه إحسان عباس عندما علّق على المسألة قائلا: "وكانت لديه إثارة من ثقافة فلسفية أو اعتزالية أفادته في تعميق نظريته عامة وإن لم تلبه أحكاما بعينها، كما أنها لم تمنح كتابه اتساقا في التوبيخ والتأليف، ولذلك جاء مقالة استطرادية في النقد معتمدة على صفاء الذوق الفني دون سواه" (تاريخ النقد الأدبي عند العرب، م.س، ص133)

3- ألفت كمال الروبي، نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين من الكندي حتى ابن رشد، دار التنوير للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 1983، ص 180 وما بعدها

إذا كانت هذه المسائل قد عري منها مؤلف ابن طباطبا في مواضع التنظير، فهل تراه يستدرك ذلك التقصير في مواضع التطبيق؟ من الناحية النظرية، نفترض أن ذلك متعذر، فإيراد التعاريف، والإحالة إلى الأعلام، والاستعانة بالاصطلاحات المعتمدة عند النحاة والبلاغيين وغيرهم، أولى بها المواضع المخصصة للتنظير. وهذا الافتراض الذي نصدر به تناولنا بالفحص والتحليل لنماذج من تطبيقات ابن طباطبا على ظواهر النص، تكشف لنا عنه الشواهد الشعرية التي جاءت في الكتاب تبيانا لما ظل يلجّ عليه ابن طباطبا من ضرورة إتقان بناء القصيدة، وحسن ترتيب أبياتها، وتنسيق قوافيها، وتجانس مصارعها، وصحة تأليف أجزائها، ولطف الصلة بين معانيها، وسلامة التخلص من غرض إلى غرض فيها، وغير ذلك من العبارات التي حشدها الكاتب حشداً، كان فيه من التكرار والاجترار ما لم يصف به شيئاً جديداً في وسط ونهاية كتابه، إلى ما استهل به في بدايته. وتأتي التطبيقات لتكشف لنا تفاوتاً آخر بين النزر القليل من الصواب النظري الذي اهتدى إليه، والإجراء التحليلي الذي انبثق عنه.

أول ملاحظة نبديها حول ذلك، ملاحظة منهجية، يظهر منها الاختلال الكبير الذي عاب الممارسة التطبيقية عند ابن طباطبا. فلأجل الاستدلال على الانسجام النصي في النصوص الشعرية، لا يعكف صاحب العيار على تحليل قصائد، أو مقطعات كاملة، بل يكتفي في الأغلب،¹ بالبيت والبيتين والثلاثة. وإذا أراد أن يبين اختلالاً في بناء مقطع شعري، أصدر حكماً غير معلل وراح يصحّح بناءه، ليخرجه من حالة الاختلال إلى حالة الاستواء والانسجام.

نستدل على الملاحظة الأولى بالنموذج التالي: "ونذكر الآن أمثلة للأشعار المحكمة الرصف، المستوفاة المعاني، السلسلة الألفاظ، الحسنه الديباجة، وأمثلة لأضدادها. ونبه على الخلل الواقع فيها..... وأمثلة لسنن العرب المستعملة بينها، التي لا تفهم معانيها إلا سماعاً، كإمسك العرب عن بكاء قتلاها حتى تطلب ثأرها، فإذا أدركته بكت حينئذ قتلاها. وفي هذا المعنى:

فليأت نسوتنا بوجه نهار"²

من كان مسرورا بمقتل مالك

ثم يورد عدداً من الأبيات المشابهة المتعلقة بسنن العرب، لينتقل بعد ذلك إلى عرض ما سماه "الأبيات المتفاوتة النسج"، فيقول: "فأما هذه الأبيات المستكرهة الألفاظ المتفاوتة النسج، القبيحة العبارة، التي يجب الاحتراز من مثلها فيقول الأعشى:

¹ - نقول في الأغلب، لأن الكاتب يستشهد ببعض القصائد، ولكنه لا يحللها، بل يكتفي بإصدار أحكام موجزة عليها، مثل قوله عن قصيدة للأعشى: "ومن الأشعار الغثة الألفاظ، الباردة المعاني، المتكلفة النسج، القوافي، المضادة للأشعار التي قدمناها، قول الأعشى:..." (ابن طباطبا، عيار الشعر، م.س، ص71) وبعد تقديم القصيدة، يعلق بعبارة موجزة، قائلاً: "فهذه القصيدة ستة وسبعون بيتاً التكلف فيها ظاهر بين إلا في ستة أبيات" (نفسه، ص76). ثم يعود لنقد الأبيات الستة التي استثناها، فيقول: "وفيها خلل ظاهر، ولكنها بالإضافة إلى سائر الأبيات نقية بعيدة عن التكلف." (نفسه، ص ن)

² - ابن طباطبا، عيار الشعر، م.س، ص37

وكم من ردّ أهله لم يرّم

أفي الطّوف خفت عليّ الردى

يريد لم يرم أهله

وكقول الراعي:

مضى غير مبهور ومُنصَلِّه انتضى

فلما أتاها حَبْرٌ بسلاحه

يريد: وانتضى منصله¹

واضح من الصورة التي عرضت فيها هذه الشواهد الشعرية، أنها بعيدة عن ملاءمة التحليل النصي الذي توهمنا بها عبارات وألفاظ ابن طباطبا الدالة على مظاهر الترابط النصي. وزيادة على ذلك يأتي عرضها خاليا من أي تعليل، تُستحضر فيه المفاهيم النظرية المؤطرة للتحليل، والتي يمكن للقارئ أن يرجع بها إلى مصادرها المنتمية لحقول التخصص المعرفي المناسب. فلا أثر هنا للحديث عن السبك بآلياته اللغوية النحوية، ولا للحبك بآلياته اللغوية الظاهرة في البنية السطحية، أو تلك المضمرة في البنية العميقة لنصوص الشواهد.

أما الملاحظة الثانية، فنستدل على وجاهتها بالمثال التالي:

"وينبغي للشاعر أن يتأمل تأليف شعره، وتنسيق أبياته، ويقف على حسن تجاورها أو قبحه فيلائم بينها لتنظم له معانيها، ويتصل كلامه فيها، ولا يجعل بين ما قد ابتداء وصفه وبين تمامه فضلا من حشو ليس من جنس ما هو فيه، فينسى السامع المعنى الذي يسوق القول إليه، كما أنه يحترز من ذلك في كل بيت، فلا يباعد كلمة عن أختها، ولا يحجز بينها وبين تمامها بحشو يشينها، ويفقد كل مصراع هل يشاكل ما قبله؟ فربما اتفق للشاعر بيتان يضع مصراع كل واحد منهما في موضع الآخر، فلا يتنبه على ذلك إلا من دقّ نظره ولطف فهمه. وربما وقع الخلل في الشعر من جهة الرواة والناقلين له فيسمعون على جهة ويؤدونه على غيرها سهواً، ولا يتذكرون حقيقة ما سمعوه منه، كقول امرئ القيس:

ولم أتبطّن كاعبا ذات خلخال

كأني لم أركب جوادا للذّة

لخيلي كربي كربة بعد إجفال

ولم أسبأ الرّقى الرويِّ ولم أقلّ

هكذا الرواية وهما بيتان حسنان، ولو وضع مصراع كل واحد منهما في موضع الآخر كان أشكل وأدخل

في استواء النظم فكان يروي:

¹ - نفسه، ص 44

لخيلي كرى كرى بعد إجفال

كأني لم أركب جوادا ولم أقل

ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

ولم أسبأ الزق الروي للذة

وكقول ابن هرمة:

وقدحي بكفي زنادا شحاحا

وإني وتركي ندى الأكرمين

وملبسة بيض أخرى جناحا

كتاركة بيضها في العراء

وقال الفرزدق:

سرابيل قيس أو سحوق العمائم

وإنك إذ تهجو تميمة وترثي

سراب أذاعته رياح السمائم

كمهريق ماء بالفلاة وغره

كان يجب أن يكون بيت لابن هرمة مع بيت للفرزدق، وبيت للفرزدق مع بيت لابن هرمة فيقال:

وقدحي بكفي زنادا شحاحا

وإني وتركي ندى الأكرمين

سراب أذاعته رياح السمائم

كمهريق ماء بالفلاة وغره

ويقال:

سرابيل قيس أو سحوق العمائم

وإنك إذ تهجو تميمة وترثي

وملبسة بيض أخرى جناحا¹

كتاركة بيضها في العراء

تذكرنا هذه الممارسة النقدية، القائمة على تصحيح أخطاء الشعراء، بإجراء مماثل كان يقوم به المبرد- وانفرد به- وهو تغيير الشواهد الشعرية لتخليصها من الضرورات الشعرية غير المقبولة في نظره.² هذا الإجراء الغريب من كل الوجوه، يهدر أبسط قواعد التعاطي مع نصوص هي ملك لأصحابها، من ناحية الإجراءات المنهجية المعتمدة في تحليل النصوص وتقييمها. غير أن الأهم في نظرنا هو أن ابن طباطبا عندما اعتمد هذا الإجراء وطبقه، ولم يبين لنا أصلا، أين يكمن الخلل في بناء نصوص الشواهد؟ ثم إنه لم يعلل التعليل العلمي المتعارف عليه، باستدعاء المعارف المقررة في الحقول المختصة، علم النحو، وعلم البلاغة، على الأقل. إنما صدر في تحليله، وما تبعه من تصحيح، عن انطباع وذوق شخصي، ربما يكون قد اتكأ فيه على معرفة حدسية غير متبلورة، وغير منضبطة مفاهيميا. يقول جابر عصفور معلقا على تصحيح ابن طباطبا لبيتي

¹ - ابن طباطبا، عبار الشعر، م.س، ص 129-130

² - المعري، عبث الوليد، ص 154، نقلا عن: السيد إبراهيم محمد، الضرورة الشعرية دراسة أسلوبية، دار الأندلس للطباعة والتوزيع والنشر، ط3، بيروت، 1983، ص 32

امري القيس: " والترتيب الجديد يمكن أن يكون متسقا على المستوى المنطقي الشكلي، ولكنه على المستوى الإبداعي يشوّه القصيدة ويقلّص دلالات التركيب المتعددة، ولست بحاجة إلى أن أقول إن ركوب الجواد للذّة يبيح للمتلقي ثراء في الدلالة يعكّر على ترتيب ابن طباطبا ويكشف عن فهمه الجامد للوحدة. ورغم أننا نقدّر لابن طباطبا إلحاحه على الوحدة، إلا أن إلحاحه -في نهاية الأمر- إلحاح على وحدة عناصر ثابتة، لا وحدة عناصر متفاعلة تتناغم بكيفيات يصعب على المنطق الشكلي حصرها أو إدراكها، وسنواجه هذا الفهم نفسه عند حازم"¹

3.4- قراءات المعاصرين لمنجز ابن طباطبا/ البحث عن مرجعية ابن طباطبا المعرفية:

اهتم قارئو ابن طباطبا المعاصرون من الباحثين في حقل نقد النقد، بالبحث عن مرجعيته المعرفية. هل كانت هذه المرجعية هي علوم اللغة، من نحو، وبلاغة، أم كانت مرجعية عقلية فلسفية منطقية؟ يكاد يقع الإجماع بين دارسي إسهام ابن طباطبا النقدي، على القول باتكائه على المرجعية الفلسفية العقلية، وإن بقدر قليل، وتنكبه طريق الاعتماد على مفاهيم اللغة والبلاغة، إلا ما كان منسجما مع المنظور العقلي الخالص. لذلك وجدناه يتصور التشبيه النموذجي في صورة المطابقة التامة بين المشبه والمشبه به،² ووجدناه يتصور الجمال الفني انطلاقا من نزعة حسية توحد إدراك جماليات الشعر، مع جملة الإدراكات الحسية، وقيم الحكم على ذلك كله على مبدأ الانتظام العقلي، بعيدا عن استحضار الآليات اللغوية من سبك وحبك وغيرها.

يفترض عز الدين إسماعيل أن هذه النزعة الحسية العقلية كانت منتشرة في عصر ابن طباطبا، ولا يستبعد أن يكون اطلع عليها وتبناها. ويقوم بمقارنة بين ما جاء في رسالة لابن سينا عنونها "البلاغة والخطابة" جمع فيها مؤلفها بين التذوق الفني الذي مادته المعنويات، وبين تذوق المحسوسات والاستمتاع بها.³ ثم أورد نصا لابن طباطبا يتضمن تقريبا الفكرة نفسها،⁴ وينتهي من ذلك إلى القول: "ومن هذا النص يتضح لنا مدى التشابه الذي نلاحظه في تفسير الجمال والقبح على أساس حسّي عند أولئك المفكرين وعند ابن طباطبا في كتابه النقدي. ومع ذلك فلسنا نريد أن نورط أنفسنا في القول بالتفاعل المباشر بين هذه الأفكار وتلك، وكفيينا من الملاحظة تسجيل هذا التشابه الواضح الذي لا يمنعنا من التماس أساس واحد له"

5

¹ - جابر عصفور، مفهوم الشعر، م.س، ص80

² - ابن طباطبا، عيار الشعر، م.س، ص23-32

³ - عز الدين إسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي عرض وتفسير ومقارنة، دار الفكر العربي، د ط، القاهرة، 1992، ص119

⁴ - ابن طباطبا، عيار الشعر، م.س، ص20

⁵ - عز الدين إسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي، م.س، ص122

المرجعية المعرفية عند طباطبا، إذن ليست علوم اللغة، بل تصورات فلسفية عقلية تندرج ضمنها النزعة الحسية التي تُقارَب في ضوءها كل العمليات الإدراكية، بما فيها تلقّي الشعر، باعتبارها سلوكا بشريا، يخضع للإدراك الحسي. وهذا ربما ما يفسّر ظاهرة غياب الإحالة إلى أعلام اللغة والنحو البلاغة، التي أشرنا إليها سابقا، واعتبرناها مظهرا من مظاهر تدني الوعي بالممارسة النصية عند صاحب "العيار".

لا يبتعد جابر عصفور عن طرح عز الدين إسماعيل السابق، فهو يتبنى في دراسته التي ذكرناها سابقا أطروحة انبناء مساهمة ابن طباطبا النقدية في كتابه "عيار الشعر"، على منطلقات عقلية فلسفية. فكما حاول عز الدين ربط تصورات ابن طباطبا حول تلقّي الشعر ومعايير تقبله بالثقافة الفلسفية الرائجة في زمنه، فإن عصفور يعمد هو الآخر إلى مقارنة تصوير عملية تلقّي الشعر بوصفها مماثلة لأي عملية إدراك حسي أخرى، بقول للسرخسي (ت 283 هـ) يرى فيه "أن سرعة الطرب بالغناء دليل على جهل السامع بما سمع وقلة معرفته"¹، ليصل من تحليله المسهب لهذه المسألة إلى استنتاج صاغه في العبارة التالية: "ومهما يكن من أمر، فإن الإلحاح على انتظام القصيدة له ما يدعمه في المفاهيم الفلسفية المترجمة عن أفلاطون وأرسطو. ذلك أن أفلاطون أبرز التشابه بين وحدة الكلام والوحدة العضوية في الأحياء، وأكد أن وحدة الكلام تشبه وحدة الكائن الحي سواء بسواء. وقد تابع أرسطو التشبيه الأفلاطوني، فتحدث عن وحدة "الجميل" في الفن والحياة باعتبارها نظاما فائقا بين العناصر، يختل إذا نقل عنصر من موضعه أو حذف من سياقه"²

يتضح من فحص الخبرة الذي أفادنا به علّمان من أعلام قراءة الموروث النقدي المعاصرين، أننا نكون قد سرنا في المسار الصحيح عندما تبيننا فرضية تدني درجة الوعي بالظواهر النصية عند ابن طباطبا، في النظرية والتطبيق، واستدللنا على صحتها أولا، بخلو الكتاب من الإحالة إلى مصادر المعرفة اللغوية وأعلامها، وغياب المصطلحات المعتمدة عند أهل الاختصاص، واقتصار المؤلف على تعيين الظواهر النصية-إن كان قد قصدها بالبحث- بواسطة الألفاظ والمفردات العادية. ثم ثنينا بتقديم رأيين معاصرين، اتفقا على أن النظر للانسجام في النص الشعري، وتصور وحدته، قائم على تصور فلسفي عقلي، يسوي بين مجمل المدركات، ولا يخصّ المدرك اللغوي الأدبي بأي تحليل، بله أن يخصّ به اللغة الشعرية. وهذا ما تنبّه إليه باحث معاصر وهو يعلق على العلاقة المشوهة التي تصورها ابن طباطبا بعقله الفلسفي، بين النثر والشعر، هذا التعليق الطريف: " وهذا موقف عقلي لا يميّز بين الشعر والنثر إلا بالوزن وإلا كيف تولد القصيدة في ذهن الشاعر نثرا ثم ينظمها وهل سمع ابن طباطبا عن امرئ القيس مثلا أنه كان يمخض المعنى في ذهنه نثرا وهل سمع مثل

¹ - جابر عصفور، مفهوم الشعر، م.س، ص75

² - نفسه، ص78-79

هذا عن غير امرئ القيس من كبار الشعراء. والحقّ إن صح مخض المعنى في الذهن نثرا فإنه لدى الشعراء الصغار الذين ليسوا شعراء. إن الشاعر الحق لا يمخض المعنى نثرا في ذهنه، بل إنه إزاء تجربة لا يستطيع نقلها وتوصيلها إلى الآخرين إلا الشعر، فمنذ أن يطرق المعنى الشعري ذهن الشاعر الحق، لا يكون إلا شعرا¹

5. خاتمة:

نأتي في ختام هذه المداخلة، إلى تلخيص ما انتهينا إليه من أحكام تضمنتها تحليلاتنا لمجمل ما طرحته مقارنة ابن طباطبا النقدية لقضايا الترابط النصي في الشعر العربي القديم، فنقول:

- إن تدني مستوى الوعي بالظواهر النصية عند ابن طباطبا، مردّه إلى غلبة المرجعية الفلسفية، على بساطتها وضعف تأثيرها، على المرجعية اللغوية؛ النحوية والبلاغية. وهذا ما تجلّى في خلو "العيار" خلوا يكاد يكون تاما من الإحالة إلى مصادرها المعروفة، وأعلامها المشهورين، مخالفا بذلك تقليدا نجده عند جمهور النقاد القدماء. وحتى حين نسلم بوجود تأثير فلسفي في أطروحاته، فإن ذلك التأثير لا يتعدى العفو من المفاهيم والتصورات.

- إن ابن طباطبا لم يأت على ذكر أية آلية من آليات الترابط النصي اللغوية، لفظية أو دلالية، باستثناء "التخلص" الذي تصوره في شكله المنطقي، لا في شكله اللغوي، إذ لم يصف التعريف به لديه شيئا إلى ما قاله القدماء. وجاء تطبيقه عليه خاليا من أي وصف علمي لمظاهر الاستواء أو الاختلال، أو تعليل لأحكام الاستحسان والاستبدال.

- عكست تطبيقات ابن طباطبا بوضوح تام تدني مستوى الوعي النظري بالظواهر النصية لديه، فلم نره يقول شيئا ذا بال مما يتصل بالتحليل النصي في أبسط مستوياته، عندما يعرض القصائد الكاملة، إذ كان يكتفي بإصدار الحكم إيجابا أو سلبا، ولا يُعقب ذلك بأي تحليل، أو تعليل. أما تحليله للأبيات القليلة، فقد عابه التعسف والاعتباطية، فهو يتوهم اختلالات في بناء الأبيات، لا وجود لها، ويقوم بتصحيحها تصحيحا، أقل ما يوصف به، أنّه غريب وغير متعارف عليه.

مصادر البحث ومراجعته:

1. الأمدي، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحثري، ج1، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، ط4، القاهرة، 1992.

¹ - سعيد عدنان، الاتجاهات الفلسفية في النقد الأدبي، دار الرائد العربي، ط1، بيروت- لبنان، 1987، ص53

2. إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الثقافة، ط4، بيروت .لبنان، 1983
3. أحمد مطلوب، اتجاهات النقد الأدبي في القرن الرابع الهجري، وكالة المطبوعات- الكويت، ط1، بيروت، 1973.
4. أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، ج1، مطبعة المجمع العلمي العراقي، د ط، بغداد، 1983.
5. الأخضر جمعي، اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب- دراسة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، د ط، دمشق، 2002 .
6. ألفت كمال الروبي، نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين من الكندي حتى ابن رشد، دار التنوير للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 1983.
7. إمبرتو إيكو، العلامة: تحليل المفهوم وتاريخه، ترجمة: سعيد بنكراد، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت – الدار البيضاء، 2007.
8. تون أ. فان دايك، علم النص مدخل متداخل التخصصات، ترجمة وتعليق: سعيد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب، ط1، القاهرة، 2001.
9. جابر عصفور، مفهوم الشعر، الهيئة العامة للكتاب، ط5، القاهرة 1995.
10. جمال الدين بن الشيخ، الشعرية العربية، ترجمة مبارك حنون وآخ، دار توبقال للنشر، ط1، الدار البيضاء، 1996.
11. خليل الموسى، وحدة القصيدة في "عيار الشعر"، مجلة التراث العربي، مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، العدد 18، كانون الثاني، دمشق، 1985.
12. ديكرو، أوزوالد - شافار، جان ماري، المعجم الموسوعي الجديد في علوم اللغة، ترجمة عبد القادر المهيري- حمادي صمود، ، المركز الوطني للترجمة، دار سيناترا للنشر، د ط، تونس، 2010.
13. روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة: تمام حسان، عالم الكتب، ط1، القاهرة، 1998.
14. رولان بارت: قراءة جديدة للبلاغة القديمة، ترجمة: عمر أوكان، إفريقيا الشرق، د.ط، الدار البيضاء، المغرب، 1994.
15. سعد مصلوح، نحو أجرومية للنص الشعري: دراسة في قصيدة جاهلية، مجلة فصول، المجلد10، العدد1 و2، يوليو - أغسطس، مصر، 1991.

16. سعيد حسن بحيري ، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، مكتبة لبنان ناشرون-الشركة المصرية العالمية للنشر لونغمان، ط1، بيروت-القاهرة، 1997.
17. سعيد عدنان، الاتجاهات الفلسفية في النقد الأدبي ، دار الرائد العربي، ط1، بيروت- لبنان، 1987.
18. السيد إبراهيم محمد ، الضرورة الشعرية دراسة أسلوبية، دار الأندلس للطباعة والتوزيع والنشر، ط3، بيروت، 1983.
19. طباطبا (ابن) ، عيار الشعر، شرح وتحقيق، عباس عبد الساتر، الدار العلمية للكتب، ط1، بيروت- لبنان، 1982.
20. عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، ط2، طرابلس – ليبيا، 1986.
21. عز الدين إسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي عرض وتفسير ومقارنة، دار الفكر العربي، د ط، القاهرة، 1992.
22. محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية – تأسيس "نحو النص"، ج1، سلسلة: اللسانيات، المجلد: 14، جامعة منوبة – كلية الآداب، المؤسسة العربية للتوزيع، ط1، تونس، 2011.
23. محمد العمري البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، د ط، 1999.
24. محمد حماسة عبد اللطيف، في: النحو والدلالة/ مدخل لدراسة المعنى النحوي-الدلالي، دار الشروق، ط1، القاهرة، 2000.
25. محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى تحليل الخطاب، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء- بيروت، 1991.
26. محمد زغلول سلام: تاريخ النقد الأدبي والبلاغة حتى القرن الرابع الهجري، منشأة المعارف جلال حزي وشركاه، د ط ،الإسكندرية، مصر، دت .
27. محمد زكي العشماوي، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، دار النهضة العربية، د ط، بيروت، 1979.
28. محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، د ط، القاهرة، 1996.
29. مصطفى ناصف، نظرية المعنى في النقد العربي، دار الأندلس، د ط، بيروت-لبنان، دت.

30. يوري لوتمان، تحليل النص الشعري "بنية القصيدة"ترجمة: محمد فتوح أحمد، دار المعارف، د ط، القاهرة، 1995 .

31. يوسف حسين بكار، بناء القصيدة في النقد العربي القديم (في ضوء النقد الحديث)، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، بيروت، 1982.

دور السياق من خلال آيتي الدين والرهان

د. محمد خليفاتي

جامعة يحي فارس المدية الجزائر

ملخص:

ارتبط السياق في آيتي الدين والرهان بوحدة معنوية خاصة، تمثلت في ضبط المدائنة، ووجوب كتابتها، وكيفية إجرائها، والأطراف الفاعلة فيها، والضامنة لها من كتبة وشهود.

وقد تعاضدت جملة من العوامل طبعت السياق بطابعه الخاص في أطول آية في القرآن الكريم، من سياق عام سابق، كان مطية للسياق الخاص، والمتمثل في كليات السورة العظمى، من أحكام ومعاملات، ثم السياق الأقرب، النهي عن الربا، ثم السياق الأخص، المتمثل في البيوع والرهان، وحكمها، وكيفية إجرائها، بما يضمن حقوق جميع أطراف العملية.

Abstract :

The Context in the Koran is very important to understand the meanings and to derive legislative provisions. One of the factors of this context is the correlation of the Qur'anic meanings to each other, using language tools, as well as the non-linguistic context.

In the verses of *Debt and Betting* (المراهنة الدين) the Qur'an speaks about various issues Which relate to this subject, and branch to other topics of transactions and provisions of sale , betting and others.

The purpose of this paper is to study the importance of the context in understanding meanings by studying these two verses.

الموضوع:

السياق من تساوقت الإبل إذا تدافعت، وانسأقت وتساوقت، إذا تتابعت¹ وفي حديث أم معبد (فجاء زوجها يسوق أعزنا عجافا ما تساوق)².

وقد جاء مفهوم السياق، في معنى الظرف الخارجي، يرادفه في التراث العربي كل من المقام والحال والموقف، كما يتسع مفهوم السياق ليشمل ما يعرف في الدراسات اللغوية الحديثة، بـسياق النص (verbal context) وسياق الموقف، أو المقام الخارجي³، وهو ما يعرف بـ context of situation .

والسياق، إما أن يكون لغويا، وهو المستفاد من العناصر اللغوية، والسياق الخارجي المقامي، المستفاد مما هو ليس بلغوي. وعليه، يكون السياق ممثلا في :

- ما يحيط بالوحدات اللغوية المستعملة في النص⁴.

¹ - أحمد بن فارس، معاني اللغة، ج:3- 117

² - ابن منظور، لسان العرب، طبعة بيروت، ج:10- ص:166

³ - عبد الفتاح عبد العليم البركاوي، دلالة السياق، بين التراث وعلم اللغة الحديث، جامعة الأزهر، دت، ص:30

⁴ - المرجع نفسه، ص 45.

- قيود التوارد (المعجمي) التي تُراعى عند استعمال أكثر من وحدة لغوية، ومثاله في العربية إستعمال لفظ (أشهب) مع الخيل، و(أملح) مع الغنم، و(الأزهر) مع الإنسان.
- الأحوال الخارجية، التي لها علاقة بالنص.
- نص لغوي يتسم بسعة نسبية، ويؤدي معنى متكاملًا، سواء كان ذلك النص مكتوبًا، أو مشافهة.
هذا عن السياق باختصار، وسنتناول السياق في آيتي الدين والرهان، مركزين على السياق اللغوي، وما يؤديه من دلالات، لها علاقة بالأحكام والتشريع.

السياق غير اللغوي لآيتي الدين والرهان

القرآن يفسر بعضه بعضًا، وهو كل متكامل. ولكن بعض المعاني والموضوعات، لا تُذكر فيه إلا مرة واحدة، أو لا تذكر إلا عرضًا في موقف، وتُفصّل في موضع آخر، حسب المقاصد والغايات، والسُرّ في ذلك راجع إلى مقصد السورة العام، وموضوعها الخاص، وهذا الذي نجده في سورة البقرة جملة، وفي آيتي الدين والرهان موضوع الدراسة، تفصيلاً. حيث نجد قصة البقرة لم ترد إلا في هذه السورة.

يقول توفيق محمود في ذلك (قصة البقرة، وكذلك قصة هاروت وماروت، وقصة تحويل القبلة، وفريضة الصيام، وبيان أحكامها، وقصة طالوت وجالوت، وقصة الذين خرجوا من ديارهم، وهم ألوف حذر الموت، وقصة الذي حاجَّ إبراهيم في ربه، وقصة الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها)¹. فسورة البقرة جاءت حاوية للكليات العامة، وضمت أصول علاج مشكلات الإنسان بما يتعلق بالعقيدة والشريعة والمعاملات².

ونزلت بعد إستقرار المسلمين في المدينة، وحين عنّ للمجتمع الجديد مشكلات خاصة بالمعاملات والتشريعات، والبيوع، والعقود.

وقد قسّم العلماء سورة البقرة حسب مضامينها، فكانت هذه السورة على طولها تتألف وحدتها من مقدمة وأربعة مقاصد، وخاتمة³.

المقدمة. من الآية الأولى إلى الآية العشرين، وذلك للتعريف بشأن القرآن الكريم، وبيان ما فيه من هداية.

المقاصد الأولى: من الآية الواحدة والعشرين، إلى الآية الأربعين، ويتمثل في دعوة الناس كافة إلى الإسلام، وإن اختلفت الأساليب والحجج.

المقصد الثاني: من الآية الواحدة والأربعين، إلى الآية الثانية والستين، ومضمونه دعوة أهل الكتاب خاصة إلى ترك المظالم، والدخول في دين الحق الإسلام.

المقصد الثالث: من الآية مائة وثلاث وستين إلى الآية مئة وثلاث وثمانين، عرض لفحوى الدين الإسلامي من نواح شتى.

الفصل الرابع: من الآية مائتين وخمس وثمانين، إلى الآية: مائتين وست وثمانين، بيان خاتمة الذين استجابوا لله، في العبادات والمعاملات.

علاقة الآيتين بالمقصد الأعظم

يلاحظ أن أخطر الموضوعات، هي تلك التي تكون فيها العلاقة بين العباد، لأنها المحكّ لإيمان الإنسان واستقامته، إذا كان يراعي الله في سلوكه ومعاملاته، ويؤدي واجباته تجاه العباد، كما أمره خالقه، فكانت الآيتان تبينان حقوق الغير، وكيفية معاملة الناس، و أداء حقوقهم، خاصة في الدين والرهان، وما يتعلق بهما من كتابة وتوثيق، وشهود، وما يجب أن يفعلوه، وما الشروط التي يجب توفرها فيهم، تأهبلًا لهم، وذلك حفظًا للحقوق، وإحقاقًا للعدالة.

¹ - محمود توفيق، منهج البحث البياني عن المعنى القرآني في سياق السورة، مطبعة الأخوة الأشقاء، مصر

² - الدكتور محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن الكريم، دار الثقافة، الدوحة، 1405هـ ص:163

³ - نفسه

فالدائن يجب أن يلتزم بما يُمليه عليه الشرع، في المحافظة على حقوقه دون إعنات، ولا إشتطاط، والمدين يجب أن يؤدي ما أئتمن عليه من حقوق الغير وأموالهم، حتى لا تَهْتَرِ الثقة بين الناس، فيبطل تبادلُ المصالح التي هي أساس استمرار الحياة، ومنطلق التعاون والتعارف، وحتى لا يلحق الضررُ فئةً ذاتَ احتياج فعلا.

كما أن للشهود دوراً خطيراً في حفظ حقوق كل من الدائن والمدين، فهم يعدلهم وإنصافهم حفظُ الحقوق، وبشهادتهم التي يجب ألا يعترها مُعتر، وألا يشوبها شائب، وذلك لكون مخافة الله دليلهم لأداء الأمانة، وإتيان الشهادة على حقيقتها. أما الكاتبُ فهو المؤتمن على الحقوق، فلا يُضارُّ من قبل أصحاب الحقوق، بإرغامه على ما لا يستطيع، وهو أيضا فلا يضارُّ غيره تعسفا وتهربا وتماطلا، إذا ما دُعي للكتابة والتوثيق.

لماذا كانت آيتا الدين والرهان آخر سورة البقرة؟

يلاحظ أن آخر السورة كان خاصا بالتشريع الذي يُرسي قواعد سلوك المعاملات وإجراء العقود بين المسلمين أنفسهم، وبينهم وبين غيرهم ممن يُساكنهم ويُتاجرهم ويُبايعهم، ويُراهنهم كاليهود، فجاءت هاتان الآيتان ختاماً لأطول سورة، بعدما كانت النفوس قد هدأت، وأصول التوحيد تأصلت، والعبادات قد تمكنت من النفوس، من صلاة وصيام وحج وجهاد¹

السياق العام للآيتين

لآيتي الدين والرهان سياق عام، وسياق خاص، أما العام فهو ذلك الذي له علاقة بموضوعات السورة الواردة، والأغراض التي ترومها، ثم لها علاقة بالسياق القرآني العام أيضا. حيث تتجه الآيتان إلى كيفية تنظيم العلاقات الإنسانية في كل زمان، بما يحفظ حقوق الناس، ويضمن التوافق في التعامل والبيع، وإبرام العقود، وخاصة الديون والرهن، وهذا السياق هو الذي يتناول القضايا الكلية، حيث يرى الباحثون أن أثره في النظم أعمق، وكان فقهه أخفى، وإدراكه أعمس، لأن تحديد مقاصده أصعب، ومن هنا قلَّت الدراسات التي تتناول السياق الكلي العام، سواء كان ذلك في الجزء، أو الكل²

سبب النزول

إذن، السياق الذي جاءت فيه آيتا الدين والرهان، سياق مفعم بالخشية والتحذير، والتخويف من مغبة سلوك طريق الكسب الحرام، سبقه تحبيب الرزق الحلال، والترغيب في الكسب المشروع، البعيد عن الربا، الذي له آثار مدمرة، وتبيان خطورته، على الأفراد والمجتمع، وما يثيره من أحقاد، وما يسببه من أكل أموال الناس بالباطل، وتغوُّل فئة محتكرة للمال الذي جعله الله دولة بين الناس، لتبادل المنافع، وقضاء الحاجات، والإنفاق في أوجه البر والإحسان، ﴿وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾ [البقرة: 272] ﴿وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم﴾ [البقرة: 273] وبعد تحبيب الإنفاق، والحث عليه، كان التحذير، والنهي عن الربا المدمر للعلاقات الإنسانية، الباعث لطبقة طفيلية مستغلة، تنخرُ كيان المجتمع في صميمه (اقتصاده) ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين﴾ [البقرة: 272] ثم كان الوعيد بمغبة الخاتمة إن لم يستجيبوا لداعي الله، فينبذوا الربا، وكأن ترك الربا، مقياس لصدق الإيمان، في هذا المقام ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ في هذا السياق، وبعد ترسيخ قواعد التوحيد، وتفصيل مبادئ شريعة الإسلام³ وتبيان ما للناس من حقوق وواجبات، وبعد أن تهيأت النفوس، جاءت آيتا الدين والرهان.

معجم الآيتين

الدين: عبارة عن معاملة، كان أحد العوضين فيها نقدا، والآخر في الذمة نسيئة، فإن العين عند العرب ما كان حاضرا، والدين ما كان غائبا⁴

¹ - سعيد جمعة، من بلاغة القرآن الكريم، في آيتي الدين والرهان. مكتبة الآداب، القاهرة، ط:1-1425هـ/2004ص:16

² - منجج البحث البياني عن المعنى القرآني، في سياق السورة: 57

³ - من بلاغة القرآن، مرجع سابق: 39

⁴ - المرجع نفسه 33

القرض: نوع من السلف، وحكمه الجواز بالسنة والإجماع، وقيل هو كل ما يُضمن بالمثل عند الاستهلاك¹ السَّلْم: بالتحريك، السلف، وأسلم في الشيء، وسلم، بمعنى واحد. وهو أن يعطى ذهباً وفضة في سلفة معلومة، إلى أمد معلوم، فكأنك أسلمت الثمن إلى صاحب السلفة وسلمته إليه² السلف: القرض الذي لا منفعة للمقرض فيه³

وفضلاً على ما ذكر، فإن المعجم زاخر بما له علاقة بالبيع والدين، وما يتعلق بهما من توثيق، وكتابة وشهود. من مثل: تداينتم- بدين هذا جناس مغاير، أجل مسعى، أكتبوه، وليكتب، كاتب، ولا يأب كاتب أن يكتب، ولئيملل، ولا يبخص، فليملل وليه، واستشهدوا شاهدين، ولا يأب الشهداء، ولا تسأموا أن تكتبوه، إلى أجله، فرهان مقبوضة، وأشهدوا إذا تبايعتم، ولا يضار كاتب ولا شهيد، فرهان مقبوضة، فليؤد الذي أؤتمن أمانته، فهذا جناس مغاير، ولا تكتموا الشهادة.

السياق وأثره في تحديد عناصر الموضوع:

ذكرنا أن للآيتين سياقاً عاماً يندرج ضمن مكونات السورة، وضمن الكليات العامة، التي تحفظ العلاقات الإنسانية، وتصون حقوق العباد، لتتيح استمرار تبادل المنافع، بما يحقق المبدأ الاجتماعي المدني، مبدأ التعارف (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) ومبدأ العدل وحسن الجوار (ولا تظالموا) وحفظ الأموال وإنفاقها في أوجه البر والإحسان، من ذوي النفوس السوية، والعقول الرشيدة (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم) (ولا تأكلوا أموالكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام)

ثم كان السياق الخاص، الذي يبين ماهية البيع والرهان، وكيفي إجرائهما وملاستهما، وما يترتب على الإخلال بمقتضاهما. أما من حيث الألفاظ الواردة في الآيات فقد جاءت متناسقة، ذات حقل دلالي متجانس ذي سياق موحد، لا يخرج عن المدائنة، وشروط إجرائها، وكيفية التصرف في إتمامها، والأطراف التي يجب أن تُجرى بها، وما يجب فعله بما يضمن الحقوق وما يترتب على تفعيلها وفق ما أمر الله به.

وفي هذا الشأن نجد أن الدين قد تكرر ثلاث عشرة مرة، إما بلفظه، وإما بالإحالة، ومنه:

(تداينتم - بدين- فاكتبوه- الحق {الذي عليه الحق} الضمير {ولا يبخص منه} فإن كان الذي عليه الحق {أي المدين} أن تكتبوه {الضمير} صغيراً، أو كبيراً {الصفة} إلى أجله {الضمير} رهان مقبوضة في حالة عدم وجود الكاتب، أمانته {أي دينه})

1-السياق الشرطي:

الخطاب في الآية الكريمة موجّه للمؤمنين لتنظيم حياتهم الاقتصادية، حقوقاً وواجباتٍ. حتى يُصلح وضع شاداً جائراً، كان قائماً قبل الإسلام، والتمثل في الربا، وما له من أضرار، على الأفراد والمجتمع، فكان أسلوب الشرط لتبيان كيفية الإجراء، حفظاً لحقوق المدين، الذي قد يعتريه معترٍ، يحول دون الدفاع عن حقوقه، كما قد تُهضم حقوق الدائن، فكانت الكتابة إبعاداً لكل ظلم محتمل، وسداً للذرائع، وحفظاً لحقوق كل الأطراف.

ومن أساليب الشرط التي وجّهت السياق وجهة خاصة، قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه﴾ فالفعل (تداينتم) ماضي الصيغة، مستقبل الزمن، بدليل أكتبوه. ودلّ على وجوب كتابة الديون في كل وضع، وأنه ليس خاصاً بظرف محدود، بل هو مطلق، والدليل على ذلك، كون جواب الشرط جاء أمراً (فاكتبوه) على سبيل الإلزام والاستمرار.

ومنه قوله تعالى ﴿فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يملأ فليملأ وليه بالعدل﴾ [البقرة:282] الآية الكريمة تستشرف الأحداث، وتفترض ما يمكن وقوعه، لتعطي حلولاً دقيقة ناجعة، تمنح أطراف الدين مجالاً للتصرف السليم، وتقيمهم ورتات المستجدات فأحياناً يكون المدين (الذي عليه الحق) ناقص أهلية، مبذراً، أو يكون صبيهاً، أو شيخاً هرمًا، أو أخرس، لا يستطيع أن يملأ، أو عيباً، أو به عجمة، لا يستطيع أن يبين، ولا أن يملأ بنفسه، ففي هذه الحال ينوب

¹ أبو عبد الله بن أحمد المقدسي، المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل. دار الفكر بيروت، 1405-ج:5720

² الفيرروز آبادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة.

³ صلاح الدين الهواري، المعجم الوسيط، دار البحار بيروت. د.ت. 820

عنه وليه في الإملاء، بالعدل من غير نقص، فكان جواب الشرط ﴿فليممل وليه بالعدل﴾ بالمضارع المجزوم بلام الأمر، (فَلْيُمْلِلْ) للوجوب، واستغراق الزمن المستقبلي، أي كلما عنت حالة مما ذكر، فهي هو التصرف الذي يجب أن يُسلك. ومن دور الشرط في بناء السياق الخاص لأبي الدين والرهان، قوله تعالى حاثا على إقرار الحقوق بالشهادة العينية، بين طرفي المعادلة التي يكون الشهاداء طرفا ضامنا فيه لحقوق الطرفين، فلا ضَرَر ولا ضِرار، ولكن قد لا يكون الشاهدان حاضرين أثناء كتابة العقد، أو غاب أحدهما، أو أصابه مكروه، فمنعه عن أداء الشهادة، ففي هذه الحال، يُعوَّض بامرأتين، ممن يوثق بدينه، وتقبل شهادته، والحكمة في ذلك، المحافظة على الحقوق، والحرص على أداء الأمانات، إذ المرأة لكثرة إنشغالها، وتنوع مسؤولياتها التي تتطلب حضورا دائما، ذلك قد يُنسها ما هو جانبي وعرضي في حياتها، فلا بأس من أن يكون لها من يعضدها في الشهادة، فيذكرها إن نسيت. ﴿فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهادة﴾ [البقرة: 282] فرجل: خبرٌ لمبتدأ محذوف، والتقدير: الشَّهَدَاءُ في هذه الحال: رجلٌ وامرأتان. والجملة الاسمية من المبتدأ المحذوف، وخبره، في محل جزم، جواب الشرط.

وحرصا على أداء الشهادة كاملة، دون زيادة أو نقص، لما لها من دور في حفظ حقوق جميع الأطراف، فقد شدد القرآن الكريم على أدائها، في أي ظرف أحتيج إليها، وجاء ذلك بأسلوب الشرط، الذي خُذف جوابه، لدلالة ما قبله عليه، والتقدير على الأصل: أي إذا دعوا إلى الشهادة، فلا يأبوا تحملها، نظرا لخطورة الموقف، وما يترتب عليها إيجابا وسلبا، فقد تُهضم حقوق، فتكون أحقاد، وربما إقتتال، ولهذا كان لزاما على الشهود تلبية الدعوة إذا ما دعوا إلى ذلك. قال تعالى ﴿ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا﴾

ومن شواهد الشرط الموطَّنة للسياق الداعمة له، ما جاء تأكيدا لوجوب إجراء الشهادة العينية في المعاملات التجارية، خاصة البيوع، حفظا للحقوق، وتسيلا للمعاملات، نظرا لما تشيعه شهادة الشهود من ثقة متبادلة، واطمئنان، قال تعالى: ﴿وأشهدوا إذا تبايعتم﴾ (إذا) هنا شرطية، وفعل الشرط (تبايعتم) دل على المشاركة في الحدث، إذ الكل معني ومنتفع، لتبادل المصالح، فللبائع مقابل، والمشتري بائع، وهذا له علاقة سياقية بالحديث الشريف (البيعان بالخيار) وجواب الشرط محذوف دل عليه ما سبق، وكل ذلك يدعم سياق مجريات الدين والرهان، من وجوب الكتابة وتبيان كيفيةها، ثم وجوب الإشهاد، ونوعية الشهود، ومواطن الشهادة، من الدين والرهان، إلى البيوع.

وفي سياق الدين، ووجوب توثيقه، وتبيان أوجه إجرائه، والبيوع، والشهادة عليها، كان التحذير منه تعالى لمن لم يأخذ بالأوامر الربانية المشرعة، ولم ينته بما جاء من نوايا زاجرة، قال تعالى ﴿وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم﴾، أي إن فعلتم ما نُهيتم عنه، من عدم الإلتزام بالعقود والتوثيق بالكتابة، والشهود، فقد فسقتم، لخروجكم عن طاعة الله¹.

وفي سياق الدين وكتابته، والإجراء الخاص بتوثيقه، فإن النص القرآني يشرِّع للعام المطرد، ولكنه لا يُهمل الاستثنائي الطارئ، وفي هذا السياق، بين توجهها سديدا يحل ما أُشكل حالة عدم وجود الكاتب، كما هو الشأن في السفر، ففي هذه الحال، يُلجأ إلى ما يحفظ حقَّ الدائن والمدين كليهما، قال تعالى ﴿وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة﴾.

فالسباق خاص بحفظ حقوق جميع الأطراف، في الديون والبيوع والرهان. والجملة الشرطية هاته، كانت في هذا السياق، تبين وضعا قد يُفتقد فيه الكاتب، مثل حالة السفر، إذا ما اضطرَّ الطرفان إلى المداينة لحاجتهما إلى المال، ولكن لم يجدا (كاتباً) وهي قراءة الجمهور، فجاء جواب الشرط لبيان المخرج الضامن للحقوق، والمتمثل في الرهان (فرهان مقبوضة) رهان: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: فالوثيقة رهان، أو مبتدأ، خبره محذوف، والتقدير: فرهان مقبوضة، تستوثقون بها.

وهناك قراءة مخالفة لتخرج قراءة الجمهور للفظ (كاتباً) فقرأ بعضهم (ولم تجدوا كتاباً) أي مدا، أو رقعة أو قلما، مع وجود الكاتب² ففي هذه الحال، يكون الضمان الرهان المقبوضة.

¹ - محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، دار القرآن الكريم، بيروت، ط: 4-1981/1402-م: 10: ص: 178.

² - أبو جعفر الطبري، تفسير الطبري، دار المعارف، ج: 6: ص: 64.

نلاحظ أن السياق اللغوي كله يصب في الموضوع الإجراء، وتبيان ما يجب فعله واتباعه في توثيق العقود. ولكن، حتى تبقى الثقة بين الأطراف، وتطمئن النفوس، كان على المدين التحلي بالأمانة، وإخلاص النية في إرجاع ما عليه من دين، قد دَفَع من أجله رهانا، حينها، إذا تأكد للدائن صدقُ المدين، يمكنه الاستغناء عن الرهن، ثقة بأمانة صاحبه، وهذا لتلطيف أجواء الأخوة والثقة بين الطرفين (فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذي أؤتمن أمانته وليتق الله ربه) وفي إطار السياق الخاص للآية أيضا، كان ختام ما يضمن الالتزام بما جاء من أوامر ونواه، وإباحات، في مجال التوثيق والمعاملات الضامنة للحقوق، فكانت الآية الكريمة التي تحثُّ على الشهادة الصادقة، التي هي إقرار من الشهود بحقيقة ما وقع فعلا، وذلك حفظا للحقوق، فكان النهي عن كتم الشهادة، ثم الوعيد، والحكم على جاحدها بالإثم، وجاء ذلك في أسلوب شرطي، جوابه جملة إسمية، لتقرير الحكم وتوكيده (ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه أثم فليه) يلاحظ أن الشرط قد سبق بنهي، لخطورة كتم الشهادة، ذلك لما يترتب عليه من هضم حقوق الناس، وبعث العداوة بين المتعاملين، وفقدان الثقة، وتقلص تبادل المنافع والتعاون بين الناس. (ولا تكتموا الشهادة) ثم بعد النهي مباشرة، جاء الشرط المبيِّن لمآل الكاتم، والحكم الذي يطأله من ربِّ العالمين (ومن يكتمها- الإحالة بالضمير (الهاء) في (يكتمها) أي الشهادة، فقد تغير الإسناد لخطورة الجرم، وشناعة السلوك، إذ الكاتم لا يعد أثما بشخصه فحسب، بل قلبه، والفرق شاسع بين الإسنادين، فبالإسناد إلى الكاتم، يكون أقلَّ شناعة، لأن الإثم حينها يكون سلوكا، وبالإسناد إلى القلب، يكون جرما، لأنه دل على الإصرار والتعمد، والاعتقاد، لكون القلب - في الاعتقاد- سلطانَ الجوارح، ومصدر كل إحساس. (ألا في الجسم مضغة إذا صلحت، صلح الجسم كله، وإذا فسدت فسد الجسم كله/ ألا وهي القلب)¹

فالحكم في جملة جواب الشرط جاء بجملة إسمية مؤكدة بأنَّ للتقرير، وخبر إن إسم فاعل (أثم) دال على الاستمرار، ودوام الحكم الذي يستحقه. ولو قيل: فإنه أثم، بالماضي لما كان للحكم وقعه في النفوس. (فإنه أثم قلبه) فاعل لإسم الفاعل (أثم) وهو مضاف، (ه) الهاء: مضاف إليه ضمير إحالة على القلب الأثم.

واستنتاجا لما تقدم عن دور الشرط في بناء السياق الخاص، لآية المدائنة، أنه حدد أطراف المعاملة، وبين كيفية الإجراء، وكيفية حفظ الحقوق بالكتابة والشهود، وما السلوك الذي يُتَّبَع حين إنتفاء شروط الكتابة، ومتى يُعدَّل عن الكتابة إلى الرهان.

2- السياق من خلال أفعال الأمر

يلاحظ أن سياق آيتي الدين والرهان، يتطلب القيام بأفعال معينة، والإمساك عن أفعال أخرى، تمشيا مع مقاصد الآية في البيع والرهان، والتوثيق، والإشهاد، ولهذا كانت أفعال الأمر كثيرة (أحد عشر فعلا) ومتنوعة الصيغة، إما بفعل الأمر، وإما بالمضارع المجزوم بلام الأمر.

وأول هذه الأفعال، الأمر بتدوين الدَّين، حالة وقوعة، وقد جاء هذا حفظاً للحقوق، وإرشاداً منه تعالى بكتابة المعاملات المؤجلة، ليكون ذلك أحفظ، وأوثق لمقارها، وميثاقها² وفي هذا جاء قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه) فالفعل (فَاكْتُبُوهُ) كان أمرا حقيقيا على وجه الإلزام، وجاء الأمر في جواب الشرط، بمعنى ما يكون تبايع، إلا وتكون كتابة، وهذا لحفظ حق كل طرف، وحتى لا تتسلل معاملات الربا.

ودوما في سياق التداين، وإجراءاته، جاء الأمر بالمضارع المجزوم بلام الأمر، عضداً لوجوب الكتابة، وإلزاما لإجراءاتها ميقاتا، دون تأخير (ولِيَكْتُبَ بينكم كاتب بالعدل) يلاحظ لطيفة إحترازية، في قوله (بالعدل) فلم جاء شبه الجملة هذا؟ وذلك لتبيان الحال التي يجب أن يُكتب وفقها العقد، أي (عادلا) دون تحريف، أو تحيز لطرف، فمن سياق الحال، يتبين أن كتابة العقود، والبيوع والديون، تتطلب علما خاصا، وفقه البيوع وكيفية إجرائها.

¹ - رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه: 28

² - صفوة التفاسير، الجزء الأول: 177

يلاحظ أن الإتساق جاء بتكرار فعل الكتابة، وما كان في معناها، حضاً على وجوب التدوين، وتأكيداً لصون حقوق العباد، وفي سياق وجوب الكتابة، وتبيان كيفيةها جاء قوله تعالى (ولا يَأْبُ كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب) نلاحظ دعم السياق بالتكرار (كاتب، أن يكتب، فليكتب) وذلك لخطورة الموقف، وجلال الأمر.

ثم جاءت أفعال في معنى الكتابة، ولها علاقة بالسياق الخاص بالمداينة، وكيفية إحقاقها، منها (وليملل) (فليملل) فالإملا، يتوجب الكتابة، ومن ثم، كانت صورة ثانية للكتابة.

ومن أفعال الأمر الواردة في سياق المداينة، لإتمام حيثياتها، وخاصة جانب التوثيق في باب الشهادة، قوله تعالى (واستشهدوا شهيدين من رجالكم) فالأمر للوجوب، أي أطلبوا مع الكتابة أن يشهد لكم شاهدان من المسلمين، ولهذا كان شبه الجملة (من رجالكم) بمعنى لا يكونان من غير المسلمين العدول.

وفي سياق خطورة الشهادة، فقد جاء الأمر حاثاً عليها، لإحقاق البيوع، وضمان الحقوق (وأشهدوا إذا تبايعتم) ومفعول أشهدوا محذوف، دل عليه السياق، لأنه لا يشهد إلا مسلم عدل، ثم هناك علّة حذف المفعول، وذلك لعموم الأمر بالإشهاد، سواء كان البيع ناجزاً، أو بالدين، لأنه أضمن، وأبعد عن النزاع والاختلاف.

وفي السياق المقالي نفسه، نجد الأمر تحذيراً من مغبة الحيف، أو الانحراف، لأكل أموال الناس بالباطل، في الدّين والبيوع، من ذلك قوله تعالى (واتقوا الله) والخطاب لعموم المسلمين، ويُسْتَقَى منه الخصوص، أي أطراف الدين والبيوع، وكذا الشهود، وكُرِّرَ فعل التقوى أمراً، موجهاً للمؤتمن الذي عليه الدين، ليؤدّيه إلى صاحبه وليحذّره، إذا ما خالف أمره تعالى، ولم يسدّد ما عليه، تحايلاً وتماطلاً.

ولإفهام السياق الخاص بوجوب الكتابة، وتأدية الشهادة، وإحقاق العدل من كل الأطراف، وعلمهم، كُرِّرَ فعل التقوى أمراً، للوجوب، وتحذيراً للمؤتمن الحيف، (فليؤد الذي أؤتمن أمانته وأيتي الله ربّه) يلاحظ أن الأمر قد جاء بصيغة المضارع المجزوم بلام الأمر، (فليؤد، وأيتي) لإلزام طرف العملية (الغائب ضميراً) الفاعل حقيقة (الذي أؤتمن) واجب الأداء، وأمر الإلتقاء، جَمَعَ - تهويلاً وتحبيبا - بين الاسم الجليل (الله)، والصفة الجميلة الربوبية- ربّه الواقعة بدلا) وذلك مبالغة في التحذير¹ فكيف بالمؤتمن لا يراعي الله ربّه في تأدية أمانته؟

3- السياق اللغوي من خلال أسلوب النهي

المعروف، أن للنهي في العربية أسلوباً واحداً، يجرى عليه، ويتمثل في الفعل المضارع المسبوق بلا الناهية، وقد يأتي بذكر الفعل ينهاكم، ومثل قوله تعالى (إنما ينهاكم الله على الذين قاتلوكم في الدين) الممتحنة:9 وقوله: وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى) النحل: 9 وقوله: (ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد) النساء:171

ومن أمثلة النهي الواردة في آيتي الدّين والرهان، قوله تعالى في نهي الكاتب عن التراخي، أو التماطل، أو رفض دعوة الأطراف المتداينة والمتبايعة لكتابة الدين في حينه (ولا يَأْبُ كاتب أن يكتب كما علمه الله) نهي مطلق للكاتب عن الإمتناع إذا ما دُعي، ولتأكيد فعل الكتابة، كُرِّرَ، مرة باسم الفاعل، على التنكير تعميماً، وشمولية للحكم (كاتب) ومرة بالمضارع المنصوب على الاستقبال والدوام (أن يكتب) ثم حيلة في الحذر من الانحراف، زادت الآية تنويراً وتنبيهاً للكاتب (كما علمه الله) وفي سياق وجوب إمتثال الكاتب لدعوة الأطراف، كان النهي منه تعالى للكاتب عن الحيف، أو إبخاس أحد الطرفين حقّه، قال (ولا يبغض منه شيئاً) فزيادة على الأمر بوجوب الكتابة في حينها، كان النهي تحذيراً من إنقاص أي جزء مهما كان، عند الكتابة والتوثيق.

وفي سياق التداين، والحث على التوثيق، كان النهي للطرف الرابع الضامن لمصالح الطرفين، ونقصد به الشهداء، فالنهي كان بالأداة نفسها، وبنهي الفعل ذاته(ولا يَأْبُ

للإشراك في الحكم ذاته، فكما لا يجوز للكاتب أن يمتنع عن الكتابة، إذا ما احتيج إليه، فكذا الحكم بالنسبة للشهداء الذين كانوا ضامنين لحظة التبايع، أو التداين(ولا يَأْبُ الشهداء إذا ما دعوا)

¹ - صفوة التفاسير، م:1-179

وفي سياق الحث على وجوب كتابة الدين، مهما كان، وعدم التراخي في ذلك، والتحجج بقلة مقداره، لأن العبرة في تفادي ما يثيره من تناحر، وعداوة، بسبب عدم توثيقه إلى أجله فتسوء العلاقات بين الأفراد، وتترزع الثقة، وتتعطل المصالح. (ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله) وكيفية الإنجاز، وعلة ذلك.

يلاحظ أن السياق الخاص بأية المداينة، ربط بين كل الأطراف، وحدد مسؤولية كل طرف، وأبان كيفية الإنجاز، وعلة كل سلوك، وإن كان قد شدد على الكاتب والشهيد، وأمرهما أن يلبيا الدعوة، ونهاهما عن أي إبخاس لأحد الطرفين، وأي انحراف عن جادة الصواب، فإنه أي السياق، أنصفهما، ونهى عن إعناتهما، والإضرار بهما، حالة تأدية واجبهما، إذ لا ضرار ولا إضرار، فجاء أسلوب النهي في السياق الخاص بالآيتين منصفاً لهما، قال تعالى ﴿ولا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾

فالفعل المضارع المُنهي ب(لا) يحتمل صيغتين: يُضَارَّ بتضعيف الراء، وبناء الفعل للمجهول، وفي هذه الحال، يكون النهي لأصحاب الحق، حتى لا يشتموا في إستغلال المنصب والحاجة، للإضرار بالكاتب والشهيد، ففي كل مرة يدعوتهما لأبسط الأمور، فذلك يضر بهما، ويعطل مصالحتهما، فهذا إنصاف لهما.

أما الصيغة الثانية، فبتخفيف الراء، والجزم بالسكون الظاهر ﴿فلا يُضَارُّ، كاتب ولا شهيد﴾ ففي هذه الحال، النهي موجه للكاتب والشهيد كليهما، نهياً لهما عن إستغلال حاجة الأطراف إليهما، فيشتطآن عند دعوتهما، ويماطلان، فيعطلان مصالح المتدائنين والمتبايعين.

خُتمت الآية بالنهي عن كُثم الشهادة نهياً مطلقاً، لأن في ذلك أكلاً لحقوق الناس، وإسقاطاً لديونٍ دون وجه حق، وتعطيلاً للشرع. ﴿ولا تكتموا الشهادة من يكتمها فإنه أثم قلبه﴾

4- أوجه السياق في الآية: يلاحظ أن السياق الذي طبع الآية الكريمة كان سياقاً مقيداً، بالصيغ المختلفة أساليب، المتجانسة مقصداً، المؤدية لغرض الخاص بالمضمون، الملخص في وجوب كتابة الديون، وتوثيق البيوع، وكيفية الإجراء، وشروطه، وحيثياته، وتمثلت القيود فيما يلي:

- إطار أساليب الأمر والنهي، والشرط¹

هذا الاختلاف في نوع الأساليب، يدل على تنوع القيود، ووجود عوائق، وشروط، لإتمام البيوع والمعاملات، والرهان، حيث لا يتم تعامل بدين يرضاه الإسلام، إلا بعد إتمام الشروط، والامتنال للأوامر، واجتناب النواهي²

- أجاز الإسلام المداينة، ما لم يكن هناك مانع، ولكن لا يتم الدين، إلا وفق شروط خاصة بنوع المال، وبكيفية الإجراء، حفظاً للحقوق، فإن إختل الوضع، أو لم يلتزم أحد الأطراف بما عليه، تعدد تحقيق الغاية، وضاع المقصد الإنساني المدني، في تبادل المنافع، وتحقيق غاية التعارف الرباني لتعارفوا، ولهذا كثرت القيود اللغوية من شرط وأمر ونهي.

- إن أخطر العوامل المدمرة، هي تلك التي تخرب العلاقات الإنسانية، وتفك أو اصر الأخوة، وتحل عُرى الثقة، وتتجسد في المعاملات، وأشدُّ هذه المعاملات خطورة، ما تعلق بالأموال والديون، التي إن لم تُصنَّ وتسدَّد، تترك في النفوس أحقاداً، وتؤثر العلاقات بين الشركاء والأقارب، وتزرع العداوة والبغضاء، لذا كانت القيود في آيتي الدين والرهان كثيرة، تشديداً على أطراف العملية، حفظاً للحقوق، وسداً للذرائع، واستشرافاً لما قد يعين.

-السياق من خلال مسوغ الاستثناء:

إن كثرة قيود الشرط والأمر، والاستثناء، تقييداً لعملية البيوع والديون، وتشدُّد في الإجراءات، حرصاً على المقاصد العظمية للإنسان، فإن الآية إستثنت مواقف وسلوكات، رأت فيها خيراً لمختلف أطراف العملية، فكان الإستثناء مسوغاً للإباحة والتسهيل، من ذلك ﴿إلا أن تكون تجارة حاضرة﴾ هذا مسوغ لعدم الكتابة. لأن التجارة الحاضرة ليست من جنس الدين، ولهذا كان الإستثناء منقطعاً، ومن ثم فالتجارة الحاضرة ليس مطلوباً كتابتها. فسياق التحديد بالإستثناء بيّن الحالة التي

¹ - بلاغة القرآن، سعيد جمعة، مرجع سابق:47

² - نفسه.

يُستثنى فيها من الكتابة، ولأن التجارة تتطلب تحركا، وبيعا، لحاجة الناس إليها، ولو أشرط فيها الكتابة، لتضرر الناس، ولتعذرت المعاملات الآنية، الإحتياجية.

التكرار ودوره في تماسك بنية الآية

لاحظ أن سياق الآية إستلزم عدة آليات ليين المواطن التي يجب فيها التدوين، وتقييد الدين، وكيفية إجراء الكتابة، وشروطها، وصفات الكاتب، والحالة التي تستثنى منها الكتابة، وكان للتكرار دور في تماسك النص وفي إتساقه أيضا. من ذلك مادة (كتب) وما تفرع عنها من أفعال وصفات ومصدر، وكل ذلك يصب في المنحى الخاص لكيفية إجراء المدائنة، وتبيان حيثياتها

من توثيق وإشهاد، من ذلكم (فاكتبوه- لوجوب تدوين الدين صغيرا، أو كبيرا- ولا يَأْبُ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ، نلاحظ ورود ثلاث كلمات – وإن اختلفت صيغا: إسم فاعل بالتنكير، لشيوع العموم، ثم الفعل المضارع المقترن بأنْ لِإستغراق المستقبل، فالمضارع المجزوم بلام الأمر للوجوب، والحث، وعدم التراخي، ثم الفعل المضارع المجزوم بلا الناهية، تحذيرا، ونهيا عن السأم والملل من كتابة الدين، مهما كان ضئيلا، بعدها إستثناء للتجارة الحاضرة، أي البيع الحاضر، فلا يكتب: فليس عليكم جناح ألا تكتبوها. ولم تجدوا كاتبا، إسم فاعل بالتنكير، تعبيرا عن عدم وجود الكاتب أثناء السفر، أو وجود الكاتب، وافتقاد أدوات الكتابة.)

يلاحظ دور التكرار في توجيه سياق النص الخاص بالمدائنة، وتحديد أطرافها وكيفية إجرائها، وورود مادة كتب وما تفرع عنها من ألفاظ، طبعت النص بطابع متجانس، لم يحد عن السياق العام، بله الخاص.

ومن أمثلة التكرار العاضد لسياق النص، ما جاء عن الطرف الضامن لأطراف المعاملة. قوله (واستشهدوا شاهدين من رجالكم- ففعل الأمر- إستشهدوا على وزن إستفعلوا، للطلب، أي أطلبوا شاهدين عند المبايعة، ثم ذكر المفعول: شهيدين للتحديد والتعيين، والمفعول من جنس الفعل تكرارا. ثم كررت مادة -شهد- عدة مرات لوجوب الشهادة، وتأديتها كاملة، منها: (ولا يَأْبُ الشَّهَدَاءُ – وأقوم للشهادة- وأشهدوا إذا تبايعتم- ولا يضار كاتب ولا شهيد – ولا تكتموا الشهادة.)

يلاحظ أن تكرار مادة (شهد) كان كله في سياق المدائنة وكيفية إجرائها، والشهود باعتبارهم أطرافا ضامنة، وأكسب مضمون الآية جدية، وأخطورة الموقف في البيوع والرهان، إذ المعاملات المالية والاقتصادية، من أخطر المعاملات.

يتبين مما سبق تناوله، أن النص كان وحدة معنوية، ذات سياق موحد، كان للوحدات المصرفية والمعجمية والنحوية دور كبير في تشكيل السياق الخاص للآية، حيث حدد موضوع النص المغلق، والمتمثل في المدائنة، وأطرافها، وكيفية إجرائها، ودور الطرف الضامن المتمثل في الشهود، وواجب الأداء الملزم لهم، في كل حال، حتى لا تعطل مصالح الناس، كما شددت على وجوب كتابة الديون في كل حال، حفظا لحقوق المتدينين، وترشيدا للمعاملات التجربة الاقتصادية، حتى يكون مجتمعا متكاملا في تبادل المصالح، ليتحقق مبدأ التعارف الإنساني ﴿وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا﴾.

المراجع:

القرآن الكريم

- ابن منظور، لسان العرب، طبعة بيروت
- أبو عبد الله بن أحمد المقدسي، المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل. دار الفكر، بيروت، 1405 هـ.
- أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت.
- سعيد جمعة، من بلاغة القرآن الكريم، في آيتي الدين والرهان. مكتبة الآداب، القاهرة، ط:1- 1425 هـ/ 2004
- صلاح الدين الهواري، المعجم الوسيط، دار البحار بيروت. د.ت
- الفيروز أبادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة.
- عبد الفتاح عبد العليم البركاوي، دلالة السياق، بين التراث وعلم اللغة الحديث، جامعة الأزهر، د.ت
- محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن الكريم. ، دار الثقافة، الدوحة، 1405 هـ
- محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، دار القرآن الكريم، بيروت، ط:4-1402/1981
- محمود توفيق، منهج البحث البياني عن المعنى القرآني في سياق السورة، مطبعة الأخوة الأشقاء، مصر

تَرْجِيحاتُ الإمامِ السَّهيليِّ النَّحويَّةُ في كتابِهِ (نتائجُ الفِكرِ)

في ضَوْءِ النَّظريَّةِ اللِّسانيَّةِ

Grammatical Weightings of Imam Alsahli in his book (NataeijAlfikr)

In terms of Linguistics Theory

د. نواف بن أحمد بن عثمان حكيمي

جامعة نجران، المملكة العربية السعودية

ملخص:

درس هذا البحث ترجيحات الإمام السهيلي في كتابه (نتائج الفكر) وفق الرؤية اللسانية الحديثة، في مسعى منه إلى استجلاء الصورة العلمية التي انطلق منها في التعاطي مع القضايا اللغوية، والمسائل النحوية التي تقتضي شيئاً من الترجيح، معتمداً على التفسيرات الدلالية في المنهج اللساني، ومتحرراً في بعض الأحيان من بعض القيود التي فرضتها الصبغة التراثية القديمة. وقد تبين من خلال هذه الدراسة أن الألسنية الحديثة هي امتداد بشكل أو بآخر للعلوم العربية بمستوياتها المختلفة في العصور المتقدمة، وإن كان ثمة اختلاف فهو في المنهجية التي تضبط انتظام اللغة، وكيفية إنشاء الشكل النحوي والإمام السهيلي يُعدُّ ظاهرة في التجديد النحوي منذ ذلك الزمن؛ إذ الناظر في ترجيحاته يجد أنها تتماشى كثيراً مع العقلية اللسانية، والسمات الأساسية لها.

الكلمات المفتاحية: الإمام السهيلي ومنهجه النحوي، نتائج الفكر في النحو، التعليل النحوي عند السهيلي .

Abstract:

This research discussed the Grammatical Weightings of Imam Alsahli in his book (NataeijAlfikr) according to the modern linguistic theory in order to highlight the academic base when dealing with language issues and the morphological cases that require weighting. He depended on the semantic interpretations in the linguistic method. In some cases, he freed himself from limits imposed by old heritage traditions. Through this study, it is found that modern linguistics are in a way or another an extension of Arabian sciences with different levels in the advanced ages. If there is any difference, it will be in the method that controls the language and how to structure grammar properly. In fact, Imam Alsahli considered a phenomenon in morphology renewal, whereas reviewers view his weightings as they are complying with linguistic mentality and its basic features.

Keywords: Imam Alsahli and his grammatical method, Intellectual results in grammar, grammatical modifications by Alsahli.

إن دراسة الأصول النحوية والقواعد الترجيحية في إطار الألسنية يجعلنا نعيد بناء ما حصلناه من معارف حتى وإن كانت تراثية صرفة وكأننا ننتبه إلى أشياء جديدة أغفلناها في قراءتنا اللسانية السابقة، وانطلاقاً من ذلك يحدد اللساني جملة من المقاييس المنهجية التي تضبط النحو، وتحدد صيغته الأنسب لدراسة انتظام اللغة⁽¹⁾، وهدف اللساني البحث عن كيفية إنشاء الشكل النحوي، وصوغ قوانين تضبط العناصر المعجمية من خلال التجريد والنماذج التي يصطنعها المنهج اللساني، ويهدف البحث إلى إعادة قراءة فكر السهيلي⁽²⁾ في الترجيح قراءة لسانية؛ لاستجلاء الصورة العلمية التي انطلق منها السهيلي في استخدام الترجيح بوصفه منهجاً لغوياً، ويحاول البحث الكشف عن الأسس التي بنى عليها السهيلي ترجمته، وهل الترجيح في فكر الرجل قائم على أسس ثابتة أم متغيرة؟ فقد يكون قائماً على الخفة والتمكن، أو على قوة الكلام وصحته، أو على نسبة الورد في الأصول النحوية، أو على القرب والبعد من القياس والعلل النحوية. وقد استطاع السهيلي بطريقته لتناول المسائل النحوية أن يسهل عملية التعلم والتعليم والتوصيل، وهذا هو هدف اللسانيات الوصول إلى نحو كلي عام.

وتأتي هذه الدراسة في مهاد نظري وأربعة مباحث وخاتمة، يتناول المهاد النظري عرضاً موجزاً لتعريف الترجيح، وتدرس المباحث الأربعة مصطلحات الترجيح عند السهيلي، وترجيح رأيه وفق معايير لسانية، والاعتماد على التفسير الدلالي في الترجيح، وأسس الترجيح عند السهيلي، ثم تأتي الخاتمة عرضاً وتلخيصاً لنتائج البحث .

حدّ التَّرجيح

الترجيح في اللغة يُقال: "رَجَحَ الشَّيْءُ يَرْجُحُ وَيَرْجُحُ وَيَرْجُحُ رُجُوحًا وَيَرْجُحًا وَيَرْجُحًا وَيَرْجُحًا، وَرَجَحَ الْمِيزَانَ يَرْجُحُ وَيَرْجُحُ وَيَرْجُحُ رُجْحَانًا: مال"⁽³⁾. ويعرفه الأصوليون بأنه: "تقوية أحد الطريقتين على الآخر ليعلم الأقوى فيعمل به ويترجح الآخر، وإنما قلنا طريقتين؛ لأنه لا يصح الترجيح بين أمرين إلا بعد تكامل كونهما طريقتين، لو انفرد كل واحد منهما، فإنه لا يصح ترجيح الطريق على ما ليس بطريق"⁽⁴⁾.

والمراد به عند النحاة: وقوع الرجحان بين الأدلة المتعارضة⁽⁵⁾، يقول الأنباري: "اعلم أن الترجيح يكون في شيئين: أحدهما النقل والآخر القياس، أما الترجيح في النقل فيكون في شيئين: أحدهما الإسناد والآخر المتن"⁽⁶⁾.

(1) Chomsky . Syntactic Structures , la haye, 1975 , trd .fr . Structures syntaxiques ,paris , le Seeuil , 1969 p 55 .

(2) هو: عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن الحسن الخثعي، السهيلي، المالقي أبو القاسم أو أبو الحسن، إمام اللغة والنحو، وصاحب الاختراعات والاستنباطات، مع فطانة فائقة وشهامة زائدة. اتصل خبره بصاحب مراكش قطلبه إليها وأكرمه . سمع "كتاب سيبويه" وغيره على ابن الطراوة، وتخرج على أبي بكر بن العربي، وله تأليف جلييلة منها "الروض الأنف" وكتاب "نتائج الفكر" . مات بمراكش سنة ثمان وثمانين وخمسائة . انظر الترجمة في كتاب البلغة في تراجم أئمة النحاة واللغة، للفيروز آبادي، دار سعد الدين، ص 181، 182 .

(3) انظر لسان العرب لابن منظور، دار صادر بيروت 1956 م، 445/2 .

(4) انظر المحصول لفخر الدين الرازي، مؤسسة الرسالة 1997م، 397/5 .

(5) انظر الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية لأبي البقاء الكلوي قابله على نسخة خطية وأعدده للطبع ووضع فهرسه د / عدنان درويش، محمد المصري - مؤسسة الرسالة - ط 2 1993 م ص 424 .

(6) انظر الإغراب في جدل الإعراب الأنباري وبلغ الأدلة في أصول النحو، تج سعيد الأفغاني - مطبعة الجامعة السورية 1957 م ص 65، 67 .

المبحث الأول: مصطلحات الترجيح عند السهيلي

تنوعت ألفاظ الترجيح عند الإمام السهيلي التي تنم على رجاحة عقله فيستعين بهذه الألفاظ بعد عرض التساؤل والإجابة المعتمدة على الأصول النحوية، ومن هذه المصطلحات والتصريحات التي تشير إلى الترجيحات ما يلي: والقول السديد والله المستعان⁽¹⁾، والذي نشير إليه من ذلك ونؤثره ما اختاره شيخنا⁽²⁾، أعم من الذكر وأبلغ⁽³⁾، فأبي تباين في المعنى أعظم من هذا لمن أنصف⁽⁴⁾، قول صحيح في صناعة النحو ولا يلتفت إلى غيرها⁽⁵⁾، والحكمة فيه عندي⁽⁶⁾، الأمر فيها عندي⁽⁷⁾، والصحيح⁽⁸⁾، والصحيح⁽⁸⁾، وأصح من هذا كله عندي⁽⁹⁾، وقف على هذا الأصل تهتد إلى سواء السبيل⁽¹⁰⁾، ولكن النفس إلى نصرة سيبويه أميل⁽¹¹⁾، فالأحسن أن تأتي بالكلام على أصله⁽¹²⁾، وإلى هذا القول أذهب⁽¹³⁾، ولم يبعد عن الصواب من عوّل عليه⁽¹⁴⁾، فالقول إذًا ما قاله الخليل⁽¹⁵⁾، فقف على هذا الأصل تحكم جميع هذا الفصل⁽¹⁶⁾، فقف على هذا الأصل تلح لك أسرار كثيرة⁽¹⁷⁾.

ونلاحظ بصفة دائمة . خلال عرض الآراء والترجيح . يختم كلامه بما ينم عن أخلاقه وخشية ربه فيما يقوم بترجيحه، ومن ذلك على سبيل المثال : والله أعلم⁽¹⁸⁾، والله المستعان⁽¹⁹⁾، وبالله التوفيق والموفق⁽²⁰⁾، والله المسدد للمقال، والموفق لصالح الأعمال⁽²¹⁾، والله الموفق لما يؤلف لربه⁽²²⁾.

المبحث الثاني:ترجيح رأيه وفق معايير لسانية

لقد تعامل السهيلي مع كثير من المسائل النحوية وفق معايير لسانية والتي تهتم بدور الوحدة المعجمية في البنية العميقة والسطحية، وناقش المسائل وفق الأصول النحوية معتمداً على التفسير الدلالي في عملية الترجيح . والسمات الأساسية في المنهج اللساني التوليدي التحويلي تقوم على الأصل والفرع، ومعالجة الوحدات المعجمية داخل إسقاط الجملة

(1) نتائج الفكر ص 35.

(2) المصدر السابق ص 40.

(3) المصدر السابق ص 44.

(4) المصدر السابق ص 47 وانظر ص 226.

(5) المصدر السابق ص 51.

(6) المصدر السابق ص 66.

(7) المصدر السابق ص 77.

(8) المصدر السابق ص 63، 69، 95، 324.

(9) المصدر السابق ص 179.

(10) المصدر السابق ص 93.

(11) نتائج الفكر ص 185.

(12) المصدر السابق ص 217.

(13) المصدر السابق ص 180.

(14) المصدر السابق ص 220.

(15) المصدر السابق ص 302.

(16) المصدر السابق ص 314.

(17) المصدر السابق ص 320.

(18) المصدر السابق ص 316.

(19) المصدر السابق ص 68.

(20) المصدر السابق ص 69، 75، 80.

(21) المصدر السابق ص 99.

(22) المصدر السابق ص 108.

بين التوليدية والتحويلية لفهم المحتويات الدلالية لكل وحدة، ويثبت الباحث إدراك السهيلي للبنية العميقة في التفسير الدلالي لكل وحدة وإدراكه لكل المحتويات الدلالية من خلال اعتماده على الأصول النحوية المختلفة، ومن ذلك على سبيل المثال: ما جاء في مسألة عمل المفعول لأجله، فقد قال: "لم يعمل الفعل فيه بلفظه، ولكنه دل على فعل باطن من أفعال النفس والقلب، أثار هذا الفعل الظاهر وصار ذلك الفعل الباطن عاملاً في المصدر الذي هو المفعول من أجله في الحقيقة، والفعل الظاهر دال عليه"⁽¹⁾، وفي موضع آخر يشير إلى أن المعنى "القائم في النفس والغائب عن الحواس تكشفه للمخاطبين خمسة أشياء: اللفظ، والخط، والإشارة، والعقد، والنصب، وهي لسان الحال، وهي أصدق من لسان المقال"⁽²⁾.

وهناك إشارات فكرية كثيرة تبين الإدراك اللغوي واللساني عند السهيلي، فقد نجده يقوم بتحليل الأصوات والوحدات المعجمية من منطلق الفكر اللساني الحديث فنجده يقوم بالتقطيع والاستبدال والتحليل - كما هو معروف في المنهج التوليدي التحويلي - فيبدأ التحليل من المنطلق اللساني قبل ترجيح رأيه، ومن ذلك على سبيل المثال حديثه عن (هذا) وأثبت السهيلي بأن الذال وحدها هي الاسم، مخالفاً بذلك بعض البصريين⁽³⁾.

ويلاحظ على السهيلي أنه طرح كثيراً من المسائل وفق المنهج العلمي اللساني من خلال تساؤلات مطروحة، والاستعانة بالأصول النحوية المختلفة؛ تمهيداً للترجيح فيستعين بأراء العلماء وأهل الصنعة⁽⁴⁾، ثم يذكر رأيه ويرجحه، ومن ذلك على سبيل المثال: ما جاء في مسألة علامات الإعراب، وقد رجح بأنها حروف إعراب، فقال: "والأمر فيها عندي أنها علامات إعراب، وليست حروف إعراب، والمحذوف منها لا يعود إليها في الإضافة"⁽⁵⁾.

وذهب إلى أن عامل النصب في الاسم المتقدم عامل معنوي، فيقول: "ومما انتصب؛ لأنه مقصود إليه بالذكر (زيداً ضربته) في قول النحويين، وهو مذهب شيخنا أبي الحسين"⁽⁶⁾. وما ذهب إليه من قصد هو الاهتمام، وتؤيده الدراسات اللسانية⁽⁷⁾، فالاسم المتقدم هو البؤرة التي تشير إلى المكون الحامل للمعلومة، وأنه محل عناية واهتمام، فالسهيلي يميل إلى التفكير في البنية العميقة للبنية السطحية، ويفكر في الأثر المحذوف بقوله: "لا يبعد عندي قول النحويين أنه مفعول مقدم.. فليس تقديمه على الفعل العامل فيه بأبعد من حذفه"⁽⁸⁾.

ويمكن تمثيل الجملة لسانياً بالمشجر الآتي :

(1) المصدر السابق ص 303 ، 304 .

(2) نتائج الفكر ص 98 .

(3) المصدر السابق ص 177 .

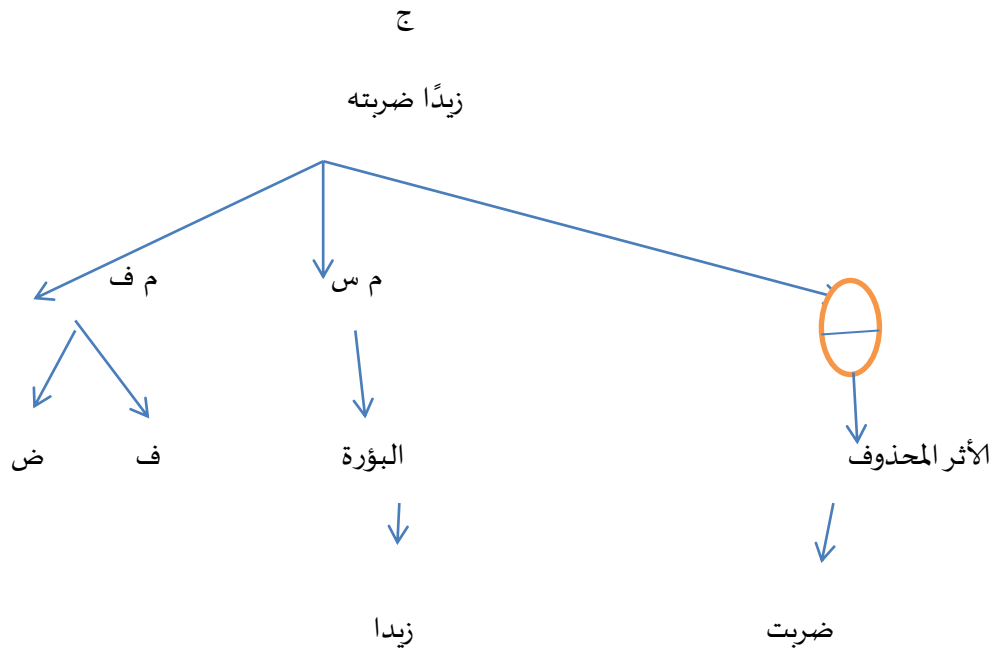
(4) انظر على سبيل المثال : نتائج الفكر ص 68 .

(5) المصدر السابق ص 77 .

(6) المصدر السابق ص 57 .

(7) انظر الوظائف التداولية في اللغة العربية د / أحمد المتوكل ص 21 .

(8) نتائج الفكر ص 57، 58 .



ومن القضايا التي عالجها السهيلي وفق منهج علي لساني قضية العامل، فهي مبنية على اللفظ والمعنى عند السهيلي، ولم يذهب مذهب ابن مضاء القرطبي المعاصر له، وتعامل الإمام مع العامل بشكل علي موضوعي حيث أطلق عليه السبب⁽¹⁾، وهذا ما ذهب إليه تشومسكي في نظرية الربط العاملي⁽²⁾، وقد راعى السهيلي التفسير الدلالي في بيان الحروف العاملة والأفعال، ويقوم الترجيح على أسس لسانية منطقية يوافق عليها العقل، فيقول: "وحق العامل أن لا يكون مهيئاً لدخول عامل آخر، كيلا يفضي الأمر إلى التسلسل المستحيل عقلا وأصلاً"⁽³⁾.

ومن المسائل التي ناقشها وفق المنهج العقلي اللساني لترجيح رأيه مسألة الاسم والمسمى، فقد وافق السهيلي منهج أهل السنة والجماعة وأهل اللغة، فيقول بلهجة المهكم: "كيف لا يستحي من عرف هذا من مذهب النحويين أجمعين ومن مذاهب العرب، ثم يخبر عن أحد منهم بأن الاسم هو المسمى، وما أشار إلى ذلك نحوي قط ولا اعتقده عربي، ألا ترى أنهم يقولون: أجل مسمى، ولا يقولون: أجل اسم، ويقولون: هذا رجل مسمى يزيد، ولا يقولون: اسم يزيد، وتقول: باسم الله، ولا تقول: بمسمى الله"⁽⁴⁾. وبالنظر إلى تحليله وفق الأصول النحوية المختلفة، نجده يعرض الفروق عرضاً لسانياً، فيقوم بتحليل الوحدة المعجمية صوتياً وصرفياً ودلالياً، ثم يتطرق إلى الوحدة المعجمية داخل إسقاط الجملة من خلال الأصول التي اعتمدها في عرض رأيه، ويثبت بتحليله رأيه ومخالفة الاسم المسمى، فقد تطرق السهيلي للوحدة من ناحية الشكل والمضمون، ولجأ إلى التفسير الدلالي في البنية السطحية؛ ليثبت الاختلاف بين الوجدتين (الاسم والمسمى) ويتعجب السهيلي

(1) نتائج الفكر ص 64 قال: "الإعراب لا يكون إلا بعامل وسبب".

(2) راجع: مدخل إلى نظرية الربط العاملي د/ الحسن السعيد، حوليات كلية اللغة العربية مراكش المغرب ع 8 1996 م، نظرية العامل بين النحاة العرب والدرس النحوي الحديث د رجب رشاد السيد مجلة كلية دار العلوم القاهرة ع 85 2015 م.

(3) نتائج الفكر ص 110.

(4) نتائج الفكر راجع من ص 31.

ممن لا يفرق بينهما، فيقول: "ولو كان الاسم بمعنى المسعى، ما امتنع شيء من هذا، فهذا غاية العجب، ونهاية الكذب على العرب، نعم وعلى الكتاب الذي نزل بلسانهم، نعم وعلى الرسول الذي يقول: لي خمسة أسماء، وسموا باسمي ولا تكونوا بكينيتي"⁽¹⁾.

المبحث الثالث: الاعتماد على التفسير الدلالي في الترجيح

انتهج الإمام السهيلي نهج اللسانيين في الاهتمام بالتفسير الدلالي في البنية السطحية، فوافق علماء المدرسة التوليدية التحويلية في طورها الأخير بالاهتمام بالبنية السطحية، وتعزيز المحتوى الدلالي للوحدة المعجمية داخل إسقاط الجملة، فقد نراه يهتم بالجانب الدلالي للوحدات من خلال الإسقاط الواقعة فيه، ويرجح البنية السطحية على العميقة، والعامل اللفظي على المعنوي، ويرى بأن اللفظ كالجسد، والمعنى روحكما ذكرنا آنفا. ومما يؤكد اهتمامه بالتفسير الدلالي ما جاء في مسألة: "في معنى الصلاة والسلام على محمد صلى الله عليه وسلم"⁽²⁾، نجده يفرق بين اللفظين (دعوت، صليت) من الناحية الدلالية، فيعتمد على التفسير الدلالي للوحدة المعجمية المفردة، ثم يبحث في الاستعمال اللساني للوحدة في الأصول النحوية وعلى رأسها النص القرآني وكلام العرب. فيقول: "إن كانت الصلاة هي التي بمعنى الرحمة أصلا في باهما، فمن أي شيء اشتقاقها، وإن كانت مستعارة عن الأخرى ومجازا لها، فأى نسبة بين الرحمة والدعاء؟ .. ومما يسألون عنه في قولهم: الصلاة هي الدعاء (أن يقال لهم الدعاء) يكون بالخير والشر: قال الله تعالى: "وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ"⁽³⁾ ولم يوجد في كلام العرب "صليت" أي: دعوت بالشر، بل تقول: دعوت على الظالم والعدو، ولا تقول: صليت. ومما يسألون في قولهم: دعوت يتعدى باللام إذا كانت في الخير دعوت للمريض بالشفاء ولا تقول: دعوت عليه بالشفاء، (وصليت) يتعدى ب(على) على كل حال..."⁽⁴⁾. فكيف يكون معناه واحداً ومواطنهما مختلفة هذه تستعمل في الخير والشر، وهذه لا تستعمل إلا في الخير، وإحدهما تقتضي مفعولا وهو المدعو، والثانية: لا تقتضي مفعولا ولا تطلبه وهي (صليت) .. فأى تباين في المعنى أعظم من هذا لمن أنصف"⁽⁵⁾.

وقد نجده في مواضع مختلفة يعتمد على التحليل اللفظي والمعنوي في تحليلاته وترجيحاته، ونراه يقدم ويرجح اللفظ، ومن ذلك - على سبيل المثال - التساؤل الذي طرحه: "ولم كانت الإضافة اللفظية أقوى من المعنوية، والعامل اللفظي أقوى من المعنوي؟ قلنا: اللفظ لا يكون متضمنا إلا لمعناه، فاجتمعا معا، بخلاف المعنى المفرد عن اللفظ، فوجب أن يكون أضعف، وهذا بديع لمن أنصف"⁽⁶⁾.

(1) نتائج الفكر ص 31 .

(2) المصدر السابق ص 46 .

(3) الإسراء : 11 .

(4) نتائج الفكر راجع استشهاده بكلام العرب ص 46 .

(5) نتائج الفكر ص 47 .

(6) المصدر السابق ص 226 .

ومن المسائل التي ناقشها السهيلي في إطار التفسير الدلالي الخلاف الواقع بين الاسم والمسمى، فنجد هيبين بأن حرف الخفض لا يدخل على المسمى، وإنما يدخل على اللفظ الدال عليه وهو الاسم⁽¹⁾.

ومن المواضيع أيضا التي تؤكد الاهتمام بالجانب الدلالي وترجيح وجه التساؤل الذي طرحه في إعراب "فاعلا" في قوله: ما جاز أن يكون فاعلا أو مفعولا "فإن قيل: ولم لا يجوز أن يكون "فاعلا" هاهنا خبرا ليكون، وتجعلها ناقصة؟ فالجواب أن يقال: يمنع من ذلك أمران المعنى وسياقة الكلام⁽²⁾.

ويصرح السهيلي بأهمية المعنى في الترجيح، ويذكر ذلك صراحة، ومن ذلك ما جاء في مسألة اشتقاق الفعل من المصدر⁽³⁾ يشير إلى أن المصدر اسم كسائر الأسماء، ويخبر عنه كما يخبر عن الأسماء، وإذا أرادوا أن يخبروا عن الاسم الفاعل للحدث، لم يمكن الإخبار عنه وهو مخفوض تابع في اللفظ لغيره، وحق المخبر عنه أن يكون مرفوعا مبتدأ به، فلم يبق إلا أن يدخلوا عليه حرفا يدل على أنه مخبر عنه كما تدل الحروف على معان في الأسماء، هذا لو فعلوه لكان الحرف حاجزا بينه وبين الحدث في اللفظ، والحدث الذي هو حركة الفاعل في المعنى - يستحيل انفصاله عن الفاعل كما يستحيل انفصال الحركة عن محلها، فوجب أن يكون اللفظ غير منفصل؛ لأنه تابع للمعنى⁽⁴⁾.

ونجد السهيلي يعالج العامل من الناحية الدلالية أيضا فيرى أن الوحدة المعجمية الأولى تتعلق بالثانية ومؤثرة لفظا فيه والمعاني تابعة للمعاني، ويرى أن العامل المعنوي لا يمكن معرفته إلا من خلال أثره في معموله، فقد قال: "والعامل المعنوي لولا أثره في المعمول اللفظي لما عقل"⁽⁵⁾. والفعل يدل على ثلاثة أمور عند السهيلي: الحدث واختلاف أحوال الحدث وأن الاسم مخبر عنه، ويقرر السهيلي إلى أن الفعل لا يعمل في الحقيقة إلا فيما يدل عليه كالمصدر والفاعل والمفعول به أو فيما كان صفة لواحد من هذه نحو: "جاء زيد ضاحكا": لأن الحال هي صاحب الحال في المعنى ... ولم يعمل الفعل إلا فيما دل عليه لفظه، وأقوى دلالته على المصدر؛ لأنه هو الفعل في المعنى .. ودلالة الفعل على الفاعل أقوى من دلالته على المفعول⁽⁶⁾

(6)

وقرر السهيلي أيضا إلى أن العامل في النعت والتوكيد والبدل هو عامل معنوي، وما ذهب إليه من ترجيح خالف به جمهور النحاة الذين ذهبوا إلى أن العامل هو الفعل، قال: "ذهب قوم إلى أن العامل في النعت معنوي وهو كونه في معنى الاسم المنعوت، وهو كونه في معنى الاسم المنعوت، وإنما ارتفع أو انتصب من حيث كان هو الأول في المعنى لا من حيث كان الفعل عاملا فيه، وكيف يعمل فيه وهو لا يدل عليه، وإنما يدل على فاعل أو مفعول أو مصدر دلالة واحدة من جهة اللفظ، وإلى هذا القول أذهب"⁽⁷⁾.

(1) المصدر السابق ص 50 .

(2) المصدر السابق ص 51 .

(3) المصدر السابق ص 53 .

(4) المصدر السابق راجع تفصيل المسألة ص 54 .

(5) نتائج الفكر ص 268 .

(6) المصدر السابق راجع ص 297 .

(7) المصدر السابق ص 180 .

وفي موضع آخر يؤكد الاهتمام بتبعية الوحدة الثانية للوحدة المعجمية السابقة عليها من ناحية التأثير اللفظي والمعنوي فيها ، فيقول عن العامل في الخبر: "وأما رفع الخبر فمن حيث كان هو الاسم الأول في المعنى ، كما في النعت والبدل"⁽¹⁾ .

وتلك المعالجة الفكرية اللسانية تقوم على مبدأ التأثر والتأثير فنجد أنه يهتم بالبنية العاملة للتركيب، ولا يقوم السهيلي بالتركيز على الأثر اللفظي للعامل من ناحية تأثيره في المتمم من الناحية الشكلية فحسب؛ لأن هذا الأثر اللفظي قد يكون مقدرا، فهو لا يركز على الجانب اللفظي الشكلي في البنية العاملة فحسب، بل يبحث عن بيان الآثار المعجمية والتركيبية الناجمة عن التعلق تعلق اللفظ بالآخر، والمعاني الدلالية التي تسكن الجسد على حد تعبيره، فالسهيلي يبحث بفكره اللغوي الدقيق عن محاولة إسقاط الخصائص المعجمية للكلمة في كافة المستويات، وإقامة التركيب على علاقة المعجم بالدلالة، وفي إطار ذلك التفسير الدلالي هو يقرر: لا ترجيح إلا بعد توضيح، فهو يذهب إلى اندماج الألفاظ مع المعاني اندماجا دلاليا كاندماج الجسد والروح، وقد يشير في موضع بأن اللفظ قد ينبه على المعنى العامل، وذلك ما جاء في قولهم: "هذا زيد قائما، نهت المخاطب على النظر، فكأنك قلت: انظر إلى زيد قائما؛ لأن الاسم الذي هو "ذا" ليس عاملا، ولكنه مشعر ومنبه على المعنى العامل في الحال، وذلك المعنى هو (انظر)"⁽²⁾ .

وقد يجعل السهيلي المعيار الدلالي أداة من أدوات الترجيح يستنتج من خلاله أدق الفروق كما بين الهمزة والباء للتعدي، فقد ذهب النحاة بأنهم سواء، ولكن السهيلي فرق بينهما، وأقر بأن الباء تعطي مع التعدي معنى المشاركة، ووضع السهيلي أصلا للتعدي في اللازم والمتعدي، وأصله في اللازم أن تنظر في كل فعل حصل منه في الفاعل صفة، فهو الذي يجوز فيه النقل؛ لأنك إذا قلت: أفعلته، فإنما معناه جعلته على هذه الصفة ، وقلما ينعكس هذا الأصل في غير التعدي⁽³⁾ .

وعالج مسألة تقديم الخبر من الناحية الدلالية والقرائن المعنوية التي تساهم في بيان المحتويات الدلالية ، فنجد أنه يمنع تقديم الخبر قياسا على النعت والتوكيد والبدل، ويرى أن تقديم الخبر أخف من تقديم التوابع⁽⁴⁾ .

المبحث الرابع: أسس الترجيح عند السهيلي

استطاع السهيلي بحث المسائل بصورة منطقية لكل وحدة معجمية على المستوى الفردي، ثم ينظر في صور استعمالها التركيبية من خلال الأصول النحوية المختلفة، فلا يستقر على رأي إلا بعد المناقشة العلمية التي تقوم بعرض الآراء المختلفة من خلال تساؤلات مطروحة فيجيب عليها وفق المنهج العقلي اللساني الذي يبحث عن العلة والسبب المنطقي، فيربط بين المكون الدلالي والوظيفي للوحدة المعجمية من أجل الترجيح الصحيح؛ ولأجل ذلك نجد أنه يبحث في دلالة الكلمة ويراعي غالبا الأصل والحمل على المعنى ويعطي للفظ قيمته في بنيته السطحية معتمدا في تحليلاته وتوجيهاته وترجيحاته على أسس

(1) المصدر السابق ص 313 .

(2) نتائج الفكر ص 306 .

(3) المصدر السابق ص 253 .

(4) المصدر السابق ص 313 ، 314 .

وأصول نحوية وقواعد توجيهية، ونجده يحترم أئمة النحو وعلى رأسهم سيويه ولا يقلل من شأن سيويه إن خالفه، فقد قال بعد مخالفته: وليس فيه نقص لما قاله سيويه⁽¹⁾، وقد نجده يستحسن رأي الفراء⁽²⁾، وفيما يلي عرض ذلك:

اعتمد السهيلي على العقل والنقل في الترجيح

ويقدم قاعدة توجيهية في عملية الترجيح عنوانها: "الفصيح يتكلم بما شاء من الوجوه الجائزات، ولا اعتراض عليه ثم يذكر علة ذلك: ولكن الكلام الإلهي، والنظم المعجز الخارق للعادات، يقتضي حكمة ومزيد فائدة في اختصاص أحد الوجهين دون الآخر"⁽³⁾. يعد النص القرآني أهم أعمدة الترجيح عند السهيلي، وناقش تلك القاعدة التوجيهية في مسألة التوكيد؛ حيث أجاز إضافة (كل) إلى الكلمة المعرفة بالألف واللام التي للجنس، واستشهد بقوله تعالى: "فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْكُلِ الثَّمَرَاتِ"⁽⁴⁾، ولو كانت للعهد لقبح، ويرى أن الألف واللام إن كانت للعهد وأردت معنى الإحاطة، فالأحسن مجيء الكلام على أصله، فيقال: (خذ من الثمرات كلها) ثم يتساءل عن الحكمة في آيات الحكمة باختصاص وجه عن وجه، فيقول: فما الحكمة في اختصاص أحد الجائزين بأن يكون من نظم القرآن دون الآخر؟ كقوله تعالى: "كُلِّي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ"⁽⁵⁾، ولم يقل: كلها، وبين الحكمة في ترجيح ذلك بقوله: إنه أحصن للمعنى ومنعنا للبس وأبدع في النظم المعجز، فذكر أن (من) في قوله تعالى: "فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ" للجنس لا للتبعيض... ولو قال: (كلها)، لقليل: أي شيء أخرج منها؟ وذهب الوهم إلى أن المجرور (من الثمرات) في موضع ظرف، وأن مفعول (أخرجنا) متأخر لم يأت بعد، ولكن تقديم (كل) يبعد هذا الوهم⁽⁶⁾.

ترجيح وجه على وجه من خلال الأصول النحوية

إن الأصول النحوية كالجذور التي يستند إليها كل عالم في تعضيد رأيه، واستطاع السهيلي توظيف تلك الأصول النحوية المختلفة، فجاء رأيه العقلي موافقا للنقل العربي، واعتمد في الترجيح في المقام الأول على النص الفصيح (القرآن الكريم) وقد يستشهد بأية أو أكثر في المسألة الواحدة، وقد يستشهد بأصل آخر من الأصول كالحديث أو كلام العرب (شعر ونثرا)؛ لتعضيد الشاهد القرآني، وفيما يلي نماذج الاعتماد على الأصول النحوية في عملية الترجيح:

– إن النص الفصيح أول درجات الترجيح والسماع في الأصول النحوية. وقد نجد السهيلي لا يبالي بمخالفة الإجماع إذا تعارض مع النص الفصيح، فقد ذهب إلى أن حرف التنبيه بمنزلة حرف النداء وسائل حروف المعاني، وقرر عدم جواز عمل معانها في الأحوال وكذلك الظروف؛ لذلك منع السهيلي أن تتقدم الحال على عاملها المعنوي في نحو: قائما هذا زيد، وذهب إلى أن العامل مقدر بـ (انظر)، وقد أضمر لدلالة الحال عليه مستدلا بقوله تعالى: "هَذَا بَعْلِي شَيْخًا"⁽⁷⁾، وبذلك خالف السهيلي جمهور النحاة الذين يرون بأن عامل النصب هو حرف تنبيه⁽⁸⁾، وأشار أبو حيان إلى أن السهيلي خالف جمهور

(1) نتائج الفكر ص 180 .

(2) المصدر السابق ص 186 .

(3) انظر مسألة التوكيد ص 217 .

(4) الأعراف : 57 .

(5) النحل : 69 .

(6) انظر بالتفصيل نتائج الفكر من 216 – 218 .

(7) هود : 72 .

(8) انظر نتائج الفكر مسألة المهمات ص 177 .

النحاة في عدم جواز عمل حرف التنبيه⁽¹⁾. وفي نهاية المسألة يقرر القاعدة الترجيحية: "العامل المعنوي لا يعمل حتى يدل عليه الدليل اللفظي، أو التوجه، أو ما شاكله"⁽²⁾.

واستعان السهيلي بالحديث النبوي؛ لترجيح رأيه، وقد يعضد به النص القرآني الكريم، واعتبر الحديث الأصل الثاني في عملية الترجيح، فقد قال: "وسبيلك أن تنظر في كتاب الله أولاً، لا إلى الأحاديث التي تنقل مرة على اللفظ ومرة على المعنى، وتختلف فيها ألفاظ المحدثين"⁽³⁾. ومما استشهد به من أجل الحرص على البيان والمعنى حديث: "يتعاقبون فيكم ملائكة..."، فقد استشهد به على لحاق علامة التثنية والجمع للفعل مقدماً، وذكر أن هذه العلامة ليست للفعل إنما هي للفاعلين. وأن هذه العلامة ليست لضمير، وإنما هي حروف لحقت علامة التثنية والجمع؛ حرصاً على البيان وتوكيد المعنى⁽⁴⁾.

الترجيح من خلال القياس

يمثل القياس أصلاً من الأصول النحوية⁽⁵⁾، ويقول ابن جني: "ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب"⁽⁶⁾. فللقياس أهمية كبيرة في عملية الترجيح، ويقول ابن جني أيضاً على لسان أبي على الفارسي: "أخطئ في خمسين مسألة في اللغة، ولا أخطئ في مسألة واحدة من القياس"⁽⁷⁾. ولم يخرج الإمام السهيلي عن هذا الإطار النحوي اللساني حيث يمثل القياس ركناً لسانياً في فهم البنية التركيبية، فيقول: "فتقف عندما وقفوا، وتترك القياس إذا تركوا، والله المستعان"⁽⁸⁾. فنجد أنه اتخذ القياس أداة من أدوات الترجيح في المسائل النحوية؛ فيستعين به ليعضد السماع، وقد يستعين بكلام بعض أئمة النحاة وعلى رأسهم سيويه؛ ليؤكد ترجيحه، ومن ذلك على سبيل المثال:

اختلاف النحاة في الوقوف على (إذن) فقد ذهبوا إلى جواز أمرين: الوقوف عليها بالألف؛ لمشابهتها المنون المنصوب، وذهبت فئة أخرى إلى الوقوف عليها بالنون؛ لأنها بمنزلة (أن، لن)، وقال بعضهم: إن عملت كتبت بالنون، وإن أهملت كتبت بالألف، وقيل: إن وصلت بالكلام كتبت بالنون⁽⁹⁾. ورجح السهيلي الوقوف عليها بالألف كما ذهب الجمهور، وقال: "والقياس إذا وقفت عليها أن ترجع الألف؛ لزوال العلة..."⁽¹⁰⁾.

لجأ السهيلي للقياس في مسألة: (العلم المنقول من اسم الجنس)⁽¹¹⁾، فقال عن (الخرنق): هذا الاسم يقال فيه بالألف واللام، والقياس سقوطها ثم علل كلامه بقوله: "لأنه اسم علم، والعلم إذا نقل من الأجناس لم تدخله الألف واللام وفي حالة العلمية كمرأة تسمى مزنة أو رجل يسمى "كعباً"، ويجوز دخول الألف واللام إن كان منقولاً من الصفة كالعباس

(1) انظر ارتشاف الضرب لأبي حيان 351/2.

(2) نتائج الفكر ص 180.

(3) انظر الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، لأبي القاسم السهيلي، ط 1، علق عليه وضع حواشيه مجدي بن منصور الشورى، دار الكتب العلمية، بيروت 72/3.

(4) انظر نتائج الفكر ص 128.

(5) انظر الإغراب في جدل الإعراب ص 45 - 46، 105 - 112.

(6) انظر الخصائص 2/ 115.

(7) نتائج الفكر 2/ 60.

(8) المصدر السابق ص 166.

(9) انظر المصدر السابق ص 103 - 106.

(10) المصدر السابق ص 104.

(11) المصدر السابق 188.

والحارث ... وإذا ثبت هذا فالقياس أن لا يقال: الخرنق⁽¹⁾. وعلل دخول الألف واللام بناءً على ذلك فأقر، وقال: "يراد به وصف المرأة باللين وملاسة الجلد، وغير ذلك من الصفات الموجودة في الخرنق، فيدخل الاسم معنى الصفة المنقولة إلى العلمية، فيدخله الألف واللام"، واستشهد بكلام سيبويه ليؤكد ترجيحه، فقال: "ومما يقوي دخول معنى الصفة في (الخرنق) ونحوه ما حكاه سيبويه من قولهم: مررت بسرج خز صفته"⁽²⁾.

وقد يستعين بآراء أهل الثقة في بعض المسائل، ومن ذلك ما جاء في الاختلاف بين صيغة (افعلّ، افعال)، فقال السهيلي: "والخطابي ثقة في نقله، والقياس يقتضي صحة قوله؛ لأن الألف لم تزد في أضعاف حروف الكلمة إلا لدخول معنى زائد بين أضعاف معناها"⁽³⁾. فهو يؤكد ويرجح بأن القياس يعضد النقل، ويثبت الثقة في نقل الخطابي .

وقد يطلب أحيانا طلب القياس على الأصل، ومن ذلك ما جاء في مسألة الإضافة⁽⁴⁾، قال: "وأما سحر ليوم بعينه فيمنع من إضافته إلى الفعل، فقس على هذا الأصل ما يضارعه من الكلام"⁽⁵⁾.

ويرى السهيلي مخالفة القياس في حالة أمن اللبس، وذلك ما جاء في تأنيث (أخ)، (أخته) بهاء في الوقف، فقال: "أخت و بنت فالتاء مبدلة من الواو. وإنما حملهم على ذلك ههنا أنهم رأوا المذكر حذف لامة في الأفراد، فقالوا أخ، وكان القياس أن يقولوا في المؤنث (أخه)"⁽⁶⁾. وناقش أمن اللبس في تثنية (ذواتي) بمجيئه على غير القياس، وقال: "القياس فيه (ذاتي) وفي الجمع (ذويات)، والجمع كان أحق بالرد إلى الأصل من التثنية - يقصد بالأصل القياس - التثنية أقرب إلى لفظ الواحد: لأنها أقرب إليه في المعنى"⁽⁷⁾.

ومما ورد فيه العدول عن القياس لأمن اللبس أيضا ما جاء في مسألة (ما لا يجمع جمع السلامة) قال: " (شعراء) ليس بجمع (شاعر) على القياس، ولكنه جمع فعيل من شعريشعر، فليس ما هو في وزن فاعل جاريا على فعل، ولا يوجد ذلك، ولكنهم لما رفضوا أن يقولوا في اسم الفاعل من شعر شعير، عدلوا إلى فاعل الذي فيه معنى النسب، نحو: رامح وتامر، واستغنوا به فلما جمعه ردوه إلى الأصل الذي كان يقتضيه القياس ولم يحتاجوا في الجمع إلى العدول عن القياس، لعدم الاشتباه والالتباس، فافهم"⁽⁸⁾.

وقد نجده يعضد ترجيح رأيه بالسماع والقياس معا، ومن ذلك ما جاء في باب العطف قال: العامل في المعطوف مضمربدل عليه حرف العطف، وهو في معنى العامل في الاسم الأول وكأنك إذا قلت: قام زيد وعمرو، قلت قام زيد وقام عمرو، وأغنت الواو عن إعادة الفعل، وإنما قلنا ذلك للقياس والسماع⁽⁹⁾. وبدأ يعرض أدلته القياسية والسماعية من خلال منهجه العقلي اللساني الذي يقوم على المقارنة والتفسير الدلالي بالأدلة والمقاييس العلمية والأصول النحوية وربطها ببعضها البعض،

(1) المصدر السابق 188- 189

(2) نتائج الفكر ص 189 .

(3) المصدر السابق ص 253 .

(4) المصدر السابق ص 73 .

(5) المصدر السابق ص 76 .

(6) المصدر السابق ص 79 .

(7) المصدر السابق ص 81 .

(8) المصدر السابق ص 125 ، 126 .

(9) نتائج الفكر ص 195 .

فيقول أما القياس فإنه ما بعد حرف العطف لا يعمل فيه ما قبله، ولا يتعلق به إلا في باب المفعول معه لعله تذكر هناك ، ووجه آخر، وهو: أن النعت هو المنعوت في المعنى، وليس بينه وبين المنعوت واسطة ، ومع ذلك فلا يعمل فيه ما يعمل في المنعوت في أصح القولين، فكيف بالمعطوف الذي هو غير المعطوف عليه، وبينهما واسطة وهو الحرف؟⁽¹⁾ .

وقد رد السهيلي على ما حكاه الزجاجي في إعراب الوصف غير المعتمد معتمدا على القياس في ترجيح رأيه وإبطال ما حكاه، فقال وأما ما حكاه عن بعض النحويين من قولهم: " قائم زيد " أن قائم مبتدأ، وزيد فاعل، فهذا باطل في القياس؛ لأن اسم الفاعل اسم محض، واشتقاقه من الفعل لا يوجب له عمل الفعل، إذا كنا نعمل كل اسم مشتق من الفعل كمسجد، ومرقد، ومغرفة ويعضد هذا من السماع أنهم لم يحكوا عن العرب: " قائم الزيدان " ولا: " ذاهب إخوتك " إلا على الشرط الذي ذكرناه. ولو وجد الأخصش ومن قال بقوله مسموعا لاحتجوا به على الخليل وسيبويه، فإذا لم يكن مسموعا، وكان بالقياس مدفوعا، فأخلق به أن يكون باطلا ممنوعا!⁽²⁾ .

ومما سبق من الشواهد التي تقوم على الاهتمام بالقياس والأصل في عملية الترجيح تمثل سمات أساسية في المنهج التوليدي التحويلي الذي يبني أسسه على الأصل والفرع والظاهر على السطح من التركيب والباطن في الجملة التوليديّة، فالسهيلي يشير في مواضع مختلفة إلى الأصل والفرع في مسأله، ويرى على سبيل المثال: أن المفرد أصل والمثنى والجمع فرعا، ويرى أن الفرع يتولد من الأصل .

ترجيح السماع على القياس

وكما بيت سابقا يحترم السهيلي القياس واتخذة أداة من أدوات الترجيح، ولكن نجده إذا تعارض مع السماع، يمدح القياس ولكن يرجح السماع عليه، ومن ذلك على سبيل المثال ما جاء في مسألة (في ياء المتكلم والنون)⁽³⁾، قال: فإن ظهر اسمك فيه النون والياء، فغيرك فيه مرفوع، لأنها ضمير المفعول به، كقوله أعجبتني وأسخطني وسرني . وإن ظهر اسمك فيه بالتاء فغيرك فيه منصور، لأنها ضمير الفاعل نحو: كرهت .. والضمير عند النحويين هي الياء وحدها، والنون زائدة ... واستدلوا على ذلك بالقياس على ضمير المخاطب، فإنه كاف في حال النصب والخفض ... وهذا قياس صحيح، ولكن النص أقطع من القياس، وأرفع للشك والالتباس. والنص في ذلك للعرب: لعلي، وليتي، قال الله سبحانه وتعالى: "لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ"⁽⁴⁾، وكذلك قول ورقة بن نوفل:

فَيَا لَيْتِي إِذَا مَا كَانَذَا كَمَشَّهَدْتُ وَكُنْتُ أَوْلَهُمْ وَوُجَا⁽⁵⁾

فجعل اسم ليت (ياء) مفردة دون نون⁽⁶⁾ .

(1) المصدر السابق 195، 196 .

(2) المصدر السابق 327، 328 .

(3) نتائج الفكر 150 .

(4) طه : 10 .

(5) البيت من الوافر. انظر أوضح المسالك، ابن هشام، تحقيق يوسف الشيخ البقاعي، دار الفكر 120/1 .

(6) نتائج الفكر 150- 151 .

الترجيح القائم على احترام أئمة النحو بين البصريين والكوفيين

انتهج السهيلي نهج الأندلسيين في الاختيار من آراء البصريين والكوفيين على حد سواء، فنجده يرجح ويمدح ويستحسن الآراء المختلفة التي توافق عقله، ولم تكن موافقته لأحد من النحاة مبنية على الاتباع، بدون فكر وابتداع، وقد نلاحظ في مسأله الاهتمام بآراء سيويه بصورة ملحوظة، ومحاولة الترجيح وفق مبدأ أقره السهيلي على نفسه وهو (احترام الأئمة) حيث قال: "إن الفعل المضارع لجمع المؤنث معرب لا مبني خلافاً لسيويه، لكنه قرر ورجح ما ذهب إليه سيويه، فقال: "فإن قيل: فقد أثبتتم أن فعل جماعة المؤنث معرب، وهذا خلاف سيويه ومن وافقه من النحويين، فإنهم زعموا أنه مبني، وإن اختلفوا في علة بنائه، قلنا: بل هو وفاق لهم، وأصلوا لنا أصلاً صحيحاً، فلا ينبغي لنا أن ننقضه ونكسرهم عليهم، وهو وجود المضارعة الموجبة للإعراب"⁽¹⁾.

ترجيح مذهب البصريين على الكوفيين

يرجح السهيلي رأي البصريين على الكوفيين في مسائل مختلفة، منها على سبيل المثال: الفعل الماضي لا يكون في موضع حال أبداً⁽²⁾؛ لأنه منقطع عما قبله، فقال فليس يذهب الوهم عند النطق، إلا إلى انقطاعه عما قبله إلا بدليل يربطه، وقرينه تضمنه إليه تجمعه؛ لذلك لا يكون في موضع الحال ألبتة، لا تقول: (جاء زيد ضحك) لتجعل هذا الفعل في موضع الحال من (زيد)؛ إذ لا جامع بينها⁽³⁾.

وقد نجده يرجح مذهب البصريين ويضيف دليلاً جديداً في المسألة؛ وذلك دليل على استعمال المنهج العقلي اللساني الحر الذي يبحث عن إضافة أدلة جديدة لم يسبق لها من قبل، ومن ذلك ما جاء في مسألة اشتقاق الفعل من المصدر⁽⁴⁾، فقد رأى أن الحاجة إلى الإخبار عن الفاعل هي التي أوجبت اشتقاق الفعل من المصدر؛ إذ لم يمكن الإخبار عنه بالمصدر لأن الفاعل لا يذكر مع المصدر إلا مضاف إليه⁽⁵⁾.

وذهب مذهب البصريين في اعتبار (إلا) في الاستثناء موصلة الفعل إلى العمل في الاسم وليست عاملة بنفسها، فقال: "وأما إلا في الاستثناء فقد زعم بعضهم أنها عاملة، وقد نقض ذلك عليه بما لا قبل له به من قولهم (ما قام أحد إلا زيد)، والصحيح أنها موصلة الفعل إلى العمل في الاسم بعدها كتوصيل واو المفعول معه إلى العمل فيما بعدها"⁽⁶⁾.

اختلف النحاة في العامل في رفع الفاعل ونصب المفعول به، فذهب البصريون إلى أن الفعل هو العامل فيهما، وذهب الكوفيون إلى أن العامل في المفعول به نصب الفعل والفاعل معاً، ويؤيد السهيلي مذهب البصريين فقال: والفعل لا يعمل في الحقيقة إلا فيما يدل عليه لفظه كالمصدر والفاعل والمفعول به⁽⁷⁾. وقد تحدث عن هذا أيضاً عندما نفى أن يكون العامل في النعت

(1) انظر المصدر السابق 82-86.

(2) انظر المسألة في الإنصاف في مسائل الخلاف ص 252.

(3) انظر نتائج الفكر ص 110.

(4) انظر المسألة في الإنصاف في مسائل الخلاف م / 28، ص 235.

(5) المصدر السابق ص 54.

(6) المصدر السابق ص 63.

(7) المصدر السابق ص 297.

هو الفعل، فقد قال : " وإنما قويعندنا هذا القول الثاني لوجوه منها امتناع تقديم النعت على المنعوت، ولو كان الفعل عاملا فيه لما امتنع أن يليه معموله كما يليه المفعول تارة والمفعول أخرى"⁽¹⁾.

ترجيح مذهب الكوفيين على البصريين

لم يكتف السهيلي بأراء البصريين فحسب، بل كان صاحب فكر حريقتطف من بساتين النحو والآراء المختلفة وفق منهجه العقلي اللساني الحرفي يستحسن أراء أهل الكوفة ويمدح أئمتهم ، ومن ذلك مدحه للفراء في مسألة (قطع النعت) قال : جعل أبو القاسم تكرار النعوت شرطا في جواز القطع من الأول، ولا يلزم هذا الشرط على الاطلاق، ولكن الاسم إذا كان معروفا عند المخاطب ... وإذا كان المنعوت غير متميز عند المخاطب إلا بنعته، فلا بد حينئذ أن يكون تابعا للمنعوت، ثم يكون تكرار شرطا في جواز القطع .. وفائدة القطع من الأول أنهم أرادوا تجديد المدح أو الذم، ويرى بأن هذا التجدد دليل على تجدد المعنى ، وكلما كثرت المعاني وتجدد المدح كان أبلغ ثم نجد الأمانة العلمية في رأيه وترجيحه وينسب هذا الرأي للفراء فقال: وقد رأيت هذا المعنى للفراء فاستحسنته⁽²⁾.

ذهب السهيلي إلى أن (لكن) مركبة البناء لابسِي، فقال: "وأما لكن فأصح القولين فيها أنها مركبة من (لا، وإن) والكاف التي هي للخطاب - فيقول الكوفيين - ما أراها إلا كاف التشبيه؛ لأن المعنى يدل عليها"⁽³⁾. وبذلك يقر ويرجح قول الكوفيين بتركيبها⁽⁴⁾. بتركيبها⁽⁴⁾.

وذهب السهيلي مذهب الكوفيين في (كلا)، وهو أنها مثناة لفظا ومعنى، فأصل (كلا) كل؛ إذ قال: "كلا يفهم من لفظه ما يفهم من لفظ كل، وهو موافق له في فاء الفعل وعينه، وأما اللام فمحذوفة كما حذف في كثير من الأسماء، فمن ادعى أن لام الفعل واو، وأنه من غير لفظ كل، فليس له دليل يعضده، ولا اشتقاق يشهد له ويؤيده... ومن ادعى أن الأصل فيهما (كلاهما) فقد ادعى ما تستبعده العقول، ولا يقوم عليه الدليل والبرهان"⁽⁵⁾.

وهذا الكلام يؤكد أنه يستعرض الأوجه ويعرضها على العقل، ويبحث عن الأدلة المنطقية وموافقة النقل، فأسس الترجيح مبنية على الفكر النحوي اللساني القائم على العقل والمنطق، فلا ترجيح إلا بكلام صحيح، أو نص فصيح، أو نقل صريح يثبت الرأي .

وذهب السهيلي مذهب الكوفيين القائلين بجواز حذف خبر (إن) وأخواتها مع النكرة فقط، خلافا للبصريين الذين يجيزون حذف خبرها مع النكرة ومع المعرفة أيضا، فقال: " وإنما يجوز في إن وكأن وأخواتها أن تحذف الخبر إذا وقعت على النكرات، فإن وقعت على المعارف لم يجز حذف الخبر"⁽⁶⁾.

(1) نتائج الفكر ص 181 .

(2) المصدر السابق ص 186 .

(3) المصدر السابق ص 200 .

(4) انظر الإنصاف في مسائل الخلاف ص 209 .

(5) نتائج الفكر ص 222 .

(6) نتائج الفكر ص 115 .

وقد نجد السهيلي يخالف النحاة ويأتي بأراء جديدة، ويستعمل فكره الذي وافقته كثير من الدراسات اللسانية المعاصرة؛ لإثبات صحة رأيه، فهو يرى أن (أي) الوصفية متدرجة عن (أي) الاستفهامية، فقال: "وأما وقوع (أي) نعنا لما قبلها، كقولك: (مررت برجل أي رجل)، وإنما تدرجت إلى الصفة من الاستفهام كأن الأصل: أي رجل؟ على الاستفهام الذي يراد به التفخيم والتحويل، وإنما دخله التفخيم؛ لأنهم يريدون إظهار العجز والإحاطة بوصفه، فكأنه مما يستفهم عنه؛ إذ جهل كنهه، فأدخلوه في باب الاستفهام الذي هو موضوع لما جهل فلما ثبت هذا اللفظ في باب التفخيم والتعظيم الذي قرب من النعت والوصف، حتى أدخلوه في باب النعت، وأجروه في الإعراب على ما قبله"⁽¹⁾. وقد أخذ يذكر النظائر على دخول الاستفهام في باب النعت.

وذهب السهيلي إلى وجوب تقديم الفاعل في نحو: (ضرب بعضهم بعضاً)، وهذا مما استدركه على النحاة، وقد مثل للمسألة بالمثل التالي: (ضرب القوم بعضهم بعضاً)؛ ليبين مرجع الضمير، والسر في وجوب التقديم أن الفاعل أهم، وقد زاد اهتمامهم وتضاعف باتصاله بالضمير الذي لا بد منه، ويبين أنهم لم يحذفوا في هذه الصورة الضمير من الفاعل، ويضيفوه إلى المفعول، فيقولوا: (ضرب بعض بعضهم)؛ لقرب الفاعل من مرجع الضمير، وأنه عمدة في الكلام، وأما المفعول ففضلة، فهو أولى بأن يحذف معه حتى إذا كان أحدهما مفعولاً، والآخر مجروراً نحو: خلطت القوم بعضهم ببعض، فالمفعول يجب تقديمه وإضافته إلى الضمير⁽²⁾.

الخاتمة

انتهج الإمام السهيلي المنهج العقلي اللساني في عملية الترجيح، وقد استعمل الأدوات اللسانية ومنها: مبدأ التفسير الدلالي والتقطيع والاستبدال، فقد كان ينظر إلى الوحدة اللسانية بصورة مفردة قبل دخولها مع الوحدات المعجمية الأخرى، ويعضد آراءه بالأصول النحوية المختلفة، فينظر إلى صور استعمال الكلمة في التركيب، ونجد السهيلي يعزز من قيمة المحتوى الدلالي، فقد ركز على عنصر التفسير الدلالي؛ لفهم العنصر النحوي، فبين العنصرين أخذ وعطاء في كثير من الآراء النحوية، وكأن السهيلي يدرك القيمة الدلالية في الدراسة اللسانية حيث تسهل على المتلقي التعلم، فالدلالة نتاج توليد وتحويل وإبداع للمعاني، فكل فكرة جديدة لدى السهيلي تعد إبداعاً، وعالج كثيراً من القضايا النحوية وفق هذا المنهج الفكري اللساني الذي يعزز من القيمة الدلالية، واعتمد على تحليل المسائل صوتياً وصرفياً ونحوياً ودلالياً من خلال الأصول النحوية المعتمدة، وحاول السهيلي فهم وإدراك الصواب من الخطأ بناء على قوانين النحو، فقد ربط البنية اللغوية بالبنية العقلية الأساسية المنتجة لها، ولا نجد ترجيحاً إلا من خلال أسس علمية منطقية .

(1) المصدر السابق ص 157 .

(2) المصدر السابق 134 .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- أحمد المتوكل ، الوظائف التداولية في اللغة العربية ، ط 1 ، دار النشر والثقافة والتوزيع ، الدار البيضاء - المغرب ، 1985 .
- الأنباري (كمال الدين أبو البركات) الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، المكتبة العصرية، بيروت 1997 م .
- الأنباري،(كمال الدين أبو البركات) الإعراب في جدل الإعراب ولمع الأدلة في أصول النحو، تح سعيد الأفغاني - مطبعة الجامعة السورية 1957 م .
- أبو البقاء الكلوي الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية قابله على نسخة خطية وأعدده للطبع ووضع فهرسه د.عدنان درويش ، محمد المصري - مؤسسة الرسالة - ط 2 1993 م .
- ابن جني (أبو الفتح عثمان) الخصائص، تح : محمد على النجار الهيئة المصرية العامة للكتاب ط 4 ، 1999 م .
- الحسن السعيد ، مدخل إلى نظرية الربط العاملي ، حوليات كلية اللغة العربية مراكش المغرب ع 8 1996 م .
- الرازي (أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين) المحصول، تح الدكتور طه جابر فياض العلواني، مؤسسة الرسالة، ط3، 1418 هـ - 1997 م .
- رجب رشاد السيد، نظرية العامل بين النحاة العرب والدرس النحوي الحديث مجلة كلية دار العلوم القاهرة ع 85 ، 2015 م .
- السهيلي (أبو القاسم عبد الرحمن) نتائج الفكر في النحو ، تح : الشيخ عادل أحمد ، الشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية - بيروت ط 1 ، 1992 م .
- الفيروزآبادي (مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب)، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، 1421هـ-2000م
- القاسم السهيلي الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام ، ط1 ، علق عليه وضع حواشيه مجدي بن منصور الشورى ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- ابن منظور (جمال الدين أبو الفضل محمد) دار صادر، ط 1 ، بيروت ، لبنان 2000 م .
- ابن هشام (أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك) عبد الله بن يوسف بن أحمد، تح يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

المراجع الأجنبية :

Chomsky .Syntactic Structures , la haye, 1975 , trd .fr . Structures syntaxiques ,paris , le Seeuil , 1969.

المقاصد الشرعية للمكلفين في ضوء المقاربة النصية موارد الحكم الفقهي من خلال مدونة الموافقات للإمام الشاطبي.

د. محمد بوعرعارة

جامعة تيسمسيلت، الجزائر.

ملخص:

يمثل علم المقاصد بالنسبة إلى المجالات الشرعية أحد أهم أركان الفتوى والفقهاء لارتباطه المباشر بمدونة النص الذي يمكن أن يتم تأويله بناءً على تعدد الرؤية الأولية لمفهوم النص.

وقد أخذت الدراسات المتعلقة بمقاصد الشريعة تتميز وتتخذ شكل علم أو تخصص مستقل مما نحا بها نحو علم ذو اتصال شديد بنظرية علم النص وهو التداولية، ومن هنا أضحت الحاجة ملحة لبيان فوائد وأهداف البحث المقاصدي في ضوء المقاربات النصية المختلفة.

وفي هذا السياق تتعين الإجابة على عدد من التساؤلات والتخوفات المثارة حول المد المقاصدي وأغراضه و مآلاته مما يجعل النص المنضبط يتيه أو ربما يغيب تماما.

هل اتباع المقاصد والتعليل بها، سيعيد تفسير النصوص والأحكام على نحو جديد مغاير لما عهدناه وورثناه؟

هل مراعاة المقاصد سيؤدي إلى تجاوز النصوص والتفلات من سلطانها اكتفاء بالمصالح والمقاصد، كما نجد لدى بعض الكتاب المعاصرين؟.

الكلمات المفتاحية: النص، المقاصد، السياق، التداولية، علم النص.

Abstract :

The science of purposes for the areas of legitimacy represents one of the most important elements of the fatwa and jurisprudence for its direct link to the code of text, which can be interpreted based on the multiplicity of the initial vision of the text concept. Studies on the Shari'a purposes are characterized and take the form of a science or an independent specialty, which led it to a science with a strong connection to the theory of text science that is pragmatics. Hence, there is a persisting need to demonstrate the research benefits and objectives in the light of various text approaches. In this context, it is necessary to answer a number of questions and concerns raised about the intentionality tide, its purposes and its functions, which make the disciplined text obsolete or maybe completely absent. Will the pursuing of the purposes and their explanations reinterpret texts and provisions in a new way different from what we had known and inherited? Will purposes consideration lead to the transcendence of texts and the escape from its authority satisfied with the interests and purposes, as we find in some contemporary writers?

Keywords:Text, purposes, context, pragmatics, text science.

مقدمة:

لا يشك أي مسلم أو دارس للعقائد الإسلامية أن روح الدين الإسلامي تنطلق من الإيمان الذي يتجسد عمليا من خلال السلوك الذي يدعو إليه، وأن معايير هذا السلوك تنضبط بمجموعة أطر ومفاهيم اعتمادا على قواعد تم على طول التاريخ الإسلامي، وبدءا من البعثة المحمدية استنباطها مباشرة عن طريق الأحكام الشرعية أو بطريق غير مباشر انطلاقا من الواقع الذي يستمد رؤيته بناءً عليها.

و حين تنزل القرآن الكريم و النبي صلى الله عليه وسلم بين ظهراني الصحابة لم تكن الحاجة ملحة إلى الاختلاف أو تعقيد للقواعد على اعتبار أنه الفيصل في فهم أي موضوع كان يطرح إشكالا إن على مستوى السلوك أو على مستوى الفهم والتحري، ولكن بوفاته صلى الله عليه وسلم بدأت الخلافات تدب، و مع اتساع رقعة الدولة الإسلامية وكثرة الفتوحات الإسلامية شهد العالم الإسلامي انفتاحا منقطع النظير على الأمم والحضارات المحاذية له جغرافيا، ولم يكن من بد أن تظهر معطيات جديدة أسهمت في خلق أفكار ورؤى حركت عقول ومشاعر الغيورين على الدين الإسلامي، فراحوا يبحثون المسائل ويخرجون الأصول لإيجاد إجابات تفسر أو تشرح أو تظهر مختلف تلك القضايا وما شابهها على اختلاف العصور والأمصار.

و في زماننا نشهد اليوم حركة علمية ضخمة تحمل في طياتها تساؤلات جمة بموجها انقسمت الأمة الإسلامية على نفسها بين تيارات مختلفة و حركات متشعبة حتى بات من يقول: " إن التدين من الأعمال الشخصية الفردية الخاصة بالإنسان في ذاته منفردا عن الجماعة، و معنى ذلك أن الدين الإسلامي لا صلة له بالجماعات البشرية في نظمها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأخلاقية"⁽¹⁾، وذلك غير صحيح، وليس أدل على ذلك من المجتمع الأول الذي التف حول رسول الله صلى الله عليه وسلم.

و في ظل التصادم الفكري كثرت الفتن والشبهات و الدعاوى الباطلة و الجدل العقيم، فبات من الضروري تنظيم المجتمع وفق رؤية تصورية تستند في طروحاتها على مدونات علمية لعلماء اهتموا بالتأصيل العلمي و المعرفي لمختلف تلك القضايا درءا للمجتمع من أن يزلق في مهاوي الانحراف و التشدد، و قد سعوا سعيهم في إقامة الحجج و البراهين واستنباط الأحكام من أجل تقديم التصور الصحيح و السليم ليكون المسلم على بينة من دينه.

و في ظل مختلف العلوم الدينية التي طفت على الساحة المعرفية للمجتمع الإسلامي تشعبت المعارف و تعددت بين علوم خاصة بالقرآن الكريم وعلوم خاصة بالسنة النبوية الشريفة و علوم تنطلق من الفلسفة و المنطق و علوم آلية وغيرها مما ظهر واستقر، و غاية هذه العلوم إن لم تكن تقصد إلى الهدف العملي فلا أقل من أن يقال عنها ترف علمي لذلك كان العلم أي علم " إنما هو لإنتاج العمل و تقويمه، ولذلك قالوا: العلم إمام العمل، فعلم ليس وراءه عمل إنما هو عطالة و مضیعة للوقت، و الشرع لا يرد به و لا يقبله"⁽²⁾، و قال الإمام الشاطبي في المقدمة السابعة من موافقاته: " كل علم شرعي

¹ - جمعة أمين عبد العزيز، فهم الإسلام في ظلال الأصول العشرين، دار الدعوة، ط5، مصر، 2003، ص/09.

² - أحمد الرسيوني، مقاصد المقاصد (الغايات العلمية والعملية لمقاصد الشريعة)، الشبكة العربية للأبحاث و النشر، ط2، بيروت، لبنان، 2014، ص/130.

فطلب الشارع له إنما يكون حيث هو وسيلة إلى التعبد به لله تعالى، لا من جهة أخرى، فإن ظهر فيه اعتبار جهة أخرى فبالتبع والقصد، (...) [إذ] كل علم لا يفيد عملاً فليس في الشرع ما يدل على استحسانه"⁽¹⁾.

و مع تنامي تلك المعارف وتشعب المسائل وكثرتها مع ما تمليه ظروف المجتمع وحاجاته صارت الحاجة ملحة "لبيان الفوائد المتوخاة والأهداف المبتغاة من وراء معرفة المقاصد ونشر الثقافة المقاصدية (...) وفي هذا السياق تتعين الإجابة عن عدد من التخوفات والتساؤلات المثارة حول هذا المد المقاصدي وأغراضه ومآلاته [ومنشأ التخوف لا شك من كون أن النص يمكن له أن يتيه بين التأويلات والتفسيرات الخاطئة مما يجعله عرضة للضياع، كما أن نظرية النص في مجال العلوم اللغوية تسعى إلى إيجاد استراتيجية معينة يمكن على أساسها تقويم معايير الحكم على النص عامة والنص اللغوي خاصة] وحول تأثيراته على استقرار الأحكام والثواب الشرعية، ومنظومته الفقهية الأصولية"⁽²⁾، كما أن هناك عوامل أخرى في ظل الواقع الذي تعيشه الأمة الإسلامية جعل علم المقاصد يبرز إلى الساحة بهذا الزخم الفكري الثر، ولعل " من الأسباب التي جعلت المقاصد تبرز وتحتل مكانتها البحثية في الفكر الإسلامي المعاصر تسارع وتيرة الأحداث والقضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تواجه المجتمع الإسلامي المعاصر، وقد أحدثتها التحولات الكونية الكبرى في كافة المجالات في العقود الأخيرة"⁽³⁾.

وعلماء المقاصد حين ألقوا في هذا العلم كانت غايتهم شريفة تدعوا إلى حفظ الدين، وضبط مسائل الفقه حتى لا تختلط بغيرها مما لا أساس له أو صحة يدعمها، وقد تم ذلك لهم بوضع ضوابط بناء النص التي على أساسها يتم النظر إليه مع الاعتماد على الكتاب والسنة وفهم مسائل كل منهما، ولذلك نجد أن الإمام الشاطبي رحمه الله حين ألف كتابه الموافقات بناه على ما تبين له من الكتاب والسنة، أي أنه اعتمد على النص يقول: " ولما بدا من مكنون السرّ ما بدا، ووفق الله الكريم لما شاء منه وهدى، لم أزل أقيّد من أوابده، وأضمّ من شوارده، تفاصيل وجملاً وأسوق من شواهد (...) في بيّن مقاصد الكتاب والسنة"⁽⁴⁾.

• تعريف المقاصد:

• المقاصد في اللغة:

بتبع المعاجم اللغوية العربية القديمة والحديثة منها نجد أن كلمة المقاصد تعود في أصلها الجذري إلى الفعل قصد ففي لسان العرب لابن منظور: "قصد يقصد قصداً. هي جمع مقصد، والقصد: إتيان الشيء والتوجه إليه، والقصد في الشيء خلاف الإفراط، وهو ما بين الإفراط والتقتير"⁽⁵⁾، وجاء في المصباح المنير: " وقصدت الشيء وله إليه قصداً من باب ضرب. طلبته بعينه"⁽⁶⁾.

¹ أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: أبو الفضل أحمد بن علي، دار الغد الجديد، ط1، 2011، ج1، ص/44.

² أحمد الرسيوني، مقاصد المقاصد (الغايات العلمية والعملية لمقاصد الشريعة)، ص/07.

³ محمد سالم النعيمي، القراءة الحدائرية للنص القرآني وأثرها في قضايا العقيدة، مصر العربية للنشر والتوزيع، ط1، 2016، ص/195.

⁴ أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، ص/19.

⁵ ابن منظور، لسان العرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1977، ج3، ص/353.

⁶ أحمد بن محمد الفيومي، المصباح المنير، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، ج2، ص/504.

و جاء في القاموس المحيط: "القصود: استقامة الطريق، وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾⁽¹⁾. أي: تبين الطريق المستقيم والدعاء إليه"⁽²⁾.

ويتضح من المعنى اللغوي للفظ القصود أنه التوجه والسير وفق رؤية واضحة جلية.

• المقاصد في الاصطلاح:

مما جاء عن معنى المقاصد في الاصطلاح الفقهي قول أبي حامد الغزالي (ت505هـ): "مقصود الشرع من الخلق خمسة: هو أن يحفظ عليهم دينهم، ونفسهم، وعقلهم، ونسلهم، ومالهم، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول مفسدة ودفعها مصلحة"⁽³⁾، ويرى سيف الدين الأمدي ان المراد من شرع الحكم أمران: إما جلب مصلحة أو دفع مضرة، أو مجموع الأمرين معا⁽⁴⁾، ومن المحدثين يذهب الشيخ محمد الطاهر بن عاشور إلى القول بأن المقاصد هي " المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها، بحيث لا تختص ملاحظتها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة، فيدخل في هذا أوصاف الشريعة وغاياتها العامة والمعاني العامة، والمعاني التي لا يخلو التشريع عن ملاحظتها، ويدخل في هذا أيضا معان من الحكم ليست ملحوظة في سائر أنواع الأحكام، ولكنها ملحوظة في أنواع كثيرة منها (...). أما المقاصد الخاصة فتعني الكيفيات المقصودة للشارع لتحقيق مقاصد الناس النافعة، أو لحفظ مصالحهم العامة في تصرفاته الخاصة (...). واما مقاصد الناس في تصرفاته فهي المعاني التي لأجلها تعاقدوا أو تعاظوا، أو تغارموا، أو تقاضوا، أو تصالحوا"⁽⁵⁾.

وورد مصطلح المقاصد بكثرة في علم أصول الفقه دالا به على مقصود الشارع من تشريع الحكم والغاية التي يصبوا إليها، كما ورد تعريفه في معجم مصطلحات أصول الفقه بأنه "الأهداف التي يقصدها المكلف من تصرفاته واعتقاداته وأقواله وأفعاله، وهي التي تميز بين القصد الصحيح، والقصد الفاسد، وبين العبادة والعادة، وبين ما هو خالص لله وبين ما هو رياء وسمعة"⁽⁶⁾.

• معنى التكليف والمكلف:

جاء في علم أصول الفقه عن معنى التكليف أنه "مأخوذ من الكلفة على وجه التفعيل، ومعناه: الحمل على ما في فعله مشقة – ويندرج تحته الإيجاب والحظر – لا وفق ما يتشوف إليه الطبع أو ينبو عنه"⁽⁷⁾.

ويراد بالمكلف في علم أصول الفقه من يصدق عليه جملة شروط يصح بها التكليف؛ إذ يشترط في صحة التكليف بالشرعيات فهم المكلف (المخاطب بالشرع) لما كلف به، بمعنى تصوّره، بأن يفهم من الخطاب القدر الذي يتوقف عليه

¹ سورة النحل، الآية [09].

² الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تحقيق: مجدي فتحي السيد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر، ج1، ص/396، باب: الدال، فصل: القاف.

³ أبو حامد الغزالي، المستصفي من علم الأصول، تحقيق: محمد مصطفى أبي العلا، شركة الطباعة الفنية المتحدة بمصر، القاهرة، ص/251.

⁴ سيف الدين أبو الحسن الأمدي، الإحكام في أصول الأحكام، مؤسسة النور، ط1، ج3، ص/271.

⁵ محمد الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق: محمد الطاهر ميساوي، البصائر للإنتاج العلمي، ط1، 1998، ص/171.

⁶ علاء الدين نجم، يوسف أبو حسان، معجم مصطلحات أصول الفقه، مؤسسة الرسالة، عمان، الأردن، 1993، ص/72.

⁷ الإمام الغزالي، المنخول من تعليقات الأصول، اعتناء: ناجي السويد، المكتبة العصرية، ط1، صيدا – بيروت، لبنان، 2008، ص/21.

الامتثال⁽¹⁾، وقد يغيب مقصد الحكم الشرعي عن ذهن المخاطب به، فهو ليس في متناول الجميع لاختلاف الأفهام و تعدد مشارب العلم، ولكن يحسن للمشتغل بالعلوم الشرعية و خصوصا الفقيه منهم الذي يباشر الأحكام و يختلط بالناس أن يبذل الوسع و الجهد في تحديد مقاصد الحكم و تبسيطه على عامة الناس حتى يستوعبه و يفهمه مع التسليم بأنه "لا يستدرك حسن الأفعال و قبحها بمسالك العقول، بل يتوقف دركها على الشرع المنقول، فالحسن ما حسنه الشرع بالحث عليه، و القبيح ما قبّحه بالزجر عنه و الدّم عليه"⁽²⁾.

وقد ذهب الباحث الريسوني إلى أن مقاصد الشريعة ليست في الجملة متوقفة وبشكل مستمر على فئة العلماء دون غيرهم، فهو يرى أن " إدراك مقاصد الشريعة و أخذها مباشرة من نصوصها و أحكامها، ليس دائما متوقفا على العلماء و اجتهادهم واستنباطهم، بل هناك مقاصد و حكم لا تكاد تخفى على أحد، و منها ما لا يحتاج إلا لقليل من الاهتمام و الانتباه"⁽³⁾، و يتوقف معنى الإدراك هنا على النصوص الشرعية الظاهرة التي لا تحتاج إلى تأويل في الكلام، أو إحالة إلى فقيه بعينه، فكم من الأحكام الشرعية التي ظاهر قصدها واضح كوضوح الشمس في رابعة النهار، فلا شك أن الغسل مثلا نظافة بدنية فضلا عن كونه عبادة، وكذلك الزكاة تأليف للقلوب ونشر للتكافل والتراحم داخل المجتمع وتطهير للمال فضلا عن كونها عبادة وهكذا كثير من العبادة ...

إن هذه المقاصد التي أشرت إليها من خلال هذه الأمثلة هي المقاصد المباشرة التي تفهم من خلال القيام بالعبادة من لدن المكلف بها، و لا نقصد المقاصد غير المباشرة التي هي من شأن العلماء و الفقهاء، فهم الذين يقومون باستنباطها و تقريرها وإثباتها، ويقترح الباحث الريسوني منهجا تعليميا لتدريس المقاصد، إذ يرى أن "أحكام الشريعة ومقاصدها :

- يمكن دراستها و تدريسها بأعلى المستويات، و هو مستوى العلماء و الدارسين المتخصصين، بلغتهم ومصطلحاتهم و تدقيقاتهم و استدلالاتهم.
- و يمكن عرضها و تعليمها بمستوى متوسط، يناسب طبقة المتعلمين و المثقفين و أمثال الطلبة الجامعيين غير المتخصصين.
- و يمكن عرضها و توضيحها بمستوى أدنى من ذلك و أيسر، و هو مستوى عامة الناس، ممن لهم همة و اهتمام"⁽⁴⁾ واهتمام"⁽⁴⁾.

و الحقيقة أن هذا النهج هو المعتمد عادة في توضيح الأحكام الشرعية سواء في المدارس التعليمية تحت مسمى الحكمة أو الغاية من الحكم، أو على مستوى الفقه داخل المؤسسة الدينية ممثلة في المسجد.

و هذا الرأي الذي أشار إليه الباحث الريسوني في كون المقاصد ليست مقتصرة على العلماء و الفقهاء فقط عارضه قبل الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، إذ يرى أنه " ليس كل مكلف بحاجة إلى معرفة مقاصد الشريعة، لأن معرفة مقاصد

¹ ينظر: محمد بن علي الشوكاني، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، تحقيق: أبو حفص بن العربي الأثري، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، ط2، القاهرة، مصر، 2009، ج1، 105.

² الإمام الغزالي، المنخول من تعليقات الأصول، ص/15.

³ أحمد الريسوني، مقاصد المقاصد (الغايات العلمية والعملية لمقاصد الشريعة)، ص/149.

⁴ أحمد الريسوني، مقاصد المقاصد (الغايات العلمية والعملية لمقاصد الشريعة)، ص/150.

الشريعة نوع دقيق من أنواع العلم، فحق العامي أن يتلقى الشريعة بدون معرفة المقصد، لأنه لا يحسن ضبطه ولا تنزيله، ثم يتوسع للناس في تعريفهم المقاصد بمقدار ازدياد حظهم من العلوم الشرعية، لئلا يضعوا ما يلقنون من المقاصد في غير موضعه، فيعود بعكس المراد⁽¹⁾، والشيخ محق في بعض ما ذهب إليه ولكن ليس على الإجمال فلا بد من التفصيل الذي يدعو إلى التوضيح والبيان، إذ تقديم المقاصد التي تحتاج - كما قلنا - إلى استنباط وتعمق وفهم دقيق فذاك شأن العلماء و الفقهاء، أما الأمور الفقهية التعبدية التي ظاهر قصدها واضح فذاك مما لا خوف منه، وأما تخوف الشيخ فهو أيضا مما لا مناص عنه في بقية العلوم الأخرى، فسوء الفهم قد يقع في غير هذا ولكن لا بد من التوضيح والبيان والإفهام والإرشاد.

• معنى المقاربة النصية:

المقاربة من حيث اللغة تعني الدنو والاقتراب، وبإسقاط التعريف على هذا المفهوم تعني القرب والدنو من النص مما يجعلنا أمام إشكالية التعامل مع النص في ظل التعدد اللغوي له، ومن ثم الكيفية التي بها يتم فهم النص و الضوابط العلمية و اللغوية التي تسمح بذلك الدنو؛ إذ مسألة الدنو في ظل المفهوم تتيح لنا عدم احتكار مفهوم موحد عام للنص ولكن تقترب منه بناء على الأنماط اللغوية للدلالات اللغوية الموجودة داخل النص ذاته ثم بعد ذلك من خارجه.

ولعل هذا الطرح يجعلنا أمام مشكلة التضارب الذي قد نقع فيه؛ إذ كيف يمكن اعتماد النص و في الآن نفسه الاعتماد على المقاصد التي هي متعلقات القلوب؟.

وفي العموم كما يذهب علماء النص إلى تعريف المقاربة على أنها القاعدة النظرية التي تتكون من مجموعة من المبادئ، و في غطار بحثنا هذا يمكن اعتماد المبادئ النظرية لتشكيل النص و بالتالي يمكن اعتبارها إجراء عمليا يتم على أساسه ضبط مصداقية النص و الحكم عليه في ضوء الأبحاث العلمية النظرية الحديثة .

ولاشك أنشد أن الاستراتيجية ستكون حاضرة في قصي النص الشرعي و دراسته و التدخل فيه اعتماد على الشبكة المفاهيمية لجملة الأحكام الشرعية التي تم استنباطها من لدن علماء الشرع و اللغة على حد سواء، ولذلك فإن تحديد دلالة النص سارت في شكل رأسي حين النظر إلى الحكم الشرعي؛ فقد سار الفقيه وفق هذه المنظومة و ليس يعننا هنا مدى تقصده من عدمه لتلك المنظومة، و لكن بالنظر إلى صيغة الحكم الشرعي في نهايته و بالتحليل النظري و العملي نجد أن الفقيه اعتمد المنظومة تلك انطلاقا من : المقاربة إلى الإستراتيجية إلى الطريقة إلى التقنية و من ثم إلى الأسلوب فالتطبيق فالصيغة، و تمثل الثلاثة الأولى منها الجانب النظري بينما تمثل الثلاثة الأخيرة الجانب الإجرائي العملي التطبيقي و تقع التقنية في منطقة التماس بين النظري و التطبيقي مع التأكيد على أن كل هذه المنظومة بالرجوع إلى نمط البحث الذي اعتمده الفقيه تمثل في عمومها الجانب النظري مما يجعلها تمثل الشق النصي للحكم الشرعي بينما تأتي المقاصد كدليل عملي تطبيقي للتدليل على مدى صدقية النص من عدمه.

و المقاربة تهتم ببنية النص فلا تنظر إليه كجملة فحسب؛ بل تنظر إليه ككل متكامل يحمل مجموعة تصورات تتفاعل فيما بينها في إخراج الحكم الشرعي و الاعتماد عليه، و من هنا تتشكل العلاقة بين الواقع و النص و هو ما يشرحه فقه

¹ محمد الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، ص/188.

المصالح، و فقه تحقيق المناط الذي يعني البحث في وجود العلة في آحاد الصور بعد معرفتها في نفسها، سواء عرفت بنص أو إجماع أو استنباط⁽¹⁾، وقد لا يتحقق الانسجام و التناسق بين النصوص الموجودة بين يدي الفقيه للوهلة الأولى فيسعى سعيه لإثبات وجود تلك الميزة في الحكم الذي يستنبطه بناء على ما توفر لديه من أدلة. و من ثم يصبح الحكم غير متوقف على جمل النص التي ينبعث منها فقط.

فنقد مثلا متون الحديث في الإسلام علم مؤسس بقواعد علمية دقيقة، وكذا الحال في علوم مختلفة أسست لأرضية إنشاء الحكم الفقهي و بلورته، وقد اعتبر الشافعي رائدا في هذا المجال إلى أن جاء الشاطبي (730هـ - 790هـ) بعده فكان علم أصول الفقه بمثابة قفزة نوعية على يديه؛ إذ كتابه الذي ألفه تحت عنوان «عنوان التعريف بأسرار التكليف» والذي تحول فيما بعد تحت اسم الموافقات الذي وقّف فيه بين مذهب ابن القاسم ومذهب أبي حنيفة قد أبدع فيه أيما إبداع. و الكتاب في جملته يؤسس للكليات الأساسية المتضمنة لمقاصد الشارع في وضع الشريعة، ويفصل مباحث الكتاب مستخرجا دررا متصلة بروح الشريعة و بعلم أصول الفقه⁽²⁾.

• المقاصد الكلية للدين:

لقد جاء القرآن الكريم بمنهج تشريعي متكامل يحفظ للإنسان عامة كرامته، منهج لا يفرق بين البشر، بل يعتبرهم إذا هم تقيدوا بمبادئ الدين وأحكامه سواء بسواء، وقد فصل القرآن في جملة من المسائل، وعلّل أحكامها فلم تخف على أحد كان، من ذلك مثلا ابتلاؤه عباده بالعمل الصالح و العبادة الحسنة، فقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (2) ﴾⁽³⁾، فالله تبارك وتعالى قد صرح في هذه الآية أن المقصد من خلق الإنسان ابتلاؤه، لذلك هو مطالب بإحسان العمل والإخلاص فيه وقد تواردت آيات كثيرة تحت على ذلك، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن أٰخَرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَخِسُّهُ إِلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾⁽⁴⁾، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾⁽⁵⁾، و أسلوب التعليل كما جاء عند الأصوليين أطلق على أمور ثلاثة ذكرها أحد الباحثين المعاصرين في دراسته لمفهوم التعليل، يحسن بنا أن ننقلها كما جاءت لفانديتها وأهميتها في توضيح الأحكام وتشريعها، ولتضمن الآيات القرآنية لها، يقول الباحث: "أطلقت العلة عند الأصوليين على أمور ثلاثة:

- الوصف الظاهر المنضبط الذي يترتب على تشريع الحكم عنده جلب منفعة للعباد أو دفع مضرة عنهم (...). لأن الشارع ربط الحكم به وجعله أمانة عليه، كالقتل علة وجوب القصاص، و الزنا علة تشريع الحد.

- ينظر: الأمدي، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق: سيد الجميلي، دار الكتاب العربي، ط3، بيروت، لبنان، 1998، 335/3.

- ينظر: الموافقات، مقدمة المحقق².

³ سورة الملك، الآية [2.1].

⁴ سورة هود، الآية [08].

⁵ سورة الكهف، الآية [08].

- المعنى المناسب لتشريع الحكم، وهو ما في الفعل من نفع أو ضرر، ويسمى الحكمة. وأطلق لفظ العلة عليه لأنه العلة على الحقيقة؛ إذ إن الوصف الظاهر لم يجعل العلة إلا تبعاً له، مثل ما يترتب على قتل النفس من ضياع للنفوس وهدارها، وما يترتب على الزنا من اختلاط للأنساب.

- ما يترتب على تشريع الحكم وامتثاله من ثمرة و مصلحة هي جلب منفعة أو تكميلها أو دفع مضرة أو تقليلها. ويسمى بالمصلحة أو مقصد الشارع من التشريع⁽¹⁾.

إن هذه الأمور المذكورة قد اشتمل عليها القرآن الكريم، لذلك كان "من أهم ما يجب الانتباه إليه في موضوع المصالح والمفاسد التي تحدت عنها القرآن الكريم بمختلف الصيغ والألفاظ، هو عموم المصالح واستغراقها لكل ما هو صلاح وخير و نفع، وعموم المفاسد واستغراقها لكل ما هو فساد وشر وضرر، فهي شاملة لجميع الأجناس والأصناف والأشكال والمراتب و المقادير، سواء في المصالح أو في المفاسد"⁽²⁾، وقد فصل علماء الأصول في المقاصد تحت أسماء عديدة، سلكوا إليها طرقاً للبحث عن مسائل الدلالة واستخراج واستنباط الأحكام منها، وقد ذهبوا إلى التعمق أكثر في تحديد القصد من الخطاب، وفرقوا بين المراد والمعنى، وهذا التفريق مبني على تحديد معنى الإرادة، لذلك كان "المراد (وهو مفعول الإرادة ونتائجها) كثيراً ما يستخدم في مقابل المعنى، وفي هذه الحال يصبح المعنى أعم من المراد (...). إن المعنى هو المحتوى الحرفي للكلام، في حين أن المراد هو الرسالة التي يبلغها المتكلم، ويقصد أن يكشفها السامع لتحديث فيه تأثيراً معيناً"⁽³⁾، وأما عن المقاصد الكلية للشريعة الإسلامية، فلا يمكن تحديدها كلياً على أنها هي بذاتها وعينها، وذلك لكون أننا نكتشف كثيراً من الأمور التي نجعلها نتيجة لتطور المعارف واختلاف الأفهام، ولكن تبقى هذه المقاصد صالحة لورود النص بها، وتضمنه لها كما سبق الإشارة إلى ذلك، وبالرجوع إلى الآيات القرآنية نجد هذه المقاصد أو الكليات الأساسية ظاهرة من خلال الآيات الكثيرة التي نعجز عن حصرها، ويمكن الاسترشاد بعدد قليل منها لتفهم تلك الغايات والمقاصد، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124) ﴾⁽⁴⁾، وقوله تعالى: ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾⁽⁵⁾، وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾⁽⁶⁾ وقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾⁽⁷⁾، ويمكن القول أن "كل ما في القرآن - والسنة كذلك - متضمن إما جلب مصلحة أو مصالح، ودفع مفسدة أو مفساد كلية أو جزئية، مباشرة أو غير مباشرة (...). قال عز الدين بن عبد السلام: ويعبر عن المصالح والمفاسد بالخير والشر، والنفع والضرر، والحسنات والسيئات، لأن المصالح كلها

¹ أحمد خضير عباس، أسلوب التعليل في اللغة العربية، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 2007، ص/16.

² أحمد الريسوني، الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية، دار الكلمة للنشر والتوزيع، ط1، مصر، 2009، ص/97.96.

³ محمد محمد يونس علي، علم التخاطب الإسلامي (دراسة لسانية لمنهج علماء الأصول في فهم النص)، دار المدار الإسلامي، ط1، بيروت، لبنان، 2006، ص/62.

⁴ سورة طه، الآية [124.123].

⁵ سورة النحل، الآية [96].

⁶ سورة الحج، الآية [77].

⁷ سورة الحديد، الآية [25].

خيور نافعات حسنات، و المفاسد بأسرها شرور مضرات سيئات، وقد غلب في القرآن استعمال الحسنات في المصالح و السيئات في المفاسد⁽¹⁾.

وقد وضع الشاطبي قاعدة جليلة يمكن اعتبار من القواعد النفيسة في مجال فهم النص وتزيله على الواقع، وهو ما يمكن فهمه في إطار المقاربة النصية لنصوص التشريع من كتاب وسنة و اجتهاد و قياس وغيرها من الضوابط التي هي بمثابة مصادر للحكم الشرعي و استنباطه، و تلكم القاعدة مفادها أنك "تعرض مسألتك على الشريعة فإن صحت في ميزانها فانظر في مآلها بالنسبة إلى حال الزمان و أهله، فإن لم يؤد ذكرها إلى مفسدة فاعرضها في ذهنك على العقول، فإن قبلتها فلك أن تكلم فيها إما على العموم إن كانت مما تقبلها العقول على العموم، و إما على الخصوص إن كانت غير لائقة بالعموم، و إن لم يكن لمسألتك هذا المساغ فالسكوت عنها هو الجاري على وفق المصلحة الشرعية و العقلية"⁽²⁾.

• التزليل العملي للمقاصد:

درج علماء الأصول على اعتبار أن من مقاصد التشريع الإسلامي حفظ النسل، وقد اتسع هذا المفهوم في عصرنا الحاضر لينتقل - دون أن يضمحل أو يتلاشى - إلى نمط بناء الأسرة، و من ثم صار " تحقيق المصالح الفردية أو الجماعية جزءا و نتيجة لبناء الأسرة، و في إطارها، و هو أولى، و لا يخفى أن إعطاء هذه الأولوية لمصلحة الأسرة يعزز من حقوق المرأة، و حقوق الأولاد الذين هم عماد مستقبل المجتمع و الأمة، و بهذه المرونة في تطوير المصطلح المقاصدي توظف الشريعة الإسلامية في خدمة قضايا الأمة و مصالحها المعاصرة"⁽³⁾، و تتعدد هذه المصالح تبعا لتغير أو اتساع المفهوم المنوط بالمصلحة التي تدور ضمن فلك حفظ النسل، كما أن الضرورات الخمس للمقاصد قد تحدثت عن مفهوم حفظ المال الذي سيتحول بطبيعة الحال إلى التوجه الاقتصادي أو التنمية الاقتصادية، و من ثم يشمل كل ما له علاقة بالاقتصاد في إطار رؤية عامة لسياسة الدولة الساعية إلى ترشيد مفهوم الثروة و القيمة، و قد حدث تطور نوعي في تناول مقصد حفظ المال عند بعض المعاصرين، و أصبح مفهوما اقتصاديا⁽⁴⁾.

و حقوق الإنسان اليوم في عالمنا المعاصر عبّر عنها فقهاؤنا قديما تحت مسمى حفظ النسل و حفظ العرض و ليس أبلغ من ذلك تقديرا و اصطلاحا، و قد شاع لدينا اليوم حفظ الكرامة و معاملة المخالف على أنه مشارك لنا في الوطن وأنه قبل ذلك إنسان آدمي له حق العيش و حق السكن و حق الانتخاب، و كل هذه القضايا و المسائل هي من الأمور العملية المباشرة التي ينبغي على الفرد و الدولة مراعاتها.

و من حفظ العقل استمد المعاصرون في المجال المقاصدي ما يدخل تحت مسمى تنمية الملكات العقلية و الفكرية و حرية الفكر، و من ثم طغى إلى السطح التفكير المعاصر حماية هجرة العقول، و استرجاع ما يسمى بالعقلية العلمية و العمل على تنشئتها و إبرازها و الاهتمام بها عن طريق توفير متطلباتها و ما تحتاجه، و إتاحة الفرصة أمام تعلم العلوم على حد سواء

¹ أحمد الريسوني، الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية، ص/92-93.

- محمد أبو الأجنان، فتاوى الإمام الشاطبي، ط2، تونس، 1985، ص/55.

³ جاسر عودة، الاجتهاد المقاصدي من التصور الأصولي إلى التزليل العملي، الشبكة العربية للأبحاث و النشر، ط1، بيروت، لبنان، 2013، ص/22.

⁴ ينظر مثلا: أبو يعرب المرزوقي و محمد سعيد رمضان البوطي، إشكالية تجديد أصول الفقه، حوارات لقرن جديد، دار الفكر المعاصر، دمشق، و كذا: سيف عبد الفتاح مقاصد الشريعة الإسلامية (دراسات في قضايا المنهج و مجالات التطبيق)..

بين المرأة والرجل واعتبار ذلك إلزاماً حتمياً، والحرية الدينية للمجتمعات في اختيار ما يعتقدون ابتداءً وليس انتهاءً، أي: الحرية الدينية لمن يعيشون ممن ليسوا بمسلمين تحت سلطة الإسلام مع ممارسة عقائدهم وديانتهم التشريعية بناءً على ما تكفله الدولة لهم من حماية، واعتماداً على شرائحهم ومعتقداتهم.

ومن مظاهر التنزيل العملي للمقاصد ما يظهر في العبادات وما يترتب عليها، وهو حديثنا في العنصر الآتي:

• مقاصد العبادة:

• الفهم الأخلاقي لمعنى العبادات:

ينظر علماء الإسلام إلى العبادات على أنها ذات اتجاهين يتعلق الأول منهما بالظاهر الحسي، ويتعلق الثاني بالباطن الخفي، وجاء الإسلام لإصلاح الظاهر والباطن معاً، فأما الظاهر فيقوم على أساس الجزاء والعقاب، وأما الباطن فيقوم على أساس أن العبادة تكون مقصودة لذاتها، وهو ذات الشعار الذي حملته الصوفية وعملوا به، يقول الإمام الغزالي: "اعلم أنه قد تقدم في كتاب العلم: أن الفقهاء لا يتصرفون في الباطن ولا يشقون عن القلوب ولا في طريق الآخرة، بل يبنون أحكام الدين على ظاهر أعمال الجوارح"⁽¹⁾، وهو في هذا النص يقدم الغزالي بهذا التقديم ليتحدث عن أعمال الباطن التي لا تصح الصلاة مثلاً إلا بها، فيقول: "اعلم أن هذه المعاني تكثر العبارات عنها، ولكن يجمعها ست جمل وهي: حضور القلب، والتفهم، والتعظيم والهيبة، والرجاء، والحياء"⁽²⁾، ويبدأ الإمام الغزالي في شرح هذه المعاني التي تتحول من مقام الباطن إلى مقام الظاهر في أثناء أداء الصلاة فيتحقق بها الفعل.

وكما تتحقق الأخلاق النفسية عن طريق أداء الصلاة تتحقق عن طريق العبادات الأخرى كالزكاة والصوم والحج حيث أنها تبعث في النفس الفضيلة وتربها على تحمل المشاق والصبر، والتحمل ومواجهة الصعاب، وغيرها مما هو مقصد الغاية منه تحقيق وجود آدمية الإنسان عن طريق امتثاله لعبودية ربه أمراً ونهياً، امتثالاً وامتناعاً، ولاشك أن الزكاة ""تطهر النفس من رذيلة البخل، وتكسيها فضيلة الجود والسخاء وشكر المنعم (...) فالزكاة تعلمنا صفات أخلاقية، وتبعدنا عن الرذائل، والصوم كفّ البطن والفرج عن قضاء الشهوة، وكف السمع والبصر واللسان واليد والرجل عن الآثام، وصوم القلب عن الهمم الدنية والأفكار الدنيوية (...) والحج التجرد لله في جميع الحركات والسكنات بالتزهد عن الشهوات والكفّ عن الملذّات"⁽³⁾.

وقد تحدث الأصوليون والفقهاء عن الحكم الشرعي، وقاموا بتقسيمه إلى المحرّم والمباح والمندوب، والمكروه واهتدوا إلى قواعد معيّنة بها يعرف كلّ فعل ينسب إلى الحكم الذي يقتضيه، وذكروا أن العبادة تقع إجمالاً تحت هذه الأصول التي هي بمثابة فلسفة بناء قائمة على فكرة أن النفس البشرية مختلفة بالنسبة إلى مجموع الأفراد، لذلك تتفاوت نسبة الحكم الشرعي بالنسبة إلى المكلفين إذ منها ما يستطيع أن يمثل للواجب، ومنها ما ينأى بنفسه عن المكروه، وهذا

¹ أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، تعليق: أبو الفضل أحمد بن علي، دار الغد الجديد، ط1، 2005، ج1، ص/2008.

² أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج1، ص/2008.

³ علي عبد الفتاح المغربي، دراسات عقلية وروحية في الفلسفة الإسلامية، مكتبة وهبة، ط1، القاهرة، مصر، 1995، ص/234.

البناء بطبيعة الحال يأتي بعد النظر في النص الشرعي الصريح الذي يحمله أو يتضمنه، لذلك وضعوا في المعيار الأول بالنسبة إلى مقاصد الشريعة حفظ النفس، وهو مبني على استقراء النصوص من الكتاب والسنة والتوفيق بينهما.

و ينبغي الإشارة إلى أن القرآن الكريم يحمل في تشريعاته كلها بعدا أخلاقيا فهو " كتاب ينظم ويوجه سلوك وأخلاق الفرد تجاه نفسه وتجاه أسرته وتجاه مجتمعه وتجاه الكون. إنه النظام الأخلاقي للفرد والمجتمع والإنسانية جمعاء في الوقت نفسه (...) فهو لا يعاقب على السرقة فقط وينظم تشريعاتها وحدودها، بل يبين آفاتها وعيوبها الأخلاقية وعواقبها الروحية وعقابها الأخروي"⁽¹⁾، وبذلك " لم يعد مضمون آية الحكم منحصرًا فيما تأتي به من مظاهر التشريع، وإنما يتسع لما يرمي إليه هذا التشريع من تخليق للسلوك، بحيث يصبح لأية الحكم وجهان: وجه قانوني، ووجه أخلاقي، مع تقرير تبعية الوجه القانوني للوجه الأخلاقي، وعندئذ تقدر الأحكام بقدر الأخلاق التي تورثها، مع التأكيد على أن الأخلاق في الإسلام ليست - كما ترسخ في الأذهان - كمالات لا يضر تركها ولا يأتّم تاركها، وإنما ضرورات ينحط الإنسان بتركها وتختلّ الحياة بفقدانها"⁽²⁾، لذلك وجب تشريع قوانين تجرّم عليها.

• القصد في وضع الشريعة للإفهام:

لقد عبر علماء الإسلام عن المقاصد قديما تحت مسمى أسرار الشريعة، وكانوا يعنون بها اكتشاف الخفايا الظاهرة والكامنة وراء النص، فقد لجأ الإمام الشاطبي إلى تسمية كتابه الموافقات بداية تحت مسمى: التعريف بأسرار التكليف يقول: " ولأجل ما أودع فيه من الأسرار التكليفية، المتعلقة بهذه الشريعة الحنيفية، سميته بعنوان: التعريف بأسرار التكليف"⁽³⁾، كما نجد أبا حامد الغزالي قد عقد أبواب كتابه إحياء علوم الدين على هذه التسمية، فنراه يسي كل فصل من فصول كتابه باسم أسرار، فيقول مثلا: أسرار الصلاة، أسرار الصوم، أسرار الحج، أسرار الزكاة، ...⁽⁴⁾.

ومعنى هذه التسمية أن الغاية لم يكن هدفها النظر العلي المجرد، بل القصد الغاية العملية من وراء كل عبادة المذكورة سنّها الشارع الحكيم، وقد سعى بعض المحدثين اسم المقاصد تحت مسمى فلسفة الشريعة، أي: الغايات العملية والنظرية التي بنيت عليها أحكام الدين أو التشريع الإسلامي، لذلك كانت المقاصد " تشكل الأسس العميقة والمرامي البعيدة والمعاني الناظمة الحاكمة للتشريع في الإسلام. فالذي يدرس مقاصد الشريعة إنما يدرس فلسفة الإسلام في التشريع، أو فلسفة التشريع في الإسلام (...) من هنا وجب التذكير والبيان بأن الشريعة إنما جاءت مخاطبة لعموم الناس، ومعالجة لهموم الناس، فلا جرم أن معرفة أحكامها ومقاصدها ستكون في متناول الناس، ويستفيد منها ويعمل بها عامة الناس"⁽⁵⁾.

• فوائد المقاصد لعموم المكلفين:

من المعلوم بدهة أن الأحكام لا تخلو عن حكمة علمها من علمها وجهلها من جهلها، ولكن العلم بها مما يقوي الإيمان لدى المكلف ويزيده رسوخا ومعرفة في حقيقة الحكم وتبنيه والعمل به، وقد اعترض البعض على تعليل الأحكام بدعوى

¹ سعيد النكر، سؤال المعاصرة والشريعة في قراءة النص القرآني، دار السلام للطباعة والنشر، ط1، 2013، ص/118.

² طه عبد الرحمان، روح الحدائث، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، المغرب، 2006، ص/203.

³ أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، ص/20.

⁴ ينظر: أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، تعليق: أبو الفضل أحمد بن علي، دار الغد الجديد، ط1، 2005، ج1.

⁵ أحمد الرسيوني، مقاصد المقاصد (الغايات العلمية والعملية لمقاصد الشريعة)، ص/148.

أنها من الغيب الذي لسنا مكلفين بالبحث فيه من جهة ولكون الأفهام والعقول تتفاوت، فما قد يكون حكمة للبعض لا يكون عند البعض كذلك، وقد أدى هذا الفهم إلى إنكار القياس وعدم العمل به، بل أدى إلى إنكار حقائق ثابتة في الدين وفي لغة العرب كالمجاز والتأويل مثلا.

ولكن ينبغي الإشارة إلى أن الأعمال تنشأ عن اقتناع المكلف بحقيقة النص، أي: الإيمان الذي يقتضي العمل وحتى في الأمور الاعتقادية اشترط علماؤنا مع الإيمان العمل المقتضي لطبيعة الإيمان، إذ إن "الأفعال الاعتقادية لا تظهر فائدتها إلا في تعلقها بالاشتغال، وتزيد هذه الفائدة بازدياد هذا الاشتغال (...)" [و] لا تخرج عن الفقهيات من حيث إنها أفعال كأفعال العبادات والمعاملات، وأنها لا تفارق الاشتغال"⁽¹⁾، وعليه فإن الأعمال تنشأ بمقتضى النيات والمقاصد، وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إنما الأعمال بالنيات"⁽²⁾، فقرن بين النية والعمل وهذا الذي درج عليه العلماء من قبل. فبحثوا في أسرار العبادات وأهدافها ومقاصدها، وكان هدفهم توضيح ما خفي من هذه الأسرار ونشره بين الناس ليزدادوا إيماناً وتصديقاً لمقتضى الحكمة من التشريع، كما أن من "شروط الاعتقاد أن من يعتقد أمراً يعتقد صدقه، وتكون له على ذلك بينات مستمدة، إما من الأشياء التي خبرها مثل شهادة الحس، أو من أمور مسلم بها، أو من أمور نقلت إليه بطريق التواتر، أو ظفر بعلى لها مناسبة"⁽³⁾، وقد حصر الباحث الريسوني هذه الثمار في:

- الوقوف على حكمة الله في شرائعه، إذ التدبر والنظر في أسرار الشريعة ومقاصدها يوقفنا على معرفة الله تبارك وتعالى ويزيدنا يقيناً وصدقاً في أحكام هذه الشريعة المطهرة.
- زيادة الإقبال على العمل والتحصيل إذ إن من عرف ما قصد، هان عليه ما وجد، فالذي يعلم الغرض المقصود والهدف المنشود من عمل أو ترك الفعل ينشرح له صدره ويقبل عليه تنفيذاً أو تركاً.
- التمسيد وترشيد الأعمال أي أن المكلف حين يعمل بأحكام الشرع، يجب أن يجعل مقصوده في عمله مطابقاً و محققاً لما قصده الشارع في حكمه، وهذا يقتضي التعرف على مقاصد الشرع في أحكامه⁽⁴⁾.

• القراءة الجديدة لمفهوم المقاصد:

لقد خاض كثير من المحدثين في أحكام المقاصد في الشريعة الإسلامية وتعرضوا لها بالنقد والتحليل، وكأي نقد يوجه إلى فرع من الفروع المعرفية كان لا بد على هؤلاء الحداثيين أن يبرزوا المساوئ والمعائب إن وجدت لتكون الباب الذي منه يلجون إلى الانتقاد والرد أحياناً، وكان باهم في ذلك الخلل المنهجي، ولم يعوا أن طبيعة البحث في العلوم في العصور المتقدمة بالنسبة إلى أسلافنا تقتضي تلك الطريقة التي عالجوا بها قضاياهم التي هي اليوم قضايانا، وقد يأتي في المستقبل من يرد على هؤلاء الطريقة التي يعالجون بها المسائل اليوم ويرأها خلاصاً منهجياً.

¹ طه عبد الرحمان، العمل الديني وتجديد العقل، المركز الثقافي العربي، ط4، الدار البيضاء، المغرب، 2006، ص/70.

² رواه البخاري ومسلم.

³ المرجع نفسه، ص/73.

⁴ ينظر: أحمد الريسوني، مقاصد المقاصد (الغايات العلمية والعملية لمقاصد الشريعة)، ص/154 وما بعدها..

و لعلّ أسوأ ما يتعرض له النص الشرعي المبني على ضوابط و قواعد هو أن " يقرأ بأجرومية غريبة عن معهود خطابه، في لغة أخرى، عند قوم آخرين، فتكون قراءة مفجرة لبلاغه، مهدرة لسياقه و مقاصده، مغيبة للعديد من خصوصياته في إجراء اللغة وتحليل الخطاب، على نحو ما نراه في عصرنا الحديث، من قراءات للنص الشرعي تعرف بالقراءة الحدائية، وهي قراءات ترتكز على ضرورة استخدام مناهج العلوم الإنسانية المعاصرة وفلسفات التأويل الجديدة على النص الديني التي تقارب النص الشرعي بأجرومية ترى النص متنا مغلقا، مات صاحبه، كما في المنهج البنيوي، أو كما في المنهج التفكيكي الذي يقوم على الشك في كل الأنظمة، والأعراف والمقاصد، والثوابت والمعطيات، وإلى القول إلى ما لا نهاية المعنى"⁽¹⁾.

وما عابه المحدثون على الفكر الإسلامي القديم هو الخلل المنهجي - زعموا - في علم أصول الفقه، إذ ليس من بد أن يرى أحد الباحثين المحدثين أن كتاب الرسالة للشافعي يمثل سجنا للعقل فيقول: " مؤلف الرسالة قد ساهم في سجن العقل الإسلامي داخل أسوار منهجية معينة سوف تمارس دورها على هيئة استراتيجية لإلغاء التاريخية (...) و لم يكتف بشحن القانون بالقيم الأخلاقية الدينية، وإنما جعله متعاليا و مقدسا عن طريق تقنيات الاستدلال؛ أي: استنباط القواعد الشرعية والقانونية بالاعتماد على مجموعة نصية ناجزة إلهية أو نبوية"⁽²⁾، وحين نعود إلى كتاب الرسالة نجد أنّ الشافعي إنما كان عمله حصرا لمبادئ الاستنباط من النص، ومن ثم تأصيل لهذه المبادئ اعتمادا على الاستقصاء و السبر والتقسيم، ولم يكن هدفه حصر الاجتهاد في هذه المبادئ، ولذلك نجد المدارس الفقهية التي لا تنتهي إلى فقه الشافعي قد وجدت بالتفحص والتمحيص أن ما قام به الشافعي هو عمل يستحق الالتفات اعتمادا على الأدلة من النص، فلم ترى في ذلك بدا من أن تعتمد على هذه الأصول بل و تزيد عليها، ولم يقل الشافعي و لا غيره أن ما جاء به من هذه الاستنباطات هي موازية للنص بذاته كما يدعي نصر حامد أبو زيد الذي يذهب هو الآخر إلى القول بأن ترتيب الأدلة الذي اعتمده الشافعي و من جاء بعده يضعه بمحاذاة النص إن لم يكن النص ذاته، يقول: " إن هذا الترتيب للأدلة ترتيب يعتمد في الأساس على تحويل (اللانص) إلى مجال (النص) و تدشينه نصا لا يقل في قوته التشريعية و طاقته الدلالية عن النص الأساسي الأول (القرآن) و آلية تحويل (اللانص) إلى (نص) و ما تؤدي إليه من تضييق مساحة الاجتهاد/ القياس، يربطه بوثاق النص ربطا محكما إليه لا تخلو من مغزى إيديولوجي"⁽³⁾، و بالنظر إلى مراتب التشريع التي اعتمد عليها علماء الأصول نجدها مراتب قد دلّ عليها الشارع من جهة، وتؤيّدتها الأدلة العقلية من جهة أخرى.

كما أنّ مناط الاجتهاد مفتوح في كل أصل منها، و مما وجه إليه الانتقاد مصادر التشريع إذ يذهب أحد الناقدين الحدائين إلى القول بأن " (القرآن الكريم لم يشرع بالأساس للمعاملات بين الناس، ثم إذا وضعنا هذه الأحكام الخاصة في إطارها التنزيلي الإجمالي، فإن هناك استنتاجا (...)) وهو أن القرآن الكريم إن لم يشرع أساسا بالنسبة إلى المعاملات فإن السبب في ذلك هو انه لم يجعل من مثل ذلك التشريع مقصدا من مقاصده"⁽⁴⁾، و تتوالى الانتقادات على السنة النبوية إذ يذهب نصر حامد أبو زيد إلى القول بأن السنة ليست مصدرا للتشريع، ويرى أنها لا تضيف إلى النص (القرآن) شيئا، فليست

¹ محمد عبد الفتاح الخطيب، معهود العرب في الخطاب و إشكالية قراءة النص الشرعي، مجلة الترتيل، العدد 2، سبتمبر 2014، الرباط، المغرب، ص/52.

² محمد أركون، تاريخية الفكر العربي الإسلامي، ترجمة: هاشم صالح، المركز الثقافي العربي، ط2، الدار البيضاء، المغرب، 1996، ص/74.

³ نصر حامد أبو زيد، الإمام الشافعي و تأسيس الإيديولوجيا الوسطية، سينا للنشر، ط1، القاهرة، مصر، 1992، ص/08.

⁴ صادق بلعيد، القرآن و التشريع، مركز النشر الجامعي، ط2، تونس، 2000، ص/289.

هي وحي وإنما تفسير وبيان للقرآن⁽¹⁾، ويأتي عبد المجيد الشرفي على المصدر الثالث وهو الإجماع، ويرى أن "إنكار الإجماع مترتب على إنكار السنة بصفتها أصلاً ثانياً من ناحية، والاحتجاج بالسنة غير حجة علينا من ناحية ثانية، لأن أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ما كانوا يعرفون اصطلاحاتنا هذه الفقهية"⁽²⁾، ويضيف إلى ما سبق محمد شحرور الدعوة إلى إسقاط عدالة الصحابة، وأن عدالتهم تخصهم، فيقول: "عدالة الصحابة وإجماعهم أمران يخصان الصحابة أنفسهم، و مجتمع الصحابة وأهله. أما الإجماع عندنا فهو إجماع الأحياء المعاصرين في مجالسهم النيابية والبرلمانات، فالأحياء الذين يجمعون على أمر مهمهم ضمن مرحلة تاريخية يعيشونها، هم أفدر على فهم مشاكلهم وحلها وليس بحاجة إلى صحابة ولا تابعين ولا إلى علماء أفاضل"⁽³⁾، كما يدعو شحرور إلى إسقاط القياس، لأنه في رأيه لا يمكن أن تستوفي آيات الأحكام كل الاحتمالات على أرض الواقع، وأن تطبيقها زمن النبي صلى الله عليه وسلم هو تطبيق نسبي تاريخي، وما دامت كذلك - في زعمه - فإنها تبطل القياس، ويبقى الاجتهاد الذي مرده إلى العقل المحض، ومن ثم القياس كما ورد في المنظومة الفقهية لا أساس له ولا مبرر⁽⁴⁾.

و إذا عدنا إلى الأحكام التشريعية الممثلة في أحكام العبادات، فغالبا ما تفسر لديهم على أنها ذات بعد إيديولوجي، فينبغي استبعادها من أحكام الدولة والسياسة، وصبغها بالصبغة العلمانية، فالزكاة مثلا ينظر إليها من منظور اشتراكي على أنها "ضريبة جبرية وليست صدقة، تؤخذ بمعدلات كبيرة من الأغنياء لترد بطريقة منظمة على كل الفئات الإجتماعية التي كانت ستدفعها أوضاعها المالية إلى الاقتراض، ولا يعد الأمر في هذه الحالة إحسانا، وإنما إعادة توزيع جبري ترد إلى فقرائهم، فالارتداد بالفرائض يعني أنها قد أخذت منهم في الأصل عبر مختلف أساليب التنمية والاستثمار وأشكال العلاقات الإنتاجية"⁽⁵⁾.

و لعلّ أسوأ ما يجمع الحدائين حول مشروعهم الفكري الذي ينزع إلى التحلل من أحكام الشريعة بناء على مفهوم مقاصدي يتعلل بأحكام العقل، وينبني على حرية التفكير المطلق ما قاله محمد الطالبي "النص مقدس والتأويل حر"⁽⁶⁾ و قد انتقد أحمد الريسوني هذه المقولة بأن هذا القول "ينسف آخره أوله، كما لا يخفى على المتأمل فيه، وهي نتيجة حتما لا يقصدها ولا يقبلها الأستاذ الطالبي، ولكنها نتيجة لا محيد عنها إذا لم نضع حدودا و قيودا - علمية طبعاً - على حرية التأويل؛ فالتأويل (الحر) للنص (المقدس) هو الذي فتح الباب للقول بأن القرآن لم يحرم الخمر تحريماً صريحاً لأنه اكتفى - فقط - بالأمر باجتنابها ولم ينص على تحريمها، وهو الذي فتح الباب للقول بأن الأمر بقطع يد السارق و جلد الزاني، إنما هو أمر للندب أو لمجرد الإباحة والتخيير وليس للوجوب، وهذا هو الذي فتح الباب للقول بإباحة زواج المسلمة بالكتابي"⁽⁷⁾.

¹ ينظر: نصر حامد أبو زيد، الإمام الشافعي وتأسيس الإيديولوجيا الوسطية، ص/39.

² عبد المجيد الشرفي، الإسلام والحداثة، الدار التونسية للنشر، ط2، تونس، 1991، ص/165.

³ محمد شحرور، نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي، الأهالي للنشر والتوزيع، ط1، دمشق، 2000، ص/64.

⁴ ينظر: المرجع نفسه، ص/64.63.

⁵ محمد أبو القاسم حاج حمد، جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، دار الهادي، ط1، بيروت، لبنان، 2004، ص/622.621.

⁶ محمد الطالبي، عيال الله، دار سراس للنشر، تونس، 1992، ص/137.

⁷ أحمد الريسوني، الاجتهاد (النص، الواقع، المصلحة)، دار الفكر، ط1، دمشق، سوريا، 2000، ص/26.25.

فإذا كانت هذه مبررات أصحاب الحداثة وما يدعون إليه، فإنه يكفي في ذلك القول بأن " الوقائع والأحداث [إذا كانت] مجرد عبر وأسباب لتلك القيم والأخلاق، لكن التجدد في الأحداث والوقائع أمر مسلم به في حياة الإنسان؛ مما يدعو لقراءة هذه الآيات الحاملة للوقائع وكذا الحاملة للتشريعات والقيم المرتبطة بها من باب الاعتبار بها واستخراج أحكامها وأبعادها الأخلاقية والقيمية، وهكذا يتحقق مقصد الدين وقيمه في تخليق حياة الإنسان وتغيير نمط سلوكه إلى الأحسن والأفضل"⁽¹⁾.

أما فيما اتصل بالإمام الشافعي، فإنه اجتهاد قد وفق إليه توفيقاً، وقد بينه بأدلة لا تحتاج إلى رد أو نقد، فهو قد أكد أنّ البيان خمسة مراتب كما جاءت بها الآيات الدالة، وبذلك يكون قد أسس لنظرية أصولية متكاملة تهتم بتحديد أصول التفكير ومنطلقاته وآياته اهتمامها بدراسة أنواع الألفاظ والعبارات من حيث دلالتها على المعاني فجاءت هذه النظرية عبارة عن جملة من المبادئ والقواعد لتفسير الخطاب الشرعي التي تبنها المتكلمون والنحاة والبلاغيون كقوانين لتفسير الخطاب عامة⁽²⁾.

أما عن الاجتهاد فبابه مفتوح أمام القراءة الموسعة، والقول بأن الأصوليين قد ضيقوا أفق الاجتهاد بحصر مفهوم النص وتضييقه فربما كان ذلك منحة إذ إن في تضييقهم " مجال النص إلى درجة القول بندرة النصوص وعزتها، [ربما] في هذا بعد نظر ونضج رؤية، لأن الله عزوجل ترك فسحة لاختلاف القراءة والتأويل في جل آيات القرآن الكريم وأجزائه ولم ينحسم أمر التأويل إلا في القليل من الآيات، ولو شمل هذا الأمر (انحسام التأويل) كل أو جل القرآن، لضاق المجال أمام العقل الإنساني، ولانحسرت دائرة التأويل وضافت فسحة القراءة وحرية القارئ، وهذا من رحمة الله عزوجل بعباده في قراءتهم لكتابه، واجتهادهم لبلوغ أحكامه"⁽³⁾.

• الاستدلال بالمصلحة:

إذا نظرنا في جلّ ما تحدث عنه الكتاب الحداثيون في قراءتهم المتعددة والمختلفة للتراث، نجدهم ينطلقون من مبدأ المصلحة العامة المقترضة لتعليل الحكم ووجوده، متذرعين بأعمال لجنة من الصحابة الكرام أمثال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما يذهبون إلى أن الممارسة التي تجسدت في كثير من أفعال الصحابة كان دافعها المصلحة يقول الجابري: "المبدأ الوحيد الذي كانوا (الصحابة) يراعونه دوماً هو المصلحة، ولا شيء غيرها (...). صارفين النظر عن النص حتى ولو كان صريحاً قطعياً، إذا كانت الظروف الخاصة تقتضي مثل هذا التأجيل للنص"⁽⁴⁾، ونفس الفكرة اعتمدها نصر حامد أبو زيد حين يذهب إلى القول في ذات السياق بأن " عمر بن الخطاب [رضي الله عنه] قد أدرك حكمة التشريع الذي يعطي للمؤلفة قلوبهم نصيباً من الزكاة لا من بنية النص ذاته، بل من السياق العام للنص، فأدرك أن حكمة هذا التأليف تقوية الإسلام الذي كان ضعيفاً، ومع قوة الإسلام وسيطرته على الجزيرة العربية وامتداده إلى ما وراءها لم يعد ثمة حكمة في إعطاء جزء من الزكاة لمن لا يستحقها (...). وبنفس الفهم من جانب عمر لحكمة فرض حد السرقة لم يقم هذا الحد على العبدین

¹ سعيد النكر، سؤال المعاصرة والشرعية في قراءة النص القرآني، ص/119.

² ينظر: محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، المركز الثقافي العربي، ط2، الدار البيضاء، بيروت، 1991، ص/19.

³ سعيد النكر، سؤال المعاصرة والشرعية في قراءة النص القرآني، ص/195.

⁴ محمد عابد الجابري، الدين والدولة وتطبيق الشريعة، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، لبنان، 1996، ص/12.

اللذين سرقا من سيدهما الذي كان يجمعهما و هدد ابن الخطاب السيد نفسه بقطع يده لو عاد العبدان للسرقة مرة أخرى⁽¹⁾.

وقد اعتمدوا على تلك التصرفات الشخصية لجلة من الصحابة رضي الله عنهم في تبرير الاعتداد بالمصلحة انطلاقاً من كون أن عمل الصحابة ليس تشريعاً يجب الأخذ به، و البناء عليه والعمل به إذا صح النقل عنهم، والغالب أن ما اعتمدوا عليه (أقصد الحدائين) روايات وردت على طريقة المؤرخين، فهي لا تستند إلى سند خاص بها، فضلاً عن معارضتها لصحيح المنقول، وفي الغالب تكون مجملة لا تأتي بتفصيل.

• خاتمة:

آيات الأحكام في القرآن الكريم بالنظر إلى ما حدده الأصوليون مقصورة على عدد محصور، يمكن عده، وهو مبني على التضييق في التشريع من جهة، ومن جهة ثانية تنحصر تلك الآيات حول المفهوم العملي التطبيقي المباشر.

ولكن بالنظر إلى الآيات إجمالاً نجد أن عدد المقاصد والكليات العامة والقواعد والأحكام الكبرى والتعليقات المبررة أكثر من أن تحصى، أو تستوفىها دراسة، وأن دراسة هذه المقاصد والبحث عنها يحتاج إلى جهد مؤسسات.

وتختلف هذه المؤسسات بالنظر إلى طبيعة الأحكام التي تتضمنها الآيات، فهناك من المقاصد ما يندرج تحت الأحكام التكاليفية لعموم المكلفين، ومنها ما تعبر عنه المؤسسات الاقتصادية، ومنها ما يدخل تحت دائرة الأخلاق والبعض الآخر تمثله الدولة ممثلاً في السياسة الشرعية...

يتعين النظر والاحتكام إلى كليات الشريعة ومقاصدها العامة في النوازل والأحداث المتجددة التي تظهر في فترة من الفترات لتغير الظروف و حدوث الطوارئ، فإذا نظر الفقيه إلى المسألة من باب الكليات، ظهرت له أحكامها ومقتضياتها و متطلباتها.

إذا علم عموم المكلفين بمقاصد الحكم الشرعي، تبين لهم المصلحة والمنفعة التي يقتضيها، مما يشجعهم على الامتثال أو الانتهاء، وتظهر لهم في المقابل المفساد المترتبة فيجتنبوا ما كان نهياً ويمتثلوا ما كان أمراً.

والامتثال للحكم الشرعي مقصد في ذاته وإن لم تظهر منه الحكمة، وكفي النظر إلى هذا الحكم انطلاقاً من مصلحة عامّة تقتضي أن الله سبحانه وتعالى أعلم بحال عباده ومآلهم وأنه مطلع على الغيب الذي قد نجله عمّا يترتب عن الحكم.

كما أنه يزيد بلا شك أورية الامتثال للحكم الشرعي بمقاصده في قناعة المكلف في أن يسلك الطريق الصحيح الذي يبعث على الاحترام المتبادل للأشخاص فيما بينهم لحصول العلم بينهم، وقد كان يرى ابن القيم رحمه الله أنه: "كلما كان السامع أعرف بالمتكلم، وقصده، وبيانه، وعاداته كانت استفادته للعلم بمراده أكمل وأتم"⁽¹⁾.

¹ نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، المركز الثقافي العربي، ط7، الدار البيضاء، بيروت، 2008، ص/104.

اتباع المقاصد والتعليل بها وفق مقتضى النص سعيه لا محالة إعادة قراءة لكثير من النصوص التشريعية في ضوء المستجدات المستحدثة دون إهمال لمقاصد الحكم الشرعي المستنبط سابقا، بل ذلك مما يدعمه ويزيده إضافة علمية معتبرة.

الاعتماد على المصالح والمفاسد في قراءة بعض المسائل المستحدثة ليس من شأن الفقيه فحسب، بل يعتبر ذلك في ضوء ما هو موجود من خصوصيات مؤسسات علمية مجتمعة تجمع بين الفقه والاقتصاد والسياسة الشرعية.

الضابط في الاعتماد على المقاصد الشرعية عدم الوقوف على ظواهر الأدلة الجزئية، وإهمال الأدلة الكلية العامة فإن في ذلك هدم للشريعة، وإخلال بالحكم وغاياته ومقاصده، فإذا وقع التعارض بين الجزئي والكلبي رجع إلى الكلبي وفق مقتضى الشريعة.

مراعاة المقاصد لا يعني تجاوز النصوص الشرعية والتفلسف من سلطانها، بل هو تعضيد لها، وإغناء لدلالات الحكم الشرعي لاختلاف الأفهام من جهة، واختلاف العصور من جهة أخرى.

لقد حدّد الإمام القرافي العلاقات القائمة بين مراد النص وألفاظه ومعانيه في فهم دلالة النص وإجرائه على وفق معهود العرب في خطابها، فقال: "يحمل اللفظ على الحقيقة دون المجاز، والعموم دون التخصيص، والإفراد دون الاشتراك، والاستقلال دون الإضمار، وعلى الإطلاق دون التقييد، وعلى التأصيل دون الزيادة، وعلى الترتيب دون التقديم والتأخير، وعلى التأسيس دون التأكيد، وعلى البقاء دون النسخ، وعلى الشرعي دون العقلي، وعلى العرفي دون اللغوي؛ إلا أن يدل دليل على خلاف ذلك"⁽²⁾، وهذا العمل من القرافي هو ضبط لقواعد اللفظ في لسان العرب.

العناية بالقصد ومراد المتكلم لكون دلالة الخطاب تابعة لقصد المتكلم وإرادته، لذلك هناك فرق بين قراءة النص الشرعي وبين الحكم الشرعي، إذ الأول مبني على فهم دلالة النص من خلال العلاقات القائمة بين ألفاظه، بخلاف الثاني الذي يتطلب عرف الشارع في خطابه، ومقاصد الشريعة، وهو ما عبر عنه الزركشي بالتفسير بالمقتضى من معنى الكلام والمقتضى من قوة الشرع⁽³⁾.

معرفة المقاصد والأغراض تعتمد على القراءة الجامعة التي تضع الجزئيات في إطار الكليات، وترد الفروع بأصولها، وتبني على القرائن ومقتضيات الأحوال المحيطة بالنص والظروف وأسباب النزول وأسباب الورود، وإدراك العلاقات القائمة بين الألفاظ والمعاني في النص، كما تقتضي الوقوف على عرف المتكلم وعاداته في خطابه أي: الشارع الحكيم⁽⁴⁾.

¹ ابن القيم الجوزية، مختصر الصواعق المرسله على الجهمية والمعتلة، اختصار: محمد الموصلي، تحقيق: الحسن بن عبد الرحمان العلوي، مكتبة أضواء السلف، الرياض، السعودية، ط1، 2004، ج1، ص/121.

² القرافي، الذخيرة، تحقيق: محمد حجي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1994، ج1، ص/72.

³ ينظر: بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1988، ج2، ص/161.

⁴ ينظر: محمد عبد الفتاح الخطيب، معهود العرب في الخطاب وإشكالية قراءة النص الشرعي، ص/68 وما بعدها.

لم يعدّ الفكر الإسلامي في ارتباطه بالنص الشرعي "في وقت من الأوقات، إمكانية وجود قراءة مثالية منتهية لقارئ مثالي للنص القرآني، ولم ترد في القرآن آية توجي بإمكانية حدوث قراءة منتهية، وفهم تام للنص، بل نجد سعي العلماء منضبا على تطوير ملكات القراء، ابتداء من المفسرين أنفسهم (...) إن النص القرآني يقف جانب كل قراءة جادة، لا تفتح النص، أو تفجره بحسب تعبير أتباع المدرسة التفكيكية، بقدر ما تحاوره، وتبني المعنى المتجدد، مع احترام الشروط التي يملها"⁽¹⁾.

المقاصد ليست واحدة في استنباطها والتدليل عليها، وإنما هي متعددة وردت في آيات القرآن الكريم بحسب كل آية يريد الشارع تبليغها إلى المتلقي، لذلك يمكن أن نعتمد التقسيم الثلاثي للمقاصد المنبني على المستويات أو الدوائر الآتية: دائرة المقاصد الكلية العامة، ودائرة المقاصد الخاصة، ودائرة المقاصد الجزئية⁽²⁾.

علم المقاصد لا يعني نهاية علم الأصول، أو أنه يتعارض معه كما يروج له الحداثيون، أو هو مأزق النموذج الأصولي التقليدي، ومع الإنصاف ننقل نصا لنصر حامد أبو زيد قد أبدى فيه رؤية منطقية ومنهجية حول علم المقاصد في علاقته بعلم الأصول، جاء في هذا النص قوله: "التوصل إلى هذه المقاصد الكلية من خلال القراءة التفصيلية المتأنية والعميقة للنصوص الدينية ذات الطابع التشريعي من خلال علاقاتها التركيبية بعضها ببعض من جهة، ومن خلال علاقاتها بنصوص العقيدة والأخلاق من جهة أخرى، والمقصود بالعلاقات التركيبية للنصوص التشريعية علاقات الإجمال والبيان والعموم والخصوص، والنسخ... وغير ذلك، وهي علاقات إنتاج الدلالة الشرعية فيما أجمل في نص من النصوص يكون مبينا و مفصلا في نصوص أخرى، وكذلك ما كانت دلالاته عامة قد يكون هناك نص آخر يحوله من العموم إلى الخصوص، ثم هناك أخيرا ظاهرة نسخ بعض التشريعات واستبدال تشريعات أخرى بها للتخفيف أو التدرج مراعاة لتبدل الأحوال و تغير الظروف"⁽³⁾.

إن الهدف من البحث في علم المقاصد ونشره هو البحث في الآليات و تحليلها لأجل فهمها و استنباط القواعد و الضوابط الجديدة التي تتفق مع رؤيتنا لعالم جديد عصري يتوافق مع هويتنا الدينية.

• قائمة مصادر ومراجع البحث:

1. الاجتهاد (النص، الواقع، المصلحة)، أحمد الريسوني، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 2000.
2. الاجتهاد المقاصدي من التصور الأصولي إلى التنزيل العملي، جاسر عودة، الشبكة العربية للأبحاث و النشر، بيروت، لبنان، ط1، 2013.
3. الإحكام في أصول الأحكام، سيف الدين أبو الحسن الآمدي، مؤسسة النور، ط1.
4. إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، تعليق: أبو الفضل أحمد بن علي، دار الغد الجديد، ط1، 2005.

¹ محمد بن أحمد جهلان، فعالية القراءة وإشكالية تحديد المعنى في النص القرآني، صفحات للدراسات و النشر، ط1، دمشق، 2008، ص/88.

² ينظر: أحمد الريسوني، مقاصد المقاصد (الغايات العلمية و العملية لمقاصد الشريعة)، ص/92 وما بعدها.

³ نصر حامد أبو زيد، الخطاب و التأويل، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، بيروت، 2000، ص/201.

5. إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، محمد بن علي الشوكاني، تحقيق: أبو حفص بن العربي الأثري، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط2، 2009.
6. الإسلام والحداثة، عبد المجيد الشرفي، الدار التونسية للنشر، تونس، ط2، 1991.
7. أسلوب التعليل في اللغة العربية، أحمد خضير عباس، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2007.
8. إشكالية تجديد أصول الفقه، أبو يعرب المرزوقي و محمد سعيد رمضان البوطي، حوارات لقرن جديد، دار الفكر المعاصر، دمشق، سوريا.
9. الإمام الشافعي وتأسيس الإيديولوجيا الوسطية، نصر حامد أبو زيد، سينا للنشر، القاهرة، مصر، ط1، 1992.
10. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1988.
11. بنية العقل العربي، محمد عابد الجابري، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط2، 1991.
12. تاريخية الفكر العربي الإسلامي، محمد أركون، ترجمة: هاشم صالح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1996.
13. جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، محمد أبو القاسم حاج حمد، دار الهادي، بيروت، لبنان، ط1، 2004.
14. الخطاب والتأويل، نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 2000.
15. دراسات عقلية وروحية في الفلسفة الإسلامية، علي عبد الفتاح المغربي، مكتبة وهبة القاهرة، مصر، ط1، 1995.
16. الدين والدولة وتطبيق الشريعة، محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1996.
17. الذخيرة، القرافي، تحقيق: محمد حجي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1994.
18. روح الحداثة، طه عبد الرحمان، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2006.
19. سؤال المعاصرة والشرعية في قراءة النص القرآني، سعيد النكر، دار السلام للطباعة والنشر، ط1، 2013.
20. علم التخاطب الإسلامي (دراسة لسانية لمناهج علماء الأصول في فهم النص)، محمد محمد يونس علي، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 2006.
21. العمل الديني وتجديد العقل، طه عبد الرحمان، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط4، 2006.
22. عيال الله، محمد الطالبي، دار سراس للنشر، تونس، 1992.
23. فعالية القراءة وإشكالية تحديد المعنى في النص القرآني، محمد بن أحمد جهلان، صفحات للدراسات و النشر، دمشق، ط1، 2008.
24. فهم الإسلام في ظلال الأصول العشرين، جمعة أمين عبد العزيز، دار الدعوة، ط5، 2003، مصر.
25. القاموس المحيط، الفيروز آبادي، تحقيق: مجدي فتحي السيد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر.

26. القراءة الحداثية للنص القرآني و أثرها في قضايا العقيدة، محمد سالم النعيمي، مصر العربية للنشر والتوزيع، ط1، 2016.
27. القرآن والتشريع، صادق بلعيد، مركز النشر الجامعي، تونس، ط2، 2000.
28. الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية، أحمد الرسوني، دار الكلمة للنشر والتوزيع، مصر، ط1، 2009.
29. لسان العرب، ابن منظور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1977.
30. مختصر الصواعق المرسله على الجهمية والمعطله، ابن القيم الجوزية، اختصار: محمد الموصلبي، تحقيق: الحسن بن عبد الرحمان العلوي، مكتبة أضواء السلف، الرياض، السعودية، ط1، 2004.
31. المستصفي من علم الأصول، أبو حامد الغزالي، تحقيق: محمد مصطفى أبي العلا، شركة الطباعة الفنية المتحدة بمصر، القاهرة.
32. المصباح المنير، أحمد بن محمد الفيومي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1.
33. معجم مصطلحات أصول الفقه، علاء الدين نجم، يوسف أبو حسان، مؤسسة الرسالة، عمان، الأردن، 1993.
34. معهود العرب في الخطاب و إشكالية قراءة النص الشرعي، "مقال"، محمد عبد الفتاح الخطيب، مجلة الترتيل، العدد 2، سبتمبر 2014، الرباط، المغرب.
35. مفهوم النص، نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط7، 2008.
36. مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر بن عاشور، تحقيق: محمد الطاهر ميساوي، البصائر للإنتاج العلمي، ط1، 1998.
37. مقاصد المقاصد (الغايات العلمية والعملية لمقاصد الشريعة)، أحمد الرسوني، الشبكة العربية للأبحاث و النشر، بيروت، لبنان، ط2.
38. المنخول من تعليقات الأصول، الإمام الغزالي، اعتناء: ناجي السويد، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، لبنان، ط1، 2008.
39. الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق الشاطبي، تحقيق: أبو الفضل أحمد بن علي، دار الغد الجديد، ط1، 2011.
40. نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي، محمد شحرور، الأهالي للنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 2000.

التناسب في القراءة السياقية في توجيه المتشابه اللفظي

ملاك التأويل لابن الزبير الغرناطي

Proportionality in contextual reading
in the interpretation of Qur'anic similar words
in "Mileket'taawil" of IbnAz-zubair al-Garnati

د. جميلة قوجيل

جامعة البليدة 2 لونيبي علي، الجزائر

الملخص:

كان علماء القرآن على وعي بانسجام الخطاب القرآني فهو كالسورة الواحدة تتضافر معانيه وتأخذ آياتها بأعناق بعض إلى دلالة مقصودة وتترتب سوره في خيط ناظم هو المقصد الأسمى من الذكر الحكيم. ومثل التناسب صورة من صور هذا الانسجام ومبدأ نصياً يكشف عن آليات البناء ويؤكد النظرة الكلية الواعية للعلماء الأوائل بالنص وأتمها لا تنحصر في لفظ رائق أو معنى لطيف أو عبارة متقنة التأليف أو محسنٍ بديعيٍّ أو معنويٍّ.

إنّ هذا الوعي بمبدأ التناسب ووظيفته في وحدة الخطاب ظهر من خلال جهد واضح لتوجيه متشابه ألفاظه حيث ترتبط وضعا وصيغة وترتبا بسياقها الذي أوجها. هذا ما يحاول البحث تبيانه عند أهمّ علّمٍ من أعلام علم توجيه المتشابه اللفظي أبو جعفر أحمد بن الزبير الغرناطي في " ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه متشابه اللفظ من أي التنزيل".

الكلمات المفتاحية: التناسب، السياق، النصية، علم توجيه المتشابه اللفظي، ابن الزبير الغرناطي.

Abstract:

The scholars of the Qur'an were aware of the harmony of the Qur'anic discourse. It is like the single surat that unites its meanings and takes its verses to certain meanings and follows in a precise order in the Book of Allaah. The proportionality is a form of harmony and a textual principle that reveals the mechanics of textual formation. It confirms the holistic view of the early scientists in the text, and it is not limited to a nice word or a nice or good meaning. This awareness of the principle of proportionality and its function in the unity of discourse has emerged through efforts that seek to direct the significance of the similar Quranic words which are closely linked to their context.

This research attempts to explain this subject through the efforts of One of the most famous scientists specialized in the interpretation of similar Qur'anic words, IbnAz-zubair al-Garnati in his book Mileket'taawil.

Key words: proportionality, context, textual, harmony of text, IbnAz-zubair al-Garnati

التناسب لغة من الفعل ناسب يناسبه فهو نسيبه أي قريبه، والنَّسَبُ القرابة. وهو مشتق من الجذر نَسَبَ "النُّونُ وَالسِّينُ وَالْبَاءُ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ قِيَاسًا إِتِّصَالُ شَيْءٍ بِشَيْءٍ. مِنْهُ النَّسَبُ، سُيِّ لَاتِّصَالِهِ وَبِلَاتِّصَالِ بِهِ" ¹.
ومن المجاز أن يقال: بين الشَّيْئَيْنِ مناسبة وتناسب أي مشاكلة وتشاكل. والتناسب هو الاعتدال أي التَّوَسُّطُ بين حالين كما أو كيفاً، فالجسم المتناسب هو المعتدل بين الطول والقصر والسمن والنَّحَافَة، وكذلك تناسب الماء أو الجوّ اعتدالهما بين البرودة والحرارة ². أمّا اصطلاحاً فيقصد به الائتلاف والتَّوْفِيقُ والمُواخَاةُ ومراعاة النَّظِيرِ، وهو على صيغة التفاعل وهو سعي من فاعلين لإقامة نسبة وقرابة حيث يجتمعان لما بينهما من تشابه وموافقة. والنَّسَبَةُ إيقاع التَّعْلُقِ بين الشَّيْئَيْنِ فيما يراه الشريف الجرجاني في التعريفات ³. وهو مبدأ كوني وشرط من شروط الجمال اتَّسَمَتْ به كَافَّةُ مخلوقاته، قال عزَّ وجلَّ: (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاقُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ) (المَلِك: الآية 03). ويتفرَّع في النصِّ إلى مناسبة معنى لفظ ومعنى لفظ، " فالمعنوية أن يبتدئ المتكلم بمعنى ثم يتم كلامه بما يناسبه معنى دون لفظ... وأمّا المناسبة اللفظية فهي توخي الإتيان بكلمات مترنات " ⁴.

إنَّ التَّنَاسِبَ مبدأ بنيوي يسهم في تأليف النص بل هو ضرورة لا تستقيم حين غيابها خاصية الشعريَّة، وهذا ما تجلَّى في بيتي أبي العباس الناشئ الذي يرى أنه المشاكلة التي تجمع المختلف حاصراً مفهوم الشعر في هذا المبدأ من خلال أسلوب القصر ⁵:

إنَّما الشعر ما تناسب في النظم م، وإن كان في الصفات فنوناً

فأتى بعضه يشاكل بعضاً قد أقامت له الصدور المتوناً

وما خالف هذا المبدأ كان كبعر الكبش متناظراً يقول عن ذلك أبو البيداء الرياحي ⁶:

وشعر كبعر الكبش فرق بينه لسان دعي في القريض دخيل

وقد أورد الجاحظ شرحاً لهذا المبدأ البنيوي وما يقابله في قوله: " وأجود الشعر ما رأيت متلاحماً الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغاً وسبك سبكا واحداً، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان.

¹ - أبو الحسين أحمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة، تج: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ط1، 1399 هـ - 1979 م، ج 05 / ص 423.

² - ينظر: - أبو القاسم جار الله الزمخشري: أساس البلاغة، تج: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1419 هـ - 1998 م، ج 2، ص 265.

- أبو الفضل محمد بن منظور: لسان العرب، دار صادر، ط3، بيروت، 1414 هـ، ج 1، ص 755-756.

- أبو الحسن علي بن سيده: المحكم والمحيط الأعظم، تج: عبد الحميد هندواي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1421 هـ - 2000 م، ج 2، ص 14.

³ - ينظر: - أحمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ط1، 1403 هـ - 1983 م، ج 1، ص 11.

- علي بن محمد الشريف الجرجاني: كتاب التعريفات، تج: جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1403 هـ - 1983 م، ص 241.

⁴ - عبد العظيم بن أبي الإصبع العدواني: تحرير التعبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تقديم وتحقيق: حفي محمد شرف، الجمهورية العربية المتحدة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلام، ط1، د.ت، ص 363-376.

⁵ - أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تج: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط5، 1401 هـ - 1981 م، ج 2، ص 113.

⁶ - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، ط1، بيروت، 1423 هـ، ج 1، ص 75.

وأما قوله «كبعر الكبش»، فإنّما ذهب إلى أنّ بعر الكبش يقع متفرقا غير مؤتلف ولا متجاور. وكذلك حروف الكلام وأجزاء البيت من الشعر، تراها متفقة ملسا ولينة المعاطف سهلة، وتراها مختلفة متباينة، ومتنافرة مستكرهة، تشق على اللسان وتكده، والأخرى تراها سهلة لينة، ورطبة مواتية، سلسلة النظام، خفيفة على اللسان، حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد¹، فكان التناسب طريقا للسلاسة والسهولة والخفة أما التناظر فهو طريق مستكره مستثقل وشاق.

وكان لمفهوم التناسب كبير عناية في تفكير العرب التنظيري التقدي والبلاغي وإن ارتبط بتمائل الألفاظ وانسجامها الصوتي والتقارب أو التضاد المعنويين اللذين لا يتجاوزان حدود الجملة والبيت الشعري أو البيتين فكانت رؤية زخرفية لفظية². ولحازم القرطاجني (ت 684هـ) فضل تجاوزها إلى بناء النص الشعري في رؤية تتسم بالنضج والعمق حيث اتخذ المفهوم بعدا وجوديا كونيا تحاكيه القصيدة، فيتمّ بذلك اختيار الملائم من الألفاظ والمعاني والأعاريض لوضع متناسب يراعى فيه توافق المطلع والمقطع وترتيب الفصول فكان التناسب قرين الوحدة والاتلاف النصيين عند هذا المفكر والبلاغي والناقد.

وفي إطار اعتماد هذا المبدأ مبدأ تنظيميا ينتج نصا متألّفا ومنسجما مع عناصره الجزئية ومع منتجه وظروف إنتاجه ومتلقّيه، نتساءل عن نظرة علماء القرآن له وعن مدى وضوح المفهوم وأشكاله وطرق تَمْظْهره في الخطاب وهل وقف عند الحدود الضيقة للبناء الجمليّام نُظر إلى القرآن على وحدة كئيّة متألّفة النسيج ؟

نحاول في هذا البحث في سياق دراسات علماء القرآن ورؤاد التفسير باعتبارهم الأوائل الذين اشتغلوا على فهم نصّ التّزليل النصّ الأوّل في الثقافة العربيّة الإسلاميّة ومعرفة فرائده ودقائق أساليبه أن نقف على جهودهم في الكشف عن انسجامه من خلال مبدأ التناسب وتجليّاته في إطار السورة الواحدة ومجموع السور التي تجمعها بعض العلائق، وفي ظلّ القرآن ككلّ من خلال علم من علوم القرآن وفنّ من فنون التفسير هو علم توجيه المتشابه اللفظي معتمدين المنهج الوصفي التحليلي.

وتكمن أهمية هذه الدراسة فيما تكشف عنه من دور التناسب في بناء النص وإسهام العلماء الأوائل في إظهار آياته ووعيمهم المبكر بوحدة النصّ القرآني وأنّ التناسب لم يقف عند حدود الرؤية الزخرفية التحسينيّة في التراث وإنما عكس نضجا وعمقا نحاول في هذا البحث أن نخبر امتداده وأبعاده وتنزله في سياق زمني ومكاني... وإن كانت لسانيات النص تبحت في الانسجام والاتّساق ومعايير النصيّة فإنّ علماء القرآن كان لهم السبق إلى إدراكه في النصّ القرآني بما يتواءم وظروف عصرهم وحيثيّات التّأليف في منظورهم وإن اختلفت العُدّة المفهوميّة والاصطلاحية.

أولا - القرآن كالسورة الواحدة والآية في تضامه:

وعى العلماء الأوائل بكئيّة النصّ وتألّفه وعيا مبكرا وكان علم التفسير مجالا خصبا تجسّد فيه هذا الوعي وإن تلوّنت هذه الرؤية بألوان مختلفة على اعتبار تشعبات المفسرين واتّجاهاتهم في النّظر في النصّ القرآني منذ القرن الثاني للهجرة كالاتّجاه النّحويّ والفقهّي البلاغيّ والعقليّ. نمثّل لبعض سمات هذا الوعي من خلال نظرة بعض النّحاة وأهل البلاغة وأرباب العلوم العقليّة والفلسفيّة، هذه الصبغ المختلفة التي اصطبغ بها النّظر إلى كتابه تعالى في تفسير آيه والتي أجمعت على تضامه وتألّف سورته.

¹ - الجاحظ: البيان والتبيين، ج 1، ص 75.

² - ينظر: أبو محمد عبد الله بن سنان الخفاجي: سز الفصاحة، دار الكتب العلمية، ط 1، 1402هـ، ص 169-278.

برزت الرؤية الكلية عند رواد الاتجاه التحوي الذين بحثوا في معاني القرآن وإعرابه فيما تعلق بتفسير بدايات بعض السور التي خرجت عن المعتاد وتعليل بعض المحذوفات. من ذلك ما قاله أبو الحسن الكسائي (ت 189هـ) في تعليل حذف جواب القسم المتقدم في قوله تعالى: (يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (6) تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ) (النازعات: 06-07) فيما نقله عنه فخر الدين الرازي: "قال الكسائي: الجواب المضمرة هو أن القيامة واقعة وذلك لأنه سبحانه وتعالى قال: (وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا) (الذاريات: 1) ثم قال: (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ) (الذاريات: 5) وقال: (وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا... إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٍ) (المرسلات: 1، 7) فكذلك هاهنا فإن القرآن كالسورة الواحدة"¹. فرأى التركيب الجملي في الآيات الأولى في سورة النازعات الواقعة قسماً لا يحتاج إلى جواب لاتصالها بسورتي الذاريات والمرسلات اللتين استهلتا بالأسلوب ذاته وورود الجواب فيهما كافٍ ليدل على معناه في باقي السور فلم يحتج لذكر الجواب في هذه السورة لدلالة السابق عليه والسياق العام في القرآن ككل.

وهذا ما بينه أبو إسحاق الزجاج (ت 311هـ) في رؤية نحوية للقرآن: "القرآن كله كالسورة الواحدة، ألا ترى أن جواب الشيء قد يقع وبينهما سُورٌ كما قال جلَّ وعزَّ جواباً لقوله: (وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ) (الحجر: من الآية 06). فقال: (ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ) (القلم: 01-02). ومثله في القرآن كثير"². وقال في موضع آخر: "القرآن كله كالسورة الواحدة، لأنه متصلٌ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ فجعلت " لا " ههنا بمنزلتها في قوله: (لِيَأْتِيَ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ) (الحديد: من الآية 29). وقال بعض النحويين: " لا " رد لِكَلَامِهِمْ. كَأَنَّهُمْ أَنْكَرُوا الْبِعْثَ فَقِيلَ لَا لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا ذَكَرْتُمْ أَقْسَمَ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَقَوْلُهُ: (إِنكُمْ مَبْعُوثُونَ) (هود: من الآية 07) دلَّ على الجواب"³.

وقد أكد تلميذ الزجاج أبو علي الفارسي (ت 377هـ) هذا الوعي في تعليقه لوقوع " لا " في مستهل سورة القيامة حيث قال: " «لا» صلة زائدة كما زيدت في قوله لِيَأْتِيَ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ (الحديد: 29) ويعترض هذا بأن هذه في ابتداء كلام. ولا تزداد «لا» وما نحوها من الحروف إلا في تضاعيف كلام. فينفصل عن هذا بأن القرآن كله كالسورة الواحدة وهو في معنى الاتصال فجاز فيه هذا"⁴. فظهر هذا الاهتمام في إطار الإجابة عن أسئلة نحوية فيما ابتدأت به بعض السور من قرائن لا تكون في مستهل الكلام.

وقال بدر الدين العيني (ت 855هـ) عن الضمير المنصوب في الفعل في قوله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ) (القدر: 01) ذاكراً دور السياق واتصال سور القرآن في الفهم: "كناية عن القرآن يرجع إليه من غير أن يسبق ذكره لفظاً. لأنه مذكور حكماً باعتبار أنه حاضر دائماً في ذهن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو لأن السياق يدل عليه أو لأن القرآن كله في حكم سورة واحدة"⁵.

ونشأ التفسير البلاغي على يد جار الله الزمخشري (ت 538هـ) قائماً على علمي المعاني والبيان اللذين اعتبرهما عدّة للمفسر فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن بز أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرية أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه،

¹ - أبو عبد الله فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب - التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، ط3، بيروت، 1420 هـ، ج 31، ص 33.

² - أبو إسحاق إبراهيم الزجاج: معاني القرآن وإعرابه، تج: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، ط1، بيروت، 1408 هـ - 1988 م، ج 2، ص 137-138.

³ - نفسه، ج 05، ص 251.

⁴ - أبو محمد بن عطية الأندلسي: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تج: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1422 هـ، ج 5، ص 401.

⁵ - أبو محمد بدر الدين العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، ط1، بيروت، دت، ج 19، ص 309.

واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحييه لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان وتمهّل في ارتيادهما أونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنا، وبعثته على تتبع مظاهرها همّة في معرفة لطائف حجة الله... متصرفا ذا دراية بأساليب النظم والنثر، مرتاضا غير ريّض بتلقيح بنات الفكر قد علم كيف يرتّب الكلام ويؤلف، وكيف ينظم ويرصف، طالما دفع إلى مضايقه، ووقع في مداحضه ومزالقه¹.

ظهرت مراعاة الزمخشري للنظم والرّصف فيما أطلق عليه علم محاسن النّظم في قراءة سياقيّة لأسلوب القرآن قائمة على المعاني الإضافيّة التي يكشف عنها الناظر من خلال علم المعاني باحثا في اتّساق الآي وتجاوبها. من أمثلة هذه النّظرة الكليّة ما لاحظته من تكرار وتشابه في قصص الأنبياء متسائلا عن علّة هذا التّكرار: " فإن قلت: كيف كرّر في هذه السورة في أوّل كلّ قصّة وآخرها ما كرّر؟ قلت: كلّ قصّة منها كتنازل برأسه، وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها، فكانت كلّ واحدة منها تدلي بحقّ في أن تفتح بما افتتحت صاحبها، وأن تختتم بما اختتمت به، ولأنّ في التّكرير تقريرا للمعاني في الأنفس وتثبيتا لها في الصّدور"²، فأوضح التّشابه الوظيفي من حيث الفائدة والعبارة التي تنتج عن كلّ قصّة من قصص سيّدنا موسى وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام فيسورة الشعراء رغم استقلالها بذاتها، وتشابه المطالع والمقاطع في ظلّ القراءة السياقيّة التي تراعي نظم النصّ. إلى غيرها من ملامح مراعاة مقتضى الحال في الكشّاف في الذكر الحكيم.

ويرى الزمخشري أنّ السورة بمنزلة المنازل والمراتب التي يترقّى فيها القارئ مجيبا عمّا يمكن أن يتساءل عنه المتأمّل من فائدة التّقطيع إلى سور: " ومن فوائده: أنّ الجنس إذا انطوت تحته أنواع، واشتمل على أصناف، كان أحسن وأنبّل وأفخم من أن يكون بيانا واحدا. ومنها أن القارئ إذا ختم سورة أو بابا من الكتاب ثم أخذ في آخر كان أنشط له وأهزل لعطفه، وأبعث على الدرس والتحصيل منه لو استمر على الكتاب بطوله. ومثله المسافر، إذا علم أنه قطع ميلا، أو طوى فرسخا، أو انتهى إلى رأس بريد: نفس ذلك منه ونشطه للسير. ومن ثمّ جزأ القراء القرآن أسباعا وأجزاء وعشورا وأخماسا. ومنها أنّ الحافظ إذا حذق السورة، اعتقد أنّه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة بنفسها لها فاتحة وخاتمة، فيعظم عنده ما حفظه، ويجل في نفسه ويغتنب به ومنه حديث أنس رضي الله عنه: «كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران، جد فينا ومن ثمة كانت القراءة في الصلاة بسورة تامة أفضل. ومنها أنّ التفصيل سبب تلاحق الأشكال والنظائر وملاءمة بعضها لبعض. وبذلك تتلاحظ المعاني ويتجاوب النظم، إلى غير ذلك من الفوائد والمنافع"³. ويتجلّى للعيان الرؤية الكليّة للذكر الحكيم عند الزمخشريّ والوعي بأجزائه التي يربطها التشابه والتّلاؤم.

ومن الاتّجاه العقلي الفلسفيّ مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (ت 606هـ) الذي يذهب هذا المذهب حتّى يرى القرآن كالأية الواحدة في تضامه واتّحاده في تبيان علّة وقوع اللام في بداية سورة قريش رافضا أن تختصّ هذه العلّة بهذه السورة وسورة الفيل أو بعض السور كما ذهبت إليه التّفاسير السّابقة، وإنّما هو حال القرآن ككلّ ويزيد على ذلك بما يوضّحه من ضروب الآيات وتعلّق مطلقها بخاصّها في رؤية تتجاوز حدود الآية الواحدة والآيتين إلى ضروب المعاني وتعالقها حيث قال: "وأما تعلّق

¹ - أبو القاسم جار الله الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، ط 03، بيروت، 1407 هـ، ج 01، ص 02-03.

² - نفسه، ج 03، ص 334.

³ - نفسه، ج 01، ص 98.

أول هذه السورة بما قبلها فليس بحجة على ما قالوه، لأنّ القرآن كلّه كالسورة الواحدة وكالآية الواحدة يصدّق بعضها بعضها ويبين بعضها معنى بعض، ألا ترى أنّ الآيات الدالة على الوعيد مطلقة، ثمّ إنها متعلقة بآيات التوبة وبآيات العفو¹. ويرى في مقام آخر تألف القرآن وتضامه وإن تنزل في سور مستقلة حيث لا تتناقض أحكامه فدلالة الظاهر في الآية الكريمة: (وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) (آل عمران: 131) على اقتصار النار على الكافرين تتناقض مع ما جاء في سائر آيات الذكر الحكيم ومن الوجوه التي ساقها الرازي قوله: "إنّ القرآن كالسورة الواحدة فهذه الآية دلّت على أنّ النار معدة للكافرين وسائر الآيات دالة أيضا على أنّها معدة لمن سرق وقتل وزنى وقذف، ومثاله قوله تعالى: (كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ) (الملك: 8) وليس لجميع الكفار يقال ذلك، وأيضا قال تعالى: (فَكُبِّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ) (الشعراء: 94) إلى قوله: (إِذْ نُسَبِّحُكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ) (الشعراء: 98) وليس هذا صفة جميعهم ولكن لما كانت هذه الشرائط المذكورة في سائر السور، كانت كالمذكورة هاهنا، فكذا فيما ذكرناه والله أعلم². وهو ممّا في القرآن من تفسير بعضه بعضا "من قبيل حمل بعض الكلام على بعض، كتخصيص العموم وتقييد المطلق وبيان المجمل وتأويل الظاهر ودلالة الاقتضاء وفحوى الخطاب ولحن الخطاب ومفهوم المخالفة"³.

كما تتجلّى النظرة الكلية للقرآن عند علمائنا الأوائل فيما يتعلّق بأسماء السور وألقابها. وقد بيّن جلال الدين السيوطي أنّ الله سَمَّى كتابه بخمسة وخمسين اسما⁴ في مقدّمها القرآن فدلّ اسم "القرآن" على جمعه بين السور فهو يضمّها، والقرآن اسم خاصّ بكتاب الله "ولا يسمّى به شيء من سائر الكتب غيره، وإنّما سمّي قرآنا لأنّه يجمع بين السور فيضمّها"⁵، وما السور إلا منازل من البناء.

ودلّت الألقاب التي تعلّقت بما تشابه من سوره واجتمع في بعض السمات على وعي كليّ بالنصّ وبجزئياته التي تتضامّ من خلال سمات وبني تخصّصها وهي أربعة أصناف⁶: السبع الطوّل والمثون والمثاني والمفصّل "فالسبع الطوّل أولها البقرة وآخرها براءة لأنّهم كانوا يعدون الأنفال وبراءة سورة واحدة ولذلك لم يفصلوا بينهما لأنّهما نزلتا جميعا في مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم وسميت طوّلًا لطولها وحكي عن سعيد بن جبير أنّه عدّ السبع الطول البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس... والمثون: ما ولي السبع الطول سميت بذلك لأنّ كلّ سورة منها تزيد على مائة آية أو تقاربها. والمثاني: ما ولي المثين وقد تسمى سور القرآن كلّها مثاني ومنه قوله تعالى: (كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي) (الزمر: من الآية 23)، (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي) (الحجر: من الآية 87)، وإنّما سمّي القرآن كلّه مثاني لأنّ الأنبياء والقصص تثني فيه ويقال إنّ المثاني في قوله تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي) هي آيات سورة الحمد سمّاها مثاني لأنّها تثني في كلّ ركعة. والمفصّل: ما يلي المثاني من قصار

¹- الرازي: مفاتيح الغيب، ج 32، ص 295.

²- نفسه، ج 9، ص 364.

³- محمد الطاهر بن عاشور التونسي: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، الدار التونسية للنشر، ط 1، تونس، دت، ج 1، ص 27.

⁴- ينظر: عبد الرحمن جلال الدين السيوطي: الإتيان في علوم القرآن، تج: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 1- 1394هـ/ 1974م، ص 178.

⁵- أبو عبيدة معمر بن المثنى: مجاز القرآن، تج: محمد فواد سرگين، مكتبة الخانجي، ط 1، القاهرة، 1381 هـ، ج 01، ص 01.

⁶- يوضّح بدر الدين الزركشي أنّ هذا التقسيم قد ورد "في حديث مرفوع أخرجه أبو عبيد من جهة سعيد بن بشر عن قتادة عن أبي المليح عن وائلة بن الأسقع عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أعطيت السبع الطوّل مكان التوراة وأعطيت المثين مكان الإنجيل وأعطيت المثاني مكان الزبور وفضّلت بالمفصّل" البرهان في علوم القرآن، تج: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، ط 1، 1376 هـ - 1957 م، ج 01، ص 244.

السور سمّي مفصلاً لكثرة الفصول التي بين السور بسم الله الرحمن الرحيم وقيل لقلّة المنسوخ فيه وآخره: (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ) (النّاس: الآية 01)¹، فبيّن المقصود من هذه الألقاب وعلة التسمية.

وينقسم المفصل بدوره إلى طوال وأوساط وقصار فطواله من أوّل سورة الحجرات أو ق إلى سورة البروج، وأوساطه من الطارق إلى البيّنة وقصاره من الزلزلة إلى سورة النّاس²، إضافة إلى ألقاب أخرى كميادينه وبساتينه ومقاصيره وعرائسه وديابجه ورياضه "فميادين القرآن ما افتتح ب (ألم) وبساتينه المفتتح ب (ألر)، ومقاصيره الحامدات، وعرائسه المسبحات وديابجه آل حم، ورياضه المفصل"³. وهي نظرة تقوم على المتشابه.

تبيّن ممّا عرضناه هذا الوعي الكليّ بالنصّ الذي تجلّى عند اللّغويين والتّحاة والمفسّرين في تعليلهم لما ابتدأت به بعض السور كسورتي القيامة وقريش، وفي تعلق اللّاحق من السور بالسابق وفي ورود بعض المحذوفات التي يدلّ عليها السياق أو ما سبق في القرآن ككلّ، وفي النظرة البلاغية للقرآن التي تجاوزت الجملة إلى نظم النصّ وأتساقه والنظرة العقلية المتبعية لترتيب المعاني. كما كانت ألقاب القرآن تجسيدا لهذا الوعي الذي يقوم على أسماء جامعة للسور المتشابهة في مطالعها وعدد آيها. ونمت هذه الرؤية للمتشابه في ألفاظه وأساليبه في علم توجيه المتشابه اللفظي الذي يراعي دور السياق في دقة التعبير القرآني في السورة الواحدة وسور القرآن عامّة. نحاول أن نبينها من خلال التناسب الذي مثل وجها هاما من أوجه انسجام النصّ.

ثانياً- مبدأ التناسب في القراءة السياقية في علم توجيه المتشابه اللفظي - "ملاك التأويل" للغرناطي:

عكس علم توجيه المتشابه اللفظي ووعي العلماء الأوائل بالوحدة الكلية للقرآن وإن تنزل في ثلاث وعشرين سنة وضمّ أربع عشر ومائة سورة، في قراءة تراعي السياق ومقتضى الحال وهو سرّ البلاغة في المنظور العربيّ لذا تجسّد من خلال هذا الفرع من علوم القرآن العلم بالسياق القرآني بامتياز.

يقصد بعلم توجيه المتشابه اللفظي البحث في أسرار الآيات المتشابهات حيث ذكر القصّة والخبر الواحد في صور مختلفة وضروب متنوّعة في موضعين أو أكثر فيتكرّر تقديمًا أو تأخيراً إجمالاً أو تفصيلاً تعريفاً أو تنكيراً بغرض إبراز إعجازه ودقّة تصريفه في آية المحكم ردّاً على الطاعنين فيه. يحدّد الزركشي مرحلته الأولى في العلم الخامس من علوم القرآن وهو "علم المتشابه" في قوله: "وهو إيراد القصّة الواحدة في صور شتى وفواصل مختلفة ويكثر في إيراد القصص والأنباء"⁴. واختزله السيوطي في القصّة فيما حدّده من مفهوم "الآيات المشتمات" في النّوع الثالث والستين من إعجازه: "والقصد به إيراد القصّة الواحدة في صور شتى وفواصل مختلفة"⁵. وربّطه بالقصّة عند الزركشي ومن بعده السيوطي هو من باب ذكر الغالب الغالب في المتشابه وإنّما هو علم يتّسع إلى ما تشابه من ألفاظه وتراكيبه في القصّة وغيرها، ولم يقصد بالقصّة المعنى الاصطلاحي المتعارف عليه والأمثلة التي شملت كلّ ضروب القرآن فيما ساقاه في البرهان والإتقان دليل على ذلك وأوضحت هذا الفهم عند كلّ منهما ولعلّ ذلك يندرج فيما سميّ نياً⁶.

¹ - الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج 01، ص 244-245.

² - ينظر: مجموعة من الأساتذة والعلماء المتخصصين: الموسوعة القرآنية المتخصصة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ط 1، مصر، 1423 هـ - 2002 م، ص 224.

³ - ينظر: - أبو الحسن علم الدين سخاوي: جمال القراءة وكمال الإقراء، تج: مروان العطيّة - محسن خرابة، دار المأمون للتراث، ط 01، دمشق - بيروت، 1418 هـ - 1997 م، 89.

⁴ - ينظر: - الزركشي: البرهان، ج 1، ص 112-

⁵ - السيوطي: الإتقان، م 03، ص 390.

⁶ - ينظر: - الزركشي: البرهان، ج 1، ص 112-154.

برزت هذه النظرة الكلية عند علماء توجيه المتشابه اللفظي من خلال أول مؤلف في هذا المضمار للخطيب الإسكافي (ت 420هـ) "درة التنزيل و غرة التأويل" الذي كشف عن وجه من وجوه الإعجاز هو تناسب معاني القرآن ومبانيه ودقائق أسلوبه وإحكامه فيما تشابه من ألفاظه. فكان توجيه هذا المتشابه في تبيان دقائق التصريف القرآني وتناسبه مع مقتضى الحال رداً على الطاعنين فيه القائلين بتكراره وتناقضه، فأوضح "الفروق عند استعمال الألفاظ، في القصص والأخبار المكررة، التي طعن الملمحدون في القرآن الكريم بها، لأنهم يجهلون أسرارها وما وراءها، ومن جهل شيئاً عاداه كما قيل بحق. وقد جاء هذا الكتاب فريداً في شموله لكثير من الآيات التي تتكرر وتشبه على بعض الناس، وفي منهج تأليفه التوجيهي الدقيق، وهو يضم في أعطافه وثناياه ما يهب القارئ ملكة التفهم لأسرار هذا الكتاب العظيم".¹

وعلم الآيات المتشابهات علم يتداخل مع علم المناسبات على قول جلال الدين السيوطي². أول من ألف فيه أبو الحسن الكسائي الذي يعدّ كتابه "مشتبهات القرآن" بداية مبكرة ظهرت في القرن الثاني للهجرة لتمكين حفظة كتابه من إحصاء ألفاظه وتراكيبه المتكررة لدفع اللبس عما اشتبه منها وتثبيتاً للحفظ. قد أبان عن هذا الغرض في مقدّمة مؤلفه حين قال: "فإنّي - إن شاء الله- أذكر في هذا الكتاب ما تشابه من ألفاظ القرآن، وتناظر من كلمات الفرقان؛ ليكون كتابنا هذا عوناً للقارئ على قراءته، وتقوية على حفظه. وأستقصي ذلك وأتبعه، حتى لا يكون الناظر في كتابنا هذا يحتاج إلى افتقاد ما تشابه عليه في غيره، ويكون كتابنا مشتملاً على ما له قصدنا، ومستوعباً لما ذكرنا".³

وللسخاوي (ت 643هـ) منظومة سمّاها "هداية المرتاب وغاية الحفاظ والطلاب في تبين متشابه الكتاب" يقول في مطلعها حيث يتّضح الغرض منها ومنهجها في التأليف:⁴

أودعهم ما مواضعاً تحقّ على تالي الكتاب وتُريح مَنْ تلا
رَتَّبَهُمَ عَلَى حُرُوفِ الْمُعْجَمِ فَأَقْصَرَتْ عَنْ كُلِّ أَمْرٍ مُهِمِ
فَإِنْ أَرَدْتَ عِلْمَ لَفْظٍ مُشْكِلِ فَانظُرْ إِلَى الْحَرْفِ الَّذِي فِي الْأَوَّلِ

إلا أنّ هذه المؤلفات الأولى كانت عملاً إحصائياً لمواضع المتشابه وجمعا للنظائر على يد أئمة القراءات ولم تهتمّ بالتفرقة بين استخدام وآخر حسب سياقه. عبّر عن هذه المرحلة الكرمانى (ت: نحو 505هـ) في قوله: "فإنّ الأئمة رَجَمَهُمُ اللهُ تَعَالَى قد شرعوا في تصنيفه واقتصرُوا على ذكر الآيات ونظيرتها ولم يشتغلوا بذكر وجوهها وعللها والفرق بين الآيات ومثلها".⁵ فكانت مرحلة علم توجيه المتشابه اللفظي مرحلة هامة من مراحل هذا العلم اتّضحت فيها أسرار البيانية وفرائد أسلوبه ووجوه إعجازه "

- السيوطي: الإِتقان، م 03، ص 390-396.

¹ - أبو عبد الله محمد الخطيب الإسكافي: درة التنزيل و غرة التأويل، تج: محمد مصطفى أيدين، جامعة أم القرى، وزارة التعليم العالي سلسلة الرسائل العلمية الموصى بها، معهد البحوث العلمية، ط1، مكة المكرمة، 1422 هـ - 2001 م، ج 01، ص 162.

² - ينظر: السيوطي: الإِتقان، ج 03، ص 391.

³ - أبو الحسن علي الكسائي: مشتبهات القرآن، تج: محمد محمد داود، دار المنار للنشر والتوزيع، ط1، 1418 هـ - 1998 م، ص 40.

⁴ - أبو الحسن علم الدين السخاوي: هداية المرتاب وغاية الحفاظ والطلاب في تبين متشابه الكتاب، تج: عبد القادر الخطيب الحسني، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، دار الفكر، ط1، د.ت، ص 66.

⁵ - أبو القاسم برهان الدين الكرمانى: أسرار التكرار في القرآن المسعى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان، تج: عبد القادر أحمد عطا، مراجعة: أحمد عبد التواب عوض، دار الفضيلة، ط1، د.ت، ص 64.

فاتجهت همّة طائفة من العلماء إلى توجيه هذا النوع من الآيات، وبيان السبب، والحكمة في اختصاص كلّ آية بما جاء فيها مختلفاً عن الآية المشابهة لها، وذلك لما نشأ أقوام من الزنادقة والملحدّين فجعلوا يطعنون في كتاب الله العزيز، محتجين لباطلهم بما في القرآن من آيات تبدو لهم متعارضة المعنى، وتكراراً لا فائدة فيه، وتشابهاً في الألفاظ القرآنيّة ممّا يؤدي إلى اشتباه بعضها ببعض، بسبب تقديم أو تأخير، أو في غير ذلك¹.

ألّف في هذا العلم الخطيب الإسكافي وتاج القراء برهان الدين الكرمانى وابن الزبير الغرناطي الذي كان مؤلّفه أوسع وأوعى. يبيّن السيوطي فضله على مجموعة من المؤلفات وذبوع صيته رغم أنّه لم يطلّع عليه في هذه الشهادة التي نوردتها والتي مثلت المنطلق في اختيار هذه المدوّنة: " وألّف في توجيهه الكرمانى كتابه "البرهان في متشابه القرآن" وأحسن منه "درة التنزيل وغرة التأويل" لأبي عبد الله الرازي وأحسن من هذا "ملاك التأويل" لأبي جعفر بن الزبير ولم أقف عليه وللقاضي بدر الدين بن جماعة في ذلك كتاب لطيف "سماه كشف المعاني عن متشابه المثاني" وفي كتابي أسرار التنزيل المسعى قطف الأزهار في كشف الأسرار من ذلك الجم الغفير². لذا كان مادّتنا ومحلّ النّظر في هذا البحث.

مثلت القراءة السياقيّة للمتشابه وعيا بالنصيّة والبنية الكليّة للخطاب هذا الوعي بالكلّ والعام الذي لا ينفي أو يتناقض مع خصوصيّة الاستعمال في الآية أو السورة ضمن تصوّر كليّ للقرآن يدرك جزئياته ومقاصده الكليّة وتفرداتها والنّمط فيه والخروج عن النّمط كتنبؤ وخصوصيّة في الخطاب توائم السياق وتوافق المعنى. حيث للسياق فاعليّة تحدّد اللفظة التي تنتقى والتركيب الجملي والأدوات النّحويّة الرابطة وهو المقام الذي يقتضي تعبيراً دون آخر تقديماً أو تأخيراً، إيجازاً أو إطناًبا مع تبيان " السبب في تكرارها، والفائدة في إعادتها، وما الموجب للزيادة والنقصان، والتقديم والتأخير والإبدال، وما الحكمة في تخصيص الآية بذلك دون الآية الأخرى؟ وهل كان يصلح ما في هذه السورة مكان ما في السورة الأخرى التي تشاكلها أم لا؟ ليجري ذلك مجرى علامات تنزيل إشكالها، وتمتاز بها عن أشكالها³. ولا تتحقّق الإجابة عن هذه الأسئلة بفصل الآية المكرّرة أو اللفظة عن موجب السورة والقرآن في عمومها واجتثاثها من سياقها.

إنّ علم توجيه المتشابه اللفظي باعتباره نوعاً مستقلاً من علم التّفسير وعلمنا من علوم القرآن كشف عن وجه من وجوه الإعجاز الأسلوبى "في تكرير بعض الآيات بالكلمات المتفقة أو المختلفة، وحروفها المتشابهة، بأن تذكر الآية الواحدة ذات الموضوع الواحد في أكثر من موقع، مع اختلاف في جوانب التناول بين موقع وآخر، تقديماً وتأخيراً، أو تعريفاً وتكبيراً، أو جمعا وإفراداً، أو إبدال كلمة بأخرى، أو حرف بأخر، إلى غير ذلك من أنواع التشابه، وكثيراً ما يتصل هذا الاختلاف بمناسبة السياق القرآنيّ عرض الآيات، وذكر الأحداث التي يشتمل عليها⁴. وهذا ما سنوضّحه في ملاك التأويل.

يظهر الوعي الكليّ بالخطاب جلياً في ملاك التأويل ليس فقط في توجيه متشابهه وقدرته على إحصاء مواضعه وخصوصيّة كلّ موضع باستعمال مخصوص وإنّما يتجلّى في رؤية شاملة تفرّع القرآن إلى أقسام وأرباع وتدرّك مميّزات كلّ منها والمنهج الذي يتّبعه في الهداية وما يندرج فيها من سُور وما يقع من المزاوجة بين المنهجين. مثال ذلك الوعي بانتظام القرآن من حيث دلائل التّوحيد على منهجين اثنين: منهج أدواته الحواس ويستعان فيه بالتّفكّر في الموجودات والأكوان من حيث مبتدائها ومنتهائها

¹- أبو عبد الله محمد الخطيب الإسكافي: درة التنزيل وغرة التأويل، تج: محمد مصطفى أيدين، جامعة أم القرى، وزارة التعليم العالي سلسلة الرسائل العلمية الموصى بها، معهد البحوث العلمية، ط1، مكة المكرمة، 1422 هـ - 2001 م، ج1، ص 68.

²- السيوطي: الإتقان، ج3 ص 390.

³- الكرمانى: أسرار التكرار في القرآن، ج1، ص79-80.

⁴- الخطيب الإسكافي: درة التنزيل، ج1، ص11.

ونظامها المحكم. أما المنهج الثاني فهو المأثور من أحوال الأنبياء وأقوامهم " فعلى هذين المنهجين دارت أي الكتاب العزيز المنطوية على تذكير العباد وتحريكهم للاعتبار... فالربع الأول من القرآن أكثر، ثم يليه في ذلك الربع الثاني، كما يكثر التذكير في الثاني (بما ورد في المنهج الثاني)، وإتّما ذلك - والله أعلم - لأنّ الضرب الأول معقول ومستنده ضروري لأنّ مبادئه حسية وبه اعتبر من انتهى إلى علم من الأوائل ممّن كان في الفترات، فمنهم المصيب والمخطئ، وهو معتبر منصوب للعالم من لدن وجودهم إلى قيام الساعة، لا يضطر فيه إلى نقل ناقل ولا الاعتبار به من حيث الدلائل يتنزل النظر في آيات الرسل وما جاؤوا به متحدثين، وتعرف الخارق للعادة من غيره، فلهذا - والله أعلم - تقرر هذا الضرب مبدوءً به في الترتيب الثابت عليه المصحف وأتبع بالضرب الآخر على مقتضى الاعتبار¹ وبذلك كان هذا الترتيب مراعاة وتناسبا مع أحوال المخاطب الذي يعتبر بالأحوال الحسيّة ثمّ ينتقل به الخطاب إلى أحوال الأمم السابقة.

نرى الغرناطي على وعي بضري الاعتبار في القرآن ولما كان المنهج الأوّل يقوم على التدبّر وإعمال الفكر وأدلتته إلى ذلك الحواس في رؤية خلق الكون والإنسان لهذه العلة قدّم من حيث الترتيب وأخر المنهج الثاني ف "...بدئ بالضرب الأول بمقتضى الترتيب كما بيّنا، ولم يقع في الربع الأول من القرآن بسط اعتبار بالضرب الثاني بالإخباري، إنّما أمعن بذكره في الربع الثاني وبسط الأخبار عن القرون المهلكة والأمم السالفة مع أنبيائهم وما أعقبتهم التكذيب وأخذ كل قرن من المكذبين بما أخذ به، ولم ينقطع التنبيه والتحريك مع ذلك بما في الضرب الأول وما يرجع إليه"².

ومن السور ما اقتصر على الضرب الأوّل مثل سورة الرعد، ومنها ما اقتصر على الضرب الثاني كسورتي الأعراف ويوسف، وقد تضمّنت السورة الضريين كسورتي الحجر والبقرة هذه السورة التي " تضمّنت من كلّ من الضريين ما فيه شفاء على إجمال فيما أشير إليه من الضرب الثاني، إذ هذا الضرب إنّما استوفى تفصيله في الربع الثاني"³.

والتناسب مبدأ نصي هامّ كان نتاج هذه النظرة الواعيّة بالكلّ عند الزبير الغرناطي. وهو سمّة أساس من سمات التنزيل مصداقا لقوله تعالى: (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) (النساء: 82). والاختلاف في هذا الموضوع هو التنافر والتناقض وتكذيب بعضه بعضاً⁴، وهي خاصيّة ارتبطت بكلّ سوره فهو في تألفه كمثل السورة الواحدة. ويعدّ التناسب الذي يقصد به الملائمة والتشاكل ملمحا مميّزا يعني مراعاة مقتضى الحال في النظم وإن لم يُعن الغرناطي بتحديد المفهوم لانشغاله بإبراز دقائق المعاني في الأساليب المتشابهة، حيث لم يأخذ مؤلفه بعدا تنظيريا وإنّما هو معاينة وتوجيه للمتشابه بعد أن أحصيت مواطنه في مؤلفات سابقة إلاّ ما يمكن أن نستشقه من خلال ما ورد من ألفاظ معطوفة على هذا المصطلح أو من باب النظر كالتلاؤم وحسنه وتشاكل النظم والالتحام من ذلك قوله: " فقد وضع تناسب هذا كلّه، وتبين التحامه"⁵ وقوله في موضع آخر: "فوضع تناسب هذا الختام، ولاح التلاحم والالتحام"⁶، إلى غيرها من المواضع التي لم تخرج عن هذه المعاني والدلالات.

¹ - الغرناطي: ملاك التأويل، ج2، ص 273.

² - نفسه، ج2، ص 274.

³ - نفسه، الصفحة نفسها.

⁴ - محمد بن جرير أبو جعفر الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، تج: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، د.ت، ج8، ص 567.

⁵ - أبو جعفر أحمد بن الزبير الغرناطي: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آيات التنزيل، وضع حواشيه: عبد الغني محمد علي الفاسي، دار

الكتب العلمية، ط1، بيروت - لبنان، د.ت، ج2، ص 371.

⁶ - الغرناطي: ملاك التأويل، ج2، ص 399.

مثل التناسب المبدأ النصي في علم توجيه المتشابه اللفظي الذي يحتكم إليه الغرناطي في الملاك وفق القراءة السياقية، فربط من خلاله بين تسمية السورة وما تكرر من مواضعها وبين مفتحتها والمقصد منها في تألف النظم وأتساقه. مثال ذلك ما افتتحت به بعض السور من الحروف المقطعة التي تقوم عليها كلمات السورة من حيث تكرر هذه الأصوات وتمائلها مع هذا المطلع في عدد الكلم والحروف أكثر من غيرها فتكون أكثر عددها منها ف " وجدت الحروف المفتوح بها تلك السور أفرادا وتركيبا أكثر عددا في كلمها منها في نظيرتها ومماثلتها في عدد كلمها وحروفها فإن لم تجد سورة منها ما يماثلها في عدد كلمها ففي اطراد ذلك في المتماثلات مما يوجد له النظير ما يشعر بأن هذه لو وجد مماثلها لجرى على ما ذكرت لك وقد اطردها في أكثرها فحقق لكل سورة منها أن لا يناسبها غير الوارد فيها فلو وقع في موضع " ق " من سورة " ق " " ن " من سورة " ن " والقلم " وموضع ن ق لم يمكن لعدم المناسبة المتأصل رعيها في كتاب الله تعالى ¹.

كما يتحدد بناء جمل السورة والتقديم والتأخير في عناصرها وفق مبدأ التناسب مع سياقها العام وجوها التعبيري مثل افتتاح الفاتحة بالحمد لله وأربع سور أخريات هي الأنعام والكهف وسبأ وفاطر مما دفع بابن الزبير الغرناطي للتساؤل عن علّة ذلك ووجه اختصاصها بهذا الافتتاح رغم استقلالية كل سور القرآن، مستقصيا السياق في تتبع لعلّة هذه المطالع التي وردت على شاكلة واحدة فكانت سورة الفاتحة أول السور ومطلع القرآن فكان الافتتاح بالحمد فيها أولى. ويّين في بقيّة السور ما انفردت به من المعاني فاستحقت التّفرد بهذه الفاتحة المشتركة، فاختصّت سورة الأنعام دون باقي السور بإبطال مذهب الثنوية²، فكان افتتاحها بحمد الله خالق السماوات والنور وجاعل النور والظلمة مع ما بسط بين أعطاف أيها من دلالات الموجودات. وتميّزت سورة الكهف بقصتي أصحاب الكهف وذي القرنين، وتفرّدت سورة سبأ بقصة سبأ فلم تذكر في باقي القرآن إلا إيماء في سورة النمل. كما جمعت قصة سيّدنا داود وسليمان وما أنعم الله عليهما مما لم يجتمع في سورة غيرها فاستحق ذلك افتتاحها بالحمد، وحقّ هذا الافتتاح في سورة فاطر لما وقع فيها دون غيرها من التعريف بخلق الملائكة وجعلهم رسلا وخلق السماوات والأرض وإمساكهما أن تزولا وهذا ما مثّل خصوصيّة كلّ سورة ووجه تخصيصها بفاتحة الحمد فكان توجيه هذا التشابه في مفتحتها توجيهها سياقيا استقرأ الميزة التي خصّت بها هذه السور بما لم يقع في باقي سور القرآن فناسبت تلك المقاصد تشاكل مطالعها³.

وهي القراءة السياقية المراعية لتناسب المعاني التي بيّنت العدول في سورة الجاثية في قوله تعالى: (فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (الآية 36) بتقديم لفظ الجلالة الوارد جارا ومجرورا فاعتمد السياق لتوجيه هذا المتشابه، مبيّنا أنّ تقديم المبتدأ أو تأخيره كلاهما عربيّ فصيح وتقديمه أولى إذا لم يعترض أحد العوارض اللفظية لذا فإنّ العارض في الجاثية ورد من جهة المعنى الذي فرضه مقتضى الحال، فقدّم الخبر على المبتدأ وسوّغ له مخالفة الأصل، وقد "ورد على تقدير الجواب بعد إرغام المكذب وقهره ووقوع الأمر مطابقاً لأخبار الرسل عليه السلام، وظهور ما كذب الجاحد به، فعند وضوح الأمر كأن قد قيل لمن الحمد ومن أهله؟ فكان الجواب على ذلك فقيل: "فله الحمد"⁴. ورأى ذلك نظير قوله تعالى: (لَمَنْ)

¹ - نفسه، ج 1، ص 23.

² - الثنوية هي فرقة من المجوس ترى أنّ مبدأ الكون يعود إلى أصلين هما النور والظلمة فهما إليها العالم، فما نتج من خير كان أصله النور، أما الشر فيعود على الظلمة. ينظر:

أبو الحسن سيد الدين الآمدي: غاية المرام في علم الكلام، تج: حسن محمود عبد اللطيف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ط1، القاهرة، دت، ص 206.

³ - ينظر: - الغرناطي: ملك التأويل، ج 1، ص 13-14.

- أبو جعفر أحمد بن الزبير الغرناطي: البرهان في تناسب سور القرآن، تج: محمد شعباني، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط1، المغرب، 1410 هـ - 1990 م، ص 204-205.

⁴ - ينظر: الغرناطي: ملك التأويل، ج 01، ص 12.

تعالى: (لَنْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) (غافر: من الآية 16). وتشترك السورتان في كون ذلك يوم التلاقي حيث يزول الظن والارتياح ويقدر الكلام: لمن الحمد ومن أهله؟ فتكون الإجابة: فله الحمد. وكرّر ربوبيته في كلمة رب: رب السماوات والأرض، ورب الأرض رب العالمين لتناسب مقام الرد على الجاحدين.

وهي نظرة كلية للقرآن الكريم تتبعت ورود تقديم الله على الحمد في موضع منفرد منه باحثا عن مسوغات تقديم الخبر في قراءة سياقية تجاوزت حدود الآية إلى مجموع الآيات والسور السابقة مقارنا بين سياق فاتحة الكتاب الموجهة لكل مسلم وسياق الردع والتقريع فاستدعى الأول تقديم الحمد ووافق الثاني تأخيره " ولما كان الوارد في أم القرآن خطاباً للمؤمنين وتعلّما للمستجيبين مجردا عما قصد في آية الجائية من توبيخ المكذّبين ورد على ما قدم من الاكتفاء. وكل على ما يجب ويناسب"¹.

إنّ للسياق قوة تعبيرية تنبّه لها علماء توجيه المتشابهة في مقدّمهم الغرناطي لا تتحكّم فحسب في مطالع السور ومقاطعها على مستوى القرآن ككلّ بل على مستوى السورة الواحدة في نهايات الآيات وتعقيباتها فقال تعالى في الآية الكريمة: (وَتَرَكْتُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ صُمْ بُكُمْ عُنِي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ) (البقرة: 17-18). أما في الآية الواردة بعدها فقال عزّوجلّ " لا يعقلون " بدل " لا يرجعون " في الآية الكريمة: (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعُقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمْ بُكُمْ عُنِي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) (البقرة: 171) رغم أنّه حديث عن الأوصاف ذاتها من الصّم والبكم والعى فعلى السياق هذا الاستعمال الذي ما كان لتفهم خصوصيته لولا هذا التوجيه فقال ابن الزبير الغرناطي مجيبا عن هذا التساؤل عند الناظر في الآيتين الكريمتين: " انه لما مثل حال المنافقين بحال مستوقد النار لطلب الإضاءة وأنه لما أضاءت ما حولها أذهبها الله وطفيت فلم يكن له ما يستضيء به ويرجع إليه فنفي عنهم وجود ما يرجعون إليه من ضياء يدفع حيرتهم وهذا بين. أما الآية الثانية فإنّه مثل حال الكافرين فيها بحال الغنم في كونها يصاح بها وتنادى فلا تفهم عن راعيها ولا تسمع إلا صوتاً لا تعقل معناه ولا تفهم ما يراد به كذلك الكفار في خطاب الرّسل إليهم فلا يجيبونهم ولا يعقلون ما يراد بهم وهذا مناسب وكلّ على ما يجب "².

وتستوجب قوة السياق ومقتضى الحال استعمال مفردة في موضع وإسقاطها في آخر مع تشابه الآيتين كما هو حال لفظة " رغدا " في سورة البقرة في قوله عزّ من قال: (وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَارِعُوا إِلَى الْحُسَيْنِ) (البقرة: 58) وهي لفظة استدعاها السياق بما حملته من معنى مقصود وما انطوت عليه من دلالة استغنت عنها الآية الكريمة في سورة الأعراف مع تشابه الآيتين: (وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَارِعًا إِلَى الْحُسَيْنِ) (الأعراف: 161)، حيث إنّ ما يستدعيه معنى السكن الواقع في أسلوب الأمر من إقامة وملازمة، الذي قابله معنى الدخول في سورة البقرة، مع أمره بالأكل حيث شأؤوا مع حصول معنى الامتنان والإنعام مع التماذي في الأكل " وقوة السياق مانعه من التحجير والاقصصار فحصل معنى الرغد فوق الاكتفاء بهذا المفهوم الحاصل قطعاً من سياق آية الأعراف ولو لم يرد في سورة البقرة لم يفهم من سياق الآية كفهمة من سياق آية الأعراف"³.

¹ - ينظر: نفسه، ج 01، ص 13.

² - نفسه، ج 01، ص 25-26.

³ - الغرناطي: ملاك التأويل، ج 01، ص 37.

إنّ هذه القوّة التعبيريّة للسياق تمكّن له في النصّ فيضطلع بما يستدعيه المعنى مثبتا قرائن وأدوات أو مسقطها في بلاغة أسلوب ونظم تراعي فيه دقائق الاستعمال كإثبات "من" في قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى) (يوسف: 109)، وفي الآية الكريمة: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ) (النحل: من الآية 43)، وإسقاطها في سورة الأنبياء: (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ) (الآية: 07)، وفي سورة الفرقان: (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) (الفرقان: من الآية 20)، فيلتفت القارئ إلى سياق هذه الآيات ليتمعن في الفرق بين هذه الاستعمالات متسانلا عن سرّ هذه السياقات وقوّتها التي خوّلت الحذف حيناً والإثبات حيناً آخر. وقد استند ابن الزبير الغرناطي إلى علمه بدقائق التصريف وذوقه في استشعار فرائد بلاغة القرآن لتوجيه هذه الآيات المتشابهة في قوله: "والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن آية يوسف قد تقدمها قوله تعالى: (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) (يوسف: 106)، وقوله: (وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (يوسف: 108)، وقوة السياق في هذه الآي يدلّ على معنى القسم ويعطيه، فناسب ذلك زيادة ((من)) المقتضية الاستغراق، وكذلك قوله في سورة النحل: (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ) (النحل: 41) يؤكد ذلك المعنى، فناسبه زيادة ((من)) لاستغراق ما تقدم من الزمان¹.

ويعدّ اسم الإشارة محيلا على ما سبق من النصّ وأجزائه ورباطا نحويا يسهم في اتساقه أدرك الغرناطي إدراكا واعيا أهميّة هذا الرابط الإحاليّ في " الملاك " ووظيفته في تحقيق النصيّة. من نماذج هذا الوعي في إطار مبدأ التناسب والقراءة السياقيّة لكلّ سور القرآن دلالة اسم الإشارة الدال على المفرد المذكّر أو المؤنث "ذلك" أو "تلك" بين السابق واللاحق في مفتتح سورة الرعد بعد الحروف المقطّعة: (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ) (الآية 01)، وهو ما ورد في الآيتين الأولىين من سورتي البقرة: (ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ) والنمل: (طَس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ) فدلّ اسم الإشارة على اللوح المحفوظ وقد أورد صاحب الملاك ذلك في سياق التّديل على أنّ العطف في آية الرعد هو عطف جمل لا مفردات، فأشير في الجملة الأولى إلى اللوح أمّا قوله: "والذي أنزل إليك من ربك الحق" فجملة مستقلة هي إشارة إلى الضرب الثاني من الاعتبار وهو أخبار الأمم مع أنبيائهم. ويوضح ابن الزبير الغرناطي أنّ بناء السورة قام على الضرب الأوّل. وسواء ذكر اسم الكتاب في سورة الرعد أو البقرة أو غيرها من فواتح السور مشارا إليه بذلك أو تلك" فيصح أن يراد به فيها أو في بعضها اللوح المحفوظ، وأن تكون الإشارة إليه إذا شهد له السياق ووضح عليه النظم، فإذا سلم هذا فما بنيناه عليه أوضح شيء، ولا يمكن إلا تسليمه إذ لا معارض يمنع من عقل ولا نقل، وإن اعترض معترض بالمنع فقد خالف جميع المفسرين ممّن تقدم أو تأخّر، وخالف ما يعترف كل ذي عقل سليم بإمكانه، وقد تبين تنزيل النظم عليه على أكمل تلاؤم، والله أعلم بما أراد"².

إنّ التعبير القرآني تعبير دقيق ومقصود لذاته موافق لما وُضِعَ له رغم ما يبدو من تكرار في الأسلوب بين سور القرآن إلا أنّ لكلّ استعمال معنى خاصّا ولو اختلف عنه بحرف أو أداة أو ضمير أو تقديم أو تأخير فلذلك دلالة ووظيفة أدركها علماء توجيه المتشابه اللفظي وسعوا للكشف عن عجائبها بالالتفات إلى القوّة التعبيريّة لا للصوت أو المفردة أو التركيب وإنّما للسياق حيث له الفاعليّة الأساس التي من خلالها تتضح بلاغة النظم ف"لا يصحّ اقتطاع جزء من آية أو جزء من السياق،

¹ -نفسه، ج 02، ص 268.

² - الغرناطي: ملاك التأويل، ج 02، ص 277-278.

وبناء الحكيم عليه، بل الذي ينبغي هو أن يُنظر في السياق كله، ثم ينظر في ملاءمة الكلام بعضه لبعض¹ وفق مبدأ التناسب.

ثالثاً- مظاهر التناسب في ظل القراءة السياقية في ملاك التأويل:

كشفت القراءة السياقية عن أشكال وضروب للتشابه والتكرار في موضع أو موضعين من القرآن إلى أن بلغ التشابه نيفاً وعشرين حرفاً، الوعي بها وبتموضعها في الخطاب القرآني ووعي بكليته وجزئياته باعتبار التكرار معياراً جوهرياً من معايير النصية تتأكد به القصدية ويحدث به الانسجام. وقد تحقق ذلك وفق مبدأ التناسب الذي لا يسمح بحلول استعمال إفرادي أو تركيبى محل آخر وهو وجه من أوجه الإعجاز الأسلوبى يؤكد دقة المفردة والجملية القرآنيّتين وفق ما يقتضيه السياق. نحاول أن نكشف عن هذه الرؤية الكلية وفق التناسب من خلال تجلّيه في مظاهر للتكرار اصطبغ بها التناسب وأخذ تجلياتها، نعرض في هذه الدراسة لأهمّها.

-تناسب العكس:

وهو ضرب يُعكس فيه النظم بردّ الآخر على الأوّل ويشبه ردّ العجز على الصّدر كقوله تعالى: (قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى) (البقرة: 120، الأنعام: 71) وقال Y في سورة آل عمران: (قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ) (الآية: 73). ومن الأمثلة التي بيّن الغرناطي علّة هذا العكس في نظمها ما جاء في سورة البقرة في " وادخلوا الباب سجّداً وقولوا حطّة " من قوله تعالى: (وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فكلّوا منها حيث شئتم رَغَدًا وادْخُلُوا الْبَابَ سُجّداً وَقُولُوا حِطَّةً نَغْفِرْ لَكُمْ وَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ) (الآية: 58). وعكس في آية الأعراف: (وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةً وادْخُلُوا الْبَابَ سُجّداً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ) (الآية: 161).

إن قولهم حطّة أمر بالدعاء أثناء سجودهم لذا عطف بينهما بالواو التي يقصد بها الترتيب وإن عرف في كلام العرب تقديم الأولى ولو ذُكر في السورتين على الترتيب ذاته لفهم من الأمرين أنّهما غير متلازمين ولكنهما وردا على هذا النحو من العطف من باب المساواة فقدّم وأخر في السورتين ليحرز المجموع أن المراد بهذا القول أن يكون في حال السجود لا قبله ولا بعده وتعين بهذا معنى المعية من احتمالات الواو وتحرر المقصود وان المراد: وادخلوا الباب سجداً قائلين في سجودكم حطة فاكتفى بتقلب الورد عن الإفصاح بمعنى المعية ايجازاً جليلاً وبلاغة عظيمة وقدم في البقرة الأمر بالسجود لأنّ ابتداء السجود يتقدم ابتداء الدعاء ثم يتساقط المطلوبان فجاء ذلك على الترتيب الثابت في السور والآي والله أعلم².

-تناسب التقديم والتأخير:

وهو قريب من الضرب السابق مثاله تقديم " القسط " في قوله تعالى في النساء: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ) (من الآية: 135) وتأخيره في سورة المائدة في الآية الكريمة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) (المائدة: 08). فيرى أنّ علّة التقديم هو تناسب الآيات السابقة المتصلة بها القائمة على الأمر بالعدل والقسط وهذا في (الآية 123) من النساء: "من يعمل سوءاً يجز به" وفي " ويستفتونك في النساء" وفي " وأن تقوموا لليتامى بالقسط " وما تلاها من آيات فكان توجيهه

¹ - فاضل بن صالح السامرائي: لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، دار عمار للنشر والتوزيع، ط3، عمان، الأردن، 1423 هـ - 2003 م، ص 73.

² - الغرناطي: ملاك التأويل، ج 01، ص 37.

يتجاوز حدود الآية الواحدة إلى آيات سابقة لها مثلت سياقها الذي وردت فيه. أمّا التأخير في آية المائدة فناسب "الأمر بالطهارة وتذكيره بنعمه والوقوف مع ما عهد به إلى عباده والأمر بتقواه فناسبه قوله: "كونوا قوامين لله" ثم أتبع بما بنى على ذلك من الشهادة بالقسط فتأمل ما بنى على هذه وما بنى على آية النساء يتضح لك ما قلته والله أعلم بما أراد¹ فهو تناسب قائم على بنية نصية كلية تأخذ بالسياق.

-تناسب الزيادة والنقصان:

وهو تناسب بين آيتين متشابهتين في موضعين من القرآن الكريم مع اختلافهما بزيادة لفظة في مقام ونقصانها في آخر مثل شأن "فُرادى" في قوله تعالى: (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) (الأنعام: من الآية 94) وغياها في الآية الكريمة: (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) (الكهف: من الآية 48). وعن ملائمة هذا الاستخدام في الموضعين يبين صاحب ملاك التأويل وفق قراءة سياقية علّة ذلك في قوله: "والجواب والله أعلم: أن ذلك مراعى فيه في آية الأنعام ما أعقبت به من قوله: (وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ) (من الآية 94) أي ما أعطيناكم في الدنيا ممّا شغلكم عن آخرتكم، ثم قال: (وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ) (من الآية 94) أي منفردين عمّا كنتم تأملون من أندادكم ومعبوداتكم من دونه سبحانه، فلرعي هذا المعقب به في آية الأنعام ما قيل فيها: (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى). أمّا آية الكهف فقبلها قوله تعالى: (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاَهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا) (الآية 47) ثم قال: (وَعَرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) (من الآية 48) مجردين عن كل متعلق. ولم يقع هنا ذكر ولا إشارة إلى ما عبد من دون الله فلهذا لم يقع هنا "فردى" وذلك بين التناسب وعكس الوارد لم يناسب والله أعلم².

-تناسب الإيجاز والإطناب:

من ذلك زيادة "بالحق لما جاءهم" في سورة الأنعام في قوله تعالى: (فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) (الآية: 05). وإيجازه في الآية الكريمة من سورة الشعراء: (فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) (الآية: 06) واستبدال السين من حرفي التنفيس بـ "سوف" وقد تناسب هذا الإطناب مع إطناب الآية من بسط آيات الحمد والخلق في الآيات الأربع الأولى من سورة الأنعام أمّا ما جاء قبل آية الشعراء فلم يتجزد لتذكيرهم إلا في الآية الثانية من السورة في قوله عزّ وجل: (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ) وَبَعْدَ مَقَامٍ وَعِيدِهِمْ وَتَهْدِيدِهِمْ فِي قَوْلِهِ: وما يأتيهم من ذكر... " وهذا إيجاز فناسبه ما نيط به من قولهم: "فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون" إيجازا لإيجاز وإطنابا لإطناب³.

-تناسب الإبدال:

وهو إبدال مفردة بأخرى في الآيتين المتشابهتين بما يناسب ويتلاءم مع مقتضى الحال وهو الإبدال الإفرادي أو إبدال حرف بأخر أو أداة من الأدوات النحوية كحروف العطف على سبيل المثال. مثال الضرب الأول قوله تعالى: (وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ) (التكوير: 06)، وقوله في سورة الانفطار: (وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ) (الآية: 03)، فما وجه تخصيص الأولى بـ "سجرت" وتخصيص الثانية بـ "فجرت"؟ يرى ابن الزبير الغرناطي أنّ المفردتين لم تردا على سبيل الترادف فلكلّ منهما معنى مخصوص يناسب

¹ - الغرناطي: ملاك التأويل، ج. 01، ص 111.

² - نفسه، ج. 01، ص 164.

³ - الغرناطي: ملاك التأويل نفسه، ج 1 ص 140.

المقصود فدلّت الأولى على الامتلاء وهو اجتماع مياه البحار. أما الثانية فدلّت على الانفجار وهو اختلاط العذب بالمالح فصارت بحرا واحدا لا برزخ بينهما وتناسب اختيار المفردتين مع مطلع السورتين وجوهما العام مبيّنا الائتلاف والتلاحم كلّ في موضعه: "فانفطار السماء، وانفجار البحار، وبعثرة القبور، وانتشار النجوم، كل ذلك متناسب أوضح تناسب وأبينه. وحشر الوحوش وتزويج النفوس، وتسجير البحار، هذا كله اجتماع وائتلاف يناسب بعضه بعضاً، كما أن انفطار السماء، وانتثار الكوكب، وتفجر البحار، وبعثرة القبور، يناسب بعض ذلك بعضاً، فالتحام هذه الجمل في السورتين أبين التحام وأوضحه ملاءمة وتناسباً. فورد كل من ذلك على ما يجب ويناسب، والله أعلم بما أراد"¹.

ومن أمثلة إبدال حرف بحرف نقتصر على ما لحق الفعل "كلوا" من حرفي عطف مختلفين هما الفاء في قوله تعالى: (وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا) (البقرة: من الآية 58) والواو في آية الأعراف: (وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا) (من الآية 161). فدلّت فاء التعقيب على أنّ الأكل يكون عقب الدخول لا قبله وقصد بالواو معنى المساوقة حيث ينجر عن سكن القرية الأكل منها ولا يعقبه ويتربّب عنه، فناسب كلّ استعمال المقصود من الآيتين في سياقهما².

-تناسب التعريف والتنكير:

من ذلك تنكير "البلد" في قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا) (البقرة: من الآية 126)، وتعريفه بأل العهديّة في سورة إبراهيم: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا) (من الآية 35)، ويرى الغرناطي أنّ علّة ذلك أنّ اسم الإشارة هذا في سورة البقرة لم يقصد به التبعية للفظ "بلدا" للاكتفاء بالواقع قبله في قوله تعالى: (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) (البقرة: الآية 125) حيث ورد تعريف البيت فهو مثابة للناس وأمن خاصة من خلال قول سيّدنا إبراهيم عليه السلام عند نزوله بولده في هذا المكان ودعائه: (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ) (إبراهيم: من الآية 37)، فوقع بتعريف البيت تعريف البلد فلم يفتر اسم الإشارة إلى التابع الذي يبيّن جنسه فحصل مقصود البيان، فوقع اسم الإشارة مفعولا أول "لا اجعل" غير محتاج إلى تابع لقيام ما تقدّم ممّا ذكرناه عن البيت مقامه وانتصب بلدا مفعولا ثانيا وأمنا نعتا له ولو ورد البلد معرّفا بالألف واللام وجرى على اسم الإشارة لما أبان مثلما أبان ودلّ أحسن بيان ودلالة وكان كالتركار. أمّا تعريف البلد في آية إبراهيم فقد اختلف السياق ولم يتقدّم تعريف ما يقوم لاسم الإشارة مقام التابع فاستلزم ذلك تعريف البلد ليكون تابعا لاسم الإشارة على ما عهد في مثل هذه الأسماء التي تعين جنس المشار إليه باسم جامد هو عطف بيان على قول الخليل أو نعت على قول سيبويه ووقع اسم الإشارة المتبع مفعولا أول وأمنا مفعولا ثانيا ولو عكس الأمر فنكر حيث عرف لما ناسب المقام ومقتضى الحال³.

تناسب الجمع والإفراد:

ويجعل الغرناطي لهذا التناسب عُلْفَةً بالإيجاز والإطناب من حيث الغرض والمقام لذا وردت "معدودات" في آية البقرة مفردة: (وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً) (البقرة: من الآية 80). وجمعا في الآية الكريمة: (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا

¹ -ينظر: نفسه، ج 2 ص 503 .

² - ينظر: نفسه، ج 01، ص 36-37.

³ -ينظر: الغرناطي: ملاك التأويل، ج 01، ص 50.

النَّازِ إِلَّا أَيْمًا مَّغْدُودَاتٍ (آل عمران: من الآية 21) حيث بسط ذكر حالهم في آية آل عمران حيث اغتروا في دينهم بما كانوا يفترون فناسبت الإطالة صيغة الجمع أمّا في آية البقرة فلم يذكر ذلك فناسب الأفراد الإيجاز¹.

ومن مظاهر تناسب الجمع أن يقع جمع التّكسير في لفظة " الأنبياء" في قوله تعالى: (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ) (آل عمران: من الآية 112) مخالفا جمع السلامة في لفظة " النبيين " في الآية الكريمة: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقِّ) (آل عمران: من الآية 21)، وفي قوله Y: (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ) (البقرة: من الآية 61). ويوجّه ذلك ابن الزبير الغرناطي بكون جمع التّكسير يقصد به أولو العلم وغيرهم أمّا جمع السلامة فوضع أصلا لأولي العلم وإن ضمّ غيرهم فهو من باب الإلحاق والتّشبيه ويمثّل لهذا الإلحاق بقوله تعالى: (إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كُوكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ) (يوسف: من الآية 04) وقد ناسب في سورة البقرة شرف الجمع في جمع السلامة شرف المجموع كما ناسب زيادة المدّ لزيادة أداة التعريف في "الحق". أمّا الآية الأولى من آل عمران فاتفقت مع آية البقرة في مناسبة الشرف ومناسبة زيادة المدّ للزيادة في الفعل " يقاتلون " -لمن قرأ بهذه الرواية- العامل في اللفظ المجموع أمّا الآية الثالثة فتفرّدت بشرف المجموع ولم تقع فيها الزيادة فكانت العرب تقصد بجمع التّكسير أولي العلم ويتّسع إلى غيرهم فورد الجمع جمع تكسير لتكون اللّغتان معا فيكونا حجّة في إعجاز القرآن إذ ورد بلغاتهم على الوجهين².

-تناسب الإدغام وفكّه:

من أمثلة ذلك ورود الفعل " يشاقّ " مدغما في الحشر في الآية الكريمة: (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (الحشر: 04) وفكّه في قوله عزّ وجل: (وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ) (النساء: من الآية 115) وفي قوله أيضا: (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (الأنفال: من الآية 13) يتساءل صاحب ملاك التأويل عن علّة الوجهين رغم كونهما فصيحين معا ويرى أنّ الإدغام تخفيف والأصل فكّه فوافق الأصل في النساء ولم يرد مسوّغ للتخفيف. أمّا في آية الحشر فجاء مدغما بصيغة الماضي ولم يسمع غيرها عن العرب فناسب " ومن يشاقّ الله " هذه الصيغة التي لا ترد إلا مدغمة. وفي آية الأنفال عطف " ورسوله" على الله بالواو الجامعة فناسب ذلك الفكّ " فاستدعى الموضع داعيان: أحدهما ما قبله من الإدغام، والثاني ما بعده من العطف المشبه للفك، فروعى البعدي لأنّه أقوى في الرعي"³. فنلاحظ مراعاة السياق في تبيان مناسبة ظاهرتي الإدغام وفكّه الصوتيتين في هذا الفعل.

إنّ تجلّيات التناسب اللفظيّة والمعنويّة في ملاك التأويل على اختلافها -فيما عرضناه -عبّرت عن مراعاة الغرناطي في توجيه المتشابه لمقتضى الحال وفق قراءة سياقيّة أوضحت دقّة التصريف القرآني.

نخلص في نهاية هذا البحث إلى تأكيد الوعي المبكّر لعلماء الإسلام الأوائل بكلّيّة النصّ وتآلفه فيما بيّنناه من مظاهر مختلفة في اتّجاهات التّفسير وألوانه منذ القرن الثاني للهجرة مثلنا لها بما يسمح به المقام بالاتّجاه النّحويّ والبلاغيّ والعقليّ فاتّضح من خلالها القرآن كالسورة الواحدة والآية في تضامه فيما علّلوا به ابتداء بعض سورته، وفي علاقة السابق باللاحق منها، وفي

¹ - ينظر: نفسه، ج 01، ص 46-47.

² - نفسه، ج 01، ص 42-43.

³ - الغرناطي: ملاك التأويل، ج 1 ص 109.

ظاهرة الحذف التي يوضّحها السياق، وفي الرؤية البلاغية التي لا تقف عند تخوم الجملة بل تتعدّها إلى اتّساق نظم النصّ وعدم تنافره، وفي الرؤية العقلية المتتبّعة لترتيب المعاني وتناسبها، وفي ألقاب القرآن التي قامت على المتشابه. وقد مثّل علم توجيه المتشابه اللفظي باعتباره لونا من علم التفسير وعلما من علوم القرآن نموذج النظرة الكلية للنصّ القرآني الذي يكشف عن دقائق التصريف في أسلوبه موضّحا القراءة السياقية للمفردة والتعبير المحكم، فتجلى التكرار من خلال هذا العلم معيارا أساسا من معايير النصّية ليؤكّد وحدة المقصد وانسجام الخطاب وإن اختلف التجسد اللغوي والاستعمال الإفرادي أو التركيبي في جزئية من الجزئيات. وعكس علم توجيه المتشابه اللفظي من خلال جهد ابن الزبير الغرناطي في " الملاك " رؤية واعية لوحدة الخطاب المنزل تناسب فيها اللغة والوضع مع خصوصية المعنى والجوّ التعبيري العام للسورة، وإدراك هذا العالم لمواطن التكرار وتأليفه لتوجيهه وعي بكلية النصّ.

استندت قراءة ابن الزبير الغرناطي في "ملاك التأويل" للمتشابه اللفظي إلى مبدأ التناسب بما يعنيه من تشاكل وملائمة والتحام للعناصر في ظلّ القراءة السياقية للآية ومجموع الآيات والسورة ومجموع السور حتّى تبين تناسب معاني القرآن كالسورة الواحدة بل الآية في التحام السابق باللاحق. ويعدّ مؤلفه أوسع وأوعى من سابقه بما يحويه من فرائد أسلوبية وبتطرّقه لما أغفله سابقوه، وإن لم يهتم بالتأسيس للمفهوم بالتنظير له وشرحه لأنّ الجهد كان منصّبًا على توجيه متشابهه وتعليل الاختلاف من موضع إلى آخر فأخذ سمة معاينة للآيات لا التنظير لهذا المبدأ وتمظهراته، وهذا جهد قام به من جاء بعده.

كما تأكّد بالاستناد إلى مبدأ التناسب دقّة المفردة القرآنية واستحالة اجتزائها من سياقها الخاصّ والعام. وتبيّن من خلاله أيضا أنّ للسياق قوّة تعبيرية تضغط على النصّ لتنتقى لفظة بعينها موافقة معنى مخصوصا أو مبتد دون غيره ليناسب المقصد من السورة ومنتهاها. وهو مبدأ هامّ من مبادئ بناء النصّ وانسجامه وتآلف عناصره وهو في "الملاك" لا ينحصر في محسّن بديعيّ أو معنويّ وإنّما هو مبدأ وألية عكست وعي علمائنا الأوائل بدقّة الاستعمال القرآني في متشابه الآيات وفق القراءة السياقية التي تأملت في أي التنزيل فتمثّلتها عقدا فريدا تترابط درره متضافرة لتصبّ في المقصد الأسمى من الذكر الحكيم.

رغم تعدد مظاهر التناسب وأشكاله من تناسب العكس والتقديم والتأخير والزيادة والنقصان والإبدال والإدغام ممّا ذكر في هذه الدّراسة وممّا لم يذكر إلا أنّها تؤكّد أنّه ليس تناسب لفظ لفظ وإنّما تناسب لفظ لبناء أو تناسب معنى لمجموعة معانٍ متألّفة في ظلّ قراءة للسياق اجتهاد ابن الزبير الغرناطي في تخريجها فأكدت رؤيته الواعية للنصّية.

مصادر ومراجع البحث:

أ- القرآن الكريم برواية حفص.

ب- المصادر والمراجع:

- 1- أبو الحسين أحمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ط1، 1399 هـ - 1979 م، ج05.
- 2- أبو القاسم جار الله الزمخشري: أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1419 هـ - 1998 م، ج2.
- 3- أبو مكرم محمد بن منظور: لسان العرب، دار صادر، ط3، بيروت، 1414 هـ، ج1.
- 4- أبو الحسن علي بن سيده: المحكم والمحيط الأعظم، تح: عبد الحميد هندأوي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1421 هـ - 2000 م، ج2.
- 5- أحمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ط1، 1403 هـ-1983 م، ج1.
- 6- علي بن محمد الشريف الجرجاني: كتاب التعريفات، تح: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1403 هـ-1983 م.
- 7- ابن أبي الإصبع العدواني: تحرير التعبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تقديم وتحقيق: حفي محمد شرف، الجمهورية العربية المتحدة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، ط1، د.ت.
- 8- الحسن بن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط5، 1401 هـ - 1981 م، ج2.
- 9- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، ط1، بيروت، 1423 هـ، ج1.
- 10- أبو محمد بن سنان الخفاجي: سرّ الفصاحة، دار الكتب العلمية، ط1، 1402 هـ.
- 11- أبو عبد الله فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب - التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، ط3، بيروت، 1420 هـ، ج31.
- 12- أبو إسحاق إبراهيم الزجاج: معاني القرآن وإعرابه، تح: عبد الجليل عبده شلي، عالم الكتب، ط1، بيروت، 1408 هـ - 1988 م، ج2.
- 13- أبو محمد بن عطية الأندلسي: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1422 هـ، ج5.
- 14- أبو محمد بدر الدين العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، ط1، بيروت، د.ت، ج19.
- 15- أبو القاسم جار الله الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، ط3، بيروت، 1407 هـ، ج01.
- 16- محمد الطاهر بن عاشور التونسي: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، الدار التونسية للنشر، ط1، تونس، د.ت، ج1.
- 17- عبد الرحمن جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1-1394 هـ/1974 م، ج01، 03.
- 18- أبو عبيدة معمر بن المثنى: مجاز القرآن، تح: محمد فواد سزكين، مكتبة الخانجي، ط1، القاهرة، 1381 هـ، ج01.

- 19- أبو عبد الله بن بهادر الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، ط1، 1376 هـ - 1957 م، ج 01.
- 20- مجموعة من الأساتذة والعلماء المتخصصين: الموسوعة القرآنية المتخصصة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ط1، مصر، 1423 هـ - 2002 م.
- 21- أبو الحسن علم الدين السخاوي: جمال القراءة وكمال الإقراء، تح: مروان العطيّة - محسن خرابة، دار المأمون للتراث، ط1، دمشق - بيروت، 1418 هـ - 1997 م.
- 22- أبو عبد الله محمد الخطيب الإسكافي: درة التنزيل وغرة التأويل، تح: محمد مصطفى أيدين، جامعة أم القرى، وزارة التعليم العالي سلسلة الرسائل العلمية الموصى بها، معهد البحوث العلمية، ط1، مكة المكرمة، 1422 هـ - 2001 م، ج 01.
- 23- أبو الحسن علي الكسائي: مشتبهات القرآن، تح: محمد محمد داود، دار المنار للنشر والتوزيع، ط1، 1418 هـ - 1998 م.
- 24- أبو الحسن علم الدين السخاوي: هداية المرتاب وغاية الحفاظ والطلاب في تبين متشابه الكتاب، تح: عبد القادر الخطيب الحسني، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، دار الفكر، ط1، د.ت.
- 25- أبو القاسم برهان الدين الكرمانى: أسرار التكرار في القرآن المسى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان، تح: عبد القادر أحمد عطا، مراجعة: أحمد عبد التواب عوض، دار الفضيلة، ط1، د.ت، ج 01.
- 26- محمد بن جرير أبو جعفر الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، تح: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، د.ت، ج 8.
- 27- أبو جعفر أحمد بن الزبير الغرناطي: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من أي التنزيل، وضع حواشيه: عبد الغني محمد علي الفاسي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت - لبنان، د.ت، ج 1، ج 02.
- 28- أبو الحسن سيد الدين الأمدى: غاية المرام في علم الكلام، تح: حسن محمود عبد اللطيف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ط1، القاهرة، د.ت.
- 29- أبو جعفر أحمد بن الزبير الغرناطي: البرهان في تناسب سور القرآن، تح: محمد شعباني، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط1، المغرب، 1410 هـ - 1990 م.
- 30- فاضل بن صالح السامرائي: لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، دار عمار للنشر والتوزيع، ط3، عمان، الأردن، 1423 هـ - 2003 م.

معايير الدرس اللساني النصي في البلاغة المغربية
 كتاب ابن البنّاء العددي أنموذجا
 Linguistic lesson standards in Maghreb rhetoric
 « Book of Ibn-El bannaa a sample »

د. حكيم بوغازي

جامعة مستغانم، الجزائر.

ملخص:

إنّ المتصفح للمدونات التراثية البلاغية المغربية، يقف على آراء العلماء المؤكدة في أغلبها على خاصية التركيب الحامل لمعنى محدّد، وهذه الخاصية تعتبر مزية للنصّ في حدّ ذاته، وابن البنّاء العددي (721هـ) كغيره من البلاغيين نلفي في أقواله ما يدلّ على ذلك.

فمن البديهيات أنّ الصّناعة لا تقع إلّا في الأشياء المركبة، إذ هي عمليّة يخرج بها الصّانع المتفرّق في صورة الكلّ المجتمع، وقد استخدم "ابن البنّاء العددي" مصطلح صناعة القول دلالة منه على خاصية التركيب الدّال على معنى، ومنه يمكن لنا القول إنّ مفهوم النصّ يقارب مفهوم القول لديه، ولنا في ذلك أكثر من حجة على دعواه.

والغاية التي نصبوا إلى تحقيقها ههنا، إعادة قراءة نص كتاب (الروض المربع لابن البنّاء العددي) قراءة ألسنية تنبني على تأسيس المعايير النصّية من خلال المباحث البلاغية الموثقة في ثنايا الكتاب والتي منها: الحذف والتكرير التعارض والتضام، كما سنحدد مفاهيم القصدية والمقبولية انطلاقا من معرفة الكاتب نفسه بهذه المعالم، وكيفية توظيفها في مظانها التواصلية.

الكلمات المفتاحية: النصّ، لسانيات النصّ، معايير النصّية، ابن البنّاء العددي.

Abstract:

The reader of the Maghreb rhetorical heritage blogs, finds the views of the scholars, most of which are confirmed by the characteristic structure of a specific meaning. This characteristic is an advantage of the text itself. Ibn al-Bannaa al-adadi (721 AH), like other, explains in his sayings what is indicative of this.

Beyond that "Ibn al-Bannaa al-adadi" goes on to define the features of the concepts of the text, he used the term of the statement to indicate the text as mentioned above. Here, he begins by defining the fundamental differences between the poetic text and others, and then adds to this the element of interaction between the author and the recipient.

The goal we seek to achieve here is to re-read the text of the book, reading the text of the book based on the establishment of the textual standards through the rhetorical research carried out in the folds of the book, which include: omission and refutation of contradiction and compatibility, and we will define the concepts of intent and acceptability from the knowledge of the same writer these landmarks, Its communicative aspect.

Keywords: text, text linguistics, textual norms. Ibn-EL Bannaa El Adadi.

♦-المغربية (المفهوم القديم للغرب الإسلامي الممتد من ليبيا شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، والذي ضم قديما حدود الدولة المصرية مع حدود الدولة المغربية، بالمفهوم الحديث).

تمهيد:

لسانيات النَّص: المهاد النظري:

بداية قد يتساءل القارئ عن ماهية لسانيات النَّص، رغم أنَّ قيام هذا العلم كان منذ ستينيات القرن الماضي، إلاَّ أنَّنا نقول بأنَّ: لسانيات النَّص فرع من فروع اللسانيات، يدرس النَّص باعتباره الوحدة اللغوية الكبرى، وعلى هذا الأساس فهو يبرز في كينونته كنمط من التحليل ذو وسائل بحثية لغوية مركبة، تمتد قدرتها البحثية إلى مستوى أعلى من مستوى الجملة، بحيث تكون الانطلاقة بتفحص العلاقات القائمة بين المكونات التركيبية داخل الجملة الواحدة، من ثمَّ تنتقل إلى ما وراء الجملة بمستويات ذات طابع تدريجي، تكون بدايتها من خلال البحث في العلاقات النَّحوية بين الجمل، وترتقي بعد ذلك إلى المستوى الدلالي والإبلاغي التواصلي لها.

إنَّ الخصائص التركيبية و الدلالية و الاتصالية- التي تساهم في بناء النَّصوص- تشكل صلب البحث النَّصي، بمعنى أنَّ النَّص يتحقق على مستويات ثلاث أساسية: المستوى النحوي، الدلالي والتداولي بالمفهوم الواسع، ويمكن أن نلمح تداخلاً كبيراً بين علم لسانيات النَّص وعلوم الأدب والبلاغة والشعر والأسلوب، ولكنته في الوقت ذاته يكتسب لنفسه خصوصية فهو يأبى أن ينضوي تحت أي علم منها، وكما له تداخل مع هذه العلوم له تداخل مع علوم أخرى خارجة عن نطاق اللغة كعلم النفس وعلم الاجتماع والفلسفة والمنطق وغيرها، وعلى هذا الأساس تتَّصف مصطلحاته وإجراءاته ومفاهيمه بلا محدودية وتتَّسم بالتداخل من جهة أخرى.

والناظر المستقصي يدرك حقيقة أنَّ عمل عالم النَّص -مهما اختلفت الاتجاهات والوسائل ومميزاتها التي تستخدم في التحليل- فإنَّه يركز أساساً على وصف العلاقات الداخلية والخارجية للأبنية النَّصية بمستوياتها المختلفة، إذ((يتكفل هذا المنهج الألسني النَّصي بدراسة بنية النَّصوص و كيفية اشتغالها، وذلك من منطلق مسلمة منطقية تقضي بأنَّ النَّص ليس مجرد تتابع مجموعة من الجمل و إنما هو وحدة لغوية نوعية ميزتها الأساسية الاتساق والترابط))¹، هذا يعني أنَّ حقل اشتغال لسانيات النَّص والوحدة المركزية التي يرنو إلى تحليلها هي (النَّص)، والسؤال الذي ينطلق منه الباحث في مناقشته لهذه البنية هو: ما هي المعايير الأساسية المرتكز عليها في هيكلة النَّص؟

1- معايير النَّصية:

إنَّ الإجابة عن هذا السؤال تتلخص في ما وسمه روبرت دي بوجراند بـ"معايير النَّصية"، والتي هي:

أ* الاتساق: هو تلك العلاقات المنطقية(النحوية) التي تحصل بين الكلمات والجمل والعبارات داخل النص الواحد، مساهمة بذلك في تماسكه والتحام أجزائه. وقد حددها كل من "هاليداي ورقية حسن" في كتابيهما "الاتساق في اللغة الإنجليزية" كالآتي: الإحالة، الاتساق، الحذف، الوصل، الاتساق المعجمي.

ب* الانسجام: ليس شيئاً معطى أو موجوداً في الخطاب، ينبغي البحث عنه للعثور عليه وإنما هو شيء يبني وفق ما يؤهلا لمتلقي لأن يكشف بعد الانسجام في واقع الخطاب أو النص بعبارة أدق ليس هناك نص منسجم في ذاته أو غير منسجم في ذاته باستقلال عن المتلقي. فهذا يعني أنَّ الاتساق يُدرس على المستوى السطحي، في حين يختص الانسجام بالمستوى العميق للنص.

1-محمد الأخضر الصبيعي، مدخل إلى علم النَّص ومجالات تطبيقه، منشورات الاختلاف/الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر/لبنان، ط1، 2008، ص59. ينظر: رسالة دكتوراه: معايير النصية في التراث العربي، جامعة مستغانم، 2018.

ج* القصديّة: يتضمن موقف منشئ النص من كونه صورة اللغة، قصد بها أن تكون نصا يتمتع بالسبك والالتحام، وأنّ مثل هذا النص وسيلة من وسائل متابعة خطة معينة للوصول إلى غاية بعينها.

د* المقبوليّة: يتضمن موقف مستقبل النصّ إزاء كونه صورة ما من صور اللغة ينبغي لها أن تكون مقبولة من حيث هي نص ذو سبك والتحام.

ه* الإعلاميّة: تمثل الإعلامية أحد معايير النّصية، وممّا لا شكّ فيه أنّ كل نص يحوي قدرا من المعلومات، وتختلف درجة الإعلامية من نص إلى آخر فالواضح الجلي أنها تحكمها نوعية النّصوص.

و* المقاميّة: إنّ دراسة النص لن تكون كافية بالوقوف عند بنيته النحوية، أو الدلالية الداخلية، بل لا بدّ من دراسته على مستوى الخطاب، وهذا بالاهتمام ببنية السياق والعلاقات بينها وبين النص.

ز* التّناس: في فضاء النص تتقاطع أقوال عديدة مأخوذة من نصوص أخرى، مما يجعل بعضها يقوم بتحييد البعض الآخر ونقضه. أو هو تعالق نصوص مع نص حدث بكيفيات مختلفة.

1/ النّص: مقارباته المفاهيمية عند ابن البناء(721هـ):

تذهب أغلب تخرجات اللّسانيين العرب المعاصرين والمشتغلين على التراث النّقدي العربي، على أنّ النقاد القدامى قد كان لديهم تصور حول النظرة الكلية التي يتشكّل بها النّص الأدبي، فغياب المصطلح لديهم لا يعني بالضرورة غياب المفهوم أو غياب الممارسة، ولهذا نجدهم قد تحدّثوا عن النّص بمنظور تراثي وفق الرّؤى المعاصرة على اختلاف في التّصورات والمفاهيم أحيانا، وذلك حسب المنطلقات التي يتأسس عليها الفكر النّقدي لكل ناقد. فمما لا شكّ فيه ((أنّ أيّ تواصل لغوي لا يتحقّق بين النّاس إلّا بالمفاهيم. إذ هي جوهر اللّغة الطّبيعيّة العاديّة ولبّ اللّغة العلميّة والاصطناعيّة. المفاهيم هي ما يجعل الإنسان يفرق بين شيء وشيء))¹.

ومن بين التخرجات التي توصل إليها بعض الباحثين من أمثال "محمد مفتاح ونهلة فيصل الأحمد ومحمد العبد وغيرهم، أنّ النّص كمصطلح ومفهوم حدائي يحيل إلى عدّة استعمالات موازيّة لهما داخل المدونة العربيّة التّراثيّة ومن أمثلة ما اقترحه الباحثون نجد النّص: كلام، نسيج، تأليف، نظم... الخ، وما يؤكّد ذلك ما أورده الباحثة نهلة فيصل الأحمد مثبتة صحّة وجهات النّظر وهي مقولة أو فكرة: "صناعة الكلام أو النص على شاكلة النسيج"، فالملحوظ أنّ هذه الفكرة قد تواردت بين الكثير من العلماء القدامى من أمثال الجاحظ

والشريف الجرجاني وعبد القاهر الجرجاني...ومن هم على شاكلتهم.²

إنّ أوّل ما يمكن أن يلفت انتباه المستقري لمدونة الروض المربع لابن البناء في معرض مناقشته لمسألة الدوال والمدلولات هو قوله: ((ولهذا وجب تقديم معرفة مفردات اللغة وصناعة اشتقاق ألفاظها وتصاريحها، ومعرفة تركيب أجزاء القول منها وقوانين إعرابها ونحو اشتقاقها، فإنّ ذلك هو المتقدّم والمبتدأ لهذه الصناعة البلاغيّة))³، وفقا لما جاء به الباحث

♦- ابن البناء العددي المراكشي، (654-721هـ) رياضي وبلّغ وبلّغ ومتوصف مغربي، له من الكتب ما يفوق التسعون كتابا، منها كتابه المائل بين أيدينا(الروض المربع في صناعة البديع) وهو كتاب في البلاغية العربية على شاكلة نمط المنطق الصوري الأرسطي.

1- محمّد مفتاح، المفاهيم معالم، نحو تأويل واقعي، إفريقيا الشرق، المغرب، ص06.

2-ينظر: نهلة فيصل الأحمد، التفاعل النّصي التّناسية النظرية والمنهج، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ط01، 2010. ص 34-36. وينظر: محمد مفتاح، المفاهيم معالم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط01، 1999. ص20 إلى غاية الصفحة27.

3- ابن البناء المراكشي العددي، الروض المربع في صناعة البديع، تج: رضوان بنشقرن، الرباط، دط، 1985، ص75.

محمد مفتاح وخديجة الغفيري وغيرها، فإنّ ابن البناء في هذا الموطن يؤكد كلامهما، فلا يمكن للمتكلم أن يكتفي بمعرفة دلالات الألفاظ واشتقاقها، وإنّما وجب عليه أن يعرف تركيبها وتصريفها داخل أجزاء القول... الخ وبذا يكون ابن البناء قد أشار في قوله هذا إلى تشكل النّص على أنّه قول مركّب من أجزاء آلتها الألفاظ ذات الدلالة. وإزاء ذلك يقارب تخريجنا لقوله هذا لمفهوم النّص الحدائثي كمتوالية من الجمل عند هاليداي ورقية حسن، وكندسيج من الكلمات كما أورده رولان بارث في تعريفه.

لم يتوقف "ابن البناء" في نظريته إلى تشكل النّص عند حدود الكم بل تجاوز ذلك ليدلنا على أنّ كل لفظ يدل على معنى لكن أيها تحصل منها الفائدة، ونحو ذلك تستوقفنا تقسيمات الألفاظ حسب دلالات المعاني وهي:

- 1- لفظ مفرد يدلّ على معنى مفرد: كزيد.
- 2- لفظ مفرد يدلّ على معنى مركّب: كقُمْ، ونعم.
- 3- لفظ مركّب يدلّ على معنى مفرد: كعبد قيس.
- 4- ولفظ مركّب يدلّ على معنى مركّب: كغلام زيد.¹

إذا ما أنعمنا النّظر في الأقسام الأربعة الوارد ذكرها فإنّ ما يستدعي الاستقراء القسم الثاني، فعلى الرّغم من أنّ اللفظ مفرد إلاّ أنّه يحمل معنى تاما فقم: كلمة تحمل دلالة القيام بفعل، ونعم هي حرف جواب أو الانصياع لأمر وبالتالي فهي تحمل رسالة من مرسل إلى مستقبل، وهذا ما دلّ عليه علماء لسانيات النّص على أنّ الكلمة الواحدة إذا أدّت رسالة فهي نصّ.

وإلى أبعد من ذلك، وتأكيدا لما سبق ذكره يسير "ابن البناء" في تحديد معالم المفاهيم التي يتعامل معها ولا تختلف رؤاه عن غيره من علماء البلاغة والنّقد، فقد وظّف مصطلح القول ليدل به على النّص وفي ذلك يقول: ((ينقسم القول إلى موزون مقفى وهو المنظوم، وإلى غير ذلك وهو المنثور، ويستعمل كلّ واحد منهما في المخاطبات))²، ينطلق "ابن البناء" بداية بتحديد الفوارق الجوهرية بين النّص الشعري والنّص النثري، ثمّ يضيف إليهما عنصر التفاعل بين المؤلّف والمتلقّي من خلال تقريره على أنّ النّصوص تستخدم في المخاطبات، وهو بذلك في تحديده لمفهوم القول*/النّص يبني رؤيته وفق المنظور الألسني النّصي القائل بأنّ النّص وحدة لغوية وقت استخدامها أو وحدة تواصلية حال استعمالها.

إنّ المتصّحّ للمدونات التراثية لا يكاد ينفك إلاّ ويقف على آراء للعلماء فيها تأكيد على خاصية التركيب الحامل لمعنى محدّد، وهذه الخاصية تعتبر مزية للنّص في حدّ ذاته، وابن البناء كغيره من النّقاد إذ نجد في أقواله ما يدلّ على ذلك منها قوله: ((وعلى الجملة فصناعة البديع ترجع إلى صناعة القول ودلالته على المعنى المقصود))³. من البديهيات أنّ الصّناعة لا تقع إلاّ في الأشياء المركبة، فالصّناعة عملية يخرج بها الصّانع المتفرّق في صورة الكلّ المجتمع، وقد استخدم "ابن البناء"

1- ينظر: المصدر نفسه، ص76.

2- ابن البناء المراكشي، المصدر السابق، ص81.

*- لا يتوقف "ابن البناء" عند هذا الحدّ من التّقسيم بل يذكر أصنافا أخرى تنضوي تحت مصطلح القول وهي: البرهان والجدل والخطابة والشّعر، والمغالطة وبإيراده لهذه الأقسام يبيّن ابن البناء أنّ لكل نصّ خاصيته من حيث البناء سبكا وحيكا، وموضوعا. وهذا ما يجعلها تتباين فيما بينها وتختلف. ينظر: ابن البناء المراكشي، المصدر السابق، ص81.

3- المصدر نفسه، ص88.

مصطلح صناعة القول دلالة منه على خاصية التركيب الدال على معنى، ومنه يمكن لنا القول أنّ مفهوم النص يقارب مفهوم القول لديه.

2/ استكشاف معايير النصية عند "ابن البناء العددي":

إنّ المشتغل في حقل إحياء التراث يلحظ أنّ علماء العرب قديما نقادا وبلاغيين قد اهتموا بالنص وطرق بنائه على المستويين: المستوى السطحي والمستوى العميق، كما وجهوا عنايتهم نحو المُلقّي والمتلقّي، وذاك مانبغي الوقوف عليه عند "ابن البناء المراكشي" لنطرح السؤال الجوهرى: باعتماده على المنطق الرياضي والمنهج الفلسفي، كيف درس هذا الناقد التماسك النصي؟ وهل حوت آراؤه معايير للنصية؟.

*- الاتساق:

عرض الناقد في كتابه إلى خاصيتين من خواص الاتساق الأولى: الحذف، والثانية: الاتساق المعجمي، ولم يعرض لغيرها من آليات الاتساق.

1- الحذف:

أول ما يتحدث "ابن البناء" عن الحذف يذهب لبيّن أهميته وضرورة توظيفه في كلام المتكلم أو الكاتب، فيقول: ((فإن كان في الألفاظ ما إذا حذفته بقي المعنى على حاله وتميّز ذلك اللفظ الزائد من غيره فهو الحشو، وإن لم يتميّز فهي الإطالة، وإن لم يكن في الألفاظ ما إذا حذف بقي المعنى بحاله، فإن كان لا تمكن العبارة عن ذلك المعنى بأقل من ذلك اللفظ فتلك المساواة. وإن كان تمكن العبارة عن ذلك المعنى بأقل من ذلك اللفظ فهو الإيجاز))¹.

وعليه، وفي نظرنا فإنّ الحذف يساهم إلى حد ما في تحسين المعنى وجزالة التعبير وانسجام الخطاب، يقول ابن البناء العددي: ((ومنه ما يقال له الحذف، وهو أن يقتصر على عمدة الكلام ويحذف ما هو فضلة لدلالة السياق عليه، كقوله تعالى: (فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا) سورة الكهف/ 105، وزنا نافعا فحذف الصفة، ودل المراد المسكوت عنها، وذلك يكون حيث يقصد تفخيم الأمر حتى يكون ذلك النوع هو الجنس كلّ في الاعتبار))²، وقد جاءت الكثير من الآيات تحمل مباحث الحذف، فكان أبلغ من الإظهار، وقد ألفت الكثير من الدراسات والبحوث البلاغية والنحوية في ظاهرة الحذف في القرآن الكريم، وكشفت على أن الخالق الباري، ما كان ليحذف إلا لتمام المعنى، وشدة وقع الكلام على المتلقي، والمقام الذي يفرض الحذف أبلغ من التوضيح والإيصال.

فمن خلال الآية السابقة الذكر، يتحقّق الاتساق بجانب الوحدة الموضوعية، التي تتجنب التناقض وبالتالي فإنه من ((العوامل التي تحقق للنص اتساقه وترابطه، حسب " براون" و "يول" قوة الربط التي تتحقق في العلاقات المعنوية المضمنة... ولن يختلف اثنان في ضرورة وجود مثل هذه العلاقات المعنوية داخل الخطاب لكي يتيسر فهمه منطقيا))³، وهذه العوامل متجسّدة في الشواهد البلاغية التي ساقها ابن البناء وغيره للدلالة والاستشهاد بمواطن وجود مصطلحات البديع.

1- ابن البناء، الروض المربع، ص83.

2- المصدر نفسه، ص 147.

3- محمد الأخضر الصبيحي، المرجع السابق، ص 83.

2-الاتساق المعجمي:

أ- التكرار:

ويشير "دي بوجراند" و"دريسلي" إلى أنه ((غالبا ما يكون التنظيم السطحي راجعا إلى تحقيق توافقات أو تشابهات خاصة مع المعنى والغرض من الاتصال جملة))¹، وتقريبا من إثبات هذا المعنى تطرّق ابن البنّاء إلى علاقة التكرار بالنص، من حيث ثبوته وحسنه أو نفيه وقبحه فقال: ((ولا شيء في البديع أقبح من التكرار لأنه يغض من طلاوته ويضع من قدره ... ولكن متى كانت هناك معانٍ أخرى لا تستفاد إلا من التكرار حسن التكرار ودخل في البلاغة ولم يكن مذموما))²، واستدل على ذلك بالكثير من آي القرآن الكريم، وعيون الشعر العربي.

من ثمّ فإنّ "ابن البناء المراكشي" يبيّن الحالات التي يقع بها التكرير، فيقول: ((وأما التكرير فمنه تكرير في اللفظ والمعنى واحد، ويقال له المواطأة. ومنه تكرير في اللفظ والمعنى مختلف، ويقال له المشاركة))³، وقد بيّن ذلك بأمثلة:

1-المواطأة: منها ما يقبح، ومنها ما يحسن، أ- القبيح: كقول الشاعر:

لو كنت كنت كتمت الحب كنت كما ***** كتنا نكون لكن ذاك لم يكن.

وعنه يقول "ابن البناء" أنه خبر كلّه مشتق من معنى واحد متكرّر، وألفاظ مكررة.

ب- الحسن: وعند "ابن البناء": ولكنه متى كانت هناك معانٍ لا تستفاد إلا من التكرار حسن التكرار ودخل في البلاغة ولم يكن مذموما، كقولنا: زيد أبوه زيد...⁴

2-أما المشاركة: فهي أن يشترك المعنيان في اللفظ الواحد ككلمة الخال تدل على أخ الأم، وتدل على النقطة في الوجه⁵.

وعلى ذكر جمالياته في النص والبلاغة، أشار إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ...﴾ سورة الناس الآية 1-2-3* فقد تناولها ابن البناء من حيث دلالة التكرار، في شغله حيزا نحويا وبلاغيا، فربطه بمنازل التقييد والاشتراط، وفي هذه الآيات كان كل قول مكرّر مستقلا، وكل كلمة لها دلالتها الخاصة، فتحقق بذلك السبك المعجمي والنحوي في السورة كاملة.

ومن بين الأمثلة التي جاء بها ابن البناء -وهي كثيرة الترداد عند من سبقوه أو تأخروا عنه- والتي جعلت من تماسك النص وسبكه قمة الإبداع القرآني، بعيدا عن الجدال اللساني المعاصر قوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ سورة الروم، الآية 7، والشاهد ها هنا، (هم) وعلّق ابن البناء العددي عليها بقوله: ((ومن هذا القسم ما يأتي تخفيفا على النفس من الاسترجاع إلى ما مضى فيبني على الثاني دون الأول))⁶، وفيه من البلاغة وقوة البيان، ما يعجز البشر عن الإتيان بمثله، ولذلك قصرت دون بلاغته المفهوم.

1- جميل عبد المجيد، البديع بين البلاغة العربية ولسانيات النص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998، ص 80.

2- ابن البناء، الرّوض المربع، ص 158

3- المصدر نفسه، ص 157.

4- ينظر: نفسه، ص 157.

5- ينظر، نفسه، ص 162 وما بعدها.

*- جاء في صفوة التفاسير: الإنابة بتكرير الاسم زيادة في التعظيم والاعتناء بشأنهم وقال القرطبي: التكرار هنا لفائدة تذكير بوجود ملك واحد وإله واحد عند التعدد، الصابوني، م. س، ص 226 227.

6- ابن البناء العددي، المصدر السابق، ص 160

وقد كان السجلماسي** ، أوغل في تبيان النوع الأول من التكرار وهو البِنَاءُ ، وانفرد بتحليل جميل وتعليق فريد على هذه الآية، ممّا جعلها بحق شاهدا على السبّك الذي حلّ بقوة في القرآن الكريم، فقال السجلماسي: ((فقوله " هم " الثاني بناء على الأول لما طال القول، وكان قوته بوجه ما قوّة التأكيد اللَّفْظِي ... ولا غرو والبناء بلاغة بديعة وسبيل من البيان عجيبة، تدل على قوّة مُنَّة المتكلم في العبارة عن معانيه وتحفظه فيها بما يخل في القول بمبانيه))¹ ، وقد استعمل القرآن الكريم الكثير من هذه العبارات، في سوره الكريمة، كما أبان عن سر الإعجاز في توظيف المباني التي جعلت من القرآن الحكيم، قبلة العلماء والبلغاء على حد السواء.

وإلى جانب تعليق السجلماسي وابن البناء العددي، نلمس ما في التكرار هاهنا من تنشيط لذاكرة المتلقي وما نجم عنه من ترابط الكلام وانسجامه، والذي جاء بسبب من مخافة طول العهد وهذا ما نصّ عليه ديوجراندي في كشفه عن إنجازات علم النفس المعرفي والإدراكي وعلاقاته الوطيدة مع دراسة الذاكرة ومدى فاعليّة التكرار في تنشيطها على عدّة مستويات.

ب- التضام والتعارض:

التضاد عند ابن البِنَاء العددي من الأمور التي تقع فيها المناسبة، وهو مبدأ تقوم عليه تحليلاته، وحيال ذلك يقول: ((وقد تقع المناسبة بين الأضداد، يقصد بذلك المقاومة، والمغالبة، ويسمى المكافأة كقول الناظم:

إِذَا أَيْقَظْتِكَ حُرُوبُ الْعِدَا **** فَتَبَّهَ لَهَا عَمْرًا ثُمَّ نَمَّ²،

فقوله إنّ المناسبة مبنية على التضاد والمغالبة قد نبّه إليها في الشاهد الشعري الذي أخذه عن بشار بن برد، ((فالنوم يضاد اليقظة وانتباه عمر للحروب يضادها، ونسبة حروب العدا إلى زوالها بعمر، كنسبة يقظته إلى زوالها بنومه فكأنّ الناظم قال: إذا أيقظت حروب العدا فأزل الحرب بعمر، وأزل يقظتها بالنوم))³، وعليه فإنّ التناسب المعتبر عند "ابن البِنَاء العددي" المبني على الحدود الأربعة المتوازية يرتكز هاهنا على (العدا، الحروب، عمر، الفعل) فيكون بذلك حذف الوسيط اختصارا وذكر الطرفين امثالاً للصيغة التناسبية الرياضيّة ((فمتى جاء الجمع بين ضدين فلمعنى آخر لقصد البيان، فإنّ بضدها تتبين الأشياء وهو المسمى طباقاً))⁴.

بالنظر إلى الخاصيات التي تميّز كل لغة عن غيرها، وبالإجماع على أنّ اللغة العربيّة منفردة في تشكّلها وفي بنيّتها اللغويّة، فإنّ مباحث القدامى قد ضمّت عددا من الظواهر التي لم يشر إليها علماء لسانيات النصّ الغربيّة، إلّا أنّها ومن وجهة نظر علماء العربيّة قديما وحديثا تساهم وبشكل كبير في خلق اتساق النصّ من بينها: التّقديم والتأخير والمؤاخاة بين الألفاظ والمعاني...، فأنظمة البناء في اللّغة العربيّة لا يمكن حصرها في بضع صور للاتساق، ذلك أنّها بحر لا ينضب.

** - لم يتوصّل محقق كتاب السجلماسي إلى تاريخ محدّد حول حياة الناقد إلّا أنّ ما ثبت لديه أنّ العلامة قد عاش فترة ما بين القرن السابع وبداية القرن الثامن للهجري، فكتابه "المتزّع البديع" قد أنبى تأليفه سنة 704هـ. ينظر: ، القاسم أبو محمد السجلماسي، المتزّع البديع في تجنيس أساليب البديع، تج، علال الغازي، مطبعة النجاح الجديدة، ، 1980، ص46-48.

1-المصدر نفسه، ص 478.

2- ابن البناء المراكشي، الرّوض المرعب في صناعة البديع، ص109.

3- المصدر نفسه، ص109.

4- نفسه، ص111.

*-الانسجام:

1- المناسبة عند ابن البناء العددي:

نجد من بين المفاهيم الأساسية التي بنى عليها "ابن البناء العددي" مشروعته التقدي مفهوم المناسبة* ، وهذا المفهوم طبقه ابن البناء على عدة ظواهر بلاغية منها: مشكلة النظم والذي يحيلنا إلى مفهوم ترابط الخطاب من وجهة نظر الألسنية النصية، وعن ذلك نجد ابن البناء يقول: ((ولا بدّ في ترتيب المناسبة من مشكلة النظم، كما جعل امرؤ القيس الشجاعة مع الكرم لأتّهما مصاحبان في الوجود، وقرن بين مركوبين للذة: الجواد في الصيد، والكاعب ذات الخلخال في المتعة))¹. فالتناسبية قاعدة يسير عليها "ابن البناء المراكشي" ويجعلها من متعلقات كل القضايا التي ناقشها إذ جعل المناسبة كمبدأ قائم في تشبيه الأشياء وترتيبها.

2- التدرج :

إنّ المتصحّح للمدونات التراثية على اختلاف أفانيتها يقف على التنوع القائم في استخدام المصطلحات، والتخلص من جملة المصطلحات التي وظفت بعدة أوجه كالخروج والتوسل... الخ. ولعلّ التخلص أسبق من غيره استخداما. وقد تكون أقدم إشارة إلى التخلص ما جاء في كلام ثمامة بن الأشرس. وقد وظّفه أيضا ابن طباطبا والقاضي الجرجاني وغيرهم. وأمّا اصطلاح الخروج فلعلّ أقدم إشارة ترجع إلى أبي العباس ثعلب (ت291هـ) في كتابه قواعد الشعر. وقد تبعه في استخدام هذا المصطلح ابن المعتز (296هـ). وقد تبعهم في ذلك العسكري وابن رشيق القيرواني، وابن البناء المراكشي².

وعليه يكون التدرج عند "ابن البناء" هو الخروج من شيء إلى شيء، فقد يخرج من وصف شيء إلى وصف شيء

آخر³. ويقع الخروج عنده على أوجه:

- 1-إما تصريحاً ويسمى الخروج.
- 2-إما تضمناً ويسمى الإدماج.
- 3-أو يجعل أحد الوصفين عليه أهمّ من الآخر ويسمى التفرع.
- 4-أو يخرج لشيء مقصود بصورة أنّه غير مقصود. ويسمى الاستطراد.
- 5-أو يخرج من إثبات الشيء إلى نفيه بالقوة أو بالفعل، ويقال له التجريد.
- 6-ومنه ما يخرج من نفي الشيء إلى إثباته هو وغيره مبالغة ويسمى الاستدراك.
- 7-أو يخرج في أثناء الكلام إلى شيء يعنّ له في قوله ويسمى الاعتراض.
- 8-أو يخرج من حضور إلى غيبة، وعكسه، ويسمى الالتفات.
- 9- أو يخرج في آخر كلامه إلى معنى لم يبين القول عليه، ويسمى الاعتماد⁴.

*- من بين الذين اهتموا بدراسة الفكر التقدي لدى ابن البناء "محمد مفتاح" في كتابه التلقي والتأويل، وعن مفهوم المناسبة لدى الناقد يقول أنّ: ((أهمّ مصطلح مكوّن لجوهر كتاب ابن البناء هو: النسبة أو المناسبة، أو التناسب، فقد بنى على هذا المصطلح الرياضي عدّة قضايا، وقسمه عدّة أقسام، وربّط عليه النتائج)). ينظر: محمد مفتاح، التلقي والتأويل، مقارنة نسقية، المركز الثقافي العربي، ص45.

1- ابن البناء العددي المراكشي، الرّوض المربع في صناعة البديع، ص110.

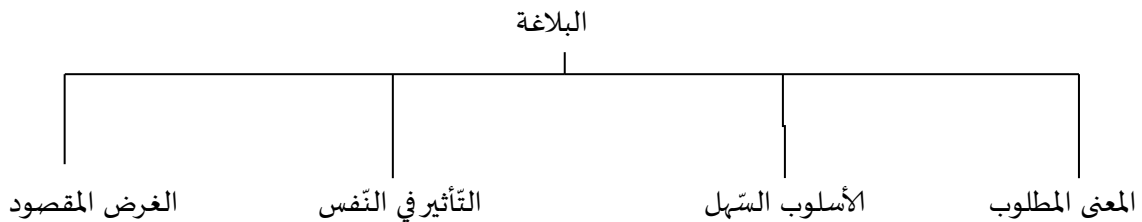
2- ينظر: محمّد العبد، النص والخطاب والاتصال، ص123-124.

3- ابن البناء، الرّوض المربع، ص95.

4- ينظر: المصدر السابق، ص95-99.

*-القصدية:

ولا زلنا نهمل من معين التّراث، ونعترف من غرفه، وها نحن نحطّ الرّحال عند ، لنقف على عمل مؤسس مقنّن كان نتاج آراء وأفكار"ابن البنّاء" تُجاه المقاصد، فقام بتقسيم الخطاب إلى أنماط بحسب الأغراض، كما درس العلاقة بين المقاصد وأساليب الخطاب، وقد وسم أحد أبواب مدونته بـ" اللفظ مقسّم من جهة مواجهة المعنى نحو الغرض المقصود". كما لا يبتعد النّاقِد البلاغي في تعريفه للبلاغة عن سابقيه إذ ربطها بتحقيق المقاصد، فيقول:((البلاغة هي أن يعبر عن المعنى المطلوب عبارة يسهل بها حصوله في النّفس متمكّنا من الغرض المقصود))¹، من التنظيرات الّتي وقفنا عليها خلال صولاتنا وجولاتنا داخل طيّات المدوّنات التّراثيّة أنّ بعضهم جعل المعنى ردفاً للقصد، في حين أنّه يمكن لنا أن نمثّل لمنظور "ابن البنّاء" بالمخطّط التّالي:



كما يرجع "ابن البنّاء" انقسام الخطاب إلى : الإيجاز والمساواة والتّطويل تكريسا لمطلب الأغراض المنشودة من وراء هذا الخطاب، بمعنى أنّ صاحب النّص له مقصدية وغاية يريد الوصول إليها من خلال اختياره لنمط من هذه الأنماط الثلاثة للتعبير فهو على دراية بحال متلقّي النّص، لذا فهو يسعى وفق منظوره التّأسيسي نحو المتلقي أن يختار الأسلوب ونوع النّص الّذي يوافق آمال المتلقّي².

كما أنّ الأغراض والمقاصد في رأيي "ابن البنّاء" تكون الفيصل أحيانا بين أنواع الخطابات وقد يُلجأ إليها لإصدار حكم حول هذه النّصوص ف ((الأغراض والمقاصد تختلف في الخطاب على الشيء الواحد، فيكون لذلك الشّيء أنحاء كثيرة بحسب كلّ غرض، فقد ينحو بعض النّاس في الشّيء نحو غير الّذي ينحوه فيه بعض، فلا يعترض بأحدهما على الآخر لاختلاف التّحوّين، ولذلك اشترطوا في البديع أن يكون اللفظ بإزاء المعنى والمعنى مواجهة نحو الغرض المقصود))³، فلا يمكن الفصل بين النّصوص المتشابهة في المواضيع إلّا بالرجوع إلى مقاصد أصحابها، مع العلم أنّ المقاصد لها دور في تركيب الكلام، لذلك جعل "ابن البنّاء" اللفظ مساويا للمعنى، والمعنى بمثابة آلة الغرض والمقصد المنشود.

ولما كانت المعاني تابعة للأغراض والمقاصد، كان لزاما على المؤلّف/المتكلّم مراعاة هذه المشاكلة والعمل على إخراجها في أحسن هيئة حتّى يتوافق المطلب من هذا النّص، لأنّه ((قد يكون المعنى بليغا بالنّسبة إلى غرض، وغير بليغ بالنّسبة إلى غرض آخر، ولذلك لا يصحّ الاعتراض على أحدٍ إلّا بعد الاتفاق على الغرض والنّحو الّذي نحا فيه))⁴، ولا يجوز الحكم بين المعنيين كما أقرّ "ابن البنّاء" إلّا إذا توافقت الأغراض. وتبعاً لذلك فإنّه ((إذا تبين أنّ المعاني قد تكون مواجهة نحو الغرض،

1- نفسه، ص 87.

2- ينظر: ابن البنّاء المراكشي، الرّوض المربع في صناعة البديع، ص 87.

3- المصدر السابق، ص 89.

4- نفسه، ص 89.

والأغراض لا تنحصر، فتقسيم الصناعات بحسب الأغراض غير منحصر من جهة المعنى¹. انطلاقاً من قول الناقد فإنّ بناء النّص لا يقوم على مبدأ التناسب بين الألفاظ والمعاني فقط، وإنّما صار الأمر مقسماً بين عنصرين:

1- تركيب المعاني مع الألفاظ.

2- مواجهة المعاني للمقاصد والأغراض.

وفي الختام يصل "ابن البناء" إلى محصلة القول مفادها أنّ ((المقاصد تبين الحسّن من ذلك من القبيح، وكلّما كان المقصد واضحاً كان أحسن في البيان))²، فالحكم على النتاج الأدبي أو النّص إنّما يكون بالنّظر إلى المقاصد، وأحسنها ما كان بين الغرض والقصد واضح المعالم، وقد يتساءل المتلقّي: كيف يمكن له العلم بقصدية المؤلّف؟ فيجيبه صاحب "الروض المرعب" على أنّ ((يستدلّ على المقاصد بالقرائن ومنها سياق الكلام، وهو ربط القول بالغرض المقصود من غير تصريح به))³، فالإحالة على الأغراض يمكن أن نستشقه من خلال القرائن: كالسياق أو بعض التلميحات التي تنضوي تحت خطاب مبطن، وتكون بمثابة الآثار التي يتركها الكاتب كإشارة على مقاصده يستدلّ بها القارئ، ((يربط النّص بمنابعه الأساسيّة وبسياقه ومرجعياته، هي انعكاس لمنشئه وإمكاناته الخاصّة. ذلك أنّ الظاهرة الأدبيّة موصولة بالقيم الشخصيّة والاجتماعيّة للأديب قويّة العلاقة بالواقع الثقافي الذي يعيش في خضمه))⁴.

*-المقبوليّة:

إنّ قارئ المدونات التراثيّة العربيّة لا بدّ له إلّا وأن يقف على آراء لهؤلاء الأفاضل تحيل إلى عنايتهم بالمتلقي نوعياً كان أو عادياً، و"ابن البناء المراكشي" لم يشذ عن القاعدة فرغم أنّ كتابه جاء مقتضب ومختصر مقتصر فيه على لب الكلام والأقوال، إلّا أنّنا نلّفه وفي مواطن عدّة ينوه بمدى أهمية العناية بالمتلقي فالنّص إنّما يكتب لأجله، وفي ذلك يقول في معرض حديثه عن المعاني: ((ومتى كانت المعاني بينة بنفسها أو بقريّة سياق الكلام أو غيرها من القرائن كان الإيجاز نافعا لأجل التّخفيف عن النّفس، لأنّ الألفاظ غير مقصودة لذاتها إنّما هي لإيصال المعاني إلى النّفس، فإذا وصلت النّفس إلى المعنى بغير اللفظ كان اللفظ زائداً فيثقل، لا سيما إن كانت النّفس ترى أنّ لها في الوصول إلى المعنى خصوصيّة وشرفاً على غيرها فإنّها تسرّب بذاتها لأنّها بلغت إلى المقصود من غير طول، وكل ما يسهل في الوصول إلى المطلوب فهو محبوب وكل ما يعوّق عنه فهو مكروه))⁵، فالنّصوص وعلى حدّ تعبير ابن البناء إنّما وضعت لتقرأ لذلك وجب على المتكلم أو المؤلّف العناية بالألفاظ والمعاني ليس لأجل ذاتها وإنّما لأجل أن يحصل تقبلها من المتلقي، وحتى تتحقّق هذه الغاية يجب أن يعمد هذا المتكلم إلى المعاني الواضحة ويتعدّد عن الغموض والتّعقيد الذي لا طائل من ورائه، ثم عليه أن يوجز في استخدام العبارات لأنّ الإطالة سبب الملل والنفور وهذا ما يضعف معيار المقبوليّة.

وفي حديثه عن الأشياء المتناسبة أو المتضادة يلفت الناقد البلاغي العناية لما يحدثه هذا النوع من التّعبير من تأثير في نفس المتلقي وتجعله باحثاً عن اللذة في مثل هذه التعابير، وهو ما ((تجده النّفس في ذكرهما مجموعين من اللذة، لأنّ

1- نفسه، ص90.

2- نفسه، ص123.

3- ابن البناء المراكشي، المصدر السابق، ص 123.

4- إبراهيم صدقة، النّص الأدبي في التراث النّقدي والبلاغي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط01، 2011، ص99.

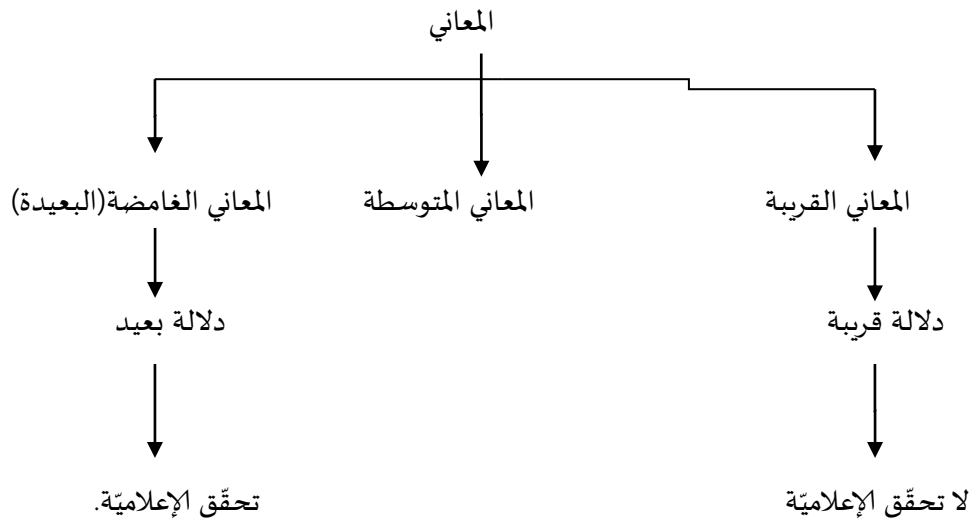
5- ابن البناء المراكشي، الروض المرعب، ص83.

اللذة في التقاء الضدين))¹، فاللذة المتواجدة في المتناقضات من الأشياء لا يمكن أن تكون في غيرها، لأنّ التّفنّس تبحث عن الموازنة بين هذه المتضادات ثم تستقرى مدى التماسك الذي أحدثه هذا التعبير، وإزاء ذلك يلقي المتلقي نفسه مشدودا إلى تتبع خيوط نسيج النصّ.

*-الإعلامية:

غالبا ما تكمن فاعليّة الخطاب الضمّني في تحريك معيار الإعلاميّة داخل النصّ وتحقيق نجاحه، ويكون في الوقت ذاته أقوى تعبيرا من الخطاب الصّريح، فالشّيء ((قد يكون على حال من العظّم بحيث يرى أنّ الألفاظ لا تومئ له إيماء، أو يذكر ما يفخمه به لتذهب التّفنّس في تأويله كلّ مذهب))²، فلا يمكن أن تتغيّر بنية النصّ -نحويا ودلاليا- إلّا من وراء غاية ومقصد من المبدع وهذا الأمر المستحدث يكسر نمطيّة بناء النصّ، وكلّ ذلك يعدّ استثارة لمستقبل النصّ لأنّه يقع أمام مهم يستدعي منه الإيضاح، والأمر عند "ابن البناء" قد يقع خلافا ف ((يكون الغرض شيئا لا يتأتّى في الحكمة كشفه إمّا لقصور الفهم عنه، وإمّا لتمييز الفطن الدّكي من الجاهل الغبيّ، فيظهر للفطن شرفه، فيسرّ بنفسه، ويظهر لغيره قُصوره فيتحمّس لعجزه وربّما يكون ذلك داعيّة لتحريك فكره حتّى يخرج من ظلمة الجهل إلى نور العلم، والمحاجة واللّغوز والتّوريّة راجعة إلى هذا النّوع))³.

وتأسيسا على ما سبق، يقسم "ابن البناء" المعاني إلى ثلاث أقسامفمنها: ((البينة القريبة، ومنها الغامضة البعيدة، وبينهما متوسّطات، وكذلك الألفاظ في الدّلالة عليها توضع على نسبتها، فما كان المعنى قريبا جليّا عبّر عنه بعبارة بيّنة وسُمّي باسم ظاهر الدّلالة، وما أبعد عنه عبّر عنه بعبارة بعيدة عن الوضع الأوّل، إلى أن تكون الدّلالة على أبعد المعاني إدراكا بأبعد ما يلفظ به دلالة))⁴، بالنظر إلى ما قدّمه النّاقد وما ينصّ عليه مبدأ الإعلاميّة فإنّ المعاني البعيدة الغامضة هي التي تحقّق معيار الإعلاميّة داخل النصّ، ويمكن أن نمثّل لما قدّمه النّاقد في المخطّط التّالي:



1- المصدر السابق، ص111.

2- ابن البناء المراكشي، الرّوض المرعب في صناعة البديع، ص121.

3- المصدر نفسه، ص122.

4- نفسه، ص122.

*-المقامية:

يمكن لنا أن نتيّن دلالة السّياق اللّغوي عند "ابن البناء" من خلال التّمعن في كلامه عن الفصاحة لنستشفّ نظرتة حول السّياق الداخلي، وذلك في معرض قوله: ((والفصاحة أن يكون اللفظ مشاكلا للمعنى، فإنّ من الألفاظ ما تكون سهلة المخارج على النّاطق بها وتدلّ على معناها بسرعة لكثرة استعمالها. فإذا اجتمع على الكلام أن يكون لفظه فصيحاً لسهولة مخارجه وعذوبته في السّمع وسهولة تصوّر معناه وحسن مبانيه بالمشاكلة العقليّة والنّظام الطّبيعي، واتّسع الفهم في لوازمه، فهو العالي الدّرجة، الرّفيع المنزلة الثّمانية في الطبقات الشّريفة. لذلك احتيج إلى معرفة الكلام وطبقاته))¹، فلا يكفي من أجل تحقّق السّياق اللّغوي داخل النّص أن ننظر إلى مشاكلة الألفاظ مع بعضها البعض، أو صحّة تركيبها التّحوي. ولكنّ وحسب ما ورد في طيّات المدوّنة التّراثيّة على أن نشاكل بين الألفاظ والمعاني، فحتّى يتمّ بناء المعنى في أكمل صوره وجب تخيّر الألفاظ سهلة المخارج كثيرة الاستعمال ومناسبتها لما يواتمها من المعاني.

أمّا عن السّياق الخارجي أو ما اصطلح عليه قديماً فقد كانت دعوى القدامى قائمة على وجوب رعاية حال المتلقّي مع ولادة كلّ عمليّة إبداع، ولا يصلح ذلك ويقع إلّا إذا كان انتقاء الألفاظ مواتياً للمقام الذي يقع فيه الخطاب والذي غايته التّأثير في المتلقّم ابن البناء وغير ممن سبقوه أو تأخروا عنه، يقول "ابن البناء" حول رعاية حال المخاطب وزمن الخطاب: ((وحسن اللفظ وصلاحه إنّما هو القصد إلى المُستعمل في زمان الخطاب وعلى قدر من يخاطب والإيضاح على أحسن ما يُقدر عليه من التّسهيل والتّقريب))²، يضع النّاقِد في هذا النّص إنتاج الخطاب في مقامين:

1- مراعاة مقام زمن استعمال الخطاب.

2- مراعاة مقام أحوال السّامعين.

لكل مقام مقال:

وفي موضع آخر يجعل "ابن البناء المراكشي" السّياق قرينة لإيضاح المعاني، فما يُحدّده المقام ويقوم عليه، لا يمكن أن يقوم مقامه شيء آخر، إذ أنّ تحديد الطّريقة التي ينبي وفقها الخطاب إنّما تخضع في أساسها إلى المقام الذي يُلقى فيه، يقول النّاقِد: ((متى كانت المعاني بيّنة بنفسها بقرينة سياق الكلام أو غيرها من القرائن كان الإيجاز نافعا))³، فالإيجاز والإطناب وغيرهما من الأساليب البلاغيّة إنّما هي في حقيقة أمرها وليدة المقام.

خلاصة القول:

أنّ بلاغة الكلام هي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته، ومقتضى الحال مختلف فإن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التنكير يباين مقام التعريف، ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد، ومقام التقديم يباين مقام التأخير، ومقام الذكر يباين مقام الحذف، ومقام القصر يباين مقام خلافه، ومقام الفصل يباين مقام الوصل، ومقام الإيجاز يباين مقام الإطناب والمساواة، وكذا خطاب الذكي يباين خطاب الغبي، وكذا لكل كلمة مع صاحبها مقام إلى غير ذلك كما سيأتي تفصيل الجميع وارتفاع شأن الكل ام في الحسن والقبول بمطابقته للاعتبار المناسب وانحطاطه بعدم مطابقته له.

وفي الختام ما يمكننا الخلوص إليه هو:

1- ابن البناء المراكشي، الرّوض المربع في صناعة البديع، ص87.

2- المصدر نفسه، ص174.

3- نفسه، ص83.

- 1- ابن البناء العددي كاتب بلاغي أرخ لميلاد الدرس البلاغي الجديد الذي يتقاطع مع الدرس الألسني.
- 2- إن ابن البناء العددي قد بين الغرض من تأليف كتابه الروض المريع حين قال: ((فغرضي أن أقرب في هذا الكتاب من أصول صناعة البديع ومن أساليبها البلاغية ووجوه التفرع، تقريبا غير مخل، وتأليفا غير ممل يصفو جرمه، ويكثر علمه وسميته بالروض المريع في صناعة البديع))¹، وإذا نحن نعرض هذا القول نود أن ننوه بداية على أن مؤلف الروض لم يعمد إلى تكرار واجترار حقائق معرفية ومقررات علمية، وعليه لم نلفه قد تحدث عن ظواهر نحوية أو مفاهيم بلاغية كالإحالة والاستبدال والوصل والسرقات الأدبية.
- 3- تطرق إلى البحث في أساليب الخطاب الذي يبنى على عنصر الإقناع والحجاج، وقد وظّف في ذلك معايير الدرس الألسني النصي متمثلا في: الاتساق والانسجام، مركزا على القصد من الخطاب الشعري والنثري وغيرهما، كما أنه لفت النظر إلى طبيعة المقام الذي يقتضيه السياق رابطا ذلك بالقصد .

• المصادر والمراجع:

- 1- محمد الأخضر الصبيحي، مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، منشورات الاختلاف/الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر/لبنان، ط1، 2008.
- 2- محمد مفتاح، المفاهيم معالم، نحو تأويل واقعي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط01، 1999.
- 3- نهلة فيصل الأحمد، التفاعل النصي التناسبي النظرية والمنهج، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ط01، 2010.
- 4- ابن البناء المراكشي العددي، الروض المريع في صناعة البديع، تح: رضوان بن شقرون، الرباط، دط، 1985.
- 5- جميل عبد المجيد، البديع بين البلاغة العربية ولسانيات النص، البديع بين البلاغة العربية ولسانيات النصية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998.
- 6- القاسم أبو محمد السجلماسي، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تح، علال الغازي، مطبعة النجاح الجديدة، ، 1980.
- 7- محمد مفتاح، التلقي والتأويل، مقارنة نسقية، المركز الثقافي العربي.
- 8- محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، ط01، 2005.
- 9- إبراهيم صدقة، النص الأدبي في التراث النقدي والبلاغي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط01، 2011.
- 10- نهلة فيصل الأحمد، التفاعل النصي، التناسبي النظرية والتطبيق، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ط01، 2010.

1- ابن البناء، المصدر السابق، ص68-69.

تحديات الترجمة في الممارسة النصية

المعاني القرآنية لسورة لقمان نموذجاً.

د. حورية مدان

جامعة المدية، الجزائر.

ملخص:

إذا كانت الترجمة أمراً غير ميسر لجميع من أتقن اللغات، وتعلم قواعدها، لارتباطها بأبعاد متكلمها الفكرية، والثقافية، والاجتماعية، والعقدية وغيرها، فإنّ هذه الصعوبة تتضاعف حين يتصل الموضوع بترجمة المعاني القرآنية الذي يعدّ أمراً غير متأتّ بيسر، نظراً لاختلاف الأنظمة اللغوية من ناحية، ولارتباطه بالمقاصد الإلهية من ناحية أخرى. ثمّ إنّ المعاني القرآنية مرتبطة بالإحياءات الصوتية، والخصائص اللفظية، والسمات التركيبية، من مثلاً لحذف، أو الزيادة، والتقديم والتأخير، إضافة إلى السياق غير اللغوي، مما يجعلنا نبحث عن أسباب نزول الآيات، وحيثياتها، لنسترشد بها في فهم كلام الله عزّ وجلّ. أمام هذه الوحدة المتأسّسة على تماسك بنية النص القرآني شكلاً، وتوافقها دلالة، تزداد صعوبة الترجمة في الإحاطة بأبعاد النص المقدّس، وهي الصعوبة التي يتأسس عليها موضوع هذه الورقة البحثية الموسومة بـ (تحديات الترجمة في الممارسة النصية، المعاني القرآنية لسورة لقمان نموذجاً).

الكلمات المفتاحية: الممارسة النصية- الترجمة- المعاني القرآنية- الصعوبات- الاتساق والانسجام.

Abstract :

The subject of "Translation of the Quranic Meanings" is still raising a great deal of controversy, between a supporter who sees its necessity for communicating Islam to the world, especially for non-Arabic speakers. And who refuses this, claiming to be satisfied with Translation of interpreting Qur'anic meanings.

If the translation of scientific texts is easy, it seems to be difficult in literary subjects because of the elements of imagination and feelings in them. This difficulty multiplies when the subject relates to the translation of the Quranic meanings, which are not easy and almost impossible, Because of the different linguistic systems, and its association with divine purposes.

The Cohesion and coherence in the Qur'anic text does not facilitate the work of the translator, who must seek in the target language the linguistic means likely to create the impact of the sacred text on the receiver.

This study deals with the most important difficulties encountered by the interpreter of Quranic meanings.

key words : Text linguistics-translation- the Quranic Meanings - difficulties -Cohesion and coherence.

الموضوع:

مع ازدياد وتيرة التطوّرات العلمية، وتسارع الثورات التكنولوجية الهائلة، وتضاعف المعارف في شتى المجالات، شهدت الدراسات اللغوية نشاطاً كبيراً خاصّة مع بروز أهميّة اللغة باعتبارها أداة الاتصال والتواصل الأولى، بها يتمّ التبليغ والتعبير عن مختلف الأغراض من مستوى حوارية الفرد مع ذاته، إلى مستوى حوار الحضارات، فكان الدرس اللساني أشبه بالشجرة العملاقة التي تمتدّ جذورها إلى آلاف السنين، وتعلو فروعها وتتكاثر فتتشابك حيناً، وتفترق حيناً آخر. ومن أهمّ تفرّعات هذه الدراسات، تلك الخاصّة بالدراسات الترجمانية التي فرضتها العولمة، وتقارب الدول حتى شابهت المدن. فلا مناص من

التفاعل العلمي والثقافي والحضاري بينها، والترجمة هي أداة الثقافة، والسلاح المضاد للعزلة، إذ تمدّ الجسور بين المتباعدين، وتزيل الحواجز اللغوية بين مختلف الرؤى الفكرية المغايرة، وتقارب بين الخطابات المختلفة. وإذا كانت الترجمة العلمية أيسر الترجمات، لآصافها بالدقة والموضوعية، والمباشرة، إذ تخلو من التجليات الذاتية، كالخيال، وإيحاءات العاطفة، وتتعامل مع المصطلحات تعاملًا أشبه بتعامل الآلة، فإنّ الترجمة الأدبية، تشهد صعوبات كثيرة من حيث نقل الخصائص الأسلوبية، والألفاظ المعبّرة عن الأحاسيس والمشاعر، والتعابير الإيحائية اللصيقة بذات المؤلف، أو بطبيعة لغته، ممّا لا يسهّل مهمة المترجم.

ومن ثمة، كان الحديث عن صعوبة الترجمة، وكانت الدراسات في موضوع الشروط الواجب توافرها في المترجم والترجمة حتى يتسنى الأخذ بها. من ذلك ما جاء في كتاب الحيوان للجاحظ من قوله: «ولا بد للترجمان من أن يكون بيانه في نفس الترجمة، في وزن علمه في نفس المعرفة، وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها، حتى يكون فهما سواء وغاية»¹. فالمترجم مطالب بمعرفة الموضوع المترجم، حتى يقترب من قصيدة المؤلف، ويحيط بمعانيه، كما أنّه مطالب بمعرفة لغة المؤلف معرفته باللغة المترجم إليها حتى يتسنى له مقابلة المفردات والتعابير بما يكافئها.

ثمّ يعود الجاحظ إلى الصعوبة المتعلقة بموضوع النص المترجم، ومجاله المعرفي، فيقول: «وكلما كان الباب من العلم أعمس وأضيق، والعلماء به أقل، كان أشد على المترجم، وأجدر أن يخطئ فيه. ولن تجد البتة مترجماً يفهم بواحد من هؤلاء العلماء. هذا قولنا في كتب الهندسة، والتنجيم، والحساب، واللحون، فكيف لو كانت هذه الكتب كتب دين وإخبار عن الله عز وجل»²، وكأني بالجاحظ يتساءل: إذا كان الأمر كذلك مع النصوص الإنسانية، فما بالنصوص الإلهية؟ وليخلص في الأخير قائلاً: «الخطأ في ترجمة نصّ إلهي أضرب بكثير من الخطأ في أيّ مجال آخر»³.

وهي فعلاً مهمة تكاد تستحيل على أكثر المترجمين كفاءة، وأشدّهم قدرة فكرية ولغوية. وخير مثال على ذلك القرآن الكريم الذي أنزله الله بلسان عربي مبين ورغم ذلك، لا تزال تفاسير علماء العربية، وشروحات مفكرهم ولغويهم تتناوله بالاعتناء والدراسة منذ نزوله، ولم تفه حقه، ولا تزال الاختلافات قائمة في موضوعات كثيرة، رغم أنّ لغة النصّ القرآني والنصوص المفسّرة لمعانيه، والشارحة لها هي لغة واحدة وهي اللغة العربية. بل إنّ التفاسير المؤلفة مجتمعة لم تبلغ من عمق معاني القرآن شيئاً، ولم تحط ببلاغة ودقة الكتاب الأصل، إنّما هي تحاول تقريب المعاني القرآنية إلى الأفهام، حتى يتسنى لها إستنباط الأحكام الشرعية، ووقوف على النواهي والأوامر، والتشريعات والحكم من كلّ منها، وهذا مكن الإعجاز القرآني.

ولهذا، وقع خلافٌ كبير في الجواب على هذا السؤال: (هل يمكن ترجمة القرآن الكريم؟)، وبعد جدال دام طويلاً تبين للعالم الإسلامي، والعربي خاصة، جواز ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية من مثل: الإنجليزية والفرنسية، وذلك بهدف أن يطلع، الناس من غير العرب، على المعاني القرآنية. بل وأكّد المختصون حتمية الأمر لأسباب أهمّها:

1- إتاحة الفرصة للناس جميعاً من غير الناطقين بالعربية للاطلاع على المعاني القرآنية، فهذه الرسالة للناس كافة، والقرآن موجّه للبشرية جمعاء ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء/107]، فقد أنزل الله كتابه العظيم على نبيه محمد

1 الجاحظ، كتاب الحيوان، تحقيق محمد عبد السلام هارون، دار الجيل، 1955، الجزء الأول، ص 75.

² المرجع السابق، ص 78

³ كتاب الحيوان، 1/78.

صلى الله عليه وسلم بلسان عربي مبين، وأمره بتبليغه إلى الناس أجمعين، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:158]، فالرسالة إنسانية، والمعنيون بها هم الناس، وليسوا المسلمين أو العرب فحسب. ومنه، فإن الترجمة حتمية لجميع الناطقين بغير العربية، لأنهم يقرأون القرآن مترجمًا، ويدخلون الإسلام من بابها.

2- المساهمة في نشر التعاليم الإسلامية في العالم

3- لم يرد منع الترجمة في الكتاب ولا السنة ولا الإجماع ولا في غيرها.

ولهذا، إزدادت العناية بدراسة ترجمات المعاني القرآنية، إلى مختلف اللغات، وتضاعفت في العصر الحديث، نظرا لأهميتها هذه الترجمات في الدعوة ونشر التعاليم الإسلامية، من جهة، ومن جهة ثانية للإطلاع على الإنزياحات الدلالية التي تقع في تلك الترجمات، عن قصد أو عن غير قصد، حتى يتسنى الردّ على دسائس أعداء الإسلام الذين يخوضون في هذه الترجمة لبث سمومهم، وتشويه المعاني القرآنية لدى الناطقين بغير العربية. فتضاعفت ترجمة المعاني القرآنية، على صعوبتها، إذ كانت ضرورة حتمية، وتطوّرت الدراسات القرآنية متناولة مختلف تلك الترجمات بالتحليل والتمحيص والتدقيق، مع الإقرار بصعوبة العمل، تلك الصعوبة المتأتبة من عاملين أساسيين:

أولاً: إختلاف اللغات، وتباين أنظمتها، وعدم تطابقها في مفرداتها ودلالاتها، وتراكيبها وبناها. فلا وجود للنظير الدقيق، ولا للمقابل المكافئ في اللغة الأخرى، إذ لا بدّ من التفاوت والإختلاف خاصّة إذا تعلق الأمر بالموضوعات الأدبية، وخاصة الشعرية منها، أو اتّصل بالأساليب البلاغية، والتعابير المجازية، والإيحاءات الذاتية التي غالبا ما يتخيّر لها مؤلفها ما يناسبها في لغته من وسائل قد لا توجد في لغة المترجم الذي يبحث لها عن بدائل، تقصر في أداء ما وكل لها من وظائف، لعدم تطابقها مع تلك التي تترجمها، أو لعدم فهم المترجم نفسه مقصود المؤلف.

ثانياً: النص الأصل هو القرآن الكريم، وهو كلام الله المعجز، الذي أهدى العرب أهل الفصاحة والبلاغة، فعجزوا عن الإتيان بمثل سورة بل آية من آياته الكريمة. وصور الإعجاز استغرقت المستويات اللغوية من مستوى صوتي، وصرفي، ومعجمي، إلى مستوى تركيب، نحوي، وبلاغي وغيرها. فعلى المستوى المعجمي تظهر خصوصية النص القرآني في تأسيسه على معجم إسلامي خاص به، ولا يمكن أن نجد لمفرداته ما يقابلها في اللغات الأخرى، لأنّ المفاهيم غير موجودة فيها، والأنساق الثقافية والدينية مختلفة، فلا مكافئ لها. من ذلك مثلا نذكر: العمرة، القبلة، والفرقان، والزكاة، والغيب، وابن السبيل، وغيرها كثير.

وكذلك على المستوى التركيبي، فالتركيب العربي دقيق، ونظام العربية خاصّ بها، ويتأسس على جملة من المبادئ والمفاهيم التي لا تعرفها الأنظمة اللغوية الأخرى، أو إنّها تعرف ما يختلف عنها. من ذلك مفهوم الجملة الفعلية، حرية التقديم والتأخير، وأثر البلاغة في المعنى وغير هذا أيضا كثير.

إنّ المعاني القرآنية متّصلة بألفاظها، وأصواتها، وصيغها، وترتيبها في التركيب، ووظائفها النحوية، والبلاغية، وصلاتها بالسياقات القبلية والبعديّة، ودلالاتها المباشرة وإيحاءاته. لذا فإنّ حذف كلمة واحدة، أو استبدالها بأخرى تختلف عنها في الدلالة، أو زيادة كلمة واحدة، قد يخلّ بالنصّ كله. فللتكرار وظيفته، وللمعرفة معنى مخالف للنكرة، كما للبناء للمعلوم دلالة مخالفة للبناء للمجهول، والنفي غير الإثبات، وغير الإستفهام، ولتقدّم الخبر غرضه البلاغي والدلالي، ولتصدّر المفعول به الجملة، أثره. كما لا يمكن ترجمة الجانب البلاغي للنص القرآني، ولا أيّ من خصوصياته اللصيقة باللسان العربي. وهكذا تتصل الوحدات اللغوية في النص القرآني، وتتماسك في تعالق وإنسجام.

ويعدّ القرآن الكريم من أهمّ النصوص التي تمثل نموذج البنية اللغوية الموحدة معنويًا، ذات العلاقات المتداخلة، والروابط الكامنة في الآيات، وبينها، يميّزها النسيج الموحد، والسياق بأنواعه، والإحالات، وغيرها، إلى جانب مناسبة فواتح السور لخواتمها، والمناسبة بين السور. وهذا الموضوع شكّل عائقًا أكبر أمام مترجمي معانيه، إذ وقفوا عاجزين عن إيجاد ما ينقل ذلك التلاحم والتضام، ويشيع تلك الامتدادات الموضوعية، والشكلية في ترجماتهم.

ولتوضيح الأمر يكفي أن نأخذ بعض النماذج القرآنية، ولتكن من سورة لقمان. و«هذه السورة الكريمة (سورة لقمان) من السور المكية، التي تعالج موضوع العقيدة، وتعنى بالتركيز على الأصول الثلاثة لعقيدة الإيمان، وهي: الوحدانية، والنبوة، والبعث والنشور»¹.

موضوعاتها الرئيسية، هي :

- ذكر الكتاب الكريم.

- دلائل القدرة الإلهية، ووحدانيته عزّ وجلّ.

- وصايا لقمان لابنه.

- التحذير من يوم الحساب.

ومن أهداف هذه الدراسة تتبّع بعض تجليات الاتساق والانسجام في النص القرآني والعناصر التي يركزان عليها، في محاولة لاستجلاء مدى قدرة الترجمة على مسايرة اللغة العربية في نقل مظاهر الاتساق والانسجام، والمحافظة على إحداث الأثر المكافئ عند المتلقي للنص بلغة المترجم.

معروف أنّ الاتساق والانسجام مفهومان متصلان، لا يكاد يُذكر أحدهما إلا مقترنًا بالآخر، فالآساق أو السبك Cohésion يرتبط بعوامل، منها: الاتساق المعجمي المتحقق بين المفردات عن طريق التكرار أو المصاحبة المعجمية من مثل التضاد، والترادف، وعلاقة الجزء بالكل، وغيرها، وكذلك على الترابط النحوي، في البنى السطحية، ويتحقق بمثل الإحالة، والعطف، والاستبدال، والاستدراك، والوصل والفصل، وتوظيف الضمائر، والحذف وغيرها.

أمّا الانسجام أو الحبكة Cohérence، فتدلّ على الربط المنطقي للأفكار داخل النص، محققًا الاستمرارية الدلالية بين مختلف أجزائه، وهو يركز على علاقات من الشرط والسببية وغيرها، وعلى عنصر السياق، والمشابهة، والمناسبة.. إلخ ولتكن بداية الدراسة من بداية السورة الكريمة، ومع الآيات الأولى :

1- الم

2- تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ

3- هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ

4- الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ

5- أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

نلاحظ أنّ هذه الآيات الخمسة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا، ويُمكن تلخيص علاقاتها بالشكل الآتي :

¹ محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، دار القرآن الكريم، بيروت، ط4، 1402هـ/1981م، م2، ص 482.

$$\left[\begin{array}{l} [1] \cap [2] = \{\text{تلك}\} \text{ الموضوع} = \text{كتاب الله} \\ [2] \cap [3] = \{\emptyset \text{ آيات الكتاب}\} \text{ كتاب الله} \text{ هداية للمحسنين} \\ [3] \cap [4] = \{\text{الذين (المحسنين)}\} \text{ الموضوع} = \text{صفات المحسنين} \\ [4] \cap [5] = \{\text{أولئك (المحسنين)}\} \end{array} \right.$$

ويتضح من هذا أنّ من عوامل الاتّساق، نجد إسمي الإشارة: تلك، وأولئك .

(تلك) اسم إشارة للبعيد تحيل على (الم)، وقد تحيل في مواطن أخرى على سياقات موسعة قد تتجاوز عدة جمل. فتفيد الاتّساق والترابط . و(تلك) هو عنصر لغوي مفيد للفت الانتباه والتأكيد على أهميّة الملفت إليه ، وهو هنا آيات الله. (أولئك) اسم إشارة للبعيد أيضا، تحيل على اسم الموصول (الذين) [4] المحيل بدوره على (المحسنين) [3] الموصوفين بصفات فاضلة في الآيتين [4] و[5].

ففي الآية [3] كلمة (المحسنين) هو عنصر مستمرّ في الآية [4] والعنصر العائد هو (الذين) élément anaphorique الذي نبتين قيمته ودلالته بالعودة إلى السياق السابق، ويتكرّر تأكيده بالضمير المكرر (هم) . وترتبط الآية [5] بالآية [3] بإسم الإشارة (أولئك) المكرر مرتين ، والمحيل على (المحسنين) بصفاتهم المذكورة في الآية [4] وهي إحالة اتّساقية، إذ إنّ هذه العناصر ذات العلاقات التركيبية في الجمل الواردة فيها، تنتج اتّساقا دلاليا يتجاوز حيز الجملة الواحدة إلى الجمل الأخرى ، أي بين الآيات التي تجمعها.

نجد كذلك التكرار للضمير (هم) بين [4] و[5] ، ومرجعه إلى (المحسنين) في [2] الموصوفين في [3]، والتكرار من عوامل التضام ، ويتمّ بإعادة اللفظ أو بإعادة المعنى.

هذا، إضافة إلى الاتساق المعجمي الظاهر في التلازم collocation بين الكتاب/ الحكيم، وإقامة/ الصلاة، وإيتاء/ الزكاة. وهي كلمات تتوجه إلى التعالق، فلا نكاد نقول (إقامة) أو (إيتاء) حتى تتوارد إلى الذهن (الصلاة) و(الزكاة).

أمّا مردّ انسجام هذه الآيات فصلتها بموضوع القرآن الكريم المستغرق مفرداتها وتراكيبها فظهرت البنية وحدة معنوية لا تتجزأ ضمن تتابعها الخطي.

وهكذا تعطينا هذه الآيات رؤية على الاتساق والانسجام في النص القرآني، ومدى تعالقها : (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) فتكرار الذين، وهم، الأولى والثانية، للتأكيد. إضافة إلى واو الفاعل في الأفعال المضارعة وهي ثلاثة ، كلها عناصر تحيل على المحسنين المذكورة في الآية السابقة. ومن آثاره استمرار الخطاب عن المرجع نفسه، وإمتداد الفكرة موضوع الخطاب ، مع تعظيم المكرر والثناء عليه. كما يظهر الاتساق في هذه الآية من عنصر العطف بالواو. فالنص المتألف من هذه الآيات، متألف الأجزاء، تتشابك علاقاتها في اتساق كبير، بحيث تتضح الأفكار وترتبط ضمن نسق واحد مرتكزة على عناصر لغوية تتعالق ويحيل بعضها على الآخر.

وفي ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ تكرار (أولئك) للتأكيد على أنّ المرجع واحد. والمكرران معطوفان بالواو.

هذه الظواهر أشاعت النسيج الواحد، والجو المتناغم، ضمن وحدة معنوية متناسقة.

ولنتقل مع معاني الآيات نفسها إلى الترجمة الفرنسية للمكتب التعاوني للدعوة ، وتوعية الجاليات بالربوة، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

- 1- Alif, Lam, Mim
- 2- Voici les versets du Livre plein de sagesse
- 3- C'est un guide et une miséricorde aux bienfaisants
- 4- Qui accomplissent La Salat, acquittent Le Zakat et qui croient avec certitude en l'au-delà
- 5- Ceux-là sont sur le chemin droit de leur seigneur et ce sont eux les bienheureux.¹

نلاحظ أنّ المترجم في حرصه على نقل المعاني المكافئة لما هو موجود في النص الأصل، يجد نفسه أمام تحديات وصعوبات، لعوامل منها أنّ الصيغة العربية تؤدي المعنى بدقة يصعب إيجاد ما يقابلها في اللغة المترجم إليها ، كما هو الشأن مع (الكتاب الحكيم) ف le Livre plein de sagesse هو الكتاب المليء بالحكمة، والفرق واضح بين دلالة (الحكيم)، والمليء بالحكمة. ومنها أيضا أنّ بعض المفاهيم لا وجود لها في جميع اللغات، فهي لصيقة بأمة معينة، نتيجة ارتباطها بموروثها الثقافي أو التاريخي أو الديني أو غير هذا . من ذلك كلمة (المفلحون) من الفلاح أي الفوز والنجاح « المفلحون أي الفائزون السعداء في الدنيا والآخرة »²، فترجمتها بـ les bienheureux لتعنيها نحو دلالة السعداء أو الفرحين.

بالنسبة لعناصر لاتساق ، نجد أنّ اسم الإشارة (تلك) هي للبعيد، للدلالة على رفعة آيات الله، وعلو مقامها « والإشارة للبعيد عن القريب (تلك) للإيدان ببعده منزلته في الفضل والشرف»³. الأمر الذي خفي عن المترجم، فأفقدتها هذه الميزة وعبر عنها باسم الإشارة للقريب Voici. والملاحظ أنّ ارتباط الآيات 3، 4 و 5 تحقق بالوحدات المكافئة لما جاء في النص الأصل، وهي اسم الموصول Qui المحيل على Bienfaisants في الآية 3 وجاء أيضا مكررا في إيراده لصفات هؤلاء ، إضافة إلى اسم الإشارة للبعيد Ceux-là التي أحالت الكلام على Bienfaisants ، كما تكرر الضمير Eux للإحالة على الجماعة الغائبين، وهم Les bienfaisants، الأمر الذي حافظ على الوحدة المعنوية في التعبير عن كتاب الله وكونه هداية للمحسنين بصفاتهم المذكورة. لكنّ المصاحبة المعجمية اختفت في الترجمة باعتبار أنّ الكثير من المفردات العربية في المجال الديني ليس لها مقابلات مكافئة، بدليل أنّ المترجم عمد إلى الحفاظ على المصطلحات الدينية العربية مكتوبة بالحروف اللاتينية واختار ما يراه مناسباً من الكلمات التي يمكن أن تتعالق معها للدلالة على المعنى المقصود:

La Salat, acquittent Le Zakat accomplissent La La Salat, acquittent Le Zakat accomplissent، والملاحظ أنّ كثيرا من الترجمات عمدت إلى ترجمة الصلاة بـ L'au-mône légale et prière rituelle وهو الأمر الذي ينأى بالمعنى عن المقصود ، لأنّه شتان بين مفهومي المصلحين عند المسلمين وبين دلالة أترجمتهما ، حتى وإن كانت الصلاة طقوسية، والصدقة قانونية. ونبقى مع معاني الآيات نفسها ضمن الترجمة الإنجليزية مع مصحف المدينة النبوية⁵:

- 1- Alif, Lam, Meem
- 2- These are verses of the wise book (the Quor'an)
- 3- As guide and mercy for the Muhsinun (good doers)
- 4- Those who perform As-Salat (Iqamat-as-Salat) and give Zakat and they have faith in the Hereafter with certainty.
- 5- Such are on guidance from their Lord, and such are the successful.

¹ مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف. القرآن الكريم وترجمة معانيه إلى اللغة الفرنسية، ص 626

² صفوة الصابوني م 2 ، ص 487 (مرجع سابق)

³ المرجع نفسه.

⁴ مصحف المدينة النبوية ، ص 626.

⁵ محمد تقي الدين الهلالي ، ومحمد محسن خان، ترجمة معاني القرآن الكريم إلى الإنجليزية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة ، ص 457

يلاحظ أنّ الصعوبات الملاحظة في الترجمة الفرنسية هي نفسها في اللغة الإنجليزية ، ومنها عدم وجود المقابلات المكافئة لذا كتبت (إقامة الصلاة) و(الزكاة) بالحروف الأعجمية، ووضعت الترجمة المعنوية بين قوسين، ف Bienfaisants وgood doers كلمتان مركبتان من (فاعلين + جيد) لتأدية معنى (الفاعلين الجيّدين) وهو معنى لا يرقى إلى معنى (المحسنين) الأمر الذي يشعر به المترجم فيعمد إلى ذكر الكلمة العربية بالحروف الأعجمية.

ويعدّ الاتّساق المعجمي من أيسر أنواع الاتّساق ترجمة لتأسيسه على الجانب الإفرادي الذي يتحقق بعناصر الإحالة من ضمائر وأسماء إشارة، وبالتكرار، أو التقابل، وغيرها، فهي عوامل متاحة في جميع اللغات، مع التفاوت في دقة الدلالة لخصوصية كل لغة ، وهذا عكس الاتّساق النحوي الذي يخضع للنظام اللغوي ككلّ، فالعلاقات الناتجة عن هذا النوع من الاتّساق تتجاوز الدلالة المعجمية إلى العلاقات القائمة بين مختلف الجمل، من تقابل، وتضاد، وحذف، وإبدال، وغيرها. لهذا، نلاحظ أنّ استعمال المترجم للاسم الموصول (These)، حتى وإن كانت للقريب ولم يستعمل ما يدلّ على البعيد (Those) جهلا بالمعاني الخفية للغة العربية ، حقق الوصل بين [1] و[2]، وكذلك استخدامه للوحدة اللغوية (As) بمعنى (باعتباره) لإدراج ما يقابل الحال(هدى ورحمة) في ترجمته As guide and mercy for the Muhsinin، وهي وحدة تعويضية لا يقابلها شيء في النصّ الأصل Ø ، ثمّ كان استعماله إسم الإشارة المقترن بالإسم الموصول (Those who) لمقابلة معنى (الذين)، وهي بمعنى (أولئك الذين) إحالة على (المحسنين) في [3]، وأخيرا، استعمل (Such) وهي بمعنى (هذا الصنف المذكور سابقاً) ويعني به (المحسنين بصفاتهم). هذه الاستعمالات الترجمية استطاعت أن تصل بين معاني الآيات الخمسة، وتحيل الكلمات التي تتجاوز حدود الجملة الواحدة على معاني بعضها الآخر في الجمل الأخرى. ممّا أنشأ اتّساقاً معنوياً ناتجا عن الدلالات المعجمية في المستوى الإفرادي، وأدّى ذلك إلى بعض الانسجام لأنّ الوحدة المعنوية التي تربط بين الخطاب في موضوع القرآن استمرت متصلة بمن يستفيدون منه ، وهم المحسنون الذين تناول الخطاب نفسه ، صفاتهم.

والمعروف أنّ الاتّساق النحوي شرط لحصول انسجام أجزاء النص ، لكن العلاقات الاتّساقية تبقى قائمة خاصة على مستوى الاتّساق المعجمي وما ينتجه من استمرارية المعنى .

ولننتقل إلى الآيات من [12، 13، 14، 15، 16، 17، 18، 19].

12- وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ

13- وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ

14- وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ

15- وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

16- يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ

17- يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ

18- وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ

19- وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ

مردّ الجمع بين هذه الآيات في دراسة واحدة إلى شيوع العناصر الاتّساقية بينها، وتحقق الانسجام فيها.

- استغرقت الآية [12] خمس جمل:

وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ [1]

أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ [2]= (أن) مفسرة¹، بمعنى (أي)، والفاعل ضمير مستتر محيل على لقمان في [1] وَمَنْ يَشْكُرْ [3] = تكرر فعل (الشكر) وهو الرابط مع [3]، واسم الشرط الجازم (من) يحيل على [4]، والبنية التركيبية توازي تركيبية [5]

فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ [4] = الفاء رابطة للجواب، ويلاحظ التكرار الإشتقائي للشكر، الذي يجمع [2]، [3] و [4] وَمَنْ كَفَرَ [5] = الواو عاطفة على ما قبلها، (من) اسم شرط جازم، يفيد العموم، ويشتمل على توازي يقابل البنية التركيبية في [3]

فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ [6] = الفاء رابطة للجواب، وهي جملة جواب الشرط التابعة لـ [5]

وإذن، فإن الآية 12 تضمنت التكرار الإشتقائي لكلمة (الشكر)، وله أهمية دلالية، مع شحنات إبلاغية عاطفية وذهنية، إبلاغية بضرورة شكر الله، عاطفية بأن شكر الله صفة محمودة وهي تفيد صاحبها لأن الله غني عتاً، وذهنية لأنها من صفات المؤمن، ومن السبل إلى رضى الله. إلى جانب التضاد بين الشكر/الكفر، لله/لنفسه، والتوازي بين ومن يشكر فإنما.. /ومن كفر فإنما.. إضافة إلى إحالات الضمائر، وعلاقة التفسير بين الجمل، كل هذا أنشأ نسيجاً موحداً في الآية ذا وحدة معنوية، وجو نصي متماسك.

- وفي الآية 13 نجد التركيبات: وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ /وَهُوَ يَعِظُهُ/ يَا بُنَيَّ/ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ /إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ، وهي تحوي عوامل الاتساق والانسجام مجتمعة، فمن الأولى: التكرار الإشتقائي أو الناقص بين (لا تشرك) و(الشرك)، وهو يؤلف بين الأجزاء في تسلسل فكري منطقي. ومن الثانية: أسلوب الإقناع بذكر العناصر السببية، فوصية لقمان لابنه: (لا تشرك بالله) تبعها الجملة التعليلية المستأنفة²: إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ. إضافة إلى إحالة الضمائر على لقمان.

- ثم نلاحظ على إمتداد الآيات تكرر (يا بني) الذي ساهم في التأكيد على الإستمرارية الدلالية للخطاب الخاص بوصايا لقمان لابنه، مع توالي الأوامر في تعابير موجزة، متوازية ومتماثلة تركيبياً (فعل أمر+ضمير مستتر فاعل أنت+ جار ومجرور)، مختومة بعبارة تحيل على كل التعابير السابقة بكلمة واحدة (ذلك) فيرتبط أول الكلام بآخره، في نسق فكري واحد، يشيع امتداد الفكرة بطريقة منطقية تخاطب العقل بخطاب حجاجي دقيق.

نجد أيضاً علاقة شبه الترادف بين يعظه/وصينا، والتضاد بين السماوات/الأرض، والمعروف/المنكر، علاقة الكل والجزء بين الوالدين/ الأم. كما نلاحظ الارتباط السياقي بالثنائية (للوالدين) والمخاطب (أنت، للابن) إلى جانبها يتولد عن الأسلوب الشرطي الرابط بين أجزاء الآية من عناصر الاتساق. إضافة إلى الأفكار الجامعة لمفردات تنتمي إلى حقل دلالي واحد مثل: مرح، مختال، فخور، وغيرها. ولنا في الآية 16 تصويراً تمثيلي دقيق للمعنى، بتشبيه المعصية بحبة الخردل في صغرها، مخفاة في آمن مكان، كجوف الصخرة الصماء، أو أعلى السماء، لا تخفى على الله Ψ ، وهذا المعنى مستغرق في الآية 15: (فَأَنْتُمْ كَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)، وفي الآية 16: (إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ).

¹ محمد الطيب إبراهيم، إعراب القرآن الكريم، ط3، 1428هـ/2007م، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ص 412.

² إعراب القرآن الكريم (المرجع السابق) ص 412.

وأما عامل مناسبة الآيات داخل السورة الواحدة فنجدده مستغرقا الآيات من 12 إلى 19، لأنّ الخطاب الموجّه من لقمان إلى ابنه منبّه على مجموعة من الوصايا المتّفقة في طابعها التبليغي التعليمي، التي شملت نواح حياتية كثيرة ضمن توجيهات ومواعظ تنظم سلوكات الإنسان مع نفسه، ومع غيره، ومع ربّه.

هذه ملامح الاتساق والانسجام الظاهرة في هذه الآيات الكريمة، وهي تمثل دقة التصوير، وبلاغة التعبير، باللغة العربية. وقد جاءت معاني تلك الآيات مترجمة إلى اللغة الفرنسية كما يلي¹:

12- Nous avons effectivement donné à Luqman la sagesse : (Sois reconnaissant à Allah, car quiconque est reconnaissant, n'est reconnaissant que pour soi-même ; quant à celui qui est ingrat ..., en vérité , Allah se dispense de tout ,et Il est digne de louange .

13- Et lorsque Luqman dit à son fils tout en l'exhortant : (O mon fils, ne donne pas d'associé à Allah, car l'association à (Allah) est vraiment une injustice énorme.

14-Nous avons commandé à l'homme (la bienfaisance envers) ses père et mère ;sa mère l'a porté (subissant pour lui) peine sur peine :son sevrage a lieu à deux ans. (Sois reconnaissant envers Moi ainsi qu'envers tes parents. Vers Moi est la destination.

15- Et si tous deux te forcent à M'associer ce dont tu n'as aucune connaissance, alors ne leurs obéis pas ;mais reste avec eux ici-bas de façon convenable. Et suis le sentier de celui qui se tourne vers Moi. Vers Moi, ensuite, est votre retour, et alors Je vous informerai de ce que vous faisiez.

16-(O mon enfant, fut-ce le poids d'un grain de moutarde, au fond d'un rocher, ou dans les cieux ou dans la terre, Allah le fera venir. Allah est infiniment Doux et Parfaitement Connaisseur.

17- O mon enfant, accompis la Salat, commande le convenable, interdis le blâmable, et endure ce qui t'arrive avec patience. Telle est la résolution à prendre dans toute entreprise.

18- Et ne détourne pas ton visage des hommes, et ne foule pas la terre avec arrogance :car Allah n'aime pas le présomptueux plein de gloriole.

19-Sois modeste dans ta démarche, et baisse ta voix, car la plus détestée des voix, c'est bien la voix des ânes .

نلاحظ أنّ الترجمة تكاد تكون حرفية، قائمة على مقابلة الكلمة العربية بالكلمة من اللغة الفرنسية، لذا كان بعض الإخلال بالنظام اللغوي، وفقد النص الكثير من مظاهر الاتساق الانسجام . ورغم حضور الروابط، إلا أنّ المترجم عمد إلى إضافة عناصر لغوية حرصا على نقل المعنى الأصلي بأفضل السبل، من ذلك مثلا: مقابلة التأكيد في (لقد) و(إنّ) بـ الكلميتين effectivement و en vérité، كما إعتد على التفاسير لإيجاد المقابلات المعنوية في مثل ترجمة (وإذ) وهو ظرف للزمن الماضي لفعل محذوف (واذكز) بـ (et lorsque). وفي ترجمة (إنّ الله لا يُجِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) عمد إلى استعمال الرابط car ذي العلاقة السببية مع السياق البعدي، لكنّ الحرص على إيجاد المقابل المكافئ نأى به عن المقاصد في مواضع مثل مقابلة (لطيف) بـ doux، ويعظ بـ exhorter، والمعروف في مصاحبة الوالدين بـ façon convenable وهو في دلالات لصيقة باللغة العربية من منظور الدين، فلا تعرفها اللغة المترجم إليها لذا كانت ترجمة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر بـ commande le convenable, interdis le blâmable. وتظهر حرفية الترجمة المخلة بالنظام اللغوي في مثل Vers Moi, ensuite, est votre retour.

وإذن، في هذه الترجمة، أنشأ المترجم علاقات داخلية في النص، غير موجودة في الأصل، نتيجة استعماله لروابط وعناصر لغوية جديدة ابتغى أن ينقل بها معاني الآيات، فاستعمل car التي تدرج السبب في مواضع الجمل المؤكدة بـ(إنّ) والمفسرة لما قبلها، ورغم هذا تحققت الوحدة المعنوية بالإحالات التي تأسست على الضمائر: نحن لله، وأنت، للإنسان، وأنتم لإفادة العموم، والربط بالواو العاطفة، أو الوحدة الدالة على العلاقة التقابلية، Quant à التي تعني (في حين) والتي ترجم بها التركيب: (فمن يشكر...ومن كفر...) . أدى كل ذلك إلى وجود نسبة من الاتساق والانسجام في النص المترجم يمكن اعتبارها

¹ مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف. القرآن الكريم وترجمة معانيه إلى اللغة الفرنسية، (مرجع سابق) ص 627/628/629.

أفضل ما أمكن المترجم تحقيقه بفهمه للمعاني القرآنية، من ناحية، وبما أتيح له من وسائل لسانية في لغته المترجم إليها من ناحية أخرى، باعتبار غياب المفاهيم الدينية والكلمات الدالة عليها في لغته التي يترجم إليها.

أما الترجمة إلى اللغة الإنجليزية للآيات نفسها فوردت كما يلي¹:

12- And indeed We bestowed upon Luqman Al-Hakim(wisdom and religious understanding, saying:(Give thanks to Allah) And whoever gives thanks, he gives thanks for (the good of) his ownself. And whoever is unthankful, then verily, Allah is All-Rich(Free all needs), Worthy of all praise.

13- And (remember) when Luqman said to his son when he was advising him:(O my son! Join not in worship others with Allah. Verily, joining others in worship with Allah is a great Zulm(wrong) indeed.

14- And we have enjoined on man(to be dutiful and good) to his parents. His mother bore him in weakness and hardship upon weakness and hardship, and his weaning is in two years-give thanks to Me and to your parents. To Me is the final destination.

15- But if they (both) strive with you to make you join in worship with Me others that of which you have no knowledge, then obey them not; but behave with them in the world kindly, and follow the path of him who turns To Me in repentance and in obedience. Then to Me will be your return, and I shall tell you what you used to do.

16- (O my son! If it be (anything) equal to the weight of a grain of mustard seed, and though it be in a rock, or in the heavens or in the earth, Allah will bring it forth. Verily, Allah is Subtle (in bringing out that grain),Well-Acquainted(with its place).

17- (O my son! Aqim- As-Salat(perform AS-Salat), enjoin(on people) Al- Ma'ruf –(Islamic Monotheism and all that is good),and forbid (people) from Al-Munkar(i.e.disbelief in the Oneness of Allah, polytheism of all kinds and all that is evil and bad), and bear with patience whatever befalls you. Verily, these are some of the important commandments (ordered by Allah with no exemption).

18- (And turn not your face away from men with pride, nor walk in insolence through the earth. Verily, Allah likes not any arrogant boaster.

19- (And be moderate (or show no insolence)in your walking, and lower your voice . Verily, the harshest of all voices is the braying of the asses).

ومما يسترعي الانتباه في ترجمة هذه الآيات أنها فعلا اعتمدت المعاني والتفسيرات واستعانت بالشروحات، بدليل ترجمة (وإذ) وهو ، كما ذكرنا سابقا، ظرف للزمن الماضي لفعل محذوف(واذكر) ب(remember) And، ففعل (اذكر) المحذوف في اللغة العربية وضع بين قوسين، ومثله ترجمة (وإن جاهداك) ب But if...then ومعناها (ولكن، إذا...حينها) وهي تؤدّي المعنى في النصّ الأصل، غير أنّ معنى الإستدراك، غير موجود وقد يستنتج من مقابلة معاني الآيتين 15 مع 14.

والملاحظ أنّ الترجمة الإنجليزية اعتمدت على إضافة الشروحات والتوضيحات بين أقواس، تعويضا عمّا تقصر عليه اللغة المترجم إليها، بل وأحيانا تقترح أكثر من ترجمة وتربط بينها ب (أو) كما في ترجمة معاني الآية 19.

وقد ترجم التأكيد في (إنّ) ب Indeed و Verily مثلما كان في الترجمة إلى الفرنسية، أما الكلمات الدالة على المفاهيم الدينية فاكتفى المترجم بإعادة كتابتها بالحروف الأعجمية مثل الصلاة، والمعروف، والمنكر، والظلم، محاولا شرح بعض منها بتعبير مطوّل.

وكان بعض الاتّساق المعجمي المحقق بالتضاد بين free و need، وبين give thanks و unthankful، وبين to Allah و to his ownself . كما نجد إحالة الضمائر التي تحدّد أنواع الخطابات، فالمخاطب (أنت) للوصايا التي يقدمها لقمان لابنه، والمتكلم (نحن) لله، في دعوته الإنسان إلى الشكر والتوحيد، وضمير الغائبين، (هما) للحديث عن الوالدين، وما يفترض أن تكون عليه معاملتنا لهما.

¹ مصحف المدينة النبوية ، ص 459/458، (مرجع سابق)

وكما لاحظنا في الترجمة السابقة، يشعر متلقي هذه الترجمة بأن صاحبها يجهد نفسه في نقل المعاني القرآنية بما يتاح له من وسائل لسانية، الأمر الذي يفقد النص الهدف الكثير من مظاهر الاتساق والإنسجام.

ويعدّ مبدأ المناسبة من الأسس الرئيسية التي يقوم عليها الانسجام، ونجده محققا بصورة المتعدّدة، في السورة، بين كلمات الآية نفسها، أو بين الآيات داخل السورة الواحدة، أو بين افتتاحية السورة وخاتمتها، وأيضا بين اسم السورة ومحورها الموضوعي.

فالكلمات في هذه الآية تتألف مع بعضها لتأدية دلالة متكاملة تخدم الموضوع المحوري وهو تصوير عظمة خلق الخالق ممّا تشهد العين، ويحيط بنا، وتعامل معه وتفاعل.

ختاما، ننتقل إلى آخر آية في سورة لقمان، محلّ هذه الدراسة لنتبيّن أهمّ عناصر الاتساق، وعوامل الانسجام فيها، دون أن نبحت عنها في ترجمة معانيها، إذ يكفي أن نشير إلى أنّ اتجاه الترجمتين الفرنسية والإنجليزية، نحو نقل المعاني غلب على مستوى العناية بالتعابير، والحرص على جانبي الاتساق والإنسجام، إلا بما سمح به الجانب المعجمي البعيد عن أثر النظام اللغوي، وضوابطه من جهة، وعن جمالية النص، من جهة أخرى.

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الآية/34]

نلاحظ في هذه الآية:

- استعمال الضمير (هو) المستمرّ في الجمل التي تخبر عن (إنّ الله) فكانت جملا متصلة بالواو العاطفة التي تلحقها بمدح التابع الخطي نفسه، شكلا ومعنى، فتشكل وحدة معنوية خبرا ومعطوفة على خبر (إنّ الله). ثمّ كانت الواو العاطفة ذات الدور الاتساق للجمال التي تقابل علم الله بمفاتيح الغيب بجهل الإنسان لها، فكان التكرار هنا للعبارة (وما تدري نفس) لإفادة عموم النفي والإطلاق، للنفس، أي نفس، وهذه دلالة التنكير. كما يلاحظ الانسجام الحاصل من ظاهرة التقديم، إذ قدّم: (عنده) على (علم الساعة)، و(بأي أرض) على (تموت)، تأكيدا على معانيها، وإفادة للتخصيص.

- التكرار بنوعيه الاشتقائي أو الناقص والتام، من الأول: علم/يعلم/عليم ومن الثاني: (ما تدري مكررة، نفس مكررة)

- التوازي بين (وما تدري نفس ما ذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت) ونمط التركيب واحد: [ما نافية+ فعل مضارع+ نفس، نكرة تفيد العموم والشمولية المطلقة+ مفعول به+ فعل مضارع+ الفاعل مستتر عائد على نفس+ مفعول فيه، ظرف زمان]. وهو يوازي النمط التركيبي المشابه: [ما نافية+ فعل مضارع+ نفس، نكرة تفيد العموم والشمولية المطلقة+ جار ومجرور+ مضاف إليه (مفعول به)+ فعل مضارع+ الفاعل مستتر عائد على نفس].

- في هذه الآية نجد الانسجام الواضح من الترابط على مستوى التصوّر الواحد

إنّ الله [1] عنده علم الساعة + ينزل الغيث+ يعلم ما في الأرحام [2] وهي علاقة اتّفاقية بين هذه الجمل

وما تدري نفس [2] ماذا تكسب غدا [3] + بأي أرض تموت [4] وهي كذلك علاقة اتّفاقية

إنّ الله عليم خبير [5] وتربطه العلاقة اتّفاقية ب[1] و[2]

كما نلاحظ تضادا بين [2] و[3] و[4] مع [1] و[2]

لا تكتمل [3] و[4] إلا بارتباطهما ب [2]

تحيلنا [4] على [1] و[2]

- ولا يفوتنا أن نذكر مناسبة إفتتاحية السورة وخاتمتها، فإنّها كما بدأت بالإشارة إلى أنّ آيات الله المحكمات هدى ورحمة للذين أحسنوا، فعملوا بما فيه من أمر الله ونهيه، الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ المفروضة بحدودها، ويؤتون الزكاة المفروضة في أموالهم وهم بجزاء الله وثوابه لمن فعل ذلك في الآخرة يوقنون. وختمت بأنّ الله عنده مَفَاتِحُ الغَيْبِ الخَمْس. لا يَعْلَمُهُنَّ إلا وهو عَلِيمٌ خَبِيرٌ، أي هو ذو علم بكلّ شيء، لا يخفى عليه شيء، خبير بما هو كائن، وما قد كان. فالخاتمة تبشّر أولئك المذكورين أول السورة بأنّهم على حق، وأنّ الله يجازيهم على أعمالهم، وأنّه هو حسبيهم. وهو أمرٌ يؤكد الوحدة المعنوية للسورة كلها، والنسيج الموحد الذي يجمع آياتها ضمن لحمة محكمة وبنية حجاجية موحدة، تنتظمها مختلف العلاقات في البنية الخطية بما يخدم المعاني، ويتأسس على المقاصد الإلهية.

في الأخير، نخلص إلى أنّ الترجمة تتأسس على نقل المعنى من النص المصدر إلى النص الهدف وفق القواعد اللغوية، ومع احترام الضوابط التي تحدّد في اللغة المترجم إليها، مثلما هي محترمة في نظام اللغة المترجم منها. ولكنّ نقل المعاني القرآنية ليس بالمهمة اليسيرة، بل هي من أصعب أنواع الترجمات، بداية من نقل الإيحاء الصوتي على مستوى المفردة، أو صيغتها، إلى ترجمة معناها، فكيف بنقل الأسلوب، والبلاغة، وكيف بترجمة الآية والسورة؟ والاتّساق، والانسجام ظاهرتان تميّزان النص القرآني بالوحدة المعنوية في إطار التتابع الخطي في الآيات، وبين مختلف السياقات، وحتى إن كان للسورة مواضيع متعدّدة فهي تلتقي في محور يجمعها، وفي جو خاص يضمّها، وضمن إيقاع واحد يستشعره المتلقي ولا يخطئه.

المراجع:

- محمد الطيب إبراهيم، إعراب القرآن الكريم، ط3، 1428هـ/2007م، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.
- محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، دار القرآن الكريم، بيروت، ط4، 1402هـ/1981م.
- مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف. القرآن الكريم وترجمة معانيه إلى اللغة الفرنسية،
- محمد تقي الدين الهلالي، ومحمد محسن خان، ترجمة معاني القرآن الكريم، الترجمة الإنجليزية، مجمع الملك فهد للطباعة والنشر والتوزيع، المدينة المنورة.
- الجاحظ، كتاب الحيوان، تحقيق: محمد عبد السلام هارون، دار الجيل.

البلاغة العربية: من التعليمية إلى التداولية إلى التأويلية

البلاغة والسياق

د. عمر حاتم جامعة البليدة 2 - الجزائر.

د. عائشة العشمي جامعة المدية- الجزائر.

ملخص:

تهدف هذه المداخلة للتأصيل للبلاغة العربية الغني تراثها تاريخيا، ثم اقتراح مقاربة جديدة لمقياس البلاغة من خلال معطيات البلاغة الغربية الجديدة، وفق نزوع تأويلي يكون مرتكزها الجوانب التداولية للخطابات على اختلافها، نزوع يعتمد مقولات ما يسمى بالبلاغة الجديدة التي ذكرنا أنفاً، على أن مداخلتنا ستركز على تداولية السياق ومنتمها التأويلي، من خلال مجموعة من الأسئلة التي سنحاول الوقوف عليها، اعتماداً على ما وصل إليه الدرس البلاغي العربي والغربي.

Abstract :

The objective of this intervention to consolidate the rich Arab eloquence heritage historiography, And then propose a new approach to the criterion of rhetoric through the new Western rhetoric, According to the interpretation tendency based on The deliberative aspects of the various speeches, a tendency that relies on the arguments of the so-called new rhetoric that we mentioned earlier, However, our intervention will focus on the circulation of the context and its interpretive theme, through a set of questions that we will try to address, depending on what the Arabic and Western rhetoric class have reached.

مقدمة

تهدف هذه المداخلة من خلال إطلالتها على منظومة التدريس التربوية والجامعية الحالية إلى شيء من التأريخ للبلاغة العربية الحافل مسارها الطويل، واقتراح مقاربة جديدة لمقياس البلاغة، تحلل الخطابات باعتبار السياق الذي أنتجها والذي غيبته الدروس المهتمة بالشكل وحده دون الظروف التي أكسبته مفاهيمه وتصوّراته، بما في ذلك الدرس البلاغي الكلاسيكي، والذي انتهت رحلته الأولى إلى حدوده التي رسمَ مُدرِّسون خطوطها الأربعة، والتي تُشكّل ما يسمى بالبلاغة التعليمية: أي علوم المعاني والبيان والبديع، فضلا عن الفصاحة التي يُقدّم بها عادةً للكتب التي تتناول هذه المداخل الثلاثة. هذه الأقسام الأربعة بتفريعاتها وأحكامها والتي تحقّل بها الكتب المدرسية وتعكف عليها المقررات في المدارس والجامعات، لم تعد تؤدّي وظيفتها مع معطيات عالم اليوم، رغم أن اجتهادات البلاغيين العرب وغيرهم قديما وحديثا لا تخلو من تصنيفات أخرى وزوايا نظرية مغايرة. ومن تلك الاجتهادات ما كتبه حازم القرطاجني في المنهاج مثلا، والذي يمكن أن يكون فاتحةً لأيّ بحثٍ في البلاغة لما فيه من نسقية واعية حاولت جمع شتات مختلف العلوم في كلّ واحد، نسقية تلائم مُتطلّبات البحث البلاغي حاليا تحت ما يسمى بالبلاغة الجديدة، لتكون مداخلتنا قراءة لمسار البلاغة العربية منذ بداياتها بوصفها بلاغة تعليمية ثم تداولية انتهاء إلى البلاغة التأويلية، داخل فضاءات الثقافة المختلفة ومجموع الاحتمالات القرآنية والإبداعية المرتبطة بذلك.

مختصر في البلاغة العربية[∞]:

إن كان لا بدّ من البدء بالمفردات داخل المعاجم، فإن أيّ معجمٍ جاد تحت مادة (ب،ل،غ) سيحيلنا على معاني الوصول والانتهاء، وأن تبلغ الشيء، هو أن تصل إلى مُرادِك، وتحيل المادة الصوتية المذكورة أنفاً على نشاط تواصلِي: علماً من طريق البحث أو فناً من طريق الممارسة. وهذا العلم أو الفن عند حازم -منتهى رحلة البلاغة (الكلاسيكية) والذي سيكون منطلق عملنا هذا- نظرية عامة تجمع التُّراث البلاغي النقدي والإبداعي في نسقٍ واحد، نظرية تطمح إلى إيجاد نسقٍ يَصْهَرُ علوم الإنسان واللسان في بَؤْنَقَةٍ واحدة بالنظر في العلاقات بين الدوال والمدلولات بإحالتها على مختلف مجالات الفعل الإنساني لأن "معرفة طرق التناسب في المسموعات والمفهومات لا يوصل إليها بشيء من علوم اللسان إلا بالعلم الكلي في ذلك، وهو علم البلاغة"¹.

إذن فالبلاغة العربية تطمح لأن تكون علماً كلياً يجمع مختلف العلوم والتخصصات وأنواع المقاربات، وذلك من خلال التوفيق بين حقلي اللسان والإنسان، وهو ما اهتدى إليه محمد العمري في كتابه البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول،* فالبلاغة في هذا العمل علمٌ أعلى يشمل التخيل والحجاج وآلياتهما جميعاً من خلال المنطقة التي يتقاطعان فيها، أي الخطاب المُحتمل تصويراً وإقناعاً تنسيقاً دون الفصل بينهما. إلا أنّ الصورة في البلاغة العربية -خاصة التي تُسمى تعليمية- نجدها مقرونةً بالبيان (تحت مسمى الصور البيانية)، أي مرتبطة بالإقناع، فالبلاغة العربية (التعليمية) حاولت الابتعاد بالصور قدر الإمكان عن الجمالية والإغراء، والولوج بها إلى عالم المُحاجة والإقناع، لِيُهمش الصور في بعدها المُغري (أي صور البديع) على المستوى التحليلي، رغم الاحتفاء بها على المستوى الإبداعي، إضافة إلى سيطرة النظرة النحوية² على تحليل الصور (فيما يسمى بالمعاني) في البلاغة العربية وفي التحليل العربي الكلاسيكي للغة عموماً وربما لمعظم مظاهر الثقافة، لذلك تقوّعت البلاغة العربية في نوعٍ من التحليل الشكلي الذي لا يعدو تعليم الناس إعادة صناعة قوالب بلاغية جاهزة (والذي يُعدّ مُهمّاً في المراحل المبكرة من تعليم اللغة، لِيتمكش أهميته وتزيد متاعبه بعد ذلك في المراحل المتقدمة، حتى ليصير عائقاً في طريق طالب العلم وحتى العالم).

بلاغة السياق والتداولية:

يُجِيلُ لفظ التداول على العلاقات القائمة بين العلامات في العملية التواصلية ومستعملها وطرق استعمالها وآثارها، إضافةً إلى التفاعل الحاصل بين هذه العناصر جميعاً، و"التداولية تنطلق من هدفٍ أساسي هو استثمار الممكن والمتاح من الآليات لتوصيل رسالة لغوية معيّنة وجعل المعنى بها يعيها ويتحرك في إطار إنجازها"³، أي التداولية منطلوياً إليها في بعدها

[∞] -ومقابلها في التقليد اليوناني-اللاتيني هو مصطلح (rhétorique) الذي يحيل على فن الخطابة وفقّ آليات الابتكار اللغوي، وطرق الترتيب، والإلقاء، والتلفظ، إضافة إلى ما يستدعيه الخطيب من مخزون الذاكرة، ويَتَبَدَّى هذا كله من خلال أنواع ثلاثة للخطاب: الاستشاري أو الوعظي، القضائي، والاحتفالي.

¹¹ -حازم القرطاجي. منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق ابن الخوجة، محمد الحبيب، دار الغرب الإسلامي، ط3، بيروت، 1986، ص226.

* -كتاب تعليمي يُؤرِّخُ للبلاغة أولاً، ثم يبحث في بلاغة السخرية بشكلٍ مخصوص، ثم يحاول أن يقدم نماذج تحليلية باعتماد أدوات علوم اللسان والإنسان.

² - ينظر في كتاب محمد، العمري: البلاغة الجديدة، بين التخيل والتداول، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء/بيروت، 2005.

³ -محمد سالم محمد الأمين، الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، داراكتاب الجديد المتحدة، ط1، بيروت، 2008، ص175.

القصدي التواصلي، ومن هنا نصل إلى المستوى الثاني من التداول "حيث يتم استثمار كل تلك العناصر لتوضيح مدى فاعلية اللغة في المناورة بين الإظهار والإخفاء"¹، أي المستوى العملي الإنجازي.

وقد تحيل التداولية على المعنى الذي يتجاوز مقاله، وقد تُحِيلُ على العناصر اللغوية وإشارتها لمراجعتها، وقد تحيل أيضا إلى العقد الموجود بين طرفي التخاطب والذي يضمن التواصل بينهما من طريق الانخراط في فضاء الخطاب وتأويله، ونرى هنا أن "تعاضد البعدين التواصلي والإفهامي في أي عملية-أو مقارنة- تداولية تنبثق عنها حتما محاولات ورؤى تأويلية مختلفة باختلاف الكفاءات والسياقات والمقامات، ذلك أنه لما كانت البراغمية-التداولية- تتناول أساسا المسارات التواصلية... فإن هذا مما يجعلها في بؤرة العلاقة بين العلامة ومُرسلها ومُؤوّلها، هذا المؤوّل الذي عليه أن يُمَيّز بين مُقَرَّبَيْن، أو على الأصح مسارين تداوليين هما: التداولية المعنوية والتداولية التواصلية: حيث تُعنى الأولى بكيفية تمثيل الظواهر التداولية في أي نظام دلالي، في حين تُعنى الثانية بكيفية تحليل-تأويل- الظواهر التداولية التي لها علاقة بالمسار التواصلي"²، ومن هنا نرى أن "البلاغة تداولية في صميمها، إذ أنها ممارسة الاتصال بين المتكلم والسامع بحيث يخلُص إشكالية علاقتهما مستخدمين وسائل محدّدة للتأثير على بعضهما"³، وأيضا يمكن القول أن التداولية بلاغية في صميمها، فالتفاعل الحاصل بين المتكلمين والسامعين يتم بالاستعانة بالأليات التصويرية والحجاجية وفق معطيات السياق.

بلاغة السياق:

إنّ السياق أو المقام أو القرينة "ليس أمرا مُعطى دفعة واحدة، إنما يتشكل قولاً إثر قول"⁴، وهو ما يجعل منه أكثر المكونات البلاغية تَشْطِيطًا، حيث لا يمكن التّحكم في التداخل بين مستوياته التي تُوافق إلى حدٍ كبير مستويات تشكيل الصور والمُعْرُوض لها آنفاً، لأنه في نهاية الأمر: السياق مجرد صورة نتلقاها، لذلك "يحصل دوما خلط وانزلاق يحولان الغاية الرسمية"⁵ للخطاب فيه، فعندما "نبرح أنواع الخطابات المُتممّة جدا، فإن السياق يبدو وكأنه نتاج بناء المتفاعلين: كثيرا ما تكون طبيعة نوع الخطاب ودور المشاركين وطبيعة الإطار الزمكاني موضوع صراعات ومفاوضات، في نهاية التخاطب يمكن للسياق أن يختلف كثيرا عن السياق الذي كان عليه في البداية والمنطلق، على الأقل لأن المعلومات والسلوكيات المعتمدة في التفاعل قد ساهمت في تحويره"⁶.

وحتى علماء الأصول اهتموا بمسألة السياق و تناولوها بدقة وأصالة و بينوا دورها المهم في فهم النصوص بما يتفق مع مقصود الشارع منها؛ فهذا الإمام الطبري يعرب قائلا: "غير جائزٍ صرف الكلام عما هو في سياقه إلى غيره، إلا بحجة يجب التسليم لها من دلالة ظاهر التنزيل، أو عبر عن الرسول تقوم به حجة"⁷. وأما الشاطبي فيذهب إلى العناية الفائقة في تأصيل دور السياق للفهم السديد للنصوص الشرعية، إذ يقول: إنّ المساقات تختلف باختلاف الأحوال والأوقات والنوازل...

¹ - المرجع نفسه، ص 176.

² - المرجع نفسه، ص 189.

³ - المرجع نفسه، ص 175، 176.

⁴ - أن، روبرول وجاك، موشلا: التداولية اليوم، علم جديد في التواصل. ترجمة دغفوس، سيف الدين والشيباني، محمد، دار الطليعة، ط1، بيروت، 2003، ص 77.

⁵ - دومينيك، مونقانو: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب. ترجمة محمد، يحياتن. ط1، منشورات الاختلاف، 2005، ص 27.

⁶ - المرجع نفسه، ص 27.

⁷ - أبو جعفر محمد بن جرير، الطبري: جامع البيان عن تأويل أي القرآن، ج3، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المعارف، مصر، ط4، 1969، ص 316.

فالذي يكون على بال من المستمع والمتفهم، والالتفات إلى أول الكلام وآخره بحسب القضية، واقتضاء الحال، ينظر في أولها دون آخرها، ولا في آخرها دون أولها، فإن القضية وإن اشتملت على جمل، فبعضها متعلق بالبعض.¹ وبناء على ما سبق تتبين لنا القيمة المنهجية في الوقوف على دلالات النصوص والطريقة المثلى لتأويلها وفق ما يريده الشارع منها، وبالتالي فالسياق منوال ضروري في توجيه الدلالة وتعيينها؛ يقول ابن القيم في هذا: السياق يرشد إلى تبين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتحدث، فمن أهمله غلطاً في نظره، غلطاً في مناظرته، فانظر قوله تعالى: ذق إنك أنت العزيز الكريم [الدخان: 49].²

إذن "لكل مقام مقال" أو لنقل لكل مقال مقام بل مقامات، مواطن يقوم فيها ومن خلالها البليغ الخطيب، والمفارقة أنها مواطن تحدّ من تشطي الخطاب وتزيد في نفس الوقت من إمكانيات تأويله، دون الوقوع في نوعٍ من الغلو السياقي (hyper-contextualisation)، وهذه المواطن أو المقامات أو السياقات أو الأسيقة نوعان:

سياق الهيئة: وهو مجموع المقامات الخارجة عن اللغة المرتبطة بحالة الخطيب والخطاب والمخاطبين المظهرية، أي بالمخطط الخلفي (arrière plan)، وهو أيضاً مجموع الحالات النفسية والتسويقية في بعدها الفردي من قصدية وكاريزمة على مستوى الخطيب من جهة، وجاهزية وطواعية أو معاندة على الطرف المقابل أي على مستوى الجماهير، وهو أيضاً مجموع المواضع المرتبطة بطبوغرافيا الموقع ومعطيات المجتمع والثقافة والتاريخ، والمؤثرة جميعاً في سيرورة الخطاب، وهو أيضاً مجموع خلفيات الخطيب والمستمعين والدارسين على السواء. ويمثل البيئة التفاعلية بين المتحدث والمخاطب، وما بينهما من عرف سائد يحدّد مدلولات الخطاب، ذلك أنّ تداول الخطاب يجري في سياق ثقافي واجتماعي وليس لفظاً مجرداً من محيطه الذي يجري فيه.³ وقد اختلف الأصوليون في تعبيراتهم عن سياق الهيئة، فنجدهم تارة يستخدمون لفظة القرائن الحالية⁴ وتارة أخرى دلالة الحال، وتارة ثالثة مقتضى الحال،⁵ وتارة رابعة سياق الخطاب.⁶ ولا سبيل إلى ضبطها ولا إلى حصرها. ويتحدث الإمام الجويني عن السياق المقامي قائلاً: أما الأحوال فلا سبيل إلى ضبطها تجنيساً ولا تخصيصاً، ولكنها إذا ثبتت لآخ للعاقل في حكم طرد العرف أمور ضرورية.⁷ أمّا سبل التعرف إلى سياق الهيئة فهي:

حال المتكلم أو المخاطب: ولقد نص الباقلاني على أهمية معرفة الدلائل النفسية التي تظهر فيزيولوجيا في المتكلم، فقال: وقد يقع العلم بمراد المتكلم ضرورة عند أحوال وأسباب تظهر في وجهه وحركاته وإشارته ورمزه وإيمائه، ليست من الكلام الأصوات في شيء.⁸

¹- أبو إسحاق، الشاطبي: الموافقات في أصول الشريعة، ج3، شرحه وخرج أحاديثه الشيخ عبد الله دراز، دار الكتب العلمية، بيروت ص413.

²- ابن القيم: بدائع الفوائد، طبعة دار الفكر، ج4/9 ص.

³- عبد المحسن التخيفي: دلالة السياق وأثرها في فهم الحديث النبوي، من أعمال الندوة الدولية الرابعة حول السنة النبوية في دبي، الإمارات العربية المتحدة، 2009.

⁴- أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله، الجويني: البرهان في أصول الفقه، ج1، تحقيق عبد العظيم ديب، دار الوفاء، المنصورة ط4، 1418هـ، ص133.

⁵- الشاطبي: الموافقات، المرجع السابق، ج4، ص51.

⁶- الدبوسي، أبو زيد: تقويم الأدلة في أصول الفقه، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت/ لبنان، 2001، ص36.

⁷- الجويني: البرهان في أصول الفقه، 87/1.

⁸- الباقلاني: التقريب والإرشاد في أصول الفقه، ج3، تحقيق: عبد الحميد أبو زيد، مؤسسة الرسالة، ط2، 1417هـ، ص30.

حالة المُخاطَب أو المستمع: يقصدُ بها استصحاب الحالة والظروف التي يكونُ فيها المخاطَبُ سواء في استقبال الخطاب أو في التصرف حياله، و بموجب ذلك ندرك قيمة السياق المقامي في فهم المقصود من النصوص، وقد ذهب محمد بازي إلى ضرورة الجمع بين دلائل البنية والهيئة أيضاً، يحث يقول: إنَّ اعتماد دلائل السياق، التي يمكن بناؤها من خلال الإشارات المرتبطة بالحدث الكلامي، ومصاحبات التلفظ، وشروطه النفسية، وكذلك دلائل المساق، وأي معاني الكلمات بما تفيده قرائن السياق؛ تعتبرُ حكماً أقوى في مسألة القصدية، لغياب إثباتات حية من صاحب الكلام تؤكد هذا المقصد أو ذاك.¹

أسباب النزول و ورود الحديث و أحوال العرب و عاداتهم في التخاطب : إنَّ تتبع النصوص من مظانها وظروف نشأتها من شأنه أن يعصم المؤول من الزلل، لأنَّ العلم بأحوال ولادة النصوص يحد من الاحتمالات و الظنون الناشئة لدى المتلقي و يوجه الفهم في بناء المعنى، ولذلك لا بد من إعادة بناء المقام التواصلية الأول للنص، بما يضم من متكلم و متلقين، و ظروف و علاقات بينهما ، و دواعي الإنتاج ؛ أي مجموع العناصر الاجتماعية والثقافية المتصلة بالنص الكلامي.²

سياق البنية: وهو مجموع المقامات اللغوية المرتبطة بحالات البناء اللغوية، أي البنيات المتواترة المُعادُ صياغتها، أو البنيات المسكوت عنها والمفتعل السكوت عنها، وهو أيضاً الإحصاءات اللغوية التي طَعَمَت نظريات الأجناس الأدبية، وأنواع الكتابة، وتعدد الأصوات والتناسخ. و سياق البنية يتمثل في عناصر اللغة وكيفية تلاقيها في الصياغة و التركيب داخل نص معين و يتجلى هذا النوع في موردين :

سياق البنية الخاص: يعني ضرورة النظر في النصوص السابقة و اللاحقة و ذلك بملاحظة البنى الداخلية و المجاورة للنص و عدم أخذ الأدلة من أطراف العبارة الشرعية كما في حالة النصوص الدينية، يقول الشاطبي في ذلك: فلا محيصَ للمفهم عن رد آخر الكلام على أول، و أوله على آخره، و إذ ذلك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف، فمن فرق النظر في أجزاءه فلا يتوصل إلى مراده.³

سياق البنية العام: وهو المعنى الذي نخلص إليه بالنظر إلى النصوص المكتوبة جامعة والتي تنتمي إلى ذات المنظومة وذلك بفهم النصوص بما هي أجزاء انطلاقاً من علائقها الشاملة بعضها البعض بما هي وحدتها الكلية، يشير ابن حزم إلى هذا قائلاً: الحديث و القرآن كله كلفظة واحدة فلا يحكم بأية دون أخرى ، ولا بحديث دون آخر، بل يضم كل ذلك بعضه إلى بعضٍ ؛ إذ ليس بعض ذلك أولى في الاتباع من بعض، ومن فعل غير هذا ، فقد تحكّم بغير دليل.⁴

¹ - محمد بازي: التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص و الخطابات، منشورات الاختلاف، الجزائر ، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 1431 هـ ، ص86.

² - المرجع نفسه: ص 105.

³ - الشاطبي: الموافقات، المرجع السابق، ج9، ص413.

⁴ - الأمدى : الإحكام في أصول الأحكام، الأمدى، أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد، دار الكتب العلمية ، ص35/2. ينظر أيضاً أيضاً محمد بنعمر: ابن حزم و آراؤه الأصولية ، دار الكتب العلمية ، 2007، ص105.

العلاقة بينالسياقين: هذان النوعان من السياق ليسا منفصلين عن بعضهما، بل كلُّ منهما يُكَمِّلُ الآخر، ولا بد منهما عند التعامل مع الخطابات على تنوعها ليكتمل الفهم، فالإقتصار علىسياق البنية وحده، سيجعل النص بيئة مغلقة تقتصر على ما تفيداه الألفاظ من دلالاتومعان، وتَحْرِمُ الباحث من البيئة الخارجية المحيطة بالنص، والوقوف عند دلالة سياقالبيئة وحده، تجعل الباحث يحوم حول حمى النص دون الولوجإليه، لذلك على المحلل أن يستعين بالسياقين، لأن الخطاب الذي نحلله يحيا فيهما مجتمعين وإن استغنينا على واحد منهما اضطررنا ذلك إلى استعمال صفة الموت على عناصر دورة التخاطب كاستعارة مبتذلة تُمَثِّلُ بها قصورا منهجيا.

المعنى والسياق:

يمكن القول أن المعنى هو المحور الذي ارتكز عليه البحث الفلسفي طوال تاريخه، بل هو موضع اهتمام المشتغلين في علوم الإنسان واللسان على السواء، لكن يبقى فلاسفة اللغة أكثر اشتغالا بالمعنى من غيرهم، فقصة فلسفة اللغة عبر مراحلها قصة تروي فكرة المعنى، فما هو المعنى؟ والإجابة على هذا السؤال البسيط غاية في الصعوبة. لكن دعونا نقترح بعض التصورات لكلمة معنى: كثيرا ما نستعمل المعنى كمرادف للقصود، أو الإشارة إلى شيء ما، أو نستعمله بوصفه علاقة بين الموضوع وممثله (بنوع من الاصطلاح البورسي).

في مجال اللغة مثلا: هناك معاني مفردة (للألفاظ وحدها) وأخرى سياقية (أي الألفاظ في سياقها اللغوي والخارج لغوي). هناك نظريات عدة تناولت المعنى، غير أن تقديم كل هذه النظريات في مقامنا هذا ضرب من المستحيل لذلك سنقتصر على نظريتين اثنتين تخدمان موضوعنا -أي المعنى كما عالجه فلاسفة أكسفورد- على أنه قبل الخوض في ما قاله أوستين وتلامذته، وجب البدء بالأصل الفلسفي للمدرسة أي آراء فيتجينشتاين الأول والمناطقة الوضعيون، وتناولهم لمسألة المعنى، فالمعنى عند هؤلاء غير موجود خارج مبدأ التحقق¹، فالقضايا التجريبية والتي يمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب، هي القضايا الوحيدة التي تعتبر حقيقية لأنها النوع الوحيد الذي يمكن التحقق منه، إلا أنهم يقبلون قضايا الرياضيات والمنطق رغم أنها فارغة تجريبيا، وذهب فيتجينشتاين إلى أنها تحصيل حاصل (tautologie) وهي ليست من القضايا التي يُتحقق منها، وإنما هي مما يبرهن عليه، إنها ليست صادقة كما هو حال القضايا التجريبية ولكنها شرعية، ومن ناحية أخرى فإن قضايا الميتافيزيقا لا هي بالتجريبية ولا هي تحصيل حاصل، بمعنى أنه لا يمكن أن تكون مما يتحقق منه ولا مما يبرهن عليه إذ لا يمكن أن تكون صادقة ولا شرعية ومن ثم فهي ببساطة خالية من المعنى²، وترتب عن كل هذا إقصاؤهم لعلم الأخلاق وعلم الجمال والميتافيزيقا نفسها من مجال العلوم، لأن المناطقة الوضعيين يرون أن معظم إشكالات الميتافيزيقا، إشكالات زائفة، وأن معظم التعبيرات التي تمتلئ بها كتب الفلسفة من جنس العبارات الإنشائية التي لا يمكن التحقق من صدقها أو كذبها، فهي بالضرورة فارغة من المعنى وإن كانت تبدي غير ذلك، فيعتبر المناطقة الوضعيون أن الجمل الإخبارية وحدها من تملك معنى، لأنها تقدم تصورا للواقع وبالتالي يمكن التحقق من صدقها أو كذبها بإحالتها على الواقع الذي تصوره³.

¹ - ينظر إسماعيل عبد الحق، صلاح: التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد. دار التنوير، ط1، بيروت، 1993.

² - ينظر المرجع نفسه.

³ - ينظر المرجع نفسه.

لكن يمكن نقد كل هذا على الأقل بنقد المبدأ الأساسي في هذه النظرية، أي التحقق الذي ليس بالذي يمكن التحقق منه بالتجربة ولا بالذي يمكنه الحديث عن نفسه أنه تحصيل حاصل، إضافة إلى أن الأشياء التي لا يمكننا التحقق من صدقها تجريبيا وحكمنا عليها بالكذب، لم نبرهن أيضا على كذبها تجريبيا. وأغرى الحكم بالكذب أغلب الفلاسفة المحدثين خاصة منهم الماديين، وهذه الفراغات في نظرية التحقق للمعنى، هي ما دفع بفلاسفة أكسفورد إلى البحث عن نظرية جديدة للمعنى، تكون أكثر ملائمة لطبيعة اللغة والبحث الفلسفي، وقبل أن يشرع هؤلاء الفلاسفة -ومن قبلهم فيتجينشتاين نفسه صاحب النظرية الأولى- قبل أن يشرعوا كلهم في تقديم نظرية جديدة، حاولوا اجتثاث النظرية القديمة من جذورها، وكان ذلك بالبحث عن الأصل المنطقي لنظرية التحقق والذي يتمثل في النظرية العلاقية أو الاسمانية (ومؤدى هذه الأخيرة أنه يجب التمييز بين اللغة من جهة والواقع من جهة أخرى¹، وأن نقول أن أية كلمة لها معنى، وهو العلاقة الاسمية التي تربط الكلمة كصوت وبين شيء موجود في العالم الخارجي، والعلاقية معقولة إذا تعلق الأمر بأسماء الأعلام، فمعنى اسم العلم هو الشخص الذي يشير إليه هذا الاسم، لكن هذه النظرية تفقد معقوليتها بمجرد الحديث عن كلمات مجردة من قبيل الحروف والأفعال والأحوال...² حتى لا نتحدث عن المصطلحات الفلسفية، وهذه الصعوبات في الوصول إلى ما المعنى؟ إشكالنا الذي طرحنا في البداية تجعلنا نطرحه مرة أخرى، ويجب فلاسفة أكسفورد بأن الوصول إلى معنى الكلمة يكون بتوضيح الطريقة التي يتم بها استعمال هذه الكلمة. والقول بالاستعمال في المعنى أصله كتابات فيتجينشتاين المتأخرة (أي فيتجينشتاين الثاني كما يحلو للبعض تسميته) في تشبيهه اللغة بلعبة الشطرنج، فالكلمات والتعبيرات متنوعة كتشعب قطع اللعبة والوظائف التي تؤديها نفس الكلمات والتعبيرات أيضا متنوعة وظائف نفس قطع اللعبة، وكما توجد أنواع عديدة مختلفة من الحركات كذلك توجد أنواع عديدة مختلفة من المعاني التي لا يمكن أن تتطابق جميعها مع استعمال الكلمة التي يقال أن لها معنى³.

إذن يمكن القول أن كتابات فيتجينشتاين الأولى أسست لنظرية التحقق للمعنى، وبعد ذلك أسست كتاباته الثانية لنظرية مناقضة هي نظرية الاستعمال، والتي تبناها أعلام مدرسة أكسفورد. والذين من تأثرهم نجدهم يمثلون بلعبة كما مثل فيتجينشتاين، لكنهم يخالفونه نوع اللعبة، فيمثلون بالكرة التي تلعب بها كرة القدم الأمريكية، فعندما نعلم الطفل معنى الكرة فإننا نعلمه معنى استعمالها، وسيختلف معنى الكرة لديه باختلاف ما تعلمه من استعمالاتها الممكنة.

إذن فالنقطة الأساسية التي يتفق عليها فلاسفة أكسفورد هي: تعريف المعنى في حدود الاستعمال اللغوي، وإذا كان هناك توكيدا على أن نظرية الاستعمال تنبثق من كتابات فيتجينشتاين المتأخرة، فإن فلاسفة أكسفورد طوروا هذه النظرية وأضافوا إليها أبعادا جديدة تميزهم كتيار من تيارات الفلسفة التحليلية، فالمعنى عندهم مرتبط دائما بالسياق الذي تُستعمل فيه الكلمة، وإذا كان فلاسفة أكسفورد قد اتفقوا على نظرية الاستعمال للمعنى، فإن هذا الاتفاق أصله اتفاق آخر على رفض نظرية إمكانية التحقق للمعنى، تلك النظرية التي رأت في العبارة الإخبارية الأنموذج الذي يجب أن تُبنى عليه أية نظرية أخرى تريد أن تكون ذات معنى. وهذا يطرح إشكالين على الأقل: أولا ليس هناك من منهج للتحقق من المعنى في أغلب

¹ - ينظر المرجع نفسه.

² - ينظر المرجع نفسه.

³ - ينظر المرجع نفسه.

ما نرى أن فيه معنى. والثاني والأكثر خطورة بالنسبة لفلاسفة أكسفورد، هو ارتباط التحقق بالصدق والكذب، واللذان يخرجان جملاً ذات معنى من دائرة المعنى لا تمت بصلة للصدق والكذب: وهي الجمل الإنشائية، والتي كانت محور دراسات فلاسفة أكسفورد، وقد تناول أوستين في نظريته عن أفعال الكلام، أنواع هذه الجمل بالدرس، بهدف البرهنة على أن تحديد الفعل الكلامي الذي يستعمل الجمل الإنشائية هو تحديد معنى هذه الجمل، فالكلمات ترتبط بأنواع معينة من أفعال الكلام وهي تستعمل لأداء أنواع معينة من الأفعال الكلامية، لكن الذي لاحظته سيرل هو أن الكلمة المستعملة في نفس السياق وبنفس شروط الاستعمال لا تؤدي بالضرورة الفعل الكلامي المنوط بها والذي قال به أوستين أيضاً، فالكلمات تقول شيئاً ما باستعمالها استعمالاً مخصوصاً، ولا تقول كل شيء، وحاول سيرل الخروج من هذا المأزق باقتراحه البحث عن كيف في المعنى عوض البحث عن الماهية: أي البحث في كيف تستعمل الكلمات في الفعل الكلامي، عوض البحث عن في ماذا تستعمل.¹ لكن تظل هذه الدعوى تنظر إلى قصد المتكلم وكيفية إنتاجه لفعل الكلام دون كيفية تلقيه وهذا الذي استدركه هير على سيرل، أي الاهتمام بالمتلقي في إدراك المعاني في الكلمات المستعملة في أفعال الكلام انطلاقاً من سياقات بعينها، وهذه الاحتمالية في إنتاج المعنى وإدراكه فتحت آفاقاً جديدة في ممارسة التأويل ودراسته.

السياقية وحدود التأويل:

السياقية هي السياق في بعده الفلسفي، السياق بوصفه مُنطلقاً لمنهجٍ يبحث في معاني الأشياء، أي أداة تعتمد على عملية التأويل "فالانتقال من القصدية التواصلية للخطيب إلى قصديته الإخبارية تمر (...) من طريق عملية تأويلية تستند إلى آلية استدلالية وتأكيدٍ للفرضيات، والمُنطلقة من المقدمات (السياق) إلى النتائج"،² وهذه المعاني التي يستقبلها المتلقي في شكل معلومات تنتظم وفق مداخل تُعنى بالمفاهيم تبعاً للمداخل المعجمية والمنطقية والموسوعية لكن المعلومات التي تأتي على ذهن المتلقي، ليست كلها وليدة هذه المفاهيم وآلياتها، بل هي قادمة من تأويلات سابقة، ومن نظرةٍ للعالم مشتركة، والتي "مصدرها الذي يصطلح عليه سبيربر وولسن الذاكرة متوسطة المدى. بالنسبة إليهما، في الواقع، بجانب الذاكرة طويلة المدى التي تجمع معلومات مُتعلقة بالمفاهيم، هناك ذاكرةً متوسطة المدى بقدراتٍ محدودة لتحافظ بدورها لمدة محدودة أيضاً على المعلومات المعالجة لتوّها"³ وهذه القدرات المحدودة والتي يستند عليها حقلَي التعليم والإعلام في أدائهما لوظيفتهما التي توجهها (اللوبيات) أو الجماعات الضاغطة والمصالح الاقتصادية الضيقة والفرص السياسية، وهذا ما تَسْتَعْلُهُ فيما بعد الدعاية والتضليل ليُتأخما بذلك حدود التأويل.*

¹ - ينظر المرجع السابق.

² - Anne, Reboul et Jacques, Moeschler : pragmatique du discours, de l'interprétation de l'énoncé à l'interprétation du discours. Armand colin, paris, 1998, p43, 44.

³ - Ibid. p.50.

* - و التأويل المرتبط بالاحتمالات السياقية مرزده بالنسبة لسبيربر وولسن إلى قيمة من بين اثنتين تعرضت لهما البلاغة العربية مُطَوَّلًا وهما المناسبة والاعتدال، والمناسبة تُقرها البلاغة العربية أداة تُنقن بها اللغة، ومع سبيربر وولسن أصبحت أداة تساعد على اختيار المتلقي واحداً من المفاهيم والمعلومات العِدَّة، خلال العملية التأويلية، ورغم أن القيمتين يَكْتَنِهُمَا الكثير من الغموض والنسبية إلا أن هذا في طبيعة عمل البشر الذي لا يمكن أن يَتَّصَفَ بالكمال ويجب أن يقر بالنقص الذي فيه.

استراتيجيات التأويل البلاغي:

البلاغة مُستَوِيْنٌ: مستوى حجاجي يطمح للإقناع، وآخر تصويري يرمي إلى جلب الانتباه إليه، ويمكن للحجاج أن يكون مغرباً ويمكن للتصوير أن يكون مقنعاً، لكن الأصل فيما يبدو هو كما أشرنا إليه أولاً.

فالتخييل والإقناع داخل النسق البلاغي "يلتقيان في أنهما خطابان قائمان على الاحتمال، الاحتمال توهيماً وترجيحاً، التوهيم في التخييل والترجيح في التداول الحجاجي"¹، والبلاغة سياق يَحُدُّ من شَتَاتٍ واحتمالية الصور والحجج من جهة، وهو من جهة أخرى حَدَثٌ واحتمال يساهم في تخصيص كُلاً من فعلي الإبداع والقراءة البلاغيين. والبلاغة أيضاً: مُرسِلٌ بليغ أو بعضٌ منه، عارفٌ بالكثير أو القليل من فنون البلاغة وصناعتها تأليفاً، ومتلقيٌ يُحلِّل بما تيسر له من أدوات التحليل، وتأويلاً.

وإن كانت البلاغة الأولى تنزع لأن تكون تعليمية للمريدين، فإن البلاغة الثانية تزعم أنها منتشرة بين الناس ليتهايئ لكل واحدٍ أن يزيدها ويُقصص، "وهذا كله يجعل البلاغة المعاصرة مُطالبَةً بالوقوف عند عمليات البناء والتحليل، والفهم والتأويل، في تحريك المستمعين والتأثير عليهم، وقياس درجة تفاعلهم مع ما يُوجَّه إليهم، عبر مختلف قنوات الاتصال"²، أي أن البلاغة أصبحت مطالبَةً إلى جانب وظيفتها القديمة في تقنين الخطابات، بتَقْصِي آليات التحليل التي تنتقي من أدواتها، وآليات التلقي التي تخضع لنفس هذه الأدوات البلاغية، وهذا يفتح الأبواب وحتى النوافذ أمام كل ما هو أيديولوجي، "وتصبح الأيديولوجية، بما هي كذلك، لا تأويلاً للعالم أو قراءة للواقع، وإنما لغةً للغة، وتأويلاً لشيءٍ مُؤوَّلٍ معيش. والأهم من ذلك أن الأيديولوجية سُنْتُقِل من الأذهان إلى الأعيان، وتخرج من وعي الناس لتسكن ((الواقع)) ذاته، أو لتنخره وتحديث هُوَّةً وتباعداً داخله، ستصبح الأيديولوجية مؤسَّسة من مؤسسات المجتمع وجهازاً من أجهزته، بل مستوى من مستويات التشكيلة الاجتماعية، وستغدو الأوهام الأيديولوجية أقنعة ينبغي تأويلها، وتأويل تأويلها"³.

وما يساعد على ولوج الأيديولوجية إلى فعل التأليف والقراءة على السواء هي المسافة التي تخلقها المستويات البنيوية الأوائل: من تحديد للموضوع واستعمال وتحليل للمستوى الأول اللغوي (مجموع الأصوات، ومجموع المقاطع والكلمات، مجموع التراكيب)... ثم المستويات الثواني (الميتا-بنيوية) من حالات نفسية واجتماعية وظروف محيطية، والتي تُختصر عادة في لفظي السياق أو المقام، وهذه السلسلة المعقدة من بناءٍ وهدمٍ وإعادةٍ للبناء ما يمنح الفرصة لفعلي القراءة والتأليف من استثمار طاقات التأويل واحتمالاته، وبلاغة البناء أو الهدم وإعادة البناء تصبح هنا إمكانيةً أيديولوجية، "وهذه كلها عمليات تتيحها القراءة من جهة والنص من جهة ثانية، (...) فهو -النص- حامل لعدة تجارب وخبرات يمكن من خلالها اعتباره عملية جمالية متواصلة بالقراءة.

إن الفكر الأصولي بضوابطه التأويلية المنحدرة من الدرس البلاغي يمكن أن يجود التأويلية الغربية المعاصرة ويصلح أعطائها؛ كما يمكن للتأويلية الغربية المعاصرة أن تعمل على توسيع أفقنا وتعزيد تفسيرنا للنصوص المشكَّلة لهويتنا الحضارية؛ إن الفكر الأصولي يتغيا البحث عن معاني النصوص من خلال الرباعي التالي: المؤلف، السياق، القاريء والمقروء [النص] ولقد

¹ محمد، العمري: البلاغة الجديدة، بين التخييل والتداول، المرجع السابق، ص11.

² محمد سالم محمد الأمين، الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة. المرجع السابق، ص9.

³ عبد السلام، بنعبد العالي: ثقافة الأذن وثقافة العين. دار توبقال، ط2، الدار البيضاء، 2008، ص51.

انتبه الشاطبي إلى لهذه الأركان إذ قال: "معرفة مقاصد العرب إنما مداره على معرفة «مقتضيات الأحوال» التي هي ملاك البيان، حال الخطاب من جهة نفس الخطاب أو المخاطب أو المُخاطَب أو الجميع؛ إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين، وبحسب مخاطبين، وبحسب غير ذلك".¹ ومن خلال هذه الرباعية سنتطرق إلى حقيقة التأويل الأصولي لكي نقف على آلياته في الفهم والتفسير، في الاستنباط والتفعيد.

ولعل هذا ما يجعل النقاد اليوم يتحدثون عن النص باعتباره بنية دلالية يتم من خلالها إنتاج المعنى من لدن القراء الأكفاء، وهذه البنية الدلالية تنتجها ذات فردية أو جماعية ضمن بنية نصية منتجة، وفي إطار بنيات ثقافية واجتماعية محددة، ومن خلال هذا التضافر بين العناصر الإنتاجية والبنوية يكتسب النص انفتاحه على مختلف التأويلات المنسجمة مع وحداته وأفاقه النوعية، الدلالية والإنتاجية²، إلا أن فعل القراءة في نظريات التلقي يشترط الإحاطة بآليات القراءة ذاتها، وبالتالي يفرض علينا الفصل بين القراءة الإستمولوجية وقراءة الجماهير، رغم انتمائهما إلى نفس جنس القراءة، إلا أن ثمة اختلاف في درجة وعي كل منهما، وكذلك فعل الكتابة الذي يختلف باختلاف درجة وعي المؤلفين بقُرَّائهم المحتملين، "وإذا كانت القراءة مُحتملة، فذلك لأن النص غير مُنغلق على نفسه، بل منفتح على آخر، والقراءة تعني، في كل فرضية، ربط خطاب جديد بخطاب النص. هذا الربط لخطاب بخطاب، يشي في صياغة النص ذاتها، بقدرة أصلية على الاستئناف، التي هي ميسمه المفتوح. والتأويل هو النتيجة الملموسة لهذا التسلسل والاستئناف"³. والإبداع (مهما كانت نكهته ومزاجه، أسلوبه وتصنيفه وجنسه) "في نفس الوقت مقامٌ و(مقال)، يجتازه الكثير من التناقض. فخصوصية خلقه، ومسيرة مبدعه لا تجعلان منه شيئاً آخر غير نوع من السير الذاتية، لكن تاريخ تلقيه يستدعي الكثير من العوامل، ليصير شيئاً فشيئاً تاريخاً كلياً"⁴، وهنا تلتقي حدود التأويل بضرورته "فكل كائن بشري سوي يعير الانتباه إلى ما يحيط به من ظواهر الكون فيريد أن يتعرف على تفاصيل ما ظهر منها، وتقوده عملية التعرف على الظواهر إلى طلب ما خفي منها وما بطن. وإذا كانت الظواهر والأفعال أو ضروب السلوك لا تتلاءم مع ما يستنبطه من معارف وأعراف فإنه يلجأ إلى عملية تأويل الظواهر أو ضروب السلوك أو الأفعال ليجعلها منسجمة متناعمة مع معارفه الخلفية، وهذا يعني أن الكائن البشري يعتقد في شيء أنه أصل أو أول أو أساس، وأن هناك شيئاً ثانوياً أو فرعياً يمكن أن يرجع إلى الأصل أو إلى الأول أو إلى الأساس. وهذا الاعتقاد يعمد إلى التأويل برد الغائب إلى الشاهد"⁵، أي أن التأويل أمر مُغَيَّب مُرَجَّأ إدراكه، لذلك تكثر التأويلات وتتعارض وربما تتنافس داخل الحقل المعرفي الواحد المشترك، لكن هذا لا يمنع من وجود قواعد تنتهجها، وطرائق تسلكها العملية التأويلية القرآنية، والتأويلية التأليفية على السواء.

¹ - الشاطبي أبو إسحاق : الموافقات في أصول الشريعة، المرجع السابق، ص343 .

² - محمد سالم محمد الأمين، الطلبة: المرجع السابق، ص62.

³ - بول، ريكور: من النص إلى الفعل، أبحاث التأويل. ترجمة برادة، محمد وبورقية، حسان، دار الأمان، ط1، الرباط، 2004، ص105.

⁴ - Antoine, Compagnon : le démon de la théorie, littérature et sens commun. Édition du seuil, France, 1998, p246.

⁵ - محمد، مفتاح: التلقي والتأويل، مقارنة نسقية. المركز الثقافي العربي، ط2، المغرب، 2001، ص217.

والتأويل* المشترك بين فعلي القراءة والتأليف، يطمح إلى تجاوز المحاكاة السلبية بالانتقال من المعاني الحرفية إلى المعاني المجازية، من طريق جدلية بين المؤلف والنص أو الخطاب-بوصفه مؤسسة اجتماعية- والقارئ، فكل هؤلاء يودون إثبات وجودهم من خلال الآخرين ومن خلال المشترك بينهم من خبرات وسنن ثقافي وقدرية على الاستيعاب والفهم، والتي غالباً ما يحتويها أفق الانتظار لديهم جميعاً أي لدى المؤلف والقارئ والنص عدلالسواء، وعلى كلٍ منهم استشراف معاني أفق الانتظار.

وفعل التأويل يعتمد تشفيراً أولياً ومن ثمَّ فكُّه، غاية ذلك فهم السنن اللغوي الأول، ثمَّ يلي هذا تشفيراً ثانياً يحاول فهم السنن اللغوي الأول في إطار المعطيات النصية أو الخطابية الخارجة عن اللغة المحيطة والمتداخلة مع المعطى اللغوي، بمراجعة الاحتمالات الدلالية الممكنة واختيار الأنسب للمنى الفراغ المُخلف من جراء المسافة بين المعطيات الأوائل والثواني، وهنا يأتي الدور على التأويل الثالث الذي يُعنى بالآليات والطرق التي سلكها التأويلين الأول إلى الثاني، ويمكن بنفس المنهج استحداث قراءة رابعة وخامسة... لكن تبقى من جنس الثالثة (رغم أنّي لا أنتهي إلى المعتقدين في مثالية العدد ثلاثة ولا باقي الأعداد)، وهنا يتّضح لنا أصل تشعب التأويل وانفلاته، فالذوق يختلف بين الناس، وكذلك تختلف المرجعية الثقافية والمستوى المعرفي، والانتماءات على اختلافها من طبقات اجتماعية وحقول بحثية، ونزوع سياسي، ومصالحة اقتصادية، ومذاهب دينية... وغيرها.

إنَّ ما يمكن أن نسميه التأويلُ الأصولي قائم من جهة على تتبع دلالات الخطاب ومن جهة أخرى على مجموع النصوص في تضافرها وتعالقها ولقد جعل الأصوليون ممن تشبّعوا بمفاهيم البلاغة من استقراء دلالات الألفاظ جوهرًا للعملية التأويلية، فكانت علوم اللغة مدخلاً إلى علوم الدين بما في ذلك إعمال الذهن في النصوص على حسب ما يسمح به اللسان العربي كدلالة العام على العام في بعض الوجوه ودلالته على الخاص في وجوه أخرى؛ وبالتالي فيمكن النظر إلى النص بناءً على ثنائيات العام والخاص، والظاهر والباطن، والقرينة الحالية والمقالية. وذلك كلّه أساس توجيه الألفاظ إلى المعاني التي تدل عليها. وبناءً على ذلك فأنماط الخطاب أربعة :

1- عام ظاهر الذي يراد به العام الظاهر.

2- العام الظاهر الذي يدخله الخاص.

3- العام الظاهر الذي يرادُ به الخاص.

4- الظاهر الذي يعرف في سياقه غير ظاهره.

وتجدر الإشارة إلى البعد المقاصدي في العملية التأويلية من حيث هو معيارٌ نظري نتأول على ضوه النصوص، وتنطلق التأويليتين العربية والعربية من التفريق بين الفهم والتفسير؛ ومن هذا المنطلق يقسم الخطاب إلى صنفين: الخطاب القائم على التفسير، والخطاب القائم على الفهم؛ حيث يهتم التفسير بالأسباب، وأما الفهم فيحاول معرفة المسوغات والدواعي و

* - على أن فعل التأويل شديد الارتباط بالمعتقد، فهو إما حقيقةً مطلقة مرتبطة بإله واحد في ديانات التوحيد، أو هو حقيقة متعددة تعدد آلهة الوثنيين، أو هو لا وجود للحقيقة أي شيء يقترب من العدم كما يفهمه الملحدون خاصة منهم نخب الحدائث وما بعدها، ويتعبّر آخر إما أن التأويل مرتبطٌ بالله، أو بما يماثل هرمس اليونان المشتقة==من طبيعته الهرمينوطيقا، أو أن التأويل مجرد وهم عابر، وإذا كان الوهم والتعدد ممكنين فإن الحقيقة المطلقة الواحدة بالضرورة ممكنة أيضاً، لكن الإنسان إن تسنى له الوصول إليها فليس بمقدوره أن يميزها -أي الحقيقة المطلقة- عن أنواع التأويل الأخرى وإلا أصبح مُتأَلِّهاً، وهذا ما يحدث فعلاً عند الذي ينسب لنفسه معرفة هذا النوع من الحقيقة، وهذا في حالات التأويل الثلاث، فالتأويل البشري متعدد دائماً، لكن لا يمكن سحب التعدد على ما هو مطلق، أو العكس.

المقاصد¹ والفهم عبارة عن سبرٍ للأغوار النفسية، فإدراك الواقع عبارة عن اكتناه للباطنية النفسية للمؤلف التي تستر وراء المظهر الباطني لمجموع مؤلفاته، وهذه الحياة الحميمية لنفسية الكاتب تختلف باختلاف مجالات الإنتاج، فهي الملكة الإبداعية عند الشاعر، والنظرة الشاملة للحياة والإنسان لدى الفيلسوف.² وهكذا فالتفسير يرمي إلى تفسير الظواهر العلمية التي هي موضوع العلوم الدقيقة، في حين أنّ الفهم يتطلع إلى فهم تعبيرات الحياة³ وما على التأويل إلى أن يفهم سيكولوجية المؤلف للوقوف على مقاصده من نصوصه، ولا يتأتى له ذلك إلا بتوسّل قواعد الفهم السديد. وهذا يدل على أنّ التأويليتين العربية والغربية انطلاقاً من معطيات بلاغية تؤمنان بوجود معنى قطعي وموضوعي للنص، قصده المؤلف وهو معنى مستقل قد تطابقه التأويلات وقد تخطئه ولا نتعرف عليه إلا بفضل إعادة إحياء تجربة المؤلف بل ذهب إلى أنه بإمكان المؤلّف أن يفهم النص أفضل من مؤلفه؛ لكن هذا يصدق على النصوص البشرية ولا ينسحب على النصوص الموحى بها باعتبار أنّ الشارع من صفاته الذاتية العلم المطلق. رغم أنّ التأويلية اليوم لم تعد تتحدث عن المؤلف وعن مقاصده ولا عن مناهج معينة للتأويل ولا عن الموضوعية ومعنى ثابت وقار للنصوص بل تؤثر نفي كلّ ذلك.

خاتمة

يبدو أن البلاغة إبداعٌ وتحليل من خلال سياقاتٍ تحمي فيها مجموعُ الخطابات التي تحاول أن تلبسَ الحقيقة إمّا إغراءً أو إقناعاً أو إخفاءً، وتبدأ رحلة كشف الخطابات عن معانيها ودلالاتها من خلال معطيات السياق المختلفة فلا يستقيم تفسير أو فهم أو تأويل خارج أطر السياق ومحدّداته. ولا يستقيم أيضاً الحديث عن التأويل في التقليديين العربي والغربي إلا بالعودة إلى العناصر المكوّنة للعملية التأويلية: المؤلف، القارئ، النص، السياق؛ فضلاً عن ضرورة النظر في طبيعة العلاقات بين هذه العناصر الأربعة على ضوء فعل التأويل والآليات التي يسير وفقها في بناء الدلالات من خلال كل عنصر من عناصره؛ واختلاف النظر إلى الأطراف المشكّلة للعملية التأويلية انجرّ عنه تباين في الاتجاهات التي سلكتها الطرائق التأويلية؛ منها من تمنح الأولوية في الإحاطة بمعاني الخطابات لمقصديّة المؤلف أو تعدّد القراء أو لشفرة النص أو لتشظّي السياق أو لجانبه المؤطر.

¹ - بومدين بوزيد: الفهم والنص ، دراسة في المنهج التأويلي عند شلايماخرو ديلتاي، منشورات الاختلاف، ط1، 2008، ص 97-98.

² Le Monde de l'esprit , Aubier-Montaigne :1992 , t 1 , p 332.

³ - ينظر عادل، مصطفى: فهم الفهم، مدخل إلى الهرمينوطيقا، نظرية التأويل من أفلاطون إلى غادامير، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2003، ص 86. وينظر أيضاً بومدين بوزيد: المرجع السابق، ص 93-95.

قائمة المراجع:

المراجع باللغة العربية:

1. الأمدي، أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد: الإحكام في أصول الأحكام، دار الكتب العلمية.
2. بازي، محمد: التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص و الخطابات، منشورات الاختلاف ، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون ، بيروت ، ط1 ، 1431هـ ، ص86.
3. الباقلاني: التقريب و الإرشاد في أصول الفقه، تحقيق: عبد الحميد أبو زيد، مؤسسة الرسالة، ط2 ، 1417 هـ ، ج3/ص30 .
4. محمد بن عمر: ابن حزم و آراؤه الأصولية، دار الكتب العلمية، 2007.
5. بوزيد، بومدين: الفهم والنص، دراسة في المنهج التأويلي عند شلايماخرو ديلتاي، منشورات الاختلاف، ط1، 2008.
6. الجويني، أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله: البرهان في أصول الفقه، تحق عبد العظيم ديب، دار الوفاء المنصورة ط4: 1418هـ ، ج1/ص133.
7. الحسني، إسماعيل: نظرية المقاصد عند الإمام ابن عاشور. المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 1416.
8. الدبوسي، أبو زيد: تقويم الأدلة في أصول الفقه، دار الكتب العلمية، بيروت/ لبنان، 2001.
9. ربول، آن و موشلار، جاك: التداولية اليوم، علم جديد في التواصل. ترجمة دغفوس، سيف الدين والشيباني، محمد، دار الطليعة، ط1، بيروت، 2003.
10. ريكور، بول: من النص إلى الفعل، أبحاث التأويل. ترجمة برادة، محمد وبورقية، حسان، دار الأمان، ط1، الرباط، 2004.
11. الشاطبي، أبو إسحاق : الموافقات في أصول الشريعة، ج3، شرحه و خرج أحاديثه الشيخ عبد الله دراز، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان.
12. صلاح، إسماعيل عبد الحق: التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد. دار التنوير، ط1، بيروت، 1993.
13. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج3، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المعارف، مصر، ط4، 1969.
14. الطلبة، محمد سالم محمد الأمين: الحجاج في البلاغة المعصرة. دار اكتاب الجديد المتحدة، ط1، بيروت، 2008.
15. العمري، محمد: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها. أفريقيا الشرق، الدار البيضاء/بيروت، 1999.
16. : البلاغة الجديدة، بين التخييل والتداول. أفريقيا الشرق، الدار البيضاء/بيروت، 2005.
17. القرطاجني، حازم: منهاج البلغاء وسراج الأدباء. تقديم و تحقيق ابن الخوجة، محمد الحبيب، دار الغرب الإسلامي، ط3، بيروت، 1986.
18. ابن القيم: بدائع الفوائد ، طبعة دار الفكر.
19. مصطفى، عادل: فهم الفهم، مدخل إلى الهرمينوطيقا، نظرية التأويل من أفلاطون إلى غادامير، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2003.

20. مفتاح، محمد: التلقي والتأويل، مقارنة نسقية. المركز الثقافي العربي، ط2، المغرب، 2001، ص217..
21. مونقانو، دومينيك: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب. ترجمة محمد، يحياتن. ط1، منشورات الاختلاف، 2005، ص27.

المراجع باللغة الأجنبية:

1. Compagnon, Antoine: le démon de la théorie, littérature et sens commun. Édition du seuil, France, 1998.
2. Montaigne, Aubier:Le Monde de l'esprit , 1992 .
3. Bordas, Eric : Les chemins de la métaphore. Presse universitaire de France, France.
4. Perelman, Chaïm : L'empire rhétorique. LIBRAIRIE PHELOSOPHIQUE J.VRIN, 2^e édition, paris, 2002.
5. Reboul, Anne et Moeschler, Jacques : pragmatique du discours, de l'interprétation de l'énoncé à l'interprétation du discours. Armand colin, paris, 1998.

المنشورات والمقتنيات:

1. التخيفي، عبد المحسن: دلالة السياق و أثرها في فهم الحديث النبوي، من أعمال الندوة الدولية الرابعة حول السنة النبوية في دبي، الإمارات العربية المتحدة، 2009.

جذور التناص في المدونة النقدية العربية التراثية وصلته بالسرققات الأدبية

- قراءة في مؤلف العمدة لابن رشيق القيرواني -

د. زوليخة يحيى

جامعة المدية، الجزائر.

ملخص:

إنّ الطّرح الحدائى الغربى لمسألة التناص يعود بنا إلى حوارية باختين، وجهود كريستيفا في كشف العلائق الموجودة بين النصوص، ويعود بنا كذلك إلى وجود أوجه مماثلة لمصطلح التناص في المدونات التراثية العربية خصوصا ما تعلق بقضية السرققات الأدبية، وعليه سنحاول البحث والتقصي عن مستويات التناص في المدونة العربية القديمة من خلال استقراء تجلياتها في كتاب العمدة لابن رشيق القيرواني، وذلك بناء على إشكالية محورية تتعلق بجذور مصطلح التناص في المدونة العربية، وهل هناك صلة بينه، وبين قضية السرققات الأدبية.

الكلمات المفتاحية: جذور التناص، السرققات الأدبية، المدونات التراثية، ابن رشيق القيرواني.

Abstract:

The modernity exposition of the issue of textuality takes us to the interaction of bakhtine and the efforts of christiva in exploring the relationship between texts and to the existence similarities between textuality and the arabic inherited cores especially that related to literary plagiarism that's why we'll search for and explore the different levels of textuality in the arabic ancient scripts from the induction of its appearance in the Ibn RachikElkirawani ELOMDA. This will be based on the principal issue that is related to the roots of the term textuality in the arabic critical scripts and if there is a link between textuality and literary plagiarism.

Keywords: the roots of textuality , literary plagiarism, the Arabic ancient scripts, Ibn RachikElkirawani. .

تمهيد:

تعتبر قضية التناص قضية حدائية بامتياز على مستوى المصطلح، لكن تداولها واستعمالها يرجع في الوطن العربي إلى العصر الجاهلي، غير أنّ الاختلاف تمثّل في عدم شيوعه بمصطلح التناص بل بمصطلحات أخرى على غرار التضمين، الاقتباس، والسرققات الأدبية؛ حيث عالج النقاد العرب القدامى مسألة تداخل النصوص، والأخذ بين الشعراء والأدباء، ومع مرور الزّمن تطوّر المصطلح وتعدّدت دلالاته ممّا جعلنا نبحت عن جذور التناص في المدونة النقدية العربية التراثية، وصلته بالسرققات الأدبية، وذلك من خلال مؤلف العمدة لابن رشيق القيرواني.

جهود النقاد العرب القدامى في مسألة تفاعل النصوص:

إنّ جهود نقاد العرب القدامى في مضمار دراسة النصوص الأدبية الشعرية والنثرية، تجلّى بارزا للعيان، وهذا من خلال مختلف القضايا التي طرحها النقد الأدبي القديم في مختلف المؤلفات والكتب النقدية، وهي إنجازات تثبت وجود ممارسة نقدية تراثية عالجت جوانب شتى للنصوص الإبداعية كالسرققات الأدبية مثلا: " فقد عني النقد العربي بالكشف عن سر الصناعتين، والوصول إلى عيار الشعر، ومعرفة أساس البلاغة حتّى يكون النقد بحق منهاجا للبلغاء، وسراجا للأدباء يعرفون به أحكام صيغة الكلام، ويتمكّنون عبره من الكشف عن مساوئ الشعر ومحاسنه، ومن الإبانة عن السرققات

والوساطة بين الشّاعر وخصومه، والموازنة بينه وبين غيره من معاصريه أو سابقيه، كما استطاع النّقد أن يحدّد طبقات فحول الشّعراء، ومعايير الحذق والإجادة، وأن يبيّن ما يجوز للشّاعر في الضّرورة، وما ينبو عن الذّوق أو الجرس اللّغوي¹. وكلّ هذا دليل يشير إلى المدى البالغ الذي وصل إليه النّقد الأدبي العربي قديماً، فليس جديداً عليه التّعريف على النّص، والاهتمام به " موجّهها عنايته إلى دقائق هذا النّص بصورة مكنته من أن يقدّم لنا عبر إنجواته الباهرة في القرن الرابع الهجري، والتي استمرّت حتّى القرن السّابع أو بعده بقليل، واحدة من أوسع الدّراسات الوصفية والمعيارية في فهم جزئيات العمل الإبداعي، وفي التّعريف على كلّ ملامحه البنائية وفرز أدواته، وحيله الشّكلية على الخصوص"²، سواء على المستوى النظري، أو التّطبيقي، موجّهها قلم البحث والتّمحيص للتّصوص الشّعريّة والتّثيرة على حد سواء، مكنت أعلامه من " تتبّع صور السّرقات في وقت باكر من تاريخ هذا النّقد الخصب"³.

وعليه نتأكّد من أنّ المدوّنة النّقديّة العربيّة التّراثيّة اهتمّت بالنّص، وجعلته مدار دراستها وتناولها " قبل أن يطلع علينا النّقد الأدبي المعاصر بمفاهيمه عن بنية النّص، وعن الخصائص لبشكالية التي تعطيه طبيعته الأدبية، وعن تفاعلية النّصوص التي نعرفها الآن باسم التّناسخ intertextuality"⁴، هذا المفهوم الذي لم يكن وليد الصدفة، بل تهيأت له ظروف جمة ساهمت في بلورته، وظهوره، وما جهود العرب في هذا المجال إلا واحدة من تلك المعطيات التي دفعت إلى بروزه.

مفهوم السّرقة الأدبية:

إنّ تعدّد القضايا التي تناولتها المدوّنة النّقديّة العربيّة التّراثيّة يجعلنا نقف عند واحدة منها، ومنها السّرقات الأدبية؛ حيث " لم تكن فكرة تداخل النّصوص وترابطها غريبة عن تقاليدنا النّقديّة القديمة، بل نجدها متّصلة بحديث القدماء عن مجموعة من الأبواب النّقديّة"⁵، ومنها السّرقات الأدبية التي انتشرت بشكل كبير جداً في الشعر القديم خصوصاً، وعند التّمعن في دلالاتها نخرج بنتيجة تختزل لنا " جانباً من الرّؤية النّقديّة والبلاغية العربيّة حول العلاقات النّصية عموماً، رغم ما يلاحظ عنه من جزئية، وقصور عن الإلمام بمختلف أنواع التّفاعل النّصي والأشكال المندرجة تحتها"⁶، ورغم ذلك نلاحظ وجود علاقات بين السّرقات الأدبية من جهة، وتداخل النّصوص (التّناسخ) من جهة أخرى.

وتعتبر قضية السّرقة الأدبية مسألة طبيعية قديمة في تاريخ الأدب العربي خصوصاً في الشّعور " وجدت بين شعراء الجاهلية، وفطن إليها النّقاد والشّعراء جميعاً لما لاحظوا مظاهرها بين امرئ القيس وطرفة بن العبد، وبين الأعشى والنّابغة الذّبباني، وبين أوس بن حجر وزهير بن أبي سلى"⁷ على سبيل المثال لا الحصر.

ويعتبر باب السّرقات " من أهم أبواب النّقد العربي القديم؛ لأنّها كانت عماد دراسة الشّعور"⁸، على وجه التّحديد، وهذا لا يعني أنّ النّثر لم يعرف السّرقات الأدبية ولكن الشّعور حاز النّصيب الأوفر، في ذلك، وتصادفنا في هذا السّياق إشارة محمد مندور إلى قضية السّرقات؛ حيث تناول عدم تفريق القدماء بين السّرقة وغيرها، وعدّد من ذلك الاستيحاء، واستعارة

¹ صبري حافظ، أفق الخطاب النّقدي، دراسات نظرية وقراءات تطبيقية، دار شرقيات للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 1996، ص:48.

² المرجع نفسه، ص: 48.

³ المرجع نفسه، ص: 48.

⁴ المرجع نفسه، ص: 48.

⁵ عبد القادريقشي، التّناسخ في الخطاب النّقدي والبلاغي، دراسة نظرية وتطبيقية، إفريقيا للنشر (دط)، المغرب، 2006، ص: 30.

⁶ المرجع نفسه، ص: 30.

⁷ أحمد الشايب، أصول النّقد الأدبي، مكتبة الهضبة المصرية، ط10، مصر، 1994، ص: 264.

⁸ هند حسين طه، النّظرية النّقديّة عند العرب، دار الرشيد للنشر، (دط)، (دت)، ص: 187.

الهياكل، والتأثر ثم السرقة؛ التي قال بأنها تدلّ على " أخذ جمل وأفكار أصيلة وانتحالها بنصّها دون الإشارة إلى مأخذها"¹، كما أشار إلى ضروب هذا الأخذ وأنواعه.

وعموما لفضة السرقة في الأدب لا تقف عند حدّ الاعتداء على أدب الآخرين، بل تتجاوز ذلك إلى أمور أخرى " كالتّضمين والاقْتباس والمحاكاة والتّحوير، وعكس المعنى وما إلى ذلك"²، وقد اعتبرت هذه القضية مرضية ابتلي بها الأدب العربي، ونقده نظرا لما توجي به من سطو وإغارة على منتجات الشعراء والأدباء.

ورغم جانبها السّليبي إلّا أنّها " تعطينا صورة واضحة للعقلية العربية التي تميّزت بالذاكرة الحافظة للأقطة التي تختزن المعنى سريعا، وتلمحه إذا ما استثير لفرط القرب لمعنى آخر"³ وهذا ما حاول النّقاد القدامى الوقوف عنده، وهذا ما يدفعنا للنظر في السرقات من مدخلين، مدخل غير فني يتعلّق بالسرقات، وسؤال الأخلاق والسياسة " إذ اتّخذ بعض النّقاد من السرقات وسيلة لتجريح الشعراء والحد من شهرتهم الفنية إرضاء لرغباتهم السياسية والأخلاقية⁴، هذا من جهة. بالإضافة إلى المدخل الفني من جهة أخرى؛ حيث يربط السرقات بالفن والجمال " إذ اعتبرت السرقات سؤالا بلاغيا يراد منه إنصاف الشعراء وإبراز حدود تجاربهم الفنية"⁵، والهدف من ذلك إقرار أدبية نص من النّصوص من أجل إنصاف صاحبه فنّيا وجماليا.

ومهما يكن من أمر السرقات ودلالاتها، وضروبها إلّا أنّ الذي يهّمنا هو وجود تواسجات بينها، وبين بعض المبادئ التي يبنى عليها التّناص.

مفهوم التّناص وعلاقته:

يعود الفضل في بروز هذا المصطلح إلى النّاقدة الفرنسية جوليا كريستيفا؛ فهو مصطلح نقدي حديث وافد من الغرب، فرض نفسه في مختلف البحوث والدّراسات، واتّسع مجال اعتماده، والبحث في سياقاته، ومعناه " هو ذاك التقاطع داخل التّعبير مأخوذ من نصوص أخرى"⁶، وعليه يبنى مفهوم التّناص على أساس التّفاعل والتّشارك بين النّصوص. ويندرج المفهوم العام عند الباحثة الفرنسية ضمن الإنتاجية النّصية؛ بمعنى " أنّه مرتبط عندها بالنّص المولّد الذي يهتم بالكيفية التي يتمّ بها توالد النّصوص، وخلقها وفق عمل منبني على بناء سابق أو مسبق"⁷، فهذه الإنتاجية متبادلة متبادلة بين النّصوص.

وإذا كان لهذا المصطلح مبادئ وآليات يعمل على أساسها، فإنّ ما يهّمنا ليس الوقوف عندها بقدرما يهّمنا الوقوف عند الصّلات بينه، وبين السرقات الأدبية في المدونة النّقديّة العربية التّراثية؛ حيث نجد من الباحثين من يربط بين التّضمين والاقْتباس، ويجعلهما من أشكال التّناص المباشر، ومن هؤلاء صبري حافظ الذي يفصّل القول في هذا الإطار، ويشير إلى

¹ محمد مندور، النقد المهجي عند العرب، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، (دط)، مصر، 1996، ص: 359.

² عبد العزيز عتيق، في النقد الأدبي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، (دط)، بيروت، لبنان، 1972، ص: 310.

³ نظمي عبد البديع محمد، في النقد الأدبي، جامعة الأزهر، (دط)، الإسكندرية، مصر، 1987، ص: 177.

⁴ عبد القادر بقرشي، التّناص في الخطاب النقدي، مرجع سابق، ص: 32.

⁵ المرجع نفسه، ص: 32.

⁶ عبد المطلب محمد، قضايا الحدّثة عند عبد القاهر الجرجاني، الشركة المصرية العالمية للنشر لونغمان، ط1، مصر، 1995، ص: 147.

⁷ عبد القادر بقرشي، التّناص في الخطاب النقدي، مرجع سابق، ص: 19.

وجود التناص في مفاهيم البديع العربي على وجه التحديد: " ذلك لأنّ معيارية علم، أو بالأحرى علوم البديع فيه قد مكّنته ممن تناول مجموعة كبيرة من المفاهيم التي تثير فهمنا للتناص"¹.

ويدرج في هذا السياق مصطلحات بديعية يرى بأنّها يمكن أن تساهم في بلورة بعض الإضافات، والتي منها نذكر: الاقتباس، والاكتفاء، والتلميح والعنوان، والتوليد، والنوادر، والتضمين والمعارضة، والحذف والاستخدام، والمواربة والتورية، والحذف والاستخدام، والتورية والإشارة والإدماج² وغيرها من المصطلحات التي يؤكّد الباحث أنّها تنطوي على أفكار تناصية هامة، تدلّ على أنّ النقد العربي قد سبق إليها. ويبتغي الباحث من خلال هذه الإشارات خدمة الجهود التي تحاول تطوير مفهوم التناص، لوجود تداخل بينها، ومنها السرقات الأدبية.

جذور التناص ومستوياته وعلاقته بالسرقات الأدبية:

نصل انطلاقا ممّا سبق إلى وجود جذور للتناص، وبروز صلة بينه وبين السرقات الأدبية، وهذا ما تحدّث عنه الباحث عبد القادر بقشي؛ حيث حصر وجود ثلاث مستويات للتناص في الخطاب النقدي والبلاغي العربي، فبدأها بالتناص الدوني، ويعني " أنّ النصّ اللاحق عجز عن التفاعل بشكل إيجابي مع نموذج الفني فقصر عن مساواته ومسايرته، واكتفى بإعادة إنتاج مكوناته الفنيّة أسلوبا ولغة ووزنا"³، ويقول ابن رشيق القيرواني بأنّه لا يخفى على الجاهل المغفل، ويدخل في إطاره الانتحال، والإغارة والسرقة المذمومة.

بالإضافة إلى التناص بالتمائل، وفي هذا المستوى " يتمكّن النصّ اللاحق من مسايرة النصّ السابق، ومساواته في إخراج المعنى"⁴، ويقابله بمماثلة السارق والمسروق منه في كلامه، ثمّ التناص بالاختلاف: " وفيه يعمد الشاعرا المتأخّر إلى توظيف أحد المكونات الفنيّة لنموذجه الفني توظيفا إبداعيا بواسطة الزيادة في إخراج المعنى، أو النقل أو القلب، أو الحل والعقد، وما شاكل ذلك"⁵، وأكّد في هذا المستوى عبد القادر بقشي على حرص النقاد العرب القدامى على توجيه الشعراء إلى ضرورة الابتعاد عن السرقة على غرار ما فعله القاضي الجرجاني، وعبد القاهر الجرجاني، وبذلك ينصرف عن مذمة السرقة، ويتوجّه إلى الخلق والإبداع المتجدّد والمتفرّد.

ونخلص إلى نتيجة مفادها أنّ الرؤية النقدية العربية القديمة عالجت قضية التناص من خلال فكرة تفاعل النصوص في إشاراتهم إلى السرقات الأدبية، وضروب الأخذ المختلفة، وعلى الرغم من ذلك يرى بعض الباحثين " أنّه من مجانية الوعي التاريخي، ومنطق التاريخ أن تقع الموازنة بين نشأة وتطور دراسة السرقات الأدبية في العصر العباسي، وبين نظرية التناص التي هي وليدة القرن العشرين؛ لأنّ مفهوم السرقات استمرّ جماليا وأدبيا وأخلاقيا بناء على محدّداته، وأمّا نظرية التناص فهي أدبية، وفلسفية يهدف الجانب الفلسفي منها إلى نسف بعض المبادئ التي قامت عليها العقلانية الأوروبية الحديثة والمعاصرة"⁶.

¹ صبري حافظ، أفق الخطاب النقدي، مرجع سابق، ص: 62.

² للمزيد ينظر المرجع نفسه، ص: 62، 63، 64.

³ عبد القادر بقشي، التناص في الخطاب النقدي، مرجع سابق، ص: 41.

⁴ المرجع نفسه، ص: 42.

⁵ المرجع نفسه، ص: 42.

⁶ المرجع نفسه، ص: 49.

وهذه الفروقات لا تنكر علينا رغبتنا في الوقوف عند جذور مصطلح التناص في المدونة النقدية العربية التراثية، ونحن لا نقول بميلاده فيها، وإنما بإرهاصاته بشكل أو بآخر في التربة النقدية القديمة، " فالسرققات من خلال مدخلها الجمالي والدلالي تعدّ ضمن الحالات التي يتضمّنها هذا المصطلح الحديث فهو أعم، وهي أخصّ، وهو لغوي أدبي وهي حكم خارجي على بناء يتسم بالنشاط الخيالي، وهو صفة ملازمة لهذا البناء الخيالي الذي يتجاوز فيه الحاضر مع الماضي، وهي تعتمد على المشابهة أمّا هو فيعتمد على التّضاد¹، ومع كلّ هذا نجد من النقاد العرب القدماء الذين تناولوا مسألة السرققات الأدبية بشكل مفصّل ابن رشيق القيرواني في كتابه العمدة.

قراءة في كتاب العمدة لابن رشيق القيرواني:

ألّف هذا الكتاب في القرن الخامس الهجري، وجاء بعنوان: العمدة في صناعة الشّعر ونقده، وقد عالج فيه ابن رشيق القيرواني عديد القضايا التي لها صلة بالشّعر ونظمه، والنسخة التي بين يدينا مكوّنة من جزأين، صادرة عن دار الجيل، عالج الجزء الأوّل فضل الشّعر، وفيه باب في الردّ على من يكره الشّعر، ثمّ باب احتماء القبائل بشعرائها، وباب تعرّض الشّعراء، وباب المشاهير من الشّعراء وغير ذلك.

وعند تفحصّ الجزء الثّاني يترأى لنا معالجة قضايا نقدية كثيرة جداً، منها السرققات الأدبية؛ حيث توسّع ابن رشيق في هذا الموضوع وتكلّم في السرققات بدء بكيف تكون السّرقعة، ووصولاً إلى ما يعدّ سرقا وليس بسرقة.

وما شدّ انتباهنا أكثر في هذا الموضوع هو أنواع السّرقعة؛ التي جعلها بعض الباحثين ضمن مستوى من مستويات التناص، كالانتحال والإغارة، وما إلى ذلك²، وعند استقراء ثنايا الكتاب يتجلى لنا المدى العميق الذي بلغه تحليل ابن رشيق القيرواني لقضية السرققات الأدبية، حيث قال عنها " وهذا باب متّسع جدّاً لا يقدر أحد من الشّعراء أن يدعي السّلامة منه، وفيه أشياء غامضة إلاّ عن البصير الحاذق بالصّناعة، وأخر فاضحة لا تخفى على الجاهل المغفّل"³، وسعى في هذا الصّدّد إلى توسيع الحديث عن هذا الموضوع من خلال الإشارة إلى آراء السابقين من النقاد الذين تناولوا بدورهم موضوع السرققات الأدبية.

خاتمة:

إنّ المتعمّن بعين البصيرة في موضوع التناص يلاحظ وجود جذور له في المدونة النقدية العربية التراثية، وصلتها بالسرققات الأدبية، وهذا ما لمحناه من خلال هذه الورقة البحثية؛ حيث وقفنا عند وجود تماس بين السرققات من ناحية، والتناص من ناحية أخرى، وكأنّ السرققات الأدبية ومثيلاتها من القضايا النقدية القديمة إرهاصات تمهيدية لمصطلح التناص.

رغم وجود فروقات جوهرية بينهما " على مستوى المنهج تعتمد السّرقعة المنهج التاريخي التّأثري والسّبق الرّمزي، فاللاحق هو السّارق والأصل الأوّل هو المبدع، والتّمودج الأجود بينما يعتمد التناص على المنهج الوظيفي، ولا يهتمّ كثيراً بالنّص الغائب، ثانياً على مستوى القيمة؛ فنقاد السّرقعة الأدبية إنّما يسعي لاستنكار عمل السّارق، وإدانته في حين أنّ ناقد التناص يقصد إظهار البعد الإبداعي في الإنتاج، ثالثاً على مستوى القصدية؛ ففي السّرقعة تكون العملية قصديّة واعية، بينما

¹ عبد القادر بيشي، التناص في الخطاب النّقدية، مرجع سابق، ص: 50.

² ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده، حققه محمد معي الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، ط5، سوريا، 1981، ص: 280 وما بعدها.

³ المرجع نفسه، ص: 280.

في التناص تكون لا واعية"¹، ومع كل هذه الاختلافات إلا أننا أردنا تتبع جذرية التناص في التراث النقدي العربي وصلته بالسرققات الأدبية، وهذا الذي رأينا له وجوداً من خلال التقاط التي تطرقنا إليها.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1/ صبري حافظ، أفق الخطاب النقدي، دراسات نظرية وقرارات تطبيقية، دار شرقيات للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 1996.
- 2/ عبد القادر بقشي، التناص في الخطاب النقدي والبلاغي، دراسة نظرية وتطبيقية، إفريقيا للنشر، (دط)، المغرب، 2006.
- 3/ أحمد الشايب، أصول النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصرية، ط10، مصر، 1994.
- 4/ هند حسين طه، النظرية النقدية عند العرب، دار الرشيد للنشر، (دط)، (دت).
- 5/ محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، (دط)، مصر، 1996.
- 6/ عبد العزيز عتيق، في النقد الأدبي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، (دط)، بيروت، لبنان، 1972.
- 7/ نظمي عبد البديع محمد، في النقد الأدبي، جامعة الأزهر، (دط)، الإسكندرية، مصر، 1987.
- 8/ عبد المطلب محمد، قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني، الشركة المصرية العالمية للنشر لونغمان، ط1، مصر، 1995.
- 9/ ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده، حققه محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، ط5، سوريا، 1981.

¹ عبد القادر بقشي، التناص في الخطاب النقدي، مرجع سابق، ص: 49، 50.

آليات الترابط (التماسك) النحوي النصي عند النحويين

(مؤلفات ابن هشام أنموذجا)

د. عبد العالي موساوي

المدرسة العليا بوزريعة، الجزائر.

ملخص:

إنّ الترابط النحوي للنص من الاتجاهات الحديثة في دراسة النصوص اللغوية، الذي تبلورت ماهيته وأسسها على يد هاليداي ورقية حسن وغيرهما، لكن قبل ذلك ظهرت عناية النحاة العرب بعناصر الترابط في النص القرآني من خلال شيوع مفاهيمه ووسائله في الدرس النحوي العربي منذ وقت مبكر، كمفهوم الجملة والكلام، والتأليف والتركيب، كما تتعدّد وسائل الترابط في الجملة وتتنوّع من وسائل معنويّة؛ وأخرى لفظيّة بيّن عناصرها الإسناديّة وغير الإسناديّة. وعلى ضوء هذه المفاهيم درس النحاة بنية النص (الخطاب) القرآني على أنّها بنية مقصودة متماسكة وغير مستقلة عن السياق، حيث بحثوا بكلّ دقّة على اتّصال الكلام أوّله بآخره، وعلاقات الألفاظ بعضها ببعض.

الكلمات المفتاحيّة: الترابط النحوي، النص، التماسك.

Abstract :

The grammatical interdependence of the text is one of the modern trends in the study of linguistic texts, which have been crystallized by Hailiday and others, as well as the grammarians' attention to its elements in the Qur'anic text through its widespread concepts and methods in the early grammar lesson, In addition to these concepts, the grammarians studied the structure of the Qur'anic text as a coherent, non-contextual intentional structure. Look carefully at the communication of speech first to the other, and the relationship of words to each other.

key words:

Grammar Interrelation. Text. Cohesion.

مقدّمة:

إنّ الرّبط أو الترابط عند جمهور النحاة قد عُرف في دلالاته علة ما يُعلّق آخر الكلام بأوله، وذلك مبثوث في مصنفاتهم فلا تجد كتابا نحويّاً إلا وتعرّض لروابط الجملة سواءً أكانت اسميّة أم حالية أو غيرهما، لذا كان الضمير عندهم من أهمّ الروابط النحويّة. ف"إنّه الأصل في الرّبط".

ومن النحاة الذين أسسوا لفكرة الترابط النحويّ: ابن هشام الأنصاريّ (761هـ) وذلك من خلال شيوع مصطلحات دالة في ثنايا مؤلفاته؛ حيث أسهم رحمه الله ببحوثه في التأسيس لنظريّة نحويّة نصيّة عربيّة، تمثّلت في عنايته بمظاهر الترابط النحويّ في الخطاب القرآنيّ (احتوى "مغني اللبيب" ما يقرب من ألف وتسعمائة وثمانين، ما بين آية أو جزء من آية)؛ فهو أوّل من حدّد أنظمة الرّبط في الجملة القرآنيّة، ودرس علاقاتها، ومواضع الارتباط فيها، هذه الأنظمة أكثرها قد اعتمدها علماء النصّ المعاصرون.

والورقة التي بين أيدينا تحاول التوثيق لهذه الأسس من خلال أكثر مدونات التحوشرة: مؤلفات ابن هشام الأنصاري، كما تكشف عن وظيفة هذا الاتجاه داخل تحليل النصوص، وكيفية تحليله للجمل والآيات، ومحاولة لفت نظر الباحثين إلى كيفية استثماره في أبحاثهم اللغوية من خلال طرح إشكالات والإجابة عليها:

1- ما علاقة الترابط النحوي بنحو النص الحديث، وما فعله التحاة القدماء في تحليلاتهم للنصوص؟ وما

أهداف البحث فيه؟

2- كيف تناول ابن هشام هذا المعيار النصي في مؤلفاته؟ وما دوره البارز في وضع أسس للتحليل النصي؟

وتكمن أهمية الدراسة في كونها تجاوزت الجملة إطاراً نهائياً للتحليل، وجعلت من المتلقي شريكاً أساساً لا ينبغي تجاهل دوره في تلقي النص وإدراكه، كما أنها لم تكن آراء نظرية بعيدة عن روح النص العربي؛ بل أتبعته النظرية بالتطبيق على أفصح وأقدس نص تفتخر به العربية (القرآن الكريم). لذا سنتطرق لدلالة المفهومية للترابط النحوي ونستقصي استعمالات ابن هشام لهذا المعيار دخل مؤلفاته: كالمغني والشذور والقطر... كما سنستعمل المخططات لإيضاح تداخل آليات الربط في الخطاب القرآني. مستعيناً بالله ثم مراجع الأصليّة لابن هشام ومقاييس اللغة وكتب التفاسير والاستئناس ببعض المراجع الأجنبية.

1- إنسجام النص القرآني وتماسك بنيانه:

عندما نتحدث عن الانسجام والتماسك في النص، فإنما نتحدث عن معيارين رئيسين من معايير بناء النص أو ما يسمى بلسانيات النص أو النصية، هما:

فالتماسك أو الربط (Coherence) يُعنى بخصائص الربط النحوي بين الجمل والعبارات لتأليف بنية نصية متماسكة

مترابطة. ويعتمد الربط النحوي على:

الإحالة (داخلية وخارجية) والتكرار (باللفظ والجملة والمعنى) و حروف العطف و الفصل والوصل

أو بمعنى آخره: "الترابط الوصفي القائم على النحو في البنية السطحية، والتشكيل النحوي للجمل، وهو ما يُطلق عليه بالمقاربة النحوية التي تُعنى بإعطاء القواعد للتعبيرات المكوّنة للنص"¹.

أما الإنسجام (Cohesion) فيدخل فيه الترابط الموضوعي للنص، الذي يجعل منه وحدة دلالية، ومن مظاهره أيضاً اشتغال النص على سيروية واستمرارية وتطور واتجاه نحو غاية محددة تضمّن له التدرج والانتقال وتنفي عليه الانتقال غير المسوّغ، ووجود مثل هذه العلاقات المعنوية داخل النص يُيسّر فهمه فهماً منطقيّاً²

لذا فاختيار الألفاظ يجب أن يكون بطريقة محكمة الصنعة جيدة السبك، ذات معنى ودلالة؛ حتى تدخل هذا الاختيار ضمن ميدان التعبير الأسنى البليغ، لذلك فإن أسلوبية الألفاظ "ليست ميدان التعبير بالجملة، وإن كانت هذه من وحدات تكوينها، ولكنها ميدان التعبير بالخلق أو الخرق أو الخروج عن المؤلف، نحواً وتركيباً، دلالةً ومنطقاً"³. وهو ما يميّز

¹ -ناصر إبراهيم صالح النعيمي، جذور نحو النص في التراث النحوي، (الكتاب أنموذجاً)، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، المجلد:17، لعدد:07،2010، ص:239.

² - براون ويول، تحليل الخطاب، تر: محمد لطف الزليطي، منشورات جامعة الملك سعود، (د.ط.)، الرياض، ط:1997، ص:234.

³ - منذر عياشي، مقالات في الأسلوبية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، (د.ط.)، دمشق، 1990، ص:108، محمد الأخضر الصبيحي، مدخل إلى علم النصوص ومجالات تطبيقه، منشورات الاختلاف، (ط:01)، بيروت، 2008، ص:82.

النص القرآني الذي "بلغ من ترابط أجزائه، وتماسك كلماته وجمله وآياته وسوره مبلغاً لا يدانيه فيه أيّ كلام آخر، مع طول نفسه، وتنوع مقاصده، وافتنانه وتلوينه في الموضوع الواحد"¹ و الناظر في النص القرآني يتجلى له على وجه العموم مسألتان:

1- دقة النظم القرآني، ورسانة ألفاظه، وسعة معانيه، وحسن سبكه، هذه وغيرها من مميزات النص القرآني، التي تعطي الدلالة القاطعة والواضحة على روعة بيانه وسمو إعجازه، ولا غرابة في ذلك؛ لأنه تنزيل حكيم حميد.

2- علاقة المطلع بالمضمون فالخاتمة، ومدى ملائمة بعضها بعضاً، وهذا هو قمة الإعجاز في اختيار الخاتمة التي تلائم السياق: "لأن القرآن كله كالسورة الواحدة"².

وعموماً فالترابط النصي: "مجموعة من المترابطة الأساسية المعتمدة في النص التي لا غنى عنها البتة والمتمثلة في: المترابط النحوي، والمترابط الدلالي، والمترابط التداولي، وإلا فلا"³. ولبيان ما يتسم به النص القرآني من تماسك وأنسجام فقد تم اختيار جهود وتراث عالم جليل هو: ابن هشام الأنصاري

• ابن هشام الأنصاري (ت 761هـ)، الذي جعل القرآن المصدر الأول لبناء القواعد . وتصحيح الأساليب ، فتعرض للآيات القرآنية، وجعلها محور إعراب، وميدان تدريب ومجال تأويل وتخرّج"⁴

فقد احتوى مغني اللبيب على ما يقرب من ألف وتسعمائة وثمانين ، ما بين آية أو جزء من آية ، بينما لم يستعمل فيه من الشواهد الشعرية إلا تسعمائة وتسعة وأربعين بيتاً أو شطر بيت⁵ ، وليس الأمر ببعيد في شذور الذهب، بل إن كتابه المغني متوجه توجّها نصياً لما سبق ذكره ومن حيث الغاية والتطبيق، فقد ذكر في المقدمة أن غرضه من كتابه تيسير علم الإعراب بعد أن أصبحت الكتب الموضوعية فيه مكررة مليئة بالحشو، وليس فيها الأصول العامة والقوانين الكلية التي تضبط الفهم وتذلل الصعب، وكذلك خدمة للقرآن الكريم، والحديث الشريف. وبالإضافة إلى أن نصف الكتاب تقريباً خصص للحديث عن حروف المعاني وهي ذات فاعلية كبيرة في الربط وبناء الجمل وتتابعها، نجد الأبواب الآتية من أهم مسائل الكتاب التي تنصب على التنظير لنحو الجملة الموجه للتطبيق، وتجاوز في كثير من الموضوعات حدود الجملة الواحدة:

الباب الثاني:

هو في تفسير الجملة وذكر أقسامها وأحكامها، ومنذ لك الجمل التي ليس لها محل من الإعراب وهي سبع، والجمل التي لها محل من الإعراب وهي تسع⁶، عددها وفصل أحوالها ومثل لها وأبان مُشكّلها.

الباب الرابع:

¹ - مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، (ط3)، القاهرة، 1372 هـ .، 211/2-212.

² - جمال الدين بن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تخ: د.مازن المبارك ومحمد علي حمد الله ، دار الفكر، (ط: 06)، بيروت، 1985، ص: 328-329 وابن منظور الإفريقي لسان العرب، دار صادر، (دط)، بيروت، (دت)، 364/15.

³ - جنود نحو النص، ص: 241.

⁴ - عبد العال سالم مكرم ، القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية، دار المعارف، (دط)، مصر (دت)، ص: 202.

⁵ - محمد سمير نجيب، أثر القرآن والقراءات في النحو العربي، دار الكتب الثقافية، (ط: 1)، الكويت ، 1978، ص: 144.

⁶ - مغيبي، اللبيب، ص: 500، وما بعدها فصل في حدوث تلك الجمل وشروطها.

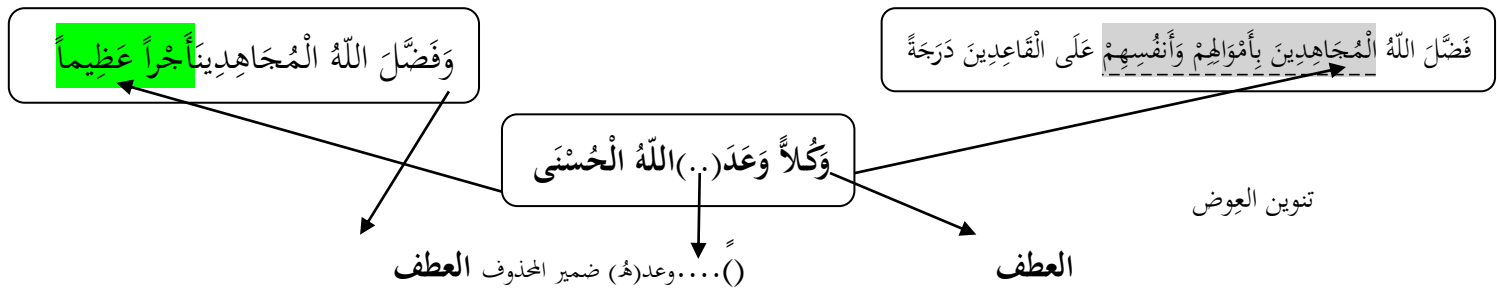
هو في ذكر أحكام يكثر دورها، مثلما يعرف به المبتدأ والخبر، وما يفترق فيه عطف البيان والبدل، والحال والتمييز، وتفصيلاً لروابط منجّهتين: روابط الجملة بما هي خير عنه وهي عشرة، والأشياء التي تحتاج إلى رابط وهي أحد عشر شيئاً¹. ناقض أقوال الأكثرين ويبن أوجه الصواب في نظره مستنداً بأدلته الماتعة.

2- كيفية توظيف ابن هشام للترابط النحوي في تحليل الخطاب القرآني

أ- الضمير:

2 الضمير وهو الأصل في الربط (مذكورا ومحدوفا) ← روابط الجملة بما هي خير عنه

قال تعالى: {لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا} (النساء/95) قرأ بنصب كل كالجماعة لأنه قبله: جملة فعلية (فضل الله المجاهدين) فيساوي بين الجملتين في الفعلية بل بين الجمل لأن بعده (وفضل الله المجاهدين)



جملة فعلية ← جملة فعلية ← جملة فعلية ساوية بين الجملتين في الفعلية بل بين الجمل
تناسب
يكون نصا

"لأنّ تناسب الجملتين المتعاطفتين أولى من تخالفهما"³

- في الأول حقق مسألة الربط بالضمير المحذوف .
- انتقل إلى أداة الربط العطف (عطف الجمل)، واشترط التناسب أو ما نسميه المناسبة؛ أي: جمل- جزء من آية- فعلية متتابعة ومتماسكة ومتماسكة.
- تنوين العوض العائد على المجاهدين.

¹ نفس المصدر:ص:647. وما بعدها، فقد شرح الروابط ومثل لها.

² نفس المصدر:ص:647-648.

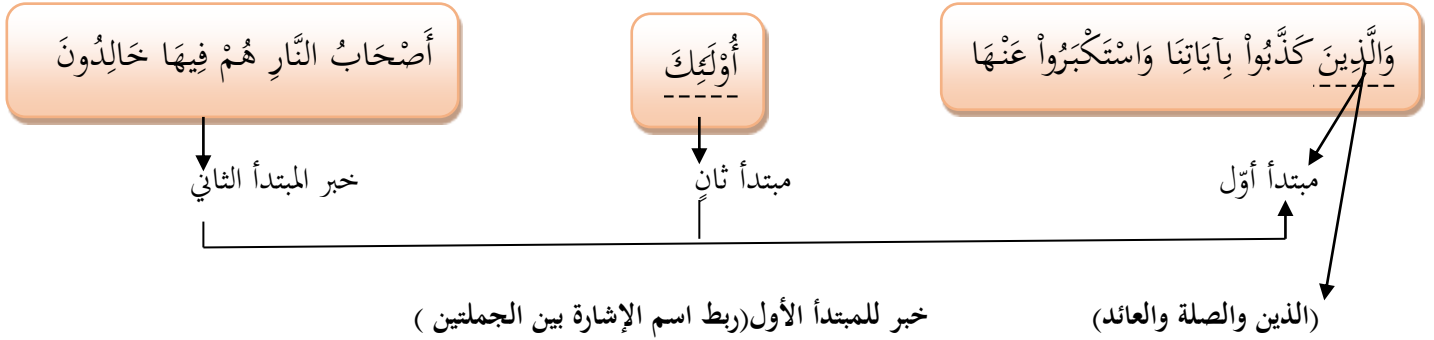
³ نفس المصدر:631.

- الحُسنى فسرت في فاصلة الآية الثالثة.

ب- اسم الإشارة:¹

اسم الإشارة يكون رابطاً — للجملة الخبرية للمبتدأ

{وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (الأعراف/36)



- الرّبط في الآية يبدأ بمطلعها وصولاً للضمائر المتصلة واسم الإشارة (هُم) و(هنا) و واو الجمع المذكور التي تشير إلى من وصفوا في بدء الآية.

ج- حروف العطف (الواو):

الرّبط بالواو يقوم على "الجمع بين جملة سابقة وأخرى تلحقها ، فيفيد مجرد الترتيب في الذكر"² ، وربما يُلجأ إلى الرّبط بواو العطف من أجل الإيجاز، وأمن اللبس في فهم علاقة الارتباط بين الجمل المتتابعة، وللدلالة على معنى التّشريك، وعلّمتكون (الواو) لمطلق الجمع، "إذ لا يقتضي ترتيباً ولا عكسه، ولا معيّة، بل هي صالحة بوصفها لذلك كله"³، فمثال استعمالها في مقام الترتيب قوله تعالى ((وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ)) (النساء/163). فالترتيب زمنيّ وذلك محقق بإرسالهم ودعوتهم أقوامهم عليهم السّلام

إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ الْأَسْبَاطِ...

كما أجاز حذفها والمعنى يبقى على حاله فقال: " تختصّ الواو بجواز عطفها عاملاً قد حذف وبقي معموله:

3- مرفوعاً : نحو ((أُسْكُنْ أَنْتَ وَرَوْحُكَ الْجَنَّةَ)) أي : وُلَيْسَ كُنْ رَوْحُكَ

4- منصوباً : نحو ((وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ)) أي : وَالْقَوْمَ الْإِيمَانَ

¹ - مغني اللبيب، 674.

² - الأزهري الزّناد نيسيج النّصر (بجث في ما به يكون الملفوظ نصياً)، المركز الثقافي العربي، ط: 01، بيروت، لبنان: 1993، ص: 37.

³ - ابن هشام الأنصاري، شرح شيثور، النّهب في معرفة كلام العرب، محمد محي الدين عبد الحميد، دار الطلائع للنشر والتّوزيع، (دط)، القاهرة، (دت): 446. كما قسّم الواو إلى (المعيّة والحال والاستئناف...)

5- مجروراً : نحو (مَا كُلُّ سَوْدَاءٍ تَمْرَةً وَلَا بَيْضَاءٍ شَحْمَةً) ← أي : ولا كلّ بيضاء¹

كذلك ما يذكر في دلالتها على المغايرة وأن الذي قبلها غير الذي بعدها ,قوله تعالى ((ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين)) (القصص /14). جاء في تفسيرهاته الآية قول "قتادة : { ولما بلغ أشده } قال : ثلاثا وثلاثين سنة قوله : { واستوى } قال : بلغ أربعين سنة"². فالأصل العامّ هو الجمع وللتفريق جعل الأشدّ لسنّ قبل الاستواء , فلا استواء ولا اكتمال للعقل إلا بأن يكون شديد والأول جسمانيّ وثاني رجاحة العقل واتّزانه.

لذا فقد اختار الله عزّ وجلّ لأهل الجنان أعمار "ثلاثٍ وثلاثين" لحكمة الاكتمال الجسدي والقوّة العضلية. فقد قال عليه السّلام: " ما من أحد يموت سقطا ولا هرما وإنما الناس فيما بين ذلك إلا بعث إين ثلاثٍ ثلاثين سنة فإن كان من أهل الجنة كان على نسخة آدم وصورة يوسف وقلب أيوب ومن كان من أهل النار عظموا أو فخموا كالجبال"³
د- التكرار: فقد قسّم التكرار إلى قسمين أحدها:

1- إعادة المبتدأ بلفظه وأكثر وقوع ذلك في مقام التهويل والتفخيم نحو قوله تعالى: ((إِجَاقِيَّةٌ مَا إِجَاقِيَّةٌ)) ((وَأَصْجَابِ الْيَمِينِ مَا أَصْجَابِ الْيَمِينِ)) . ويمثّل لذلك في موضع آخر بقوله تعالى: "لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذا يختصمون" و"إنما حسن تكرر لدى في (وما كنت لديهم)"⁴ لتباعد ما بينهما ولا تصلح لدن هنا لأنه ليس محل ابتداء.

2- إعادته بمعناه نحو زيد جاءني أبو عبد الله إذا كان أبو عبد الله كنية له أجازة أبو الحسن مستدلا بنحو قوله تعالى (والذين يمسّكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين) وأجيب بمنع كون الذين مبتدأ بل مجرور بالعطف على (الذين يتقون) ولئن سلم فالرابط العموم لأن المصلحين أعم من المذكورين⁵.

هـ - التعلّق:

القصيد به: "التعلّق المعنوي"⁶, وهو يخصّ شبه الجملة (الجار والمجرور والظرف). حيث يشترط ابن هشام "تعلّقها بالفعل أو ما يشبه الفعل أو ما أوّل بما يشبهه. أو يُشير إلى معناه , فإن لم يكن شيء من هذه الأربعة موجودا قدر"⁷ ثم أسهب في توضيحه وشرحه المذكورا ومقدّرا.

قال تعالى: "قوله تعالى (فلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيُ) (الصافات/102) فالمتبادر للذهن تعلق مع ب: "بلغ" لكتّها" متعلقة بمحذوف: فلما بلغ الحد الذي يقدر فيه على السعي "⁸.

¹ - ابن هشام, أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك, دار الجيل, ط: 05, بيروت, 3/1979/397.

² - عبد الرزاق الصنعاني, تفسير القرآن, مكتبة الرشد, ط: 01, الرياض, 3/1410/88.

³ - محمد ناصر الدين الألباني, السبيل إلى الصيحية, مكتبة المعارف, (د, ط), الرياض, (د, ت), 6/43.

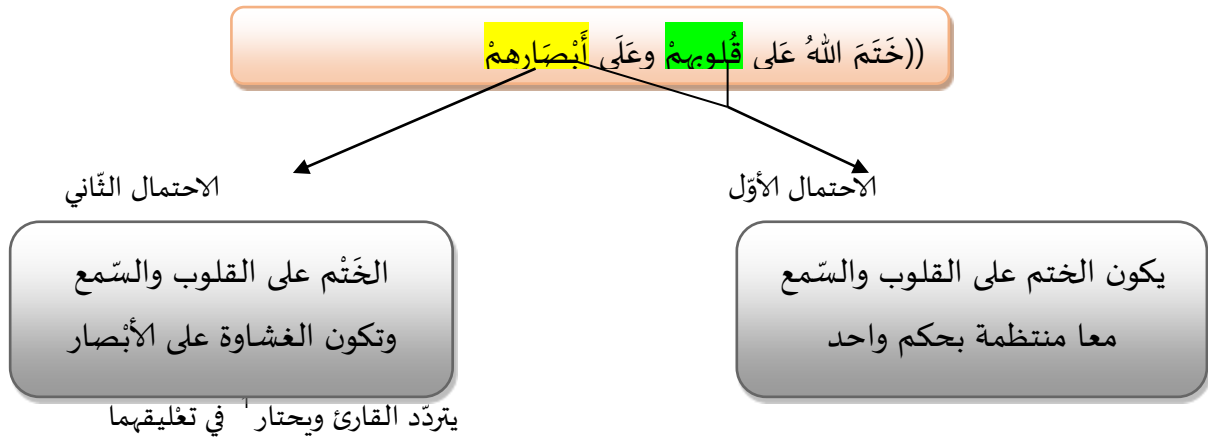
⁴ - مغيبي البليبي, ص: 208, ابن هشام الأنصاري, قطر الندى وبل الصدى, دار الخير, (ط: 01), دمشق, 1990, ص: 176.

⁵ - نفس المصدر, ص: 650.

⁶ - نفس المصدر, ص: 575.

⁷ - نفس المصدر, ص: 566.

⁸ - نفس المصدر, نفس الصفحة (بتصرف).



فهذا اللبس والاشتباه سببه عدم تحديد المتعلق به ، لأنّه وكما سبق يوجد رابط معنوي بين المتعلق والمتعلق به، لذا يمكن تفريقه بجمع القرائن وسياق الحال والمقال. وذلك متأب من مقولة السابقين أنّ القرآن كالسورة الواحدة والقرآن يفسر بعضه بعضاً، أو يفسر بالسنة والمأثور من أقوال العلماء المحقّقين.

3- تأثير نحو ابن هشام فمن بعده:

لا يخفى علي ذي لبّ المكانة التي افتكها الأنصاريّ ممّن قبله من النّحاة ، يظهر ذلك جلياً في تأليفه كتب النّحو متسلسلة بدءاً بالمبتدئ (قواعد الإعراب ، ثمّ القطر فالشّدور) وصولاً للمنتهي المتخصّص: المغني . وقبله أسئلة وأجوبة في إعراب القرآن). إنّ مدوّناته النّحويّة لتدعو السابقين ممّا واللاحقين من الدّارسين إلى التنقيب عن كلّ ما خلفه هذا الإمام الهمام وما أنتجه من اجتهادات ومستجدّات قد طرفها لم تُفتح عمّن قبله، لذا نجد الكثير قد تأثر بفكره وما ذهب إليه . كونه دالّ لمسائله بآيات الذكر الحديث والحديث الشّريف وكلام العرب وأمثلة العرب . من ذلك المفسّرون في مصنّفاتهم وترجيحهم للأقوال إذا التبس المعنى من ذلك:

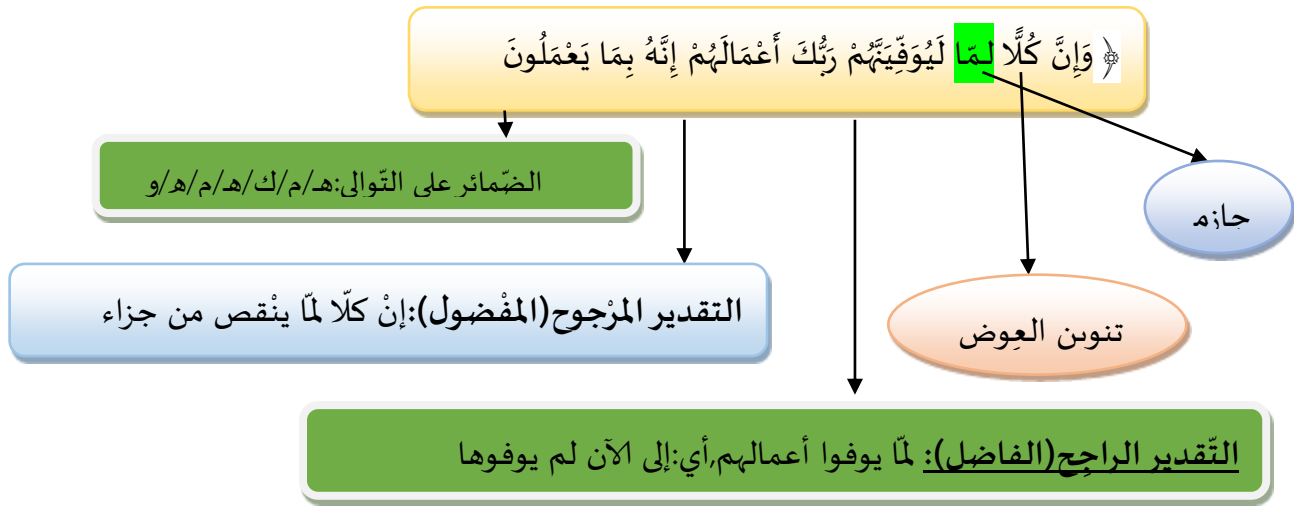
• ففي قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لِيُوفِيَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾. (هود/111)

يورد الألوسيّ ترجيحه لـ"لما" بأنّها جازمة حذف فعلها المجزوم لدلالة المعنى عليه، والتقدير: "إنّ كلّاً لما ينقص من جزاء عمّله"²، ثمّ ما لبث أن اعترض على هذا التّوجيه أي التّقدير، ويرجّح ما ذهب إليه ابن هشام ، فقدّر: "لما يوفوا أعمالهم، أي: إلى الآن لم يوفوها وسيوفونها"³. التّقدير الأوّل لابن الحاجب وأبوحيّان التّوحيدي هما منّ هما في جلاله القدر والإمامة، لكنّ توجيه ابن هشام كان أقرب لوضوح المعنى والقصد في نظر الألوسي، فكان المختار.

¹ - بدر الدين الزركشي، الرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، (دط)، بيروت، لبنان، 1391، 179/2.

² - شكري الألوسي ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، (دط)، بيروت، لبنان، (دت)، 150/12.

³ - مغني اللبيب، ص: 371.



خاتمة: بأهمّ النتائج التي توصلنا إليها من خلال الدّراسة الموجزة:

ممّا تقدّم يجعلنا نؤكد أنّ ما قام به ابن هشام خاصّة من جهود عميقة للنصّ القرآني، ودراساته الواسعة في إعجازه، تدلّ على مدى تعمّقه في فهم كلام النّحاة السّابقين؛ فضلاً عن كلام العرب، وحسن عرضة لأقوالهم ومناقشة ذلك بكلّ دقّة وتفانٍ في فهمها ثم التّرجيح أو إبراز آرائه الاجتهادية التي انفرد بها، ومبثوثة في كتبه وكتب التّفسير وغيرها.

الأمر الذي يجزم كلّ الجزم أنّه على دراية تامّة بمسألة التّرابط التّخوي الذي يميز به التّظلم القرآني، وعلى إدراك تامّ بآلياته وأغراضه ووجوه تأويله، من خلال دراساته المستفيضة للخطاب وأسرار ترابطه. وعليه فلا مجال للشكّ أنّ هذا المعيار النّصيّ علم قديم في أصوله جديد في أسلوبه، بل هو الامتداد الطبيعي لعلم التّحوي. كما كان اللغويّون العرب القدماء على وعي بأصوله وانطلاقاته وغاياته. إلّا أنّهم لم يضعوا هذه المسائل في ضمن إطار نظرية نحوية نصّية؛ ولم يؤسسوا أو ينظروا لذلك، كالنّظير الذي وجدناه عند اللّسانيين المحدثين بعد قرون متعددة.

المصادر والمراجع:

- 1- الأزهر الزّناد، نسيح النصّ (بحث في ما به يكون الملفوظ نصّاً)، المركز الثقافي العربي، ط: 01، بيروت، لبنان: 1993.
- 2- بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، (د.ط.)، بيروت، لبنان، 1391.
- 3- براون ويول، تحليل الخطاب، تر: محمد لطفيّ الزليطي، منشورات جامعة الملك سعود، (د.ط.)، الرياض، ط: 1997.
- 4- شكري الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، (د.ط.)، بيروت، لبنان، (د.ت).
- 5- عبد الرزاق الصنعاني، تفسير القرآن، مكتبة الرشد، ط: 01، الرياض، 1410.
- 6- عبد العال سالم مكرم، القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحويّة، دار المعارف، (د.ط.)، مصر، (د.ت).
- 7- محمد الأخضر الصّبيحي، مدخل إلى علم النّص ومجالات تطبيقه، منشورات الاختلاف، (ط: 01)، بيروت، 2008.

- 9 محمد سمير نجيب، أثر القرآن والقراءات في النحو العربي، دار الكتب الثقافية، (ط:1) ، الكويت ، 1978.
- 10 محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه. (ط3)، القاهرة، ، 1372هـ ،
- 11 - محمد ناصر الدين الألباني، السلسلة الصحيحة، مكتبة المعارف، (د،ط)، الرياض، (د،ت).
- 12 منذر عياشي، مقالات في الأسلوبية، منشورات اتحاد الكتاب العرب. (د.ط)، دمشق، 1990.
- 13 ابن منظور الإفريقي، لسان العرب، دار صادر، (د،ط)، بيروت، (د،ت).
- 14 ناصر إبراهيم صالح النعيمي، جذور نحو النص في التراث النحوي، (الكتاب أنموذجا)، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، المجلد:17، العدد:07، 2010.
- 15 ابن هشام الأنصاري، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، دار الجيل، ط:05، بيروت، 1979 .
- شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، محمد محيي الدين عبد الحميد. دار الطلائع للنشر والتوزيع، (د،ط)، القاهرة، (د،ت).
 - مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تح: د.مازن المبارك ومحمد علي حمد الله ، دار الفكر، (ط: 06)، بيروت ، 1985،
 - قطر الندى وبل الصدى، دار الخير، (ط:01)، دمشق، 1990.

الانسجام النصي

بين التراث العربي والدرس الغربي الحديث

د. غنية لوصيف

جامعة البويرة، الجزائر.

ملخص:

تسعى هذه المداخلة للبحث عن موضوع "الانسجام النصي" الذي يعتبر من أهم المسائل التي تطرحها لسانيات النص التي أخذت على عاتقها تجاوز مستوى الجملة التي توقفت عندها التحليل اللساني زمنا طويلا والانتقال إلى فضاء أرحب وأوسع هو الفضاء النصي، وذلك بالتنقيب في التراث العربي ومقارنته بما جاء في الدرس الغربي الحديث.

كما تهدف هذه المداخلة للإجابة عن الأسئلة الآتية:

- أين يظهر "الانسجام النصي" في المدونات التراثية العربية: البلاغية من خلال كتاب "دلائل الإعجاز في علم المعاني"، النقدية في كتاب "متهاج البلغاء وسراج الأدباء"، الدينية من خلال كتاب "البرهان في علوم القرآن"؟.
 - كيف تناول الدرس الغربي الحديث قضية "الانسجام النصي"؟.
 - ما العلاقة بين الانسجام النصي الذي احتل مركزا مهما في الدرس الغربي الحديث وبين ما وجد في تراثنا العربي؟.
- الكلمات المفتاحية:

الانسجام النصي، التراث البلاغي، التراث النقدي، التراث الديني، الدرس الغربي.

Abstract :

This paper strove to find the subject of "textual harmony", which is one of the most important issues deals with the linguistics of the text, which took upon itself to exceed the level of sentence, which stopped linguistic analysis for a long time and move to a wider space is the text, space by exploring the Arab heritage and compare it with what came in the modern western lesson.

The aim of this paper is to answer the following questions:

- Where is the "textual harmony" in the Arabic heritage blogs: rhetorical through the book "Signs of Miracles in semantics", criticism in the book "The approach of eloquent men and the light of the literary" and religious through the book "Proof in the Sciences of the Koran" ?.

How did the modern western lesson deal with the issue of "textual harmony"?

- What is the relationship between textual harmony, which occupied an important position in the modern western lesson and what was found in our Arab heritage?

Keywords:

Scriptural harmony, rhetorical heritage, critical heritage, religious heritage, western lesson.

توطئة:

عرفت السنوات القليلة الماضية محاولات كثيرة للكشف عن حقيقة النص لأجل الإحاطة به ولإيجاد نظرية قابلة للتطبيق على مستوى ما فوق الجملة، فالباحث في علم اللغة الحديث يجد مدارس مختلفة قد عجزت عن إيجاد نظرية تستطيع أن تبحث فيما فوق الجملة، حيث اكتفت بدراسة الجملة اللغوية دون النص، وعدت أي دراسة فوق الجملة دراسة غير لغوية، إلى أن ظهر في أواخر الستينات من القرن العشرين علم "لسانيات النص" أو "علم اللغة النصي"، هذا

العلم الذي استدرك هذا القصور وجعل من النص كله وحدة للتحليل، فالنص هو الصورة النهائية التي يتم بها التواصل بين أفراد المجموعة اللغوية.

وكانت الأبحاث الأولى لهذا العلم على يد الأمريكي "زيلنج هاريس" "Zelling Harris" الذي يعد أول عالم لساني سعى إلى الانتقال من مستوى تحليل الجملة إلى مستوى أكبر من ذلك في كتابه "تحليل الخطاب" سنة 1952، حيث كتب أن «اللغة لا تأتي على شكل كلمات أو جمل مفردة، بل في نص متماسك بدءاً من القول ذي الكلمة الواحدة إلى العمل ذي المجلدات العشرة، أو بدءاً من المونولوج وانتهاءً بمناظرة جمالية مطولة»¹، ثم تطورت الدراسات النصية وتبلورت مع "فان ديك" "Van Dijk"، واكتملت ونضجت مع "روبرت دي بوجراند" "Robert de beaugrande" الذي اهتم بالقواعد التي تجعل من النص نصاً أي ما يكسب النص نصيته، وقام بتصنيفه على النحو الذي يأخذ في الحسبان جميع أطراف العملية التواصلية:

- ما يتصل بالنص في ذاته: الاتساق والانسجام.
 - ما يتصل بمستعملي النص: المقصدية والمقبولية.
 - ما يتصل بالسياق المادي والثقافي المحيط بالنص: الإعلامية، المقامية، التناص.²
- وبهذا يكون الانسجام النصي إلى جانب الاتساق أحد أهم المعايير الديوجراندية المحققة لتماسك النص.

1- مفهوم الانسجام النصي:

أ/لغة:

جاء في لسان العرب لابن منظور في مادة (س ج م): «سجمت العين الدمع والسحابة الماء تسجمه وتسجمه سجمًا وسُجوماً وسَجْمَانًا: وهو قطران الدمع وسيلانه، قليلاً كان أو كثيراً، وكذلك الساجم من المطر، والعرب تقول: دمع ساجم، ودمع مسجوم: سجمته العين سجمًا... وانسجم الماء والدمع فهو منسجم إذا انسجم أي انصب... سجم العين والدمع الماء يسجم سجوماً وسجماً إذا سال وانسجم»³، فالمعنى اللغوي للانسجام يدل على القطران والسيلان والإنسباب، وهي أفاظ توحى بالتتابع والتتالي وعدم الانقطاع.

ب/اصطلاحاً:

يعد الانسجام شأنه شأن الاتساق مظهر من مظاهر النصية إذ «لا يمكن أن نجد نصاً منسجماً دون أن يكون متسقاً»⁴، فالحدود بين الاتساق النصي الذي يتحقق بفضل أدوات لسانية، والانسجام النصي الذي يستخدم استدلالات غير لسانية مشكلة معقدة للغاية، ذلك أن كثيراً من الوقائع النصية التي نعدها جزءاً من الانسجام نستطيع أن نفسرها بأدوات لغوية محضّة، حتى أن هناك من الباحثين من جمع في مفهومه للانسجام بين الاتساق، ومن هؤلاء "مانغونو" "Maingueneau" الذي أكد على وجود "تقابل مفهومي بين الانسجام (عام) والاتساق (موضعي)"⁵، وأنه من الصعب الفصل بين المستويين.

¹ رياض مسيس، لسانيات النص حول بعض المفاهيم، المرجعيات والأبعاد، مجلة المرز، عدد خاص، الجزائر، فيفري 2002، ص 157 - 158.

- ينظر روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة: تمام حسان، عالم الكتب، ط3، القاهرة: 1998، ص 97 - 107.²

- ابن منظور، لسان العرب، مج 12، دار صادر، بيروت: د ت، ص 280 - 281.³

- مفتاح بن عروس، حول الاتساق في نصوص المرحلة الثانوية مقارنة لسانية، مجلة اللغة والأدب، ع 12، الجزائر، ديسمبر 1999، ص 439.⁴

⁵ - Dominique Maingueneau, Éléments de linguistique pour le texte littéraire, Dunod, Paris 1993. P 157.

وقد اتفقت جل الدراسات على أن الانسجام هو حكم المتلقي (مستمعا كان أم قارئاً)، إذ أن نظرية الانسجام تبرز «أهمية الدور الذي يقوم به المتلقي في عملية التأويل»¹ (تأويل النص)، من خلال التزود بما يلزم من العلاقات لاستخراج المعنى منه (النص)، وتمثل هذه العلاقات في مجموعة العناصر المنطقية كالسببية والغائية والقياسية، كما تتضمن أيضاً المعلومات عن تنظيم الأحداث والأعمال والموضوعات فيما يتصل بالتجربة الإنسانية وتفاعلها مع معطيات النص.

كما يتجاوز الانسجام الجانب الشكلي إلى الجانب الدلالي «الذي لا تكفي فيه الدلالة اللغوية وحدها للأقوال في فهم الخطاب وتأويله فالقارئ في حاجة إلى الوقوف على ملابسات القول من أحوال المتخاطبين وطبيعة العلاقة بينهم»²، ولهذا يشير "محمد خطابي" إلى رأي "هايمس" "Hyemes" حول عنصر السياق وعلاقته بالانسجام في قوله: «أنه بقدر ما يعرف المحلل أكثر ما يمكن من خصائص السياق بقدر ما يحتمل أن يكون قادراً على التنبؤ بما يحتمل أن يقال»³ فالانسجام يدخل السياق بمعناه الواسع والعام.

وتتصل دراسة الانسجام برصد وسائل الاستمرار الدلالي الموجودة في النص، فهو عند "هاليداي" و"رقية حسن": «علاقة معنوية بين عنصر وعنصر آخر يكون ضرورياً لتفسير هذا النص، هذا العنصر الآخر يوجد في النص، غير أنه لا يمكن تحديد مكانه إلا عن طريق هذه العلاقة التماسكية»⁴، وبهذا يكون الاتساق مرتبطاً باللفظ في حين أن الانسجام يرتبط بالمعنى دائماً.

ورغم ما انجزه الدرس اللساني الغربي الحديث في موضوع الانسجام النصي كإنجازات "هاليداي" و"رقية حسن" في كتابهما "الاتساق في اللغة الانجليزية" و"فان ديك" في كتابه "النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي" و"جوليان براون" و"جورج يول" في كتابهما "تحليل الخطاب"، إلا أن هذا ليس ببعيد عن ما وجد في المدونات التراثية العربية على اختلافها، فقد يتساءل الكثير من الباحثين عن جدوى التنقيب في التراث العربي القديم في سياق الحديث عن موضوع حديث النشأة كلسانيات النص، فكثير هم من درسوا التراث، وكثير هم من بحثوا فيه، لكن القليل منهم من استفاد وأفاد منه، فالتراث العربي عبارة عن منظومة واحدة متكامل فيها جميع المعارف والتخصصات وتلتقي فيها عدة علوم، والحديث عن الانسجام النصي يتطلب منا العودة إلى هذا التراث والبحث والتنقيب فيه لتأسيس مرجعية تراثية نستند عليها أثناء حديثنا عن لسانيات النص، ولما كان البحث متشعباً في هذا الميدان فقد خصصنا بحثنا للحديث عن بعض جزئيات هذا التراث وبعض أعلامه فقط، وتفادياً لتشعب البحث واتساعه وقع اختيارنا، في التراث البلاغي، على كتاب كان له الفضل في تطوير هذا العلم وهو "دلائل الإعجاز في علم المعاني" لعبد القاهر الجرجاني، وفي التراث النقدي ركزنا على إسهامات "حازم القرطاجني" الذي كان أكثر نضجاً ووعياً ممن سبقه وذلك من خلال كتابه "منهاج البلغاء وسراج الأدباء"، وأما في التراث الديني الذي برز فيه علماء كرسوا جهودهم لخدمة النص المقدس وحاولوا بيان وجوه اعجازه فقد وقع الاختيار على كتاب "البرهان في علوم القرآن" للزركشي، لنعود بعد ذلك إلى الدراسات الغربية الحديثة وما قدمته من إسهامات في هذا المجال.

2- جهود العرب القدامى في الانسجام النصي:

¹- shirly carter-thomas, La cohérence textuelle pour une nouvelle pédagogie de l'écrit, L'harmattan, Paris 1993. p 157.

- فتيحة بوسنة، انسجام الخطاب في مقامات جلال الدين السيوطي مقارنة تداولية، دار بلاء للنشر، الجزائر، د.ت. ص 30-31.

- محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، ط2، الدار البيضاء - بيروت: 2006. ص 53.

- أحمد عفيفي، نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة: 2001. ص 103.

1-2- الانسجام النصي في "دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني":

تجعلنا العودة إلى الدرس البلاغي العربي القديم نكتشف أنه يشتمل على اجتهادات كثيرة ومتنوعة يمكن أن تكون لنا مرجعاً أو دعماً لما اصطلاح على تسميته فيما بعد بلسانيات النص، فقد قدمت البلاغة مجموعة قواعد ونظريات ساهمت في تطور هذا العلم الجديد، حيث كانت «معيناً للآراء والاقتراحات التي طرحت فيما بعد وبخاصة من خلال النظريات الحديثة، فهيتضمناً لأفكار الجوهريّة التي عينتها الدراسات النصية بالتوسع فيها ومن ثمّة توجد جوانب اتفاقاً عدة بينها إلى الحد الذي يصعب معها إغفال الأثر الذي يكون درجة خفاء مرتفعة¹»، حتى أن هناك من الباحثين (من بينهم "هارفج" Harweg) من ذهب إلى عد البلاغة بمثابة أم أو إرهاب للسانيات النص، لكن الاختلاف بينهما واقع في المنهج والأدوات والأهداف، فهدف البلاغة التأثير في المتلقي، ولا يتوقف حدّها عند التأثير بل تتجاوزه إلى الإقناع، فالبلاغة «فن الخطاب الجيد (فن قول شيء جيد مصيب)²» كما تعرف عادة، فلا بد من مناسبة الخطاب للموقف، وبالنسبة لفكرة التوجه إلى المستمع، نلاحظ أنها تؤثر على عملية إنتاج النص، فمنهج النص يراعي الطرف المستقبل، ومن ثمّة كان الهدف الأساسي للبلاغة متمثلاً في إعداد النماذج وتوفير القواعد التي يستطيع المتكلم بواسطتها إقناع سامعيه.

وقد عملت لسانيات النص على «ضم تلك القواعد والنماذج والاستراتيجيات المتاحة وتجاوزها إلى إمكانات أخرى (...). بل استعانت بما يدور فيما وراء اللغة في التحليل والتفسير، حين وضعت في الاعتبار مستويات القراءة وأحوالهم النفسية والاجتماعية، وتعدد القراءة، وأشكال التواصل³» إلى غير ذلك من الإجراءات والأدوات التي لم يتح لعلم من قبل أن يفيد منها كما أتيج للسانيات النص.

ولعل إسهامات البلاغي "عبد القاهر الجرجاني" (ت 471هـ) كبيرة جداً في دراسة موضوعات تتعلق بنحو النص وآليات انسجامه، فقد كان لنظرية النظم الجرجانية أهمية كبيرة في هذا المجال لما تمثله من قيمة في سياق الدراسات التي اهتمت بالنظم والتأليف «فبعد القاهر الجرجاني على حد تعبير كمال أبو ديب هو آخر باحث عربي في القرن الخامس الهجري حاول أن يقيم نظرية متكاملة لتفسير الظاهرة الأدبية انطلاقاً من بعدها النصي، ولقد كان من أبرز إنجازات الجرجاني تركيزه على تطوير العملية التحليلية للوصول بها إلى أقصى درجات الدقة والصرامة والابتعاد عن التعميمات النظرية الكسل ذات المنابع التقليدية أو العقائدية الصرف⁴»، وكان هدفه من ذلك البحث عن سر إعجاز القرآن الكريم، والذي وجده في الأخير راجع إلى النظم وبلاغة كلامه وليس في ألفاظه وبلاغة وحداته اللغوية، ويعتبر الجرجاني أول من نظر إلى النص القرآني نظرة كلية شمولية ومتناسكة، يقول عنه: «تأملوه سورة سورة، وعُشراً عُشراً، وآية آية، فلم يجدوا في الجمع كلمة ينبؤ بها مكانها، ولفظة ينكر شأنها، أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه، أو أخرى وأخلق، بل وجدوا اتساقاً بهر العقول، وأعجز الجمهور، ونظاماً والتثاماً، وإتقاناً وإحكاماً⁵».

نلاحظ من خلال هذا القول الإشارة إلى بعض المصطلحات المتعلقة بالتحليل النصي كالاتساق والانسجام اللذين يعتبران من أهم المسائل التي تطرحها لسانيات النص، بل هما أساس قيام النظرية اللسانية النصية الحديثة، ويشير

- سعيد حسن بحيري، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة: 2004. ص 20.

- فولفجانج هاينه مان ديتر فيهقجر، مدخل إلى علم لغة النص، ترجمة: سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق، ط1، القاهرة: 2004. ص 11.

- سعيد حسن بحيري، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، ص 08-09.

- رياض مسيس، لسانيات النص حول بعض المفاهيم، المرجعيات والأبعاد، ص 162.

- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: سعيد كريم الفقي، دار اليقين للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة: 2001. ص 39.

"الجرجاني" إلى هذين المصطلحين في تعريفه للنظم بقوله: «تعليق الكلم بعضها على بعض وجعل بعضها بسبب من بعض»¹، ويقول أيضا: «فليس الغرض بنظم الكلام أن توالى ألفاظها في النطق بل تناسقت دلالاتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاها لعقل.. فما النظم إلا أن تقتفي في نظم الكلمات آثار المعاني، وترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النفس»²، ويكون ذلك بترتيب الألفاظ والتراكيب وفق ترتيب معانيها، فتصاغ تلك المعاني في قالب لغوي محكم الصياغة والبناء بدءا بأصغر تركيب وهو الجملة البسيطة وصولا إلى النص، «فالنظم يعنى أول شيء بترتيب الكلمات في جمل، أي أنه يدرس الطرق التي تتألف بها الجمل من الكلمات»³، وبهذا تتضام الألفاظ بعضها ببعض في تألف دقيق مع المعاني.

ويتحقق الانسجام النصي عند "الجرجاني" بحسن النظم، الذي لا يكون حتى يأتي على القطعة كلها بدءا بالجزء وصولا إلى الكل، يقول: «وأعلم من الكلام، ما أنت ترى المزية في نظمه والحسن، كالأجزاء من الصيغ تتلاحق، وينظم بعضها ببعض، حتى تكثر في العين، فأنت كذلك لا تكثر شأن صاحبه، ولا تفضي له بالحدق والأستاذية، وسعة الدرع، وشدة المنة، حتى تستوفي في القطعة وتأتي على عدة أبيات»⁴، معنى هذا أن الانسجام النصي يتحقق بترايط أجزاء الكلام بعضها ببعض، فكل كلمة لها علاقة بسابقتها وما سوف يلحقها عن طريق الترابط الشكلي وهو الاتساق، والترابط الدلالي وهو الانسجام، لتشكل لنا في النهاية نصا متكاملًا.

كما شبه الجرجاني النظم كما جاء في الدلائل بـ«النسج والتأليف والصياغة والبناء والوشي والتحبير، وما أشبه ذلك، مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض»⁵، فهذه العناصر الستة توضح فكرة النظم القرآني الكريم المعجز بألفاظه ومعانيه، كما تبين مدى اكتمال النظم وتحقيقه للتماسك والترابط على مستوى البنية السطحية للنص وكذا على مستوى البنية العميقة له، وهذا ما يقترن من المفهوم اللساني الغربي الحديث للانسجام.

ففكرة الانسجام النصي كانت واضحة في ذهن "الجرجاني" وضوحا متميزا إذ نجده يعبر عنها بقوله «واعلم أن مثل واضع الكلام مثل من يأخذ قطعاً من الذهب أو الفضة فيذيب بعضها في بعض حتى تصير قطعة واحدة»⁶ فبنية النص في نظر الجرجاني تصل إلى مرتبة الصهر وتتطلب:

-تلاحم الأجزاء.

-ضم الأجزاء بعضها إلى بعض.

-ترابط القطعة ككل.

ولم يتوقف الجرجاني عند هذا الحد بل ذهب إلى البحث في الوسائل التي يتم بها الانسجام كطريقة الفصل والوصل التي تعد نموذجا هاما وبارزا لما يجب أن يبحث في هذا العلم (علم لسانيات النص)، حتى أنه خصص لهذه القضية بابا أسماه "باب الفصل والوصل"، ويتمحور جهده في الفصل والوصل حول «ما ينبغي أن يُصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض، أو ترك العطف فيها والمجيء بها منثورة، تستأنف واحدة منها بعد أخرى»⁷، ثم يقول: «إن معرفة الفصل من

¹- المرجع نفسه، ص 287.

²- المرجع نفسه، ص 102.

³- محمود السمران، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دار النهضة العربية، بيروت: دت، ص 226.

⁴- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص 133.

⁵- المرجع نفسه، ص 65.

⁶- المرجع نفسه، ص 339.

⁷- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص 222.

الوصل مما لا يتأتى لتمام الصواب فيه إلا للأعراب الخالص وإلا قوم طبعوا على البلاغة، وأوتوا من المعرفة في ذوق الكلام هم بها أفراد¹»، فالوصل هو «عطف بعض الجمل على بعض، والفصل تركه، فإذا أتت جملة بعد جملة، فالأولى إما أن يكون لها محل من الإعراب، أو لا، وعلى الأول، إن قصد تشريك الثانية لها في حكمه عطفت عليها كالمفرد، فشرط كونه مقبولاً بالواو ونحوه أن يكون بينهما حجة جامعة، نحو: زيد يكتب ويشعر، أو يعطي ويمنع²، وهذا يكون الوصل هو عطف جملة على أخرى، أما الفصل لا يعني انقطاع العلاقة بين الجمل بل هو ربط للوحدات اللغوية والتراكيب دون استعمال لحروف الربط (العطف).

لقد ساهم الجرجاني في إثراء الدرس اللغوي بأبحاث غنية وقيمة، تحولت مع مرور الزمن إلى ميدان خصب لمختلف الدراسات، فلم تكن آراء الجرجاني بعيدة عن الأفكار اللسانية الغربية الحديثة، بل كانت بمثابة التقاطع الحقيقي بينه وبين هذا العلم، فهو من أهم العلماء البلاغيين الذين قدموا إنجازات علمية ناضجة جدا في مجال التنظير والتطبيق النصي خاصة فيما يتعلق بالاتساق والانسجام النصيين اللذين يعتبران من أهم الأسس التي تقوم عليها لسانيات النص الغربية.

2-2- الانسجام النصي في كتاب "منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني":

عرف النقد العربي في عهد "حازم القرطاجني" (ت 684هـ) تطورا وازدهارا كبيرا لم يسبق وأن عرفه قبلا، حيث كان أكثر نضجا ووعيا مما سبق، حتى أنه تجاوز حدود الجملة الواحدة إلى مستوى النص ككل، فإذا كان "عبد القاهر الجرجاني" أغنى النقد العربي بنظرية النظم، فإن "حازم القرطاجني" أثرى النقد العربي ولسانيات النص بفكرة التماسك النصي، وذلك بالتناسب بين الأغراض والأوزان، والإيقاع الشعري والحالة النفسية للشاعر، ويعتبر كتابه "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" مؤلفا هاما لمن أراد البحث عن لسانيات النص في التراث النقدي العربي.

وركز "القرطاجني" في تقسيم كتابه على أربعة أقسام هي:

- | | | |
|---|-------------------|---------|
| } | المستوى المعجمي. | اللفظ |
| | المستوى الدلالي. | المعنى |
| | المستوى التركيبي. | النظم |
| | مستوى النص. | الأسلوب |
- وهذا على مستوى الجملة.

كما تجاوز "القرطاجني" تناول الجزئي للقصيدة عند النقاد القدامى إلى تناول أعم مكنه من تقديم نظرة كاملة وشاملة عن الكيفية التي يجب أن تتبع في بناء القصيدة فصلا وفصولا، مهتما في ذلك بالعلاقات الترابطية لأجزاء القصيدة الواحدة، فسعى كل جزء منها فصلا، والفصل عنده عبارة عن «بيتان، في غالب الأحيان، إلى حدود أربعة أبيات تتصافر لأجل إيصال معنى معين»³، كما صنف تماسك القصيدة إلى: تماسك الفصل، وتماسك الفصول، والعلاقات بين الفصول، ويرى أن النص لا تتحقق نصيته أو تماسكه إلا بشروط معينة، فعلى مستوى تماسك الفصل يجب⁴:

- أن تكون مواد الفصل مناسبة للغرض الذي يريد الشاعر التعبير عنه.

- أن تكون حسنة الاطراد.

¹ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

² - الخطيب القزويني، التلخيص في علوم البلاغة، ضبط وشرح: عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي، 1954، ص 175.

³ - محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، ص 150.

⁴ - حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن خوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت: دت، ص 287-291.

- أن تكون متباينة النسيج.

أما على مستوى تماسك الفصول فيجب :

- استمرار غرض الفصل السابق في اللاحق.

- أن تكون الفصول متصلة العبارة أو متصلة الغرض دون العبارة أو متصلة العبارة دون الغرض.

أما على مستوى العلاقات بين الفصول فيجب:

- مناسبة الغرض للإيقاع الشعري.

- مناسبة الألفاظ للمعاني.

- دلالة رأس الفصل على بقيته أو أن يكون آخره استدلالاً على ما تقدم منه، وهذا ما عبر عنه بلفظي التسويم والتججيل.

فالنص في نظر "القرطاجي" متواليات من الجمل مرتبة ترتيباً منطقياً من الجزء إلى الكل عن طريق آلية التناسب والاقتران، وهذا ما يقترب من مصطلح التماسك النصي (الاتساق والانسجام) حتى وإن لم يستعمل هذا المصطلح، وحاول "القرطاجي" البحث في الترابط القائم بين أجزاء النص (القصيدة) من خلال حديثه عن قوانين الابتداء والتخلص والانتهاؤ بقوله: «وإذا لم يكن البيت الثاني مناسباً للأول في حسنه، غض ذلك من بهاء المبدأ وحسن الطليعة، وخصوصاً إذا كان فيه قبح من جهة لفظ أو معنى أو نظم أو أسلوب»¹، فالمناسبة في هذا السياق تعني الربط الشكلي (الضمائر، أسماء الإشارة، أدوات المقارنة...) والربط المعنوي (مناسبة الإيقاع لغرض الشاعر، مناسبة اللفظ للمعنى...)، وأشار "القرطاجي" إلى الأمر نفسه عندما عرض شروطاً في الانتهاؤ أو الخاتمة على النحو التالي:

«- تحرى أن يكون ما وقع فيها من الكلام كأحسن ما اندرج في حشو القصيدة.

- أن يتحرز فيها من قطع الكلام على لفظ كرهه أو معنى منفر للنفس عما قصدت إمالتها إليه، أو مميل لها إلى ما قصدت تنفرها عنه.

- أن يتحفظ في أول البيت الواقع مقطوعاً للقصيدة من كل ما يكره ولو ظاهره وما توهمه دلالة العبارة أولاً، وإن رفعت الإيهام آخر ودلت على معنى حسن»²، فالشرطان الأول والثالث مرتبطان باللفظ، أما الشرط الثاني فهو لفظي معنوي مرتبط بما قصد إليه المتكلم في النص.

وإلى جانب هذا نجد "القرطاجي" يهتم أيضاً بالانسجام الصوتي، وربطه بمستوى النص ككل، إذ لم يتوقف عند الكلمة الواحدة بل تعدى ذلك إلى دراسة التلاؤم بين الجمل المكونة للنص، يقول: «ومن ذلك حسن التأليف وتلاؤمه، والتلاؤم يقع في الكلام على أنحاء: منها أن تكون حروف الكلام بالنظر إلى ائتلاف بعض حروف الكلمة مع بعضها وائتلاف جملة كلمة مع جملة تلاصقها منتظمة في حروف مختارة متباعدة المخارج مترتبة الترتيب الذي يقع فيه خفة وتشاكل ما، ومنها ألا تتفاوت الكلم المتولفة في مقدار الاستعمال فتكون الواحدة في نهاية الابتدال والأخرى في نهاية الحوشية وقلة الاستعمال، ومنها أن تتناسب بعض صفاتها مثل أن تكون إحداها مشتقة من الأخرى مع تغاير المعنيين من جهة أو جهات أو تماثل أوزان الكلم أو تتوازن مقاطعها، ومنها أن تكون كل كلمة قوية الطلب لما يليها من الكلم أليق بها من كل ما يمكن أن

- المرجع نفسه، ص 308.

- محمد العبد، حيك النص منظورات من التراث العربي، مجلة فصول، ع 59، 2002، ص 75.

يوضع موضعها»¹، فهذا الائتلاف بين حروف الكلمة الواحدة، وبين كلمات الجملة الواحدة، وكذا الجمل بعضها ببعض، هو ما يشكل لنا وحدة منسجمة، فالمستوى الصوتي له أهمية في الربط بين المعاني.

من خلال القضايا التي طرحها "حازم القرطاجي" في كتابه "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" يبدو وكأنه كان على وعي بالمفاهيم التي توصلت إليها لسانيات النص حديثاً وبمختلف المصطلحات التابعة لهذا العلم، حيث كان السباق إلى الاهتمام بتماسك النص الشعري وانسجامة وتلاحم أجزائه، كما وقف على جملة من المبادئ للممارسة اللغوية في شكلها النصي خاصة من حيث خاصية الانسجام.

2-3- الانسجام النصي عند الزركشي من خلال كتاب "البرهان في علوم القرآن":

اهتم العرب منذ القديم بالقرآن الكريم، فبرز علماء كرسوا جهودهم لخدمة النص المقدس، وحاولوا بيان وجوه اعجازه، ولا تزال مؤلفاتهم شاهدة على ما قدموه في سبيل ذلك، ومن بين الوجوه الإعجازية التماسك الوثيق الذي يربط آيات وسور القرآن التي نزلت منجمة على مدار ثلاث وعشرين سنة. فالدراسات الإعجازية القديمة لم تكتف بالجملة أو الآية إطاراً نهائياً للتحليل بل تجاوزت ذلك إلى البحث في آليات تماسك وانسجام النص ككل.

ورصدت الدراسات الإعجازية بعض العلاقات التماسكية بين سور وآيات القرآن، حيث وجدنا بعض المؤلفات تقدم علاقات تماسكية للنص ترقى إلى ما قدمته اللسانيات النصية المعاصرة، مثل "البرهان في علوم القرآن" للزركشي (ت 764 هـ)، و"الإتقان في علوم القرآن" - "تناسب الدرر في تناسب السور" للسيوطي (ت 911 هـ)، فقد كان عمل «هؤلاء يقوم أساساً على النظرة إلى النص القرآني كاملاً، إلى درجة أنهم رأوا القرآن الكريم كالكلمة الواحدة... فأكدوا تماسكه الصوتي والصرفي والنحوي والمعجمي والدلالي... وأيضاً أكدوا على المناسبة بين حروف الكلمة الواحدة وكلمات الجملة الواحدة وبين جمل النص الواحد ونصوص القرآن كله كذلك»²، وستتناول فيما يلي إسهامات "الزركشي" في هذا السياق.

رسم "الزركشي" رؤياً شاملة متكاملة حول تحليل النص القرآني، حيث استطاع أن يتجاوز ذلك الإطار الضيق الذي لم يتعدّ تحليل الآية الواحدة إلى البحث عن العلاقات الرابطة بين الآيات المختلفة للسورة الواحدة أو مجموع السور المشكلة للقرآن الكريم، حتى أنه خصص باباً مستقلاً في كتابه "البرهان في علوم القرآن" تحدّث فيه عن التماسك والانسجام بين الآيات والسور والآليات التي تحكم ذلك التماسك والانسجام، كما نلاحظ في مختلف أبواب الكتاب إشارات إلى التماسك في القرآن.

وقد قسم "الزركشي" الانسجام إلى انسجام بين الآيات في السورة الواحدة وآخر بين السور المختلفة، سنتطرق إليه

فيما يلي:

أ/ الانسجام بين الآيات في السورة الواحدة:

- حازم القرطاجي، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 222.¹

- صبيح إبراهيم الفقي، علم لغة النص بين النظرية والتطبيق دراسة تطبيقية على السور المكية، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة: 2000، ص 50.²

يتحدث "الزركشي" عن الآيات التي لا يوجد فيها عطف، حيث تظهر بأنها غير مترابطة، بينما هي مترابطة بطريقة أخرى عن طريق بعض العلاقات، كعلاقة التنظير حيث يرى أن إلحاق النظير بالنظير علاقة منطقية، ويدرج ضمن هذا مثال لقوله تعالى: «أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ»¹، ويعلل "الزركشي" الانسجام الموجود بين "أولئك هم المؤمنون حقا" وبين "كما أخرجك ربك من بيتك" بعلاقة التنظير، حيث يقول: «فإن الله سبحانه أمر رسوله أن يمضي لأمره في الغنائم على كره من أصحابه كما مضى لأمره في خروجه من بيته لطلب العير وهم كارهون»².

كما أن هناك علاقة أخرى تربط بين الآيات وهي علاقة التضاد، وقد مثل الزركشي لذلك بأوائل سورة البقرة التي فيها حديث عن القرآن الكريم وأنه هدى للمتقين، وأن من صفات المؤمنين الإيمان بالغيب وإقامة الصلاة، يقول تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ»³، ويعلق عن ذلك بقوله: «فإن أول السورة كان حديثا عن القرآن الكريم، وأن من شأنه كيت وكيت، وأنه لا يهدي القوم الذين من صفاتهم كيت وكيت. فرجع إلى الحديث عن المؤمنين، فلما أكمله عقب بما هو حديث عن الكفار، فبينهما جامع وهي بالتضاد من هذا الوجه»⁴، فالانتقال من الحديث عن المؤمنين إلى الحديث عن الكفار قد جعل بين الآيتين مناسبة هي التضاد.

أما نوع العلاقة الثالثة فهي الاستطراد، ومن الآيات التي تتماusk وتنسجم بواسطة هذه العلاقة قوله تعالى: «يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسَ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ»⁵، ويعلق الزركشي عن هذه الآية بقوله: «هذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقب بدء السوءات وخصف الورق عليها إظهارا للمنة فيما خلق الله من اللباس، ولما في العري وكشف العورة من المهانة وإشعارا بأن السترياب عظيم من أبواب التقوى»⁶.

وعن العلاقة الأخيرة في هذا الموضوع وهي الانتقال من حديث لآخر تنشيطا للسامع، يستشهد الزركشي بقوله تعالى في سورة (ص): «هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ»⁷، ف «لما انتهى ذكر الأنبياء، وهو نوع من التنزيل، أراد أن يذكر نوعا آخر، وهو ذكر الجنة وأهلها، فقال (هذا ذكر)، فأكد تلك الإخبارات باسم الإشارة، تقول أشير عليك بكذا، ثم تقول بعده، ثم تقول: هذا الذي عندي والأمر إليك، وقال "وإن للمتقين لحسن مآبٍ"⁸، فاسم الإشارة هو الذي ربط اللاحق بالسابق رغم الانتقال من كلام لآخر.

ب/ الانسجام بين السور:

* علاقة انسجام بين فواتح السور وخواتمها:

- سورة الأنفال، الآية (5 - 6).¹

- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج1، مكتبة دار التراث، القاهرة: د ت، ص 47.²

- سورة البقرة، الآية 6.³

- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص 49.⁴

- سورة الأعراف، الآية 26.⁵

- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص 49.⁶

- سورة (ص)، الآية 49.⁷

- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص 50.⁸

إن مناسبة خاتمة السورة لفاتحتها فيه نوع من رد العجز على الصدر، «ومن ثمة تغدو هذه الوسيلة سمة مشتركة بين الخطاب الشعري والخطاب القرآني»¹، يقول الزركشي: «وقد جعل الله فاتحة سورة المؤمنين (قد أفلح المؤمنون)، وأورد في خاتمتها (إنه لا يفلح الكافرون) فشتان بين الفاتحة والخاتمة»²، فقد وصف المؤمنون بالفلاح في بداية هذه السورة، بينما وصف الكافرون في خاتمتها بضع ذلك أي عدم الفلاح.

* علاقة انسجام بين فاتحة السورة والخاتمة التي قبلها:

إن مناسبة فاتحة السورة للخاتمة التي قبلها أسلوب معتمد كثيرا في القرآن، ومن ذلك مناسبة فاتحة سورة قريش لإيلاف قريش " لخاتمة السورة التي قبلها وهي سورة الفيل "فجعلكم كعصف مأكول"³، وأيضا «لما ختم سورة النساء أمرا بالتوحيد والعدل بين العباد، أكد ذلك بقوله في أول سورة المائدة: يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود»⁴، ويدرج الزركشي ضمن هذه العلاقة الكثير من الأمثلة.

* الانسجام بين السورة واسمها:

إن تسمية السورة باسم معين ليس إلا تقليدا لدى العرب، فنجدهم مثلا يسمون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها، وعلى ذلك جرت تسمية سور القرآن «كتسمية سورة البقرة بهذا الاسم لقريظة ذكر قصة البقرة المذكورة فيها وعجيب الحكمة فيها، وسميت سورة النساء بهذا الاسم، لما تردد فيها من كثير من أحكام النساء، وتسمية سورة الأنعام لما ورد فيها من تفصيل أحوالها»⁵.

* علاقة انسجام صوتي:

يوجد في بعض سور الكتاب العزيز انسجام صوتي يعتمد على تناسق الفاصلة الأخيرة في تحقيق ذلك الانسجام، من ذلك ما جاء في سورة المسد مع فواصل سورة الإخلاص، ففواصل سورة المسد تخالف فاصلتها الأخيرة، فهي على حرف الدال، وفواصل السورة التي بعدها سورة الإخلاص كلها على حرف الدال.

* علاقة انسجام بالتقابل:

وهو تقابل بين موضوعات بعض السور، كتقابل سورة الكوثر مع سورة الماعون، يقول الزركشي مبينا تلك العلاقة: «و من لطائف سورة الكوثر أنها كالمقابلة للتي قبلها؛ لأن السابقة قد وصف الله فيها المنافق بأمر أربعة: البخل، وترك الصلاة، والرياء فيها، ومنع الزكاة، فذكر هنا . سورة الكوثر. في مقابلة البخل؛ (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ)؛ أي الكثير، وفي مقابلة ترك الصلاة؛ (فَصَلِّ) أي دُم عليها، وفي مقابلة الرياء؛ (لِرَبِّكَ)؛ أي لرضاه لا للناس، وفي مقابلة منع الماعون؛ (وَإِنْ حَرَّ)؛ وأراد به التصديق بلحم الأضاحي؛ فاعتبر هذه المناسبة العجيبة»⁶.

- محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، ص 195.¹

- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج 1، ص 186.²

- ينظر المرجع نفسه، الصفحة نفسها.³

- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.⁴

- المرجع نفسه، ص 270.⁵

- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج 1، ص 39.⁶

* علاقة انسجام بين مواضيع السور:

وذلك كتشابه مضمون سورة الضحى، ومضمون سورة الانشراح؛ فكلاهما في مضمونه العام يتناول فضل و نعمة الله تعالى نبيه محمد(صلى الله عليه وسلم).

كما أشار الزركشي في كتابه إلى أهمية السياق ودوره في التفسير بقوله: «ليكن محط نظر المفسر مراعاة نظم الكلام الذي سيق له، وإن خالف أصل الوضع اللغوي لثبوت التجوز، ولهذا نرى صاحب "الكشاف" يجعل الذي سيق له الكلام معتمدا، حتى كأنه غيره مطروح»¹، فالزركشي يشترط على المفسر مراعاة السياق اللغوي لتحديد المعنى المقصود. إن ما انتهى إليه هؤلاء من تصورات ومبادئ عن الانسجام دليل على أن للنظرية اللغوية في تحليل النص عند العرب امتدادات بعيدة في مصادر التراث البلاغي والنقدي والديني، وأن ذلك التراث لازالت به امكانيات مختلفة للتزويد بأصول لتطوير علم لغة نصي عربي.

3- الانسجام النصي في الدرس الغربي الحديث:

يحتل الانسجام النصي موقعا مهما في الأبحاث والدراسات الغربية الحديثة التي توجهت إلى النص باعتباره أكبر وحدة للتحليل، وسنعرض فيما يلي اجتهادات الباحث الهولندي "فان ديك" من خلال كتابه "النص والسياق" الهادف إلى وضع لسانيات للنص كتجاوز للقصور الذي تعانیه لسانيات الجملة، كما سنعرض أيضا اقتراحات "ج. براون" و"ج. يول" في كتابهما "تحليل الخطاب" وذلك لما يحتويه هذا الكتاب من اقتراحات مهمة حول الانسجام.

3 – 1- نموذج فان ديك:

حاول "فان ديك" بمنهج يختلف عن منهج سابقيه من اللغويين الغربيين أن يجد القواعد التي تسمح للمتلقى بالحكم على نص ما بالنصية، ويرى أن النص هو «مجموعة من الجمل تحكمها علاقات وروابط معينة»²، وهذا ما يقترن مع ما جاء به "عبد القاهر الجرجاني" الذي يشترط أن يتحقق داخل النص الانسجام والتماسك.

وكان هدف "فان ديك" من وضع قواعد معينة للسانيات النص عنصرين أساسيين هما:

- النظر إلى النص من الداخل أي النظر إلى بنيته.

- النظر إلى النص في علاقته مع المتلقي.

وفيما يلي سنحاول أن نناقش أهم مظاهر الانسجام النصي كما حددها "فان ديك" من خلال كتابه "النص

والسياق":

1/ الترابط:

لا يعني الترابط وجود الروابط، أو أن عدم وجود الروابط يعني عدم الترابط، فقد «تكون الجمل مرتبطة أو مستغنية عن الربط خارج الوجود الصريح لأدوات الربط»³، فمصطلح الترابط إذا يشير إلى علاقة خاصة بين الجمل، وهي علاقة دلالية أي علاقة بين قضايا جمل معينة، ويحدد "فان ديك" الشروط التي تحكم الترابط بما يلي⁴:

- العلاقة بين معاني الكلمات الواردة في الجمل.

¹- المرجع نفسه، ص 317.

²- Shirley Carter – Tothomas, La cohérence textuelle pour une nouvelle pédagogie de l'écrit, p 21.

³- فان ديك، النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ترجمة: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، المغرب: 2000، ص 75.

⁴- ينظر المرجع نفسه، ص 74-82.

- التطابق الإجمالي.

- تعالق الوقائع التي تشير إليها القضايا، والتي بدورها تشير إلى بعض الشروط مثل: الترتيب الزمني، علاقة السبب والنتيجة، تعالق العوالم الممكنة.

وكنا قد أشرنا سابقا إلى وجهة نظر "القرطاجي" في الكيفية التي يجب أن تتبع في بناء القصيدة فصلا وفصولا، مهتما في ذلك بالعلاقات الترابطية لأجزاء القصيدة الواحدة، وهذا ما يقترب من مفهوم الترابط لدى "فان ديك".

2/ تحليل الانسجام التأويل النسبي:

يرى "فان ديك" أن تحليل الانسجام يحتاج إلى تحديد نوع الدلالة التي في الحقيقة تكون نسبية من جملة لأخرى، فلا نؤول الجملة بمعزل عن الجمل السابقة علمها، بل «تأويل كل جملة مفردة مرتبط بتأويل الجملة التي قبلها وبعدها»¹، وهذا ما تحدث عنه الجرجاني في "حسن النظم" الذي يتحقق بترابط أجزاء الكلام بعضها ببعض، فكل كلمة لها علاقة بسابقتها وما سوف يلحقها عن طريق الترابط الشكلي وهو الاتساق، والترابط الدلالي وهو الانسجام، لتشكّل لنا في النهاية نصا متكاملًا. كما حدد "فان ديك" وسائل معينة لانسجام الخطاب/النص وهي: 1/تطابق الذوات، 2/علاقات: التضمن، الجزء - الكل، الملكية، 3/مبدأ الحالة العادية المفترضة للعوالم، 4/مفهوم الأطر، 5/التطابق الإجمالي، 6/تعالق المحمولات، 7/العلاقات الرابطة بين مواضيع جديدة: علاقة التذكر، الرؤية، الاسترجاع².

3/ ترتيب الخطاب:

يدعو "فان ديك" الترتيب العادي للوقائع في الخطاب/ النص، ذلك أن ورود الوقائع في متتالية معينة يخضع لترتيب عادي تحكمه مبادئ مختلفة، والتي يمكن تلخيصها فيما يلي:

«عام - خاص

كل - جزء/ مركب

مجموعة - فئة - عنصر

المتضمن - المتضمن

كبير - صغير

خارج - داخل

المالك - المملوك»³

وهذا فالجمل «إذا كانت تدل على الأحداث فإن انتظام سلاسل من الجمل ينبغي أن يدل على مجموع منظم من الأحداث»⁴، وهذا المجموع المنظم من الأحداث تحكمه المبادئ السابقة الذكر.

وقد أشار الجرجاني في تحديده لخصائص النظم عن ترتيب الكلم، إذ يقول: «واعلم أنّ لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلّق

¹ - Shirley Carter – Thomas, La cohérence textuelle pour une nouvelle pédagogie de l'écrit, p 33.

- ينظر فان ديك، النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ص 143 – 150.²

- فان ديك، النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ص 154.³

- المرجع نفسه، ص 150.⁴

بعضها ببعض، ويبني بعضها على بعض»¹، فالألفاظ لا توضع متجاوزة دون تعلق وارتباط بعضها ببعض، وهذا ما يقترب من عنصر ترتيب الخطاب عند "فان ديك".

4/ البنية الكبرى:

يقصد بها «بنية سيميائية دلالية»²، لذلك لا تختلف البنية الكبرى من الناحية الشكلية عن البنية الصغرى، فهي تتكون أساساً من قضايا ومن ثمة فإن «مفهوم البنية الكبرى يبدو نسبياً، فهو يميز بنية ذات طبيعة عامة، نسبياً بالنظر إلى بنية خاصة على مستوى أدنى آخر»³، فالبنية الكبرى في نص ما قد لا تكون نفسها في نص آخر، ولكي يصل القارئ إلى البنية الكبرى يجب عليه أن يقوم بعمليات مختلفة هي: الحذف، البناء، التعميم، هذه العمليات تظهر أننا نقوم فعلاً باختزال المعلومات الواردة في النص، أي أن تلك المعلومات تحدد ما هو هام في المقطع.

ويصل "فان ديك" في الأخير إلى أن النص «ما هو إلا بنية كلية، ذات موضوع، بمعنى أن النص يدور في بؤرة محددة، هي موضوعه. وأن كل الجمل الأخرى، ما هي إلا شرح، وتفسير وإعادة صياغة، لتلك البؤرة»⁴ لأن المتلقي «بعد سماعه للخطاب، أو قراءته للنص، يسأل: ماذا قال؟ هذا موضوع غير مترابط، ما العلاقة بين هذه وتلك، وهو يؤكد أن المقصود هو إيجاد بنية كلية ذات موضوع»⁵، وعلى هذا فإن دور البنية الكلية في النص يكمن في تحقيق الانسجام الكلي على المستوى الدلالي السيمانطيقي، ويظهر ذلك رد فعل القارئ وعدم قبوله لنص يفتقر إلى بنية كبرى تجمع وتوحد شتاتته.

وهذا الأمر يبدو واضحاً عند المفسرين من بينهم "الزركشي" عندما اعتبر القرآن الكريم بنية واحدة متماسكة موضوعها الرئيس هو التوحيد والعبادة، خاصة أثناء حديثه عن الانسجام الموجود بين موضوعات السور على اختلافها.

3-2- نموذج براون ويول:

انطلق جوليان براون "Gillian brown" وجورج يول "George yule" باتجاه آخر يختلف عن اتجاه "فان ديك" إذ اعتبر أن كل وحدة لغوية أكبر من الجملة تعد موضوعاً لتحليل الخطاب، وطرحاً من خلال كتابهما "تحليل الخطاب" جملة من العناصر على محلل الخطاب أن لا يغفلها، حيث تسهم هذه العناصر في انسجام النص، وهي كما يلي:

1/ السياق:

يقصد به «مجموعة العناصر الخارجية التي تساعد في نقل المعلومات أو تنشيط التفاعل بين المرسل والمتلقي، فكل جملة مهما كانت تحتاج دائماً إلى سياق يسند للجمل التي نجدتها في كتب النحو والمؤلفات اللسانية سياقات تأويلية مبنية على القوالب اللغوية التي تساهم في البناء التأويلي له»⁶.

ويمكن القول أن السياق يطلق على:

«- السياق اللغوي أو سياق النص.

- السياق الخارجي أو سياق الحال والموقف أو سياق التلفظ.

¹- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص 54.

²- Marie – Anne Paveau et Georgz – Elia Sarfati, Les grandes théories de la linguistique de la grammaire comparée a la pragmatique, Armand colin, Mars, 2003, p 187.

³- فان ديك، علم النص مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة: سعيد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب، ط1، القاهرة: 2001، ص 75.

⁴- عمر محمد أبو خرمة، نقد النظرية... وبناء أخرى، عالم الكتب الحديث، ط1، الأردن 2004، ص 89.

⁵- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

⁶- J. M. Adam, linguistique textuelle, des genres de discours aux textes, nathan, paris 1999. 123.

- سياق المعارف العامة المشتركة»¹.

ويذهب "جوليان براون" و"جورج يول" إلى أن الخطاب يجب أن يأخذ بعين الاعتبار السياق الذي يتكون من المرسل والمتلقي والزمان والمكان لأنه يؤدي دورا هاما في تأويل الخطاب، حتى أن ظهور قول واحد في سياقين مختلفين يؤدي إلى تأويلين مختلفين ، وفي رأي "هايمس" "Hymes" أن خصائص السياق قابلة للتصنيف كما يلي²:

- المرسل: وهو المتكلم أو الكاتب الذي يحدث القول.

- المتلقي: هو السامع أو القارئ الذي يتلقى القول.

- المستمعون: هم مستمعون آخرون يساهم وجودهم في تحديد معنى الحدث الكلامي.

- الموضوع: وهو محور الحدث الكلامي.

- الظرف: أي السياق الزماني والمكاني للحدث.

- القناة: كيف يتم التواصل بين المشاركين في الحدث الكلامي: الكلامن الإشارة، الكتابة...

- الضفيرة: اللغة أو اللهجة أو الأسلوب المستعمل.

- صيغة الرسالة: ما هي الصيغة المقصودة؟ خطبة - حكاية شعبية - رسالة...

- المفتاح: ويتضمن تقييم الكلام، مثلا: هل كانت تلك الخطبة جيدة أم مجرد تفسير تافه...

- الغرض: أي ماذا كانت تنوي الأطراف المشاركة التوصل إليه كنتيجة للحدث التواصلية؟.

ويرى هايمس أن هذه العناصر ليست بالضرورة متوفرة في جميع النصوص، بل أن محلل النص هو وحده الذي يحدد

عناصر تحليله.

إن السياق الذي تحدث عنه "براون" و"يول" وخصوصا له في كتابهما جزءا مهما، هو السياق الذي تحدث عنه

"الزركشي" في كتابه "البرهان في علوم القرآن" حيث اشترط على المفسر مراعاة السياق اللغوي لتحديد المعنى المقصود.

2.1.2. مبدأ التأويل المحلي:

تتمثل وظيفته الأساسية في تقييد «الطاقة التأويلية لدى المتلقي أو المحلل باعتماده على خصائص السياق، وذلك

قصد تمكين المحلل من تحديد تأويل ملائم ومعقول»³ ، وعملية التأويل تملينا - غالبا - معرفتنا وتجربتنا في مواجهة الأحداث

والمواقف السابقة التي تشبه من قريب أو من بعيد النص أو الموقف الذي نواجهه حاليا. فالتأويل المحلي في مواجهته للنص

يعتمد تجاربنا السابقة، كما يعتمد على المعلومات الواردة في النص والمعلومات المحيطة به، وبفعل هذه الآلية «نستبعد

التأويل غير المنسجم مع المعلومات الواردة في الخطاب»⁴ ، أي الالتزام بدوائر النص المعطاة دون التعسف في التأويل إذ يجب

الابتعاد عن المعنى البعيد خاصة عند وجود معنى أقرب يمكن التدليل عليه مباشرة من النص، والتأويل في لغة العرب

بمعنى التفسير، ف«التأويل تفسير الكلام الذي تختلف معانيه ولا يصح إلا ببيان غير لفظه»⁵ ، فعلى المفسر أن يراجع كلامه

¹ Ibid, P 124.

- ينظر ج براون - ج يول، تحليل الخطاب: تر: محمد لطفي الزليطي - منير التركي، جامعة الملك سعود للنشر العالي والمطابع، الرياض: 1997، ص 47 - 48.²

- نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب دراسة في النقد العربي الحديث، تحليل الخطاب الشعري والسرد، ج2، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر: دت، ص 72.³

- محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، ص 57.⁴

- ابن منظور، لسان العرب، مج11، ص 33.⁵

عند الشرح ولا يبتعد عن المعنى الأصلي، وهذا ما قام به "الزركشي" في تفسيره للقرآن الكريم من خلال كتابه "البرهان في علوم القرآن".

2.2.1.3. مبدأ القياس:

يعتمد محلل النص على تجاربه السابقة حيث يراكم عادات تحليلية وفهمية، وهذا عمل فيه «محاولة لربط شيء معطى مع شيء آخر غيره، وتتجلى أهمية التجربة السابقة في المساهمة في إدراك المتلقي للاطرادات عن طريق التعميم ولن يأتي له ذلك إلا بعد ممارسة طويلة نسبياً¹»، فمبدأ القياس (المشابهة) هو اعتماد مقارنة نصوص حالية بنصوص سابقة، والقياس على معطيات السابق في اللاحق، والتشابه من الوسائل التي تساعد في تأويل النص وليس هو الوسيلة الوحيدة فقط، ذلك أن التشابه يرد بنسب مختلفة، فالتقارير والمضامين يلحقها بالضرورة اختلافاً في النصوص، ولكن على الرغم من ذلك تبقى الخصائص النوعية للجنس التي نادراً ما يلحقها التغيير.

2.2.1.4. الموضوع:

ينتظم الخطاب في شكل متتاليات من الجمل، متدرجة من البداية حتى النهاية أي أن الخطية من السمات البارزة في النص، فالعناصر اللاحقة تتعلق بالعناصر السابقة، إذ الجملة الأولى في أي نص لها الحظ الأوفر في التأثير على الجمل التالية، ذلك أن كل جملة تفهم بناء على معطيات الجملة التي قبلها، هذا ما جعل بعض الدارسين يعدون العنوان هو مفتاح العلاقات في النص لأنه يكون في البداية، فهو تلك «العلامة اللغوية التي تتقدم النص وتعلوه، ويجد القارئ فيها ما يدعوه للقراءة والتأمل²»، إذ يثير لديه توقعات قوية حول ما يمكن أن يكونه كموضوع الخطاب، فعن طريقه تتجلى جوانب أساسية أو مجموعة من الدلالات للنص كما نرى ذلك في النصوص الصحفية مثلاً.

كما نجد هذا واضحاً عند "الزركشي" أثناء حديثه في علاقات السور ببعضها البعض عن علاقة الانسجام بين فواتح السور وخواتمها.

وهذا يمكن القول أنه يمكن بإعادة القراءة للمعطيات الموجودة في التراث العربي القديم (البلاغي - النقدي - الديني)، تطوير هذا التراث وبعثه من جديد عن طريق صياغة نظريات جديدة لها خصائصها المميزة وتلتقي مع النظريات الغربية المعاصرة، وما الجهود التي عرضناها إلا دليل على صدق هذا الأمر، كما أن العودة إلى التراث لا يعني أن النص العربي يسلك في اتساقه وانسجامه سبيلاً مخالفاً للنص الغربي، بل تعني إحياء هذه الإسهامات باعتبار أن فيها أفكاراً لا تقل أهمية عن الاقتراحات الغربية، وفيها مادة غنية وخصبة ينبغي تصنيفها وإعادة ترتيبها من جديد، حتى أن هناك بعضاً من هذه الإسهامات يمكن أن تضيف أشياء كثيرة إلى المقترحات الغربية.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

1/ المراجع باللغة العربية:

1- أحمد عفيفي، نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة: 2001.

- محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إل انسجام الخطاب، ص 57¹

- أحمد محمد مداس، لسانيات النص نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري، عالم الكتب الحديث، ط1، الأردن: 2007. ص 40²

- 2- أحمد محمد مداس، لسانيات النص نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري، عالم الكتب الحديث، ط1، الأردن: 2007.
- 3- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت: دت.
- 4- ج براون- ج يول، تحليل الخطاب، ترجمة: محمد لطفي الزليطي – منير التركي، جامعة الملك سعود للنشر العالمي والمطابع، الرياض: 1997.
- 5- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن خوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت: دت.
- 6- الخطيب القزويني، التلخيص في علوم البلاغة، ضبط وشرح: عبد الرحمان البرقوقي، دار الفكر العربي، 1954.
- 7- روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة: تمام حسان، عالم الكتب، ط3، القاهرة: 1998.
- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة: دت. 8.
- 9- سعيد حسن بحيري، علم لغة النص المفاهيم والإتجاهات، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة: 2004.
- 10- صبحي ابراهيم الفقي، علم لغة النص بين النظرية والتطبيق دراسة تطبيقية على السور المكية، دار قباء للنشر والتوزيع، القاهرة: 2000.
- 11- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: سعيد كريم الفقي، دار اليقين للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة: 2001.
- 12- عمر محمد أبو خرمة، نقد النظرية... وبناء أخرى، عالم الكتب الحديث، ط1، الأردن: 2004.
- 13- فان ديك، علم النص مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة: سعيد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب، ط1، القاهرة: 2001.
- 14- فان ديك، النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ترجمة: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، المغرب: 2000.
- 15- فتيحة بوسنة، انسجام الخطاب في مقامات جلال الدين السيوطي مقارنة تداولية، دار بلاء للنشر، الجزائر، دت.
- 16- فولفجانج هاينه مان ديتر فيمقجر، مدخل إلى علم لغة النص، ترجمة: سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق، ط1، القاهرة: 2004.
- 17- محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، ط2، الدار البيضاء – بيروت: 2006.
- محمود السعران، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دار النهضة العربية، بيروت: دت. 18.
- 19- نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب دراسة في النقد العربي الحديث، تحليل الخطاب الشعري والسرد، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر: دت.
- 2/ المراجع باللغة الأجنبية:

¹ - Dominique Maingueneau, *Éléments de linguistique pour le texte littéraire*, Dunod, Paris 1993.

² - J. M. Adam , *linguistique textuelle, des genres de discours aux textes*, Nathan, Paris 1999.

-3 Marie – Anne Paveau et Georgz – Elia Sarfati, *Les grandes théories de la linguistique de la grammaire comparée a la pragmatique* , Armand colin , Mars, 2003 .

-4 shirly carter-thomas, *La cohérence textuelle pour une nouvelle pédagogie de l'écrit*, L'harmattan, Paris 1993.

3/ المجالات:

- 1- مفتاح بن عروس، حول الاتساق في نصوص المرحلة الثانوية مقارنة لسانية، مجلة اللغة والأدب، ع 12، الجزائر، ديسمبر 1999.
- 2- رياض مسيس، لسانيات النص حول بعض المفاهيم، المرجعيات والأبعاد، مجلة المبرز، عدد خاص، الجزائر، فيفري 2002.
- 3- محمد العبد، حيك النص منظورات من التراث العربي، مجلة فصول، ع 59، 2002.

أثر التكرار في التماسك النصي عند علماء الإعجاز القرآني الباقلاني نموذجاً

د. فتوح محمود

جامعة الشلف، الجزائر.

ملخص:

تسعى هذه المقالة إلى بيان مظاهر التماسك النصي المتمثل في التكرار عند علماء الإعجاز، وبالأخص عند الأشعري الباقلاني 403هـ، الذي اهتم بالنص بحد ذاته باعتباره وحدة كلية متماسكة، وبخاصة من خلال تمعنه في نصوص القرآن الكريم المكررة ومحاولة فهمها بتقديم الأدوات لإثبات بلاغة تراكيبها وتماسك نصوصها، وموازنتها مع النصوص الأدبية التي أبدعها البشر وعدت أجود ما كتبه الفحول من الشعراء، ليكشف من خلال التكرار براعة نظم النص القرآني وتماسك وانسجام نصوصه وتفاوت واختلال نصوص البيان البشري.

الكلمات المفتاحية: التكرار، التماسك، النص، الإعجاز، القرآن، الباقلاني.

Abstract:

This article seeks to Detection of text coherence Of repetition When scientists miracle, Especially in Ashari Bakillani 403, Who cared about the text As a cohesive whole unit, In particular through its reading In the texts of the Holy Quran Duplicate and try to understand Provide tools to demonstrate eloquence Their structures and the consistency of their texts, And its balance with literary texts Written by man It became the best he wrote Poets, To be detected through repetition The rhetoric of the Qur'anic texts And the coherence and harmony of its texts And there is a defect in the texts of the human statement.

Keywords: repetition, cohesion, text, miracle, Quran, Albakillani.

المقدمة:

الحمد لله الذي خلق الانسان وعلمه البيان، والصلاة والسلام على الهادي الأمين المبعوث بالحق المبين الرحمة المهداة والنعمة المسداة سيدنا وحبیبنا محمدا صلى الله عليه وسلم المفضل باللسان، صاحب الفصاحة والبيان، إمام المرسلين وخاتم النبيين، وعلى آله وأصحابه أجمعين نجوم الهدى ومصابيح الدجى إلى يوم الدين، وبعد:

فإن النص اللغوي كما هو معلوم عند الكل أنه نص مركب من عدة كلمات مترابطة في جمل متتالية، تجعل من النص وحدة كلية متماسكة محكومة بقوانين تجعل بنيته الشكلية متناسقة، جاءت بوسائل التماسك أو الترابط البنائي طبقاً للتتابع الخطي داخل النص، وقد أثبت الدرس اللغوي الحديث مدى أثر نظرية علم النص في التحول من نحو الجملة إلى نحو النص، لأن ثورة المنهج الذي جاء به علماء النص قد تتبعوا كل متتالية من الجمل، وحينها وجدوا أنها تشكل نصاً متماسكاً شريطة أن تكون بين هذه الجمل المتوالية علاقات، لأن النص لا تتحقق نصيته إلا إذا اجتمعت له معايير تكوّن له نصيته textuality، وهي: السبك Cohesion، الحبك/الاتحام Coherence، والقصد Intentionality، والقبول Acceptability، رعاية الموقف Situationality، والتناص¹ Intertextuality.

¹ ينظر، روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، ط1، القاهرة مصر، 1998م، ص103_105.

ومن أشهر هذه المعايير التي "لها صلة وثيقة بالنص: (السبك والالتحام/الحبك)"¹، والبقية لها دور في تحقيق اكتمال النص بوجودها، لأن السبك له دور مهم وأهمية خاصة في بناء النص، فهو مجموعة من البنى الدلالية والتركيبية التي تربط الجمل مباشرة على مستوى البنية السطحية للنص، وللسبك وسائل وأدوات متعددة تجعل من النص وحدة متكاملة ومتناسقة، وقد جعله علماء النص في خمس أدوات: الإحالة والاستبدال والحذف والوصل والاتساق المعجمي (التكرير والتضام)²، فكلها أدوات تتضافرون تسهم في كفاءة الصياغة من أجل تلاحم النص وسبكه.

وقد كان لعلماء التراث وبالأخص الذين تعمقوا في الدراسات القرآنية الدور البالغ في دراسة النص القرآني واثبات إعجازه، وبالخصوص حينما تعمقوا في النص القرآني وجدوه أنه وحدة كلية متماسكة وكأنه أفرغ في قالب واحد، لأن بحوثهم وصلت إلى أنه تحكمه مجموعة من العلاقات اللفظية والدلالية بين أجزائه فجعلته ملتصقا بمختلف آليات التماسك النصي، ويعدّ التكرار من بين هذه الآليات التي أثبتت جدارته وترك أثره البين في ذهنية المتلقي بتكرار ألفاظه ومعانيه، وفي ذلك تحدث ابن جني سابقا: "واعلم أن العرب إذا أرادت المعنى مكنته واحتاطت له، فمن ذلك التوكيد"³، ومن هنا اهتم به العرب كثيرا في كتاباتهم، وأصبح "سمة من سمات الأسلوب القرآني مثله في ذلك مثل الإيجاز والحذف وغيرها من الأساليب، وقد اهتم دارسو الإعجاز القرآني بالتكرار محاولين إدراك قيمته البلاغية، وبيان دوره في الأسلوب القرآني"⁴.

وأبو بكر الباقلائي الأشعري من بين علماء نهاية القرن الرابع الهجري الذين تعمقوا في البحث لإثبات إعجاز النص القرآني، بحيث أنه خلص إلى أن كلام الله نُسخ بنظم محكم وبلاغته فاقت ما برع به فحول من نطق بالضاد ومن أجاد وأبدع من فحول الشعراء الجاهليين، واختلفت آليات التماسك النصي التي استعملها كحجة في إثبات براعة نظم النص القرآني وتماسك جملة وألفاظه، وكان للتكرار نصيب الأوفر في الحجة والإثبات نظر للأثر البالغ الذي خلفه من تكرار سرد القصص والأحاديث وتكرار الألفاظ والمفردات والجمل، لأنه يعدّ من بين آليات التماسك النصي الذي أثبت جدارته في تحقيق الوحدة الكلية للنص.

والسؤال الذي يطرح: ما مفهوم التكرار والتماسك النصي؟ وما أهمية التكرار ودوره في التماسك النصي؟ وما هي أشكال التكرار الذي وظفها الباقلائي في تحقيق تماسك النص القرآني؟ وكيف نفسر ورود أسلوب التكرار في النص القرآني عند الباقلائي؟

أولاً: تعريف التماسك النصي (Textual Coherence): تعددت مصطلحات التماسك النصي وتنوعت واختلفت وتداخلت لدى باحثين علماء النص، بسبب إشكالية نقل المصطلح إلى العربية وضبط دقة ترجمته من الأصل عن الكلمة الانجليزية (Cohesion)، يقول جمعان عبد الكريم: "التماسك مصطلح مترجم عن الكلمة الانجليزية (Cohesion) وقد وقع في ترجمته بعض الاختلاف كالعادة في عملية انتقال المصطلحات العلمية مترجمة إلى العربية، فترجمة محمد الخطابي إلى الاتساق، في حين ترجمه تمام حسان إلى السبك، وترجمه إلهام أبوغزالة وعلي خليل حمد: التضام، أما عمر عطاري فترجمه

¹ روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص 106.

² ينظر، محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام النص، ص 24_16.

³ ابن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب، ط، القاهرة مصر، 1956م، ج 3، ص 101.

⁴ محمد مصطفى أبو شوارب وأحمد محمود المصري، أثر المتكلمين في تطور الدرس البلاغي القاضي عبد الجبار نموذجاً، دار الوفاء لنشر الطباعة والنشر، ط 1، الإسكندرية مصر، 2006م، ص 90.

إلى: الترابط"¹، وأطلق عليه عمر السلامي: التناسق²، ومحمد خطابي: الاتساق أو الانسجام³، وصلاح فضل: الانسجام والتماسك⁴، وسعيد بحيري: الربط⁵، والأزهر زناد: التماسك⁶،... وغيرها من مصطلحات التماسك النصي في المؤلفات العربية. وقد حدد مفهومه بأنه "يعني تتابع الألفاظ وتداعيمها وتولد اللفظة من غيرها،... إن المعاني تبعها الألفاظ إلى الوجود في صيغة تعبيرية وثبتت معالمها بجلاء ووضوح الوحدة التركيبية التي تقوم على أساس النظم وتدع المعاني متداعية واحدة تلو الأخرى...فالتناسق بين المعاني يعني الاستجابة الفنية للعمل الفكري والنفسي"⁷، ومن هنا فمفهومه "مفهوم دلالي يحيل إلى العلاقات المعنوية القائمة داخل النص، والتي تحدده كنص،... والاتساق لا يتم في المستوى الدلالي فحسب، وإنما يتم أيضا في مستويات أخرى كالنحو والمعجم"⁸،... فتجعل أجزاء النص متلاحمة و متماسكة تشد بعضها ببعض، وإن غاب هذا الالتحام ظهر النص وكأنه قطع أشلاء مترامية الأطراف لا رابط بينها.

وهذا فإن أهمية التماسك النصي داخل الخطاب من أهم "عوامل استقرار النص ورسوخه، ومن ثم تتضح أهميته في تحقيق استقرار النص بمعنى عدم تشبث الدلالات الواردة في الجمل المكونة للنص"⁹.

ثانيا: تعريف التكرار Reiteration: يعدّ التكرار ظاهرة عامة في جميع اللغات، فهو لا يقتصر وجوده على اللغة العربية فقط، وبوصفه خاصية أسلوبية مميزة تعمل على زيادة ترابط النص، فقد عدّ من أبرز مظاهر التماسك المعجمي الذي يحقق تلاحم وسبك النص، فهو يقوم ببناء شبكة من العلاقات داخل النص، وهذه العناصر المكررة تحقق ترابطا وتماسكا، لأنه يعطي للجمل فوائد جمالية وأخرى دلالية تساهم في رفع كفاءة التركيب اللغوي، فتزوده بقدر كبير من المعاني وتزيد من بلاغته على مستوى بنية النص فتغذيه من الجانب الدلالي ويزيده بهاء من الجانب التداولي، وبالتالي فهو "شكل من أشكال الاتساق المعجمي يتطلب إعادة عنصر معجمي، أو ورود مرادف له أو شبه مرادف أو عنصرا مطلقا أو اسما عاما"¹⁰، وكل هذا ما يحقق تماسك النص وانسجامه، وبالرغم من هذه الميزات التي يتميز بها باعتباره من المحسنات اللفظية التي تزيد حسنا وجمالا للنص، إلا أنه قد ثار حوله جدل واسع خاصة فيما يتعلق بإثباته في القرآن الكريم، فقد أنكره بعض العلماء والباحثين وقوعه في القرآن مدعين أنه لا فائدة منه، وأعلنوا أن كل مكرفيه جديد طريف، أرادوا أن كل مكرر لا يجيء مرة بعد مرة إلا وهو آت لسبب جديد وهدف طريف¹¹، وإن الذي ينكره هؤلاء العلماء في الحقيقة هو ما يعرف بالتكرار المحض الذي لا يضيف شيئا في الكلام، وقد رد عليهم الزركشي بقوله: "وقد غلط من أنكر كونه من أساليب الفصاحة ظنا أنه لا فائدة وليس كذلك بل هو من محاسنها لاسيما إذا تعلق ببعضه ببعض"¹².

¹ جمعان عبد الكريم، إشكاليات النص دراسة لسانية نصية، النادي الأدبي، ط1، الرياض السعودية، 2009م، ص197.

² عمر السلامي، الإعجاز الفني في القرآن، توزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، 1980، ص173.

³ ينظر، محمد خطابي، لسانيات النص، ص110.

⁴ ينظر، صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أغسطس 1992م، ص236.

⁵ ينظر، سعيد بحيري، علم لغة النص، مؤسسة المختار، ط1، القاهرة مصر، 2004م، ص120.

⁶ الأزهر زناد، نسج النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، بيروت لبنان، 1993م، ص110.

⁷ عمر السلامي، الإعجاز الفني في القرآن، ص173.

⁸ محمد خطابي، لسانيات النص، ص15.

⁹ صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق دراسة تطبيقية على السور المكية، دار قباء للطباعة والنشر، ط1، القاهرة مصر، 2000م، ص74/1.

¹⁰ - الخطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، ص24.

¹¹ ينظر: حسين نصار: التكرار، مكتبة الخانجي، دط، القاهرة مصر، 2003م، ص08.

¹² بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الفكر للطباعة والنشر، دط، بيروت لبنان، 2001م، ص12/3.

1. مفهومه في اللغة: التكرار من كَرَّر الشيء وكَرَّرَهُ: أعاده مرة بعد أخرى، وكررت عليه الحديث: إذا رَدَّدته عليه¹، وتاء (تكرار) ليس لها إلا الفتح ولا يجوز كسرهما، لأن المصادر انما تَجِي على (التَّفْعَال)، بفتح التاء، وقد مَثَّل ابن منظور لذلك بالتَّذْكار والتَّكرار والتَّوكاف، ولم يَجِ بالكسر إلا حرفان وهما السَّبَّبان والتَّلْفَاء، ونستنتج أن التَّكرار في معناه اللغوي هو إعادة جزء من أجزاء الكلام، سواء أكانت هذه الإعادة باللفظ أو بالمعنى، وكلها تساهم في تحقيق التماسك النصي داخل النص.

2. وفي الاصطلاح: هو "إعادة اللفظ أو مرادفه لتحقيق عدة أغراض من أهمها تحقيق التماسك المعجمي بين عناصر النص المتباعدة"²، أو هو "الإعادة المباشرة للعناصر المعجمية داخل البنية اللغوية للنص"³، ويتمثل في أن "يأتي المتكلم بلفظ ثم يعيده بعينه سواء أكان اللفظ متفق المعنى أو مختلفا، أو يأتي بمعنى ثم يعيده، وهذا شرط اتفاق المعنى الأول والثاني، فإن كان متحد الألفاظ والعاني فالفائدة في إثباته تأكيد ذلك الأمر وتقريره في النفس وكذلك إذا كان المعنى متحدا وإن كان اللفظان متفقين والمعنى مختلفا، فالفائدة في الإتيان به الدلالة على المعنيين المختلفين"⁴، وقد أطلق علم تمام حسان: إعادة اللفظ⁵، والأزهر زناد: الإحالة التكرارية⁶... نخلص من هذه التعاريف إلى أن مفهومه في الاصطلاح: هو أن يأتي المتكلم بلفظ ثم يُعيدُه بعينه أو بمعناه في البيت أو العبارة لإحراز فائدة التأكيد، وتقريره في النفس.

ومن أبرز شروطه: أن يكون للمكرر نسبة ورود عالية في النص⁷، وأن يساعد رصده على فك شفرة النص وإدراك دوره الدلالي فيه، وأن يقع التكرار من أكثر من كاتب، أو في النص الواحد⁸، وقد بينت بعض الاجتهادات الغربية منها دراسة دي بوجراند إلى أنه قد يكون ضارا إن لم يحسن استخدامه، قال: "ويمكن لإعادة اللفظ في العبارات الطويلة أو المقطوعات الكاملة أن تكون ضارة، لأنها تحبط الإعلامية ما لم يكن هناك تحفيز قوي، ومن صواب طرق الصياغة أن تخالف ما بين العبارات بتقليها بواسطة المترادفات"⁹، كما أن الإكثار منه قد يظهر الفقر اللغوي لدى الكاتب، وينتج عنه عدم قبول النص لعم تماسكه¹⁰

ثالثا: التكرار وأثره في التماسك النصي:

لقد توسع اهتمام الدارسين في العصر الحديث بدراسة التكرار وتبعه في النص، ولم يتوقف الأمر على اعتباره أنه أداة ربط فقط، بل زاد اهتمامهم بدلالته في كل موضع داخل النص، لأن حسب تصوراتهم وفي كتاباتهم زيادة على كونه يؤدي وظائف دلالية معينة، فإنه يؤدي كذلك إلى تحقيق التماسك النصي، وذلك عن طريق امتداد عنصر ما من بداية النص حتى آخره، هذا العنصر قد يكون كلمة أو عبارة أو جملة أو فقرة، وهذا الامتداد يربط بين عناصر هذا النص مع

¹ - ابن منظور، لسان العرب، مج5، ج5، ص160.

² صبيحي الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، 20/2.

³ إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد، مدخل إلى علم لغة النص، ص81.

⁴ أحمد مطلوب، معجم النقد العربي القديم، دار الشؤون الثقافية العامة، ط1، بغداد العراق، 1989م، ج1، ص370.

⁵ ينظر ترجمته للمصطلح في كتاب، روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص303.

⁶ الأزهر زناد، نسيج النص بحث فيما يكون به الملفوظ نصا، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، ط1، الدار البيضاء المغرب، 1993م، ص119.

⁷ ينظر، ابن المعتز، البديع، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجليل، ط1، بيروت لبنان، 1990م، ص203.

⁸ ينظر، صبيحي الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ط1، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، 2000م، 22/2.

⁹ روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص306.

¹⁰ ينظر، حسام أحمد فرج، نظرية علم النص، مكتبة الآداب، ط1، القاهرة مصر، 2007م، ص108.

مساعدة عوامل التماسك الأخرى¹، وقد حددت الباحثة نوال بنت إبراهيم الحلوة جملة من الوظائف التي يقوم بها التكرار في النص من أجل تحقيق التماسك النصي، وهي:

1. الاستمرارية: إن الاستمرار في تكرار كلمة معينة يسهم في تتابع النص وترابطه، وبالرغم من تكرار الوحدة المعجمية نفسها، إلا أن الكلمتين المكررتين لا تحملان الدلالة ذاتها، فالوحدة المكررة ليست هي الوحدة السابقة، بل اكتسبت بما فيها وبما بعدها معنى آخر، وهذا المسوغ لوجودها مرة أخرى في بنية النص.
2. شد النص وسبكه من خلال هذا الاستمرار والإطّراد، حيث يسهم التكرار بربط الوحدات النصية الكبرى بالوحدات النصية الصغرى، مما يخلق أساساً مشتركاً بينها، ويُحْكِمُ العلاقات بين أجزاء النص.
3. كثافة الكلمات المكررة داخل النص، فالكلمة الأولى تختلف عن الكلمة الثانية المكررة، إذ إن الكلمة المكررة تكتسب كثافة أعلى، وذلك يسهم في نسيج النص، وفك شفراته الدلالية من خلال هذا التتابع الدلالي، مما يدعم ثبات النص بهذه الديمومة الواضحة، ويسهم في تماسكه.
4. إن بناء النص على عناقيد من الكلمات المكررة يوضح القضية الكبرى في النص، فتلك هي المفاتيح التي تربط المحتوى القضوي، وتسهم في الربط بينها.
5. يحمل التكرار طاقة وظيفية متميزة، تتمثل في الدعم الدلالي لمفردات محددة في النص، وإبقائه عليها في بؤرة التعبير، مما يؤكد الأثر الذي يتركه التكرار في العمليات الاجتماعية فإن اللفظ المكرر، وإن كان بسيطاً، فإنه يحظى من خلال التكرار بقوة دافعة، لذا جاءت مقولة: ما أخبرتك إياه ثلاث مرات فهو صحيح.
6. تسهيل فهم الكلام: وفائدته هنا تتمثل في أنه يظهر تعالق الجمل بعضها ببعض، كما أنه يسهل على السامع أو القارئ فهم النص إذ يتم توصيل المعلومات إليه بوتيرة أبطأ قليلاً².
7. التماسك عبر التكرار يجعل كلمات الخطاب جزءاً لا يتجزأ، ويضفي على النص لونا إيقاعيا مميزا ومتناسقا، فوظيفة التكرار "هي الضم، والضم يعني ربط الشيء بما ضم إليه وفي هذه الربط يتحقق التماسك"³.
8. تكمن وظيفته في أنه "تخدم النظام الداخلي للنص، وتشارك فيه، لأنه الشاعر يستطيع بتكرار بعض الكلمات أن يعيد صياغة بعض الصور من جهة، كما يستطيع أن يكثف الدلالة الإيحائية للنص من جهة أخرى"⁴.
9. يقوم بوظيفة تداولية هي الاهتمام بالخطاب، أي لفت أسماع المتلقين_إلا أن هذا الكلام له أهمية كبيرة لا يجوز إغفالها⁵.
10. إن إعادة اللفظ يعطي منتج النص القدرة على خلق صور لغوية جديدة، لأن أحد العنصرين المكررين قد يسهل فهم الآخر، فبالرغم مما يتطلبه مبدأ الإعادة ويبدو أن السامعين والقراء يهينون إرهاساتهم للاستجابة لهذه العوامل⁶، إلا أنها تسهم في ترابط متتاليات الجمل داخل السياق فتجعل النص كله في وحدة متناسقة ومتماسكة.

¹ ينظر: الفقي: علم اللغة النصي، ج2، ص22.

² نوال بنت إبراهيم الحلوة، أثر التكرار في التماسك النصي مقارنة معجمية تطبيقية في ضوء مقالات خالد المنيف، مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وأدابها، السعودية، العدد 8، مايو 2012م، ص24_25.

³ صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق دراسة تطبيقية على السور المكية، 19/2.

⁴ منذر عياشي، مقالات في الأسلوبية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ط1، دمشق سوريا، 1990م، ص83.

⁵ محمد خطايي، لسانيات النص، ص179.

⁶ روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص306.

ومن خلال هذه النقاط الموجزة التي تحدد وظيفة التكرار داخل النص، نستنتج أن له أهمية بالغة في شد النص وتناسق متتاليات جملة، وبالتالي فهو وسيلة من وسائل التماسك، إذ إنه المعيار الذي يميز بين النص واللانص¹، زيادة على ذلك أن له وظيفة اتصالية إقناعية تسهم في استمالة المتلقي وإقناعه والتأثير فيه بقوة الحجة اللغوية سواء كانت بالألفاظ المكررة أو المعاني.

رابعاً: أثر التكرار في تماسك النص القرآني من منظور الباقلائي:

لقد اهتم علماء التراث بالبحث في التكرار منذ القديم باعتباره من الأساليب الشائعة في العربية وفي القرآن الكريم، واستُعملَ لحاجة المتكلم إلى تأكيد معناه، وتقريره في نفوس متلقيه، حتى "قيل: الكلام إذا تكرر تقرر"²، وبخاصة ممن تعاطوا صنعة الأدب ونقده، ثم ازدهر في ظل الدراسات القرآنية، وسبب ذلك ما ذكره الطاعنون في كتاب الله، فكان لزاماً على من تصدى للرد عليهم أن يدرس هذا الأسلوب، وأن يُبين أسرارها في القرآن الكريم، وأن يُشير إلى نظيره من كلام العرب. والباقلاني من بين هؤلاء العلماء الذين تعرضوا له في معرض دفاعه عن القرآن الكريم من طرق القول ومآخذه عند العرب، مُبيناً بواعث مجيء القصص القرآني متناهي المعنى ومكرراً، فتعرض له بالبحث والتقصي فيه دون أن يُعرِّفه، وعدّه من البديع بقوله: "ومن البديع التكرار"³، ولاحظ أن هذا الأسلوب من "عادة العرب أن تكرر ليُفهم عنها، ولتُبَلِّغ إلى مُرادها، فمن ذلك قولهم: عَجَلَّ عَجَلَّ، ويقولون: أمرك بالفداء وأنهاك عن الغدر، وأمر بالفداء هو نبي عن الغدر"⁴. وكذلك عدّ هذا الأسلوب من خصائص بلاغة النص القرآني؛ لأنه يُورد القصة الواحدة في أَوْفَى درجة من حُسن البيان، ثم يُعيدها في سورة أخرى على حسب ما يقتضيه المقام دون خلل أو اضطراب⁵، فكانت قصبة متناسقة ومتماسكة ومتماسكة في الكثير من السور والآيات، فلا تحس أن الألفاظ والمعاني قد تكررت وهذا إعجاز دلالة على تماسك نظم النص القرآني، أما إذا وقع في نص كلام الناس، فإنه ينزل من درجة بلاغة القرآن، ويُخل بمقتضيات الفصاحة ويكتنف الكلام برودة وسماحة، مما يؤدي به إلى نفور النفس في قبوله، وهذا الأمر هو الذي دعا الباقلائي إلى تحليل التكرار الوارد في البيان البشري، وكانت جُلّ وقفات حافلة برؤية سلبية، ترى التكرار في نص كلام البشر ما هو إلا ثقلاً وزيادة يُستغنى عنها البيان، أما في القرآن الكريم، فنجد فيه بلاغة الإطناب الذي لا خلل ولا اضطراب في أساليب الخطاب، فكان معجزاً ومناسباً في جل المحطات من نصوص القرآن الكريم التي من خلاله أعطى لها بلاغة تامة ورونقا زاد من معنى المفردة والجملة في الآية والسورة القرآنية؛ لأن كل كلام إذا كرر في موضوع واحد لم يحافظ على فصاحته الأولى، أما القرآن الكريم فصيح في كل تكراراته المتشابهة.

➤ أنماط التكرار عند الباقلائي:

1. التكرار الصوتي: إن للصوت دور كبير في عملية التواصل البشري، فهو يحقق لهم فائدة استيعاب المعنى بأسرع وقت ودون جهد وعناء القراءة أو الكتابة، لأن الأفكار تسري بالصوت إلى العقل بطريقة سلسلة تفتتن بها الأذن قبل فهم المعنى، ومن هنا اهتم العرب قديماً بالصوت وطريقة ترديده، وأعجب به كثيراً لما يحمله الحرف أو اللفظ من تأثير قوي الذي

¹ ينظر، محمد خطابي، لسانيات النص، ص 254-256.

² الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج 1، ص 10.

³ إعجاز القرآن، ص 106.

⁴ نكت الإنتصار لنقل القرآن، ص 212.

⁵ ينظر، الباقلائي، إعجاز القرآن، ص 190.

في طياته نغمات ناتجة عن اتحاد أو تخالف أو طرب، لأن هناك من الأصوات "ما يسر النفوس حتى يفرط عليها السرور فتقلق حتى ترقص، وحتى ربما رمي الرجل بنفسه من حالق"¹، بفعل قوة الطرب الذي تحدثه اللفظة في أذن المرء، وإن للتكرار الأثر البالغ والأهمية المميزة في طرب الصوت واحداث نغمه، لأنه يهدف إلى التأثير في العاطفة، بل إن منه "ما يزيل العقل حتى يغشى على صاحبه، كنحو هذه الأصوات الشجية والقراءات الملحنة، وليس يعترهم ذلك من قبل المعاني، لأنهم في كثير من ذلك لا يفهمون معاني كلامهم، وقد بكى ما سرجويه من قراءة أبي الحوخ، فقيل له: كيف بكيت من كتاب الله ولا تصدق به؟ قال: إنما أبكاني الشجا!"²، وهذا دليل أن كتاب الله والتكرار الصوتي الذي كان يحدثه ألفاظه دليل على قوة تأثير النغم على العقل البشري، فبث موسيقى صوتية وأنغام متكررة أوحث إلى السامع شعائر مختلفة، أثرت فيه وسيطرت على مخيلته واستقلت استقلالاً تاماً عن تأثيرات المعنى، ساهمت في متعة تذوق الانسجام الحي، سواء أكانت بالأجزاء المكررة أو المنوعة أو المتناسبة، ويتمثل جهد الباقلائي في إثبات مقدرة التكرار الصوتي في احداث المتعة الذوقية وتحقيق الانسجام وتماسك النص القرآني في القضايا التالية:

أ. الجناس: وهو أن تجى الكلمة تجانس أخرى وتشابهها في تأليف حروفها، أو يكون تجانسها في تأليف الحروف دون المعنى، وسمي جناساً لما فيه من المماثلة اللفظية والمشابهة الصوتية³، ومن هنا عدّ الجناس بنوعيه من بين الآليات التي تتكرر بها بعض أصوات الكلمة في مثل خاصيتها، مجاورة لها من الايقاع نفسه، مما يشد انتباه المتكلم إذ "إن القيم الصوتية لجرس الحروف والكلمات عند التكرار لا تفارق القيمة الفكرية والشعورية المعبر عنها"⁴، والجناس كله تكرير، فمنه⁵:

1. ما يكون في اللفظ والمعنى عن طريق الاشتقاق أو غيره كالـتصريفِ - كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً نُّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰ لَكُمْ مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ۗ﴾ [سورة التوبة، الآية 127].

2. ما يكون في اللفظ دون المعنى، فيكون التكرار في الصورة، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيَأْتِيَنَا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ۗ﴾ [سورة الروم، الآية 55]

3. ما يكون من باب تكرار الحروف كقولهم: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۗ﴾ [سورة الأنعام، الآية 26].

غير أن للتجنيس فضلاً ومزية يتميز بها على التكرار وهي أن الشاعر أو الأديب يعيد عليك اللفظة "كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعادها، ويوهمك أنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاهها، ولهذه النكتة كان التجنيس وخصوصاً المستوفي منه مثل: (نجا ونجا)... من حلي الشعر"⁶.

وقد أخذ الباقلائي هذا المصطلح من معاصره الرماني (ت386هـ) الذي عقد له باباً تحت عنوان: «التجانس»⁷، غير أنه لم

¹ الجاحظ: الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط2، القاهرة مصر، 1966م، الكتاب الأول، ج4، ص192.

² الجاحظ: الحيوان، الكتاب الأول، ج4، ص192.

³ ينظر: ابن المعتز: البديع، تحقيق كراتشوفسكي، دار الحكمة، دت، دمشق سوريا، دط، ص25.

⁴ عز الدين السيد، التكرير بين المثبر والتأثير، علم الكتب، ط2، بيروت لبنان، 1407هـ، ص73.

⁵ ينظر: الخطيب القزويني: الايضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت لبنان، 2003م، ص291.

⁶ عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة، دط، ، بيروت لبنان، 1348هـ، ص402_403.

⁷ ينظر، النكت في إعجاز القرآن، ص 91.

يُشر إليه وإنما قال: "ذكر بعض أهل الأدب والكلام"، وعَرَفَه بقوله: "هو بيان بأنواع الكلام الذي يجمعه أصل واحد"¹، ومعنى ذلك: أن تأتي بكلمتين متجانستين²، أي: "أن تجانس الكلام إذا كان من البلاغة فهو بيان يكتسبه النظم بتجانس الألفاظ المنسوق بعضها على بعض فيه، وأراد بالأصل الذي يجمع الألفاظ المتجانسة الأصل الذي عنه تُشتقُ الأبنية والأمثلة"³.

❖ وجوهه: قسم الباقلائي التجنيس _ كما فعل الرماني قبله⁴ _ إلى وجهين:

- المجانسة التي هي المناسبة: فكل من جانس بين كلمتين ترجعان إلى معنى واحد، فقد جانس⁵، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا سَرَفًا اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ۗ﴾ [سورة التوبة، الآية 127]، فجانس بين انصرافهم عن الذكر وبين صرف قلوبهم عن الخير، والأصل واحد هو الذهاب .

- التجنيس التي هي المزوجة: فإنما تقع في الجزاء، والأول ليس بجزاء، والثاني جزاء، نحو: «كَمَا تَدِينُ تُدَانُ»، فهذا التجانس يدخل في باب الاستعارة إن اشتبه اللفظ، فالمعنى مختلف⁶، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينِ ۗ﴾ [سورة آل عمران، الآية 54]، ومنها قوله: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۗ﴾ [سورة البقرة، الآية 194]، "أراد بالمزوجة لأن تجعل اللفظة الثانية المجانسة للأولى زوجاً لها من غير مناسبة تكون بينهما، يدل على ذلك أنه جعل القسم الثاني من قسيمي التجانس «المناسبة»، وليس يجوز في القرآن ولا فيما دونه في البلاغة من كلام الحكماء أن يُزَوَّجَ بين لفظتين لا مناسبة بينهما . ولو قلت: «من ظلمك فاطلمه، ومن تسفك عليك فَتَسَفَّهُ عليه»، لو يكن مزوجة في هذا مما يُحْمَدُ أو يُسْتَصَوَّبُ في الحكمة، وإنما يصلح في هذه المزوجة في الشعر، وما يُضَاهِيهِ من الكلام الذي لا يراعي فيه شروط الحكمة"⁷. ومثل ذلك من الشعر، كقول عمرو بن كلثوم⁸:

ألا لا يَجْهَلُنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَتَجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا

- أقسامه: قسم التجنيس إلى ثلاثة أقسام:

الأول: منه ما تكون الكلمة تجانس الأخرى في تأليف حروفها ومعناها: وإليه ذهب الخليل بن أحمد.

الثاني: ومنهم من زعم أن المجانسة أن تشترك اللفظتان على جهة الاشتقاق⁹، ومثال ذلك من القرآن الكريم، قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَدِيمِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلِ ۗ إِنَّ يَأْتِي يَوْمًا لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ ۗ﴾ [سورة الروم، الآية 43]، وكقوله: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۗ﴾ [سورة النمل، الآية 44].

الثالث: وقد يكون التجنيس بزيادة حرف، أو بنقصان حرف، أو ما يقارب ذلك¹⁰. ومثَّل له من الشعر بقول البحري¹¹:

هل لما فات من تلاقٍ تلافٍ أم لشاكٍ من الصَّبَابَةِ شافٍ ؟

¹ إعجاز القرآن، ص 271 .

² نفسه، ص 83 .

³ عبد القاهر الجرجاني، شرح رسالة الرماني في إعجاز القرآن، ص 112 .

⁴ ينظر، النكت في إعجاز القرآن، ص 91-92 .

⁵ نكت الانتصار لنقل القرآن، ص 261 . وإعجاز القرآن، ص 272 .

⁶ المصدر نفسه .

⁷ عبد القاهر الجرجاني، شرح رسالة الرماني في إعجاز القرآن، ص 112-113 .

⁸ من معلقته في شرح القصائد السبع للزوزني، ص 120 .

⁹ إعجاز القرآن، ص 83 .

¹⁰ إعجاز القرآن، ص 86 .

¹¹ ديوانه، ج 1، ص 346 .

وقد قيل من هذا القبيل في القرآن الكريم، قوله عزوجل: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ

[٣٧] ﴿سورة الأنبياء، الآية 37﴾

إن الإيقاع الصوتي الواقع في الجنس في جهد الباقلائي لاثبات تماسك النص القرآني يتشمل في إيقاع قائم على انتظام الحركة بين الكلمات الشبيهة المكررة لما تحدثه من تناغم صوتي يؤدي إلى تماسك النص وتقوي نسجه، وكل هذا يساهم في ميل الإنسان إلى الاصغاء إليها وجلب انتباهه ليحس براحة تامة عمادها ترابط المعاني وانسجامها مع الألفاظ مشكلة براعة في النظم وتماسك في النص.

2. التكرار الشكلي: وينقسم إلى:

أ. تكرار الكلمة: أولى باحثوا علم النص عناية تامة بتكرار الكلمة في النص باعتبارها من أهم مظاهر الاتساق المعجمي وضوحا على سطح النص، وكان لعلماء التراث الأسبقية في ذلك، ويعدّ جهد الباقلائي من بين الجهود التراثية التي اجتمعت وتعمقت في اثبات تكرار المفردة في التعبير القرآني، لأنها تعطي للنص تماسكا مميزا وتحقق غاية بلاغية تزيد من جمال النص وبراعة تركيبه، فهو يعتبر أن تكرار الكلمة مظاهر بلاغة القرآن؛ لأنه يُورد القصة الواحدة في أوفى درجة من حُسن البيان وبراعة في نسج القصص والأحداث، ثم يُعيدها في سورة أخرى على حسب ما يقتضيه المقام دون خلل أو اضطراب، أما إذا وقع في كلام الناس، فإنه ينزل من درجة بلاغة القرآن، ويُخل بمقتضيات الفصاحة ويكتنف الكلام برودة وسماحة، مما يؤدي به إلى نفور النفس في قبوله، وهذا الأمر هو الذي دعا الباقلائي إلى تحليل التكرار الوارد في البيان البشري، وكانت جُلّ وقاته حافلة برؤية سلبية، ترى التكرار في كلام البشر ما هو إلا ثقلا وزيادة يُستغنى عنها البيان.

ومن بين النماذج التي وقف عندها الباقلائي في دراساته القرآنية، بعض القصائد من الشعر الجاهلي، باعتبارها من أجود القصائد التي ابداعها فحول شعراء العرب آنذاك، منها معلقة امرئ القيس التي وقف عنها الباحث واستوقف كثيرا في العديد من محطاتها ليثبت من خلالها للقارئ أن هناك الكثير من السقطات والهينات التي وقع فيها الشاعر بتوظيفه لتكرار المفردات التي أخلت بجمالية النص، بخلاف التكرار إذا وقع في النظم القرآني فإنه يزيد رونقا وجمالا، ويتضح من خلاله مقام المعنى في السياق، ويزيد من دلالات الألفاظ التي تشكل تماسكا مع النص بأكمله، ومن بين الشواهد الشعرية من قول امرئ القيس التي وقف عندها الباقلائي منها قوله¹:

ويوم دخلتُ الخِدرَ خِدرَ عُنيزةٍ فقالت: لَكَ الويلاتُ إنَّكَ مُرْجِلي
تقولُ وقد مال الغبيطُ بنا معاً عقرتَ بعيري يا امرأ القيس فانزِل

وأول تكرار وقف عليه في البيتين: تكرار كلمة: «الخِدرَ»، يقول: "قوله: «دخلتُ الخِدرَ خِدرَ عُنيزةٍ»، ذكره تكريماً لإقامة الوزن، لا فائدة فيه غيره، ولا ملاحه له ولا رونق"، أما التكرار الثاني الذي أخذه على البيتين، تكرار كلمة: «قالت» و«تقول» يقول: "وتكريره بعد ذلك: «تقولُ وقد مال الغبيطُ»، يعني قَتَبَ الهُدُجَ، بعد قوله: «فقالت: لَكَ الويلاتُ إنَّكَ مُرْجِلي»: لا فائدة فيه غير تقدير الوزن، وإلا فحكاية قولها الأوّل كاف وهو في النظم قبيح؛ لأنه ذكره مرة: «فقالت»، ومرة: «تقول»، فهي في معنى واحد وفصل خفيف"².

¹ ديوانه، ص 27-29.

² إعجاز القرآن، ص 166.

هذا في البيان البشري، أما في القرآن الكريم، فنجد فيه بلاغة الإطناب الذي لا خلل ولا اضطراب في أساليب الخطاب؛ لأن كل كلام إذا كرر في موضوع واحد لم يحافظ على فصاحته الأولى، أما القرآن الكريم فصيح في كل تكراراته المتشابهة .

ب. تكرار العبارة: لقد سجل الباقلائي للتكرار عدّة معانٍ في وجوه منها: التكرار الذي يكون في إعادة اللفظ نفسه والمعاني مختلفة¹، ونظيره من القرآن كثير، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ٦﴾ [سورة الشرح، الآية 5-6]. والتكرار في هذه الآية: "أن اليسر الثاني غير اليسر الأول، بدليل تنكيهه، والعسر الأول هو الثاني بدليل تعريفه باللام، وفي الحديث _ عن عمر رضي الله عنه: «لن يغلب عسر يسرين»². وقوله تعالى: ﴿أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ ٣٤ ثُمَّ أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ ٣٥﴾ [سورة القيامة، الآية 34-35]، فالتكرار في قوله: «أولى لك فأولى»، كررها مرتين، بل كررها أربع مرات، فإن قوله: «أولى» تام في اللفظ، بدليل قوله: ﴿وَيَقُولُ لَآئِذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَىٰ لَهُمْ ٢٠﴾ [سورة محمد، الآية 20]، فإن جمهور المفسرين: ذهبوا إلى أنه للتهديد، وإنما كررها؛ لأن المعنى: أولى لك الموت، فأولى لك العذاب في القبر، ثم أولى لك أهوال القيامة، وأولى لك عذاب النار نعوذ بالله منها"³.

وكذلك قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ٤﴾ [سورة التكاثر، الآية 4-3]، كررت جملة «كلا سوف تعلمون»، وهذا التكرار يؤكد الإنذار والتحذير، ويشعر الحرف «ثم» بالمبالغة في الردع و إذ يدل على التدرج والارتقاء في الإنذار والتحذير⁴. أما تكريره في سورة المرسلات: ﴿قَوْلِيلٌ يَوْمِنَا لِلْمُكَذِّبِينَ ١١﴾، فهو أنه تعالى ذكر فيها أمراً بعد أمر، ثم قال عقيب كل شيء ذكره من ذلك: ﴿وَيْلٌ يَوْمِنَا لِلْمُكَذِّبِينَ ١٥﴾ بالأول و﴿وَيْلٌ يَوْمِنَا لِلْمُكَذِّبِينَ ١٩﴾ بالثاني، وربما كان الويل الثاني لغيره من الويل الأول، فعلى هذين التأولين ليس في السورة تكرار⁵ مغل بل هو تكرار الجملة كان لغاية بلاغية إعجازية زادت من تماسك النص القرآني. وأما قوله تعالى في سورة القمر: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ١٥﴾، فهو جارٍ على هذا السبيل؛ لأن تيسيره القرآن للذكر غير إهلاك أشياعهم، فقوله عقيب كل شيء: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾، ليس بتكرار⁶ عادي، ولما أودع الله سبحانه كل شيء من القرآن موعظة وقصة غير الأخرى جاز أن يقول: ولقد يسرنا القرآن الذي فيه ذكر هذه القصة للذكر، فهل من مُدَكِّرٍ بها. وعلى معنى هذا قوله تعالى في سورة النمل: ﴿أَعَلَّ مَعَ اللَّهِ ٦٠﴾، مكرر لأجل تعديد النعمة المتغيرة والدعاء إلى الاستدلال بها، وأما تكريره تعالى في سورة الرحمن: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣﴾، قال: فإنه ليس بتكرار؛ لأنه عدّد نعماً مختلفة، ثم قال للإنس والجن عقيب كل فصل: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، فإن قيل: فقد قال: الله تعالى في هذه السورة: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ عقيب ما ليس بنعمة، بل عقيب قوله: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ٤٣﴾ [سورة الرحمن، الآية 43] و: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ٣٥﴾ [

¹ نكت الانتصار لنقل القرآن، ص 213.

² ابن جماعة الكناي، كشف المعاني في متشابه المثاني، تحقيق محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت لبنان، 1428هـ/2007م، ص 155.

³ محمود بن حمزة بن نصر الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت لبنان، 1406هـ/1986م، ص 191.

⁴ بسيوني عبد الفتاح فيود، من بلاغة النظم القرآني، ص 284.

⁵ نكت الانتصار لنقل القرآن، ص 215-216.

⁶ المصدر نفسه.

سورة الرحمن، الآية 35]. يقال وصفه جهنم وذكرها تحذيراً منها، من أعظم النعم على مؤمني الإنس والجن، وهماً للذنان أراد الله تعالى¹.

من خلال هذه الآيات القرآنية التي تحمل في طياتها تكرار العبارة في العديد من محطات السورة الواحدة، فهذا لا يعني أن التكرار لا فائدة منه، بل جاء لتحقيق غايات بلاغية تحمل أسرار إعجازية، وبهذا التكرار حقق التماسك النصي بين وشائج النص وجعله متلاحم الألفاظ والعبارات.

تكرار القصص: لقد سلك القرآن الكريم بالتكرار طريقاً غير مألوف عند العرب، ونحى به مناحي متعددة جاءت على غير مقاييس اللغة في إعادة القصة الطويلة في مواضع مع اتحاد معناها واختلاف لفظها طولاً وقصرًا، وهذه دلالة على أنه معجزة أسلوبية تميزها النظم الإلهي في القرآن الكريم بخلاف ما يلقي من قصص في التراث العربي بأشكال مختلفة وتفاوت في الألفاظ والمعاني والمفاهيم.

وقد أولى علماء التراث عناية فائقة بتكرار القصص في القرآن الكريم، إما بحصاد ألسنتهم، أو بحركة أقلامهم واستنتجوا في ذلك أنه "ليس في القرآن مكرراً لا فائدة في تكريره، فإن رأيت شيئاً منه تكرر من حيث الظاهر، فانعم نظرك فيه، وانظر إلى سوابقه، وإلى لواحقه لتكشف لك الفائدة منه"².

وقد ذكر الباقلاني "أن تكرار القصص في القرآن نوع من أنواع التحدي البلاغي، فقد أشار إلى الإعجاز البين في وقوع كلمات القرآن ومواقعها، وعرض آيات كثيرة يُشير فيها إلى هذه البلاغة الفائقة"³، التي لو أعادها البليغ لظهر على كلامه إعياء الخروج والتنقل، أو يظهر على خطابه آثار التكلف والتعمُّل؛ "وإن أردت أن تتبين ما قلناه فضل تبين، وتتحقق بما ادعينا زيادة تحقُّق، فإن كنت من أهل الصنعة فاعمد إلى قصة من هذه القصص، وحديث من هذه الأحاديث فعبر عنه بعبارة من جهتك، وأخبر عنه بألفاظ من عندك، حتى ترى فيما جئت به النقص الظاهر وتبين في نظم القرآن الدليل الباهر. ولذلك أعاد قصة موسى في سُور، وعلى طريق شتى وفواصل مختلفة، مع اتفاق المعنى"⁴.

وفي هذا النوع من التكرار فقد أولى له الباقلاني عناية تامة وحدد معانيه وأوجه، باعتباره من بين المظاهر التي تحقق من تماسك النص في سرد القصص والأحداث في الكثير من الآيات دون خلل أو اضطراب، والتي يحس بها القارئ من خلال سردها براحة تامة ويتمتع في سماعها وكأن ليس بها تكرار، وهذا هو عينه التضام والترابط الذي يحكم النص فيجعل بعضه جنباً لبعض، فقال: " - ووجه آخر: وهو أنه لو لم يكرر لجاز أن يقول بعض قريش للنبي صل الله عليه وسلم: كيف تتخذنا بهذه القصص، وأنت البادئ بها، فإن أتينا بها بمثل اللفظ، قالت هذا نفس ما جئت به، وإن أتينا بها بغير اللفظ كنت مطالباً لنا بالمحال، فكرر الله تعالى القصص بوزنٍ خارج عن أوزان الكلام المعهود عنده ليريهم بذلك عجزهم ويقطع شهيم"⁵ شهيم⁵ بقوة الترابط بين الألفاظ والمعاني مشكلة بذلك نسيج متلاحم الأطراف مكوناً لنا تماسك نصي بديع ومعجز لا يستطيع العربي أن يصل إلى بلاغته مهما بلغ من العلم والمكانة.

¹ السابق.

² ابن الأثير، المثل السائر، ج3، ص 08.

³ محمد أبو موسى، البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، ص 168.

⁴ إعجاز القرآن، ص 190.

⁵ نكت الإنتصار لنقل القرآن، ص 213-214.

في الخاتمة نقول: نظراً لأهمية التكرار في تماسك النص من كونه يمثل أحد الوسائل الجوهرية التي تسهم في تشكيل بنية النصوص، فإنه يعدُّ من أهم الظواهر النصية الفاعلة في معمارية النص الأدبي والقرآني بالخصوص، وقد بذل علماء التراث جهود جبارة في إثبات براعة التكرار وبلاغته في إيصال المعنى للمتلقى في صورة بديعية تزيد من بلاغتها تلك الألفاظ والمعاني المكررة، محققة بذلك نسيج يلم النص فيجعله وحدة كلية متماسكة، ويعد الباقلاني من بين هذه الجهود التي بُذلت خلال نهاية القرن الرابع الهجري والتي أثبتت مقدرة التكرار بأنواعه في تماسك النص القرآني، وبخاصة عند قيامه بدراسة موازنة بما جاء على اللسان البشري وبأجود ما برع العربي الفصيح بفكره وقلمه من القصائد الشعرية والأمثال العربية، وكانت الملاحظات نموذجاً لذلك باعتبارها من أبرع وأجود ما كتب العرب في العصر الجاهلي، فدرسها دراسة محصنة واكتشف من خلالها الكثير من العيوب والهفات التي تعترضها بفعل التكرار، وبرهن أن اللسان البشري يعترضه النقص والعيوب في النظم، بينما القرآن فهو كلام منزّه وإن التكرار الموظف فيه لم يأت لزخرفة الكلام وتنميقه فقط، بل لغاية إعجازية وروعة بيانية وبلاغة ربانية تصب كلها في قالب واحد، مشكل بذلك التكرار لحنمة في تماسك وتلاحم النص القرآني الذي يعمل عمل الإحالة القبلية حين يوجه القارئ للنص لأن يستبين مغزى الكلام المكرر من الأصل الذي ورد من قبل.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

أبو بكر الباقلاني:

1. إعجاز القرآن ، تحقيق أحمد صقر ، دار المعارف بمصر ، ط3، القاهرة مصر ، 1971م
 2. نكت الإنتصار لنقل القرآن ، دراسة وتحقيق محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف ، دط، الإسكندرية القاهرة ، 1971م
- #### المراجع:
3. ابن الأثير ضياء الدين (ت637هـ)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، قدمه وعلق عليه أحمد الحوفي وبدي طبانة ، دار نهضة مصر ، دط، الفجالة القاهرة ، دت .
 4. أحمد مطلوب، معجم النقد العربي القديم، دار الشؤون الثقافية العامة، ط1، بغداد العراق، 1989م
 5. الأزهر زناد، نسيج النص بحث فيما يكون به الملفوظ نصاً، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، ط1، الدار البيضاء المغرب، 1993م
 6. امرئ القيس (ت80هـ) ، الديوان ، اعتنى به وشرحه عبد الرحمن المصطاوي ، دار المعرفة ، ط2، بيروت لبنان ، 1425هـ/2004م .
 7. الجاحظ: الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الباي الحلبي وأولاده بمصر، ط2، مصر، 1966م، الكتاب الأول، ج4
 8. الجرجاني عبد القاهر، شرح رسالة الرماني في إعجاز القرآن ، تحقيق زكريا سعيد علي ، دار الفكر العربي ، ط1، القاهرة مصر ، 1417هـ/1997م .

9. ابن جماعة الكناني، كشف المعاني في متشابه المثاني، تحقيق محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت لبنان، 1428هـ/2007م
10. جمعان عبد الكريم، إشكاليات النص دراسة لسانية نصية، النادي الأدبي، ط1، الرياض السعودية، 2009م
11. ابن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب، ط1، القاهرة مصر، 1956م
12. حسام أحمد فرج، نظرية علم النص، مكتبة الآداب، ط1، القاهرة مصر، 2007م
13. حسين نصار: التكرار، مكتبة الخانجي، ط1، القاهرة مصر، 2003م.
14. الخطابي محمد، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، ط2، الدار البيضاء المغرب، 2006م.
15. الخطيب القزويني: الايضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبدیع، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت لبنان، 2003م
16. ابن المعتز: البديع، تحقيق كراتشوفيسكي، دار الحكمة، ط1، دمشق سوريا، دت
17. محمد مصطفى أبو شوارب وأحمد محمود المصري، أثر المتكلمين في تطور الدرس البلاغي القاضي عبد الجبار نموذجاً، دار الوفاء لنديا الطباعة والنشر، ط1، الإسكندرية مصر، 2006م
18. ابو موسى محمد، البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية ، مكتبة وهبة ، ط2، القاهرة مصر ، 1408هـ/1998م .
19. الرماني، النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، حققها وعلق عليها محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ، دار المعارف بصر ، ط1، القاهرة مصر، دت .
20. روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، ط1، القاهرة مصر، 1998م
21. الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الفكر للطباعة والنشر، ط1، بيروت لبنان، 2001م
22. الزوزني ، أبي عبد الله بن الحسين بن أحمد (ت486هـ)، شرح المعلقات السبع ، لجنة التأليف في الدار العالمية ، 1413هـ/1992م .
23. سعيد بحيري، علم لغة النص، مؤسسة المختار، ط1، القاهرة مصر، 2004م
24. صبيح إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق دراسة تطبيقية على السور المكية، دار قباء للطباعة والنشر، ط1، القاهرة مصر، 2000م
25. صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أغسطس 1992م
26. عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة، ط1، بيروت لبنان، 1348هـ
27. عز الدين السيد، التكرير بين المثير والتأثير، علم الكتب، ط2، بيروت لبنان، 1407هـ

28. عمر السلامي، الإعجاز الفني في القرآن، توزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، 1980
29. فيود بسيوني عبد الفتاح، من بلاغة النظم القرآني، مطبعة الحسين الإسلامية، ط1، القاهرة مصر، 1413هـ/1993م
30. الكرمانى، البرهان في توجيه متشابه القرآن، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت لبنان، 1406هـ/1986م
31. ابن المعتز، البديع، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، ط1، بيروت لبنان، 1990م
32. منذر عياشي، مقالات في الأسلوبية، منشورات إتحاد الكتاب العرب، ط1، دمشق سوريا، 1990م
33. نوال بنت إبراهيم الحلوة، أثر التكرار في التماسك النصي مقارنة معجمية تطبيقية في ضوء مقالات خالد المنيف، مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها، السعودية، العدد 8، مايو 2012م.

"التماسك النصي" في المدونات العربية التراثية

-البرهان في علوم القرآن للزركشي أنموذجا-

د. كتوم رحموني.
جامعة المدية، الجزائر.

الملخص:

لقد أولى اللغويون العرب اهتماما بالغا في دراسة لغتهم وتحليلها وتمحيصها؛ فلم يتركوا موضوعا إلا وتطرقوا له. وموضوع "التماسك النصي" واحد من بين المواضيع التي شغلت العرب القدامى، ولو أنّ هناك من يعتبره من الاتجاهات الحديثة التي تبلورت مفاهيمه وترسّخت معالمه في الربع الأخير من القرن المنصرم.

نحاول في هذه الورقة البحثية معالجة تجليات مفهوم "التماسك النصي" في التراث العربي من خلال كتاب "البرهان في علوم القرآن" للزركشي، محاولين الإجابة عن الإشكالية الرئيسة الآتية: كيف تجلّى مفهوم "التماسك النصي" عند "الزركشي" من خلال كتابه "البرهان في علوم القرآن"؟ لتتفرّع عنه الأسئلة الآتية:

كيف نظر "الزركشي" إلى مفهوم "التماسك النصي"؟ وهل عبر عنه بنفس المصطلح؟ وما هي أوجه التشابه والاختلاف بين نظرة اللسانيين الغربيين و"الزركشي" لهذا المفهوم؟.

الكلمات المفتاحية: التماسك النصي، الزركشي.

Abstract :

Arab linguists gave great attention to the study, analysis and scrutiny of their language; they left no subject but addressed it. The subject of "textual cohesion" is one of the topics that preoccupied the old Arabs, although there are those who consider it to be one of the modern trends whose concepts were crystallized and rooted in the last quarter of the last century.

In this paper, we try to address the manifestations of the concept of "textual cohesion" in the Arab heritage through the book "el borhan fi 3oloum el Qur'an" to Zarkashi, trying to answer the following main problem: How was the concept of ". The following questions stem from him: How did Zorki view the concept of "textual cohesion" and did he express the same term?

Keywords: text cohesion . - Al-Zarkashiy.

مقدّمة:

يعدّ مصطلح "التماسك النصي" من بين المصطلحات التي اهتمت بها الدارسات اللغوية الحديثة في مجال اللسانيات النصية، بعد أن تجاوزت الدراسة حدود الربط بين أجزاء الجملة الواحدة إلى الربط بين مجموعة من الجمل. والذي عدّه "ديبوجراند" من أهمّ معايير النصية في الحكم على نصّانية النصّ من عدمها، والتي ركّز عليها أيضا علماء لسانيات النصّ كونه يقوم على روابط لغوية وغير لغوية. ويقوم على النظرة الكلية للنصّ دون الفصل بين أجزائه.

ونعني بمفهوم "التماسك النصي" الجمع بين مصطلح الاتّساق الذي يهتم بالشّكل، ومصطلح الانسجام الذي يهتم بالمحتوى والدّلالة. وعلى هذا الأساس نجد أنّ مفهوم التماسك يقصد به «العلاقات والأدوات الشكلية والدّلالية التي تسهم في الربط بين عناصر النّص الدّاخلية، وبين النص والبيئة المحيطة من ناحية أخرى»¹.

ف "التماسك النصي" مبني على تحقيق الانسجام بين وحدات وعناصر النصوص، من خلال تلك العلاقات لتجعل منها بنية متكاملة ومتراصة الأفكار: يشكّل ما يعرف بالنّص. ونستشف هذا المفهوم عند العرب القدامى حيث «اعتنوا بالكشف عن الترابط القائم بين سلسلة الأقوال المؤلفة لفقرة أو لمجموعة أجزاء من العمل الأدبي»². فقد كان النص الأدبي عند البلاغيين والنقاد، والنصّ القرآني عند البلاغيين والعاملين في حقل التفسير وعلوم القرآن، المادّة النصية التي نهضت عليها دراسات القدامى وتبصراتهم في حيك الكلام وتماسكه³؛ وإن لم يؤسسوا نظرية عربية في هذا المجال، إلا أنّ ما أثبتته الدّراسات اللسانية المعاصرة أنّ العلماء العرب قدّموا نظرية نحوية نصية متكاملة في كتب الإعجاز القرآني⁴؛ حيث أولوا قضية التماسك أهميّة بالغة إذ عالجه معالجة ذكية وعبروا عنه من خلال استخدام مصطلحات متعدّدة مثل: التلاحم، النظم، تناسب الأجزاء، الانسجام، المشاكلة⁵. ويعدّ كتاب البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدّين محمد بن عبد الله الزركشي⁶ من أهمّ الكتب في علوم القرآن التي نظرت إلى القرآن الكريم نظرة تماسكية نصّية، من خلال تناوله للمناسبة تناولاً نظرياً بعدما أفرد لهذا العلم فصلاً خاصّة. والذي أكّد على أنّ النصّ القرآني نصّ واحد ذو بنية كليّة واحدة.

التماسك النصي عند الزركشي:

لقد أثر ظهور القرآن الكريم تأثيراً واضحاً على السّاحة العلمية؛ فقد انبثقت عن دراسة النصّ القرآني قطاعات معرفية كثيرة نذكر منها: (النحو، البلاغة، علم الفقه، علم أصول الفقه، علم الكلام، علم التفسير وأصوله، علوم القرآن...). وقضية التماسك النصي كغيرها من المباحث اللسانية التي تطرقت إليها الباحثون العرب «ولم تكن قضية التماسك النصي وليدة الفكر الغربي، فلها جذور في التراث العربي؛ إذ اهتمّ اللغويون والبلاغيون والمفسرون بعناصر التماسك، وقد دفع القرآن الكريم العلماء إلى البحث في سرّ إعجازه، وبيان روعة نظمه وترابطه»⁷

والملاحظ أنّ علوم القرآن والتفسير قد أفاضت بشكل لافت في إبراز مفهوم "التماسك النصي"، «فقد تأمل فصحاء العرب القرآن الكريم كلمة كلمة، وآية آية، وسورة سورة، بغية أن يجدوا ثغرة فيه؛ فلم يجدوا فيه كلمة ينبو بها موضعها، بل وجدوا حيكاً بهر العقول، وسبكا أخرج الألسن»⁸، وهو ما شدّد انتباه علمائنا «فانكبوا يدرسون الرّوابط المعنوية بين

¹ - بشرى حمدي البستاني، دوسن عبد الغني المختار، في مفهوم النّص ومعايير نصّية القرآن الكريم، دراسة نظرية، مجلّة أبحاث، كآية التربية الأساسية، المجلّد 11، العدد 1، 2011، ص186.

² - إبراهيم خليل، في اللسانيات ونحو النص، دار المسيرة للنشر والتوزيع، ط1، عمان، الأردن، 2007، ص185.

- ينظر، محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، ط 1، القاهرة، 2005، ص171.

- عز الدين هبيرة، مصطلح التماسك النصي في التراث العربي: مقارنة نصّية، مجلّة العلوم الإنسانية، المجلّد ب، عدد 49، جوان، 2018، ص91.

⁵ - ينظر، خلود العموش، الخطاب القرآني دراسة في العلاقة بين النص والسياق "مثل سورة البقرة"، عالم الكتب الحديث، ط1، اربد، الأردن، 2008، ص61.

⁶ - أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن بهادر، ولد سنة 745 هـ، بمصر، اشتغل بصناعة الزركش التي ورثها عن أبيه، لذلك سمي بهذا الاسم، شغل عدّة مناصب علمية كاتدريس، وإفتاء، إمامة إيوان الشافعية بالمدرسة الظاهرية العتيقة، له عدّة مؤلفات بلغ عددها 64 مصنفاً غطت علوم التفسير والفقه، والحديث، والأدب، والتاريخ، وعلم الكلام ...

-- عز الدّين هبيرة، المرجع السابق، ص91.

⁸ - يسري السيد إبراهيم نوفل، المعايير النصّية في سور القرآنية، دراسة تطبيقية مقارنة، سلسلة الرسائل الجامعية، دار الناظمة للنشر والتوزيع، ط 1، 2014، ص130.

آياته، أملين في الكشف عن سرّ نظامه وبديع حبه»¹، فنجد "الزركشي" من خلال كتابه "البرهان في علوم القرآن" قد استقصى فيه التماسك بين آيات القرآن، وسوره، إذ انصرف جهده بداية على العلم الذي يصبّ في هذا الإطار وهو "علم المناسبة"²، والذي يعدّ علماً قديماً يعود الفضل في التعريف به إلى الشيخ الإمام أبو بكر النيسابوري. فقد أورد الزركشي في كتابه «وقال الشيخ أبو الحسن الشهرآباني³ أول من أظهر ببغداد علم المناسبة ولم تكن قد سمعناه من غيره الشيخ الإمام الإمام أبو بكر النيسابوري⁴ وكان غزير العلم في الشريعة والأدب وكان يقول على الكرسي إذا قرئ عليه الآية لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة؟ وكان يزري على بغداد لعدم علمهم بالمناسبة»⁵.

ويشير الزركشي إلى أهميّة علم المناسبة بقوله: «وفائدته -علم المناسبة- جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء»⁶.

فالتأمل في هذا القول وما ورد فيه يدرك أنّ "الزركشي" على وعي تامّ بمفهوم الارتباط والتماسك، فقد شبهه بالبناء المحكم، إذ أدرك أنّ البناء الكلي للنص هو الطريق لإبراز التماسك بين أجزاء النص الواحد. وقد أشار من خلال هذا القول إلى قضايا تتعلّق بالتحليل النصّي، تمثّلت في النظرة الكلية للنص. وأيضاً ذكره لأهم المصطلحات التي تنطوي في إطار لسانيات النص كقوله: "بعضها آخذاً بأعناق بعض"، "الارتباط" التي تدلّ على الاتساق.

ومن الأمثلة التي يذكرها لذلك من لطائف القرآن الكريم، ارتباط سورة الكوثر بالسورة التي قبلها وهي سورة الماعون، فسورة الكوثر تظهر أنّها كالمقابلة للتي قبلها، لأنّ السابقة قد وصف فيها المنافق بأصول أربعة: البخل وترك الصلاة والرياء فيها، ومنع الزكاة، فذكر هنا في مقابلة البخل: إنا أعطيناك الكوثر" أي الكثير، وفي مقابلة ترك الصلاة "فصل" أي دم عليها، وفي مقابل الرياء "الربك" أي لرضاه لا للناس، وفي مقابلة منع الماعون "وانحر" وأراد به التصدّق بلحم الأضاحي فاعتبر هذه المناسبة⁷.

فلاحظ ذلك الارتباط الوثيق بين السورتين مما جعل الزركشي ينظر إليهما نظرة النص الواحد. لتعالق آياتهما وتناسبهما تناسباً بديعياً. فقد تنبّه الزركشي إلى ظاهرة الترابط والانسجام من خلال تفسيره للقرآن الكريم. وذلك من خلال رصده لمختلف الروابط الشكلية والمعنوية التي تحقق وحدة السورة أو القرآن كله.

ويقول الزركشي في موضع آخر: «وقال بعض الأئمة: من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض لئلا يكون منقطعاً»⁸. فهو إذن يبحث في كيفية تماسك النصوص وانسجامها، وذلك بتربط وتعالق وحداتها، وهذا ما يبحث عنه في لسانيات النص. فالمناسبة تعدّ من بين الأدوات الآلية التي وظفها "الزركشي" وغيره؛ من أجل استجلاء مظاهر انسجام وتماسك النص

¹ - المرجع السابق، الصفحة نفسها.

² - المناسبة في اللغة المشاكلة والمقاربة، ومرجعها في الآيات ونحوها إلى معنى رابط بينهما، عام، أو خاص، أو عقلي، أو حسي، أو خيالي، أو غير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني، كالسبب والمسبب، والعلة والمعلول، والنظيرين والضدّين ونحوهم. نقلاً عن الإتقان في علوم القرآن، 3/ 323.

³ - منسوب إلى شهرآبان؛ قرية شرقي بغداد ينسب إليها كثير من العلماء.

⁴ - هو أبو بكر عبد الله بن محمد زياد النيسابوري الفقيه الشافعي الحافظ، رحل في طلب العلم إلى العراق والشام ومصر، وقرأ على المزي، ثم سكن بغداد، وصار إماماً للشافعية بالعراق، وتوفي سنة 323.

⁵ - الزركشي بدر الدّين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، ج1، مكتبة دار التراث، د ط، القاهرة، دت، ص 36.

⁶ - الزركشي، المرجع نفسه، ص 36.

⁷ - الزركشي، المرجع نفسه، ص 39.

⁸ - الزركشي، المرجع نفسه، ص 35.

القرآني، وتكامله. وهو ما يعكسه عدد من المؤلفات التي كانت تقوم على أساسين أما الأساس الأول فهو تفسير القرآن بالقرآن، وأما الأساس الثاني أن القرآن الكريم رغم تعدد مواضيعه واختلافها إلا أنه يعتبر سورة واحدة، الذي يثبت فكرة الترابط والتماسك بين أي القرآن الكريم، ففي سياق حديث الزركشي عن المناسبة نستشف وعيه بمفهوم الترابط والتماسك.

ويضيف الزركشي بقوله: «وهذا النوع يهمله بعض المفسرين، أو كثير منهم، وفوائده غزيرة. قال القاضي أبو بكر العربي في "سراج المريدين": ارتباط أي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني، منتظمة المباني علم عظيم، لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة، ثم فتح الله عز وجل لنا فيه؛ فلما لم نجد له حمله، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه، وجعلناه بيننا وبين الله، ورددناه إليه»، وهذا النص يثبت أن الزركشي قد تطرق بشكل لافت في إبراز التماسك النصي، وإن لم يكن بنوع من التشعب والتفصيل الذي نعهده في الدراسات النصية الحديثة، لما وجدته فيه من التعقيد والتشابك خاصة وأنه في صدد دراسة القرآن الكريم.

إن ما قدمه الزركشي في سياق حديثه دليل على عبقريته وذكائه الفذ، إضافة إلى وعيه بآليات النص القرآني ومن بينها ذلك التماسك المحكم بين آيات وسور القرآن الكريم. «فدراسة الزركشي للتماسك بين الآيات والسور فكرة تامة وواضحة المعالم والحدود، فهي رؤية تحكم نظرتة للقرآن الكريم، استطاع فيها أن يلتمس وجهاً آخر للإعجاز على طريق التماسك بين الآيات والسور. وقد خصص باباً مستقلاً ... تحدث فيه عن التماسك بين الآيات والسور والآليات التي تحكم ذلك التماسك، كما نلاحظ في مختلف الأبواب الأخرى إشارات إلى التماسك في القرآن»¹.

ولم يقف "الزركشي عند حدّ الحديث عن الترابط بل تعداه إلى ذكر عدد من العلاقات التي يحلل من خلالها تماسك الآيات والسور، وقد مثل لها من القرآن الكريم، -كما أحالنا إلى ذلك "رشيد عمران" - نوجزها في الآتي:

أ/ التماسك بين الآيات:

1- التماسك بين الآيات المعطوفة:

يقرّر الزركشي أنّ فائدة العطف، أن نجعل الآيتين المعطوفتين كالتنظيرين والشريكين، فيقول: «أن تكون معطوفة؛ ولا بد أن تكون بينهما جهة جامعة»² ويوضح ذلك بقوله تعالى: "يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّجِيمُ الْغَفُورُ". (سورة سبأ، الآية 2).

وقوله تعالى: "مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللهَ قرضًا حسنًا فيضعفه له أضعافًا كثيرةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ". (سورة البقرة، الآية 243)

فيلج ويخرج، وينزل، ويعرج، ويقبض ويبيسط كلّها نظائر، وبعد هذا الاستهلال النحوي يستنبط الزركشي قانوناً يطرد في أغلب آيات القرآن، ويشكل أساساً في تحليل تجاور الآيات.³

ونجمل علاقات التماسك بين الآيات كالاتي:

¹ - عمران رشيد، آليات التماسك النصي: الزركشي والسيوطي أنموذجان، مجلة الدراسات اللغوية والأدبية، العدد الأول، السنة الثانية، ص 18.

² - الزركشي، المرجع السابق، ص 40.

³ عمران رشيد، المرجع السابق، ص 19.

1-علاقة مقامية:

من هذه الآيات قوله تعالى: "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى وَآتَى الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا" (سورة البقرة، الآية 188)

إنَّ السؤال الذي يتبادر إلى الذهن عند تلاوة هذه الآية هو: ما وجه تماسك السؤال عن الأهل بإتيان البيوت من ظهورها؟ إنَّ المقام هنا هو الذي يفسر وجه التماسك في الآيتين. وذلك عند سؤالهم عن الأهل ونقصانها كأن الله عز يقول لهم: إن كل ما أمرتكم به فيه حكمة ظاهرة ومصلحة للعباد فاتركوا السؤال عنه، وانظروا ما أنتم عليه من إتيان البيوت من ظهورها وليس ذلك في البر شيء.¹

2- علاقة استطرادية:

ويذكر الزركشي في هذا السياق: «أنَّ ناساً من الأنصار كانوا إذا أحرموا لم يدخل أحد منهم حائطا ولا دارا ولا فسطاطا من باب، فإن كان من أهل المدرنقب نقبا في ظهر بيته؛ منه يدخل ويخرج، أو يتخذ سلما يصعد به. وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخباء؛ فليل لهم: ليس البر بتحرّجكم من دخول الباب، لكن البر بر من اتقى ما حرّم الله»² فقد استطرد الله سبحانه وتعالى تلك التصرفات واعتبرها بعيدة عن البرّ.

3- علاقة التمثيل:

ويمثّل الزركشي لذلك بقوله: «كمثل من يترك بابا ويدخل من ظهر البيت؛ ... قال تعالى: "وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا" (سورة ، الآية) أي باشروا الأمور من من وجوهها التي يجب أن تباشر عليها، ولا تعكسوا».³

كما يذكر مثالا آخر لذلك ومنه قوله تعالى: "سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى" (سورة الإسراء، الآية 1) إلى أن قال: "وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ". (سورة الإسراء، الآية 2)

4-علاقة حسن التخلّص.

يرى الزركشي أنّ حسن التخلّص موجود في القرآن الكريم كما في الشعر الجيد، يقول: "وبهذا يظهر لك اشتغال القرآن العظيم على النوع المسمى بالتخلّص"⁴ إذ يعتبر حسن التخلّص من بين الصفات التماسكية في النص القرآني. فمن يتتبع مثلا سورة الأعراف يجد ذلك واضحا فقد بدأت بذكر الأنبياء والقرون الماضية، ثم يليه ذكر موسى عليه السلام، بعدها ذكر قصّة السبعين رجلا ودعاء موسى لسائر أمته وصولا إلى ذكر مناقب سيد المرسلين... ولا يقتصر الأمر على سورة الأعراف إنما نلمس هذه العلاقة في العديد من سور القرآن كسورة الكهف مثلا، والبقرة... وقد أشار الزركشي إلى عدد من الآيات في هذا الصدد «ومن أحسن أمثله قوله تعالى: "اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...". فإنّ فيها خمس تخلّصات: وذلك أنه جاء بصفة النور وتمثيله، ثمّ تخلّص منه إلى ذكر الزجاجة وصفاتها، ثمّ رجع إلى ذكر النور والزيت يستمد منه، ثمّ تخلّص

¹ - عمران رشيد، المرجع نفسه، ص 19

² - الزركشي، المرجع السابق، ص 41.

³ - الزركشي، المرجع نفسه، ص 41.

⁴ - عمران رشيد، المرجع السابق، ص 21.

منه إلى ذكر الشجرة، ثم تخلص من ذكرها إلى صفة الزيت، ثم تخلص من صفة الزيت إلى صفة النور وتضاعفه، ثم تخلص منه إلى نعم الله بالهدى على من يشاء.¹

5-علاقة سياقية:

يعتمد "الزركشي" على هذه العلاقة في تفسير عدد من الآيات القرآنية التي تظهر أنها متباعدة من حيث المعنى، غير أن الزركشي يجد أنها مترابطة لدرجة أنه اعتبرها بمنزلة الآية الواحدة ومنها قوله تعالى: "أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ. وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ. وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ. وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ". (سورة الغاشية) ويفسر ذلك بقوله «جمع بينها –الآيات- على مجرى الإلف والعادة بالنسبة لأهل الوبر، فإن كل انتفاعهم في معاشهم من الإبل، فتكون غايتهم مصروفة إليها؛ ولا يحصل إلا أن ترعى وتشرب؛ وذلك بزول المطر؛ وهو سبب تقلب وجوههم في السماء؛ ثم لا بد لهم من مأوى يؤويهم، وحصن يتحصنون به، ولا شيء في ذلك كالجبال؛ ثم لا غنى لهم – عن التنقل من أرض إلى سواها؛ فإذا نظر البدوي في خياله وجد صورة هذه الأشياء حاضرة فيه على الترتيب المذكور».²

6- العطف. علاقة تقدير تشاكل نحوي:

يبرز الزركشي هذه العلاقة من خلال الآيات الآتية: "أَلَمْ تَرَى إِلَى الْبَيْتِ الَّذِي كَانَتْ تُعْبَدُ فِيهِ قَبْلَ هَذَا إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْبَدُ وَإِيمَانِي أَنَا أَنَا أَخِي وَأُمِّي قَالَتْ إِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُعْبَدُ هَذَا إِذْ بَعَدَ مَوْتُهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مائة عامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مائة عامٍ فَأَنْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى جِمَازِكَ وَلَنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ". (سورة البقرة) ويضيف مثالا آخر من خلال قوله تعالى: "أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ" (سورة الرعد) فيقال: أي ارتباط بينهما؟ وجوابه أن المبتدأ وهو "من" خبره محذوف، أي أفمن هو قائم على كل نفس تترك عبادته؟ أو معادل الهمزة تقديره: أفمن هو قائم على كل نفس كمن ليس بقائم؟ ووجه العطف على التقديرين واضح. أما الأول فالمعنى: أتترك عبادة من هو قائم على كل نفس، ولم يكف الترك حتى جعلوا له شركاء. وأما على الثاني فالمعنى: إذا انتفت المساواة بينهما فكيف تجعلون لغير المساوي حكم المساوي.³

2- التماسك بين الآيات غير المعطوفة.

1-علاقة نظير:

وهي إلحاق النظير بالنظير حيث تكون منطوقية. فهو يرى «إن إلحاق النظير بالنظير من دأب العقلاء، ومن أمثلته قوله تعالى "كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ" عقب قوله "أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ".⁴ (سورة الأنفال ، الآية 4و5).

ويشرح ذلك من خلال قوله أن الله سبحانه أمر رسوله أن يمضي لأمره في الغنائم على كره من أصحابه كما مضى لأمره في خروجه من بيته لطلب العير وهم كارهون؛ وذلك أنهم اختلفوا في القتال يوم بدر في الأنفال، وحاجوا النبي صلى الله

¹ - الزركشي، المرجع السابق، ص 43.

² - الزركشي، المرجع نفسه، ص 45.

³ - الزركشي، المرجع السابق، ص 46.

⁴ - الزركشي، المرجع نفسه، ص 47.

عليه وسلّم وجادلوه؛ فكره كثير منهم ما كان من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلّم في النفل، فأنزل الله هذه الآية، وأنفذ أمره بها، وأمرهم أن يتّقوا الله ويطيعوه، ولا يعترضوا عليه فيما يفعله من شيء ما، بعد أن كانوا مؤمنين؛ ثم قال: "كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون". يريد كراهم لما فعلته من الغنائم ككراهم للخروج معك.

2-علاقة سياقية:

ويتجلى ذلك من خلال قوله تعالى "لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ. إِنَّا لَنَعْلَمُ جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ" (سورة القيامة، الآية 16) وقد توسطت قوله تعالى: "بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ. وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ". وقوله تعالى: "كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ. وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ". (سورة القيامة). فيشرح الزركشي هذه العلاقة بقوله «هذا من باب قولك للرجل، وأنت تحدّثه بحديث فينتقل عنك ويقبل على شيء آخر: أقبل عليّ واسمع ما أقول، وافهم عني، ونحو هذا الكلام؛ ثم تصل حديثك؛ فلا يكون بذلك خارجا عن الكلام الأول؛ قاطعا له؛ وإنما يكون مشوّقا للكلام»¹.

3-علاقة تضاد:

يقول في هذا الصدد: «وتكون العلاقة بينهما المضادة؛ وهذا بمناسبة ذكر الرحمة بعد ذكر العذاب، والرغبة بعد الرهبة...»². فهذه العلاقة تقوم على ذكر الصفة، لتتبع بصفة تناقضها، ويشير في هذا الصدد إلى سورة البقرة، فقد بدأ حديثه تعالى بذكر صفات المؤمنين بعده عقب على ذلك بذكر صفات الكافرين.

ومن الأمثلة التي يقدمها الزركشي: «قوله تعالى في سورة البقرة: "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ" (سورة البقرة، الآية 5)، فإن أول السورة كان حديثا عن القرآن الكريم، وأن من شأنه كيت وكيت، وأنه لا يهدي القوم الذين من صفاتهم كيت وكيت. فرجع إلى الحديث عن المؤمنين، فلما أكمله عقب بما هو حديث عن الكفار؛ فبينهما جامع وهمي بالتضاد من هذا الوجه، وحكمته التشويق والثبوت على الأول، كما قيل: "وبضدّها تتبين الأشياء"³.

علاقة استطرادية:

ومن ذلك قول الزركشي: «كقوله تعالى " يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسَ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ". (سورة الأعراف، الآية 26) .

قال الزمخشري: هذه الآية واردة على سبيل الاستطراد، عقب ذكر السّوءات وخصف الورق عليها؛ إظهارا للمنة فيما خلق من اللباس، ولما في العري وكشف العورة من المهانة والفضيحة»⁴. ويذكر مثالا آخر بقوله: «ونظيره في الزيادة على الجواب قوله صلى الله عليه وسلّم لما سئل عن المتوضئ بماء البحر فقال: "هو الطهور ماؤه، الحلّ ميثه"⁵

5-علاقة تنشيط المتلقي:

وخلاصة هذه العلاقة « الانتقال من حديث إلى آخر تنشيطا للسامع كقوله تعالى في سورة "ص" بعد ذكر الأنبياء: " هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ" (سورة "ص"، الآية 48)

¹ - الزركشي، المرجع نفسه، ص 48.

² - الزركشي، المرجع السابق، ص 40.

³ - الزركشي، المرجع نفسه، ص 49.

⁴ - الزركشي، المرجع نفسه، ص 49.

⁵ - الزركشي، المرجع نفسه، ص 41.

فإنّ هذا القرآن نوع من الذكر، لما انتهى ذكر الأنبياء، وهو نوع من التنزيل، أراد أن يذكر نوعاً آخر، وهو ذكر الجنّة وأهلها، فقال: "هذا ذِكْرٌ" فأكد تلك الإخبارات باسم الإشارة... لذلك لما فرغ من أهل الجنّة قال "وَإِنَّ لِلطَّاعِينَ لَشَرًّا مَّابٍ" (سورة "ص" الآية 48) ¹.

وتختصّ هذه العلاقة أساساً بالمتلقي باعتباره العنصر الفاعل في فهم النص.

6- علاقة تقدير كلام محذوف:

يذكر عمران رشيد في هذا السياق أنّ العلاقة تقوم بتفسير وجه التماسك بين آيتين أو أكثر، ومن ثمّ فتح الدلالة الممكنة للآيات على أفق أوسع، ومن هذه الآيات التي تدرك أكثر عبر هذه العلاقة قوله تعالى: "وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ. كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ. الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ. فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ. فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ. الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ".

لعلّ تقدير كلام محذوف هنا يفسّر بوضوح الآيتين، كأنه قال: قل أنا النذير المبين، أنزلت عقوبة أو عذاباً مثلما أنزلنا على المقتسمين.²

ب/ التماسك بين السور:

ناقش "الزركشي" مفهوم التماسك بين السور في عديد المواضع، وهو ما يثبت فكرة الإعجاز. وأنّ هذا الأمر يفوق طاقة البشري. ويتجلى ذلك من خلال انبهاره في ذلك التعالق والتماسك بين آي القرآن الكريم، رغم أنه نزل منجماً وفي فترات متباينة وأماكن مختلفة.

ووضّح من خلال هذه الدراسة -التماسك بين السور-، تلك الوحدة الدلالية أو الشكلية النحوية، لتؤكد ذلك البناء المتناسك للنص القرآني الذي يبدو كالكلمة الواحدة.

فكل هذه العلاقات توحى أنّ الزركشي أثبت فكرة التماسك الشديد بين السور، التي جعلته كالكلمة الواحدة. فقد ارتقى الزركشي بالتماسك حتى جعله وجهاً يطلب به معرفة الإعجاز، فكيف تماسك هذا البناء العظيم الذي نزل منجماً على مدار ثلاثة وعشرين سنة، يقول: "وهو مبني -التماسك- على أنّ ترتيب السور توقيفي، وهذا الراجح كما سيأتي، وإذا اعتبرت افتتاح كل سورة وجدته في غاية المناسبة لما ختم به السور قبلها."³

ويذهب "نصر حامد" إلى أنّ الزركشي «استطاع ببراعة كبيرة ونفاذ بصيرة، أن يرصد علاقات التماسك بين السور، رصدًا كشف عن إمكانات أسلوبية إعجازية في النص المقدّس، وأشار الزركشي إلى التماسك الموضوعي بين السور الذي لم يبرز بشكل واضح إلا مع سيد قطب في ظلاله»⁴.

¹ - الزركشي، المرجع السابق، ص 50.

² - رشيد عمران، المرجع السابق، ص 24.

³ - عمران رشيد، المرجع السابق، ص 26.

⁴ - أبو زيد نصر حامد، مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1998، ص 159.

خاتمة:

نخلص في الأخير إلى أنّ علوم القرآن والتفسير قد أفاضت بشكل لافت في إبراز التماسك النصي، والذي نشأ في رحاب التحول الفكري الذي أحدثه القرآن الكريم من خلال تفتّهم للإعجاز التركيبي والدلالي، وذلك من خلال "علم المناسبة" الذي يبحث في وجوه ارتباط آي القرآن وسوره. والكشف عن الزوابط بين هذه النصوص. اعتمدها "الزركشي" كآلية لتفسير التماسك بين آي القرآن الكريم. إذ تعدّ دراسته بادرة في فهم البناء الكلي أو النظام الإجرائي للنص، والذي يؤثر في تشكيل النص القرآني وتماسكه. وتعدّ هذه الدراسة انفتاحاً لدراسات تالية له، لتدبر القرآن الكريم وحتى النصوص الأخرى كالشعر مثلاً، لإظهار إعجازه ومدى تفاعله مع متلقيه في كلّ زمان ومكان. وبهذا يبدو أنه كان للزركشي إضافة واضحة في تهيئة الأرضية العلمية لتناول مفهوم "تماسك النص"

لذا يجدر بنا الاهتمام بما جاء في المؤلفات التراثية ومحاولة استجلاء واستنباط ما جاء فيه من مختلف العلوم والنظريات. وإدراج مقاييس في الحرم الجامعي تهتم بمثل هذه الدراسات.

قائمة المصادر والمراجع:

1. إبراهيم خليل، في اللسانيات ونحو النص، دار المسيرة للنشر والتوزيع، ط1، عمان، الأردن، 2007.
2. أبو زيد نصر حامد، مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1998.
3. بشرى حمدي البستاني، دوسن عبد الغني المختار، في مفهوم النص ومعايير نصية القرآن الكريم، دراسة نظرية، مجلة أبحاث، كلية التربية الأساسية، المجلد 11، العدد 1، 2011.
4. خلود العموش، الخطاب القرآني دراسة في العلاقة بين النص والسياق "مثل سورة البقرة"، عالم الكتب الحديث، ط1، اربد، الأردن، 2008.
5. الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، ج1، مكتبة دار التراث، القاهرة، د ط.
6. عز الدين هبيرة، مصطلح التماسك النصي في التراث العربي: مقارنة نصية، مجلة العلوم الإنسانية، المجلد ب، عدد 49، جوان، 2018.
7. عمران رشيد، آليات التماسك النصي: الزركشي والسيوطي أنموذجان، مجلة الدراسات اللغوية والأدبية، العدد الأول، السنة الثانية.
8. محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، ط 1، القاهرة، 2005.
9. يسري السيد إبراهيم نوفل، المعايير النصية في سور القرآنية، دراسة تطبيقية مقارنة، سلسلة الرسائل الجامعية، دار النابعة للنشر والتوزيع، ط 1، 2014.

هوامش البحث:

- ¹ حمادي صمود: التفكير البلاغي عند العرب (أسسه و تطوره إلى القرن السادس -مشروع قراءة-)، منوبة، ط 1، تونس 1994، ص138.
- ² بشير ابرير: مفهوم النص في التراث اللساني العربي، جامعة دمشق، مج 23، ع1، 2007، ص99-100.
- ³ محمد الصغير بناني: مفهوم النص عند المنظرين القدماء، مجلة اللغة و الأدب، قسم اللغة العربية، جامعة الجزائر، ع1999، 12، ص51-54، 52.
- ⁴ الجاحظ: البيان و التبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ج 1، دار الجيل، ط 2، بيروت، لبنان، ص 76.
- ⁵ محمد النويري: علم الكلام و النظرية البلاغية عند العرب، دار محمد علي الحامي للنشر و التوزيع، ط1، صفاقس-تونس، جانفي 2001، مج 7، ص134.
- ⁶ محمد عابد الجابري: بنية العقل العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 6، بيروت- لبنان، أكتوبر، 2000، ص 28.
- ⁷ الجاحظ: البيان و التبيين، ص 67.
- ⁸ الجاحظ: البيان و التبيين، ج 1، ص 66-67.
- ⁹ حمادي صمود: م س، ص 289
- ¹⁰ الأخضر جمعي: إئتلاف اللفظ و المعنى في النقد العربي القديم، بينات النقاد و المتكلمين و الفلاسفة، رسالة لنيل شهادة دكتوراة دولة، جامعة الجزائر، 1987، 1988، ص75.
- ¹¹ جميل عبد المجيد حسين: علم النص -أسسه المعرفية و تجلياته النقدية-، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت ، مج 32، ع 2، أكتوبر- ديسمبر 2003، ص 15.
- ¹² فوزي السيد عبد ربه: المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان و التبيين، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2005، ص188.
- ¹³ الأخضر جمعي: م س، ص 72.
- ¹⁴ ينظر: براون و يول: تحليل الخطاب، تر: محمد لطفي زليطي و منير التريكي، النشر العلمي و المطابع، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، 1997، ص101، 40-102.
- ¹⁵ الجاحظ: البيان و التبيين، ج 1، ص 90.
- ¹⁶ الجاحظ: رسائل الجاحظ (رسالة في نفي التشبيه)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ج 3، مكتبة الخانجي للطبع و النشر و التوزيع، ط 1، 1979، ص 289.
- ¹⁷ الجاحظ: البيان و التبيين، ج 2، ص 41.
- ¹⁸ ينظر: ابن رشيق القيرواني: العمدة في صناعة الشعر و نقده، تحقيق: النبوي عبد الواحد شعلان، ج 1، مكتبة الخانجي، ط1، القاهرة-مصر، 2000، ص 412.

- ¹9 عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، دار الكتب الجديدة المتحدة، ط 1، 2004، (المقدمة)، ص 5.
- ²0 عبد الهادي بن ظافر الشهري: م س، ص 7.
- ²1 ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري: م ن، ص 180
- ²2 طه عبد الرحمن: اللسان و الميزان، المركز الثقافي العربي، ط 1، الدار البيضاء، المغرب، 1998، ص 214-215.
- ²3 الجاحظ: البيان و التبیین، ج 1، ص 87.
- ²4 الجاحظ: البيان و التبیین، ج 4، ص 29.
- ²5 الجاحظ: البيان و التبیین، ج 1، ص 287.
- ²6 ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري: م س، ص 47، 233.
- ²7 الجاحظ: البيان و التبیین، ج 1، ص 289.
- ²8 الجاحظ: رسائل الجاحظ، ج 3، ص 37.
- ²9 الجاحظ: الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ج 3، دار بيروت، ط 2، لبنان، 1992، ص 368-369.
- ³0 الجاحظ: رسائل الجاحظ، ج 3، ص 145.
- ³1 الجاحظ: رسائل الجاحظ، ج 4، (فصل البلاغة و الإيجاز)، ص 152.
- ³2 عبد الهادي بن ظافر الشهري: م س، ص 96.
- ³3 الجاحظ: البيان و التبیین، ج 1، ص 138-139.
- ³4 حمادي صمود: م س، ص 185.
- ³5 بشير ابرير: مفهوم النص في التراث اللساني العربي، جامعة دمشق، مج 23، ع 2007، ص 1، 166.

الدلالة القرآنية وثنائية اللفظ والمعنى في مدونات علوم القرآن والتفسير.

د. سعاد روايح

جامعة باتنة، الجزائر.

ملخص:

تهدف هذه المقاربة البحثية إلى محاولة تقريب الأسس التأسيسية لثنائية اللفظ والمعنى في المدونات التراثية، والتي من خلالها يمكن الوصول إلى تفسير يستوضح دلالات النص القرآني، وينفتح على الموروث الضخم الذي تحفظه الذاكرة الجمعية في مدوناتها تلك؛ التي صنعت التميز والسبق في مباحث لا يزال البحث العلمي المعاصر يستقصيها. وتحاول هذه الدراسة أن تستعيد الإشكالات المرتبطة باللفظ والمعنى؛ والتي شكلت مداخل للتحديث في المباحث الدلالية اليوم بحيث تفرض نفسها على الموروث دون أن تتجاوزه أو تحاول أن تقصيه.

الكلمات المفتاحية: اللفظ والمعنى، الدلالة القرآنية، موروث علماء القرآن والتفسير.

Abstract :

The aim of this research approach is to try to approximate the founding foundations of pronunciation and meaning in the heritage blogs, through which an explanation can be found that clarifies meanings of the Qur'anic text and opens up to the huge legacy that the collective memory preserves in her works; Which made excellence and precedent topics which contemporary scientific research continues to question. This study attempts to recover the problems related to the pronunciation and meaning; which have been the entrances to modernity in the semantic detective today so that they impose themselves on the inheritance without exceeding or trying to investigate.

Keywords:pronunciation and meaning, Quranic significance,

مقدمة

يختزل لنا الموضوع مسيرة طويلة من اهتمام علمائنا القدامى، على اختلاف مشاربهم، بالدلالة وباللفظ والمعنى، انصب جهدهم في استنطاق آي القرآن الكريم على استيضاح مباحث الألفاظ، والدلالات اللغوية وغير ذلك من المباحث التي شكّلت مداخل هامة في تفسير النص القرآني للوقوف على مراداته، واستخلاص مضامينه الكامنة خلف الألفاظ والعبارات، ومن ثمّ، يمكن القول بأن الأطروحة التي تنافح عنها الدراسة؛ متمثلة في المباحث الدلالية التي حفلت بها مؤلفات علوم القرآن والتفسير في القديم، لها امتداداتها في الدلاليات والتداوليات الحديثة، وتمتد ظلال الفهم فيها إلى مراكمة كمّية ونوعية تختزن جملة ما أبدع علماء القرآن والتفسير وغيرهم من علماء فروع علوم الشريعة في استجلاء هوية النص وبسط سماته الإعجازية الكامنة فيه والتي بها يسمو على النصوص الأخرى ويغايرها.

ومن ثم يطرح الموضوع الإشكالات الآتية: ما موقع اللفظ والمعنى وخصوصيتهما من منهج الدراسات القرآنية عند القدامى؟ وما مدى توظيف علمائنا لهما في بيان دلالات الآيات القرآنية؟

ومع كل ما سلف، وخضوعا لمسيرة طبيعة الطرح التي تفرض علينا العودة إلى سياقات تاريخية تعنى بحقب زمنية؛

ففيها برزت فكرة اللفظ والمعنى، وتم التأصيل لها، يمكن القول بأن الفكرة قديمة إلا أن السياق القرآني رفع الأطروحة إلى

مقام المعاصرة وأدناها من المقاربات اللسانية الحديثة؛ بفضل استناد القدامى والمحدثين إليه في التأليف في هذا الشأن، وبفضل ما يمتاز به القرآن من خصوصية في لفظه ومعناه، إذ طرق موضوع اللفظ والمعنى وما يحيلان إليه من دلالات من خلال القرآن الكريم هو توظيف لطاقت معرفية هائلة يكتنزها النص؛ الذي يلقي بظلال فهم عميق قد لا يمكن تحصيله إلا من خلاله، وهو من أعطى السبق لعلمائنا في الوصول إلى ما وصلوا إليه من تحقيق في باب الألفاظ والمعاني في تلك الأزمنة، ولم يصل غيرهم إلى ذلك إلا في ما بعد.

ولهذا، تتجه الورقة البحثية إلى تبيين جهود الدراسات التفسيرية وكذا الخاصة بعلم القرآن في تعلقها بمباحث اللفظ والمعنى التي أسست من منطلق قرآني باعتبار القرآن الكريم في أعلى درجات الفصاحة، يقول الراغب الأصفهاني: "أول ما يحتاج أن يشتغل به من علوم القرآن العلوم اللفظية، ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة، فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المُعاون لمن يريد أن يدرك معانيه، كتحصيل اللين في كونه من أول المُعاون في بناء ما يريد أن يبنيه، وليس ذلك نافعا في علم القرآن فقط، بل هو نافع في كل علم من علوم الشرع فالألفاظ القرآن الكريم هي لبُّ كلام العرب وزبدته، وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليها مفرع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم، وما عداها وعدا الألفاظ المتفرعات عنها والمشتقات منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة"¹

وستستعير الدراسة بالطروحات المبنية على القرآن الكريم، والتي يجتمع فيها اللفظ إلى المعنى لبيان الدلالة القرآنية عن الطروحات التي استشكلت أمر اللفظ والمعنى، واقتصرت في الدفاع على أحد الطرفين؛ إما على بيان قيمة اللفظ أو التي تعلي من شأن المعنى على حساب اللفظ.

أطروحات الدراسة الأساسية

أولاً: مقارنة منهج الدراسات القرآنية عند القدامى في توظيف اللفظ والمعنى.

ثانياً: قراءة أطروحات المدونات التراثية، وعرض ما أمكن عرضه مما أنجز في التاريخ حول "اللفظ والمعنى"، وفق رؤية استقصائية؛ تستجلي التمفصلات الهامة للموضوع، مع ذكر ما يقارنها في المدونات الحديثة من حين إلى حين.

مناهج الدراسة

اعتمدت الدراسة على منهج الاستقراء؛ بتتبع جزئيات قضية اللفظ والمعنى في مظانها من مؤلفات القدامى في علمي التفسير والقرآن، مع اعتماد المنهج التاريخي؛ باعتبار طبيعة البحث الذي يركز على العودة إلى المنجزات القيمة التي زخرت بها المكتبات الإسلامية.

وقد عالجتنا موضوع الدراسة وفق الخطة التالية:

أولاً: اجتماع اللفظ والمعنى في توجيه الدلالة.

1. اللفظ والمعنى والعلاقات الإبدالية بينهما في القرآن الكريم.

2. طرق دلالة اللفظ على المعنى في القرآن الكريم.

ثانياً: تجليات اتساق اللفظ والمعنى في البناء الدلالي.

¹الأصفهاني، الراغب(توفي425هـ). مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عنان داوودي، دمشق: دار القلم وبيروت: دار الشامية، ط4، 1430هـ/2009م، ص54، 55.

1. البنى الدلالية القرآنية.

2. البعد الدلالي في حمل اللفظ على المعنى في القرآن الكريم.

وقد مثلت هذه الخطة خلاصة النظر في مباحث الألفاظ التي يستدعي طرقها، تناول العلاقات التي تربط اللفظ بالمعنى من غير اقتحام لتلك الخلافات التي يرجح بعضها اللفظ في إكساب الجملة العربية رونقها وجمالها، ويرجح غيرهم قيمة المعنى وشكلية الألفاظ.

أولاً: اجتماع اللفظ والمعنى في توجيه الدلالة في مدونات التفسير وعلوم القرآن.

1. اللفظ والمعنى والعلاقات الإبدالية بينهما في القرآن الكريم

شغلت قضية اللفظ والمعنى حيزاً رحباً من كتابات الأصوليين واللغويين والمفسرين، "فقد سجلت أولى مراحل تعامل علماء الأمة مع القرآن، اهتماماً خاصاً بالألفاظ والمفردات القرآنية، وتعددت مظاهر هذا الاهتمام درساً وتحليلاً.. كما اتسعت عناية القدماء والمحدثين بالمصطلح القرآني، لتشمل تأصيل مفهومه، والكشف عن معانيه، وبيان الفروق والعلائق، ورصد أصوله الدلالية، وامتداداته المفهومية، وتصحيح الفهوم الخاطئة لآيه ودلالات ألفاظها.. وخصصوا لذلك أبواب ومباحث بعينها نجدها ماثلة في كتب اللغة، وأصول الفقه، وكتب الغريب، وكتب معاني القرآن، ومعاجم الألفاظ القرآنية، والوجوه والنظائر، والتفسير.."¹

ويعتبر مبحث الألفاظ والدلالات من المباحث التي أثمر الجهد فيها غايتها من الجودة وحسن التفصيل والدقة في البيان؛ وقد لاقى اهتماماً تختلف منازعه، ولئن تناقضت فلم يكن ذلك مما تنفلت به الرؤى إلى الشطط أو التهافت، فللموضوع توزيعات شتى، وله تمفصلات من الطبيعي أن تختلف بين اللغويين والأصوليين وعلماء التفسير والقرآن وغيرهم، وإن ظفرنا عند علماء البلاغة والنقد بالإطار العام للعلاقات الممكنة بين اللفظ والمعنى؛ على نحو ما نجد عند الجرجاني أو عند الجاحظ. فسيظل التدقيق في مباحثه مهمة يضطلع بها المفسر والمشتغل بالقرآن الكريم؛ لأنه إذا كان ممن يعنون بالعلاقات الإبدالية فسيجد نفسه مضطراً إلى التوسع في فرز طبيعة تلك العلاقات، والبحث عن دلالة الألفاظ التي لا يظهر فيها الارتباط عن وجوه تعلقها وارتباطها بالمعنى إلا من خلال استقراء تام يستنطق النص ويستجلي عمق معانيه.

وإذا تجاذبت المنازع موضوع اللفظ والمعنى لدى علمائنا القدامى ففي القرآن ما يكشف عن العلائق الإبدالية بين اللفظ والمعنى وهو كفيل بجمع شتات تلك المنازع؛ إذ لا يستقيم الأمر ولا يمكن تحصيل الدلالة القرآنية إلا باجتماع اللفظ والمعنى معا في تقييرها.

وقد شكلت مطارحات أهل الأصول من جهة والتفسير من جهة أخرى، واللغويين وغيرهم من جهة ثالثة دليلاً على الثراء المعرفي الذي عرفته المنظومة الإسلامية؛ وميز ذلك الزخم العلمي والفكري تلك الحقب الزمنية من تاريخنا المضيء، وأبان عن قدرات فكرية فذة في صياغة الدرس القرآني والحديثي معا صياغة تلو عن الإسفاف، ففيه من الدقة ما يعجزنا عن تجاوزه، بله عن أطراحه.

¹ زمرد، فريدة. مفهوم التأويل في القرآن الكريم: دراسة مصطلحية، ط1، الرباط: مركز الدراسات القرآنية، الرابطة المحمدية للعلماء، 1435هـ/2014م، ص5.

ومثلت ثنائية اللفظ والمعنى محطة بارزة من محطات التأليف في المدونات التراثية، ولم تكن لتكتسب هذه الخطوة لولا اتصالها بقضية الإعجاز القرآني، التي كانت محط اهتمام جميع البيئات العلمية، واستدعت ضرورة الوقوف على أسرار القرآن الكريم، وتحديد سر الإعجاز اللغوي فيه إلى التعرّيج على قضية اللفظ والمعنى باعتبارها المدخل الرئيس إلى ذلك. فمما يؤديه المعنى من وظائف الوصول إلى الكشف عن القواعد المنظمة للتراكيب النحوية، والوسائل الإجرائية المتبعة في دراسة النص العربي، وهذا واضح فيتتبع العلماء للتراث العربي الذي كان متأصلاً فيه ومبثوثاً في مؤلفاتهم، والذي تعود فيه جذور القضية إلى العصر الجاهلي وتمتد لتشمل القرون الهجرية الخامس، والسادس، والسابع، بحيث تجلت هذه النظرية في كونها عربية خالصة¹.

ويمكن القول بأن القرآن الكريم قد طبع هذه النظرية المرتبطة باللفظ والمعنى بطابع الأصالة، بالرغم من كون بعض عناصر الموضوع تعد تأسيلاً لما كان موجوداً وممتداً إلى ما قبل الإسلام، وقد أصبحت مباحث الموضوع تعكس ما هو مؤصلاً من القرآن الكريم، مما أعطى الدفع لتطور بناء النظرية لتصل إلى ما وصلت إليه اليوم من نضج؛ يعكس علاقة اللفظ بالمعنى، ومدى ارتباطه به، ف"اللفظ والمعنى إما أن يتحدا فهو المفرد كلفظة الله، فإنها واحدة، ومدلولها واحد، ويسمى هذا بالمفرد؛ لانفراد لفظه بمعناه؛ أو يتعدداً فهي الألفاظ المتباينة للإنسان والفرس وغير ذلك من الألفاظ المختلفة، الموضوعة لمعان مختلفة؛ وحينئذ إما أن يمتنع اجتماعهما؛ كالسواد والبياض، وتسمى المتباينة المتفاضلة، أو لا يمتنع كالاسم والصفة؛ نحو السيف والصارم، أو الصفة وصفة كالناطق والفصيح، وتسمى المتباينة المتواصلة؛ أو يتعدد اللفظ والمعنى واحد فهو الألفاظ المترادفة؛ أو يتحد اللفظ ويتعدد المعنى؛"² وهكذا.

يقول الزمخشري: "يقال: إن قوله: جأ ججملة برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها، و جب ب ججملة ثانية، و جب بب بيجثالثة، و جب ب ب رابعة، وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة وموجب حسن النظم حيث جيء بها متناسقة هكذا من غير حرف نسق وذلك لمجيئها متأخية أخذاً بعضها بعنق بعض؛ فالثانية متحدة بالأولى معتنقة لها وهلم جرا إلى الثالثة والرابعة"³.

فبلاغة القرآن الكريم من المداخل القوية التي أسهمت في التأسيس للعلاقات الإبدالية بين اللفظ والمعنى، لكن العبرة في هذه البلاغة ليست بتضمن القرآن ألفاظاً لا مثيل لها في الفصاحة، ولا باشماله على معانٍ تفوق كل النعوت، وإنما العبرة بالرباط الناظم لهما؛ فكل من اللفظ والمعنى والرباط الناظم لهما هي مقومات كل بلاغة تسعى إلى الوقوف على إعجاز القرآن وتبين أسرارها؛ ذلك لأن الكلام لا يقوم بأي واحد من هذه المقومات الثلاثة دون المقومين الآخرين..."⁴.

وهو ما يذهب إليه كثير من المفسرين؛ باعتبار أن تحصيل المعاني المتينة من النصوص لا يكون بتجزئتها وحدات النص؛ الذي لا يفهم إلا من خلال وحدة معنوية هي اجتماع اللفظ والمعنى في التدليل على المقصود، يقول محمد الطاهر ابن عاشور

¹ عز الدين أحمد عبد العالي، العلاقة بين اللفظ والمعنى وآراء القدامى والمحدثين فهما، المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة مصراتة ليبيا، العدد السادس، ديسمبر 2016م، ص139.

² السيوطي، جلال الدين. المزهري في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: محمد جاد المولى وآخرون، د.ط.، بيروت: منشورات المكتبة العصرية، 1986م، ج1، ص368.

³ المرجع السابق، ص37.

⁴ الحيرش، محمد. النص وآليات الفهم في علوم القرآن: دراسة في ضوء التأويلات المعاصرة، ط1، ليبيا: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2013م، ص231.

في تفسيره "ولم أعاد سورة إلا بيّنت ما أحيط به من أغراضها لئلا يكون الناظر في تفسير القرآن مقصوراً على بيان مفرداته ومعاني جُملة كأنها فقر متفرقة تصرفه عن روعة انسجامه وتحجب عنه روائع جماله"¹.

وجملة مجهودات علماء التفسير في معاملتهم لنصوص كتاب الله Y انصبت على رفع الحجب عن المعنى والإبانة عنه، يُدرك ذلك تحديداً من تعريفهم لمصطلح التفسير الذي من بين ما يحمل من الدلالات قولهم: "والفسر الإبانة والكشف مدلول كلام أو لفظ بكلام آخر هو أوضح لمعنى المفسّر عند السامع"²، فالتفسير في اصطلاحهم: "هو اسم للعلم الباحث عن بيان ألفاظ القرآن وما يستفاد منها باختصار أو توسع"³، وهو ما صرح به ابن عاشور وغيره من المفسرين في قوله: "وموضوع التفسير: ألفاظ القرآن من حيث البحث عن معانيه، وما يستنبط منه... مباحث علم التفسير... تفسير ألفاظ أو استنباط معان. فأما تفسير الألفاظ فهو من قبيل التعريف اللفظي وأما الاستنباط فمن دلالة الالتزام"⁴.

وتقترب دلالة التفسير من التأويل؛ "لأن التأويل مصدر أوّلُهُ إذا أرجعه إلى الغاية المقصودة، والغاية المقصودة من اللفظ هو معناه وما أراد منه المتكلم به من معاني، فساوى التفسير، على أنه لا يطلق إلا على ما فيه تفصيل معنى خفي معقول"⁵.

لقد ترك علماء القرآن والتفسير ما لا يمكن حصره من المؤلفات الشارحة لكتاب الله Y المستقصية لمعانيه، ففاضت جهودهم عن ثروة تفسيرية تندّد عن الحصر كمّاً وكيفاً، ولا تنقضي عجائب النص وروائعه في الإغداق على المتدبرين، يقول ابن عاشور "المفسرين ابتدأوا بتقصي معاني القرآن فطفت عليهم وحسرت دون كثرتها قواهم"⁶.

2. طرق دلالة اللفظ على المعنى⁷ في القرآن الكريم.

طبيعي أن يلزم اللفظ المعنى؛ فالمعنى صورة ذهنية وُضع بإزائها لفظ دال عليها وهو المقصود منها، فبغير لفظ لا يقوم المعنى، والبحث عن دلالة الألفاظ في ضوء المعاني⁸؛ مما اختص به الدرس القرآني، ومن بين ما يدل به اللفظ على المعنى المراد في القرآن الكريم ما يلي:

- دلالة ظاهر اللفظ: دلالة الكلام عند القدامى ليست بالضرورة ما دل عليه ظاهر اللفظ، وهو ما يعرف عند فقهاء اللغة بـ"سنن العرب في كلامها": أي ما تعارفوا عليه.
- السياق⁹:

¹ ابن عاشور، محمد الطاهر. تفسير التحرير والتنوير، تونس: الدار التونسية للنشر، د.ط.، 1984م، ج 1، ص 8.

² المرجع السابق، ج 1، ص 10.

³ المرجع السابق، ج 1، ص 11.

⁴ المرجع السابق، ج 1، ص 12.

⁵ المرجع السابق، ج 1، ص 16.

⁶ المرجع السابق، ج 1، ص 13.

⁷ المقصود من دلالة اللفظ: "كون اللفظ إذا أُطلق فَيُفهم منه المعنى من كان عالماً بالوضع". ما تؤديه الألفاظ من معان، أي فهم المعنى من اللفظ إذا أُطلق بالنسبة إلى العالم بالوضع". عبد الوهاب عبد السلام طويلة، أثر اللغة في اختلاف المجتهدين، ط 2، مصر: دار السلام، 1420هـ/2000م، ص 303.

وعزفها الرازي بأنها: "معلوم يكون على وجه يؤدي النظر الصحيح فيها إلى علم بزائد عليها". الرازي، فخر الدين (توفي 606هـ). الكاشف عن أصول الدلائل وفصول العلل، تحقيق أحمد حجازي السقا، ط 1، بيروت: دار الجيل، 1413هـ/1992م، ص 75.

⁸ كريمة محمد. قضية اللفظ والمعنى في النقد العربي القديم، مجلة مركز دراسات الكوفة، العراق، العدد 38، سنة 2015م، ص 232.

⁹ السياق: "ما يسبق أو يلحق الوحدة اللغوية من وحدات أخرى تتحكم في وظيفتها ومعناها، ولكنه في مجال اللسانيات يمتد ليشمل كل الظروف التي تحيط بالنص مما يتصل بالمرسل والمستقبل والمقام ككل". بودوخة، مسعود. السياق والدلالة، مرجع سابق، ص 41.

اعتمد المفسرون في الوقوف على مرادفات النص على مسالك دالة على المعنى، ولهم في ذلك قاعدة جلييلة من قواعد الترجيح المتعلقة باستعمال العرب للألفاظ والمباني مفادها بأن: كل تفسير ليس مأخوذاً من دلالة ألفاظ الآية وسياقها فهو رد على قائله¹، فـ"بلاغية النص القرآني لا يمكن ملامستها في ألفاظه ومعانيه وهي مجردة عن مواقعها وسياقاتها النصية المخصوصة؛ ذلك لأن كل عزل لتلك الألفاظ والمعاني عن الأنحاء النوعية التي تتعين بها في النص، وكل تبديل في مواقعها لن يكونا سوى ضرب من التضحية بخصوصية النص وإسقاط بلاغيته"².

وكان للسياق النصيب الأكبر في الاضطلاع بمهمة الإفصاح عن هذه المرادفات، التي لا يمكن للدارس لكتاب الله استجلاءها من خلال الألفاظ وحدها، فـ"كل تفسير خرج بمعاني كتاب الله عما تدل عليه ألفاظه وسياقه، ولم يدل اللفظ على هذا المعنى بأي نوع من أنواع الدلالة: مطابقة، أو تضمنا، أو التزاما، أو مفهوما، موافقا، أو مفهوما مخالفا، فهو مردود على قائله- ولاكرامة-؛ لأنه إذا كان بهذه الصفة كان ضربا من التخرص، والقرمطة، والتلاعب بكتاب الله تعالى، لا تُقره لغة، ولا يرضاه دين، ولا عقل، وليس من تفسير كلام الله في شيء. فبالألفاظ يكون التخاطب والإفصاح عن المراد، وهي قوالب المعاني، فالغاء دلالاتها بإبطال اللغة التخاطب وفائدته"³ ويعد السياق الاجتماعي والتاريخي عاملا هاما في استقصاء الدلالة، وفي القرآن الكريم يكون ذلك أكد⁴.

سياق الحال: له قيمته في إدراك الخلفيات التي تعين على معرفة دلالة الألفاظ ومعانيها واستعمالاتها.

السياق اللفظي: الاستعانة على شرح دلالة اللفظة بما يجاورها من الوحدات الكلامية الأخرى؛ فاللفظة تورد في سياقها الذي يحكم دلالتها، وتدور معه وتتغير وفقه.

- القرائن المقالية والحالية:

وظف علماءنا القدامى القرائن التي تعد مظهرا لأثر السياق في الدلالة على المعنى، ومن فطاحلة هذا الفن؛ الزمخشري الذي اعتنى بالتفسير اللغوي للقرآن الكريم، وبرع في تجلية الإعجاز البلاغي فضلا عن المباحث الدلالية⁵، وفي البحث عن النسق المعنوي للآية الواحدة وتآلف معاني ألفاظها وتآخها يقول مثلا في الآية⁶: " وَمِنَ النَّاسِ مَن يُقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ " البقرة: 8.

والأولى في ذكر شأن الفعل لا الفاعل والثاني في ذكر شأن الفاعل لا الفعل؟ قلت: القصد إلى إنكار ما ادعوه ونفيه فسلك في ذلك طريقا أدى إلى الغرض المطلوب وفيه من التوكيد والمبالغة ما ليس في غيره وهو إخراج ذواتهم وأنفسهم من أن تكون طائفة من طوائف المؤمنين لما علم من حالهم من المنافية لحال الداخلين في الإيمان، وإذا شهد عليهم بأنهم في أنفسهم على هذه الصفة فقد انطوى تحت الشهادة عليهم بذلك نفي ما انتحلوا إقباطه لأنفسهم على سبيل البت والقطع⁷.

¹ الحربي، حسين. قواعد الترجيح عند المفسرين دراسة نظرية تطبيقية، راجعه وقدم له: مناع بن خليل القطان، الرياض: دار القاسم، ط1، 1417هـ/1996م، ص347، 349.

² العيرش، محمد، النص وآليات الفهم في علوم القرآن، مرجع سابق، ص232.

³ الحربي، حسين. قواعد الترجيح عند المفسرين دراسة نظرية تطبيقية المرجع السابق، ص349.

⁴ بودوخة، مسعود. السياق والدلالة، مرجع سابق، ص78(بتصرف).

⁵ المرجع السابق، ص156.

⁶ الصاوي الجويني، مصطفى. منهج الزمخشري في تفسير القرآن، ص101.

⁷ الزمخشري، أبو القاسم جار الله (توفي 538هـ). تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: خليل مأمون شيحا، ط3، بيروت: دار المعرفة،

1430هـ/2009م، ص44.

بذاك وإسقاط المعارف المتعلقة به على المعارف المتعلقة بالآخر، لتتحول معارف الميدان الأول (التجارة) وخصائصه الموجودة في البنية التصورية للمتلقى إلى معارف خاصة بالميدان الثاني (الإيمان) والمجهول بالنسبة للمتلقى ليمكنهم الفهم¹ وتلمس ملامح هذه الفكرة من خلال قول الرازي: "للألفاظ دلالات على ما في الأذهان لا على ما في الأعيان ولهذا السبب يقال: الألفاظ تدل على المعاني، لأن المعاني هي التي عنها العاني، وهي أمور ذهنية، والدليل على ما ذكرناه من وجهين: الأول: أنا إذا رأينا جسما من البعد وظننا صخرة قلنا إنه صخرة، فإذا قربنا منه وشاهدنا حركته وظننا طيرا قلنا أنه طير، فإذا ازداد القرب علمنا أنه إنسان فقلنا إنه إنسان، فاختلاف الأسماء عند اختلاف التصورات الذهنية يدل على أن مدلول الألفاظ هو الصور الذهنية لا الأعيان الخارجة، الثاني: أن اللفظ لو دل على الموجود الخارجي لكان إذا قال إنسان العالم قديم وقال آخر العالم حادث لزم كون العالم قديما حادثا معا، وهو محال، أما إذا قلنا إنها دالة على المعاني الذهنية كان هذان القولان دالين على حصول هذين الحكمين من هذين الإنسانيين، وذلك لا يتناقض."²

وهو ما يذهب إليه الباحث مسعود بودوخة، الذي تبنى بأقوال بعض العلماء التي تبين مالحق الموضوع من جدل امتد إلى مرحلة التصور والإشارات في قوله: "ويظهر أن هذا الجدل بين التصور والإشارة كان محل اهتمام علماء اللغة والدلالة منذ القديم، يقول السيوطي في كتابه المزهر: ...واختلف هل الألفاظ موضوعة بإزاء الصور الذهنية...أو بإزاء الماهيات الخارجية، فذهب الشيخ أبو إسحاق الشيرازي إلى الثاني، وهو المختار، وذهب الإمام فخر الدين الرازي وأتباعه إلى الأول، واستدلوا عليه بأن اللفظ يتغير بحسب تغير الصورة في الذهن"³.

2. البعد الدلالي في حمل اللفظ على المعنى في القرآن الكريم.

يرتبط الكشف عن الدلالة القرآنية بالممارسة التفسيرية ولكنه لا يقتصر عليها؛ فالدلالة القرآنية هي نظام من العلاقات التي ينتظم داخلها اللفظ والمعنى، ويتقوم الكشف عنها بتوفره على أبعاد بحيث يمثل تحصيلها إمكان ربط الممارسة التفسيرية باللفظ والمعنى. ومن هذه الأبعاد البعد الدلالي؛ الذي من خلاله يمكن وضع قواعد صارمة في تفسير اللفظ، تظل مشروطة بمدى قدرة المفسر على الإيفاء بمقتضى التوافق بين اللفظ وإمكان تأويله.

ويشمل البعد النصي مجموع الباحث التي تطرق فيها علماء القرآن إلى الجهات التي يتكون بها النص تحققا ذاتيا له وسائله وآلياته الخاصة في الإبانة عن معانيه والإفصاح عنها؛ فهو بعد يمثل في النمذجة التي نقترحها لتنظيم مباحث التأويلية القرآنية الكيفية التي صاغ من خلالها علماء القرآن العلاقات القائمة في دواخل النص بين تجلياته وتحققاته الذاتية. وقد جاءت المباحث المندرجة تحت هذا البعد كثيرة ومتنوعة؛ إذ منها ما يتناول لغة النص ويعنى بها في مستوياتها البسيطة والمركبة (أصوات، ألفاظ، تراكييب). ومنها ما يتناول آلياته الدلالية التي يتوسل بها في الإفصاح عن قصوده ومراداته الخاصة (المجمل والمبين، العام والخاص، المنطوق والمفهوم)، إلخ. ومنها أيضا ما ينكب على هوية النص لاستكشاف خصوصية ما ينطوي عليه من وجوه الإعجاز ومظاهره، إلخ..."⁴.

¹ سليمان أحمد، عطية. الإشهار القرآني والمعنى العرفاني في ضوء النظرية العرفانية والمزج المفهومي والتداولية (سورة يوسف نموذجًا)، مصر: الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، د.ط.، 2014م، ص132، 133، 142.

² تفسير الفخر الرازي، ج 1، ص31.

³ بودوخة، مسعود. السياق والدلالة، الجزائر: بيت الحكمة، ط 1، 2012م، ص33.

⁴ الحيرش، محمد، المرجع السابق، ص219.

يقول الخطابي: "بجميع أسماء اللغة العربية وبألفاظها التي هي ظروف المعاني والحوامل لها، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظم التي بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض، فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله، وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم. وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ، أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلاًؤماً وتشاكلاً من نظمه. وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها. والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها."¹

و"هكذا، إذن، يكون الخطابي قد مهد لهذه اللحظة المعرفية بجعله الإعجاز موضوعاً خالصاً للبلاغة تستقل ببحثه وتفسيره على نحو ما تفصح عنه نظوم النص وتأليفاته؛ فالإعجاز القرآني، بالنسبة إليه، لا يستقيم الوقوف عليه إلا باستدعاء ثلاث دعائم تتداخل فيما بينها وتتلازم هي: الألفاظ، والمعاني، ونظوم التأليف."²

إن أولى مداخل النص القرآني التي يتوسل بها إلى إدراك مفهومي يستقصي دلالاته هو الألفاظ والمعاني "وإذا كان يمكن تحليل الحراك الدلالي لهذا الزوج لدى الممثلين الأوائل للتراث في مجالي البلاغة والنقد بما يصاحب نشأة العلوم من صعوبة وعدم تحدد اصطلاحي، فإن اقتران هذه الظاهرة بهذا الزوج في مجالات أخرى، وفي مراحل لاحقة لمرحلة النشأة، يغدو متطلباً لتفسير أشمل. وهو ما لا يمكن إنجازه على نحو كامل بعيداً عن رصد هذا الزوج في المجالات المختلفة مع التنبه لحضور هذا الظاهرة في هذه المجالات."³

خاتمة

تقتحم الدراسة أسوار الماضي، لتقف على أعتاب نماذج فكرية متحررة من قيود العجز وسلاسل الاستكانة التي تكبل العقول، وتحجب على العطاء المثمر؛ إنها نماذج بذلت المهج في سبيل إرواء الأمة بالذخائر العلمية، التي تستوقفنا للنظر في تلك الجهود صُرِفَتْ في استجلاء أسرار كتاب الله Y.

وقد تبين لنا في هذه الدراسة أن توجيه المفسرين وغيرهم لأي القرآن الكريم قد ارتبط بما تفصح عنه الألفاظ والمعاني، من غير إهمال للناظم الذي يجمعهما.

والدراسة توصلت إلى مجموعة من النتائج يمكن إيجاز أهمها:

أولاً: العلاقة بين اللفظ والمعنى متينة موهلة في الانسجام، ولا يمكن قطعها؛ فتفسير الألفاظ يُعد جزءاً كبيراً من بيان المعنى. كما أنه لا بد للمفسر أن يستعين باللفظ والمعنى للوصول إلى دلالة صحيحة، فالعلاقة بين اللفظ والمعنى هي علاقة تبادلية تكاملية.

ثانياً: جهود القدامى في التفسير وبيان إعجاز القرآن الكريم تتوسل باللفظ وبالمعنى؛ لأجل فتح مغاليق النص، والولوج إلى التفسير الصحيح، بعيداً عن التطويع الكرهى للنصوص لمراتب متعسفة.

¹ الرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني. ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، مصر: دار المعارف، ط3، 1976م، ص27.

² الحيرش، محمد. النصّ وآليات الفهم في علوم القرآن، مرجع سابق، ص234.

³ النعمان، طارق. اللفظ والمعنى بين الإيديولوجيا والتأسيس المعرفي للعلم، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، د.ط.، 2003م، ص7.

ثالثا: مثلت ثنائية اللفظ والمعنى محطة بارزة من محطات التأليف في المدونات التراثية، لاتصالها بقضية الإعجاز القرآني، التي كانت محط اهتمام العلماء القدامى، فاستدعت ضرورة الوقوف على أسرار القرآن الكريم، وتحديد سر الإعجاز اللغوي فيه طرق مباحث الدلالات، ومباحث الألفاظ وما يرتبط به من معان.

رابعا: اعتماد علمائنا على اللفظ والمعنى في بيان دلالات الآيات القرآنية كان اعتمادا كلياً، يبرز مدى التوظيف القوي لهما في الاهتداء إلى الدلالة القرآنية.

مراجع الدراسة:

1. جاكندوف، راي. علم الدلالة والعرفانية (Semantics and cognition)، نقله عن الإنجليزية وقدم له: عبد الحربي، حسين. قواعد الترجيح عند المفسرين دراسة نظرية تطبيقية، راجعه وقدم له: مناع بن خليل القطان، الرياض: دار القاسم، ط1، 1417هـ/1996م.
2. الحيرش، محمد. النص وآليات الفهم في علوم القرآن: دراسة في ضوء التأويلات المعاصرة، ط1، ليبيا: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2013م.
3. الرازي، فخر الدين (توفي 606هـ). الكاشف عن أصول الدلائل وفصول العلل، تحقيق أحمد حجازي السقا، ط1، بيروت: دار الجيل، 1413هـ/1992م.
4. ——— نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق: نصر الله حاجي مفتي أوغلي، بيروت: دار صادر، ط1، 1424هـ/2004م.
5. الرزاق بَنُور، مراجعة مختار كريم، تونس: دار سيناترا-المركز الوطني للترجمة، د.ط.، 2010م.
6. الرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني. ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، مصر: دار المعارف، ط3، 1976م.
7. الزمخشري، أبو القاسم جار الله (توفي 538هـ). تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: خليل مأمون شيحا، ط3، بيروت: دار المعرفة، 1430هـ/2009م.
8. زمرد، فريدة. مفهوم التأويل في القرآن الكريم: دراسة مصطلحية، ط1، الرباط: مركز الدراسات القرآنية، الرابطة المحمدية للعلماء، 1435هـ/2014م.
9. سليمان أحمد، عطية. الإشهار القرآني والمعنى العرفاني في ضوء النظرية العرفانية والمزج المفهومي والتداولية (سورة يوسف نموذجاً)، مصر: الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، د.ط.، 2014م.
10. السيوطي، جلال الدين. المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: محمد جاد المولى وآخرون، د.ط.، بيروت: منشورات المكتبة العصرية، 1986م، ج1.
11. الشابندر، غالب حسن. استراتيجية السؤال رؤية قرآنية، بيروت: دار الهادي، ط1، 1425هـ/2004م.
12. ابن عاشور، محمد الطاهر. تفسير التحرير والتنوير، تونس: الدار التونسية للنشر، د.ط.، 1984م، ج22.
13. عبد الوهاب عبد السلام طويلة، أثر اللغة في اختلاف المجتهدين، ط2، مصر: دار السلام، 1420هـ/2000م.
14. عز الدين أحمد عبد العالي، العلاقة بين اللفظ والمعنى وآراء القدامى والمحدثين فهما، المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة مصراتة ليبيا، العدد السادس، ديسمبر 2016م، ص139.

15. كريمة، كريمة محمد. قضية اللفظ والمعنى في النقد العربي القديم، مجلة مركز دراسات الكوفة، العراق، العدد 38، سنة 2015م، ص232.
16. النعمان، طارق. اللفظ والمعنى بين الإيديولوجيا والتأسيس المعرفي للعلم، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، د.ط.، 2003م.

أثر المرجعية اللسانية في التأسيس للمقاربات النصية

دراسة في التأصيل والبدايات

د. هامل شيخ

جامعة عين تيموشنت، الجزائر.

ملخص:

حسب الكثير من المراجع المتخصصة في علوم الخطاب، تنطلق الكثير من الدراسات النصية من مرجعية لسانية صارمة في التحليل، سيكون الحديث عن اطار وصفي يدرس الوحدات النصية ضمن منطق النظم والارتصاف مع الأخذ بعين الاعتبار العلاقات الموجودة بين الملفوظات،

فالدراسة النصية تصف وحدات النص انطلاقا من علاقات واضحة بين بنياته، لكن رغم انتفاء الحاجة لدراسة بنيوية تقف عند حدود الجملة، يبقى للسانيات الكلام الأثر الواضح في بسط معرفي مهم، انطلاقا من جهود الكثير من الأعلام.

إن الدراسة النصية تستأنس بالكثير من المقاربات اللسانية النوعية المهمة- وهي كثيرة-، تنطلق المداخلة من إشكالية واضحة مفادها:

ما هو أثر المرجعية اللسانية في تأسيس وتطوير المقاربات النصية؟

الكلمات المفتاحية: اللسانيات- النص- الخطاب- السياق- التواصل

Abstract:

According to many specialized references in discourse science, many textual studies rely on a rigorous linguistic reference in the analysis: it will be a descriptive framework that will examine the textual units within the logic of systems and hierarchy, taking into account the relationships between the results,

The textual study describes the units of text resulting from clear relationships between their structures, but despite the absence of the need for a structural study located at the limits of the sentence, the semantics has an obvious impact on an important epistemology, based on the efforts of many linguists.

The intervention begins with a clear problem:

What is the impact of the linguistic reference in the development of text approaches?

Keywords: linguistics, text, discourse, context, communication

المعطيات المعرفية التي ننطلق منها دائما ونحن نتحدث عن بعض المفاهيم اللسانية مثل النص و وتمثلاته المختلفة، فأول فكرة تؤسس لطبيعة اشتغالنا حول موضوع النص هي مسألة المرجعية، فالسند المعرفي الوحيد في الفترة الأولى يتمثل في ما وفرته اللسانيات من مفاهيم علمية لدراسة اللسان على اختلافها، حيث يعتبر المنطق الصارم للسانيات الجملة التي تشرحت من المصدر المهم في بداية القرن العشرين سنة 1916 " دروس في اللسانيات العامة" في هذا الكتاب ستكون مدونة الاشتغال هي اللسان الموضوع الوحيد والواحد لعلم اللسان بتبرير معرفي علمي واضح من المعلم الأول " دوسوسير" الاهتمام بالجملة كموضوع للوصف اللساني له ما يبرره بعدما كان الاهتمام في البحث اللغوي باللغة وانساق أخرى مؤثرة كالتاريخ والفلسفة والآداب الجميلة، بالإضافة الى ذاتية مفردة صاحبت التأمل في اللغة، إن الفكرة المدرسية في العرف البنيوي " البحث في اللسان في ذاته من وأجل ذاته" كانت من أجل الانفراد به كمدونة خاصة وإقصاء كل ما من شأنه ان يبعدنا عن موضوعية العلم ، وتفريع المدونة الموضوع لكل الأجزاء المكونة؛ البدايات في علم اللسان كانت صارمة ودقيقة بعدما كانت الدرس اللغوي متاخما بمعارف مجاورة أبعدته عن الوصف الصريح . بعد فرديناند دو سوسير حافظت النظريات اللسانية على الإرث البنيوي بإعجاب وحماس متلازمين. وشاعت البنيوية لدى الكثير من اللسانيين في أوروبا وكانت هناك معارف متخصصة في علم الأصوات ودراسة الانحاء المختلفة والاهتمام بمستويات اللسان ووظيفته، لقد حافظت البنيوية على فكرة النسق، والطابع المحايت للتحليل، وهو الأمر الذي جعل هذه الفكرة تتسرب الى علوم أخرى كالتاريخ وعلم النفس والأنثروبولوجيا، فعلم اللسان سيعبر للعلوم الأخرى مفاهيمه ومنطقاته، ويغدو مصدرا فعالا للتفكير والثقافة، بعد فترات من شيوع الفكر البنيوي وذيوعه وبلوغه الافاق في أوروبا وفي أمريكا أيضا، سيلتفت الى الخارج لساني، لم تعد الوصف الداخلي ذا منزلة وافادة، فعالم اللسان ليس منفصلا عن عوالم محيطه، فمن غير المعقول ان يكون الخارج لساني بعيدا عن الوصف العلمي، وقبل ذلك من غير المعقول ان يختصر العلم في وصف النظم والاستبدال في حدود الجملة فقط، هذه الحقائق ستشير مما لا يدع مجالا للشك لمجالات أخرى يلزم ان تكون موضوعا لعلوم اللغة، الانتقال بطواعية من عالم الجملة الى عالم النص، لكن هذا الانتقال يحافظ بدراية عن المنطق الصارم(وهو منزلة البنيوية) والابتعاد عن كل تخمين، فتعتبر البحوث في عالم النص عودة الى الخارج لكن هذه المرة بعلمية ومنهجية دقيقة تعطي للوحدات حقها في التمثل والوجود في المكان الذي ينبغي ان تحوزه وسط منطق من العلاقات ؛ انطلاقا مما سبق سنشير الى الكثير من الأفكار التي تتجاذب فكرة علمية اللسانيات وعلاقتها بالدراسات في علوم النص والخطاب أي الانتقال من اللساني الى الخارج لساني وللإشارة أيضا الى علاقة النص بالعلوم المختلفة التي أسهمت في توسيع دائرة التحليل وتعدد المدونات التي يمكن ان تكون موضوعا للنظر العلمي الحصيف، فموضوع النص هو البنيات والعلاقات ثم الوظيفة فالسياق ، هذه الترسيم من شأنها انتوضح عديد نقاط الظل في هذه الدراسات التي تتطور كل حين ولحظة، سنعرض للكثير من المفاهيم ثم نتبعها بوجهات نظر حول علوم النص والخطاب.

المقصود بمصطلح "نص" مجموعة الملفوظات اللسانية القابلة للتحليل؛ فالنص اذن عينة لسلوك لساني مكتوبا كان ام منطوقا. ويشير المعجم أن يلمسليف أتاح لمفهوم النص معنى واسعا ، فهو كل ملفوظ مكتوبا كان ام ومنطوقا جديدا كان ام قديما طويلا كان أم قصيرا؛؛ فكلمة قف مثلا هي نص تشبه رواية اسم الوردة.¹

ويقترح معجم تحليل الخطاب تعريفات عديدة لمفهوم النص ، حيث كان تعريف مفهوم النص في الأول نحويا ويسعى الى الترميز؛ فالنص من وجهة انحاء النص هو مقطوعة مشكلة تشكيلا سويا من جمل مترابطة تتدرج نحو نهاية.² ويوفر المعجم تعريفات كثيفة حول المصطلح وفي بعض الأحيان مراجعات نقدية لمفهوم "نص" فيتبين ان النص وحدة مفردة في التعقيد كي نستطيع حصرها في نمطيات حتى يفى مجرد الاتساق والانسجام اللغويين بما يكون وحدتها، وان وجدت قواعد للشكل السوي، فان تلك القواعد، تتصل بكل تأكيد بأجناس الخطاب؛ أي بالممارسات الاجتماعية الخطابية المنظمة.³

ومما ينبغي ان يلمح اليه ان اللسانيات لجأت الى تكريس عدة أدوات للتقرب من دلالة النص وقضاياها المطروحة محبذة ان تكون هذه الأدوات فعالة وجديدة وغير أحادية ، ولاحظت ان النص لا يتموضع في المستوى نفسه الذي تتموقع فيه الجملة، فالنص يؤلف نظاما لا يجب ان يتوافق مع النظام اللساني فكلا النظامين قائم بذاته وكل ما في الامر ان النص يطرح علاقة معه، مادام انه مقتد منه وهذه العاقبة كما ورد عند تودوروف تقوم على التجاوز والتشابه Contiguïté et ressemblance⁴

كخطاب او ملفوظ يأخذ مصطلح نص قيما متغيرة، وغالبا ما تستخدم كمقابل لملفوظ باعتباره متتالية لسانية مستقلة، شفوية او مكتوبة، انتجها متلفظ واحد أو أكثر في موقف ما من الاتصال المحدد. 5

يشير براون ويول (Brown et Yule (1983) بان النص تسجيل لفظي لاتفاق تواصلية ، في هذا التعريف تتجلى الكتابة كمشكل للتحديد، فهل نص مكتوب بخط اليد وطبع بطرق مختلفة يبقى نصا؟ يشير المعجم الى التمثلات التي تسبق الإنتاج الكتابي للنص، كالنسخ، التجويد، الصمت...⁶ أما دي بوغراند ودريسلر De Beaugrande et Dressler 1981 يعرفان النص أنه اتساق تواصلية يستوفي معايير مترابطة ومتداخلة، من بين هذه المعايير معيار التماسك بين اجزائه والعلاقات الموجودة بين الجمل.⁷ من بين هذه المعايير معيار القصدية: حيث يهدف المتلفظ الى انتاج نص ملائم، له تأثير محدد في متلقي مثالي(خاص).⁸ ومعيار الملاءمة: حيث يتوقع المتلقي أن ينتظر نصا ويؤوله بما يلائم عالمه.⁹

1- JEAN DUBOIS et autres, DICTIONNAIRE DE linguistique, p.482.

² - معجم تحليل الخطاب، ص.554.

³ - المصدر نفسه، ص.554.

⁴ - عبد الجليل مرتاض، القاموس الوجيز في المصطلح اللساني، دار هومة، الجزائر، ط 01، 2017، ص. 411- 412.

⁵ - Dominique Maingueneau, Les termes clés de l'analyse du discours, Éditions du Seuil, 1996, p.81.

⁶ - Dominique Maingueneau, Les termes clés de l'analyse du discours, p.81.

⁷ - Dominique Maingueneau, Les termes clés de l'analyse du discours, p.81.

⁸ - Voir ibid., p. 82.

⁹ - Voir ibid., p. 82.

هذه التعريفات وغيرها ركزت على النص باعتباره مجموعة من العلاقات المختلفة التي تتجاوز الجملة في نسقتها وعلاقتها لكنها تحتفظ بفكرة النظام الذي تسير وفقه الوحدات اللسانية، فالبنوية في معيار التقسيم المزدوج مثلا تبدأ بالوحدات الدالة ثم تواصل الوصف اللساني الى الوحدات غير الدالة ، تعتبر جهود أندري مارتنيه وغيره مهمة في التقعيد في مجال التحليل اللساني ، فلإنشاء قائمة من الفونيمات (في نص ما) يبدأ بتحديد الوحدات التي يحتمل ان تظهر في سياق محدد.¹ يمكن اسقاط هذه الدراسات في مقارنة النص باعتباره بنية ونظاما لسانيا، لكن يلزمنا الاخذ بعين الاعتبار الإحالة والسياقات المصاحبة في بلورة منطق الدراسة اللسانية للنص، يمكننا استعارة الكثير من المفاهيم اللسانية الى اقتراحها اندري مارتنيه لدراسة النص بنيويا من بينها مثلا :

La hiérarchie des monèmes² التسلسل الهرمي، من اصغر وحدة لسانية الى نهاية التحليل أي حدود الجملة.

Les monèmes autonomes³ المونيمات المستقلة ، وهي وحدات التعبير في النص يمكن ان نستانس بها في مقارنة النص من وجهة بنوية

Les monèmes fonctionnels⁴ المونيمات الوظيفية: تحيل مباشرة الى السياق مما لا يجعل مجالاً للشك ان الدراسات النصية النصية تحتاج الى روابط سياقية .

Grammaticaux et lexicaux; détermination et modalités⁵، يمكن استعارة هذه المفاهيم لبلورة كل منطلق تحليلي ينظر الى المفردة ثم الى النظام النحوي، من حيث الترتيب والتصميم، وكذلك النص تتجلى فيه بوضوح هذه التمثلات، وهو معبر معرفي من الجملة الى النص.

ولذلك فالتحليل النصي البنوي يساعدنا على الانفتاح على عالم النص، لأن اللسانيات الداخلية قاصرة عن اكتشاف عوالم النص المختلفة، "فاللغة بتمثلاتها المختلفة تحمل الامر، التساؤل، الإعلان والتواصلات العديدة ، لا نغفل أن السلوك اللغوي مرتبط بألية مثير/استجابة، والذي نخلص اليه انها الية مفيدة ، ومن جهة أخرى حتى وان كان دور التواصل يعتمد على اللغة فلا يجب ان نغفل ان هناك دورا في كثير من الأحيان، لعناصر غير لغوية، فالوعي الذاتي هو عبارة عن خبرات متباينة.⁶

اللسانيات الوظيفية والانتقال من الجملة الى الخطاب:

تعتبر اللسانيات الوظيفية، من ميادين البحث اللساني الذي انفتحت على بعض السياقات، فمدرسة براغ احتفظت بفكرة النظام والنسق لكنها ركزت على الوظيفة في كل مستويات اللسان، " جاء تأكيد حلقة براغ على دور الوظيفة واهميتها في التواصل اللغوي من جهة وفي التحليل اللساني في المستويات اللغوية كافة من جهة أخرى، في الاطروحة الثالثة التي تمحورت

1 - ANDRÉ MARTINET, ÉLÉMENTS DE LINGUISTIQUE GÉNÉRALE, N'ouvelle édition remaniée et mise à jour r98o, ARMAND COLIN, PARIS,1980,p.107.

2- ANDRÉ MARTINET, ÉLÉMENTS DE LINGUISTIQUE GÉNÉRALE,p.107.

3 - Voir ibid., p.111.

4 - Voir ibid., p.111.

5 - Voir ibid., p.118.

6 - Émile Benveniste, Problèmes de linguistique générale, T1, 1966, Paris, Gallimard, pp.258-260.

حول الوظائف اللغوية وفيها تم التأكيد على ان طبيعة الوظائف اللغوية هي التي تحدد بنية لسان معين صوتيا وصرافيا وتركيبيا ودلاليا، لكن حلقة براغ تنطلق في الواقع منذ الاطروحة التي حملت عنوان "الإشكاليات المنهجية المترتبة عن اعتبار اللسان نسقا" من مفهوم جديد للسان بوصفه نسقا وظيفيا وليس كنسق ثابت كما يظهر من تصور سوسير، فاللسان بوصفه نتاج النشاط الإنساني، يتقاسم وهذا النشاط طابع الغائية الذي يتميز بها.¹

أ. مكونات اللغة عند مدرسة براغ: أشار الكثير من الدارسين أن حلقة براغ وضعت تقسيمات مهمة بين مكونات اللسان والوظائف المنوطة بها، تتمثل فيمايلي:

- التمييز بين المكون الفكري والمكون الانفعالي في اللسان

- التمييز بين وظيفة اللسان الفردية ووظيفته الاجتماعية

- التمييز بين الوظيفة التواصلية والوظيفة الشعرية²

كان للتمييز بين اللسان والكلام دور هام في دراسات جاكبسون لسنوات، في 1929. استعمل جاكبسون بمعينة بوكاتريف Bogatyrev بشكل مجازي تمييز سوسير والمصطلحية في مقالهما on the Boundary between studies of folklore and literature

"حول الربط بين دراسات الفولكلور والأدب"

حيث نقرا العمل الفولكلوري خارج فردي، extraindividual وهو موجود بالقوة فقط، انه العمود الفقري للتقاليد القائمة، التي يزينها واضعوها بتطريزات الابداع الفردي مع زخرفته بالطريقة نفسها التي يسلكها منتجو التلفظ الكلامي (الكلام بالمعنى السوسيري) مع احترام نسق المعايير (اللسان عند سوسير)³

اذا كان سوسير يلح على ان التعارض بين المنظورين السانكروني والدياكروني مطلق ولا توافق بينهما، فان جاكبسون قد جعل هدفه التحليلي هو دراسة التعالقات بين المنظورين، بمجهود متواصل يعلق عليه جاكبسون بنفسه، في الجزء السادس من مختاراته الكتابية /الموسوم/ "ارتداد" Retrospect الذي أتمه في فبراير 1982 قبيل شهر من وفاته.⁴

وحول الفكر الاشكالي لسوسير الذي ولد بطبيعة الحال تساؤلات عديدة يقول رومان جاكبسون، : " ان هذا الشكاك كبير يرى دائما جانبيين في كل مسألة، وانه في هذا الموقف بالذات أرى عظمة سوسير"⁵

يضيف فرانسوا راستييه ان فكر سوسير ينتهي بلا شك الى التراث الذي كان يسمى سابقا تساؤليا Zététique، ويتحدد العرض التساؤلي بوصفه حواريا، (والحوار الافلاطوني احد الأمثلة) ذلك ان الحقائق les realia التي يؤسسها هي ثنائيات تنفلت

¹ - مصطفى غلفان، اللسانيات البنوية منهاجيات واتجاهات، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط 01، 2013، ص.224.

² - مصطفى غلفان، اللسانيات البنوية منهاجيات واتجاهات، ص.226.

³ - لادسلاف، مطجكا، رد جاكبسون على محاضرات سوسير. ترجمة، ربيعة العربي، ضمن كتاب، العودة الى سوسير، اعمال المؤتمر الدولي دي سوسير بعد مئة عام من الغياب، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، الأردن، ط 01، 2017، ص.443.

⁴ - لادسلاف، مطجكا، رد جاكبسون على محاضرات سوسير، ص.442.

⁵ - فرانسوا راستييه، ان نقرا نصوص دي سوسير، ترجمة حسن المودن و حافظ اسماعيلي علوي، ص.465.

بوصفها كذلك من اليقين، ومن الديداكتيكا التي تدرك بوصفها تعلمًا للمعتقد.¹

مسألة المرجعية التي انطلقت منها اللسانيات البنوية ووطورت من خلالها الكثير من الدراسات فاشتغلت بعلمية على الكثير من المدونات، ميزتها إشكالية الانتقال من الدروس إلى المخطوطات بدءًا من سنة 1957. ستظهر إلى العلن مخطوطات كثيرة منسوبة لسوسير وتغير الكثير من الحقائق حول طبيعة الأفكار المؤسسة للبنوية، " وهكذا ستظهر المخطوطات كأنها متن من الحالات الممكنة للنظرية، وفي غياب نص نهائي يسمح بترتيبها وبمنحها أفقا ما بعديا-ومحاضرات في اللسانيات العامة لا يمكنه أن ينهض بهذا الوضع الاعتباري- فإن هذه الحالات تبقى أهميتها متساوية ويمكن اعتبارها حصيلة للنظرية السوسيرية تبقى قابلة للبحث النهائي. ولأن هذه الأخيرة تبقى غير قابلة للفصل في شكلها غير المكتمل، فإنه كان لابد من قرن كامل من أجل قياس درجة اتساعها، وفرديناند دي سوسير مثل كل الكلاسيكيين لا يمكنه أن يكون مفهوماً بالكامل، لكن لهذا ربما بقيت كتاباته مصدرا استكشافيا لا ينضب.² يمكننا القول أننا أما سوسير الأصيل وسوسير الجديد؛ سوسير الدروس وسوسير الكتابات، في الكتابات نجد أن سوسير لم يعزل الكلام عن اللسان، الطابع المحايث ارتبط بالدروس بصفة إشكالية، (هذه المسائل متفرعة وتحيل إلى إشكاليات عديدة من شأنها أن تبعدنا عن مسار الموضوع).

سنقصر الحديث هنا عن علم من اعلام البنوية الذين كان لهم دور في نقل الدراسة اللسانية من طابعها الداخلي إلى طابع أكثر انفتاحا، من خلال نموذج مستلهم من علوم الاتصال التقني، نموذج جاكبسون يمكن أن ندرس من خلاله النصوص ضمن نسق يمنح عناصر واضحة في التحليل وفي التمثيل، تعتبر المقاربة التواصلية مقارنة ناجعة في تحليل النصوص انطلاقا من ترسيمات تحيل إلى العناصر والوظائف.

تعريفات التواصل:

روبير الصغير³:

التواصل *Communication من الأصل اللاتيني Communicatio.

ويحصي لنا القاموس ثلاث معاني لهذه الكلمة :

1- فعل التواصل هو كوننا في علاقة مع شخص ما أو شيء ما.

2- هو عملية نقل معلومة: بحيث تكون نتيجة التواصل مع شيء ما أو شخص ما الإبلاغ Information: إبلاغ خبر

جديد، تعليمة جديدة، رأي إلى شخص ما.. الخ

3- الناقل Passage: ما يسمح بالتواصل، الانتقال من مكان إلى آخر، يحيل إلى :

باب التواصل، سبيل التواصل، وسيلة التواصل.

ويقال: قطع التواصل-أنهى التواصل.

قاموس اللسانيات لجون ديبوا وآخرين¹:

¹ -فرانسوا راستيه، ان نقرا نصوص دي سوسير، ترجمة حسن المودن و حافظ اسماعيلي علوي، ص.465.

² -المرجع السابق، ص.466.

³ - P Petit Robert de la langue Française. nouvelle édition. sous la direction de Josette Rey-Debove et de Alain Rey. Dictionnaires Le Robert. Paris 2009. P 480.

وارجع إلى: هامل شيخ، التواصل اللغوي في الخطاب الإعلامي، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2016، ص.10.

التواصل هو التبادل اللفظي Verbal ما بين فاعل متكلم منتج للمفوض، موجه إلى فاعل متكلم آخر، ومستمع. التواصل هو بين ذاتي Intersubjectif على المستوى النفسي اللساني Psycholinguistique إنها العملية Processus التي بواسطتها يتم ربط الدلالة بالأصوات لدى المتكلم، وكذلك ربط الدلالة نفسها مع الأصوات لدى المستمع. المشاركون في التواصل : هم الأشخاص :الذات المتكلمة (égo) أو الفاعل المتكلم المنتج للمفوض والمستمع Interlocuteur أو Ollocuteur.

قاموس السيميائيات² (أ.ج.غريماس، ج.كورتاس):

-إن الفاعلية Activité اللسانية بالإمكان تعريفها بواسطة ثلاث وظائف :

1- العبارة Expression من خلال وجهة نظر المرسل.

2- النداء l'Appel من خلال وجهة المرسل إليه .

3- التمثيل Représentation الذي يحيل إلى المرجع أو السياق .

والظاهر أن هذه الخطاظة انطلق منها جاكبسون من خلال تسميات جديدة .

يرى جاكبسون التواصل اللفظي Verbal مرتكزا على ستة عوامل Facteurs :

1- المرسل: وظيفة تعبيرية.

2- المرسل إليه: وظيفة إهامية.

3- الرسالة: وظيفة شعرية.

4- السياق: وظيفة مرجعية.

5- السنن: وظيفة اللغة الواصفة.

6- القناة: وظيفة تواصلية.

ويرى القاموس أن الوظائف الجاكوبسونية للغة لا تستنفذ موضوعها، وتمفصلها ليس بإمكانه تأسيس منهجية لتحليل النصوص.

إن خطاظة جاكبسون تبدو أكثر شمولية وأكثر خصوصية في الوقت نفسه ؛

1- أكثر شمولية لأنها غير قادرة على إيجاد تنظيم taxinomie وعلم تركيبى خاص.

2- أكثر خصوصية لكونها تهتم بالتواصل اللفظي verbal .

- ويسرد القاموس أشهر وجهات النظر العلمية التي تناولت التواصل :

(Autin- Searle-Levi Strauss-Mauss-Buhler)

ومن الواضح أنه إذا كانت اللغة تواصلًا، فهي كذلك إنتاج للمعنى والدلالة، وهي لا تنحصر في إيصال معرفة على محور "أنا" "أنت"، إنها لا تتمثل في فعل-معرفة وإنما فعل-إقناع وفعل-فعل.

¹ - Jean Dubois et autres* , Dictionnaire de linguistique et des sciences du langage, Larousse, France, 1999, p. 94

هامل شيخ، التواصل اللغوي في الخطاب الإعلامي، (2016) ص.10.

² - A-J.Greimas- J. Courtes. Sémiotique. dictionnaire Raisonné de la théorie du langage. paris. ed Hachette.1979.p 45 في 45

الخطاب الإعلامي، (2016)، ص ص.11-12.

عناصر التواصل اللغوي:

حدد رومان جاكبسون جوهر التواصل اللغوي، وجعله قائما بستة عناصر هي كالآتي:

- المرسل Destinateur

وهو العنصر الفعال والطرف الأساسي في التواصل، يخوّل له موضعه في عملية التواصل باختيار المرجع والقناة والشفرة، لا يحدث الفعل التبليغي بدونه، ولذلك فهو منطلق المسار التواصلية¹. يمكن أن يكون ذاتا (التواصل الإنساني) الذي يحيل إلى تعدد الخطابات، سياسي، إعلامي، ويمكن كذلك أن يكون آلة (مصدر الإرسال التقني، وسائط المعلومات الرقمية...الخ)

- المرسل إليه Destinataire

هو الطرف الثاني والأساسي في المسار التواصلية، يتلقف الرسالة، التي يبعثها المرسل وهو المؤهل لفهمها وتأويلها²، يُعدُّ عضوا فاعلا في مسألة نجاح الرسالة أو فشلها وهو ما يحيل إلى طبيعة أفق انتظاره للرسالة، وعلاقة ذلك بالطابع التأويلي المُسَيِّق « فالمعنى يتولّد دائما من تحديد رابط بين شيئين، فالمتكلم يبذل جهدا باستعماله مجموعة من الإشارات لتوضيح السياق الذي يراد من مخاطبه أن يتلقى وفقه خطابه»³، هو بنية أساسية في بناء وتجسيد دلالة الرسالة في مختلف الخطابات الإنسانية.

- الرسالة Message

هي مجموعة من المعارف والمعلومات، وهي بذلك الخبر الذي يشكل حلقة وصل بين العنصرين الأساسيين (المرسل والمرسل إليه) في العملية التواصلية⁴، يمكن أن تكون لسانية أو سيميائية⁵. حسب جون دييوا وآخرين هي وحدة من العلامات المتعلقة بأسس محدودة في التركيب، يبعثها باثٌ إلى متلقٍ عن طريق قناة بصفتها وسيلة مادية للتواصل. تتجسد دلالة الرسالة في طبيعة التشفير وفك التشفير ضمن محور المرسل والمستقبل⁶.

- السياق Contexte:

هو السياق الذي تحيل عليه الرسالة، تحقّق جاكبسون على مصطلح مرجع وقال إنه غامضٌ نسبيا، ينبغي أن يكون قابلا لأن يدركه المرسل إليه، يكون لفظيا أو غير ذلك⁷.

- قناة الاتصال Contact:

هي الوسيط الناقل بين المرسل والمرسل إليه، عبّرها تصل الرسالة وتتجسد عند المتلقي على شكل وحدات لغوية أو غير لغوية، تتنوّع تبعا للوسائل المستعملة، ويشير جاكبسون إلى أنها فيزيائية في تمثيلها ضمن العملية التواصلية، تمنح ربطا

¹ - ينظر: رضوان القضاماني، أسامة العكش، نظرية التواصل، المفهوم والمصطلح، مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية، المجلد 29، العدد 01، 2007، ص 142.

² - ينظر: محند الركيك، نظرية التواصل في ضوء اللسانيات الحديثة، ص 69.

³ - أليكس موتشيلي وأخران، المعنى والتسييق والسيرورات، ترجمة: محمد يشوتي، علامات، العدد 21، سنة 2004، مكناس، المغرب، ص 52.

⁴ - ينظر: محند الركيك، نظرية التواصل في ضوء اللسانيات الحديثة ص 69.

⁵ - عمر أوكان، اللسانيات والتواصل، ص 16.

⁶ - Voir, Jean Dubois et autres, Dictionnaire de linguistique; p. 298

⁷ - ينظر: رومان جاكبسون، قضايا الشعرية، ص 27.

- ينظر: رومان جاكبسون، قضايا الشعرية، ترجمة: محمد الولي، حنون مبارك، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1988، ص 27.

نفسياً* بين المرسل والمرسل إليه، وتمنح اتصالاً يسمح لهما بإقامة التواصل والحفاظ عليه¹، يعرفها معجم تحليل الخطاب بأنها مصطلح في نظرية التواصل يعني الوسائل التي بواسطتها ترسل إشارات الشفرة من مصدر إلى مكان تلقي الرسالة²، ولا يخرج معجم اللسانيات عن هذا التحديد بل يضارعه في كل المعاني³.

- السنن Code:

هو نمط القواعد المشتركة بين المرسل والمرسل إليه، وبانعدامه لا يمكن للرسالة أن تفهم أو تُؤوّل، نجده في المدونة اللسانية في عدة مصطلحات،

حيث استعمل رومان جاكبسون مصطلح السنن Code

دي سوسير استعمل مصطلح اللغة Langage

نعوم تشومسكي استخدم مصطلح القدرة Compétence

لويس يلمسليف استخدم مصطلح النظام Système⁴.

قدّم جاكبسون صورة مختصرة عن هذه العوامل المكوّنة للسيرورة اللسانية حيث يوجه المرسل رسالة إلى المرسل إليه، ولكي تكون الرسالة فاعلة ومؤثرة فإنها تقتضي بادئ ذي بدء سياقاً تحيل عليه وهو ما يدعى أيضاً بالمرجع باصطلاح غامض بعض الشيء، قابلاً لأن يدركه المرسل إليه، وتقتضي الرسالة بعد ذلك سنناً مشتركة بين المرسل والمرسل إليه، وتقتضي أخيراً اتصالاً (قناة) يسمح لهما بإقامة التواصل والحفاظ عليه⁵.

وقد مثلها جاكبسون في الخطاطة التالية⁶:

ضمن هذه المنطلقات تتجلى لنا وبوضوح إمكانية تطبيق خطاطة التواصل لتحليل النصوص ضمن معطى لساني صارم، حتى وإن كانت هذه النظرية قد خضعت لتعدّلات كثيرة (خطاطة أوريكيوني على سبيل المثال)، وتتيح أيضاً فرضيات عديدة لرسم مناطق عبور معرفية بين النص والخطاب، بين النص كتمثل تسجيلي محدد وبين الخطاب بوصفه فضاء لمعارف واسعة وعناصر جديدة.

* نستنتج من خلال هذا المصطلح - الربط النفسي، أن رومان جاكبسون تأثر بطرح سوسير في مسألة طبيعة العلامة اللغوية. على أنها تحمل طابعاً ذهنياً- نفسياً صورة سمعية (دال) ← مفهوم مدلول وكلاهما حسب سوسير يحملان طابعاً نفسياً.

¹ - ينظر: رومان جاكبسون، قضايا الشعرية، ص. 27.

² - باتريك شارودو، دومينيك منغونو، معجم تحليل الخطاب، ص 93.

³ - Voir Jean Dubois et autres, Dictionnaire de linguistique, p. 47.

⁴ - ينظر: الطاهر بومزير، التواصل اللساني والشعرية، مقارنة تحليلية لنظرية رومان جاكبسون، ص 28.

- ويراجع أيضاً: ميكا إيفيتش، اتجاهات البحث اللساني، ص ص 257- 258.

- رومان جاكبسون، الاتجاهات الأساسية في علم اللغة، ص ص 41- 80.

- رومان جاكبسون، جورج مونان وآخرون، التواصل نظريات ومقاربات، ص ص 83- 84.

- ريه روبنز، موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، الفصل الثامن (علم اللغة في القرن العشرين)، ص ص. 285- 333.

⁵ - ينظر: رومان جاكبسون، قضايا الشعرية، ص 27.

⁶ - المرجع السابق، ص.ن.

ارجع إلى: Jean Dubois, Ibid. p. 96.

ورومان جاكبسون، موريس هال، أساسيات اللغة، ص. 20.

علوم النص ومعارفه:

هناك كثير من المعارف التي تحيط بعلم النص وعلاقاته المختلفة بعلوم كثيرة، سيكون النص منطلقا لمعارف متاخمة في المجال والاهتمام والرؤى، هناك علاقات بالأدب وعلم النفس الإدراكي وعلم الاجتماع وعلوم القانون والاقتصاد والسياسة وعلم التاريخ والأنثروبولوجيا وفي الأطار اللساني هناك علاقات داخلية بنيوية تحيلنا مباشرة إلى علم النحو والمفاهيم الجوهرية للعلاقات بين الوحدات اللسانية وأطر النظم في الجملة، وهناك ابنية كبرى للنصوص، بالإضافة إلى ذلك سنجد ان النص يفتح على علوم الاستعمال اللغوي كالبراغماتية التي توضح بدقة علاقة النص بالأحداث الكلامية والسياق والأفعال الكلامية؛ ومن سمات هذا التمثل الحدث و التفاعل، الأفعال الكلامية والتفاعل الاتصالي بالإضافة إلى الأبنية الاسلوبية والبلاغية الموجودة في النصوص، هناك معارف كثيرة يحيلنا إليها النص " فكل شيء في اللغة أساسه علاقات، فالعناصر في ما بينها متعاقبة مختلفة، والكلمات تعقد -في صلب الخطاب وبمقتضى تسلسلها- علاقات قائمة على الصفة الخطية للغة وهي صفة ينتفي معها امكان انجاز صوتين في الوقت نفسه وهذه العناصر تنتظم الواحد تلو الآخر في سلسلة اللفظ وهو ما يمكن تسميته بالعلاقات السياقية واستدعاء هذه العناصر إلى الاستعمال لا يكون ممكنا الا بفضل ذلك الكنز الباطني الذي يكون للغة لدى الافراد وهو العلاقات الترابطية او الجدولية؛ ذلك ان الكلمات تنزل نظريا في جداول تقترحها علينا اللغة (المعجم اللغوي) فننتقي منها ما نراه ملائما سياقيا.¹

وإذا كان النص خطابا تثبته الكتابة فان ذلك يمنحه مزية الحفظ والتدوين، ويجعله يتأبى على الاحتكام للأسيقية الثقافية والاجتماعية حفاظا على الخصيصة النصية التي ترقى به إلى منزلة الوثيقة والشهادة، وتدفع به إلى الاستجابة لبنائه النظري؛ ولما فقدت نصوص مثل كليلة ودمنة والف ليلة وليلة مزية الحفظ والتدوين تعرضت للانتهاك والزيادة، وضاعت هوية المؤلف فصارت خطابا متعدد الأبعاد الثقافية واللغوية، ولما قيدتها الكتابة أصبحت هذه الوثيقة وهذه الشهادة مجالا للبحث الفيلولوجي الذي يتقصد أبنيتها.²

ان السياق لا ينطبق على الكلمات فرادى فحسب بل وعلى الكلمات والوحدات المركبة وأيضا، واذن فالجدول هو مجال استدعاء الوحدة المعجمية إلى الاستعمال.³

فالنص وحدة كبرى شاملة تتكون من أجزاء مختلفة تقع على مستوى أفقي من الناحية النحوية وعلى مستوى عمودي من الناحية الدلالية، ومعنى ذلك ان النص وحدة كبرى، لا تتضمنها وحدة أكبر منها؛ والمقصود بالمستوى الأول، (الأفقي) ان النص يتكون من وحدات نصية صغرى تربط بينها علاقات نحوية؛ اما الثاني فيتكون من تصورات كلية تربط بينها علاقات التماسك الدلالية المنطقية.⁴

¹ - عبد الفتاح الفرجاوي ، الحدث اللساني في دروس سوسير، ص.134.

² - أحمد يوسف، في سيميائيات الخطاب بوصفه موضوعا بينيا، ضمن قضايا الخطاب في الفكر اللساني والسيميائي، داركنوز المعرفة للنشر والتوزيع، الأردن، ط.01، 2019، ص.55.

³ - عبد الفتاح الفرجاوي ، الحدث اللساني في دروس سوسير، ص.135.

⁴ - نعمان بوقرة، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، عالم الكتب الحديث، ط.01، 2009، ص.42.

تتعدد المقاربات المعاصرة في تحليل الخطاب من جهات نظر مختلفة، لكنها تشترك في بعض السمات الأساسية خاصة ما يتعلق بمبدأ التجاوز النظري والانتقال الى التمثيل السياقي، سيكون الحديث اذن عن منظور لساني ينزع نحو اعتبار الخطاب ظاهرة لسانية فهو متوالية غير اعتباطية من الجمل ثم سعى الى تحديد موضوعه وحصر مجال اشتغاله واخضاعه الى نفس الاليات والمبادئ التي تدرس بها الجملة، فتشكل ما يسمى بتحليل الخطاب او التحليل اللساني للخطاب او لسانيات النص، واستثمر فيه كثيرا من المفاهيم اللسانية لعل ابرزها مفهوما الاتساق والانسجام.¹

والمنظور الاخر هو المنظور التداولي؛ وهو رؤية عامة وموسعة ترفض اعتبار الخطاب وحدة لسانية كلية، وتعتبره متتالية غير اعتباطية من الملفوظات فيكون خاضعا لنفس المبادئ التداولية العامة التي تخضع لها الملفوظات، سواء في انتاجها أو تأويلها.²

الشروط:

الشروط او القواعد الواصفة لانسجام النص عند برتينيوتو ثلاثة هي:

1- أن تكون الجمل منسجمة من حيث الموضوع.

2- أن تكون ذات وظيفة تواصلية.

3- أن تكون منجزة في عملية تواصلية.³

وهناك شروط أخرى اقترحها دي بوغراند ودريسلروهي:

الاتساق-الانسجام-القصديّة-المقبولية-الإخبارية-الموقفية والتناص.⁴

ومن جهة أخرى فالسياق من جهة التناظر معطى مع النص باعتباره حقيقة موجودة بشكل سابق على التلقي، ومصدر سبق هذا هو في طبيعة اللغة ذاتها، ذلك ان المعانم ميالة في المساحات النصية الواحدة الى الانتشار الفوضوي، لذلك كانت هناك دائما حاجة الى إيجاد مستوى دلالي اعلى يتحكم في هذه المعانم (les semes) ويضبط حركيتها.⁵

وينظر الى النص أيضا باعتباره شبكة من العلاقات التي تنتظم فيما بينها استنادا الى قوانين بنيوية خاصة يعد التعرف عليها مطلباً رئيسياً لتحديد المعنى او المعاني التي تحصل اليها ميزته الرئيسية انه ليس متتالية من الجمل لا رابط بينها بل بناء قصدي.

¹ - نجوى حيلوت، مفاهيم أساسية في تحليل الخطاب، الاتساق والانسجام والمناسبة، ضمن، قضايا الخطاب في الفكر اللساني والسيميائي، ص.89.

² - ينظر، المرجع نفسه، ص.90.

³ - المرجع نفسه، ص.94.

⁴ - المرجع نفسه، ص.95.

⁵ - ينظر، سعيد بنكراد، النص صناعة للمعنى، ضمن، قضايا الخطاب في الفكر اللساني والسيميائي، ص.07.

خاتمة:

-انطلاقاً من الإشكالية المطروحة توصلنا الى بعض النتائج حول مسألة المرجعية اللسانية للدراسة النصية، تتمثل فيمايلي:
-تعتبر اللسانيات البنيوية مرجعية مهمة لاقتراح الكثير من المعارف التحليلية التي تتعلق بدراسة النص من منظور العلاقات المختلفة.

-هناك الكثير من النظريات اللسانية التي تتيح لنا الاقتراب من عالم النص بوعي ومنهجية
-تعتبر نظرية التواصل نظرية لسانية ساهمت في انفتاح النظر العلمي على السياقات المصاحبة
-إنظر التحليل النصية كثيرة ، توفر جهازا مفاهيميا نوعيا في المقاربة النصية والخطابية.
-يعتبر النص الأفق الأولي المجسد لأي خطاب من الخطابات.
-ثنائية نص خطاب من الثنائيات الإشكالية في الدراسات اللسانية المعاصرة.
-يعتبر النص مدونة تلتقي حولها علوم ومعارف مختلفة، سيكون الحديث عن علوم بينية كثيرة من شأنها ان تقترب من النص برؤى ومعارف نوعية مهمة.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- أحمد يوسف، في سيميائيات الخطاب بوصفه موضوعا بينيا، ضمن قضايا الخطاب في الفكر اللساني والسيميائي، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 01، 2019، ص.55.
- 2- أفيتش ميلكا، اتجاهات البحث اللساني، ترجمة: سعد عبد العزيز مصلوح، وفاء كامل فايد، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 2000، ط2.
- 3- بومزبر الطاهر، التواصل اللساني والشعرية – مقارنة تحليلية لنظرية رومان جاكبسون- منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، ط1، 2007.
- 4- جاكبسون رومان ، الاتجاهات الأساسية في علم اللغة، ترجمة: علي حاكم صالح، حسن ناظم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب/ بيروت، لبنان 2005.
- 5- جاكبسون رومان ، موانع جورج وآخرون، التواصل، نظريات ومقاربات، ترجمة: عز الدين الخطابي، زهور حوتي، منشورات عالم التربية، المغرب، ط1، 2007.
- 6- جاكبسون رومان، هال موريس، أساسيات اللّغة، ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2008.
- 7- روبنز زه، موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، تر: أحمد عوض، عالم المعرفة، الكويت، 1997.
- 8- رومان جاكبسون، قضايا الشعرية، ترجمة: محمد الولي، حنون مبارك، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1988.
- 9- سعيد بنكراد، النص صناعة للمعنى، ضمن، قضايا الخطاب في الفكر اللساني والسيميائي..

- 10- شارودو باتريك، منغنو دومينيك، معجم تحليل الخطاب، ترجمة: عبد القادر المهيبي، حمادي صمود، دار سيناترا المركز الوطني للترجمة، تونس، 2008.
- 11- عبد الجليل مرتاض، القاموس الوجيز في المصطلح اللساني، دارهومه، الجزائر، ط 01، 2017.
- 12- عبد الفتاح الفرجاوي ، الحدث اللساني في دروس سوسير، ضمن كتاب، العودة الى سوسير، اعمال المؤتمر الدولي دي سوسير بعد مئة عام من الغياب، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، الأردن، ط01، 2017.
- 13- عبد الفتاح الفرجاوي ، الحدث اللساني في دروس سوسير، ضمن كتاب، العودة الى سوسير، اعمال المؤتمر الدولي دي سوسير بعد مئة عام من الغياب، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، الأردن، ط01، 2017.
- 14- فرانسوا راستيه، ان نقرا نصوص دي سوسير، ترجمة حسن المودن و حافظ اسماعيلي، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، الأردن، ط01، 2017.
- 15- لادسلاف، مطجكا، رد جاكسون على محاضرات سوسير. ترجمة، ربيعة العربي، ضمن كتاب، العودة الى سوسير، اعمال المؤتمر الدولي دي سوسير بعد مئة عام من الغياب، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، الأردن، ط01، 2017.
- 16- مصطفى غلفان، اللسانيات البنيوية منهاجيات واتجاهات، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط 01، 2013 ، ص.224.
- 17- نجوى حيلوت، مفاهيم أساسية في تحليل الخطاب، الاتساق والانسجام والمناسبة، ضمن، قضايا الخطاب في الفكر اللساني والسيميائي ، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، الأردن، ط01، 2019.
- 18- نعمان بوقرة، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، عالم الكتب الحديث، ط01، 2009.
- 19- هامل شيخ ، التواصل اللغوي في الخطاب الإعلامي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط 01 ، 2016.

المجلات:

- 1- مجلة علامات، العدد 21، سنة 2004، مكناس، المغرب.
- 2- مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية، المجلد 29، العدد 01، 2007.

المراجع الأجنبية:

- 1- A-J.Greimas- J. Courtes. Sémiotique. dictionnaire Raisonné de la théorie du langage. paris. ed Hachette.1979.
- 2- ANDRÉ MARTINET, ÉLÉMENTS DE LINGUISTIQUE GÉNÉRALE, N'ouvelle édition remaniée et mise à jour r98o, ARMAND COLIN, PARIS.
- 3- - Dominique Maingueneau, Les termes clés de l'analyse du discours, Éditions du Seuil, 1996.
- 4- Émile Benveniste, Problèmes de linguistique générale, T1, 1966, Paris, Gallimard, pp.258-260.
- 5- Jean Dubois et autres*, Dictionnaire de linguistique et des sciences du langage, Larousse, France, 1999.
- 6- Petit Robert de la langue Française. nouvelle édition. sous la direction de Josette Rey-Debove et de Alain Rey

الدلالة القرآنية وثنائية اللفظ والمعنى في مدونات علوم القرآن والتفسير.

أ. سعاد رواج
جامعة باتنة، الجزائر.

ملخص:

تهدف هذه المقاربة البحثية إلى محاولة تقريب الأسس التأسيسية لثنائية اللفظ والمعنى في المدونات التراثية، والتي من خلالها يمكن الوصول إلى تفسير يستوضح دلالات النص القرآني، وينفتح على الموروث الضخم الذي تحفظه الذاكرة الجمعية في مدوناتها تلك؛ التي صنعت التميز والسبق في مباحث لا يزال البحث العلمي المعاصر يستقصيها. وتحاول هذه الدراسة أن تستعيد الإشكالات المرتبطة باللفظ والمعنى؛ والتي شكلت مداخل للتحديث في المباحث الدلالية اليوم بحيث تفرض نفسها على الموروث دون أن تتجاوزه أو تحاول أن تقصيه.

الكلمات المفتاحية: اللفظ والمعنى، الدلالة القرآنية، موروث علماء القرآن والتفسير.

Abstract :

The aim of this research approach is to try to approximate the founding foundations of pronunciation and meaning in the heritage blogs, through which an explanation can be found that clarifies meanings of the Qur'anic text and opens up to the huge legacy that the collective memory preserves in her works; Which made excellence and precedent topics which contemporary scientific research continues to question. This study attempts to recover the problems related to the pronunciation and meaning; which have been the entrances to modernity in the semantic detective today so that they impose themselves on the inheritance without exceeding or trying to investigate.

Keywords:pronunciation and meaning, Quranic significance,

مقدمة

يختزل لنا الموضوع مسيرة طويلة من اهتمام علمائنا القدامى، على اختلاف مشاربهم، بالدلالة وباللفظ والمعنى، انصب جهدهم في استنطاق آي القرآن الكريم على استيضاح مباحث الألفاظ، والدلالات اللغوية وغير ذلك من المباحث التي شكّلت مداخل هامة في تفسير النص القرآني للوقوف على مراداته، واستخلاص مضامينه الكامنة خلف الألفاظ والعبارات، ومن ثمّ، يمكن القول بأن الأطروحة التي تناقح عنها الدراسة؛ متمثلة في المباحث الدلالية التي حفلت بها مؤلفات علوم القرآن والتفسير في القديم، لها امتداداتها في الدلاليات والتداوليات الحديثة، وتمتد ظلال الفهم فيها إلى مراكمة كمّية ونوعية تختزن جملة ما أبدع علماء القرآن والتفسير وغيرهم من علماء فروع علوم الشريعة في استجلاء هوية النص وبسط سماته الإعجازية الكامنة فيه والتي بها يسمو على النصوص الأخرى ويغايرها.

ومن ثم يطرح الموضوع الإشكالات الآتية: ما موقع اللفظ والمعنى وخصوصيتهما من منهج الدراسات القرآنية عند القدامى؟ وما مدى توظيف علمائنا لهما في بيان دلالات الآيات القرآنية؟

ومع كل ما سلف، وخضوعا لمسيرة طبيعة الطرح التي تفرض علينا العودة إلى سياقات تاريخية تعنى بحقب زمنية؛ فيها برزت فكرة اللفظ والمعنى، وتم التأصيل لها، يمكن القول بأن الفكرة قديمة إلا أن السياق القرآني رفع الأطروحة إلى

مقام المعاصرة وأدناها من المقاربات اللسانية الحديثة؛ بفضل استناد القدامى والمحدثين إليه في التأليف في هذا الشأن، وبفضل ما يمتاز به القرآن من خصوصية في لفظه ومعناه، إذ طرق موضوع اللفظ والمعنى وما يحيلان إليه من دلالات من خلال القرآن الكريم هو توظيف لطاقت معرفية هائلة يكتنزها النص؛ الذي يلقي بظلال فهم عميق قد لا يمكن تحصيله إلا من خلاله، وهو من أعطى السبق لعلمائنا في الوصول إلى ما وصلوا إليه من تحقيق في باب الألفاظ والمعاني في تلك الأزمنة، ولم يصل غيرهم إلى ذلك إلا في ما بعد.

ولهذا، تتجه الورقة البحثية إلى تبيين جهود الدراسات التفسيرية وكذا الخاصة بعلم القرآن في تعلقها بمباحث اللفظ والمعنى التي أسست من منطلق قرآني باعتبار القرآن الكريم في أعلى درجات الفصاحة، يقول الراغب الأصفهاني: "أول ما يحتاج أن يشتغل به من علوم القرآن العلوم اللفظية، ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة، فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المُعاون لمن يريد أن يدرك معانيه، كتحصيل اللين في كونه من أول المُعاون في بناء ما يريد أن يبنيه، وليس ذلك نافعا في علم القرآن فقط، بل هو نافع في كل علم من علوم الشرع فألفاظ القرآن الكريم هي لبُّ كلام العرب وزبدته، وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليها مفرع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم، وما عداها وعدا الألفاظ المتفرعات عنها والمشتقات منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطيب الثمرة"¹

وستستعير الدراسة بالطروحات المبنية على القرآن الكريم، والتي يجتمع فيها اللفظ إلى المعنى لبيان الدلالة القرآنية عن الطروحات التي استشكلت أمر اللفظ والمعنى، واقتصرت في الدفاع على أحد الطرفين؛ إما على بيان قيمة اللفظ أو التي تعلي من شأن المعنى على حساب اللفظ.

أطروحات الدراسة الأساسية

أولاً: مقارنة منهج الدراسات القرآنية عند القدامى في توظيف اللفظ والمعنى.

ثانياً: قراءة أطروحات المدونات التراثية، وعرض ما أمكن عرضه مما أنجز في التاريخ حول "اللفظ والمعنى"، وفق رؤية استقصائية؛ تستجلي التمفصلات الهامة للموضوع، مع ذكر ما يقارنها في المدونات الحديثة من حين إلى حين.

مناهج الدراسة

اعتمدت الدراسة على منهج الاستقراء؛ بتتبع جزئيات قضية اللفظ والمعنى في مظانها من مؤلفات القدامى في علمي التفسير والقرآن، مع اعتماد المنهج التاريخي؛ باعتبار طبيعة البحث الذي يركز على العودة إلى المنجزات القيمة التي زخرت بها المكتبات الإسلامية.

وقد عالجتنا موضوع الدراسة وفق الخطة التالية:

أولاً: اجتماع اللفظ والمعنى في توجيه الدلالة.

1. اللفظ والمعنى والعلاقات الإبدالية بينهما في القرآن الكريم.

2. طرق دلالة اللفظ على المعنى في القرآن الكريم.

ثانياً: تجليات اتساق اللفظ والمعنى في البناء الدلالي.

¹الأصفهاني، الراغب(توفي425هـ). مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عنان داوودي، دمشق: دار القلم وبيروت: دار الشامية، ط4، 1430هـ/2009م، ص54، 55.

1. البنى الدلالية القرآنية.

2. البعد الدلالي في حمل اللفظ على المعنى في القرآن الكريم.

وقد مثلت هذه الخطة خلاصة النظر في مباحث الألفاظ التي يستدعي طرقها، تناول العلاقات التي تربط اللفظ بالمعنى من غير اقتحام لتلك الخلافات التي يرجح بعضها اللفظ في إكساب الجملة العربية رونقها وجمالها، ويرجح غيرهم قيمة المعنى وشكلية الألفاظ.

أولاً: اجتماع اللفظ والمعنى في توجيه الدلالة في مدونات التفسير وعلوم القرآن.

1. اللفظ والمعنى والعلاقات الإبدالية بينهما في القرآن الكريم

شغلت قضية اللفظ والمعنى حيزاً رحباً من كتابات الأصوليين واللغويين والمفسرين، "فقد سجلت أولى مراحل تعامل علماء الأمة مع القرآن، اهتماماً خاصاً بالألفاظ والمفردات القرآنية، وتعددت مظاهر هذا الاهتمام درساً وتحليلاً.. كما اتسعت عناية القدماء والمحدثين بالمصطلح القرآني، لتشمل تأصيل مفهومه، والكشف عن معانيه، وبيان الفروق والعلائق، ورصد أصوله الدلالية، وامتداداته المفهومية، وتصحيح الفهوم الخاطئة لآيه ودلالات ألفاظها.. وخصصوا لذلك أبواب ومباحث بعينها نجدها ماثلة في كتب اللغة، وأصول الفقه، وكتب الغريب، وكتب معاني القرآن، ومعاجم الألفاظ القرآنية، والوجوه والنظائر، والتفسير.."¹

ويعتبر مبحث الألفاظ والدلالات من المباحث التي أثمر الجهد فيها غايتها من الجودة وحسن التفصيل والدقة في البيان؛ وقد لاقى اهتماماً تختلف منازعه، ولئن تناقضت فلم يكن ذلك مما تنفلت به الرؤى إلى الشطط أو التهافت، فللموضوع توزيعات شتى، وله تمفصلات من الطبيعي أن تختلف بين اللغويين والأصوليين وعلماء التفسير والقرآن وغيرهم، وإن ظفرنا عند علماء البلاغة والنقد بالإطار العام للعلاقات الممكنة بين اللفظ والمعنى؛ على نحو ما نجد عند الجرجاني أو عند الجاحظ. فسيظل التدقيق في مباحثه مهمة يضطلع بها المفسر والمشتغل بالقرآن الكريم؛ لأنه إذا كان ممن يعنون بالعلاقات الإبدالية فسيجد نفسه مضطراً إلى التوسع في فرز طبيعة تلك العلاقات، والبحث عن دلالة الألفاظ التي لا يظهر فيها الارتباط عن وجوه تعلقها وارتباطها بالمعنى إلا من خلال استقراء تام يستنطق النص ويستجلي عمق معانيه.

وإذا تجاذبت المنازع موضوع اللفظ والمعنى لدى علمائنا القدامى ففي القرآن ما يكشف عن العلائق الإبدالية بين اللفظ والمعنى وهو كفيل بجمع شتات تلك المنازع؛ إذ لا يستقيم الأمر ولا يمكن تحصيل الدلالة القرآنية إلا باجتماع اللفظ والمعنى معا في تقيدها.

وقد شكلت مطارحات أهل الأصول من جهة والتفسير من جهة أخرى، واللغويين وغيرهم من جهة ثالثة دليلاً على الثراء المعرفي الذي عرفته المنظومة الإسلامية؛ وميز ذلك الزخم العلمي والفكري تلك الحقب الزمنية من تاريخنا المضيء، وأبان عن قدرات فكرية فذة في صياغة الدرس القرآني والحديثي معا صياغة تلو عن الإسفاف، ففيه من الدقة ما يعجزنا عن تجاوزه، بله عن أطراحه.

¹ زمرد، فريدة. مفهوم التأويل في القرآن الكريم: دراسة مصطلحية، ط1، الرباط: مركز الدراسات القرآنية، الرابطة المحمدية للعلماء، 1435هـ/2014م، ص5.

ومثلت ثنائية اللفظ والمعنى محطة بارزة من محطات التأليف في المدونات التراثية، ولم تكن لتكتسب هذه الخطوة لولا اتصالها بقضية الإعجاز القرآني، التي كانت محط اهتمام جميع البيئات العلمية، واستدعت ضرورة الوقوف على أسرار القرآن الكريم، وتحديد سر الإعجاز اللغوي فيه إلى التعرّيج على قضية اللفظ والمعنى باعتبارها المدخل الرئيس إلى ذلك. فمما يؤديه المعنى من وظائف الوصول إلى الكشف عن القواعد المنظمة للتراكيب النحوية، والوسائل الإجرائية المتبعة في دراسة النص العربي، وهذا واضح فيتتبع العلماء للتراث العربي الذي كان متأصلاً فيه ومبثوثاً في مؤلفاتهم، والذي تعود فيه جذور القضية إلى العصر الجاهلي وتمتد لتشمل القرون الهجرية الخامس، والسادس، والسابع، بحيث تجلت هذه النظرية في كونها عربية خالصة¹.

ويمكن القول بأن القرآن الكريم قد طبع هذه النظرية المرتبطة باللفظ والمعنى بطابع الأصالة، بالرغم من كون بعض عناصر الموضوع تعد تأصيلاً لما كان موجوداً وممتداً إلى ما قبل الإسلام، وقد أصبحت مباحث الموضوع تعكس ما هو مؤصلاً من القرآن الكريم، مما أعطى الدفع لتطور بناء النظرية لتصل إلى ما وصلت إليه اليوم من نضج؛ يعكس علاقة اللفظ بالمعنى، ومدى ارتباطه به، ف"اللفظ والمعنى إما أن يتحدا فهو المفرد كلفظة الله، فإنها واحدة، ومدلولها واحد، ويسمى هذا بالمفرد؛ لانفراد لفظه بمعناه؛ أو يتعدداً فهي الألفاظ المتباينة للإنسان والفرس وغير ذلك من الألفاظ المختلفة، الموضوعة لمعان مختلفة؛ وحينئذ إما أن يمتنع اجتماعهما؛ كالسواد والبياض، وتسمى المتباينة المتفاضلة، أو لا يمتنع كالاسم والصفة؛ نحو السيف والصارم، أو الصفة وصفة كالناطق والفصيح، وتسمى المتباينة المتواصلة؛ أو يتعدد اللفظ والمعنى واحد فهو الألفاظ المترادفة؛ أو يتحد اللفظ ويتعدد المعنى؛" ² وهكذا.

يقول الزمخشري: "يقال: إن قوله: جأ ججملة برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها، و جب ب ججملة ثانية، و جب بب بيجثالته، و جب ب ب رابعة، وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة وموجب حسن النظم حيث جيء بها متناسقة هكذا من غير حرف نسق وذلك لمجيئها متأخية أخذاً بعضها بعنق بعض؛ فالثانية متحدة بالأولى معتنقة لها وهلم جرا إلى الثالثة والرابعة"³.

فبلاغة القرآن الكريم من المداخل القوية التي أسهمت في التأسيس للعلاقات الإبدالية بين اللفظ والمعنى، لكن العبرة في هذه البلاغة ليست بتضمن القرآن ألفاظاً لا مثيل لها في الفصاحة، ولا باشماله على معان تفوق كل النعوت، وإنما العبرة بالرباط الناظم لهما؛ فكل من اللفظ والمعنى والرباط الناظم لهما هي مقومات كل بلاغة تسعى إلى الوقوف على إعجاز القرآن وتبين أسرارها؛ ذلك لأن الكلام لا يقوم بأي واحد من هذه المقومات الثلاثة دون المقومين الآخرين...⁴

وهو ما يذهب إليه كثير من المفسرين؛ باعتبار أن تحصيل المعاني المتينة من النصوص لا يكون بتجزئتها وحدات النص؛ الذي لا يفهم إلا من خلال لُحمة معنوية هي اجتماع اللفظ والمعنى في التدليل على المقصود، يقول محمد الطاهر ابن عاشور

¹ عز الدين أحمد عبد العالي، العلاقة بين اللفظ والمعنى وآراء القدامى والمحدثين فهما، المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة مصراتة ليبيا، العدد السادس، ديسمبر 2016م، ص 139.

² السيوطي، جلال الدين. المظهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: محمد جاد المولى وآخرون، د.ط.. بيروت: منشورات المكتبة العصرية، 1986م، ج 1، ص 368.

³ المرجع السابق، ص 37.

⁴ الحيرش، محمد. النص وآليات الفهم في علوم القرآن: دراسة في ضوء التأويلات المعاصرة، ط 1، ليبيا: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2013م، ص 231.

في تفسيره "ولم أعاد سورة إلا بيّنت ما أحيط به من أغراضها لئلا يكون الناظر في تفسير القرآن مقصوراً على بيان مفرداته ومعاني جُملة كأنها فقر متفرقة تصرفه عن روعة انسجامه وتحجب عنه روائع جماله"¹.

وجملة مجهودات علماء التفسير في معاملتهم لنصوص كتاب الله Y انصبت على رفع الحجب عن المعنى والإبانة عنه، يُدرك ذلك تحديداً من تعريفهم لمصطلح التفسير الذي من بين ما يحمل من الدلالات قولهم: "والفسر الإبانة والكشف لدلول كلام أو لفظ بكلام آخر هو أوضح لمعنى المفسّر عند السامع"²، فالتفسير في اصطلاحهم: "هو اسم للعلم الباحث عن بيان ألفاظ القرآن وما يستفاد منها باختصار أو توسع"³، وهو ما صرح به ابن عاشور وغيره من المفسرين في قوله: "وموضوع التفسير: ألفاظ القرآن من حيث البحث عن معانيه، وما يستنبط منه... مباحث علم التفسير... تفسير ألفاظ أو استنباط معان. فأما تفسير الألفاظ فهو من قبيل التعريف اللفظي وأما الاستنباط فمن دلالة الالتزام"⁴.

وتقترب دلالة التفسير من التأويل؛ "لأن التأويل مصدر أوّلُهُ إذا أرجعه إلى الغاية المقصودة، والغاية المقصودة من اللفظ هو معناه وما أراد منه المتكلم به من معاني، فساوى التفسير، على أنه لا يطلق إلا على ما فيه تفصيل معنى خفي معقول"⁵.

لقد ترك علماء القرآن والتفسير ما لا يمكن حصره من المؤلفات الشارحة لكتاب الله Y المستقصية لمعانيه، ففاضت جهودهم عن ثروة تفسيرية تندّد عن الحصر كمّاً وكيفاً، ولا تنقضي عجائب النص وروائعه في الإغداق على المتدبرين، يقول ابن عاشور "المفسرين ابتدأوا بتقصي معاني القرآن فطفت عليهم وحسرت دون كثرتها قواهم"⁶.

2. طرق دلالة اللفظ على المعنى⁷ في القرآن الكريم.

طبيعي أن يلزم اللفظ المعنى؛ فالمعنى صورة ذهنية وُضع بإزائها لفظ دال عليها وهو المقصود منها، فبغير لفظ لا يقوم المعنى، والبحث عن دلالة الألفاظ في ضوء المعاني⁸؛ مما اختص به الدرس القرآني، ومن بين ما يدل به اللفظ على المعنى المراد في القرآن الكريم ما يلي:

- دلالة ظاهر اللفظ: دلالة الكلام عند القدامى ليست بالضرورة ما دل عليه ظاهر اللفظ، وهو ما يعرف عند فقهاء اللغة بـ"سنن العرب في كلامها": أي ما تعارفوا عليه.
- السياق⁹:

¹ ابن عاشور، محمد الطاهر. تفسير التحرير والتنوير، تونس: الدار التونسية للنشر، د.ط.، 1984م، ج 1، ص 8.

² المرجع السابق، ج 1، ص 10.

³ المرجع السابق، ج 1، ص 11.

⁴ المرجع السابق، ج 1، ص 12.

⁵ المرجع السابق، ج 1، ص 16.

⁶ المرجع السابق، ج 1، ص 13.

⁷ المقصود من دلالة اللفظ: "كون اللفظ إذا أُطلق فَيُفهم منه المعنى من كان عالماً بالوضع". ما تؤديه الألفاظ من معان، أي فهم المعنى من اللفظ إذا أُطلق بالنسبة إلى العالم بالوضع". عبد الوهاب عبد السلام طويلة، أثر اللغة في اختلاف المجتهدين، ط 2، مصر: دار السلام، 1420هـ/2000م، ص 303.

وعزفها الرازي بأنها: "معلوم يكون على وجه يؤدي النظر الصحيح فيها إلى علم بزايد عليها". الرازي، فخر الدين (توفي 606هـ). الكاشف عن أصول الدلائل وفصول العلل، تحقيق أحمد حجازي السقا، ط 1، بيروت: دار الجيل، 1413هـ/1992م، ص 75.

⁸ كريمة محمد. قضية اللفظ والمعنى في النقد العربي القديم، مجلة مركز دراسات الكوفة، العراق، العدد 38، سنة 2015م، ص 232.

⁹ السياق: "ما يسبق أو يلحق الوحدة اللغوية من وحدات أخرى تتحكم في وظيفتها ومعناها، ولكنه في مجال اللسانيات يمتد ليشمل كل الظروف التي تحيط بالنص مما يتصل بالمرسل والمستقبل والمقام ككل". بودوخة، مسعود. السياق والدلالة، مرجع سابق، ص 41.

اعتمد المفسرون في الوقوف على مرادات النص على مسالك دالة على المعنى، ولهم في ذلك قاعدة جلييلة من قواعد الترجيح المتعلقة باستعمال العرب للألفاظ والمباني مفادها بأن: كل تفسير ليس مأخوذاً من دلالة ألفاظ الآية وسياقها فهو رد على قائله¹، فـ"بلاغية النص القرآني لا يمكن ملامستها في ألفاظه ومعانيه وهي مجردة عن مواقعها وسياقاتها النصية المخصوصة؛ ذلك لأن كل عزل لتلك الألفاظ والمعاني عن الأنحاء النوعية التي تتعين بها في النص، وكل تبديل في مواقعها لن يكونا سوى ضرب من التضحية بخصوصية النص وإسقاط بلاغيته"².

وكان للسياق النصيب الأكبر في الاضطلاع بمهمة الإفصاح عن هذه المرادات، التي لا يمكن للدارس لكتاب الله استجلاءها من خلال الألفاظ وحدها، فـ"كل تفسير خرج بمعاني كتاب الله عما تدل عليه ألفاظه وسياقه، ولم يدل اللفظ على هذا المعنى بأي نوع من أنواع الدلالة: مطابقة، أو تضمنا، أو التزاما، أو مفهوما، موافقا، أو مفهوما مخالفا، فهو مردود على قائله- ولاكرامة-؛ لأنه إذا كان بهذه الصفة كان ضربا من التخرص، والقرمطة، والتلاعب بكتاب الله تعالى، لا تُقره لغة، ولا يرضاه دين، ولا عقل، وليس من تفسير كلام الله في شيء. فبالألفاظ يكون التخاطب والإفصاح عن المراد، وهي قوالب المعاني، فالغاء دلالاتها بإبطال اللغة التخاطب وفائدته"³ ويعد السياق الاجتماعي والتاريخي عاملا هاما في استقصاء الدلالة، وفي القرآن الكريم يكون ذلك أكد⁴.

سياق الحال: له قيمته في إدراك الخلفيات التي تعين على معرفة دلالة الألفاظ ومعانيها واستعمالاتها.

السياق اللفظي: الاستعانة على شرح دلالة اللفظة بما يجاورها من الوحدات الكلامية الأخرى؛ فاللفظة تورث في سياقها الذي يحكم دلالتها، وتدور معه وتتغير وفقه.

- القرائن المقالية والحالية:

وظف علماءنا القدامى القرائن التي تعد مظهرا لأثر السياق في الدلالة على المعنى، ومن فطاحلة هذا الفن؛ الزمخشري الذي اعتنى بالتفسير اللغوي للقرآن الكريم، وبرع في تجلية الإعجاز البلاغي فضلا عن المباحث الدلالية⁵، وفي البحث عن النسق المعنوي للآية الواحدة وتآلف معاني ألفاظها وتآخها يقول مثلا في الآية⁶: " وَمِنَ النَّاسِ مَن يُقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ " البقرة: 8.

والأولى في ذكر شأن الفعل لا الفاعل والثاني في ذكر شأن الفاعل لا الفعل؟ قلت: القصد إلى إنكار ما ادعوه ونفيه فسلك في ذلك طريقا أدى إلى الغرض المطلوب وفيه من التوكيد والمبالغة ما ليس في غيره وهو إخراج ذواتهم وأنفسهم من أن تكون طائفة من طوائف المؤمنين لما علم من حالهم من المنافية لحال الداخلين في الإيمان، وإذا شهد عليهم بأنهم في أنفسهم على هذه الصفة فقد انطوى تحت الشهادة عليهم بذلك نفي ما انتحلوا إقباطه لأنفسهم على سبيل البت والقطع⁷.

¹ العربي، حسين. قواعد الترجيح عند المفسرين دراسة نظرية تطبيقية، راجعه وقدم له: مناع بن خليل القطان، الرياض: دار القاسم، ط1، 1417هـ/1996م، ص347، 349.

² العيرش، محمد، النص وآليات الفهم في علوم القرآن، مرجع سابق، ص232.

³ العربي، حسين. قواعد الترجيح عند المفسرين دراسة نظرية تطبيقية المرجع السابق، ص349.

⁴ بودوخة، مسعود. السياق والدلالة، مرجع سابق، ص78(بتصرف).

⁵ المرجع السابق، ص156.

⁶ الصاوي الجويني، مصطفى. منهج الزمخشري في تفسير القرآن، ص101.

⁷ الزمخشري، أبو القاسم جار الله (توفي 538هـ). تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: خليل مأمون شيحا، ط3، بيروت: دار المعرفة،

1430هـ/2009م، ص44.

بذاك وإسقاط المعارف المتعلقة به على المعارف المتعلقة بالآخر، لتتحول معارف الميدان الأول (التجارة) وخصائصه الموجودة في البنية التصورية للمتلقى إلى معارف خاصة بالميدان الثاني (الإيمان) والمجهول بالنسبة للمتلقى ليمكنهم الفهم¹ وتلمس ملامح هذه الفكرة من خلال قول الرازي: "للألفاظ دلالات على ما في الأذهان لا على ما في الأعيان ولهذا السبب يقال: الألفاظ تدل على المعاني، لأن المعاني هي التي عنها العاني، وهي أمور ذهنية، والدليل على ما ذكرناه من وجهين: الأول: أنا إذا رأينا جسما من البعد وظننا صخرة قلنا إنه صخرة، فإذا قربنا منه وشاهدنا حركته وظننا طيرا قلنا أنه طير، فإذا ازداد القرب علمنا أنه إنسان فقلنا إنه إنسان، فاختلاف الأسماء عند اختلاف التصورات الذهنية يدل على أن مدلول الألفاظ هو الصور الذهنية لا الأعيان الخارجة، الثاني: أن اللفظ لو دل على الموجود الخارجي لكان إذا قال إنسان العالم قديم وقال آخر العالم حادث لزم كون العالم قديما حادثا معا، وهو محال، أما إذا قلنا إنها دالة على المعاني الذهنية كان هذان القولان دالين على حصول هذين الحكمين من هذين الإنسانيين، وذلك لا يتناقض."²

وهو ما يذهب إليه الباحث مسعود بودوخة، الذي تبنى بأقوال بعض العلماء التي تبين مالحق الموضوع من جدل امتد إلى مرحلة التصور والإشارات في قوله: "ويظهر أن هذا الجدل بين التصور والإشارة كان محل اهتمام علماء اللغة والدلالة منذ القديم، يقول السيوطي في كتابه المزهر: ...واختلف هل الألفاظ موضوعة بإزاء الصور الذهنية...أو بإزاء الماهيات الخارجية، فذهب الشيخ أبو إسحاق الشيرازي إلى الثاني، وهو المختار، وذهب الإمام فخر الدين الرازي وأتباعه إلى الأول، واستدلوا عليه بأن اللفظ يتغير بحسب تغير الصورة في الذهن"³.

2. البعد الدلالي في حمل اللفظ على المعنى في القرآن الكريم.

يرتبط الكشف عن الدلالة القرآنية بالممارسة التفسيرية ولكنه لا يقتصر عليها؛ فالدلالة القرآنية هي نظام من العلاقات التي ينتظم داخلها اللفظ والمعنى، ويتقوم الكشف عنها بتوفره على أبعاد بحيث يمثل تحصيلها إمكان ربط الممارسة التفسيرية باللفظ والمعنى. ومن هذه الأبعاد البعد الدلالي؛ الذي من خلاله يمكن وضع قواعد صارمة في تفسير اللفظ، تظل مشروطة بمدى قدرة المفسر على الإيفاء بمقتضى التوافق بين اللفظ وإمكان تأويله.

ويشمل البعد النصي مجموع الباحث التي تطرق فيها علماء القرآن إلى الجهات التي يتكون بها النص تحققا ذاتيا له وسائله وآلياته الخاصة في الإبانة عن معانيه والإفصاح عنها؛ فهو بعد يمثل في النمذجة التي نقترحها لتنظيم مباحث التأويلية القرآنية الكيفية التي صاغ من خلالها علماء القرآن العلاقات القائمة في دواخل النص بين تجلياته وتحققاته الذاتية. وقد جاءت المباحث المندرجة تحت هذا البعد كثيرة ومتنوعة؛ إذ منها ما يتناول لغة النص ويعنى بها في مستوياتها البسيطة والمركبة (أصوات، ألفاظ، تراكييب). ومنها ما يتناول آلياته الدلالية التي يتوسل بها في الإفصاح عن قصوده ومراداته الخاصة (المجمل والمبين، العام والخاص، المنطوق والمفهوم)، إلخ. ومنها أيضا ما ينكب على هوية النص لاستكشاف خصوصية ما ينطوي عليه من وجوه الإعجاز ومظاهره، إلخ..."⁴.

¹ سليمان أحمد، عطية. الإشهار القرآني والمعنى العرفاني في ضوء النظرية العرفانية والمزج المفهومي والتداولية (سورة يوسف نموذجًا)، مصر: الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، د.ط.، 2014م، ص132، 133، 142.

² تفسير الفخر الرازي، ج 1، ص31.

³ بودوخة، مسعود. السياق والدلالة، الجزائر: بيت الحكمة، ط1، 2012م، ص33.

⁴ الحيرش، محمد، المرجع السابق، ص219.

يقول الخطابي: "بجميع أسماء اللغة العربية وبألفاظها التي هي ظروف المعاني والحوامل لها، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظم التي بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض، فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله، وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم. وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ، أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه. وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها. والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نوعتها وصفاتها."¹

و"هكذا، إذن، يكون الخطابي قد مهد لهذه اللحظة المعرفية بجعله الإعجاز موضوعاً خالصاً للبلاغة تستقل ببحثه وتفسيره على نحو ما تفصح عنه نظوم النص وتأليفاته؛ فالإعجاز القرآني، بالنسبة إليه، لا يستقيم الوقوف عليه إلا باستدعاء ثلاث دعائم تتداخل فيما بينها وتتلازم هي: الألفاظ، والمعاني، ونظوم التأليف."²

إن أولى مداخل النص القرآني التي يتوسل بها إلى إدراك مفهومي يستقصي دلالاته هو الألفاظ والمعاني "وإذا كان يمكن تحليل الحراك الدلالي لهذا الزوج لدى الممثلين الأوائل للتراث في مجالي البلاغة والنقد بما يصاحب نشأة العلوم من صعوبة وعدم تحدد اصطلاحي، فإن اقتران هذه الظاهرة بهذا الزوج في مجالات أخرى، وفي مراحل لاحقة لمرحلة النشأة، يغدو متطلباً لتفسير أشمل. وهو ما لا يمكن إنجازه على نحو كامل بعيداً عن رصد هذا الزوج في المجالات المختلفة مع التنبه لحضور هذا الظاهرة في هذه المجالات."³

خاتمة

تقتحم الدراسة أسوار الماضي، لتقف على أعتاب نماذج فكرية متحررة من قيود العجز وسلاسل الاستكانة التي تكبل العقول، وتحجب على العطاء المثمر؛ إنها نماذج بذلت المهج في سبيل إرواء الأمة بالذخائر العلمية، التي تستوقفنا للنظر في تلك الجهود صُرِفَتْ في استجلاء أسرار كتاب الله Y.

وقد تبين لنا في هذه الدراسة أن توجيه المفسرين وغيرهم لأي القرآن الكريم قد ارتبط بما تفصح عنه الألفاظ والمعاني، من غير إهمال للناظم الذي يجمعهما.

والدراسة توصلت إلى مجموعة من النتائج يمكن إيجاز أهمها:

أولاً: العلاقة بين اللفظ والمعنى متينة موهلة في الانسجام، ولا يمكن قطعها؛ فتفسير الألفاظ يُعد جزءاً كبيراً من بيان المعنى. كما أنه لا بد للمفسر أن يستعين باللفظ والمعنى للوصول إلى دلالة صحيحة، فالعلاقة بين اللفظ والمعنى هي علاقة تبادلية تكاملية.

ثانياً: جهود القدامى في التفسير وبيان إعجاز القرآن الكريم تتوسل باللفظ وبالمعنى؛ لأجل فتح مغاليق النص، والولوج إلى التفسير الصحيح، بعيداً عن التطويع الكرهى للنصوص لمرادات متعسفة.

¹ الرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني. ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، مصر: دار المعارف، ط. 3، 1976م، ص 27.

² الحيرش، محمد. النصّ وآليات الفهم في علوم القرآن، مرجع سابق، ص 234.

³ النعمان، طارق. اللفظ والمعنى بين الإيديولوجيا والتأسيس المعرفي للعلم، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، د. ط. 2003م، ص 7.

ثالثا: مثلت ثنائية اللفظ والمعنى محطة بارزة من محطات التأليف في المدونات التراثية، لاتصالها بقضية الإعجاز القرآني، التي كانت محط اهتمام العلماء القدامى، فاستدعت ضرورة الوقوف على أسرار القرآن الكريم، وتحديد سر الإعجاز اللغوي فيه طرق مباحث الدلالات، ومباحث الألفاظ وما يرتبط به من معان.

رابعا: اعتماد علمائنا على اللفظ والمعنى في بيان دلالات الآيات القرآنية كان اعتمادا كلياً، يبرز مدى التوظيف القوي لهما في الاهتداء إلى الدلالة القرآنية.

مراجع الدراسة:

1. جاكندوف، راي. علم الدلالة والعرفانية (Semantics and cognition)، نقله عن الإنجليزية وقدم له: عبد الحربي، حسين. قواعد الترجيح عند المفسرين دراسة نظرية تطبيقية، راجعه وقدم له: مناع بن خليل القطان، الرياض: دار القاسم، ط1، 1417هـ/1996م.
2. الحيرش، محمد. النص وآليات الفهم في علوم القرآن: دراسة في ضوء التأويلات المعاصرة، ط1، ليبيا: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2013م.
3. الرازي، فخر الدين (توفي 606هـ). الكاشف عن أصول الدلائل وفصول العلل، تحقيق أحمد حجازي السقا، ط1، بيروت: دار الجيل، 1413هـ/1992م.
4. ——— نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق: نصر الله حاجي مفتي أوغلي، بيروت: دار صادر، ط1، 1424هـ/2004م.
5. الرزاق بَنُور، مراجعة مختار كريم، تونس: دار سيناترا-المركز الوطني للترجمة، د.ط.، 2010م.
6. الرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني. ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، مصر: دار المعارف، ط3، 1976م.
7. الزمخشري، أبو القاسم جار الله (توفي 538هـ). تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: خليل مأمون شيحا، ط3، بيروت: دار المعرفة، 1430هـ/2009م.
8. زمرد، فريدة. مفهوم التأويل في القرآن الكريم: دراسة مصطلحية، ط1، الرباط: مركز الدراسات القرآنية، الرابطة المحمدية للعلماء، 1435هـ/2014م.
9. سليمان أحمد، عطية. الإشهار القرآني والمعنى العرفاني في ضوء النظرية العرفانية والمزج المفهومي والتداولية (سورة يوسف نموذجاً)، مصر: الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، د.ط.، 2014م.
10. السيوطي، جلال الدين. المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: محمد جاد المولى وآخرون، د.ط.، بيروت: منشورات المكتبة العصرية، 1986م، ج1.
11. الشابندر، غالب حسن. استراتيجية السؤال رؤية قرآنية، بيروت: دار الهادي، ط1، 1425هـ/2004م.
12. ابن عاشور، محمد الطاهر. تفسير التحرير والتنوير، تونس: الدار التونسية للنشر، د.ط.، 1984م، ج22.
13. عبد الوهاب عبد السلام طويلة، أثر اللغة في اختلاف المجتهدين، ط2، مصر: دار السلام، 1420هـ/2000م.
14. عز الدين أحمد عبد العالي، العلاقة بين اللفظ والمعنى وآراء القدامى والمحدثين فهما، المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة مصراتة ليبيا، العدد السادس، ديسمبر 2016م، ص139.

15. كريمة، كريمة محمد. قضية اللفظ والمعنى في النقد العربي القديم، مجلة مركز دراسات الكوفة، العراق، العدد 38، سنة 2015م، ص232.
16. النعمان، طارق. اللفظ والمعنى بين الإيديولوجيا والتأسيس المعرفي للعلم، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، د.ط.، 2003م.



برنامج المؤتمر الدولي المتخصص:

الممارسة النصية في المدونات التراثية العربية
(بين التأصيل والإنجاز)

27-28 فبراير 2019م

الموافق لـ 22-23 جمادى الآخرة 1440هـ

جامعة يحي فارس المدية (الجزائر) كلية الآداب واللغات

فعاليات الافتتاح 09:00-11:00 سا

- ❖ استراحة.
- ❖ تلاوة آيات من القرآن الكريم
- ❖ الاستماع إلى النشيد الوطني الجزائري.
- ❖ كلمة مدير الجامعة، أ د حميدي يوسف والإعلان الرسمي عن افتتاح الأشغال
- ❖ كلمة السيد رئيس المؤتمر أ د مكي محمد في التعريف بأهم محددات المؤتمر ومقولاته العامة

برمجة الجلسات

اليوم الأول 27 فبراير 2019م

القاعة: محمد بن أبي شنب.

الجلسة الأولى 11:00-11:55 سا).

رئيس الجلسة: أ.د. حبيب موني

التوقيت	المحاضر	عنوان المداخلة	البلد/ الجامعة
11:15-11:00	أ.د. جمعي لخضر	مدخل إلى الممارسة النصية في المدونات التراثية	جامعة الجزائر
11:30-11:15	أ.د. حبيب موني	بلاغة الكتابة عند بشر بن المعتمر	جامعة سيدي بلعباس الجزائر
11:45-11:30	أ.د. ماهر مهدي هلال	الرؤية البلاغية في قراءة النص	جامعة عجمان الإمارات

جامعة الجزائر 2	الممارسة التداولية في الدرس الأصولي، مقارنة تأصيلية	د. نصيرة غماري	11:55-11:45
الجلسة الثانية: (12:00-13:05 سا)			
رئيس الجلسة: أ.د. عيد بلبع			
الجامعة/البلد	عنوان المداخلة	المحاضر	التوقيت
جامعة المنوفية مصر	أثر القرآن العظيم في توجيه المدونات التراثية نحو الممارسة النصية	أ.د. عيد بلبع	12:15-12:00
جامعة الإمارات	علماء أصول الفقه المسلمين تطبيقات في أسس الحجاج اللساني	أ.د. عماد أحمد الزين	12:25-12:15
الجامعة الأهلية البحرين	البنية الأسلوبية في ديوان الحسين بن الضحاك، دراسة في البنية الصرفية والتركيبية	د. علي أحمد عمران	12:35-12:25
جامعة النجران السعودية	ترجيحات الإمام السهيلي التحوينية في كتابه نتائج الفكر في ضوء النظرية اللسانية	د. نواف بن أحمد حكيمي	12:45-12:35
جامعة المنوفية مصر	الأبعاد الدلالية للتناسبات القرآنية قراءة في تناسب الآيات والسور للبقاعي	د. محمود ريان	12:55-12:45
جامعة تيبازة الجزائر	لسانيات المدونة (المتون) وفضلها التوثيقي على البحث السياقي فاعلية النص المترابط	أ.د. يوسف مقران	13.05-12:55
من 13.05 14.00 رئيس الجلسة خليفاتي محمد		الجلسة الثالثة	
جامعة المدية الجزائر	دور السياق من خلال آيتي الدين والرهان	أ.د. خليفاتي محمد	13.15 / 13.05
جامعة الجزائر 2	بين البلاغة الأدبية والبلاغة الحجاجية، مجالات التقابل والتقاطع في مصنفات البلاغة العربية	د. نسبية العرفي	13.25/ 13.15
جامعة الرباط المغرب	تماسك النص في اللسانيات الحديثة والتراث اللغوي العربي	أ.د. أمينة أدرود	13.35 /13.25
جامعة البليدة الجزائر	استراتيجية تناول البلاغي عند عبد الله بن المعتز، قراءة في كتاب البيديع فترة المناقشة 14.00 /13.45	أ.د. نعيمة بوزيدي	13.45 /13.35
القاعة: مجمع المخابر			
الجلسة الأولى: (12:00-13:05 سا)			
رئيس الجلسة: أ.د. زوقاي محمد			
الجامعة/البلد	عنوان المداخلة	المحاضر	التوقيت
جامعة تيزي وزو الجزائر	تداولية الضمني في الخطاب الساخر عند ابن المقفع، مثل الحمار الذي طلب قرنين فذهبت أذناه أنموذجا	أ.د. ذهبية حمو	12:15-12:00
جامعة الجلفة	الجهود الدلالية عند علماء الأصول (الرسالة للإمام الشافعي	د. أحمد بوصبيعات	12:25-12:15

الجزائر	أنموذجا		
جامعة الجزائر 2	قراءة للمقولة التراثية(لكل مقام مقال) في إطار نظرية الوضع والاستعمال العربية.	د. صحرة دحمان	12:35-12:25
جامعة تيارت الجزائر	تأطير دلالة التناس في تأويل النص القرآني لدى علماء التراث	د.أحمد عرابي	12:45-12:35
المدرسة العليا بوزريعة الجزائر	الرتبة النحوية، قرينة نصية ودلالة قصديّة	د. بركاهم العلوي	12:55-12:45
جامعة الجزائر 2	الشعر العربي، حقيقته وجوهه، قراءة محمد العمري لتصوير ابن وهب الكاتب المنظر البلاغي	د. هندا بوسكين	13:05-12:55
الجلسة الثانية: (13.05-14:15 سا)			
رئيس الجلسة: أ.د. محمد السعيد عبدلي.			
البلد / الجامعة	عنوان المحاضرة	المحاضر	التوقيت
الجامعة الأهلية البحرين	الخطاب التداولي في مقامات الحريري	أ.د.علي عبد النبي فرحان	13:15-13:05
جامعة الشلف الجزائر	أسلوب الفنقلة في المنجز الأصولي، التأصيل والإنجاز، رسالة الشافعي أنموذجا	د. فايزة طيبي أحمد	13:25-13:15
المدرسة العليا بوزريعة الجزائر	نظرية النظم سبقت مفاهيم الحدائة، الجرجاني مؤسس مفاهيم الشعرية	د. عمر عاشور	13:35-13:25
جامعة النعامة الجزائر	أثر السياق في توجيه المعنى، دراسة مقارنة بين التراث البلاغي والدراسات الغربية المعاصرة	د. محمد الصالح بوضيف	13:45-13:35
جامعة ديالي العراق	ملامح التحليل الأسلوبي في القول الشعري، دراسة في المنجز النقدي لعبد القاهر الجرجاني	د. سعد جمعه صالح الديلمي	13:55- 13:45
فترة المناقشة			14:15-13:55

اليوم الثاني :28 فبراير 2019م

القاعة: محمد بن أبي شنب

الجلسة الأولى: (09:00-10:00 سا)

رئيس الجلسة: د. محمد بن حجر.

البلد / الجامعة	عنوان المحاضرة	المحاضر	التوقيت
جامعة المدينة الجزائر	أصول تحليل الخطاب في رسالة (غاية الأحكام في آداب الفهم والإفهام) للطحلاوي	د	09:10-09:00
تونس	في تأصيل المنهج التراثي ، فعل الشرح نموذج	د.ثريا السوسية النيفر	09:20-09:10
جامعة القصيم	المقاصد الدلالية للحذف بين لسانيات النص وأصول الفقه	د. سليمان بن محمد	09:30-09:20

السعودية	النجران		
جامعة الناظور المغرب	مظاهر الاتساق والانسجام في النص الشعري القديم (واحر قلباه) للمتني ، نموذجاً	د. يوسف تغزاوي	09:40-09:30
الجامعة الهاشمية الأردن	التناسق في المدونات البلاغية	أ.د. دثناء عياش	09:50-09:40
المدرسة العليا بوزريعة الجزائر	السياق ودلالته عند علماء الأصول	أ. د نصرالدين بن زروق	10:00-09:50

الجلسة الثانية: (10:00-11:00 سا)

رئيس الجلسة: د. عيد بلع

البلد	عنوان المحاضرة	المحاضر	التوقيت
جامعة الرياض السعودية	الأنساق الثقافية وصورة المرأة في أخبار النساء لابن الجوزي	أ.د. ميساء خواجه	10-10-10:00
الجامعة الإسلامية العراق	تقنيات النسق البلاغي في الخطاب القرآني سورة المنافقون أنموذجاً	د. فاطمة عبد الأمير السلامي	10:20-10:10
جامعة فاس المغرب	الممارسة النصية عند الإمام السهيلي من خلال كتابه الروض الأنف، دراسة تطبيقية	د. عبدالوهاب بافلح،	10:30-10:20
جامعة معسكر الجزائر	نظرية النسج على المنوال لدى ابن خلدون، من منظور التعالقات النصية	د. مختار بن قويدر	10:40-10:30
جامعة بشار الجزائر	استراتيجيات لانسجام النصي في علوم القرآن، علم المناسبة أنموذجاً	أ.د. رشيد عمران	10:50-10:50
جامعة بومرداس الجزائر	الإشارات النصية عند ابن الزبير الغرناطي ، ملاك التأويل نموذجاً	د. خليفة بن عياد	11:00-10:50

الجلسة الثالثة: (11:00-12:30 سا)

رئيس الجلسة: د. تومي السعيد

البلد/الجامعة	عنوان المحاضرة	المحاضر	التوقيت
جامعة بومرداس الجزائر	المقولات السياقية بين علوم القرآن والنظريات التداولية، مسارات الدلالة وطاقت الاستدلال	أ.د. عائشة هديم	11:10-11:00
جامعة بوزريعة الجزائر	التراث اللساني ومعايير التماسك النصي، قراءة في كتاب تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان لحמיד الدين الفراهي	د. فتيحة بلغدوش	11:20-11:10
جامعة المدية الجزائر	ذاكرة النص التراثي استقصاء للعلاقات النصية في المتن الأصولي	د. محمد مكي	11:30-11:20

جامعة تيسمسيلت الجزائر	المقاصد الشرعية للمكلفين في ضوء المقاربة النصية، موارد الحكم الفقهي من خلال مدونة الموافقات للإمام الشاطبي	د بوعرعارة محمد	11:40-11:30
مركز البحث وهران الجزائر	التراث التفسيري في الجزائر: مخطوط الإبريز والإكسير في علوم التفسير لأبي راس الناصري المعسكري، دراسة لغوية بلاغية	د. عبد الكريم حمو	11:50-11:40
المدرسة العليا الأغواط الجزائر	دور السياق في تأويل المعنى الشعري عند ابن جني في كتابه المفسر، شرح ابن جني الكبير على ديوان المتنبي	د. بولفاعة خليفة	12:00-11:50
البلدية 02 الجزائر	القراءات المعاصرة للقرآن الكريم (المنجز التأويلي عند محمد شحرور أنموذجا)	د. تومي سعيد	12:10-12:00
فترة المنقشة			12:30-12:10

القاعة: مجمع المخابر

الجلسة الأولى: (09:00-10:00 سا)

رئيس الجلسة: أ.د. الصادق خشاب

البلد	عنوان المحاضرة	المحاضر	التوقيت
جامعة سعيدة الجزائر	نظرية النحو في ضوء التداولية والحجاج كتاب سيويو أنموذجا	أ د حاكم عمارية	09:10-09:00
جامعة الجزائر 2	آليات التناص الشعري في بكائية مالك بن الرب	د. شميصة خلوي	09:20-09:10
جامعة تيزي وزو الجزائر	البلاغة العربية من الجملة إلى النص	د. مسعودة سليمان	09:30-09:20
جامعة المدية الجزائر	آليات التفاعل النصي في تحديد مساقات الخطاب القرآني، الإمام الشاطبي نموذجا.	د.فايزة حسناوي	09:40-09:30
المدرسة العليا الجزائر	آليات الترابط (التماسك النحوي النصي عند النحويين). مؤلفات ابن هشام أنموذجا	د. عبدالعالي موساوي	09:50-09:40
جامعة المدية الجزائر	تلقي ألف ليلة وليلة بين القديم والحديث	د. مسعود ناهليقي	10:00-09:50

الجلسة الثانية: (10:00-11:00 سا)

رئيس الجلسة: د مراد العرابي

الجامعة /البلد	عنوان المحاضرة	المحاضر	التوقيت
جامعة المدية الجزائر	تحديات الترجمة في الممارسة النصية المعاني القرآنية في سورة لقمان أنموذجا	د.حورية مدان	10:10-10:00
مركز البحث العلمي لتطوير اللغة العربية	الأسس المعرفية لقراءة النص القرآني لدى علماء الأصول: قراءة في المميزات الأساسية لاقتراح (جواهر القرآن) للإمام أبي حامد الغزالي	د. عبد الكريم جيدور	10:20-10:10

الجزائر	وسائل الترابط النصي بين خاتمة سورة القيامة وبداية سورة الإنسان، دراسة لسانية نصية دلالية.	د. صالح فليح زعل المذهان	10:30-10:20
معهد الملك عبدالله الأردن	من تجليات الاشتغال النصي في مدونات علماء التفسير سورة المائدة أنموذجا	د. مراد العربي	10:40-10:30
جامعة البليدة الجزائر	أثر التكرار في التماسك النصي عند علماء الإعجاز القرآني، الباقلاني نموذجا	د. فتوح محمود	10:50-10:40
جامعة الشلف الجزائر	ملاحم معايير دي بوجراند النصية في تفسير ابن الزبير الغرناطي	د. الصديق قوري	11:00-10:50

الجلسة الثالثة: (11:00-12:00 سا)

رئيس الجلسة: د. كمال بخوش

البلد	عنوان المحاضرة	المحاضر	التوقيت
جامعة المدينة الجزائر	البنية النصية في القرآن من خلال التفاسير دراسة لمسألة الانسجام الحجاجي في حوار موسى عليه السلام وقومه (يونس، من 75 إلى 78)	د. كمال بخوش	11:10-11:00
جامعة زالنجي السودان	شرح دلالات الألفاظ في المعجم العربي، دراسة دلالية نقدية	د. عباس محمد أحمد عبد الباقي	11:20-11:10
جامعة سطيف الجزائر	الفصول الكلامية، رؤية تراثية مبكرة في استراتيجيات التكامل النصي (حازم القرطاجي نموذجا)	د. هادية رواق	11:30-11:20
جامعة تيسمسيلت الجزائر	الوعي بالظواهر النصية في المدونة لنقدية العربية القديمة (عيار الشعر) لابن طباطبا أنموذجا	د. بشير دردار	11:40-11:30
جامعة الأغواط الجزائر	الأبعاد الحجاجية في الممارسة النصية عند المتصوفة ترجمان الأشواق نموذجا	د. عائشة عبيزة	11:50-11:40
جامعة البليدة الجزائر	التناسب في القراءة السياقية في توجيه المتشابه اللفظي، ملاك التأويل لابن الزبير الغرناطي	د. جميلة قوجيل	12:00-11:50
العراق	تقنيات النسق الإبلاغي في الخطاب القرآني تقنية التركيب المقصود أنموذجا	د. فاطمة عبد الأمير راضي السلامي	12:10-12:00
	فترة المناقشة		12:30-12:10

برمجة الورشات

اليوم الأول: 27 فبراير 2019م

التوقيت	المحاضر	عنوان المداخلة	البلد
12:00-	د. أحمد فجر	تجليات وحدة النسق في سورة الفاتحة	جامعة المدينة
12:10		من خلال كتاب إشارات الإعجازي لبديع الزمان النورسي	الجزائر
12:10-	د. مريم بوجناح	الاتساق والانسجام النصي في التراث اللساني البلاغي، كتاب سر الفصاحة	المدرسة العليا
12:20		لابن سنان الخفاجي أنموذجا	بوزريعة الجزائر
12:20-	د. حازم ذنون	التماسك النصي في علاقة المقارنة	جامعة الموصل
12:30	إسماعيل		العراق
12:30-	د. سعاد طبوش	التماسك النصي ، مفهومه ومقالاته في الدرس النقدي العربي	جامعة جيجل
12:40			الجزائر
12:40-	د. عقال فاطمة	التناسق الأسطوري والديني في الرواية الجزائرية، رواية هابيل لمحمد ديب	جامعة المدينة
12:50	الزهراء	أنموذجا	الجزائر
12:50-	د. فاطمة حجار	معياري السبك الصوتي في المدونات النقدية التراثية ، دراسة في كتاب البيان	مركز البحث
13:00		والتبيين للجاحظ	تلمسان الجزائر

13:00-	أ. د. لبصير نور	تمفصلات التماسك النصي وجذوره في مدونات علوم القرآن، خلفيات	بومرداس
13:10	الدين	المقاربة وإشكالات التأسيس	الجزائر
13:10-	د. سامية بن زروق	جذور الدراسة النصية في التراث البلاغي والنقدي	جامعة المدينة
13:20			الجزائر
13:20-	د. سليمان بوراس	التماسك النصي بين القدماء والمحدثين	جامعة المسيلة
13:30			الجزائر
13:30-	د. سليمان بن	مفهوم النصية بين عبد لقاها الجرجاني و(فان ديك)	جامعة غرداية
13:40	سمعون		الجزائر
13:40-	د. هامل شيخ	أثر المرجعية اللسانية في التأسيس للمقاربات النصية ، دراسة في التأصيل	جامعة عين
13:50		والبدايات	تيموشنت
			الجزائر
13:50-	د. بهية بلعربي	آليات التماسك النصي من خلال علوم القرآن، التفسير الكبير ومفاتيح	جامعة الجزائر
14:00		الغيب لفخر الدين الرازي	2

14:00-14:10	د. زوليخة حنطابلي	آليات التماسك النصي من منظور تأصيلي ، قراءة في جهود النقاد القدامى	جامعة المدية الجزائر
14:10-14:20	د كلثوم رحموني	التماسك النصي في المدونات العربية التراثية ، البرهان في علوم القرآن للزركشي أنموذجا	جامعة المدية
14:20-14:30	أ.د. عزيزين نوري صكر القيسي	التعالقات النصية في علاقة المقارنة	جامعة الأنبار العراق
14:30-14:40	د كريمة شبلي	بعض ملامح النصية عند الجاحظ	جامعة الجزائر2
14:4-14:50		فترة الفم _____ لقشة	
الورشة الثانية: (12:00-14:30 سا)		القاعة: المدرج (L2)	
الجلسة الأولى: (12:00-13:00)		رئيس الجلسة الأولى: د. علي حمودين	
12:00-12:10	د. علي حمودين	إفادة قصص الأطفال من المدونات التراثية	جامعة ورقلة الجزائر
12:10-12:20	د. فارس شاشة	دراسة التعالقات النصية في كتاب دمشق لابن عساكر باستخدام برمجية (nodexel)	جامعة سطيف الجزائر
12:20-12:30	د. بليدو حثليثة	قضايا النصية في الفكر البلاغي التراثي، عبد القاهر الجرجاني وحازم القرطاجني أنموذجا	جامعة أم البواقي الجزائر
12:30-12:40	د بوجاوي ناصر الدين	التأويلية الإسلامية والهبرمينوطيقا الغربية دراسة لمقولات التأويلية الأربعة [النص والقارئ والمؤلف].	المدرسة العليا بوزريعة الجزائر
12:40-12:50	د رشاد صالح	الاشتغال على النص في ظل الأنساق المتاحة، أبو عبيدة وكتابه مجاز القرآن	جامعة تونس
12:50-13:00	د. صباح غرايبية دمحمود بوسته	السبك والحبك النصي في كتاب نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام البقاعي	جامعة قسنطينة الجزائر
الجلسة الثانية: (13:00-14:00)		رئيس الجلسة الثانية: د. سليم حيولة	
13:00-13:10	د. حورية عميروش	آليات التماسك النصي عند علماء القرآن	جامعة الجزائر 2
13:10-13:20	د عيسى مروك	تراسل النصوص في حلية المحاضرة، لابن لمظفر الحاتمي	جامعة الجزائر2

جامعة الجزائر	آليات المساءلة النصية والتداولية في التراث البلاغي العربي القديم ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني أنموذجا.	د عبد الرشيد شادي	-13:20 13:30
جامعة تبسة الجزائر	النص اللغوي عند علماء الأصول	د. علية بيبة	-13:30 13:40
جامعة مستغانم الجزائر	معايير الدرس اللساني النصي في البلاغة المغاربية، كتاب ابن البناء العددي أنموذجا	د. حكيم بوغازي	-13:40 13:50
جامعة باتنة الجزائر	الدلالة القرآنية وثنائية اللفظ والمعنى في مدونات القرآن والتفسير	د سعاد رواج	-13:50 14:00

رئيس الجلسة الثالثة: د. محمد سرير

الجلسة الثالثة: (14:30-13:00)

جامعة البليدة الجزائر	المنطلقات النصية في التراث اللساني العربي	د عقيلة أرزقي	-14:00 14:10
جامعة المدية الجزائر	القصيدة ودورها في التحليل الإعرابي في كتاب سيبويه (باب التقديم والتأخير في الجملة)	د صليحة فيلاي	-14:10 14:20
جامعة تيسمسيلت الجزائر	ملاحج جماليات التلقي في المدونة النقدية العربية	د تلي سامية	-14:20 14:30
جامعة خنشلة الجزائر	قراضة الذهب لابن رشيق بين التناص والتلاص	د حلايمية دلال	.14:30 14:40
جامعة الجزائر2	تقصي أثر الاستلزام الحواري في مفتاح العلوم للسكاكي	د نعيمة زايدي	-14:40 14:50

-14:00

فترة المناقشة

14:30

اليوم الثاني: 28 فبراير 2019م

القاعة: قاعة الاجتماعات (صحورية عقيلة)

الورشة الأولى: (09:00-12:45 سا)

رئيس الجلسة الأولى: أ. د. حاكم عمارية

لجلسة الأولى: (10:00-09:00)

جامعة سعيدة الجزائر	نظرية النحو في ضوء التداولية والحجاج، كتاب سيبويه أنموذجا	أ. د. حاكم عمارية	-09:00 09:10
جامعة تيزي وزو الجزائر	ملاحج التفكير التداولي النحوي عند الأندلسيين أبو القاسم السهيلي أنموذجا	د سميرة زهية عثمان	-09:10 09:20
جامعة أم البواقي الجزائر	الامتدادات التداولية في المدونات التراثية عند الأصوليين وعلماء النحو، قراءة في موافقات الشاطبي وشرح الرضي لكافية ابن الحاجب	د. صابر كنوز	-09:20 09:30

جامعة بومرداس الجزائر	تناسق المعاني في النسق القرآني من خلال كتاب تناسق الدرر في تناسب السور للسيوطي	د لامية قداش	-09:30 09:40
جامعة البويرة الجزائر	من تجليات فاعلية المناسبة في مقارنة النص القرآني تفسير سورة الشمس في نظم الدرر للبقاعي	د وهيبة غاني	-09:40 09:50
جامعة الجلفة الجزائر	النظرية النقدية العربية في التراث آليات الإنتاج المعرفي والاستقصائي	د. كمال بن عطية	-09:50 10:00
الجلسة الثانية: (10:00-11:00) رئيس الجلسة الثانية : سعدودي الشاذلي			
جامعة سوق أهراس الجزائر	شروط الخطاب الإقناعي عند الجاحظ	د. سليمة محفوظي	-10:00 10:10
جامعة الأغواط الجزائر	البنية التركيبية للنسيج النصي بين التراث اللغوي العربي ولسانيات لنص، قرينة التضام أنموذجا	أ. طه الأمين بودانة	-10:10 10:20
جامعة المدية الجزائر	الصورة الحجاجية من منظور البلاغة العربية والبلاغة الجديدة	د. باية بووزة	-10:20 10:30
جامعة الجزائر	تمظهرات التناسق في الممارسة النقدية العربية	د سعاد أوقاس	-10:30 10:40
جامعة الجلفة الجزائر	الأبعاد النصية في التراث البلاغي العربي، عبد القاهر الجرجاني أنموذجا	د كريم مبروكي	-10:40 10:50
جامعة البليدة الجزائر 2	الاتساق كملح لسانيات النص في التراث العربي القديم	د مزهودي حنان	-10:50 12.00

الجلسة الثالثة: (11:00-12:45) رئيس الجلسة الثالثة : د. حورية مدان

جامعة المدية الجزائر	الحذف ودوره في تحقيق التماسك النصي، قراءة تأصيلية من خلال المعاني اللغوية المثبتة في دلائل الإعجاز للجرجاني	د . بوعيشاوي فايزة	-11:00 11:10
جامعة المدية الجزائر	التفكير الأسلوب في التراث العربي	د شريفة مختيش	-11:10 11:20
جامعة غرداية الجزائر	الممارسة النصية في كتاب ملاك التأويل لابن الزبير الغرناطي	د يوسف بن أودينة	-11:20 11:30
جامعة المدية الجزائر	الاتساق النصي في البرهان في علوم القرآن	د. سهام عماد	-11:40 11:50
جامعة الشلف الجزائر	مظاهر الاتساق والانسجام في قصيدة أراك عصي الدمع	د مكي خديجة	-11:50


			12:00
جامعة المدية	التماسك النصي في لامية العرب للشنفرى	د سارة بوطويل	-12:10
			12:20
جامعة البويرة الجزائر	التناسق الديني في شعر الممدوح لحسان بن ثابت نماذج مختارة	د حفصة العزاوي	-12:20
			12:30

فترة المناقشة 12.45/12.30

الورشة الثانية: (09:00-12:30 سا) القاعة: المدرج (L2)

الجلسة الأولى: (09:00-10:00)			
رئيس الجلسة الأولى: د. بن علي عبد السلام			
التوقيت	المحاضر	عنوان المداخلة	البلد
-09:00	د. زهرة عميري	دراسة ابستمية سياقية لمفهوم النسق في الخطاب الأصولي	جامعة الجزائر 2
09:10			
-09:10	د هشام يحيى	جذور وملاح التماسك النصي عند النقاد القدماء (عيار الشعر) لابن طباطبا أنموذجا	جامعة المدية الجزائر
09:20			
-09:20	د بوعيطه صبرينة	الضماني في كتاب البخلاء للجاحظ، مقارنة تداولية معرفية	جامعة تبسة الجزائر
09:30			
-09:30	د. ليلي قاسمي	جماليات التناسق الديني في ديوان (ترجمان الأشواق) لابن عربي	جامعة الجزائر 2
09:40			
-09:40	د. زوليخة يحيى	جذور التناسق في المدونة النقدية العربية التراثية، وصلته بالسرققات الأدبية-قراءة في مؤلف العمدة لابن رشيق القيرواني.	جامعة المدية الجزائر
09:50			
-09:50	د. سعيدة سعدودي	مظاهر التماسك النصي بين الدراسات اللسانية الحديثة والدراسات اللغوية العربية التراثية	جامعة بومرداس الجزائر
10:00			
الجلسة الثانية: (10:00-11:00)			
رئيسة الجلسة الثانية: د سهام دويقي			
التوقيت	المحاضر	عنوان المداخلة	البلد
-10:00	د. سهام دويقي	الفاصلة القرآنية وأثرها في تماسك النص القرآني من خلال المدونات اللغوية التراثية	جامعة المدية الجزائر
10:10			
-10:10	د. عقيلة لعشي	إرهاصات نحو النص في التراث العربي القديم	جامعة تيزي وزو الجزائر
10:20			
-10:20	د. سعاد نكاع	النص بين قصدية المؤلف والوعي بالمتلقي في التراث النقدي العربي	جامعة مستغانم الجزائر
10:30			
-10:30	د. هجيرة بوسكين	عتبات النص: النص الموازي بين التنظير النقدي الغربي والممارسة النصية التراثية العربية	جامعة خميس مليانة الجزائر
10:40			

جامعة البويرة الجزائر	الانسجام النصي بين التراث العربي والدرس الغربي الحديث	د. غنية لوصيف	-10:40 10:50
جامعة المدية الجزائر	معياري المقبولية في المدونات التراثية	د. راضية عزيزي	-10:50 11:00
الجلسة الثالثة: (11:00-12:00) رئيسة الجلسة الثالثة: د. عائشة جمعي			
جامعة المدية الجزائر	البلاغة العربية من التعليمية إلى التداولية، البلاغة والسياق	د. العشمي عائشة	-11:00 11:10
جامعة المدية الجزائر	التناص عند ابن رشيق في كتابه لعمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده	د. زهرة العيادي	-11:10 11:20
جامعة المدية الجزائر	المقامية بين الموروث البلاغي العربي واللسانيات التداولية	د. أم هاني رحمانى	-11:20 11:30
جامعة المدية الجزائر	تناسب الآيات والسور عند المفسرين، وعلاقته بالتماسك النصي من منظور لسانيات النص	د. فاطمة عويمر	-11:30 11:40
جامعة المدية الجزائر	نحو الجمل ودوره في التماسك النصي، نماذج من شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك	د. مريم قطيع	-11:40 11:50
جامعة المدية الجزائر	المقبولية في التراث النقدي والبلاغي عند الجاحظ، نماذج مختارة من كتاب البيان والتبيين	د. أسماء بن سليمان	/11.50 1200
	المنجز النقدي العربي المعاصر في التأصيل التراثي للمصطلح النقدي "التناص" أنموذجا	د. زهير طوارفية	/12.00 12.10
	12.30 / 12.10 فترة المناقشة		



قراءة توصيات المؤتمر توزيع الشهادات

اختتام أعمال الملتقى يرافقه الاختتام برنامج سياحي

